THE WITCHER

ANDRZEJ SAPKOWSKI

THE TOWER OF THE SWALLOW



برج السنونو

Ai Translator

الجزء 6

ترجمة غير رسمية

الويتشر

أندريه سابكوسكي

حول هذه الترجمة:

هذا الكتاب هو عملٌ خيالي، إن الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث هي من وحي خيال الكاتب أو تم استخدامها بشكلٍ خيالي، وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو أشخاص حقيقيين، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا، هو من قبيل الصدفة.

تم نشر هذا الكتاب في الأصل باللغة البولندية تحت عنوان **Sezon Burz**.

تمت الترجمة العربية بواسطة أدوات الذكاء الإصطناعي لذلك فالترجمة غير مطابقة للنص الأصلي.

تنويه وإخلاء مسؤولية:

هذه الترجمة غير رسمية وغير دقيقة ولاتطابق الرواية أو محتواها. وهي بغرض المراجعة والاطلاع فقط.

لذلك لاتغني عن امتلاك النسخة الأصلية أو ترجمتها الرسمية عند توفرها بالمكتبات العربية علماً أنه لاتوجد ترجمة عربية رسمية حتى الآن.

إن القيام باستخدام شبه الترجمة هذه بخلاف أغراض المراجعة والاطلاع قبل الشراء هي أمانة تقع على عاتق وتحت مسؤولية أصحابها فقط.

نأمل المبادرة بشراء النسخة الأصلية أو ترجمتها الرسمية عند توفرها دعماً للمؤلف وأصحاب الحقوق.

Ai Translator

قالت الجنية: "يمكنني أن أمنحك كل ما ترغب به: الثروة، التاج والصولجان، الشهرة، حياة طويلة وسعيدة. اختر".

أجاب الويتشر: "لا أرغب في ثروة أو شهرة، ولا في تاج أو صولجان. أريد حصانًا أسود كسواد الليل، سريعًا كالريح. وأريد سيفًا حادًا، ساطعًا كأشعة القمر. أريد أن أركب تحت جنح الظلام على حصاني الأسود، وأن أهزم قوى الشر بسيفي المتألق. هذا كل ما أرغب به".

وعدته الجنية: "سأمنحك حصانًا سيكون أشد ظلمة من الليل، وأسرع من الريح. سأمنحك سيفًا سيكون أشد حدة، وأكثر سطوعًا من ضوء القمر. لكن هذا القليل الذي تطلبه، أيها الويتشر، ستدفع ثمنه غاليًا".

"بماذا؟ في الحقيقة لا أملك شيئًا".

قالت الجنية: "بدمك".

فلورنس ديلانو، حكايات وأساطير.

الفصل الأول

كان من المعروف أن الكون، كما هي الحياة، يدور في دائرة.

وعلى حافة هذه الدائرة، تتوزع ثماني نقاط سحرية، متقابلة في أزواج تمامًا، تشكل دورة كاملة، هي الدورة السنوية. هذه النقاط، الممتدة على حافة الدائرة في أزواج متقابلة، هي: "إمبالك" وتعني الإنبات، "لاماس" وتعني النضج، "بيلتين" وتعني الإزهار، و"ساوفين" وتعني الذبول. كما تُميز حافة الدائرة بنقطتين أخريين هما الانقلابان—الشتوي "ميدينفارني" والصيفي "ميدايته". وكذلك الاعتدالان—الربيعي "بيركي" والخريفي "فيلين". هذه التواريخ تقسم الدائرة إلى ثمانية أجزاء، وهكذا قُسمت السنة وفق التقويم الإلفي.

عندما وصل البشر إلى مصب نهر الياروغا ودلتا البونتار، جلبوا معهم تقويمهم القمري الخاص، الذي قسم السنة إلى اثني عشر شهرًا تغطي الدورة السنوية الكاملة للأعمال الزراعية، من بداية يناير إلى نهايته، عندما يجمد الصقيع الأرض ويحيلها إلى كتلة صلبة. لكن رغم أن البشر قسموا السنة وحسبوا التواريخ بطريقة مختلفة، فقد قبلوا دائرة الإلفين ونقاطها الثمانية: إمبالك، لاماس، بيلتين، ساوفين، إضافة إلى الانقلابين والاعتدالين، وأصبحت هذه التواريخ أعيادًا مقدسة لديهم، بارزة بين بقية الأيام كالشجرة الوحيدة في مرج فسيح.

هذه التواريخ تختلف عن غيرها بالسحر.

لم يكن سرًا أن الهالات السحرية تتكثف بشكل كبير خلال هذه الليالي الثمانية. لم يكن أحد يتفاجأ بهذه الظواهر السحرية أو الأحداث الغامضة التي ترافق هذه التواريخ، خاصة الاعتدالات والانقلابات. اعتاد الجميع على هذه الظواهر، ولم تعد تثير ضجة كبيرة.

لكن هذا العام كان مختلفًا.

هذا العام، وكما هي العادة حين يجتمع البشر للاحتفال بعشاء الاعتدال الخريفي، حيث تمتلئ المائدة بأكبر عدد ممكن من ثمار الحصاد السنوي، ولكن بكميات قليلة من كل نوع—كما يفرض التقليد. وما إن انتهوا من تحضير العشاء، وشكروا الإلهة ميليتيلي على محصول العام، حتى استعدوا للراحة.

وحينها بدأ الرعب.

قبل منتصف الليل بقليل، اندلعت عاصفة رهيبة.

هبت الرياح بعنف جهنمي، مصدرةً أصوات تحطم الأغصان، وصرير عوارض الأسقف، وارتطام النوافذ، بينما تعالت وسط العاصفة صرخاتٌ مخيفة، عواءٌ وأصوات نواح. حتى الغيوم تلاعبت بأشكال غريبة، وأكثرها تكرارًا كانت ظلال الخيول الجامحة ووحيد القرن، وكأنها تسابق الريح في السماء.

ثم، فجأة، بعد ساعة تقريبًا، هدأت الرياح تمامًا. لكن الصمت لم يحل، إذ امتلأت الليلة فجأة بأصوات تغريدٍ ورفرفة أجنحة مئات من طيور "النايتجار" الغامضة، تلك الطيور التي يُقال في المعتقدات الشعبية إنها تحلق حول من يحتضر، وتنشد أغنيتها الجنائزية الحزينة.

في هذه الليلة، كان نواح "النايتجار" كثيفًا وصاخبًا لدرجة أن العالم كله بدا وكأنه يحتضر.

واصلت الطيور أغنيتها البرية للموتى، بينما كانت الغيوم في الأفق تخفي آخر بقايا ضوء القمر.

ثم، فجأة، دوى في الأجواء العواء المرعب لـ"البانشي"، نذير الموت العنيف والمفاجئ، وعبر السماء انطلقت "المطاردة البرية" موكبٌ من الأشباح بعيونٍ ملتهبة، يمتطون خيولًا عظمية، وأسمالهم الممزقة تتطاير حولهم كالأعلام.

من حينٍ إلى آخر، كانت "المطاردة البرية" تحصد أرواحًا، لكنها لم تكن بهذه الوحشية منذ عقود. في نوفيغراد وحدها، تم الإبلاغ عن أكثر من عشرين شخصًا اختفوا بلا أثر.

وعندما تفرقت المطاردة وانقشعت الغيوم، عادت الأعين البشرية لترى القمر من جديد. وكما هو معتاد خلال الاعتدال، كان في طور التناقص. لكن هذه الليلة... كان بلون الدم.

كان لدى عامة الناس تفسيراتهم الخاصة لهذه الظواهر الاعتدالية، وقد اختلفت تفسيراتهم بشكلٍ كبير وفقًا للأساطير الشيطانية في مناطقهم. حتى المنجمون والدرويدات والسحرة قدموا تفسيراتهم، لكن معظمها كان خاطئًا أو مبالغًا فيه.

قلة قليلة جدًا من الأشخاص تمكنوا من ربط هذه الظواهر بوقائع حقيقية.

فعلى جزر سكيلجا، اعتقد بعض المتدينين بالخرافات أن ما حدث كان نذيرًا بنهاية العالم وفقًا لنبوءات "تيد ديريث"، تلك النهاية التي تسبقها معركة "راغ نار روغ"، المواجهة النهائية بين قوى النور والظلام.

كانوا يؤمنون أن العاصفة العنيفة في ليلة الاعتدال الخريفي، والموجات التي ضربت الجزر بعنف، لم تكن سوى نتيجةٍ لتحرك القوس الوحشي لسفينة "ناجلفار"، القادمة من "مورهوغ"، تقود جيشًا من الأشباح والشياطين، وتبحر في سفينةٍ صُنعت من أظافر أصابع وأقدام الموتى.

أما الأكثر حكمةً والأفضل اطلاعًا، فقد ربطوا هذه الكارثة بالساحرة المشهورة "ينيفر" وموتها المروع.

لكن آخرين — أكثر معرفةً حتى منهم — رأوا في العاصفة البحرية إشارة إلى أن شخصًا ما يحتضر، شخصًا يجري في عروقه دم ملوك سكيلجا وسينترا.

منذ بداية الزمن، كانت ليلة الاعتدال الخريفي دائمًا ليلة للأشباح، والكوابيس، والظهورات المفاجئة، والاستيقاظ المفاجئ في ظلمة الليل، مع أنفاس مقطوعة ونبضات قلب متسارعة، وسط أغطية متشابكة وموحلة بالعرق.

لم تسلم حتى أكثر العقول وضوحًا من هذه الظهورات واليقظات المفاجئة. في نيلفغارد، في أبراج الذهب، استيقظ الإمبراطور إمير ڤار إمريس صارخًا من نومه. في الشمال البعيد، في لان إكسيتر، قفز الملك إيستيراد ثيسين من فراشه، موقظًا زوجته، الملكة زوليبكا. في تريتوغور، استيقظ ديكسترا ومدّ يده إلى خنجره، موقظًا زوجة وزير الخزانة. في قصر مونتكالفو، انتفضت فيليبا إيلهارت من بين أغطية الساتان دون أن توقظ زوجة الكونت دي نواي.

استيقظوا — بعضهم بحدة، وبعضهم باضطراب — القزم ياربن زيغرين في ماهكام، الويتشر العجوز ڤيسيمير في قلعة كاير مورهن الجبلية، المتدرب المصرفي فابيو ساكس في مدينة غورز ڤيلين، وكراش أن كرايت على متن السفينة "رينغهورن". استيقظت الساحرة فرينجيلا ڤيغو في قلعة بوكلير، والكاهنة سيغردريفا في معبد الإلهة فريا على جزيرة هيندارسفيال. استيقظ دانييل إتشيفيري، إيرل جارامون، في القلعة المحاصرة ماربور، والعريف زيفيك من كتيبة دون، في حصن بان غلين. استيقظ رجل الأعمال دومينيك بومباستوس هوفيناغيل في مدينة كليرمون، والعديد غيرهم.

قلة فقط تمكنوا من ربط هذه الظواهر بأحداث واقعية. وبشخص معين.

وبمحض الصدفة، كان ثلاثة من هؤلاء الأشخاص يقضون ليلة الاعتدال الخريفي تحت سقف واحد. في معبد الإلهة ميليتيلي في إللاندر.

"طيور النايتجار..." تمتم الكاتب الشاب ياري، وهو يراقب الظلام الذي غمر المنتزه داخل الملاذ. "أعتقد أن هناك الآلاف منها، سربٌ كامل... إنها تصرخ من أجل موت أحدهم... من أجل موتها... إنها تموت..."

استدارت تريس ميريغولد نحوه بحدة، رفعت قبضتها، ولحظة بدا أنها ستدفعه أو تضربه في صدره.

"هل تؤمن بالخرافات السخيفة؟ انتهى شهر سبتمبر، الطيور تتجمع للهجرة. هذا أمر طبيعي تمامًا!"

لكن ياري، بصوت منخفض مرتعش، واصل همسه: "إنها تموت..."

"لا أحد يموت!" صرخت الساحرة، شاحبة من الغضب. "لا أحد، هل تفهم؟ كفّ عن هذا الهراء!"

في قاعة المكتبة، استيقظت المبتدئات على هذا الإنذار الطبيعي. وجوههن كانت شاحبة وجادة.

أخذت تريس نفسًا عميقًا، ثم وضعت يدها على كتف الفتى، وضغطت عليه برفق قائلة: "ياري، أنت الرجل الوحيد في المعبد. الجميع ينظر إليك، ينتظرون منك أن تكون قويًا. يجب ألا تخاف، لا تترك الذعر يسيطر عليك. تماسَك. لا تخذلنا."

زفر ياري، وبجهد واضح، حاول كبح ارتجاف يديه وشفتيه.

همس جار، متجنبًا نظرات الساحرة: "أنا لست خائفًا... هذا ليس خوفًا، بل قلق. عليها. لقد رأيتها في حلم..."

زمّت تريس شفتيها، وقالت: "أنا أيضًا رأيتها. نحن، أنت، أنا، ونيينيكي، حلمنا بنفس الشيء. لكن لا كلمة أخرى عن هذا."

قال جار بصوت مرتعش: "الدم على وجهها... الكثير من الدم..."

قالت تريس بحدة: "طلبت منك أن تصمت. نيينيكي قادمة."

اقتربت الكاهنة الكبرى منهما. كان التعب جليًا على وجهها. عند سؤال تريس الصامت، هزت رأسها نفيًا. وعندما لاحظت أن جار على وشك التحدث، سارعت بالكلام.

"للأسف، لا شيء. عندما مرت "المطاردة البرية" فوق الحرم، أيقظت الجميع تقريبًا، لكن لم يرَ أحد أي رؤى. حتى الرؤى المبهمة التي لدينا لم يشاركها أحد. اذهب إلى النوم، أيها الفتى، لا يوجد ما يمكنك فعله هنا. الفتيات، عدن إلى النوم في المهاجع!"

مررت يديها على وجهها بتعب.

"ههه... الاعتدال! ليلة ملعونة... اذهبي إلى النوم، تريس. لا يمكننا فعل شيء."

قبضت الساحرة على يديها بشدة، وقالت بمرارة: "هذا العجز يقتلني. مجرد التفكير في أنها تتألم، تنزف، مهددة بالخطر... اللعنة، لو كنت أعلم ما يمكنني فعله!"

استدارت نيينيكي، الكاهنة الكبرى لمعبد ميليتيلي، ونظرت إليها.

"وهل جربتِ الصلاة؟"

* * *

في الجنوب، بعيدًا خلف جبال أميل، في إيبينج، في البلاد المعروفة باسم بيربلوت، وسط المستنقعات الشاسعة التي تشكلت عند تقاطع أنهار فيلدا، وليتي، وأريت، في مكان يبعد حوالي ثمانمائة ميل، لو حلّقت إليه الغربان، عن مدينة إللاندر ومعبد ميليتيلي، استيقظ ناسكٌ عجوز يدعى فيسجوتا فجأة عند الفجر، مذعورًا من كابوس.

لكن، بمجرد أن استيقظ، لم يستطع فيسجوتا تذكّر أي شيء من تفاصيل الحلم. ومع ذلك، ظل شعورٌ غريبٌ بالقلق يلازمه، مانعًا إياه من العودة إلى النوم.

* * *

"برد، برد، بررر"، تمتم فيسجوتا لنفسه وهو يشق طريقه عبر الأدغال. "برد، برد، برد، بررر."

كانت الفخاخ التالية فارغة. لا أثر لفأر المسك. يوم كامل من الصيد بلا حظ. نظّف فيسجوتا الطين والطحالب التي غطّت الفخ، وهو يهمهم بلعنات خافتة، وينفث أنفه.

قال، وهو يسير باتجاه المستنقع: "ههه، إنه الشتاء. ونحن لم نصل حتى إلى نهاية سبتمبر. بالكاد مرّت أربعة أيام فقط منذ الاعتدال. لا أذكر بردًا كهذا في مثل هذا الوقت من السنة طوال حياتي. وقد عشت طويلًا!"

كان الفخ الأخير، آخر أمل له في الصيد، فارغًا أيضًا. لم يكن لديه حتى رغبة في اللعن.

تأمل العجوز قائلًا: "لا شك أن المناخ، عامًا بعد عام، يزداد برودة. والآن يبدو أن هذا التبريد يتسارع كجرفٍ جليدي متداعٍ. ها، لقد تنبأ الإلفيون بذلك منذ زمنٍ بعيد، لكن من يصدق نبوءات الإلفيين؟"

رفرفت الأجنحة فوق رأسه، وبدأت ظلالٌ داكنة تلوح في الهواء. اهتزّ الضباب فوق المستنقعات بصراخ مفاجئ لطائر النايتجار، مصحوبًا برفرفة سريعة لأجنحته. لكن فيسجوتا لم يعرهم انتباهًا. لم يكن رجلاً يؤمن بالخرافات، وكان هناك دائمًا الكثير من طيور النايتجار في المستنقع، خاصة عند الفجر، تحلق قريبةً منه لدرجة أنه كان يتعجب كيف لا تصطدم برأسه. حسنًا، ربما لم يكن هناك بهذا العدد من قبل، ولم تكن أصواتهم بهذا النحيب الكئيب...

ومع ذلك، في الآونة الأخيرة، بدا أن الطبيعة نفسها أصبحت أكثر اضطرابًا، وأن الظواهر الغريبة باتت تتوالى واحدة تلو الأخرى، كل واحدة أكثر غرابة من سابقتها.

كان يسحب آخر فخ من الماء، فارغًا كغيره، عندما سمع صوت صهيل حصان.

توقفت أصوات طيور النايتجار كما لو كانت قد تلقت أمرًا صامتًا.

حتى في مستنقعات بيربلوت، كانت هناك غابات جافة مرتفعة، حيث امتدت التلال المغطاة بأشجار البتولا السوداء، والألدر، والكرنيجو، والزعرور الأسود. كانت معظم هذه البساتين محاطة بالمستنقعات، مما جعل الوصول إليها مستحيلاً لأي حصان أو فارس لا يعرف الطريق.

ومع ذلك، جاء الصهيل — سمعه فيسجوتا مرة أخرى — بالتحديد من إحدى تلك الغابات.

غلبه الفضول على الحذر.

لم يكن فيسجوتا خبيرًا في الخيول وسلالاتها، لكنه كان ذو حسٍ جمالي، وكان يعرف كيف يميز الجمال ويقدّره. وكانت شعيرات الحصان تلمع كالفحم الأنثراسيتي[1]، تقف بوضوح أمام جذوع أشجار البتولا، وكان المشهد مذهلًا. كان تجسيدًا نقيًا للجمال الحقيقي. كان جميلاً لدرجة بدا فيها غير واقعي.

[1] الفحم الأنثراسيتي (Anthracite): هو أحد أنواع الفحم الحجري، ويُعرف بلونه الأسود اللامع وكثافته العالية.

لكنّه كان حقيقيًا. وكان حقيقيًا أيضًا في الطريقة التي كان فيها محاصرًا، متشابكًا بحزام اللجام وملفوفًا بالأغصان الدامية لشجرة الكرنيجو.

عندما اقترب فيسجوتا، انتصبت أذنا الحصان، وهزّ رأسه برشاقة، استدار وضرب الأرض بحافريه حتى اهتزت التربة. والآن، استطاع أن يرى أن الحيوان كان فرسًا أسود.

ثم رأى العجوز شيئًا آخر. شيئًا جعل قلبه يتسارع بجنون، وأصابعًا غير مرئية تطبق على حلقه.

خلف الحصان، في خندق ضحل، كان هناك جثة.

ألقى فيسجوتا حقيبته على الأرض. خجل من حقيقة أن أول فكرة خطرت بباله كانت أن يستدير ويهرب. لكنه اقترب بحذر، لأن الفرس السوداء راحت تضرب الأرض وتعض على لجامها، كما لو كانت تنتظر الفرصة المناسبة لعضه أو ركله.

كانت الجثة لشابٍ مراهق ميت.

كان مستلقيًا على وجهه على الأرض، إحدى ذراعيه مطوية ومضغوطة إلى جانبه، بينما الأخرى ممدودة إلى الجانب، وأصابعه مغروسة في التراب. كان يرتدي سترة من جلد الغزال، وسروالًا جلديًا ضيقًا، وجزمًا إلفية بأبازيم تصل حتى ركبتيه.

انحنى فيسجوتا نحوه، وفي تلك اللحظة، صدر عن الجثة أنينٌ عميق.

صهيلٌ حادٌ انطلق من الفرس الرمادية، وضربت الأرض بحوافرها بقوة.

جثا الناسك على ركبتيه، ثم بحذرٍ، قلب الجسد المصاب.

بشكل غريزي، تراجع برأسه، وأصدر صوت هسهسة عندما رأى المشهد المرعب أمامه—وجهٌ كان عبارة عن قناعٍ مريع من الأوساخ والدم المتخثر.

بحذر، مسح الطحالب والأوراق والرمال التي غطّت الشفتين المغطاة بالمخاط واللعاب، وحاول إزالة تشابك الشعر الملتصق بالخد بفعل الدم الجاف.

أصدر الجريح أنينًا خافتًا، شدّ جسده، ثم بدأ يرتجف.

أبعد فيسجوتا الشعر عن الوجه.

تمتم بصوتٍ عالٍ، غير مصدق لما يراه: "إنها فتاة."

* * *

لو أن أحدًا، عند حلول الظلام في الليلة التالية، تسلل إلى الكوخ العميق وسط المستنقع ونظر عبر شقوق النوافذ المغلقة، لرأى في ضوء المصباح الزيتي المرتعش جسدًا نحيفًا، رأسه ملفوف بالضمادات، مستلقيًا بلا حراك، بالكاد حيًا، مغطى ببطانية من الفرو.

لرأى أيضًا رجلًا عجوزًا، بلحية بيضاء طويلة، وشعرٍ أبيض يتدلى من أطراف رأسه الأصلع حتى كتفيه.

لرآه جالسًا في ضوء شمعة، وعلى الطاولة أمامه ساعة رملية، ورآه يشحذ قلمه بينما ينحني فوق ورقة من الرق. كان يراقب الفتاة الجريحة بانتباه، يتحدث إلى نفسه بصوتٍ خافت.

لكن لم يكن هناك أحد ليرى شيئًا.

فذلك الكوخ، ذو السقف المغطى بالطحالب، كان غارقًا في الضباب، منسيًا وسط المستنقعات، في مكانٍ لا يجرؤ أحدٌ على دخوله.

* * *

غمس فيسجوتا قلمه في الحبر وقال بصوتٍ هادئ، مسجّلًا ملاحظاته:

"أدوّن ما يلي: لقد مرّت الآن ثلاث ساعات منذ إجراء العملية. التشخيص—جرحٌ قاطِع، إصابةٌ مُمزقة ناجمةٌ عن قوةٍ كبيرة بواسطة أداة غير معروفة، يُرجَّح أن تكون شفرةً منحنية. يبدأ الجرح تحت محجر العين في الخد الأيسر، ويمتد عبر المنطقة الصدغية حتى يصل إلى الأذن. أعمق نقطة في الجرح، التي تصل إلى السمحاق، تقع أسفل محجر العين. التقدير الزمني بين لحظة الإصابة وأول معالجة لها: عشر ساعات."

أصدر القلم صريرًا خفيفًا وهو يخط الكلمات على الرق، لكنه لم يستمر لأكثر من بضعة أسطر. بدا أن فيسجوتا لا يعتبر كل ما يقوله لنفسه جديرًا بالتسجيل.

واصل حديثه، وعيناه مثبتتان على الشعلة المتراقصة لشمعته الدهنية:

"بالعودة إلى علاج الجرح، أكتب التالي. لم أقم بقطع حواف الإصابة، بل اكتفيت بإزالة بعض الأنسجة الممزقة التي لم تكن تنزف بعد، أو التي بدأت تتخثر بطبيعتها. قمتُ بتطهير الجرح

بمستخلص لحاء الصفصاف. أزلتُ الأوساخ والجسيمات الغريبة. ثم قمتُ بخياطته بخيطٍ من القنب، لأن أنواع الخيوط الأخرى غير متوفرة لدي. وأخيرًا، وضعت كمادةً من زهرة الأرنيكا الجبلية وضمّدت الجرح بشاشٍ طبي."

مرّ فأرٌ سريعًا عبر منتصف الغرفة. التقط فيسجوتا قطعة خبز ورماها له.

على الفراش، كانت الفتاة الجريحة تتنفس بصعوبة، وأطلقت أنينًا خافتًا في نومها.

* * *

"لقد مرت ثماني ساعات منذ العملية. حالة المريضة—لا تغيير. أما حالة الطبيب... أي حالتي، فهي أفضل، إذ تمكنت من إصلاح وضعي بقليلٍ من النوم... يمكنني الآن متابعة الملاحظات. لذا، من المناسب أن أدوّن في هذه الصفحات بعض المعلومات عن مريضتي. من أجل الأجيال القادمة. في حال تمكنت أي أجيالٍ مستقبلية من الوصول إلى هذه المستنقعات قبل أن تتحول هذه الكتابات إلى رمادٍ أو تتعفن في النسيان."

تنهد بعمق، غمس قلمه في الحبر، ثم مسحه على حافة المحبرة.

تمتم وهو يكتب:

"أما عن المريضة، فليسجل ما يلي. يبدو أنها تبلغ من العمر حوالي ستة عشر عامًا، طويلة القامة، بنيتها نحيفة إلى حد ما، لكنها ليست ضعيفة، ولا تظهر عليها علامات سوء التغذية. تكوينها العضلي والجسدي أقرب إلى شابٍ إلفي، لكني لم ألاحظ أي علامات واضحة على الاختلاط العرقي... حتى ولو بنسبةٍ طفيفة. فمن المعروف أن نسبة منخفضة من الدم الإلفي قد لا تترك أي أثر ظاهر."

عندها فقط أدرك فيسجوتا أنه لم يكتب حرفًا واحدًا على الورقة، لا سطرًا ولا حتى رمزًا واحدًا. ثبت قلمه على الورقة، لكنه وجد أن الحبر قد جف. لم يعر الأمر اهتمامًا.

تابع بصوتٍ خافت:

"يُسجل أيضًا، أنها لم تنجب قط. ولا توجد على جسدها أي علامات قديمة ناتجة عن إصابات أو حوادث سابقة، ولا ندوب أو آثار حياةٍ شاقة أو محفوفة بالمخاطر. أشدد هنا على أنني أتحدث عن العلامات القديمة. أما العلامات الحديثة، فهي تملأ جسدها. لقد تعرضت للضرب. ضربًا مبرحًا، وليس على يد والدها. على الأرجح، تم ركلها أيضًا."

توقف لبرهة، ثم أضاف بنبرة أكثر تحفظًا:

"وجدت على جسدها علامة غريبة نوعًا ما... هممم، هذا يُكتب لأغراضٍ علمية بحتة... عند العانة، قرب نتوء العظم العاني، لديها وشمٌ لوردةٍ حمراء."

تأمل رأس قلمه الحاد، ثم غمسه في الحبر مجددًا. لكن هذه المرة، لم ينسَ السبب الذي من أجله قام بذلك—بل بدأ بملء الصفحة بخطوطٍ متناسقة من الكتابة المائلة. استمر بالكتابة حتى جف الحبر مرة أخرى.

قال وهو يواصل التدوين:

"في حالة شبه واعية، كانت تصرخ وتتكلم. لهجتها وأسلوب تعبيرها، باستثناء الكم الهائل من العبارات المليئة باللهجة السوقية التي يستخدمها المجرمون، تثير قدرًا كبيرًا من الحيرة، وكان من الصعب تحديد مصدرها. لكنني أجرؤ على القول إنها جاءت من الشمال وليس الجنوب. بعض كلماتها..."

أصدر القلم صريرًا مرة أخرى. لفترة وجيزة، أقصر بكثير مما كان يلزم لتسجيل كل ما قاله قبل لحظات. ثم تابع حديثه مع نفسه، تمامًا من حيث توقف.

"بعض الكلمات، الأسماء، والألقاب التي نطقتها في هذيانها، من الأفضل عدم كتابتها. لكن الأمر يستحق التحقيق. كل المؤشرات تدل على أن شخصًا غير عادي للغاية قد شق طريقه إلى كوخ العجوز فيسجوتا..."

صمت للحظة، منصتًا.

ثم تمتم بصوت منخفض: "آمل فقط ألا يكون كوخ العجوز فيسجوتا هو نهاية طريقها."

* * *

انحنى فيسجوتا فوق الرق، وحتى استند على القلم، لكنه لم يكتب شيئًا، ولا حتى رمزًا واحدًا.

ألقى القلم على الطاولة، زفر بغضب، تمتم بامتعاض، ثم شخر بضيق.

نظر إلى السرير، وأصغى إلى الصوت الصادر من هناك.

قال بصوتٍ متعب:

"عليّ الاعتراف أن مخاوفي كانت في محلها. كل جهودي قد تكون غير كافية وغير فعالة. مريضتي في حالة سيئة للغاية، والحمى مرتفعة. الجرح مصابٌ بعدوى. لقد ظهرت ثلاثة من الأعراض الأربعة الرئيسية للالتهاب الحاد—الاحمرار، الحرارة، والتورم، يمكن ملاحظتها بوضوح الآن بالعين واللمس. وعندما يمر تأثير الصدمة بعد العملية، لا شك أن العرض الرابع سيظهر—الألم."

توقف للحظة، ثم واصل تسجيل ملاحظاته بصوت هادئ لكنه مثقل بالتعب:

"ليُكتب أنني منذ ما يقارب نصف قرن كرست نفسي لممارسة الطب، لكنني أرى كيف تثقل السنوات ذاكرتي، وتضعف خفة أصابعي. لا يمكنني فعل الكثير، بل بالكاد يمكنني فعل أي شيء. ليس لدي ما يكفي من العلاجات أو الأدوية. كل أملي الآن معلقٌ على آليات الدفاع الطبيعي في جسدٍ شاب..."

* * *

"اثنتا عشرة ساعة بعد العملية. كما هو متوقع، ظهر العرض الرابع الرئيسي للالتهاب—الألم. المريضة تصرخ من شدة الألم، الحمى تتصاعد، والارتجاف يزداد سوءًا. لا أملك شيئًا أقدمه لها، لا دواء لتخفيف معاناتها. لدي كمية صغيرة من إكسير الداتورا، لكنها ضعيفة جدًا لتحمل تأثيره. لدي أيضًا بعض "أكونيت"، لكنه سيقتلها فورًا."

* * *

"خمس عشرة ساعة بعد العملية. الفجر يقترب. المريضة فاقدة الوعي. الحمى لا تزال ترتفع، والارتجاف يزداد سوءًا. بالإضافة إلى ذلك، ظهرت تقلصات حادة في عضلات الوجه. إن كان كزازًا، فهي في عداد الأموات. لكن لعلها مجرد إصابة في العصب الوجهي... أو العصب الثلاثي التوائم... أو كليهما. ستصاب بتشوه... لكن على الأقل ستبقى على قيد الحياة..."

نظر فيسجوتا إلى الرق، ولم يجد عليه أي حرف، لم يسجل أي شيء.

تمتم بصوتٍ خافت، مليء بالإرهاق: "بشرط... أن تنجو من العدوى."

* * *

"عشرون ساعة بعد العملية. الحمى ما زالت تشتد. حالة المريضة حرجة. الاحمرار، الحرارة، التورم، والألم، يبدو لي أنها لم تصل بعد إلى ذروتها. لكنها لن تعيش حتى تصل إلى تلك الحدود. لذا، أكتب...

أنا، فيسجوتا من كورفو، لا أؤمن بوجود الآلهة. لكن إن كانوا موجودين، فأرجو أن يحموا هذه الفتاة. وأن يغفروا لي ما فعلت... إن كنت قد أخطأت فيما قمت به."

أسقط قلمه، فرك عينيه المتورمتين، المتقرحتين من الإرهاق، ثم أسند يديه إلى صدغيه.

قال بصوتٍ خافت، بالكاد مسموع: "أعطيتها خليطًا من "الأكونيت" و"الداتورا". الساعات القادمة ستقرر كل شيء."

* * *

لم يكن نائمًا، بل كان يغفو فقط عندما أيقظه صرخة.

كانت أشبه بصرخة غضب أكثر منها صرخة ألم.

في الخارج، تسللت خيوط الفجر الخافتة عبر شقوق النوافذ المغلقة. توقفت الرمال في الساعة الرملية عن السقوط منذ وقت طويل. وكعادته، نسي فيسجوتا قلبها. انطفأت فتيلة الشمعة، ولم يكن هناك سوى التوهج القرمزي للموقد، الذي بالكاد أضاء زاوية الغرفة.

نهض العجوز، ودفع الستارة التي تفصل السرير عن باقي الغرفة جانبًا، ليطمئن على المريضة.

كانت قد سقطت على الأرض قبل لحظات، لكنها كانت الآن تنهض، جالسةً على حافة السرير، تحاول حك وجهها تحت الضمادات.

سعل فيسجوتا وقال:

"أطلب منكِ ألا تنهضي. لا تزالين ضعيفة. إذا احتجتِ إلى شيء، ناديني. أنا دائمًا بالقرب."

قالت بصوت هادئ، لكنه واضح تمامًا:

"حسنًا، لا أريدك أن تكون بالقرب. أريد أن أتبول."

عندما عاد ليأخذ الوعاء، وجدها مستلقية على ظهرها على السرير، تمرر أصابعها على الضمادة التي تغطي خدها، والتي كانت مثبتة على جبهتها ورقبتها بشريطٍ طبي.

عندما عاد بعد قليل، وجدها في نفس الوضعية.

سألت، وهي تحدق في السقف:

"أربعة أيام؟"

"خمسة. مضى يومٌ تقريبًا منذ آخر مرة تحدثنا فيها. لقد نمتِ طوال اليوم. وهذا أمرٌ جيد. النوم ضروري لكِ."

"أشعر بتحسن."

"يسرني سماع ذلك. لنقم بإزالة الضمادة الآن. أمسكي بيدي، سأساعدكِ على الجلوس."

التأم الجرح بشكل جيد؛ كان جافًا ولم يعد يؤلمها عندما أزال الضمادة.

لمست خدها برفق، ثم تقلصت ملامحها. عرف فيسجوتا أن ذلك لم يكن بسبب الألم، بل بسبب الإدراك المتجدد لحجم إصابتها. كانت تتأكد—برعب—أن ما شعرت به من قبل لم يكن مجرد كابوسٍ محموم.

"هل لديك مرآة؟"

"لا." كذب دون تردد.

نظرت إليه، ربما للمرة الأولى بوعيٍ كامل.

"هل هذا يعني أن الأمر سيئٌ جدًا؟" سألت، وهي تمرر أصابعها برفق فوق الغرز.

تلعثم فيسجوتا، منزعجًا من نفسه لأنه شعر بالحاجة إلى شرح الأمر وتبريره لمجرد فتاةٍ صغيرة:

"إنه... إنه جرحٌ طويلٌ وعميق. لا يزال وجهك متورمًا جدًا. خلال بضعة أيام، سأزيل الغرز. حتى ذلك الحين، سأضع مستخلص لحاء الصفصاف عليه. لم يعد هناك حاجة لربط رأسك بالكامل. الجرح يلتئم بشكلٍ جيد."

لم تجب. حركت شفتيها وفكها، وبدأت تحرك وجهها، تختبر حدود إصابتها، محاولة معرفة ما تستطيع فعله وما لا تستطيع.

قال فيسجوتا: "لقد أعددت حساء الدجاج. تناولي بعضه."

قالت بحدة، دون أن تنظر إليه: "سأتناول الطعام. لكن هذه المرة بنفسي. لا أريد أن يُطعمَني أحد وكأنني معاقة."

استغرقت وقتًا طويلًا في الأكل. كانت ترفع الملعقة الخشبية إلى فمها بحذر، وبمجهودٍ بدا وكأن الملعقة تزن ما لا يقل عن رطلين. لكن، رغم ذلك، فعلتها وحدها، دون مساعدة.

جلس فيسجوتا يراقبها باهتمام. كان فضوله يزداد، وكان يحترق لمعرفة قصتها. كان يعلم أنه مع تعافيها، ستبدأ الكلمات في التدفق، وقد تكشف له كيف ظهرت هذه الفتاة الغامضة فجأة في قلب المستنقعات. كان يعلم ذلك... ولم يكن بوسعه الانتظار.

لقد قضى وقتًا طويلًا جدًا في العيش وحيدًا في البرية.

أنهت طعامها، ثم تمددت على الوسائد. للحظة، حدقت في السقف وكأنها جثة هامدة، ثم أدارت رأسها.

تأمل فيسجوتا عينيها الخضراوين المذهلتين، مفكرًا مجددًا كيف تمنحان وجهها مظهرًا طفوليًا بريئًا، حتى مع الجرح البشع الذي شَوّه خدها.

كان يعرف هذا النوع من الجمال—العينان الواسعتان لطفلةٍ أبدية، مظهرٌ يثير تعاطفًا غريزيًا. فتاةٌ أبدية، حتى عندما تبلغ العشرين، وحتى عندما يتلاشى ذكرها بعد الثلاثين. نعم، كان فيسجوتا على درايةٍ بهذا الجمال. كانت زوجته الثانية كذلك. وكذلك ابنته.

قالت الفتاة فجأة، دون مقدمات: "عليّ أن أغادر هذا المكان. وبسرعة. إنهم يطاردونني. أنت تعرف ذلك."

أومأ برأسه قائلاً: "أعرف. كانت هذه أولى كلماتك التي لم تكن هذيانًا، رغم مظهرها الذي بدا كذلك. أو لنقل، واحدة من أولى كلماتك. أول شيء سألت عنه كان حصانك وسيفك. بهذا الترتيب. وعندما طمأنتك بأنهما بأمان، بدأتِ تشتبهين في أنني لستُ حليفًا لبونهارت، وأنني هنا لأعالجكِ، لا لأخدعكِ بآمالٍ زائفة وأعذبكِ. وعندما أدركتِ خطأك، ليس دون صعوبة، قدمتِ نفسكِ باسم فالاكا، وشكرتِني على إنقاذك."

حدقت في الوسائد، كما لو كانت تتجنب النظر إليه، وقالت: "هذا جيد. من الجيد أنني تذكرت أن أشكرك. أتذكر كل شيء وكأنه في ضباب. لم أكن أعلم ما هو الواقع وما هو الحلم. أزعجني أنني لم أشكرك. لكن اسمي ليس فالاكا."

"أعرف ذلك أيضًا، لكن عن طريق المصادفة. قلتِ اسمك الحقيقي أثناء الحمى."

قالت بصوت خافت، دون أن تدير رأسها نحوه: "أنا هاربة. هاربة. إيوائي هنا خطر. حتى معرفة اسمي الحقيقي خطر. عليّ أن أمتطي حصاني وأغادر قبل أن يجدوني..."

ابتسم فيسجوتا ابتسامة هادئة، وقال بلطف: "قبل قليل فقط، كنتِ تجدين صعوبةً في الجلوس على الوعاء. لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكنكِ الجلوس على ظهر حصان. لكنني أؤكد لكِ، هذا المكان آمن. لا أحد سيجدك هنا معي."

قالت، نبرتها مشدودة بالتوتر: "إنهم يبحثون عني. يتتبعون آثاري، يفتشون المنطقة..."

"اهدئي. لقد كانت السماء تمطر يومًا بعد يوم، والمطر قد محا كل الآثار. والمنطقة مهجورة. أنتِ في منزل ناسكٍ انعزل عن العالم، مما يجعل من الصعب على العالم أن يجده. ومع ذلك، إن أردتِ، يمكنني إيجاد طريقة لجلب أخبار عن أقاربك وأصدقائك."

قالت بصوتٍ متردد، بنبرة مشحونة بالشك: "أنت حتى لا تعرف من أنا..."

قاطَعها، صوته هادئ لكنه حازم: "أنتِ فتاة جريحة، هاربة ممن لا يتردد في إيذاء الفتيات. هل تريدين مني أن أرسل رسالةً إلى أحد؟"

صمتت للحظة، ثم قالت بصوتٍ تغيرت نبرته، ولاحظ فيسجوتا ذلك: "لا يوجد أحد."

ثم أضافت، بلهجةٍ غريبة، كما لو كانت تتحدث مع نفسها: "أصدقائي ماتوا. لقد قُتلوا جميعًا."

لم يسألها أي أسئلة.

قالت بصوتٍ بارد، خالٍ من المشاعر: "أنا الموت. كل من يقترب مني، يموت."

رد عليها بحزم: "ليس الجميع. ليس بونهارت. ذاك الاسم الذي صرختِ به في أحلامك، والذي تحاولين الهرب منه الآن. لقاؤك به ألحق بك ضررًا أكثر مما ألحق به. هل هو... من شوّه وجهكِ؟"

ضغطت شفتيها معًا، محاولة كبت شيء ما، ربما كان أنينًا أو لعنةً غاضبة، ثم قالت بصوتٍ مكبوت: "لا. كالوس هو من شوّه وجهي. ستيفان سكيلين. وأما بونهارت... فقد أصابني بجروح أعمق. أعمق بكثير. هل تحدثتُ عن ذلك أثناء الحمى؟"

قال بهدوء، محاولًا تهدئتها: "استرخي. أنتِ ضعيفة، عليكِ تجنب الحركات المفاجئة."

قالت، وكأنها تلقي بشيء ثقيل من على صدرها: "اسمي سيري."

قال ببساطة: "سأعد لكِ كمادة من عشبة الأكونيت، سيري."

قالت بسرعة، قبل أن يبتعد: "انتظر... هل يمكنك أن تعطيني مرآة؟"

قال بفتور: "أخبرتكِ..."

قاطَعته برجاء في صوتها: "أرجوك!"

أطاعها. أدرك أنه كان من الضروري أن تواجه الأمر، وأنه لا يمكن تأجيل ذلك أكثر. حتى أنه جلب شمعة، حتى تتمكن من رؤية ما حدث لوجهها بوضوح.

تأملت انعكاسها بصمت.

ثم قالت، بصوتٍ منكسر: "حسنًا، نعم. نعم، إنه كما تخيلته. تقريبًا كما تخيلته."

انسحب فيسجوتا، وسحب الستائر المصنوعة من البطانيات خلفه.

حاولت أن تبكي بصمت، حتى لا يسمعها. حاولت بكل قوتها.

* * *

في اليوم التالي، أزال فيسجوتا نصف الغرز.

فركت سيري خدها، مطلقةً صوت هسهسة كالأفعى، متذمرةً من الألم الحاد في أذنها ومن فرط الحساسية في رقبتها أسفل فكها. ومع ذلك، نهضت، ارتدت ملابسها، وخرجت إلى الخارج. لم يحتجّ فيسجوتا، لكنه رافقها. لم يكن بحاجة إلى مساعدتها أو دعمها. كانت الفتاة بصحة جيدة، وكانت أقوى بكثير مما بدت عليه.

لكن، بمجرد أن خرجت، تعثرت قليلًا، وأسندت نفسها إلى إطار الباب.

لهثت قائلةً: "إنه... إنه بارد! الجو يكاد يكون متجمدًا. هل حلّ الشتاء بالفعل؟ كم مضى من الوقت وأنا في الفراش؟ أسابيع؟"

أجابها فيسجوتا بهدوء: "بالضبط ستة أيام. اليوم هو الخامس من أكتوبر. لكن يبدو أن هذا الشهر سيكون أكثر برودة من المعتاد."

قطّبت حاجبيها، ثم أطلقت هسهسة ألم خافتة: "الخامس من أكتوبر؟ كيف يمكن ذلك؟ أسبوعان؟"

رفع حاجبه متسائلًا: "ماذا؟ ما الذي استغرق أسبوعين؟"

هزّت كتفيها بلا مبالاة: "لا يهم." توقفت للحظة، ثم أضافت: "ربما أنا مخطئة... أو ربما لا. على أية حال، ما هذه الرائحة الكريهة؟"

أشار فيسجوتا نحو جانب الكوخ: "الجلود. جلود المسك، القندس، المنك، ثعالب الماء، وغيرها. حتى الناسك يحتاج إلى كسب عيشه."

نظرت حولها، ثم سألت مباشرةً: "أين حصاني؟"

قال بهدوء: "في الحظيرة."

رحّبت الفرس السوداء بهما بشخيرٍ عالٍ، وقابلها عنز فيسجوتا بثغاءٍ متذمر، يعبر عن استيائه الشديد من اضطراره لمشاركة مسكنه مع مستأجرٍ جديد.

احتضنت سيري عنق الفرس، وربتت عليه، ممسدةً لبدته السوداء الطويلة.

ثم سألت: "أين سرجي وحقائبي؟"

أشار فيسجوتا نحو زاوية الحظيرة: "هنا."

لم يحتجّ، لم يُعلّق، ولم يُبدِ أي رأي.

ظل صامتًا، متكئًا على عصاه، يراقب بهدوء.

لم يتحرك عندما شهقت سيري بينما حاولت رفع سرجها، ولم يُظهر أي رد فعل عندما ترنحت تحت ثقله وسقطت بشكل غير متزن على الأرض المغطاة بالقش، مطلقةً أنينًا عالياً. لم يقترب منها، ولم يساعدها على النهوض. اكتفى بالمراقبة، بعناية.

قالت سيري من بين أسنانها المشدودة، بينما كانت تدفع الفرس الذي حاول أن يدسّ أنفه داخل ياقة قميصها: "حسنًا، هذا واضح. لكن يجب أن أغادر هذا المكان، اللعنة! يجب أن أذهب!"

سألها بجفاف: "إلى أين؟"

مررت يديها على وجهها، وهي جالسة على القش بجانب السرج، وقالت بصوتٍ متعب:

"إلى أبعد مكان ممكن."

أومأ فيسجوتا، وكأن الإجابة قد أرضته، وكأنها أوضحت له كل شيء ولم تترك مجالًا للشك.

نهضت سيري بصعوبة، لكنها لم تحاول حتى التقاط السرج أو اللجام. اكتفت بفحص الحظيرة، متأكدةً من أن الفرس لديه ما يكفي من التبن والشوفان، ثم بدأت بفرك ظهره وجانبيه بحفنةٍ من القش.

انتظر فيسجوتا بصمت. وانتظر. حتى رآها تتعثر فجأة على العمود الذي يدعم السقف، شاحبةً كالورقة.

دون أن يقول شيئًا، مدّ لها عصاه.

قالت بصوت متوتر: "لا شيء خطأ. أنا فقط..."

قاطَعها بهدوء، لكنه كان حازمًا: "فقط تشعرين بالدوار، لأنكِ مريضة وضعيفة كمولودٍ جديد. هيا، عودي معي. عليكِ أن تستلقي."

* * *

عند غروب الشمس، وبعد أن نامت لبضع ساعات، خرجت سيري إلى الخارج مرة أخرى.

التقى بها فيسجوتا عند سياج البندق، عائدًا للتو من النهر.

حذّرها قائلاً: "لا تبتعدي كثيرًا عن الكوخ. أولًا، لا تزالين ضعيفة..."

قاطَعته بسرعة: "أشعر بتحسن."

واصل كلامه، غير مكترث بمقاطعتها: "وثانيًا، الأمر خطير. تحيط بنا مستنقعات بلا قاع، وغابات لا نهائية من القصب. لا تعرفين المسارات هنا، وقد تضلين الطريق وتغرقين في الوحل."

أشارت إلى الحقيبة التي يحملها على كتفه، قائلةً بحدة: "لكن، أنت تعرف المسارات، وتسير فيها متى شئت. يبدو لي أن هذه المستنقعات ليست بهذا القدر من الخطورة. من الواضح أنك تعيش من دباغة الجلود. كيلبي، فرسي، لديها ما يكفي من الشوفان، ومع ذلك، لا أرى حقولًا حولنا. نحن نأكل الدجاج وعصيدة الشعير. ونأكل خبزًا حقيقيًا، وليس كعكًا جافًا. لا أعتقد أنك اصطدته أو زرعته بنفسك. هذا يعني أن هناك قرية قريبة."

أومأ فيسجوتا بهدوء، معترفًا: "استنتاج لا تشوبه شائبة. هذا يعني أنني أتلقى المؤن من أقرب مستوطنة. قريبة، نعم، لكن هذا لا يعني أنها على بعد خطوة من هنا. إنها تقع على حافة المستنقع. حيث يحد المستنقع نهر. أبادل الجلود بالطعام، الذي يُحضر لي عبر قارب—الخبز، الدقيق، الملح، الجبن، وأحيانًا الدجاج أو الأرانب. وأحيانًا الأخبار."

لم تطرح سيري أي أسئلة، لذا تابع حديثه:

"جاء فرسان إلى القرية. مرتين. في المرة الأولى، هددوا الفلاحين بالحرق والقتل إذا ساعدكِ أحد أو أخفاكِ. في المرة الثانية، وعدوا بمكافأة لأي شخص يعثر على جثتكِ. مطاردوكِ يعتقدون أنكِ استسلمتِ لجراحكِ، وأنكِ الآن جثة هامدة في غابةٍ مهجورة، بين الأشجار المتساقطة أو بين الأحراش الكثيفة."

تمتمت سيري بصوتٍ مظلم، عيناها تضيقان بحدة: "ولن يهدأ لهم بال حتى يعثروا على جثتي. أعرف هذا جيدًا. يجب أن يحصلوا على دليلٍ قاطع أنني ميتة. بدون هذا الدليل، لن يتوقفوا. سيبحثون في كل مكان. وفي النهاية، سيصلون إلى هنا..."

قال فيسجوتا وهو يراقبها بعناية: "يبدون مهتمين بكِ جدًا. بل سأقول إن اهتمامهم بكِ غير عادي..."

زمّت شفتيها، ثم قالت بصوتٍ هادئ لكنه ثابت: "لا تخف. سأرحل قبل أن يعثروا عليّ. لن أعرّضك للخطر... لا تخف."

رفع كتفيه بلا مبالاة، قائلاً: "ولماذا تفترضين أنني خائف؟ ما الذي يدعوني للخوف؟ لا أحد يأتي إلى هنا، ولن يتمكن أحد من العثور عليكِ في هذا المكان. لكن إن أخرجتِ رأسكِ من بين القصب، ستجدين مطارديكِ وجهًا لوجه."

رفعت رأسها بحركة تحدٍّ، وقالت بحدة: "بعبارة أخرى، عليّ أن أبقى هنا. هذا ما تحاول قوله، صحيح؟"

قال بهدوء، ناظرًا إليها بثبات: "أنتِ لستِ أسيرة. يمكنكِ المغادرة متى شئتِ. بالأحرى، متى استطعتِ. لكن يمكنكِ أيضًا البقاء هنا والانتظار. سيأتي الوقت الذي سيصاب فيه مطاردوكِ بالإحباط. فهم دائمًا ما يُحبَطون، عاجلًا أم آجلًا. دائمًا. يمكنكِ تصديقي، فأنا أعرف هذا."

تألقت عيناها الخضراوان عندما نظرت إليه.

تابع الناسك بسرعة، متجنبًا نظرتها وهو يرفع كتفيه مرة أخرى بلا اكتراث: "وفي نهاية المطاف، افعلي ما تشائين. أكرر، لن أحتجزكِ هنا."

زفرت سيري، ثم قالت وهي تشعر بالبرد يتسلل إليها: "لن أذهب الآن. لا زلتُ أشعر بالضعف... والشمس تغرب... ولا أعرف المسارات. فلنعد إلى الكوخ. أنا أتجمد."

* * *

بعد ثلاثة أيام، أزال فيسجوتا آخر الغرز.

كان لديه كل الأسباب ليشعر بالرضا والفخر بعمله—فالخياطة كانت مستقيمة ونظيفة، ولم يكن هناك خوف من أن يعلق أي قذى داخل الجرح. لكن شعوره بالإنجاز شابهُ مشهدُ سيري وهي تحدق في ندبتها بصمتٍ كئيب، تتفحصها من زوايا مختلفة في المرآة، وتحاول إخفاءها، دون جدوى، بإسدال شعرها فوق خدها.

لقد شوهتها الندبة. حقيقة لا جدال فيها. لم يكن هناك ما يمكنها فعله. ولا شيء يمكنه أن يساعدها في التظاهر بأنها غير موجودة.

لا تزال حمراء ومتورمة كالحبل، مرصعة بآثار الغرز، ومحددة بخطوط الخيوط التي أغلق بها الجرح، بدت الندبة مخيفةً بالفعل. كان من الممكن أن يتحسن مظهرها ببطء أو بسرعة، لكن فيسجوتا كان يعلم يقينًا أنها لن تختفي أبدًا، ولن تكف عن تشويه وجهها.

ورغم ذلك، كانت سيري تشعر بتحسنٍ كبير، مما أدهش فيسجوتا وأسعده. ولم تعد تتحدث عن الرحيل.

أخرج فيسجوتا الفرس السوداء، كيلبي، من الحظيرة. كان يعلم أن اسم "كيلبي" في الشمال يُطلق على وحشٍ بحري يمكنه، وفقًا للخرافات، أن يتخذ شكل حصانٍ، أو دلفين، أو حتى امرأة جميلة، لكنه في حقيقته يشبه الطحالب البحرية.

سَرَجَت سيري الفرس، وركضت بها حول الحظيرة والكوخ، ثم أعادتها إلى الحظيرة لتؤنس الماعز، وعادت هي إلى الكوخ لتؤنس فيسجوتا.

بدأت بمساعدته—ربما بدافع الملل—في العمل على معالجة الجلود. بينما كان يفرز جلود ثعالب الماء حسب الحجم واللون، قامت هي بتقسيم جلود المسك إلى ظهورٍ وبطون، ثم مددتها فوق الطاولة التي كانا قد جلباها إلى الداخل. كانت أصابعها شديدة الرشاقة.

وأثناء هذا العمل، نشأت بينهما محادثة غريبة.

قالت سيري، بصوتٍ مملوء بالغموض والتحدي: "أنت لا تعرف من أنا. لا يمكنك حتى أن تتخيل من أكون."

كررت هذه العبارة التافهة عدة مرات، مما بدأ يزعج فيسجوتا قليلًا. لكنه، بطبيعة الحال، لم تظهر عليه أي علامة تدل على انزعاجه فهو لن يسمح لنفسه بأن ينحط إلى مستوى يُظهر فيه مشاعره أمام فتاة صغيرة مثلها. لا، لن يسمح بذلك. لكنه أيضًا لم يكن قادرًا على إخفاء الفضول الذي كان ينهشه من الداخل.

لكن الفضول لم يكن له أي داعٍ حقيقي، لأن بإمكانه بسهولة أن يخمّن من تكون. ففي أيام شبابه، لم تكن العصابات أمرًا نادرًا. مرت السنوات، لكن لم يختفِ ذلك السحر المغناطيسي الذي كانت هذه العصابات تمتلكه، الذي كان يجذب الفتيات الطامحات إلى المغامرة والإثارة العنيفة. وغالبًا ما كان ذلك يؤدي إلى هلاكهن.

أما أولئك اللواتي خرجن من هذه المغامرة بندبة على الوجه، فيمكنهن اعتبار أنفسهن محظوظات. أما الأقل حظًا، فكان مصيرهن التعذيب، المشنقة، الفأس، أو المحرقة.

ها، الزمن الوحيد الذي تغير في نظر فيسجوتا هو "التحرر التدريجي". فلم تعد العصابات تقتصر على الشبان، بل بدأت تجذب حتى الفتيات المجنونات، اللواتي فضّلن السيف والخيل والحياة الجامحة على الإبرة والأواني وانتظار الخطّاب.

لم يخبرها فيسجوتا بذلك مباشرةً، لكنه أعطاها تلميحًا كافيًا ليجعلها تدرك أنه يعرف تمامًا من يتعامل معه. ليجعلها تفهم أن السر، إن كان هناك سر، فهو بالتأكيد ليس فيها. مجرد فتاةٍ كانت تتجول مع عصابة من المراهقين الخارجين عن القانون، وتمكنت بطريقة ما من الهروب من كمين. مجرد صبيةٍ مشوهة تحاول أن تغلف نفسها بهالةٍ من الغموض...

قالت مجددًا، بنفس النبرة الغامضة: "أنت لا تعرف من أنا. لكن لا تقلق، سأرحل قريبًا. لن أعرّضك للخطر."

كان فيسجوتا قد سئم من هذه الدراما.

قال ببرود: "أي خطر؟ حتى لو وجدكِ مطاردوكِ هنا، وهو ما أشك فيه، فما الضرر الذي قد يلحق بي؟ إيواء الهاربين من العدالة قد يكون جريمة، لكنه لا ينطبق على ناسك، فهو معزول عن العالم. إن امتيازي كناسكٍ هو أن أستقبل أي شخصٍ يطرق باب عزلتي."

توقف للحظة، ثم أكمل بلهجة ساخرة:

"تقولين إنني لا أعرف من أنتِ. كيف لي أن أعرف؟ أنا مجرد ناسك، كيف لي أن أعرف إن كنتِ قد ارتكبتِ جريمةً، وما الذي يجعلكِ مطلوبة؟ بل أي قانون يطاردك؟ حتى أنني لا أعرف القانون الذي يُطبّق في هذه المنطقة، ولا من هم ممثلوه. ولا يهمني الأمر، ولم يهمني أبدًا. فأنا مجرد ناسك."

أدرك أنه قد تمادى في حديثه. لكنه لم يتراجع.

كانت عيناها الخضراوان تتقدان بالغضب، تخترقانه كالسكاكين.

قال بلهجة ساخرة، مفرطًا في التمثيل: "أنا مجرد ناسك فقير. ميتٌ بالنسبة للعالم وأعماله. رجلٌ بسيط، غير متعلم، جاهلٌ بشؤون الدنيا..."

صرخت بسخرية، وهي تلقي بالجلد والسكين على الأرض: "حقًا! هل تظنني حمقاء؟ لا تظن أنني بهذا الغباء. ناسكٌ بسيط؟ عندما كنتَ غائبًا، بحثت في كوخك. نظرتُ خلف تلك الستائر التي تخفي الركن هناك. حيث تضع كتبًا كثيرة عن العلوم على الرفوف! رجل بسيط وغير متعلم، أليس كذلك؟"

ألقى فيسجوتا بجلد ثعلب الماء على المنصة، ولوّح بيده بإهمال قائلاً: "كانت ملكًا لجابي ضرائب محلي. وعندما مات، لم يعرف القرويون ماذا يفعلون بها، فجلبوها لي. إنها مجرد سجلات أراضٍ وكتب محاسبة."

قطّبت سيري حاجبيها، ثم لمست ندبتها بحركة عصبية وقالت: "أنت تكذب. أنت تكذب بوضوح!"

لم يرد عليها، متظاهرًا بالتركيز على فحص لون الجلد التالي.

قالت، نبرتها مليئة بالتحدي: "تظن أنه لأنك تمتلك لحيةً بيضاء، وتجاعيد، ومئة سنة على عاتقك، يمكنك خداع فتاة بريئة بسهولة، أليس كذلك؟ حسنًا، سأخبرك بشيء: ربما خُدعت أول بطةٍ عبرت من هنا. لكنني لست بطة."

رفع حاجبيه بصمت، مستفزًا إياها بنظرةٍ متسائلة. لم تتركه ينتظر طويلًا.

حدقت في عينيه مباشرة، وقالت بصوتٍ هادئ لكنه مشحون:

"رواياتٌ لا تصدق، رويتها للفتاة المتشردة القذرة، اليتيمة، اللصة أو قطاع الطرق التي وجدتها في القصب بوجهٍ محطّم. لكن عليك أن تعلم، أيها الناسك، أنني قرأت تاريخ العالم لِ رودريك دي نوفمبر. ودرستُ مرارًا وتكرارًا الكتب التي تحمل العناوين ماتيريا ميديكا وهيربريوس، وهو نفس الكتاب الذي تملكه على رفوفك. كما أنني أعرف ماذا يعني صليب القاقم المطبوع على درعٍ أحمر على أغلفة كتبك. إنه رمز يدل على أن هذه الكتب ألفت في جامعة أوكسنفورت."

توقفت للحظة، لا تزال تحدق فيه بعناية.

ظل فيسجوتا صامتًا، يكافح كي لا يفضح وجهه أي شيء.

قالت سيري، وهي ترفع رأسها بحركة كانت تميزها، مزيجٌ من الفخر والتحدي:

"إذن، أعتقد أنك لست شخصًا بسيطًا ولا ناسكًا حقيقيًا. لم تترك العالم طوعًا، بل هربت منه. وأنت تختبئ هنا، في البرية، متخفيًا بين المستنقعات الوعرة التي لا يمكن عبورها."

ابتسم فيسجوتا، وقال بهدوء:

"إذا كان الأمر كذلك، فقد جمعنا القدر بطريقة غريبة جدًا، أيتها الشابة المثقفة. لقد وضعتنا المصائر معًا بأسلوبها الغامض. ففي نهاية المطاف، أنتِ أيضًا، سيري، تختبئين. وفي نهاية المطاف، أنتِ أيضًا، سيري، تنسجين حولكِ ستارًا من المظاهر والخداع. أنا رجلٌ عجوز، ممتلئ بالشكوك، ساخط بسبب العمر..."

قاطَعته سيري، نظراتها لا تزال مشتعلة بالتحدي: "ساخطٌ تجاهي؟"

قال بهدوء، ناظرًا إليها بعينين غامضتين: "ساخطٌ على العالم، سيري. عالمٌ ترتدي فيه المظاهر قناع الحقيقة المخادع لتخفي حقائق أخرى، لكنه عالمٌ زائف، يحاول الخداع في كل شيء. عالمٌ تُرسم فيه شارة جامعة أوكسنفورت على أبواب المواخير. عالمٌ يمكن فيه لمجرمةٍ متشردة أن تكون مثقفة، حكيمة، وربما حتى نبيلة المولد، تقرأ رودريك دي نوفمبر وتعرف ختم الأكاديمية. ضد كل المظاهر. رغم أنها تحمل وسمًا آخر... وشمٌ إجرامي، وردة حمراء محفورة قرب العانة."

تصلبت ملامحها، وضمت شفتيها بقوة، ثم احمرّ وجهها حتى بدت ندبتها قاتمة كالسواد. وقالت بصوتٍ مشحون بالغضب: "أنت محق. أنت عجوزٌ مرير... ومتطفلٌ عتيق الرائحة."

أومأ فيسجوتا برأسه نحو ركن المكتبة، وقال بنبرة هادئة:

"على رفوفي، خلف الستارة، يوجد كتاب" أغاني الزمان القادم أو **Aen N'og Mab Taedh'morc**"، مجموعة من القصص القصيرة ونبوءات الإلف. فيها قصةٌ تناسب هذا الموقف وهذه المحادثة تمامًا. إنها قصة الغراب العجوز والسنونو. وكما تعلمين، سيري، أنا رجلٌ مُحبٌ للمعرفة، لذا سأقتبس لكِ مقطعًا منها، وأتمنى ألا تخذلني ذاكرتي. في القصة، يتهم الغراب السنونو بالتهور والطيش غير المناسب، قائلاً... "

توقف لوهلة، ثم أخذ نفسًا عميقًا، مستعدًا لاقتباس القصة.

توقف فيسجوتا عن الاستشهاد، وأسند مرفقيه على الطاولة، واضعًا ذقنه على أصابعه المتشابكة.

هزّت سيري رأسها، اعتدلت في جلستها، ثم نظرت إليه بتحدٍّ. أكملت القصيدة بصوتٍ ثابت:

" زيريايل، تطير عبر الضباب إلى الأراضي البعيدة،

لكن احذر، أيها الغراب العجوز، فالموت ينتظرك، كيرك، كيرك! "

صمتٌ ثقيلٌ تبع كلماتها. ثم قال فيسجوتا، بصوتٍ هادئ لكنه مثقل بالمعنى:

"العجوز المرير، المليء بالشكوك، يعتذر للفتاة المتعلمة. الغراب العجوز، الذي يرى الخداع والمكر في كل مكان، يلتمس العذر من السنونو، الذي لم يقترف ذنبًا سوى أنه شاب ومليء بالحياة... وجميل..."

قطّبت سيري حاجبيها، وتحركت يدها لا إراديًا لتغطي ندبتها، قبل أن ترد بنبرةٍ متذمرة:

"أنت تهذي الآن. احتفظ بمجامِلاتك، فهي لن تمحو الندبة من وجهي. لا تظن أن هذا هو ما سيجعلك تكسب ثقتي. لا زلتُ لا أعرف من أنت حقًا. ولا لماذا كذبت عليّ بشأن الأيام والتواريخ. ولماذا نظرت بين ساقيّ بينما الجرح كان على وجهي. وإن كنت قد اكتفيت بالنظر فقط."

هذه المرة، نجحت في استفزازه حقًا.

"كيف تجرئين، أيتها الصغيرة؟" صاح بغضب، مستندًا إلى الطاولة. "أنا يمكن أن أكون والدك!"

نظرت إليه نظرة باردة، وصححت بحدة: "جدي. أو حتى جد جدي. لكنك لست كذلك. لا أعرف من أنت. لكن من المؤكد أنك لست الشخص الذي تدّعي أنك هو."

زفر فيسجوتا، ثم قال بنبرةٍ حادة:

"أنا من وجدكِ في المستنقع، على وشك التجمد حتى الموت، بوجهٍ مغطى بالسواد كالقناع، فاقدة الوعي، قذرة وملطخة بالطين. أنا من حملكِ إلى الكوخ دون أن يعرف من تكونين، وكان من حقي أن أتوقع الأسوأ. أنا من عالجكِ، وأعد لكِ الفراش، وأعطاكِ الدواء حين كنتِ تحترقين بالحمى. أنا من اعتنى بكِ. أنا من قام بغسلكِ. بعنايةٍ شديدة. حتى في محيط الوشم."

هدأت سيري قليلًا، لكن نظراتها لم تفقد تحديها وسخريتها الوقحة.

قالت، بنبرةٍ حادة ومقتضبة:

"في هذا العالم، هناك من يرتدي المظاهر المخادعة، ويضع قناع الحقيقة، كما قلتَ بنفسك. أنا أيضًا أعرف القليل عن كيفية سير الأمور في هذا العالم. لقد أنقذتني، وعالجتني، وداويتني. شكرًا لك. أنا ممتنةٌ لك على... لطفك. لكنني أعلم أنه لا يوجد لطفٌ بدون..."

توقفت عن الكلام، لكن نظرتها الحادة أكملت الجملة التي لم تقلها بصوتٍ مسموع.

ابتسم فيسجوتا ابتسامة خفيفة، وأكمل جملتها:

"المصلحة الشخصية وأمل في نيل معروف بالمقابل، أليس كذلك؟ نعم، أعلم ذلك. فأنا رجلٌ يعرف العالم تمامًا كما تعرفينه، سيري. النساء الشابات اللواتي حُرمن من كل ما له قيمة، إن كنّ فاقدات للوعي أو ضعيفات جدًا للدفاع عن أنفسهن، فإن الرجال غالبًا ما يطلقون العنان لرغباتهم وشهواتهم، التي تكون في كثير من الأحيان منحرفة أو غير طبيعية. أليس كذلك؟"

احمر وجه سيري مجددًا، وقالت بصوت منخفض لكن حازم: "لا شيء كما يبدو."

أومأ الناسك برأسه، مضيفًا جلدًا آخر إلى الكومة المناسبة:

"عبارة دقيقة جدًا. وهي تقودنا بشكل حتمي إلى استنتاجٍ واحد—نحن، سيري، لا نعرف شيئًا عن بعضنا البعض. نحن نعرف فقط المظاهر... والمظاهر خادعة."

انتظر للحظة، لكنه لم يتوقع أن تسارع سيري بالرد.

ظل صامتًا، مترقبًا. وأخيرًا، رفعت رأسها ونظرت إليه، وعيناها تلمعان بالسؤال الذي كان يتوقعه. تألقت عيناها بوميضٍ حاد عندما سألته أخيرًا:

"من سيبدأ؟"

* * *

لو أن شخصًا ما تسلل إلى الكوخ المظلم، ذلك الكوخ ذو السقف الغارق في الأرض، المتشابك مع الطحالب والنباتات البرية، ونظر داخله، لكان قد رأى مشهدًا غريبًا في ضوء النار المتراقص داخل الموقد.

كان هناك رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء، منحنيًا فوق رزمٍ من الجلود، يعمل بصمت. وعلى الجانب الآخر، كانت هناك فتاةٌ ذات شعرٍ بلون الرماد، تحمل على خدها ندبةً قبيحة، ندبةٌ بدت غير متوافقة على الإطلاق مع عينيها الخضراوين الواسعتين، اللتين احتفظتا ببراءةٍ طفولية متناقضة مع ما عاشته.

لكن لم يكن هناك من يراهم.

كان الكوخ غارقًا في قلب المستنقع، ضائعًا وسط حقلٍ لا نهاية له من القصب، في مكانٍ لم يجرؤ أحدٌ على دخوله.

* * *

قال فيسجوتا بصوت هادئ لكنه ثابت، كما لو أنه يروي قصة شخص آخر، وليس قصته:

"اسمي فيسجوتا من كورفو. كنت طبيبًا، جرّاحًا. كنت كيميائيًا. لاحقًا، أصبحت باحثًا، فيلسوفًا، وأخلاقيًا. كنت أستاذًا في جامعة أوكسنفورت. اضطررت إلى الفرار بعد نشر بعض الأبحاث التي اعتُبرت غير تقية وهرطقية. حينها، قبل خمسين عامًا، كان هذا الاتهام يعاقب عليه بالإعدام. اخترت المنفى. رفضت زوجتي أن تهاجر معي، فتركتني.

"أثناء هروبي، استقررت لفترة في أقصى الجنوب، في إمبراطورية نيلفجارد. بعد مدة، استأنفت عملي وأصبحت أستاذًا للفلسفة والأخلاق في الأكاديمية الإمبراطورية في كاستل جراوبيان. شغلت ذلك المنصب لعشر سنوات تقريبًا. ثم، كما لو أن التاريخ يعيد نفسه، اضطررت إلى الفرار مجددًا بعد نشر أطروحة معينة... والتي، بالمناسبة، تناولت الأنظمة الشمولية والطبيعة الإجرامية للحروب التوسعية. لكن رسميًا، تم تصنيفي أنا وأعمالي ضمن الهرطقة الدينية والتصوف الميتافيزيقي."

"التحقيقات أثبتت أنني كنت خادمًا متآمرًا لمجموعات رجال الدين التوسعية والمراجِعة التي تسيطر فعليًا على ممالك الشمال. بدا الأمر وكأنه مزحة سوداء، بالنظر إلى أن هؤلاء الكهنة أنفسهم أصدروا بحقي حكمًا بالإعدام قبل عشرين عامًا بتهمة الإلحاد. في الواقع، كان تأثير رجال الدين في الشمال قد تلاشى منذ زمن طويل، لكن في نيلفجارد، رفضوا الاعتراف بذلك. وكان دمج التصوف مع السياسة جريمة يعاقب عليها بلا رحمة."

"اليوم، عندما أنظر إلى الماضي، أعتقد أنه لو كنت قد خضعت وأبديت ندمًا، لربما كان بالإمكان تسوية المسألة، ولكنت قد سقطت في سخط الإمبراطور فحسب، دون الحاجة إلى إجراءات قاسية. لكنني كنت غاضبًا. كنت متأكدًا من أنني أملك الحقيقة، حقيقةً خالدة وسامية فوق أي سياسة. شعرت بظلم فادح. كنت ضحية الطغاة الحاكمين. أنشأت اتصالات نشطة مع المعارضين الساعين للإطاحة بالحكم الاستبدادي. لكن قبل أن أدرك الأمر، وجدت نفسي في السجن، مع 'أصدقائي' الجدد. وعندما أراهم بين يدي الجلاد، بدأ بعضهم يشير إليّ باعتباري العقل المدبر للحركة السرية."

"لكن قبل تنفيذ الإعدام، أنقذتني 'الرحمة الإمبراطورية'. لم أُشنق، بل حُكم عليّ بالنفي الدائم—تحت تهديد تنفيذ الحكم الأصلي فورًا إذا عدت إلى أراضي الإمبراطورية."

"حينها، فقدت الأمل في العالم. فقدت الإيمان بالممالك، بالإمبراطوريات، بالجامعات، بالمعارضين، بالموظفين الرسميين، بالمحامين. خذلني زملائي وأصدقائي، الذين، كما لو كان بفعل السحر، لم يعودوا يعرفونني فجأة. تخلت عني زوجتي الثانية، تمامًا مثل الأولى، معتبرةً أن مشاكل زوجها كانت

سببًا كافيًا للانفصال. تخليت عن أطفالي. اخترت العزلة. جئتُ إلى إيبيج، إلى مستنقعات بيربلوت، واستوليت على كوخٍ كان يسكنه ناسكٌ قبلي."

"لكن، لسوء حظي، ضمّت نيلفجارد منطقة إيبيج، فوجدت نفسي، قبل أن أستقر تمامًا، مجددًا داخل أراضي الإمبراطورية. لم يكن لدي رغبة ولا طاقة للهرب مرة أخرى، لذا قررت الاختباء. أحكام الإعدام الإمبراطورية لا تسقط بالتقادم، حتى لو كان الإمبراطور الذي أصدرها قد مات منذ زمن طويل، والإمبراطور الحالي لا يملك سببًا يُذكر لإلغائها."

"ففي نيلفجارد، أحكام الإعدام بسبب الخيانة العظمى لا تسقط ولا تخضع للعفو. عند تتويج كل إمبراطور جديد، يتم العفو عن جميع من أدانهم سلفه—باستثناء الخونة. ولهذا السبب، لا يهمني من يجلس على العرش، لأنني إن خالفت الحكم بالنفي وتم اعتقالي... فسيُقطع رأسي على المقصلة."

قال فيسجوتا بهدوء، وهو ينظر إليها بعينين مليئتين بالمعرفة والتجربة:

"إذن، كما ترين يا عزيزتي سيري، نحن في وضع متشابه."

توقفت للحظة، ثم سألت، وكأنها تحاول استرجاع شيء نسيته منذ زمن:

"ما هي الأخلاق؟ كنت أعلم ذلك، لكنني نسيت."

أجابها بصوت هادئ، كما لو كان يلقي درسًا في قاعة جامعية:

"إنها علم الأخلاق. مجموعة من القواعد السلوكية، مبادئ النبل، الإحسان، والصدق. إنها ما يرفع الروح البشرية إلى قمم الخير، حيث النزاهة والاستقامة. وهي أيضًا ما يُلقي بها إلى أعماق الشر، حيث الفساد والانحطاط..."

ضحكت سيري بسخرية، ثم تمتمت باستهزاء:

"قمم الخير! النزاهة! الأخلاق! لا تجعلني أضحك، فقد تتفتح ندبتي من جديد! لقد حالفك الحظ، أيها العجوز، أن أحدًا لم يرسل خلفك صائد جوائز مثل... بونهارت. حينها كنت ستتعلم أعماق الشر حقًا. الأخلاق؟ تبًا لأخلاقك، فيسجوتا من كورفو."

التفتت إليه، عيناها تشعّان بنار الغضب والماضي، وقالت بحزم:

"ليس الأشرار هم من يغرقون في الهاوية، لا! أبدًا! هناك الأشرار، ولكنهم حاسمون في قراراتهم، لا يترددون. وهناك الأخيار، الصادقون، النبلاء، لكنهم مترددون، ممتلئون بالشكوك، غارقون في مبادئهم الهشة."

رفع حاجبيه في تظاهرٍ بالدهشة، ورد بنبرةٍ مازحة:

"شكرًا على هذا الدرس القيم. صدقيني، حتى لو عشتُ قرنًا، فإن التعلم لا ينتهي أبدًا. من المفيد دائمًا الاستماع إلى أناس ناضجين خبروا العالم وعرفوا خفاياه."

هزّت رأسها، نظرتها ما زالت حادة، وقالت ببطء، وكأنها تتذوق كلماتها:

"اضحك، اضحك بينما تستطيع، لأن الآن جاء دوري. سأكون أنا من يُسلّيك بقصة. سأخبرك بما حدث لي. وعندما أنتهي... سنرى إن كنت لا تزال تريد المزاح."

* * *

لو أن أحدًا تسلل إلى الكوخ في المستنقع بعد حلول الظلام، ونظر من خلال شق في المصاريع، لكان قد رأى مشهدًا غامضًا ومحمّلًا بالقصص.

في الضوء الخافت، كان هناك رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء، ينصت بتركيزٍ إلى فتاة ذات شعرٍ بلون الرماد، تجلس على جذع شجرة قرب النار. كانت تتحدث ببطء، وكأنها تكافح للعثور على الكلمات، تلامس خدها المشوّه بالندبة بحركة عصبية. وبين لحظاتٍ طويلةٍ من الصمت، كانت تحكي قصتها—حكاية قدرها المحتوم.

كانت تروي عن التعاليم التي تلقتها، تلك التي أثبتت في النهاية أنها مجرد أوهامٍ كاذبة ومضللة. عن الوعود التي قُطعت لها ولم يُوفَ بها. عن المصير الذي كانت تؤمن به، لكنها خُذلت فيه بشكلٍ مخزٍ.

كانت تروي كيف أنه في كل مرة كانت تأمل في تحسن الأمور، كانت تواجه الذل. الذل، الظلم، والألم. كيف أن أولئك الذين وثقت بهم وأحبتهم خانوها، ولم يأتوا لنجدتها عندما واجهت التهديد بالإهانة، المعاناة، والموت. كيف أن المجالس التي من المفترض أن تبقى وفيةً لمُثُلها العليا، فشلت كلما أرادت بناء شيءٍ حقيقي، وبالتالي أثبتت أنها لا قيمة لها. وكيف أنها وجدت الدعم، الصداقة، وحتى الحب، في أماكن لم تكن تتوقعها مطلقًا—حيث لم تبحث عن صداقةٍ، ناهيك عن الحب."

لكن لم يكن هناك أحدٌ يرى أو يسمع.

كان الكوخ ذو السقف الغارق في الأرض ملفوفًا بضبابٍ كثيفٍ لا يمكن اختراقه، في مستنقعٍ لم يجرؤ أحدٌ على دخوله.

"عندما تدخل الفتاة سن المراهقة، تبدأ الأحلام في استكشاف مناطق كانت حتى ذلك الحين غير متاحة، والتي يُرمز إليها بحجرة مخفية... ومع اقتراب الفتاة من تلك البقعة المصيرية، عليها أن تصعد سلمًا حلزونيًا، وهو ما يمثل في الأحلام عادةً التجارب الجنسية. تمر الفتاة عبر الدرج إلى باب صغير مغلق، وفي القفل مفتاح... فالغرفة الصغيرة المغلقة في الأحلام ترمز غالبًا إلى المهبل، بينما يرمز دوران المفتاح في القفل إلى الفعل الجنسي"

برونو بتلهيم، إستخدامات السحر

الفصل الثاني

اندفع الريح الغربي معلنًا عن عاصفة رعدية ليلية.

انشقّت السماء ذات اللون الأرجواني الداكن بخطوط البرق، وانفجرت بصواعق مدوية لم تهدأ. ثم بدأ المطر يهطل بغزارة، يضرب الطريق المترب، والأسطح، والنوافذ الملطخة بالوحل بقطرات كثيفة كأنها الزيت. لكن الريح العاتية لم تلبث أن قادت المطر والعاصفة إلى مكانٍ بعيد، خلف الأفق المتوهج بالبرق.

ثم بدأت الكلاب تنبح. تردد صوت حوافر الخيل تقرع الأرض، والأسلحة تهتز محدثة صريرًا قاتمًا. أيقظت الصيحات الوحشية وصفير الريح القرويّين النائمين، فأصابهم الذعر حتى وقف شعر رؤوسهم. نهضوا على عجل، وأغلقوا الأبواب والنوافذ بقضبان الحديد. أيادٍ متعرقة قبضت على مقابض الفؤوس وأعمدة المشاعل. تشبثوا بها بقوة... ولكن بلا جدوى.

الرعب، الرعب كان يجوب القرية.

مطاردون أم مطاردون؟ مسعورون بجنون الغضب أم الخوف؟ هل سيعبرون دون أن يبطئوا خيولهم؟ أم ستشتعل الليلة بألسنة اللهب من القش المحترق والنار؟

هُدُوءًا، هُدُوءًا، صغيري...

أمي، هل هم شياطين؟ هل هم المطاردة البرية؟ طيفٌ قادم من الجحيم؟ أمي، أمي!

اهدأوا، اهدأوا يا صغاري. إنهم ليسوا شياطين. ليسوا أرواحًا هائمة.

إنهم أسوأ.

إنهم... بشر.

نبحت الكلاب. زمجرت الرياح. صهلت الخيول وقضّت الأرض بحوافرها.

عبروا القرية، في ظلمة الليل، يطاردون الحثالة.

* * *

وصل هوتسبورن ممتطيًا صهوة جواده إلى قمة التل، ثم أوقف حصانه وأداره جانبًا. كان حذرًا، يقظًا، ولم يكن ليتهاون أبدًا، خاصة عندما لا يكلفه الحذر شيئًا. لم يكن في عجلة من أمره للنزول إلى النهر، إلى محطة البريد. فضّل أن يراقبها جيدًا أولًا.

لم يكن هناك خيول ولا عربات في المحطة، فقط عربة صغيرة يجرها بغلان. على سطحها القماشي، ظهرت بعض الكتابات، لكن هوتسبورن لم يستطع تمييزها من هذه المسافة. ومع ذلك، لم يكن يشتمّ رائحة الخطر. وهوتسبورن كان يعرف كيف يشعر بالخطر. فقد كان محترفًا.

اندفع إلى الأمام، عبر الضفة المتشابكة التي تغطيها الأدغال وأشجار الصفصاف، ثم قرر أن يدخل حصانه إلى الماء. عبر النهر مندفعًا، فتطايرت المياه حول سرجه. وزعقت البطات على الضفاف وهربت في خوف. دفع هوتسبورن حصانه للأمام، متسللًا إلى ساحة المحطة عبر فجوة في السياج. الآن، كان بإمكانه قراءة الكتابة على قماش العربة:

"الأستاذ ألما فيرا، فنان الوشوم."

كُتب كل حرف من الكلمات بألوان مختلفة، وكانت الأحرف الأولى مزخرفة ببذخ. على العجلة الأمامية اليمنى للعربة، كان هناك رمز مطبوع: سهم بنفسجي متشعب.

قال صوت من خلفه: "ترجّل. على الأرض، الآن! وأبعد يدك عن المقبض!"

أحاطوا به بصمت — على يمينه كان آسي مرتديًا سترة جلدية سوداء محلاة بخيوط فضية — وعلى يساره كانت فالكا، بسترتها المخملية الخضراء، والريش يزين بيريتها. أنزل هوتسبورن قبعته وسحب الوشاح عن وجهه.

قال آسي وهو يخفض سيفه: "ها! هوتسبورن. كنت سأعرفك، لكن هذا الحصان الأسود خدعني!"

قالت فالكا بحماس وهي تدفع البيريّه عن أذنها: "يا له من فرس رائع! أسود لامع كالفحم، دون شعرة أفتح لونًا. ورشيق! يا له من جمال!"

ابتسم هوتسبورن بلا مبالاة وقال: "حسنًا، حصلت عليها مقابل أقل من مائة فلورين. أين جيزيلهير؟ بالداخل؟"

أومأ آسي برأسه. كانت فالكا تحدق في الفرس بسحرٍ واضح، تمسّد عنقه بلطف.

قالت وهي تنظر إلى هوتسبورن بعينيها الخضراوين الواسعتين: "عندما اندفعت عبر المياه، بدت وكأنها كيلبي خالص! لو كنت قادمًا من البحر بدلًا من النهر، لكنت أقسمت أنها كيلبي."

قال هوتسبورن مستفسرًا: "هل رأت الآنسة فالكا كيلبي حقيقيًا من قبل؟"

تغير وجهها فجأة وقالت بصوت خافت: "مرة واحدة فقط، في صورة. لكنها قصة طويلة. ادخل، جيزيلهير ينتظرك."

* * *

سلل الضوء عبر النافذة وسقط على الطاولة. وعلى تلك الطاولة جلست ميستل، مستندةً إلى مرفقيها، عارية من الخصر إلى الأسفل، لا ترتدي سوى جوارب سوداء. بين ساقيها المفتوحتين بلا حياء، كان هناك رجل نحيل ذو شعر طويل، مرتديًا معطفًا رماديًا-بنيًا. لم يكن ذاك إلا السيد ألما فيرا، فنان الوشوم، لأنه كان على وشك أن يطبع بأسنانه صورةً ملونة على ساق ميستل.

أشار جيزيلهير لهوتسبورن بأن يجلس على كرسي فارغ عند الطاولة التي كان يجلس حولها مع سبارك، كايلي، وريف. كان الاثنان الأخيران يرتديان سترات جلدية سوداء مصنوعة من جلد العجل، مزينة بأبازيم، ومسامير، وسلاسل، وزخارف فضية متنوعة، تمامًا مثل آسي. لا بد أنها كانت تخص صانعًا ماهرًا في الأصل، فكّر هوتسبورن. الفئران يدفعون أموالًا طائلة للخياطين، وصناع الأحذية، والسرّاجين إذا أعجبهم شيء. وبالطبع، في أحيان أخرى، كانوا يسرقون الملابس والمجوهرات إن وقع نظرهم على شيء مميز."

قال جيزيلهير متابعًا: "هل وجدت رسالتنا في أنقاض المحطة القديمة؟"

ثم ضحك وأضاف: "هاه، بالطبع وجدتها، وإلا لما كنت هنا. يجب أن أعترف، لقد جئت بسرعة!"

قالت فالكا مقاطعةً: "بفضل فرسه الجميلة. أراهن أنها سريعة!"

لم يُبعد هوتسبورن نظره عن جيزيلهير وقال: "وجدتُ رسالتكم. لكن ماذا عن رسالتي؟ هل وصلَت إليكم؟"

بدأ جيزيلهير بالتمتمة مترددًا: "هل وصلَت... نعم، لكن... حسنًا، في الواقع..."

سحقًا لكم أيها الأوغاد، فكّر هوتسبورن.

أكمل جيزيلهير قائلاً: "بصراحة... لم يكن لدينا وقت. أولًا، سكرنا واضطررنا إلى الاستراحة قليلًا. ثم اضطررنا للذهاب إلى مكان آخر..."

"بمعنى آخر، لم تنفذوا المهمة؟"

"لـ... لا. آسف، هوتسبورن. لم تكن الظروف مناسبة... لكن في المرة القادمة، أوه! بالتأكيد!"

قال كايلي بحماس مؤكدًا: "بالتأكيد!"، رغم أن أحدًا لم يطلب منه ذلك.

أيها الأوغاد عديمو المسؤولية. سكرتم، ثم اضطررتم للذهاب "إلى مكان آخر". المكان الآخر حيث وجدتم تلك الملابس الغريبة بلا شك.

قال جيزيلهير بابتسامة ماكرة: "هل ستشرب معنا؟"

"لا، شكرًا."

أشار جيزيلهير إلى جرة مزخرفة بين الأباريق والكؤوس، وقال: "أو ربما بعضًا من هذا؟"

عندها فقط أدرك هوتسبورن مصدر اللمعان الغريب في عيون الفئران، ولماذا كانت حركاتهم عصبية وسريعة.

قال جيزيلهير مطمئنًا: "إنه غبارٌ من الدرجة الأولى. هل تأخذ رشفة؟"

"لا، شكرًا."

ألقى هوتسبورن نظرةً فاحصة إلى بقعة دمٍ وإلى أثرٍ باهت وسط نشارة الخشب، حيث بدا واضحًا أن جثةً قد سُحبت عبر المكان. لاحظ جيزيلهير نظرة هوتسبورن، فابتسم بازدراءٍ وقال:

"إنها علامةٌ على موت خادم مدير البريد، الذي حاول أن يتصرف كالبطل."

ثم أضاف ساخرًا: "إلى أن جعلته سبارك عبرةً لمن يعتبر."

أطلقت سبارك ضحكةً مبحوحة. كان من الواضح على الفور أنها كانت منتشية بالمخدر القوي. قالت متبجحةً: "لقد جعلت منه عبرةً، فقط حتى يتدفق الدم!" ثم تابعت بفخر: "وبعد ذلك مباشرة، هدأ الجميع. هذا ما يُسمى بالإرهاب!"

كما هو الحال دائمًا، كانت متدثرة بالمجوهرات—حتى أن هناك خاتمًا صغيرًا من الألماس يزين أنفها. لم تكن ترتدي الجلد مثل الآخرين، بل سترةً من البروكاد الأحمر الكرزي، بنقوشٍ بدأت تصبح أحدث صيحات الموضة بين شباب الأثرياء. كان الأمر نفسه ينطبق على الوشاح الحريري الملفوف حول رأس جيزيلهير. سمع هوتسبورن حتى عن فتياتٍ يسرحن شعرهن مثل ميستل.

قال بتفكير، وهو لا يزال يحملق في أثر الدم على الأرض: "هذا ما يُسمى بالإرهاب." ثم رفع نظره وسأل: "وماذا عن مدير البريد؟ زوجته؟ ابنه؟"

قطب جيزيلهير جبينه وقال بامتعاض: "لا، لا. هل تظن أننا نذبح الجميع؟ من أين أتيت بهذه الفكرة؟ لقد احتجزناهم مؤقتًا في المخزن. المحطة، كما ترى، أصبحت ملكًا لنا الآن."

تمضمض كايلي بفمه ممتلئًا بالنبيذ ثم بصقه على الأرض. بعد ذلك، غمس ملعقةً صغيرة في صندوق مسحوق الفيستيك، لحس طرف سبابته، نثر عليه المخدر بعناية، ثم فركه في لثته. أعطى العلبة إلى فالكا، التي كررت الطقوس نفسها قبل أن تمررها إلى ريف. النيلفجاردّي، الذي كان مشغولًا بتصفح كتالوج للوشوم الملونة، رفض وأعطاها إلى سبارك. الإلفية نقلتها إلى جيزيلهير دون أن تستخدمها.

همست سبارك وهي تضيق عينيها المتلألئتين وتشمّ: "الإرهاب. بمساعدته استولينا على هذه المحطة! الإمبراطور إمير يفعل ذلك بالعالم كله، ونحن نفعلها بهذا الكوخ فقط. لكن المبدأ هو نفسه!"

"أووووه، اللعنة!" صرخت ميستل من فوق الطاولة: "انتبه أين تغرز ذلك الشيء! افعلها مرة أخرى وسأطعنك! طعنةً مباشرة حتى النهاية!"

انفجر الجرذان ضاحكين، باستثناء فالكا وجيزيلهير.

صرخت سبارك: "إن كنتِ تريدين الجمال، فعليكِ أن تتألّمي!"

أضاف كايلي مازحًا: "لا تقلقي، أيها المعلم، تلك المنطقة أصبحت معتادةً عليك!"

ألقت فالكا شتيمةً نابيةً نحوه، تبعها قدحٌ طائر. انحنى كايلي متفادياً الضربة، فانفجر الجرذان مرة أخرى بضحكات عالية.

قرر هوتسبورن أن يضع حدًا لهذا العبث. قال ببرود: "إذًا، المحطة غارقة في الرعب. ولماذا؟ بخلاف إشباع رغبتكم في ترويع الناس؟"

قال جيزيلهير بينما كان يفرك مسحوق الفيستيك في لثّته: "نحن هنا في كمين. إذا جاء أحد لتبديل الخيول أو للاستراحة، نقضي عليه. هذا يجلب أكثر مما يجلبه أي مفترق طرق في البرية أو تقاطع طرق مهجور. ولكن، كما قالت سبارك للتو، المبدأ هو نفسه."

قال ريف وهو يشير إلى السيد ألما فيرا، الذي كانت رأسه بأكملها تقريبًا قد اختفت بين فخذي ميستل المفتوحتين: "لكننا بقينا هنا طوال اليوم، وكل ما حصلنا عليه هو هذا. رجل معدم مثل كل الفنانين. لا يملك شيئًا لنسرقه، لذا نحن نسرق فنه. انظروا إلى مدى براعته في الرسم."

كشف ذراعه، وأظهر وشمًا – امرأة عارية تحرك وركيها كلما قبض على يده. أما كايلي، فقد كان لديه وشم أيضًا – أفعى خضراء ملتفة حول ذراعه، فوق سوارٍ مسنن، بفمٍ مفتوح ولسانٍ مشقوق قرمزي اللون.

قال هوتسبورن بلهجة لا مبالية: "ذوقٌ رفيع، ومفيد جدًا في تحديد هوية الجثث."

ثم أضاف بحدة: "لكن السرقة هذه المرة لم تكن ناجحة، أيها الجرذان الأعزاء. سيتوجب عليكم دفع أجر الفنان مقابل فنه. لم تسنح لي الفرصة لتحذيركم: منذ سبعة أيام، منذ الأول من سبتمبر، أصبحت علامة المرور الآمن سهمًا بنفسجيًا متشعبًا. نفس العلامة المرسومة على عربته."

تمتم ريف بلعنةٍ خافتة، بينما انفجر كايلي ضاحكًا. أما جيزيلهير، فاكتفى برفع يده بلا مبالاة قائلاً: "حسنًا. إن لزم الأمر، سندفع له ثمن إبره وأحباره. سهمٌ بنفسجي، تقول؟ سنذكر ذلك. إذا جاء أحد غدًا يحمل علامة السهم، فلن يصيبه أي مكروه.

قال هوتسبورن بدهشة وشيء من عدم التصديق: "أنتم باقون هنا غدًا؟ أيها الجرذان، هذا تصرف أحمق. مخاطرة خطيرة!"

سأل جيزيلهير ببرود: "كيف؟"

كرر هوتسبورن بحدة: "مخاطرة خطيرة."

هزّ جيزيلهير كتفيه بلا اكتراث. أما سبارك، فقد بصقت على الأرض بتأفف. حدّق ريف، كايلي، وفالكا في هوتسبورن وكأنه قد أخبرهم أن الشمس قد سقطت في النهر، وعليهم أن يسارعوا لانتشالها قبل أن تمزقها مخالب السرطانات.

عندها أدرك هوتسبورن أنه كان يناشد المنطق لدى حفنة من المجانين الطائشين. وأنه كان يحذر من المخاطر والخطر أناسًا لا يعرفون لهذين المفهومين أي معنى، مليئين بغرور متهور وجنون العظمة.

قال بصوت منخفض لكنه واضح: "أنتم مطاردون، أيها الجرذان."

قال جيزيلهير بلا مبالاة: "وماذا في ذلك؟"

قاطعتهم ميستل، التي اقتربت منهم دون أن تكلف نفسها عناء ارتداء ملابسها. وضعت قدمًا على المقعد، وأدارت وركيها، وعرضت على الجميع عمل السيد ألما فيرا الفني: وردة حمراء متوهجة بساق خضراء ذات ورقتين، منقوشة مباشرة على ساقها قرب المغبن.

وضعت يديها على وركيها، وتألقت الألماسات على أساورها الكثيرة التي غطت ذراعيها حتى المرفقين، وقالت بفخر: "حسنًا؟ ما رأيكم؟"

ضحك كايلي وقال ساخرًا، وهو يمشط شعره للخلف: "كل شيء أجمل من الآخر!"

لاحظ هوتسبورن أن أذني كايلي مثقوبتان، وعليهما حلقات صغيرة. لا شك أن هذه الحلقات – إلى جانب السترة الجلدية المزينة بالمسامير – ستصبح الموضة الجديدة بين شباب الأثرياء في ثوم وجيسو قريبًا.

قالت ميستل وهي تومئ لفالكا: "دورك الآن، فالكا. ماذا تريدين لتميّزي نفسك؟"

مررت فالكا يدها على ساقيها، ثم انحنت وألقت نظرةً فاحصةً على الوشم عن قرب. عبثت ميستل بشعرها الأشقر الرمادي بلطف. بدأت فالكا بالضحك، ثم بدأت تخلع ملابسها بلا تردد.

قالت بابتسامة ماكرة: "أريد وردة. في المكان ذاته تمامًا كما لديكِ، حبيبتي."

* * *

قالت سيري، مقاطعةً قصتها بينما تنظر إلى الأرض: "أعتقد أن لديك فئرانًا، فيسجوتا."

ألقت نظرة على الأرض حيث أضاء ضوء المصباح الصغير معركةً حقيقية بين الفئران. ولم يكن بإمكانها سوى تخيّل ما يحدث خارج وهج المصباح، في الظلام.

قالت وهي تتابع بعفوية: "يمكنك الاستعانة بقطة. أو الأفضل، قطتين."

تنحنح الناسك وقال: "القوارض تأتي إلى الكوخ لأن الشتاء يقترب. ولدي قطة. لكنها ذهبت إلى مكان ما، الخائنة..."

هزّت سيري رأسها وقالت: "لا بد أن ثعلبًا أو راكونًا قد عضّها."

ابتسم فيسجوتا بخفة وقال: "أنت لم تري هذه القطة، سيري. إن كان قد عضّها شيء، فلا بد أنه كان تنينًا. لا شيء أصغر من ذلك."

قهقهت سيري وقالت: "إذًا، كان ذكرًا؟ ها، خسارة. لو كان هنا لما سمح لهذه الفئران بالزحف إلى سريري. خسارة."

أومأ فيسجوتا وقال: "خسارة. لكنني أعتقد أنه سيعود. هو دائمًا يعود."

نهضت سيري وقالت وهي تتجه نحو الموقد: "سأضع بعض الحطب على النار. الجو بارد."

قال فيسجوتا وهو يراقب اللهب المتراقص: "بارد. الليالي أصبحت باردة بشكل شيطاني الآن... ولم نصل حتى إلى منتصف أكتوبر... تابعي، سيري."

جلست سيري بلا حراك للحظة، تحدّق في موقد النار. تصاعدت ألسنة اللهب حول قطعة الحطب الجديدة، وبدأت في الطقطقة والهسيس. انعكس وهجها الذهبي على وجهها المشوه، مُلقيًا ظلالًا راقصة على ملامحها.

قال فيسجوتا بصوت هادئ: "إحكِ."

* * *

غرز السيد ألما فيرا الإبرة، فشعرت سيري بالدموع تتجمع في زوايا عينيها. رغم أنها تجهزت بالخمر والمسحوق الأبيض، كان الألم لا يُحتمل. اضطرت إلى عض أسنانها لمنع نفسها من إصدار أي أنين.

لكن، بالطبع، لم تئن. تصرفت كما لو أنها لم تلاحظ الإبر على الإطلاق، وكأن الألم لا يعنيها. حاولت أن تتصرف وكأن شيئًا لم يكن، وأن تشارك في الحديث الذي كان يدور بين الجرذان وهوتسبورن، ذلك الرجل الذي ادّعى أنه تاجر، لكنه لم يكن له أي علاقة بالتجارة كما يمارسها التجار.

قال هوتسبورن بصوت عميق، بينما تجولت عيناه الداكنتان في أرجاء الغرفة وعلى وجوه كل واحد من الجرذان: "الغيوم المظلمة تتجمع فوق رؤوسكم. ليس فقط حاكم أماريلو من يطاردكم، بل أيضًا فارنهاغن والبارون كاسادي..."

قطّب جيزيلهير حاجبيه وقال بامتعاض: "الوالي وفارنهاغن يمكنني تفهمهما، لكن ما علاقة كاسادي بنا؟ ما الذي يريده منا؟"

ابتسم هوتسبورن ابتسامة ساخرة وقال متهكمًا: "الذئب يرتدي ثوب الحمل، ويبدأ في العواء بيأس: 'باء، باء، لا أحد يحبني، لا أحد يفهمني. عندما أحاول المغادرة، يرمونني بالحجارة وهم يصرخون: اغرب عن وجوهنا!' لماذا، لماذا عليّ أن أتحمل هذا الظلم وهذه الإهانات؟"

ثم أضاف، وهو يحدق بهم: "ابنة البارون كاسادي، أيها الجرذان الأعزاء، في حالة سيئة منذ مغامرتها في شتيلزباش، ولا تزال تعاني من الحمى..."

قال جيزيلهير متذكراً: "آه... العربة ذات الخيول الأربعة المخططة! كانت تلك السيدة؟"

"نعم." هز هوتسبورن رأسه وأضاف: "الآن، كما قلت، تعاني. تستيقظ ليلاً وهي تصرخ، تتذكر اللورد كايلي... وبالذات الآنسة فالكا. وأيضًا الدبوس، تلك الذكرى العزيزة من والدتها، الذي انتُزع بعنف من فستانها على يد الآنسة فالكا، التي قالت حينها الكثير من الأمور..."

صرخت سيري من على الطاولة، سعيدةً بالحصول على فرصة للصراخ وتفريغ ألمها: "هذا ليس ما حدث على الإطلاق! لقد كنا متحفظين ومحترمين تجاه البارونة، وأطلقنا سراحهم دون أذى! كان على أحدهم أن يضاجع تلك الخادمة!"

توقف الحديث للحظة، ثم علق هوتسبورن، بنظرة ذات مغزى على فخذيها العاريتين: "بالفعل. لقد كان من الإهانة الكبرى ألا 'يضاجع أحدهم الخادمة'. ليس من المستغرب إذًا أن كاسادي استشاط غضبًا، فجهز فرسانه، وأعلن عن مكافأة. لقد أقسم علنًا أنه سيعلق رؤوسكم جميعًا على كورنيش جدران قلعته. كما أقسم أن الآنسة فالكا، بسبب الدبوس الذي انتزعته من فستان ابنته، ستُسلخ جلدها... على شكل شرائح."

لعنت سيري بينما انفجر بقية الجرذان ضاحكين وصائحين. عطست سبارك وبصقت – نتيجة لتأثير الفيسستيك على أغشيتها المخاطية.

قالت وهي تمسح أنفها وفمها وذقنها والطاولة بقطعة قماش: "نحن دائمًا مطاردون! الحاكم، البارون، الفارنهاغنز! يلاحقوننا، لكنهم لا يفهمون! نحن الجرذان! لقد عدنا على أعقابنا ثلاث مرات خلف نهر فيلده، والآن هؤلاء الحمقى يطاردون أثرًا باردًا! وبحلول الوقت الذي سيدركون فيه أنه أثر زائف، سيكونون قد ابتعدوا كثيرًا ليتمكنوا من الرجوع!"

دخل آس منذ لحظات من موقع الحراسة، لم يبدِ أحد نيّة لاستبداله، ولم يتحرك أحد لاستبداله الآن. قال بصوت حاد: "عليهم أن يعودوا أدراجهم!"

صرخت سيري من على الطاولة، وقد نسيت تمامًا مدى خوفها في الليلة الماضية عندما كانوا يفرّون من مطارديهم عبر القرى الصغيرة المحاذية لنهر فيلده: "وحينها سنفاجئهم من الخلف!"

ضرب جيزيلهير راحة يده على الطاولة بقوة، فتوقفت الثرثرة الصاخبة فورًا. قال بنبرة حازمة: "تحدث، هوتسبورن. أرى أنك تريد إخبارنا بشيء، شيء أهم من الحاكم، أو فارنهاغن، أو البارون كاسادي وابنته الحساسة."

قال هوتسبورن، صوته أكثر برودة من المعتاد: "بونهارت يتعقبكم."

ساد صمت طويل، غير معتاد. حتى السيد ألما فيرا توقف للحظة عن العمل ليستمع.

ردد جيزيلهير ببطء: "بونهارت. ذلك العجوز الرمادي اللعين. لا بد أننا دُسنا على قدم أحدهم بقوة."

أكدت ميستل وهي تحدق في هوتسبورن بعينين ضيقتين: "شخص ثري بلا شك. فليس هناك كثيرون يستطيعون تحمل تكلفة بونهارت."

كانت سيري على وشك أن تسأل من يكون هذا بونهارت، لكن قبل أن تفتح فمها، سُمع نفس السؤال بصوتين متزامنين – من ريف وآس.

قال جيزيلهير بعبوس وهو يفسر: "إنه صائد جوائز. بدأ كجندي، ثم تحول إلى تاجر متجول، وأخيرًا استسلم لرغبة قتل الناس مقابل المال. إنه ابن عاهرة لا مثيل له"

قال كايلي، بنبرة لا تخلو من اللامبالاة: "لو دفن كل من قتله بونهارت في نفس المقبرة، لاحتاجت إلى نصف فدان من الأرض"

رشت ميستل القليل من المسحوق الأبيض في الفراغ بين إبهامها وسبّابتها، واستنشقته بقوة عبر أنفها. ثم قالت وهي تمسح أثره عن وجهها: "بونهارت دمّر عصابة لوتار الكبير. طعنَه هو وأخاه، الذي كانوا يسمّونه الفطر السام"

تذمّر كايلي واتهمه قائلاً: "أشبه ما يكون بأنه طعنهم في الظهر"

أضاف جيزيلهير، وعيناه تضيقان بتفكير: "كما قتل أيضًا فالديس. وعندما مات فالديس، انهارت عصابته تمامًا. كانوا من أفضل العصابات. مجموعة لائقة، كانوا دائمًا حيث تقع الأحداث. رفاق جيدون. في وقت ما، فكرت بالانضمام إليهم... قبل أن نكوّن مجموعتنا"

أومأ هوتسبورن برأسه وقال بصوت عميق: "صحيح. لن نرى أمثال عصابة فالديس مجددًا في وقت قريب. الناس ما زالوا يغنون عن هروبهم من سردا، عندما كانوا محاصرين من قِبَل فارنهاغنز. نعم، كانوا مشعلو نيران، ومغامرين نبلاء، ممتلئين بروح الفروسية! بالكاد كان هناك من يستطيع منافستهم"

ساد الصمت فجأة بين الجرذان، وحدّقوا فيه بعيون تلمع بالغضب، وكأن كلماته كانت إهانة غير مقصودة.

قال كايلي بعد لحظة، صوته يقطر تحديًا: "لقد سحقنا كتيبة من سلاح الفرسان النيلفجاردي!"

تمتم آس بصوت منخفض، لكنه حمل ثقل التحدي: "لقد أذقنا النيسيرين الهزيمة!"

همّس ريف، والغضب يشتعل في عينيه: "ولا أحد يستطيع منافستنا!"

ضرب جيزيلهير صدره بقبضته وقال بحماس: "هذا صحيح، هوتسبورن. الجرذان لا يُضاهون أحدًا، ولا حتى عصابة فالديس. هل ذكرتَ الفروسية النبيلة؟ دعني أخبرك عن نساء يملكن شجاعة تفوق التصور. ثلاث منهن يجلسن هنا – سبارك، ميستل، وفالكا. كنّ يسرن في وضح النهار عبر بلدة درويغ الصغيرة، وعندما سمعن أن مجموعة من الفارنهاغنز تجلس في الحانة، دخلن بالحوافر إلى داخل الحانة! شققن طريقهن خلالها وخرجن إلى الساحة الأمامية. أما الفارنهاغنز فقد جلسوا هناك، بكؤوس محطمة، وبيرة مسكوبة، وأفواه مفتوحة بذهول. هل تجرؤ على القول إن هذا لم يكن عملًا بطوليًا؟"

أجابت ميستل بابتسامة خبيثة: "لن يقول ذلك، لأنه يعلم جيدًا من نحن. نقابته تعرف ذلك."

أنهى ماستر ألما فيرا وشمه. شكَرته سيري بنظرة ملكية، ارتدت ملابسها، وجلست مع الآخرين. أطلقت همهمة استياء عندما لاحظت النظرة الغريبة التي كان هوتسبورن يرمقها بها – نظرة تقييم، وربما تهكم خفي. نظرت إليه بطرف عينها، ثم استندت إلى كتف ميستل بشكل مبالغ فيه. لقد أصبحت معتادة على صدّ الرجال وإخماد حماستهم بعد مثل هذه العروض الرومانسية. لكن مع هوتسبورن، بدا أن الأمر غير ضروري، إذ لم يكن وقحًا في هذا الشأن.

كان هوتسبورن لغزًا بالنسبة إلى سيري. لم تره سوى مرة واحدة من قبل، أما بقية ما تعرفه عنه فقد أخبرتها به ميستل. قال جيزيلهير إنه يعرف هوتسبورن منذ زمن طويل، وإنهما صديقان قديمان. كان لديهما إشارات وشعارات وأماكن لقاء متفق عليها. في هذه اللقاءات، كان هوتسبورن يزوّدهم بالمعلومات – ثم ينطلق الجرذان إلى الطريق المحدد، وينصبون كمينًا للقافلة أو التاجر الذي تم تحديده. أحيانًا، كان هناك شخص معين يجب قتله. وكان هناك دائمًا علامة مرور آمنة – التجار الذين يحملون هذه العلامة لا يتم التعرض لهم.

في البداية، شعرت سيري بالدهشة وخيبة الأمل قليلًا – فقد كانت تنظر إلى جيزيلهير بإعجاب. كانت الجرذان تمثل لها رمزًا للحرية والاستقلال، وكانت تحب هذه الحرية، وهذا التحدي الصريح لكل شيء وكل شخص. لكن الآن، وجدت نفسها تنفّذ الأوامر، كما لو كانت مرتزقة تُؤمر بمن تضربه. ليس فقط أنهم كانوا ينفذون الأوامر، بل يلتزمون بها بأذان صاغية.

قالت ميستل وهي تهز كتفيها عندما سألتها سيري عن الأمر: "يد تغسل الأخرى، يا صغيرة. هوتسبورن يعطينا الأوامر، لكنه أيضًا يمدّنا بالمعلومات، وبفضلها نبقى على قيد الحياة. الحرية والازدراء لهما حدود. في النهاية، الأمر دائمًا ينتهي بأن يكون أحدهم أداة لشخص آخر."

"هذه هي الحياة، أيتها الصقر الصغير."

شعرت سيري بالدهشة وخيبة الأمل، لكنها سرعان ما تجاوزتها. لقد تعلّمت. وتعلّمت أيضًا ألا تتفاجأ كثيرًا وألا تتوقع الكثير – لأنه عندها، لن يكون وقع الخيبة مؤلمًا جدًا.

"أنا، أيها الجرذان الأعزاء،" قال هوتسبورن، قاطعًا تأملات سيري، "لديّ علاج لكل مشاكلكم. ضد النيسير، والبارونات، والحكام، بل وحتى ضد بونهارت. نعم، نعم. رغم أن الحبل يضيق حول أعناقكم، إلا أنني أعرف طريقة لإنقاذ جلودكم."

بصقت سبارك وضحك ريف بصوت عالٍ، لكن جيزيلهير أشار إليهم بالصمت، وأفسح المجال لهوتسبورن ليكمل حديثه.

"هذا يعني،" تابع التاجر بعد لحظة صمت، "أنه في الأيام القادمة سيتم الإعلان عن عفو عام. حتى لو كان الشخص مدانًا قانونيًا، ها، حتى لو كان بالفعل على حبل المشنقة، فسيُغفر له إذا اعترف. وينطبق هذا عليكم أيضًا."

"هراء!" صاح كايليغ، وعيناه تدمعان قليلًا، نتيجة الجرعة التي استنشقها للتو من الفيستيك. "حيلة نيلفجاردية، خدعة! الأرانب العجوزة مثلنا لا تقع في مثل هذا الهراء!"

"كفى!" أوقفه جيزيلهير. "لا تتحمس أكثر من اللازم، كايليغ. هوتسبورن، كما تعلمون، لا يهذي، ولا ينقل القيل والقال، ولا يكرر معلومات عديمة الفائدة. إنه عادة يعرف ما يقول، ولماذا يقوله. أنا متأكد من أنه يعرف سبب هذا الكرم النيلفجاردي المفاجئ، وأنا متأكد من أنه سيخبرنا."

"الإمبراطور إمير،" قال هوتسبورن بصوت خافت، "يعتزم الزواج. قريبًا سيكون لدينا إمبراطورة في نيلفجارد. ولهذا السبب يتم الإعلان عن العفو. الإمبراطور في غاية السعادة، ويريد أن يجعل الآخرين سعداء أيضًا."

"لا تعنيني سعادة الإمبراطور في شيء"، أعلنت ميستل بصبر. "أما بخصوص هذا العفو، فأفضل ألا أستفيد منه، لأن هذه الرحمة النيلفجاردية تفوح منها رائحة نشارة الخشب الطازجة. كما لو أنهم يشحذون وتدًا، هاها!"

"لا أعتقد"، أجاب هوتسبورن وهو يهز كتفيه، "أنها مجرد خدعة. إنها مسألة سياسية. مسألة كبرى. أكبر من الجرذان، وأكبر من كل العصابات المحلية مجتمعة. هذه المسألة تتعلق بالسياسة."

"ولماذا العفو إذًا؟" عبس جيزيلهير. "لا أفهم الهدف منه."

"زواج الإمبراطور إمير له دوافع سياسية، ومن خلال هذا الزواج يمكن تحقيق أهداف سياسية معينة. الإمبراطور يعقد هذا الزواج، هذه الوحدة، لأنه يريد توحيد الإمبراطورية بشكل أكبر، وإيقاف النزاعات الحدودية، وإحلال السلام. هل تعرفون، في النهاية، من هي العروس؟ سيريلا، وريثة عرش سينترا!"

"كاذب!" صرخت سيري. "أنت كاذب!"

"ولماذا تنعتني الآنسة فالكا بالكذب؟" أدار هوتسبورن عينيه نحوها. "هل هي، ربما، أكثر إطلاعًا مني؟"

"دائمًا!"

"اصمتي، فالكا"، زمجر جيزيلهير. "كنتِ هادئة عندما كانوا يطعنونك في مؤخرتك، والآن تصرخين؟ ما هذا السينترا، هوتسبورن؟ ما هذه السيريللا؟ لماذا كل هذه الأهمية؟"

"سينترا"، قاطع ريف بينما كان ينثر جرعة من الفيستيك على إصبعه، "هي مملكة صغيرة في الشمال، التي خاضت الإمبراطورية والملوك المحليون صراعًا عليها منذ ثلاث أو أربع سنوات."

"صحيح"، أكد هوتسبورن. "الإمبرياليون أخضعوا سينترا، بل عبروا نهر اليارا أيضًا، لكن لاحقًا اضطروا إلى الانسحاب."

"لأنهم تلقوا هزيمة نكراء على تل سودين"، زمجرت سيري. "لقد انكمشوا لدرجة أنهم سيخسرون حتى أمام سراويل فأر!"

"أرى أن الآنسة فالكا على دراية تامة بالتاريخ الحديث. أمر يستحق الثناء، ويثير الإعجاب في سنّ صغيرة كهذه. هل لي أن أسأل في أي مدرسة تدرس الآنسة فالكا؟"

"لا يحق لك!"

"يكفي"، نادى جيزيلهير ليعيد النظام. "تحدث عن هذه السينترا، هوتسبورن. وعن العفو."

"الإمبراطور إمير"، قال التاجر، "قرر أن يجعل من سينترا دولة متسلقة..."

"ماذا؟"

"دولة متسلقة. كما أن اللبلاب لا يستطيع العيش دون جذع قوي يتسلق عليه. وبالطبع، هذا الجذع هو نيلفجارد. هناك بالفعل دول من هذا النوع، مثل متينا، ميخت، وتوسان... السلالات الحاكمة المحلية ما زالت تملك الحكم هناك. لكن، بالطبع، مجرد مظهر."

"يُطلق عليها اسم الدول الدمية"، تبجح ريف.

"لقد سمعت بالمصطلح."

"المشكلة مع سينترا، مع ذلك، هي أن السلالة الملكية قد انقرضت هناك..."

"انقرضت؟" للحظة، بدا وكأن شرارات خضراء على وشك أن تنطلق من عيني سيري. "انقرضت لأن النيلفجارديين اغتالوا الملكة كالانثي! مجرد قتلة وضيعين!"

"أعترف"، أشار هوتسبورن إلى جيزيلهير ليجلس مجددًا، لأنه كان قد نهض بسبب تكرار مقاطعة سيري، "بأن معرفة الآنسة فالكا تواصل التألق ببراعة هنا. الملكة كالانثي سقطت بالفعل خلال الحرب. وكذلك قُتلت – كما يُزعم – سيريلا، حفيدتها، آخر أفراد الدم الملكي. لذا لم يكن لدى إمير الكثير من الخيارات ليصنع، كما عبّر السيد ريف بحكمة، دولة دمية. ولكن بما أن سيريلا قد وُجدت فجأة، فلا بد أن قصة وفاتها كانت مجرد خدعة."

"كل القصص كذلك"، زمجرت سبارك وهي تستند إلى كتف جيزيلهير.

"بالفعل"، أومأ هوتسبورن. "لا بد أن نعترف أن الأمر يبدو أشبه بحكاية خرافية. يُقال إن ساحرة شريرة حبست هذه سيريلا في برج مسحور في مكان ما بعيد في الشمال. لكنها – سيريلا، وليست الساحرة – تمكنت من الهرب وطلبت اللجوء في الإمبراطورية."

"هذا كومة ضخمة، دموية، من الأكاذيب والهُراء!" انفجرت سيري وهي تمتد بيدين مرتجفتين نحو جرة الفيسستيك.

"قد يكون ذلك صحيحًا"، تابع هوتسبورن ببطء، "لكن الإمبراطور إمير أعلن أنه وقع في حبها عند النظرة الأولى، ويريد الآن أن يتخذها زوجة له."

"الصقر الصغير محق"، قالت ميستل بحزم، مؤكدة كلماتها بضربة قبضة قوية على الطاولة. "هذا محض هراء! لا أدعي أنني أفهم ما يجري هنا. لكن شيئًا واحدًا مؤكد: أن نضع أي أمل في هذا الهراء عن النعمة والرحمة القادمة من نيلفجارد سيكون ضربًا من الجنون!"

"صحيح"، وافقها ريف. "زواج الإمبراطور ليس من شأننا. وإذا كان الإمبراطور الذي أعرفه سيتزوج، فهناك عروس أخرى تنتظرنا. حبل المشنقة!"

"الأمر لا يتعلق بأعناقكم، أيها الجرذان الأعزاء"، ذكّرهم هوتسبورن. "الأمر يتعلق بالسياسة. الحدود الشمالية للإمبراطورية كانت دائمًا تعج بالتمرد، والفوضى، والاضطرابات، خاصة في هذه السينترا والمناطق المحيطة بها. إذا تزوج الإمبراطور وريثة سينترا، فستهدأ سينترا. سيكون هناك عفو رسمي،

وستنزل الجماعات المتمردة من الجبال، ولن تعود تزعج القوات الإمبراطورية أو تثير المشاكل. ما يمكنني إخباركم به هو هذا: إذا جلست سينترية على العرش الإمبراطوري، فسيتم تجنيد المتمردين في الجيش الإمبراطوري. وكما تعلمون، في الشمال، عبر نهر يارّا، هناك حرب مشتعلة، وكل جندي مطلوب."

"آه-ها." تجهّم كايليغ. "الآن فهمت! يا لها من عفو رائع! لديك خيار واحد فقط: إما الحصة الحادة هنا والآن، أو ألوان الإمبراطورية. إما أن يُدقّ الخازوق في مؤخرتك أو أن توشح الألوان على ظهرك. ثم تُرسل إلى الحرب لتموت من أجل الإمبراطورية!"

"إلى الحرب"، قال هوتسبورن ببطء. "نعم، البعض سيذهب إلى الحرب كما في الأغاني. لكن هذا لا يعني أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى الحرب، أيها الجرذان الأعزاء. يمكنكم أيضًا – بعد أن تستوفوا شروط العفو بالطبع – أداء نوع من... الخدمة البديلة."

"ماذا؟"

"أنا أعرف ما يقصد." أضاءت أسنان جيزيلهير للحظة في وجهه المحترق بالشمس والمُحلق بعناية. "نقابة التجار، أطفالي، ترغب في تبنينا. ستضمنا إلى صدرها وتحمي حمايتنا. وكأنها أمنا الحنون."

"أشبه بمديرة بيت دعارة"، تمتمت سبارك. هوتسبورن تظاهر بعدم السماع.

"أنت محق، جيزيلهير"، قال ببرود. "النقابة يمكنها أن تنقل تبعيتكم. رسميًا، كخدمة مجتمعية. وتمنحكم الحماية. رسميًا وبطريقة بديلة."

كان كايليغ على وشك التحدث، وميستل أيضًا أرادت قول شيء، لكن نظرة سريعة من جيزيلهير أسكتتهما على الفور.

"الخضوع للنقابة..." قال قائد الجرذان بنبرة جليدية. "نحن ممتنون لهذا العرض. سنفكر فيه – سنتأمل ونتشاور فيما بيننا. ماذا ستفعل الآن؟"

نهض هوتسبورن. "سأرحل."

"الآن، دون أن ترتاح هذه الليلة؟"

"سأرتاح في القرية الليلة. هذه المحطة لا تبدو لي مكانًا آمنًا. وغدًا سأتوجه مباشرة نحو حدود ميتينا، ثم على الطريق الرئيسي إلى فورجهم، حيث سأبقى حتى الاعتدال، وربما لفترة أطول. سأنتظر هناك، تحديدًا لمن فكروا جيدًا وهم مستعدون للتقدم وقبول حمايتي تحت العفو. ولدي نصيحة أخيرة لكم، لا تضيّعوا الكثير من الوقت في التأمل والتفكير. لأن بونهارت سيستبق العفو."

"الطريقة التي تستمر بها في محاولة تخويفنا ببونهارت"، قال جيزيلهير ببطءٍ وهو ينهض. "تكاد تجعلنا نعتقد أن الوغد يقف على عتبة بابنا... لكنني متأكد من أنه بعيد، وراء التلال والوديان..."

"... في قرية الغيرة"، أكمل هوتسبورن الجملة بصوت هادئ. "في نُزل رأس الكيميرا. على بعد حوالي ثلاثين ميلًا من هنا. لو لم تلتفوا خلف الفيلدي أمس، لكنتم قد التقيتم به الآن."

"لكن هذا لا يهمكم، بلا شك. حظًا سعيدًا، جيزيلهير. اعتنِ بنفسك، أيها الجرذ. المعلم ألما فيرا؟ سأتجه إلى ميتينا، ويسعدني أن أسافر برفقة رفيق... ما رأيك، أيها المعلم؟ سعيد؟ كنتُ متأكدًا من ذلك. اجمع أغراضك. أيها الجرذان – ادفعوا للمعلم مقابل عمله الفني."

* * *

رائحة البصل المقلي وحساء البطاطس الحامض ملأت مكتب البريد، أعدته زوجة مدير البريد، التي أُطلق سراحها مؤقتًا من المخزن. الشمعة على الطاولة كانت تتوهج وترتعش، ولسان لهبها يتمايل جيئة وذهابًا. الجرذان انحنوا فوق الطاولة، رؤوسهم تكاد تتلامس من شدة قربهم.

"إنه في قرية الغيرة"، قال جيزيلهير بصوت منخفض. "في نُزل رأس الكيميرا. بالكاد يبعد مسيرة يوم عن هنا. ما رأيكم؟"

"نفس رأيك"، زمجر كايليغ. "نمتطي خيولنا إلى هناك ونقتل ذلك الوغد."

"ننتقم لفالدز"، قال ريف. "وللضفدع."

"ولن يجرؤ أحد بعد الآن"، همست سبارك، "لا هوتسبورن ولا أي شخص آخر، على مدح شجاعة غيرنا أكثر من شجاعتنا. سيرون كيف سنتعامل مع بونهارت، هذا الوحش، هذا الذئب البشري. سيروننا نُسمّره برأسه على باب النُزل، ليُناسب الاسم حقًا. سيرون أنه ليس بذلك العظمة حين يكون في نهاية رمح طويل، بل مجرد مخلوق فانٍ مثل أي شخص آخر، وأنه أخيرًا وجد من يوقفه عند حده. سيرون من هو الأفضل بين جميع العصابات من كوراث إلى بيربلوت."

"ستُغنّى أغانٍ عنّا في الأسواق"، قال كايليغ بحماس. "ها، وفي القصور أيضًا!"

"فلنمتطِ الخيول"، ضرب آسي قبضته على الطاولة. "لننطلق ونقتل هذا اللعين!"

"ومن بعد ذلك"، فكر جيزيلهير بصوت مرتفع، "سوف نفكر في هذه العفو... في النقابة... ما بالك يا كايليغ؟ تبدو وكأنك ابتلعت حشرة؟ المطاردون على أعقابنا، وسرعان ما سيحل الشتاء. هذا هو مخططي، أيها الجرذان: سنقضي الشتاء وظهورنا تدفأ على حرارة المدفأة. العفو سيحمينا من برد الشتاء، وسيوفر لنا جعة دافئة نشربها. سنعيش حياة لا بأس بها تحت ظل هذا العفو... حتى يحين الربيع. وعندما يطل الربيع... بمجرد أن تظهر أولى شفرات العشب من تحت الثلوج..."

انفجر الجرذان في ضحك موحّد، منخفض وموحش. أعينهم اشتعلت مثل أعين الجرذان الحقيقية عندما تجد في زاوية معتمة رجلاً جريحًا غير قادر على الدفاع عن نفسه.

"لنشرب"، قال جيزيلهير. "ليرقد بونهارت في التراب! سنُنهي هذا الحساء ونتوجه إلى الفراش. وننام جيدًا، لأننا سننطلق مع الفجر."

"بكل تأكيد"، شخرت سبارك، "انظروا إلى ميستل وفالكا كمثال. لقد سبقتانا إلى الفراش منذ ساعة."

زوجة مدير البريد ارتجفت بجانب القدر عندما سمعت الضحكات الخافتة، الحقودة، المقرفة التي تصاعدت من الطاولة.

* * *

رفعت سيري رأسها وظلت صامتة لفترة طويلة، تحدق في اللهب الخافت للمصباح، حيث كان آخر ما تبقى من الزيت يحترق ببطء.

"ثم تسللتُ مثل اللص من المحطة"، استأنفت روايتها. "قبل الفجر، عندما كان الظلام لا يزال يلف المكان... لكنني لم أتمكن من الفرار دون أن يلاحظني أحد. لا بد أن ميستل استيقظت عندما نهضتُ من السرير. لحقت بي في الحظيرة بينما كنت أجهز حصاني للرحيل. لكنها لم تبدِ أي دهشة. لم تحاول حتى أن تمنعني... كان الفجر يقترب بالفعل..."

"الفجر يقترب الآن أيضاً." تثاءب فيسجوتا. "حان وقت النوم، سيري. أخبريني بالمزيد غدًا."

"ربما أنت محق." تثاءبت بدورها، وقامت من مكانها، تمددت بقوة. "لم أعد أستطيع إبقاء عيني مفتوحتين. لكن بهذه الوتيرة، أيها الناسك، لن أنتهي أبدًا. كم من الأمسيات مضت؟ لا تقل عن عشرة. أخشى أن تستغرق حكايتي ألف ليلة وليلة."

"لدينا الوقت، سيري. لدينا الوقت."

* * *

"ممن تهربين، أيتها الصقر الصغير؟ مني؟ أم من نفسك؟"

"لقد انتهيتُ من الهرب. الآن أريد أن أقبض على شيء. لهذا، عليّ أن أعود... إلى حيث بدأ كل شيء. يجب أن أفعل. افهمي ذلك، ميستل."

"إذن لهذا السبب... كنتِ لطيفة معي اليوم. للمرة الأولى بعد كل تلك الأيام... مرة أخيرة قبل الفراق؟ ثم النسيان؟"

"لن أنساكِ أبدًا، ميستل."

"ستفعلين."

"أبدًا. أعدكِ بذلك. ولم تكن هذه المرة الأخيرة. سأجدكِ. سأعود لأجلكِ... سأعود بعربة مذهبة تجرّها ستة خيول، يحيط بي الحاشية. سترين. قريبًا ستكون لديّ... إمكانيات. إمكانيات عظيمة. سأجعل قدركِ يتغير... سترين. ستكتشفين كم أستطيع. كم يمكنني أن أغيّر."

"ذلك سيتطلب قوة كبيرة." تنهدت ميستل. "وسحرًا هائلًا..."

"ذلك ممكن." لحست سيري شفتيها. "حتى السحر... الذي يمكنني به أن أستعيد... كل ما فقدته يومًا، أن يعود إليّ... وأن يكون ملكي مجددًا. أعدكِ، ستندهشين عندما نلتقي مرة أخرى."

أدارت ميستل رأسها المحلوق بعيدًا، وحدقت في الخطوط الزرقاء والوردية التي كان الفجر يرسمها بالفعل على الحافة الشرقية للعالم.

"حقًا؟" قالت بهدوء. "سأكون مندهشة جدًا إذا التقينا مجددًا. إذا رأيتكِ مرة أخرى. والآن، انطلقي. لا نريد أن نطيل هذا الوداع."

"انتظريني." شَهَقَت سيري. "ولا تجعلي نفسكِ تُقتلين. فكّري في العفو الذي تحدث عنه هوتسبورن. حتى لو لم يرغب جيسلير والبقية به... لكن فكّري به، ميستل. قد يكون وسيلة للبقاء. لأنني سأعود لأجلكِ. أقسم لكِ."

"قبّليني."

انبثق الفجر. تزايد الضوء، وكذلك البرد.

"أحبكِ، ميستل."

"أحبكِ، أيتها الصقر الصغير. والآن، انطلقي."

* * *

"بالطبع، لم تصدقني. كانت مقتنعة بأنني لن أتمكن من تحمل القلق أثناء مطاردة هوتسبورن، وأنها ستضطر للعثور عليّ وإنقاذي، وأنني، في النهاية، سأعود إليها متوسلة الصفح. كيف كان يمكنها أن تعرف ما اجتاحني من مشاعر عندما سمعت هوتسبورن يتحدث عن سينترا، عن جدتي... كالانثي؟ عندما افترض أن أي سيريلا ستكون زوجة لإمبراطور نيلفجارد. نفس الإمبراطور الذي قتل جدتي، والذي أرسل ذلك الفارس الأسود صاحب جناحي الطائر الجارح على خوذته لاصطيادي. لقد أخبرتك عنه، أليس كذلك؟ على جزيرة ثانيد، عندما مد يده نحوي، قطعتُه وتركته ينزف! كان لدي الوقت لقتله... لكن بطريقة ما، لم أستطع..."

"كنتُ غبية! أوه، بحق الجحيم، ربما بقي هناك ونزف حتى الموت على ثانيد... لماذا تنظر إليّ هكذا؟"

"تابعي. أخبريني كيف ركضتِ خلف هوتسبورن لاستعادة إرثك. من أجل استعادة ما هو لكِ."

"لا داعي لأن تتحدث بهذه النبرة اللائمة، لا داعي للسخرية. نعم، أدرك أنه كان تصرفًا أحمق، أرى ذلك الآن. حتى في ذلك الوقت... في كير مورهن ومعبد ميليتلي كنت أكثر حكمة – كنت أعرف أن ماضيّ لا يمكن أن يعود، أنني لم أعد أميرة سينترا، بل أصبحت شخصًا مختلفًا تمامًا، أنني لا أملك إرثًا، أنه قد ضاع، وأن عليّ تقبّل ذلك. لقد تم شرح ذلك لي بحكمة وهدوء، وقد تقبلته. وبهدوء كذلك. لكن فجأة، بدأ كل شيء يعود إليّ. المرة الأولى التي حاول فيها أحد أن يبهرني بلقب البارونة كاساداي... لم أكن أهتم بمثل هذه الأشياء من قبل، لكنني فجأة شعرت بالغضب، رفعت أنفي عاليًا

وصرختُ بأنني سأحصل على لقب أعلى، بأنني أنحدر من نسب أعرق. ومنذ ذلك الحين، لم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر. كنت أشعر بالغضب يتأجج في داخلي. أفهمتَ، فيسجوتا؟"

"نعم."

"وقصة هوتسبورن كانت القشة التي قصمت ظهري. كنت أغلي من الغضب... لقد تحدثوا معي كثيرًا عن القدر... والآن شخص آخر يستمتع بهذا القدر، بفضل خدعة تافهة. شخص ما انتحل شخصيتي، ادّعى أنه سيري من سينترا، ويمكنه فعل أي شيء، يمكنه أن يسبح في الرفاهية... لا، لم أستطع التفكير في شيء آخر... فجأة أدركت أنني لم أكن أشبع من الطعام أبدًا، أنني كنت أرتجف من البرد، أنني كنت أنام تحت السماء المفتوحة، أنني كنت أغسل نفسي في الجداول الجليدية... أنا! كان يمكنني أن أستحم في حوض مطلي بالذهب! بماء تفوح منه رائحة اللافندر والورد! بمنشفة دافئة! بسرير نظيف! هل تفهم يا فيسجوتا؟"

"نعم."

"فجأة، كنت مستعدة للركض إلى المقاطعة التالية، إلى القلعة التالية، إلى أولئك النيلفجارديين السود الذين كنت أخشاهم وأكرههم بشدة... كنت مستعدة لأقول لهم: 'أيها الأغبياء النيلفجارديون، أنا سيري، إمبراطوركم الغبي لم يأخذني زوجة، لقد خدعوه بزراعة محتال وقح مكانه، ولم يلاحظ حتى الخدعة!' كنت في غاية الحماسة لدرجة أنني كنت سأفعلها، لو أُتيحت لي الفرصة. دون تردد. هل تفهم يا فيسجوتا؟"

"نعم."

"لحسن الحظ، هدأت."

"لصالحك." هز رأسه بجدية.

"هذه الزيجات الإمبراطورية تحمل كل سمات الشؤون السياسية إنها ساحة معركة للفصائل والأحزاب المتنافسة. لو كشفتِ نفسكِ، لكانت بعض القوى المتنفذة قد أجرت حساباتها بسرعة، ولربما كنتِ ستنتهين بسكين مغروس في ظهركِ أو بالسم في كأسكِ، فقط للتأكد من التخلص منكِ."

لقد فهمت ذلك أيضًا. ولاحظت. وتذكرت ذلك جيدًا. كان كشف هويتي يعني الموت. كانت لدي الفرصة لإقناعهم. لكنني لم أُقدم على ذلك."

ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، بينما كانا يعملان على معالجة الجلود. كان الصيد في الأيام الأخيرة وفيرًا على غير العادة؛ فقد عثروا على العديد من فئران المسك ونوتريا في الفخاخ والشباك، بالإضافة إلى اثنين من ثعالب الماء وقندس. كان أمامهم الكثير من العمل.

"هل لحقت بهوتسبورن؟" سأل فيسجوتا أخيرًا.

"نعم." مسحت سيري جبهتها بكمّها. "ولحقت به بسرعة، لأنه لم يكن مستعجلًا. ولم يكن حتى متفاجئًا عندما رآني!"

* * *

"الآنسة فالكا!" شدّ هوتسبورن لجامه، فاستدارت فرسه السوداء وأخذت تتراقص على قوائمها. "يا لها من مفاجأة سارّة! رغم أنني يجب أن أعترف بأنها ليست مفاجأة كبيرة، بقدر ما هي ممتعة. كنت أتوقعكِ، أعترف أنني كنت أتوقعكِ. لقد رأيتكِ على وشك اتخاذ قرار. قرار حكيم. أرى بريق الذكاء في هاتين العينين الجميلتين الساحرتين."

اقتربت سيري، حتى كادت ركائبها تلامس ركائب حصانه، ثم تنحنحت، مالت قليلًا، وبصقت على الرمال. لقد تعلّمت أن تبصق بهذه الطريقة – كانت حركة مقززة، لكنها فعالة في تهدئة حماس أي مغوٍ متحمّس.

"أفترض" قال هوتسبورن بابتسامة خفيفة، "أنكِ ترغبين في الاستفادة من العفو؟"

"إذن فقد افترضت خطأً."

"فلأي سبب إذن، أُكرمتُ برؤية هذا الوجه الجميل الصغير؟"

"وهل يحتاج الأمر إلى سبب؟" همست بغضب. "في المحطة قلتَ إنك ترحّب دائمًا برفقة المسافرين."

"صحيح." ابتسم ابتسامة صريحة. "لكن إذا كنتُ مخطئًا بشأن العفو، فلا أدري إن كانت وجهاتنا متوافقة. نحن كما ترين عند مفترق طرق وهناك أربعة اتجاهات، ضرورة الاختيار... الرمزية ذاتها من

الحكاية المشهورة. إذا ذهبتِ شرقًا، لن تعودي... إذا ذهبتِ غربًا، لن تعودي... والشمال... هممم... إلى الشمال من هذه المحطة، يكمن العفو..."

"احشر عفوكَ في مكان آخر."

"كما تأمر السيدة. إذن، إلى أين، إن سمحتِ لي بالسؤال؟ أي اتجاه ستسلكينه من هذا المفترق الرمزي؟ السيد ألما فيرا، فنان الإبر، قد دفع بغلته نحو الغرب، إلى بلدة فانو. والطريق السريع الشرقي يؤدي إلى مستوطنة 'الغيرة'، رغم أنني أنصحكِ بشدة بعدم التوجه إلى هناك..."

"نهر يارا"، قالت سيري ببطء، "الذي تحدثتَ عنه في المحطة... إنه الاسم الذي يطلقه النيلفجارديون على الياروغا، أليس كذلك؟"

"السيدة الشابة مثقفة للغاية" – انحنى للأمام ونظر في عينيها – "ولكنها لا تعرف ذلك؟"

"ألا يمكنكَ الرد بطريقة لائقة عندما يُطرح عليك سؤال بأدب؟"

"كنتُ أمزح قليلًا، لماذا كل هذا الغضب؟ نعم، إنه نفس النهر. في لغة الإلف والنيلفجاردية يُدعى 'يارا'، وفي الشمال 'الياروغا'."

"ومصبّ هذا النهر،" واصلت سيري، "يقع في سينترا؟"

"نعم، يا سيدتي. سينترا."

"كم يبعد من هنا إلى سينترا؟ كم ميلًا؟"

"كثير. ويعتمد ذلك على أي مقياس أميال تستخدمين. فلكل أمة تقريبًا وحدة قياس مختلفة، ومن السهل أن يختلط الأمر. ولهذا فإن التجار يقيسون المسافات بعدد الأيام. سيستغرق السفر من هنا إلى سينترا خمسة وعشرين إلى ثلاثين يومًا."

"إلى أين؟ مباشرة إلى الشمال؟"

"يبدو أن الآنسة فالكا مهتمة جدًا بهذه سينترا. لماذا؟"

"سأتولى العرش هناك."

"حسنًا، حسنًا." رفع هوتسبورن يديه في إيماءة دفاعية. "أرى أن الأمر حساس، لن أطرح المزيد من الأسئلة. أسهل طريق إلى سينترا، وبطريقة مفارقة، ليس مباشرة إلى الشمال، لأن التضاريس الوعرة ومنطقة البحيرات المستنقعية ستعيق تقدمك. بدلاً من ذلك، عليك السفر إلى مدينة فورجهام، ثم الركوب إلى الشمال الغربي نحو ميتينا، عاصمة البلاد التي تحمل الاسم نفسه. بعدها تعبرين سهول ماج ديرا وتتبعين طريق التجارة حتى تصلي إلى مدينة نويونرويث. اسلكي الطريق السريع الشمالي من نويونرويث، الذي يمتد على طول وادي نهر يلينا. ومن هناك، سيكون من السهل العثور على الطريق: ما عليك سوى تتبع خطوط الجنود وقوافل النقل العسكري التي تسير على الطريق. سيقودك ذلك إلى وادي مارنادال، عند ناساير، ومنه إلى درجات مارنادال، الممر الذي يؤدي إلى الشمال. وهناك ستكونين في سينترا."

"هممم..." حدّقت سيري في الأفق الضبابي، المشوش بخطوط التلال السوداء. "بعد فورجهام، الركوب إلى الشمال الغربي... هذا يعني... كم تبعد؟"

"تعلمين ماذا، آنستي؟" ابتسم هوتسبورن برقة. "أنا في طريقي إلى فورجهام، ومن هناك إلى ميتينا ثم طريق التجارة الممتد بين التلال. إذا رافقتني السيدة، فلن تضيع طريقها. نحو العفو، ولكن ليس إلى العفو. ومع ذلك، سيكون من دواعي سروري أن أعمل وأسافر مع شابة جميلة كهذه."

ألقت سيري عليه نظرة باردة كالجليد. ردّ هوتسبورن بابتسامة ماكرة. "إذن، ما رأيكِ؟"

"لننطلق."

"برافو، آنسة فالكا. قرار حكيم. كما قلت، السيدة ذكية بقدر ما هي جميلة."

"توقف عن مناداتي بالآنسة، هوتسبورن. طريقتك في قولها تجعلها تبدو وكأنها إهانة، ولن أقبل الإهانة دون عقاب."

"كما تأمر السيدة".

* * *

"الفجر الجميل لم يحقق التوقعات التي أثارها. اليوم الذي تلاه كان رماديًا ورطبًا."

تلاشت ألوان الخريف الزاهية تحت ضباب رطب، حيث انحنت الأشجار فوق الطريق، أوراقها تتراقص بآلاف الدرجات من البني، والأحمر، والأصفر. عبق الهواء المشبع بالرطوبة كان يفوح برائحة اللحاء والفطريات.

كانا يركبان الهوينى فوق بساط من الأوراق المتساقطة، لكن هوتسبورن كثيرًا ما كان يدفع فرسه السوداء إلى الهرولة أو العدو، مما جعل سيري تراقبه بحسد.

"هل لها اسم؟"

"لا." ابتسم هوتسبورن، كاشفًا عن أسنانه اللامعة. "أتعامل مع الخيول من منظور الفائدة. إنها تتغير باستمرار، لذا لا أرتبط بها بولاء. أرى أن تسمية الخيول أمر مبالغ فيه، إن لم يكن المرء يدير سجلًا للأنساب. ألا توافقين؟ الحصان جولدهانز، الكلب بيلو، والقط مورله... أمر زائد عن الحد!"

لم يعجب سيري نظراته أو ابتسامته الموحية، ولا نبرته الساخرة التي استخدمها عند طرح الأسئلة أو الإجابة عنها. لذا تبنت معه نهجًا بسيطًا—لغة صامتة، مقتضبة، لا تمنحه فرصة للاستفزاز. إن نجحت الخطة. أحيانًا لم تنجح. خصوصًا عندما يتحدث عن العفو. ومع ذلك، عندما أبدت استياءها مجددًا—وبحدة هذه المرة—فوجئت بتغيير في أسلوبه: أعلن فجأة أن العفو غير ضروري في حالتهما، لأنه لم يكن ينطبق عليهما من الأساس. العفو كان للمجرمين، كما قال، وليس لضحايا الجريمة.

ضحكت سيري بصوت عالٍ. "أنت أيضًا ضحية، هوتسبورن!"

"أنا جاد تمامًا." أكد لها، نبرته هادئة لكنها مصممة. "لا أحاول إضحاكك، بل أقترح عليكِ وسيلة تنقذين بها نفسك إذا تم القبض عليكِ يومًا. بالطبع، لن تنجح مع البارون كاساداي، ولن يرحمك الفارنهاغنز أيضًا—في أحسن الأحوال، سيشنقونكِ فورًا، بسرعة ودون ألم إن كنتِ محظوظة. لكن، إذا وقعتِ في قبضة الحاكم ووقفتِ أمام وجه العدالة الإمبراطورية الصارمة ولكن العادلة... حسنًا، عندها أقترح عليكِ هذا الدفاع: انهاري في البكاء، وأعلني أنكِ ضحية بريئة للظروف."

"ومن سيصدق ذلك؟"

"الجميع." مال هوتسبورن في سرجه ونظر إلى عينيها. "لأنه الحقيقة. أنتِ ضحية بريئة، فالكا. لم تكملي السادسة عشرة بعد، لذا، وفقًا لقوانين الإمبراطورية، أنتِ قاصر. وجدتِ نفسكِ بين عصابة الجرذان بمحض الصدفة. لم يكن خطأكِ أن واحدة من أفراد العصابة، ميستل، وضعت عينها عليكِ، ميولها غير الطبيعية معروفة. لقد خضعتِ لميستل، واستُغلتِ جنسيًا، وأُجبرتِ على..."

"حسنًا، هنا سأقاطعك." فاجأها هدوء صوتها. "وأخيرًا، ظهرت حقيقتك، هوتسبورن. لقد قابلتُ أمثالك من قبل."

"حقًا؟"

"مثل كل ديك صغير" – ما زالت تتحدث بهدوء – "ينتفخ عرفك عند التفكير في ميستل وأنا. مثل أي رجل غبي، تخطر ببالك فكرة أنك يجب أن تحاول علاجي من هذا المرض غير الطبيعي، وإعادتي إلى طريق الواقع. لكن هل تعلم ما هو المقزز وغير الطبيعي في كل هذا؟ إنها تلك الأفكار ذاتها!"

نظر إليها هوتسبورن بصمت، بابتسامة غامضة قليلًا على شفتيه الرفيعتين.

"أفكاري، عزيزتي فالكا،" قال بعد لحظة، "قد لا تكون لائقة، قد لا تكون جميلة، قد لا تكون... تبا، من الواضح أنها ليست بريئة... لكن، بالآلهة، هي تتماشى مع الطبيعة. طبيعتي. أنتِ تهينينني إن كنتِ تظنين أن اهتمامي بكِ مبني على نوعٍ من... الفضول المنحرف. ها، أنتِ تهينين نفسكِ إن تجاهلتِ أو لم تلاحظي أن سحركِ الفاتن وجمالكِ الاستثنائي يجبران أي رجل على الركوع. أن سحر نظرتكِ..."

"اسمع، هوتسبورن،" قاطعته. "هل أنتَ فقط تعدّ اللحظات حتى تنام معي؟"

"يا لها من فطنة!" فتح ذراعيه بتهكم. "لا أجد الكلمات."

"إذن سأساعدك." دفعت حصانها قليلًا إلى الأمام، ثم نظرت إليه فوق كتفها. "لأن لدي من الكلمات ما يكفي للجميع. أنا ممتنة. في ظروف أخرى، من يدري... لو كان أي شخص آخر غيرك، ها! لكنك أنت، هوتسبورن، لا تجذبني على الإطلاق. لا شيء، لا شيء على الإطلاق فيك يروق لي. على العكس تمامًا، كل شيء فيك ينفرني. عليك أن تعترف بأنه، في مثل هذه الظروف، سيكون الجماع فعلًا ضد الطبيعة."

تقدم هوتسبورن أيضًا، وظل يبتسم. فرسه السوداء بدأت تتراقص على الطريق، رافعة رأسها الجميلة برشاقة.

تململت سيري في السرج، وهي تحارب شعورًا غريبًا نشأ فجأة بداخلها، في أعماقها، في أسفل بطنها. دفع نفسه إلى الخارج بسرعة وإصرار، على الجلد الذي أزعجه الاحتكاك بالملابس. "قلت له الحقيقة،" فكرت سيري. "أنا لا أحبه، اللعنة، إنه حصانه الذي يعجبني، فرسه السوداء. ليس هو، بل

الحصان... يا لي من حمقاء! لا، لا، لا! حتى لو تجاهلت ميستل، سيكون من السخيف والغبي أن أستسلم له فقط لأنني متأثرة برؤية حصان أسود يتراقص على الطريق."

اقترب هوتسبورن ونظر في عينيها بابتسامة فضولية. ثم جذب العنان مجددًا، مما أجبر الفرس على الضرب بحوافرها والتفافها جانبًا، تتراقص. يعلم، فكرت سيري، ذلك العجوز اللعين يعلم ما أشعر به. تبًا له. أنا فقط فضولية!

"إبر الصنوبر،" قال هوتسبورن بلطف، بينما اقترب ومد يده، "علقت في شعرك. سأزيلها، إن سمحتِ لي. وأضيف أن هذه اللفتة نابعة من شهامتي، وليس من رغبة منحرفة."

لم تتفاجأ عندما وجدت أن لمسته كانت ممتعة لها. القرار كان لا يزال بعيدًا جدًا، لكنها، من باب الحيطة، حسبت الأيام منذ آخر دورة شهرية لها. "عليكِ أن تحسبي مسبقًا وبعقل بارد،" كانت ينيفر قد علمتها، "لأن لاحقًا، عندما تشتعل الأمور، يميل العقل إلى التكاسل عن الحساب، وإلى التقليل من شأن العواقب."

نظر هوتسبورن إلى عينيها وابتسم، وكأنه يعلم أن الحساب قد جاء لصالحه. "لو لم يكن كبيرًا في السن هكذا،" تنهدت سيري سرًا. "لابد أنه يتجاوز الثلاثين."

"تورمالينات." لمست أصابع هوتسبورن برفق أذنها والحلَق. "جميلة، لكنها مجرد تورمالينات. كنت لأهديكِ زمردًا لترتديه. أخضرها الثمين النافذ سيكون أكثر ملاءمة لجمالكِ ولون عينيكِ."

"اسمع،" قالت ببطء ونظرت إليه بجرأة، "حتى لو كان سيحدث شيء، فسأطالب بالزمرد مقدمًا. لأنني واثقة من أن الأحصنة ليست الشيء الوحيد الذي تتعامل معه وفقًا لمبدأ الفائدة، هوتسبورن. في صباح اليوم التالي لليلة مثيرة، ستجد أنه من 'المبالغة' أن أذكّرك باسمي. الكلب بيلو، القط موهرله، والفتاة – ماري!"

"أحسنتِ." أجبر نفسه على الابتسام. "تتمكنين من تبريد أكثر الرغبات حرارةً، أيتها الملكة الثلجية."

"كان لدي معلمة جيدة."

ارتفعت الضبابية قليلًا، لكن السماء ظلت ملبدة بالغيوم. وكان الجو يوحي بالنعاس.

قُطع النعاس بوحشية بفعل الصيحات وصوت الحوافر. خرج الفرسان من خلف أشجار البلوط التي مروا بها للتو.

تحرك كلاهما بسرعة متزامنة لدرجة بدا وكأنهما قد تدربا على ذلك لأسابيع. توقفا، استدارا بالحصانين، ثم انطلقا فورًا في عدو هائج، متقوسين إلى عنقي حصانيهما، يحثانهما بالصراخ والركل بالكعبين. تردد دوي الصرخات، ووقع الأقدام، وقرقعة العتاد، فوق أزيز السهام الريشية التي طارت فوق رؤوسهم.

قال هوتسبورن بصوت مرتفع: "إلى الغابة! انعطفي إلى الأدغال!"

مالا بسرعة دون أن يبطئا. ضغطت سيري نفسها للأسفل، تكاد تلتصق بعنق حصانها، لأن الأغصان التي تلطمت بها كادت تجذبها من السرج. رأت سهمًا نُشّابًا يصطدم بجذع شجرة ألدر وينشطر وهي تمر بجانبه. صرخت، حاثةً حصانها على الإسراع أكثر، متوقعة في أي لحظة أن يخترق سهم ظهرها. بجانبها، كان هوتسبورن يركض بمحاذاتها، لكنه فجأة أطلق أنينًا غريبًا.

وصلا إلى طرف وادٍ عميق، وانحدرا أسفل التل بسرعة متهورة، نحو رقعة واسعة من شجيرات الشوك. فجأة، انزلق هوتسبورن من السرج وسقط في الأدغال. صهلت الفرس السوداء، وقفت على قائمتها الخلفية، رفعت ذيلها، ثم هربت. لم تتردد سيري. قفزت عن ظهر حصانها وصفعته على الردف. انطلق يعدو خلف الفرس السوداء بينما هرعت سيري لمساعدة هوتسبورن على النهوض.

ركضا معًا أعمق داخل الأدغال، عبرا مجموعة من أشجار الألدر، ثم ألقيا بنفسيهما داخل الوادي. تدحرجا أسفل المنحدر وسقطا في قاع الوادي بين السرخس الطويل. خففت الطحالب والفطريات من وقع سقوطهما.

ارتد صدى الحوافر من أعلى المنحدر لحسن الحظ، كان مطاردوهم يركضون عبر الغابة، يلاحقون الأحصنة الهاربة. لم يبدُ أن أحدًا قد لاحظ اختفاءهما بين السرخس.

"ومن دون ذرة حظ؟ سترحل وحدك؟"

ابتسم هوتسبورن، رغم الألم الذي بدا واضحًا في ملامحه. "بالطبع لا، يا آنستي. لا أترك رفيقًا ورائي، مهما كان صغيرًا وساخطًا."

زمّت سيري شفتيها، متجاهلة اللقب الذي أطلقه عليها، وراقبت بصمت البريق الخفيف الذي انبعث من السوار الرخيص في معصمه. بدا كأي قطعة حلي عادية، لكن الآن وقد أخبرها عنه، شعرت بشيء غريب يحيط به، كما لو أن الهواء حوله صار أكثر كثافة، أكثر طنينًا.

"هل أنت متأكد أنها ستأتي؟"

"متأكد كما أنني جريح." أطلق تنهيدة طويلة، ثم أضاف بنبرة هادئة: "لكن لن أنتظر وأنا ممدد هنا كالطريدة. علينا البحث عن مأوى، عن مكان نستطيع فيه تدفئة عظامنا وتجفيف ملابسنا. وإلا، فإن الطقس وحده سيقتلنا قبل أن يفعل هؤلاء الأوغاد."

أومأت سيري، ثم نهضت بحذر، عيناها لا تزالان تراقبان قمة المنحدر، حيث تلاشت أصوات المطاردين شيئًا فشيئًا. "تعال، لن نبتعد كثيرًا، فقط حتى لا يجدوننا هنا إذا عادوا."

ساعدته على النهوض، فعضّ على أسنانه، وابتسم رغم الألم. "أنتِ عنيدة."

"وأنتَ بطيء." ردت بحدة، لكن عيناها كانتا تقولان شيئًا آخر.

همست: سيري، وهي تحاول التملص من تحت جسد هوتسبورن، الذي سقط عليها أثناء التدحرج، ثم بدأت تزيل الفطر العالق في شعرها، "من يكونون؟ رجال الحاكم؟ الفارنهاغن؟"

بصق الأوراق من فمه وقال: هوتسبورن، "مجرد قطاع طرق... رعاع"...

قالت وهي تزم شفتيها: "اعرض عليهم العفو... قد يقبلون"...

قال محذرًا: "اصمتي، قد يسمعوننا".

تردد صوت نداء ساخر في الهواء: "هووو! هووو! هاااهنااا! حاصروهم من اليسااار! من اليساااار"!

همست: "هوتسبورن؟"

أجاب بصوت منخفض: "نعم؟"

قالت وهي ترفع رأسها قليلاً: "ظهرك ينزف".

أجاب ببرود، وهو يمزق قطعة من قميصه ويقلب ظهره نحوها: "أدخليها تحت قميصي. عند لوح كتفي الأيسر"...

سألت وهي ترفع حاجبيها بقلق: "أين أصبت؟ لا أرى سهماً"...

قال متأوهًا: "كانت قوسًا تطلق مقذوفات... محشوة بقطعة من الحديد، على الأرجح رأس مسمار حداد. لا تلمسيها، إنها قريبة جدًا من العمود الفقري"...

تمتمت وهي تضغط بأسنانها على شفتها السفلى: "اللعنة... ماذا أفعل إذن؟"

قال بصوت حازم: "التزمي الصمت. إنهم يعودون".

تعالى صوت حوافر الخيل، وصافرات حادة مزقت سكون الغابة. تعالت صرخات وأوامر، تدعو للتراجع وإعادة التموضع. أصغت سيري بانتباه.

تمتمت: "لقد تراجعوا. توقفوا عن المطاردة... ولم يتمكنوا من الإمساك بالخيول".

قال متنهداً: "هذا جيد".

"لكننا أيضاً لن نتمكن من اللحاق بها. هل يمكنك المشي؟"

ابتسم وهو يرفع معصمه، كاشفًا عن سوار رخيص يزين يده: "لن أحتاج لذلك. اشتريت هذا الشيء اللامع مع الفرس. إنه سحري. الفرس تحمله منذ ولادتها. إذا فركته، كما أفعل الآن، فسيكون كأنني أناديها. كأنها تسمعني من بعيد... وستأتي إلي. قد يستغرق الأمر بعض الوقت، لكنها ستعود. وإذا حالفنا الحظ، ستعود فرسك معها".

ضاقت عيناها وسألت: "وإن لم يحالفك الحظ؟ هل ستركب وحدك؟"

ساد صمت ثقيل بينهما، لم يقطعه سوى صوت الأوراق المتهشمة تحت الريح.

قال أخيرًا، وهو يزفر ببطء: "فالكا... لا أستطيع الرحيل وحدي، أحتاج مساعدتك. ستعينينني على البقاء في السرج. بدأت أفقد الإحساس بقدمي... قد أفقد الوعي".

تصلبت ملامحها، لكنها لم تجبه، فقط انتظرت.

"اسمعي جيدًا، هذا الممر يقود إلى وادٍ يجري فيه جدول. اركبي بمحاذاته نحو الشمال. خذيني إلى مكان يُدعى تيغامو. هناك سنجد من يستطيع انتزاع الحديد من ظهري، وإلا سأموت... أو أفقد الحركة إلى الأبد".

سألت، وهي تشيح بوجهها عنه قليلًا: "هل هذه أقرب بلدة؟"

"لا. الأقرب هي جيلَوسي، تقع على بعد عشرين ميلًا في الاتجاه المعاكس، أسفل الوادي. لكن لا يمكنك الذهاب إلى هناك".

ضيقت عينيها، وهي تشعر بانقباض غريب في صدرها. "لماذا؟"

قال بصوت منخفض، محذرًا: "لا يمكنك الذهاب إلى هناك، على الإطلاق. جيلَوسي تعني موتك".

"لا أفهم".

"لستِ بحاجة لأن تفهمي. فقط صدقيني".

"قلتَ لجيسلهير"...

"انسي جيسلهير. إن كنتِ ترغبين في الحياة، فانسيهم جميعًا".

"لماذا؟"

أغمض عينيه للحظة، ثم ابتسم، وهمس بنبرة منهكة: "ابقي معي، سأفي بوعدي، ملكتي الجليدية... سأزينك بالزمرد... سأغطيك به"...

قالت بحدة، وهي تحاول دعم جسده الواهن: "حقًا، وقت مناسب للمزاح"!

تنفس بصعوبة، ثم قال، متألمًا لكنه لا يزال يبتسم: "دائمًا هناك وقت للمزاح".

وفجأة، أمسك بها، ضغط على كتفها بقوة، ثم بدأ بفك أزرار قميصها، ببطء لكن دون تردد.

قالت، وهي تدفع يده بعيدًا: "حقًا، وقت مناسب لذلك أيضًا؟"!

ضحك، لكن ضحكته سرعان ما تحولت إلى شهقة ألم. "أي وقت مناسب لذلك، خاصةً لي الآن. أخبرتك، إنها إصابة في العمود الفقري... الغد ليس مضمونًا... ماذا تفعلين؟ آه، اللعنة"...

دفعت يده بقوة، أبعدته عنها، لكنه تأوه، شحب وجهه أكثر، وارتعشت شفتاه من الألم.

قالت، بصوت هادئ لكن حازم: "أنا آسفة، لكن الجريح يجب أن يبقى ساكنًا".

قال، وهو يلهث: "قربكِ يجعلني أنسى الألم".

صرخت غاضبة، وهي تضغط على جرحه كي تمنعه من الحركة: "توقف عن ذلك، اللعنة عليك"!

قال هوتسبورن بصوت واهن: "فالكا... تحنني على رجل يتألم."

ردّت بصوت قاسٍ: "ستتألم أكثر إن لم ترفع يديك عني. فورًا!"

"اهدئي... قد يسمعنا قطاع الطرق... بشرتك كالسّاتان... توقفي عن المقاومة، بحق السماء."

تبًا لكل هذا، فكرت سيري. لماذا يجب أن أعطي الأمر كل هذه الأهمية؟ أنا فقط فضولية. من حقي أن أكون فضولية. لا علاقة لمشاعري بذلك. سأتعامل معه كما أتعامل مع أي شيء مفيد، لا أكثر. وسأنساه بلا ضجة.

استسلمت للمسة يده والإحساس اللطيف الذي تبعها. أدارت رأسها جانبًا، لكنها فكرت أن ذلك قد يُفسَّر على أنه تواضع مصطنع وخجل زائف – لم تكن تريد أن تبدو كفتاة بريئة أُغويت. نظرت مباشرة في عينيه، لكنها أدركت أنه قد يبدو تحديًا صارخًا – ولم تكن تريد أن يُفهم الأمر كذلك أيضًا. فقررت ببساطة أن تغلق عينيها، تلف ذراعيها حول عنقه، وتساعده في فك الأزرار، إذ كان يجد صعوبة ويضيع الوقت.

تبع تلامس الأصابع تلامس الشفاه. كانت على وشك أن تنسى العالم كله، عندما توقف هوتسبورن فجأة عن الحركة.

لبرهة، بقيت ممددة بصبر، مذكّرة نفسها أنه مصاب، وأن الجرح ربما يزعجه. لكنه استغرق وقتًا طويلًا. شعرت بلعابه يجف على صدرها.

نادت بصوت متردد: "هوتسبورن؟ هل غفوت؟"

كان هناك شيء ينساب على صدرها وجانبها. لمسته بأصابعها. دماء.

صرخت: "هوتسبورن!" دفعت جسده بعيدًا عنها. "هوتسبورن، هل أنت ميت؟"

سؤال سخيف، فكرت. من الواضح أنه ميت.

* * *

قالت سيري وهي تدير رأسها إلى الجانب: "لقد مات ورأسه على صدري." بدا أن الجمر الأحمر المتوهج في الموقد ينعكس على خدها المشوه. أو ربما كانت تحمر خجلًا. لم يكن فيسجوتا متأكدًا.

"الشيء الوحيد الذي شعرت به حينها،" أضافت دون أن تعيد وجهها إليه، "كان الخيبة. هل يصدمك ذلك؟"

رد بصوت هادئ: "لا. لم يعد كذلك."

"أفهم ذلك. أحاول أن أروي كل شيء كما هو، دون تزيين، دون تحريف، ودون إخفاء شيء. رغم أنني أحيانًا أشعر برغبة في ذلك، خاصة الأخيرة." شخّرت بأنفها ومسحت عينها بإبهامها.

"غطيته بالأغصان والحجارة. لا أعرف كيف، لست متأكدة. كان الظلام دامسًا واضطررت لقضاء الليل هناك. كان قطاع الطرق لا يزالون في المنطقة يبحثون. عندما سمعت صرخاتهم، أيقنت أنهم لم يكونوا مجرد قطاع طرق عاديين. لكنني لم أكن أعرف إن كانوا يطاردونني أم يطاردونه. لذا كان علي أن أبقى ساكنة. طوال الليل. بجانب الجثة. بررررر."

"عند الفجر،" تابعت بعد لحظة، "لم تكن هناك أي آثار للّصوص، فتمكنت من استئناف طريقي. كان لديّ بالفعل جواد. السوار السحري، الذي أخذته من هوتسبورن، كان يعمل حقًا. الفرس السوداء عادت. أصبحت ملكي الآن. كان ذلك هديتي. هناك تقليد كهذا في جزر سكيلجا، أتعلم؟ أول عاشق للفتاة يقدم لها هدية ثمينة. وما الفرق إن كان عشيقي الأول قد مات قبل أن يصبح كذلك؟

* * *

ضربت الفرس الأرض بأقدامها الأمامية، وصهلت، ثم استدارت إلى جانبها، كما لو كانت ترغب في أن تُعجب بها. لم تستطع سيري كبح تنهيدة الإعجاب عندما تأملت عنقها، المستقيم والنحيف لكنه عضلي للغاية، وجبهتها الصغيرة المتناسقة، وكتفيها العاليتين، وبنيتها المتناسقة بشكل رائع.

اقتربت سيري من الفرس بحذر وأظهرت لها السوار على معصمها. شخرت الفرس ونصبت أذنيها، لكنها سمحت لسيري بأن تمسك بلجامها وتداعب أنفها المخملي.

"كيلبي،" قالت سيري. "أنت سوداء وذكية مثل كيلبي القادم من البحر. أنتِ ساحرة مثل كيلبي. لذا سيكون هذا اسمك. ولا يهمني إن كان ذلك مبالغًا فيه أم لا."

شخرت الفرس، ونصبت أذنيها، ولوّحت بذيلها الحريري الطويل الذي يصل إلى كعبيها. سيري، التي اعتادت على ركوب السروج العالية، قامت بتقصير أشرطة الركائب، ثم مررت يدها على السرج الضحل غير المعتاد، المصنوع بإطار خشبي دون قرن السرج. وضعت قدمها في الركاب، وأمسكت بلجام الفرس.

"اهدئي، كيلبي."

على عكس ما بدا عليه، كان السرج مريحًا للغاية. وبطبيعة الحال، كان أخف وزنًا بكثير من السروج العسكرية المعتادة.

"والآن،" قالت سيري وهي تربّت على عنق الفرس الدافئ، "سنرى إن كنتِ مشتعلة الحماسة أيضًا. إن كنتِ فرسًا أصيلة بحق، أم مجرد خليط هجين. ما رأيك في عدو لمسافة عشرين ميلًا، كيلبي؟"

* * *

لو تمكن أحد من التسلل عبر ظلمة الليل والعثور على الكوخ العميق المخفي بسقفه المسقوف بالطحالب وسط المستنقعات، ولو ألقى نظرة عبر الشقوق في المصاريع، لرأى عجوزًا ذا لحية رمادية يستمع إلى قصة فتاة مراهقة ذات عينين خضراوين وشعر أشقر رمادي.

كان سيرى أن بقايا الجمر في الموقد كانت متوهجة وحيوية، وكأنها تترقب ما سيُروى بعد.

لكن ذلك لم يكن ممكنًا. لم يكن بإمكان أحد أن يرى ذلك. كان كوخ العجوز فيسجوتا مخفيًا جيدًا بين القصب في المستنقع. في صحراء يلفها الضباب الأبدي، حيث لا يجرؤ أحد على الدخول.

* * *

قالت: "الوادي الذي يجري فيه الجدول كان مستويًا ومناسبًا تمامًا للركوب، لذا انطلقت كيلبي كالإعصار. بالطبع، لم أركب عكس التيار، بل مع انحداره. كنت قد تذكرت الاسم الغريب: 'الغيرة'.

تذكرت ما قاله هوتسبورن لجيسلهير في المحطة. عرفت لماذا حذرني من البلدة. كانت هناك كمين ينتظر الفئران في الغيرة.

ما إن رفض جيسلهير عرض العفو والعمل لصالح النقابة، حتى ذكّره هوتسبورن صراحة بصائد الجوائز الذي اتخذ من البلدة مقرًا له. كان يعلم أن الفئران ستبتلع الطُعم. أنهم سيركبون إلى البلدة... وإلى الهلاك.

كان عليّ الوصول إلى مشارف الغيرة، اعتراضهم وتحذيرهم. إقناعهم بالعودة. إنقاذهم جميعًا. أو على الأقل... ميستل."

تمتم فيسجوتا: "يمكنني أن أتخيل... أنك لم تفلحي."

قالت بنبرة جامدة: "في ذلك الوقت، كنت أعتقد أن بضع فرق مسلحة حتى الأسنان كانت تنتظر في الغيرة. لم يخطر ببالي حتى أن الكمين قد يكون مجرد رجل واحد..."

توقفت، عيناها تحدقان في العتمة.

"لم أكن أعلم... أي نوع من الرجال كان ذلك."

* * *

كانت بيركا يومًا ما قرية مزدهرة. تميزت بموقعها الساحر الخلاب، حيث تكدست أسقفها المصنوعة من القش الأصفر والقرميد الأحمر في وادٍ تحيط به منحدرات غابية شديدة الانحدار، تتغير ألوانها مع تعاقب الفصول. كان مشهد بيركا في الخريف على وجه الخصوص يسرّ العين الجمالية ويمسّ القلوب الحساسة.

ظل الأمر كذلك حتى جاء اليوم الذي تغيّر فيه اسم المستوطنة. وحدث الأمر كالتالي:

وقع مزارع شاب من مستعمرة الجان القريبة في حبّ جنوني بابنة الطحان في بيركا. لكن الفتاة اللعوب سخرت من مشاعر الجني، في حين أنها لم تبخل بسحرها على الجيران والمعارف وحتى أحد أقاربها. سرعان ما أصبح حب الجني أضحوكة بين الناس، وسخروا منه ومن عشقه الأعمى. عندها انهار الجني – وهذا تصرف نادر بين الجان – لكنه صبّ جام غضبه وانتقامه بطريقة مروعة.

في إحدى الليالي، حين كانت الرياح قوية ومؤاتية، أشعل النار في القرية وأحرق بيركا حتى صارت رمادًا.

وقد حُطّمت معنويات القرويين بعد الحريق. بعضهم تفرق في أنحاء العالم، وآخرون استسلموا للخمول والإدمان. الأموال التي تم جمعها لإعادة الإعمار نُهبت وصُرفت على الشراب. وصارت البلدة مشهدًا للفقر والبؤس، مجرد أكواخ قبيحة مشيدة بارتجال عند سفح الوادي العاري المتفحم.

قبل الحريق، كانت بيركا ذات شكل بيضاوي، يتوسطها ميدان صغير. أما الآن، فقد شكّلت القلة القليلة من المنازل والمتاجر والمشاغل التي أُعيد بناؤها بصورة معقولة، شارعًا طويلاً لا غير. وفي نهايته اجتمع الناجون لبناء نُزل أطلقوا عليه اسم "رأس الكيميرا"، تديره أرملة فقدت زوجها في الحريق.

ومنذ ذلك الحين، وعلى مدار سبع سنوات، لم يعد أحد يستخدم اسم بيركا. بل صاروا يطلقون عليها اسم اللهب، أو الحماسة، أو ببساطة... الغيرة.

وفي صباح بارد، ملبد بالغيوم، كئيب... امتطى الفئران جيادهم وامتدّ ركوبهم عبر شارع الغيرة.

اندفع الناس إلى بيوتهم واختبأوا داخل الأكواخ والأكواخ الطينية. كل من كان لديه مصاريع، أغلقها بضربة قوية. كل من كان لديه باب، أقفله وحصّنه بالحواجز. كل من كان لا يزال يحتفظ ببعض الشراب، أسكبه في حلقه ليمنحه الشجاعة.

كان الفئران يمتطون خيولهم ببطء متعمد، كتفًا إلى كتف، يسيرون بخطى واثقة. وجوههم مطلية باللامبالاة والازدراء، لكن أعينهم المغمضة كانت تراقب كل نافذة وشرفة وركن بحذر شديد.

قال جيسيلهر بصوت مرتفع، ليصل إلى مسامع الجميع:

"سهم قوس نشاب واحد!"

أضافت سبارك بصوتها الرنان العالي:

"وستبتلع النيران قريتكم من جديد!"

"لن يبقى شيء سوى التراب والماء!"

بالتأكيد، كان لدى البعض أقواس نشاب، لكن لم يكن هناك من يجرؤ على اختبار ما إذا كان الفئران يطلقون تهديدات فارغة أم لا.

ترجّل الفئران من خيولهم. قطعوا الخمسين أو الستين خطوة التي تفصلهم عن نزل رأس الكيميرا على الأقدام، كتفًا إلى كتف، في إيقاع متناغم من رنين المهاميز، وطنين المجوهرات، وخرير الحلي المعدنية المتشابكة في ملابسهم.

ثلاثة رجال من السكان المحليين، كانوا يعالجون صداعهم الصباحي بالبيرة على شرفة النزل، اختفوا عند رؤيتهم.

تمتم كايلي:

"إذا كان بالداخل، لم يكن علينا الانتظار. ما كان ينبغي أن نرتاح، بل كان علينا اقتحام المكان في الليل و..."

زمجرت سبارك، كاشفة عن أسنانها الصغيرة الحادة:

"أحمق. إذا أردنا أن ينشد الشعراء أغانينا، لا يمكننا أن نفعلها في الليل والظلام. يجب أن يراها الناس! الصباح هو الأنسب، لأن الجميع لا يزالون في وعيهم، أليس كذلك يا غيسيلهر؟"

لم يجب غيسيلهر. بل انحنى، والتقط حجرًا، ثم ألقاه بدقة ليصطدم بقوة على الباب.

"اخرج، بونهارت!"

ردد الفئران بصوت واحد، كالصدى:

"اخرج، بونهارت!"

تعالت خطوات من الداخل. بطيئة. ثقيلة. شعرت ميستل بقشعريرة تسري في عمودها الفقري.

عندها... ظهر بونهارت عند الباب.

راجع الفئران خطوة إلى الخلف غريزيًا، غرسوا كعوب أحذيتهم العالية في الأرض، وتحركت أيديهم إلى مقابض سيوفهم. أما صائد الجوائز، فقد كان يحمل سيفه تحت ذراعه، تاركًا يديه حرتين – في إحداهما كان يمسك بيضة مقشرة، وفي الأخرى قطعة خبز يابسة.

تحرك نحو الدرابزين ببطء، ناظرًا إليهم من أعلى. كان واقفًا على الشرفة، وضخمًا، عملاقًا رغم نحافته التي تشبه هياكل الغول العظمية.

راح يحدق بهم، تجولت عيناه الشاحبتان على وجوههم، واحدًا تلو الآخر. قضم قطعة من البيضة، ثم قطعة من الخبز.

قال بصوت غامض، بينما سقطت فتاتة من الصفار من فمه:

"وأين هي فالكا؟"

* * *

"اركضي، كيلبي! اركضي، يا جميلة! اركضي بأقصى سرعة لديك!"

صهلت الفرس السوداء بصوت عالٍ، وخفضت رأسها إلى الأمام، منطلقة في عدو جنوني. رغم تطاير الحصى من تحتها، لم تكن حوافرها تكاد تلمس الأرض.

* * *

تمطّى بونهارت بتكاسل، محدثًا صريرًا خافتًا من معطفه الجلدي، ثم بدأ ببطء يشد قفازيه المصنوعين من جلد الموظ ويعدلهما بعناية.

'حسنًا، ما الأمر؟' قطب حاجبيه ساخرًا. 'تريدون قتلي، أليس كذلك؟ ولماذا؟'"

"نعم، من أجل تودستول"، قال كايلي بصوت متوتر".

"ومن أجل المتعة"، أضافت سبارك بضحكة خفيفة".

"ولأجل أن ننعم بالسلام"، أكمل ريف بجفاء".

"آه"، نطق بونهارت ببطء، متمهلًا في كلماته. "هكذا إذن! وإن وعدتكم بالسلام، هل ستتركونني أذهب في طريقي؟"

"لا، أيها الكلب الأشيب، لن نفعل"، ابتسمت مستل ابتسامة ساحرة ولكنها مفعمة بالتهديد. "نعرفك جيدًا. نعرف أنك لا تمنح شيئًا لأحد، وأنك ستتبعنا كظل، مترصدًا الفرصة المناسبة لطعننا في الظهر. اخرج!"

"تمهّلوا، تمهّلوا"، ابتسم بونهارت، ساحبًا شفتيه أسفل شاربه الرمادي الكثيف في ابتسامة ماكرة. "دائمًا هناك وقت للرقص، لا تتحمسوا. لكن أولًا، سأقدم لكم عرضًا، أيها الجرذان. سأترك لكم حرية الاختيار، ثم يمكنكم أن تفعلوا ما يحلو لكم."

"ما هذا الهراء الذي تهذي به، أيها العجوز؟!" صاح كايلي، وجسده متشنج استعدادًا للهجوم. "تكلم بوضوح!"

أومأ بونهارت، وخدش ساقه بلا اكتراث. "هناك مكافأة على رؤوسكم، أيها الجرذان. مكافأة لا بأس بها. وكما تعلمون، يجب أن أكسب رزقي."

هسّت سبارك كقطة برية، بينما التمعت عيناها بلون القتل.

عقد بونهارت ذراعيه على صدره، وزلق سيفه إلى تحت إبطه. "مكافأة سخية"، كرر، "إذا كنتم أمواتًا، وأكبر قليلًا إن كنتم أحياء. بصراحة، لا فرق لدي. ليس لدي أي ضغينة تجاهكم شخصيًا. فقط بالأمس كنت أفكر أنني قد أقتلكم للمتعة والتسلية، لكنكم أتيتم إليّ بأنفسكم، ووفرتم عليّ العناء، وذلك حقًا أثر فيّ. لذا سأترك لكم الخيار. كيف تفضلون أن آخذكم – أحياءً أم أمواتًا؟"

صرّ كايلي على أسنانه، بينما تقدمت مستل قليلًا، مستعدة للانقضاض.

لكن جيسيلهر أمسكها من كتفها وهمس: "إنه يحاول إثارتنا، دعوا اللعين يتكلم."

زمجر بونهارت بازدراء. "حسنًا؟" كرر، "أحياء أم أموات؟ أقترح الخيار الأول. لأنه، كما تعلمون: أقل ألمًا بكثير، بكثير."

وكأنها إشارة متفق عليها، سحب الجرذان أسلحتهم. تأهب جيسيلهر في وضعية المبارزة، بينما بصقت مستل بازدراء. "تعال، أيها الهيكل العظمي"، قالت بصوت هادئ ظاهريًا. "تعال أيها اللعين، سنغرز فيك السكاكين كما يُغرس الخنجر في كلب أجرب."

"إذن، فقد اخترتم الموت."

حدّق بونهارت بعيدًا، متجاوزًا أسطح المنازل، ثم ببطء استل سيفه وألقى بغمده بعيدًا. نزل من الشرفة دون عجلة، ورنين المهاميز يتردد مع خطواته.

انتشر الجرذان بسرعة عبر عرض الشارع. تمركز كايلي أبعد ما يكون إلى اليسار، بالقرب من جدار معمل تقطير. بجانبه وقفت سبارك، شفتاها الرفيعتان منحنية في ابتسامتها الشرسة المعتادة. مستل، آسي، وريف أخذوا مواقعهم إلى اليمين، بينما بقي جيسيلهر في المركز، يحدق في صائد الجوائز بعينين ضيقتين.

"جيد جدًا، أيها الجرذان." ألقى بونهارت نظرة سريعة على الشارع، رفع رأسه إلى السماء، ثم رفع سيفه وبصق على حدّه. "إذا كنا سنرقص، فلنرقص إذن. أعزفوا الموسيقى!"

هجموا عليه كذئاب، بسرعة البرق، في صمت ومن دون إنذار. الهواء تمزق بصوت صفير الشفرات، والشارع الصغير ارتج بصدى ارتطام الفولاذ. في البداية، لم يُسمع سوى قرع السيوف، والتنهدات، والأنفاس الثقيلة.

ثم، فجأة وبشكل غير متوقع، بدأ الجرذان بالصراخ. وبدأوا بالموت.

كان ريف أول من طُرح خارج المعركة، ارتطم بالحائط، وتطاير دمه فوق الجص الأبيض المتسخ. ثم خرج آسي متهادياً من الدوامة، قابضًا على ركبته، قبل أن يسقط على جانبه متلوياً.

دار بونهارت وقفز كدوامة هوجاء، محاطًا بوميض الشفرات وصفيرها القاتل. تراجع الجرذان عنه، اندفعوا مجددًا، هاجموا، ثم تراجعوا مرة أخرى، غاضبين، عنيدين، بلا رحمة. لكن بلا جدوى.

بونهارت صدّ، وضرب، وصدّ، وضرب، ثم هاجم، وهاجم بلا هوادة، دون أن يمنحهم لحظة لالتقاط أنفاسهم، فارضًا عليهم إيقاعه القاتل. لم يكن بوسعهم سوى التراجع. والتساقط صرعى واحدًا تلو الآخر.

أصيبت سبارك في عنقها، فسقطت في الوحل وانكمشت مثل قطة صغيرة، بينما تدفقت دماؤها من شريانها الأبهر لتغمر ساقيها وركبتيها. صدّ صائد الجوائز الضربات الواسعة والمندفعة لمستل وجيسيلهر، ثم دار حول نفسه، وبضربة سريعة كالبرق من طرف سيفه، شقّ صدر كايلي من الترقوة حتى الورك. أسقط كايلي سيفه، لكنه لم يلاحظ ذلك – بل انحنى ممسكًا بصدره وبطنه بكلتا يديه، بينما كان الدم يندفع من بين أصابعه.

تفادى بونهارت ضربة جيسيلهر بدوران آخر، وصدّ هجوم مستل، ثم وجه لكايلي ضربة أخرى حطّمت جانبًا من رأسه، محولة إياه إلى عجينة قرمزية. ترنّح الجرذ الأشقر وسقط، مخلفًا وراءه بركة من الدم امتزجت بطين الطريق.

ترددت مستل وجيسيلهر للحظة. لكن بدلاً من الفرار، صرخا بصوت واحد، بوحشية وغضب عارم، وانقضا على بونهارت.

ولكنهما لقيا حتفهما.

في ذلك الوقت كانت سيري قد اندفعت إلى داخل القرية، منطلقة كالإعصار، وجرت عبر الشارع بسرعة جنونية. وتناثرت رذاذات الطين من تحت حوافر الفرس السوداء، مرسلة دوامات من الوحل المتطاير في الهواء.

داس بونهارت بكعبه على جسيلهير، الذي كان مستندًا إلى الجدار. لم تظهر أي علامة على الحياة من زعيم الجرذان. لم يعد الدم يتدفق من جمجمته المحطمة.

ميسل، التي كانت على ركبتيها تبحث عن سيفها، راحت تمرر يديها المرتجفتين في الطين دون أن تدرك أنها تركع في بركة حمراء كانت تتسع بسرعة. بونهارت سار نحوها ببطء.

"لااااا!"

رفع صائد الجوائز رأسه.

اندفعت سيري من على صهوة الفرس وهي تركض، تعثرت، ووقعت على إحدى ركبتيها.

ابتسم بونهارت. "جرذ آخر"، قال. "الجرذ السابع. جيد أنك هنا. ستكمل مجموعتي."

وجدت ميسل سيفها، لكنها لم تستطع رفعه. شهقت وألقت بنفسها عند قدمي بونهارت، وأصابعها المرتجفة تتشبث بحذائه. فتحت فمها لتصرخ، لكن بدلًا من الصرخة، تدفق تيار قرمزي مشرق من بين شفتيها. داس عليها بقوة ودفعها في الوحل. لكنها، رغم أنها كانت تمسك بجوفها المفتوح، رفعت نفسها من جديد.

"لااا!" صرخت سيري. "مييستل!"

التفت بونهارت إلى صرختها دون حتى أن يدير رأسه. أدار سيفه بوسع، ووجه ضربة ساحقة، أشبه بضربة منجل، رفعت ميسل عن الأرض وألقتها نحو الجدار، كدمية قماشية، كخرقة ممزقة ملطخة بالدم.

اختنقت الصرخة في حلق سيري. يداها ارتجفتا وهي تمسك بسيفها.

"قاتل!" قالت، متفاجئة من غرابة صوتها، من جفاف حلقها المفاجئ. "قاتل! وغد!"

راقبها بونهارت بفضول، مائلًا رأسه قليلاً إلى الجانب. "هل تريدين الموت؟" سأل.

اقتربت سيري منه، تتحرك بحذر، تحيطه في دائرة نصفية. سيفها كان مرفوعًا في يدها الممتدة، يرتجف قليلًا، يلامس الحصى، يراوغ بضربات سريعة.

ضحك بونهارت بصوت عالٍ. "الموت"، كرر. "الجرذ الصغير يريد الموت!"

استدار بونهارت ببطء في مكانه، دون أن يقع في فخ الدائرة النصفية. لكن ذلك لم يكن يهم سيري. كانت تغلي غضبًا، يموج كيانها بالكراهية، وترتجف شوقًا للقتل. أرادت أن تندفع نحو هذا العجوز الرهيب، أن تشعر بنصل سيفها يخترق جسده، أن ترى دمه وهو ينساب من شرايينه المقطوعة، نابضًا بإيقاع قلبه المتباطئ.

"حسنًا، أيتها الجرذ." رفع بونهارت سيفه وبصق على حده. "قبل أن تهلكي، أريني ما لديك! عزفي لنا لحن الموت!"

* * *

بعد ستة أيام، جلس نكلار، ابن صانع التوابيت، يروي القصة قائلاً:

"حقًا لا أعرف كيف لم يقتل أحدهما الآخر في ذلك اللقاء الأول. لقد أرادا ذلك، هذا كان واضحًا. هي، وهو، كلاهما. انقضّا على بعضهما البعض وتقاطعت سيوفهما. ربما تبادلا ضربتين أو ثلاثًا كل لحظة. لم يكن هناك من يستطيع عدّها بعينيه أو بأذنيه. كانا يضربان بسرعة جنونية، يا سيدي، حتى صار الأمر غير واضح للعين. كانا يرقصان حول بعضهما البعض، يقفزان بخفة كأنهما نمسان!"

كان ستيفان سكيلين، الملقب بـ "البومة"، يستمع باهتمام وهو يلهو بسوط ركوبه.

"قفزا بعيدًا عن بعضهما البعض"، تابع الشاب، "ولم يكن على أي منهما خدش. الجرذ، كان واضحًا أنه غاضب كشيطان، يهمس كقط انتُزِع منه فريسته. أما السيد بونهارت، فقد كان هادئًا جدًا."

* * *

ابتسم بونهارت ابتسامة شريرة، كاشفًا عن أسنانه مثل غول حقيقي.

"فالكا، أنتِ تعرفين حقًا كيف ترقصين وكيف تمسكين بالسيف! لقد أثرتِ فضولي، أيتها الفتاة. من أنتِ؟ أخبريني قبل أن تموتي."

تنفست سيري بعمق. كانت تعرف هذا الشعور... الرعب. لكنها فهمت ما عليها فعله.

"أخبريني من تكونين، وسأبقيكِ على قيد الحياة."

قبضت على مقبض سيفها بقوة أكبر. عليها أن تخترق دفاعه وتهاجمه قبل أن يتمكن من التغطية. لا يمكنها أن تتركه يرد على ضرباتها، لا يمكنها أن تصد هجماته دون أن تخاطر بالألم والشلل اللذين استوليا على كوعها وساعدها. لا يمكنها إهدار الطاقة في تفادي ضرباته التي كانت تفوتها بشعرة. عليها أن تخترق دفاعه... الآن. في هذه المواجهة. وإلا ستموت.

"ستموتين، جرذاء." قال بونهارت وهو يندفع بسيفه نحوها. "ألستِ خائفة؟ هذا لأنكِ لا تعرفين كيف تبدو الموت."

كاير مورهن، فكرت وهي تقفز. لامبرت. المشط. سالتو.

خطت ثلاث خطوات ونفذت نصف دوران. وعندما هاجمها، متجاهلًا الحيلة، قفزت للخلف، ثم اندفعت نحوه، مارة أسفل شفرته، ملتويةً بمعصمها لتوجه ضربة قوية، مدعومةً بدوران قوي من وركها. نشوة غمرتها فجأة؛ لقد شعرت تقريبًا بنصلها يخترق جسده.

بدلًا من ذلك، دوى صوت عنيف، قرع معدن على معدن. تبع ذلك وميض مبهر في عينيها، وصدمة وألم. شعرت وكأنها تسقط.

لقد صدّ ضربتي وهزمني، فكرت. أنا أموت، فكرت.

ركلها بونهارت في معدتها. تبعتها ركلة ثانية، مصوبة بدقة إلى كوعها المصاب، جعلتها تفلت سيفها. أمسكت سيري برأسها، تشعر بألم خافت، لكنها لم تجد تحت أصابعها أي جرح، ولا دم.

لقد ضربني بقبضته فقط، فكرت في رعب. فقط بقبضته. أو بمقبض سيفه. لم يقتلني. لقد تلقيت صفعة كطفلة صغيرة.

فتحت عينيها.

وقف صائد الجوائز فوقها، هزيلًا كهيكل عظمي، منتصبًا فوقها مثل شجرة متساقطة الأوراق مريضة. تفوح منه رائحة العرق والدم.

أمسك بشعرها، جذبها بعنف، وأجبرها على الوقوف. ثم جرّها فورًا، تصرخ، إلى الجدار حيث كانت ميستل ملقاة.

"إذًا، لا تخافين الموت؟" زمجر وهو يدفع رأسها للأسفل. "إذن انظري إلى تلك الجرذاء الصغيرة. هذا هو الموت. هكذا يموت المرء. انظري، هناك الأحشاء. هذا هو الدم. وذلك هو الغائط الذي كان داخلها."

تلوّت سيري وتشنّجت، لكنها لم تستطع الفكاك من قبضته، وسرعان ما تحوّلت حركتها إلى ارتعاشات وتقيؤ جاف. كانت ميستل لا تزال على قيد الحياة، لكن عينيها كانتا زجاجيتين، خاليتين من الحياة، مثل عيون سمكة ميتة. يدها – النحيلة، الرقيقة، الناعمة، الماهرة – كانت تتحرك ببطء، تنقبض وتنبسط، مغروسة في الطين والقذارة. شمّت سيري الرائحة النفاذة اللاذعة للبول.

ضحك بونهارت بصوت عالٍ. "الجرذاء الصغيرة تحتضر. في بولها!"

أفلت شعرها. انهارت سيري على يديها وركبتيها، تهتز بالبكاء. ميستل كانت بجانبها تمامًا. يد ميستل، اليدان النحيلتان، الرقيقتان، الناعمتان، الماهرتان...

... لم تتحركا.

* * *

"لم يقتلني. بل قيدني إلى أعمدة الربط، مكبّلة اليدين."

جلس فايسوغوتا بلا حراك. كان على هذه الحال منذ فترة، حتى أنه حبس أنفاسه. تابعت سيري سرد قصتها، لكن صوتها أصبح أكثر خفوتًا، وأكثر غرابة، وأكثر إزعاجًا.

"قال للحشد المتجمع أن يحضروا له كيسًا من الملح، وبرميلًا صغيرًا من الخل. ومنشارًا. لم أكن أعلم... لم أستطع فهم ما كان يفعله. كنت مقيدة... عند أعمدة الربط... استدعى بعض الخدم، وأمرهم بأن يمسكوني من شعري... ومن جفوني. أراني كيف... حتى لا أتمكن من إدارة رأسي بعيدًا، أو إغلاق عيني. قال إنه يجب أن يتأكد من أن البضاعة لن تفسد. ألا تتحلل..."

توقفت سيري فجأة، اختنق صوتها في حلقها الجاف. أما فايسوغوتا، الذي أدرك على الفور ما كانت على وشك قوله، شعر بالغثيان يجتاحه كطوفان.

"لقد قطع رؤوسهم." صوتها كان فارغًا، خاليًا من الحياة. "بمنشار. جيسيلهير، كايلي، آس، ريف، سبارك... وميستل. قطع رؤوسهم... واحدًا تلو الآخر. أمام عيني."

* * *

لو تمكن أحدهم من التسلل إلى قلب المستنقع السري، والعثور على الكوخ المسقوف بالطحالب، ولو تجرأ على التلصص عبر الشقوق في المصاريع، لرأى، في الداخل المعتم بنور خافت، رجلًا مسنًا رمادي اللحية، مرتديًا معطفًا من جلد الغنم، وفتاة ذات شعر أشقر رمادي، تحمل خدها ندبة شوهت ملامحها. لرأى كيف كانت الفتاة ترتجف وسط نوبات من البكاء، تنتحب في أحضان العجوز، الذي كان يحاول تهدئتها بلمسات غير واثقة، يمرر أصابعه بين خصلات شعرها، ويربت على كتفيها المرتجفتين في محاولة يائسة لمنحها بعض السكينة.

لكن ذلك لم يكن ممكنًا. لم يكن هناك من يمكنه رؤية ذلك. فالكوخ كان مخفيًا جيدًا وسط القصب في عمق المستنقع، في صحراء ضبابية أبدية، لا يجرؤ أحد على دخولها.

كثيرًا ما يُسألني الناس كيف قررت أن أدوّن ذكرياتي. يتملكهم الفضول حول اللحظة التي نشأت فيها مذكراتي، أي الحقائق والظروف المحيطة بالحدث الذي يشكل بداية هذا السجل، والشرارة التي أوقدته.

في الماضي، قدمت العديد من التفسيرات الكاذبة وكذبت مرات عديدة، لكنني اليوم أرغب في قول الحقيقة، لأن شعري قد ابيضّ وخفّ، ولأنني أدرك أن الحقيقة حبة ثمينة، بينما الكذب قشّ بلا قيمة.

لكن الحقيقة هي أن الحادثة التي كانت المحفز لكتابتي تلك الملاحظات الأولى، والتي تطور منها عملي لاحقًا، لم تكن سوى مصادفة وتحديدًا أن قلمًا وورقة كانا من بين الأشياءِ التي سرقتها ورفاقي من معسكر جنود ليريا. وهكذا كان...

داندیلیون، نصف قرن من الشعر

الفصل الثالث

حدث ذلك في اليوم الخامس من شهر سبتمبر، بعد المحاق، في اليوم الثلاثين بالضبط من رحلتنا—التي بدأت بمغادرتنا بروكيلون، وستة أيام بعد معركة الجسر.

والآن، أيها القرّاء المستقبليون، سأعود قليلًا إلى الوراء وأصف الأحداث التي وقعت فورًا بعد تلك المعركة المجيدة والمصيرية على الجسر. لكن قبل ذلك، أريد أن أضع بعض القرّاء في الصورة، أولئك الذين لم يسمعوا عن معركة الجسر—سواء بسبب اهتمامات أخرى أو نتيجة جهل عام. إذن، تلك المعركة وقعت في اليوم الأخير من أغسطس خلال الحرب العظمى. دارت رحاها في أنغرِن، على الجسر الذي يربط ضفتي نهر ياروغا، بالقرب من قلعة تُدعى الريد بيندوغا. القوات التي شاركت في ذلك الصراع المسلح كانت: جيش نيلفجارد، فيلق جيش ليريا بقيادة الملكة ميف، ونحن—رفقتنا العظيمة—أنا، كاتب هذه السطور، الويتشر جيرالت، مصاص الدماء إميِيل ريجيس روهليك تيرزيف-غودفروي، الرامية ماريا بارينغ المعروفة باسم ميلفا، وكاهير ماور ديفرين أيب كيلاك، نيلفجارديّ كان يُصرّ، بعناد يستحق قضية أفضل، أنه ليس نيلفجارديًا.

قد يكون الأمر محيرًا لبعضكم، أيها القُرّاء، كيف أن الملكة كانت على قيد الحياة في أنغرِن، إذ ربما سمعتم أنها اختفت وهلكت مع جيشها عندما اجتاح النيلفجارديون ليريا، ريفيا وأيدين في شهر يوليو، ما أدى إلى إخضاع تلك البلدان بالكامل واحتلالها من قبل القوات الإمبراطورية. لكن ميف لم تُقتل في المعركة كما افترض البعض، ولم تقع حتى في الأسر النيلفجارديّ. بعد أن أعادت تنظيم صفوفها، قادت الملكة الشجاعة ميف وقسم كبير من الناجين من جيش ليريا حملة تجنيد شملت كل من استطاعوا العثور عليه—من مرتزقة وقطاع طرق عاديين—وانطلقت في حرب عصابات ضد نيلفجارد. وقد كانت أنغرِن، بمناظرها الطبيعية البرية، المكان المثالي لحرب العصابات تلك—سواء للاختباء في الأدغال أو نصب الكمائن منها، فأنغرِن قدّمت لهم ما يريدون. لأن أنغرِن، بكل بساطة، لا يوجد فيها شيء يُذكر سوى الأدغال!

وبسرعة، اكتسبت عصبة ميف — كما أصبح يُعرف جيش الملكة البيضاء — قوة متزايدة وجرأة جعلتهم يعبرون بلا خوف إلى الضفة اليسرى لنهر ياروغا، عميقًا خلف خطوط العدو، ليعسكروا هناك ويهاجموا كما يحلو لهم.

والآن نعود إلى موضوعنا الأساسي، ألا وهو معركة الجسر.

كانت الحالة التكتيكية كالتالي: قوات الملكة ميف، بعد أن أقامت معسكرها لبعض الوقت على الضفة اليسرى لنهر ياروغا، أرادت الفرار إلى الضفة اليمنى. ولكنهم وجدوا أمامهم مجموعة من جنود نيلفجارد، الذين، بعد أن أقاموا معسكرهم لبعض الوقت على الضفة اليمنى لنهر ياروغا، أرادوا الفرار إلى الضفة اليسرى. نحن، من جهتنا، دخلنا هذا الوضع الذي ذُكر أعلاه من موضع مركزي، أي من وسط نهر ياروغا، محاطين بالمسلحين من الجهتين، يمينًا ويسارًا. ولأنه لم يكن أمامنا أي طريق للهروب، أصبحنا أبطالًا، نُكلل بالمجد الخالد.

انتصرت الليريان في المعركة لأنها حققت هدفها، وهو الفرار إلى الضفة اليمنى. أما النيلفجارديون، الذين فروا إلى اتجاه مجهول، فقد خسروا المعركة. أعلم أن هذا كله يبدو مربكًا، وأعدكم أنني سأستشير منظِّرًا عسكريًا قبل نشر هذه السطور. لكن في الوقت الحالي، أعتمد على سلطة كاهير أيب كيلاك، كونه الجندي الوحيد في رُفقتنا وقد أكد لي أن، وفقًا لمعظم العقائد العسكرية، فإن تحقيق النصر عبر الانسحاب السريع من ساحة المعركة هو أمر مقبول.

لا شك أن دورنا في المعركة كان مجيدًا، لكنه لم يكن بلا عواقب. إذ تعرضت ميلفا، التي كانت حاملًا، لحادث مأساوي. أما الحظ، فقد بقي إلى جانب بقية أفرادنا ولم يُصب أحد آخر بأذى جسيم. ولكن سرعان ما بدأ هذا الحظ في النفاد، حيث لم نتلقَ أي مكافآت، سوى عبارات الشكر. الاستثناء الوحيد كان الويتشر جيرالت.

لأنه، وعلى عكس موقفه المعلن — والذي، كما ترون، كان منافقًا — من اللامبالاة والحياد، أظهر جيرالت على أرض المعركة حماسًا ملحوظًا، بل متحمسًا أكثر مما ينبغي. وبعبارة أخرى: قاتل ببراعة استثنائية لدرجة أنه كان من المستحيل عدم ملاحظته. وبالفعل، لم تمر شجاعته دون مكافأة—إذ قامت الملكة ميف شخصيًا بمنحه لقب الفارس. ومع ذلك، فإن هذا التشريف جلب له متاعب أكثر مما جلب له فوائد.

يجب أن تعلموا، أيها القرّاء الأعزاء، أن جيرالت كان دائمًا شخصًا متواضعًا، بسيطًا، متزنًا، ومتحكمًا في مشاعره، ويُعرف باستقامته التي تشبه عمود الرمح. ولكن هذا الترقّي غير المتوقع، وما بدا أنه رضا من

الملكة ميف، غيّره بعض الشيء—فلو لم أكن أعرفه جيدًا، لقلتُ إن المجد قد صعد إلى رأسه. بدلًا من أن يختفي بسرعة وبطريقة مجهولة عن الأنظار، أخذ جيرالت يتجول في معسكر الملكة، مستمتعًا بالشرف، متلذذًا برعايتها، ومنغمسًا في بريق المجد.

ولكن الشهرة والاهتمام كانا آخر ما نحتاج إليه. ولمن نسي، أذكره بأن الويتشر جيرالت، الذي أصبح فارسًا الآن، كان مطلوبًا لدى أجهزة الاستخبارات في الممالك الأربع جميعها بسبب تورطه في الانتفاضة التي وقعت على جزيرة ثانيد، معقل السحرة. أما أنا، شخص لم يرتكب أي ذنب قط، فقد حاولوا إلصاق تهمة التجسس بي. ثم هناك ميلفا، التي تبين لاحقًا أنها تعاونت مع الدرياد السكوياتايل وكانت ضالعة في المجازر سيئة السمعة التي وقعت على أطراف غابة بروكيلون. وفوق ذلك، كان معنا كاهير أيف كيلاك، النيلفجاردي، الذي كان، في نهاية الأمر، مواطنًا لدولة معادية، ووجوده على الجانب الخطأ من الجبهة كان أمرًا لا يسهل تفسيره أو تبريره. وهكذا، تبين أن العضو الوحيد في مجموعتنا الذي لم يكن سجله ملوثًا بالقضايا السياسية أو الجنائية كان مصاص دماء. وبذلك، كان يكفي أن يتم التعرف على أي منا حتى يكون مصيرنا جميعًا نصال الرماح المصنوعة من خشب الحور.

كل يوم قضيناه تحت ظل رايات ليريا – والتي قضيناها، بالمناسبة، في راحة وشبع وأمان – كان يزيد من خطورة افتضاح أمرنا. وعندما ذكّرت جيرالت بهذا الأمر بلهجة حازمة، أظلمت ملامحه قليلًا، لكنه قدّم لي حججه، وكان لديه حجتان اثنتان.

أولًا، كانت ميلفا لا تزال بحاجة إلى العناية والتمريض بعد حادثها المؤسف، وكان هناك أطباء ميدانيون مع الجيش. ثانيًا، كان جيش الملكة ميف يسير شرقًا، نحو كايد ذو. وقبل أن تضطر مجموعتنا إلى تغيير مسارها وتجد نفسها في خضم المعركة التي وصفتها آنفًا، كنا أيضًا نسير شرقًا نحو كايد ذو، على أمل أن يمنحنا حكماء الدرويد الذين يعيشون هناك معلومات قد تساعدنا في البحث عن سيري. كان الفرسان المسلحون والمرتزقة المغيرون في أنغرن سببًا في اضطرارنا للحياد عن طريقنا المباشر إلى الدرويد. أما الآن، وتحت حماية جيش ليريا الصديق، وبفضل دعم الملكة ميف ومودتها، أصبح بإمكاننا السفر علنًا إلى كايد ذو، بسهولة وأمان.

حذرت الويتشر من أن حظوة الملكة الظاهرة كانت متقلبة ومخادعة. لكنه لم يصغِ إليّ. وسرعان ما تبين من كان على حق.

حين وصلت أنباء من الشرق تفيد بأن حملة تأديبية نيلفجاردية تتحرك عبر ممر كلامات باتجاه أنغرن، لم تتردد قوات ليريا لحظة في تغيير مسارها شمالًا، نحو ماهكام. وكما يمكنك أن تتخيل، لم يرق هذا التغيير لجيرالت أبدًا – فهو أراد الوصول إلى الدرويد في أسرع وقت، وليس إلى ماهكام! بسذاجة طفل، هرع إلى الملكة ميف طالبًا إعفاءه من الخدمة في الجيش والحصول على بركتها لمتابعة شؤونه الخاصة.

وفي تلك اللحظة، انقضت الحظوة الملكية، وتلاشت مشاعر الاحترام والإعجاب التي أحاطت بأبطال معركة الجسر كما يتبدد الدخان. ذُكر الفارس جيرالت من ريفيا، بنبرة باردة لكنها حازمة، بواجباته تجاه التاج. أما ميلفا، التي لم تكن قد تعافت تمامًا بعد، ومصاص الدماء ريجيس، وكاتب هذه السطور، فقد نُصحوا بالانضمام إلى قافلة اللاجئين والمدنيين التي كانت تتبع المعسكر. أما كاهير أيف كيلاك، الشاب الطويل الذي لم يكن له أي مظهر مدني، فقد شُد إلى ذراعه وشاح أزرق وأبيض وأُرسل إلى ما يُعرف بـ"الفرقة الحرة" – وحدة فرسان جمعت بين صفوفها كل أنواع الرعاع الذين التقطتهم قوات ليريا على طول الطريق. وهكذا، تفرقنا، وبدا أن رحلتنا قد وصلت إلى خاتمتها الحتمية التي لا رجعة فيها.

لكن كما يمكنك أن تتخيل، عزيزي القارئ، لم يكن ذلك بأي حال من الأحوال النهاية. نعم، لم يكن حتى البداية!

فما إن علمت ميلفا بتطور الأمور، حتى أعلنت على الفور أنها شُفيت تمامًا وأصبحت قادرة على السفر وأطلقت النداء للهرب عند أول فرصة. أما كاهير، فقد ألقى بألوان التاج الملكي في الأحراش واختفى من الفرقة الحرة، ناصحًا جيرالت بأن يحذو حذوه ويختفي من خيام الفرسان الفاخرة دون أثر.

لن أغرق في التفاصيل حول نفسي – فتواضعي يمنعني من تسليط الضوء على إنجازاتي في عملية الهروب التي نفذتها مجموعتنا – رغم أنها لم تكن بالهيّنة. سأكتفي بسرد الحقائق: في ليلة الخامس إلى السادس من سبتمبر، غادرت مجموعتنا بهدوء معسكر قوات الملكة ميف.

لكن قبل أن نودع جيش ليريا، لم نُفوّت فرصة إعادة تزويد أنفسنا بالمؤن، حيث ضبطنا ضابط الإمدادات متلبسين بأخذ ما لم يُمنح لنا بإذن. ميلفا وصفت الأمر بـ"السرقة"، لكنني أرى أن ذلك تعبير قاسٍ بعض الشيء. في النهاية، كنا نستحق مكافأة لمشاركتنا في معركة الجسر التي لا تُنسى. وإن لم يكن ذلك مكافأة، فليكن تعويضًا عن الخسائر التي تكبدناها. فعدا عن حادث ميلفا المأساوي، والإصابات والجروح العديدة التي لحقت بجيرالت وكاهير، قُتلت جميع خيولنا أو أصيبت بإعاقات دائمة خلال المعركة – باستثناء فرسي الوفي بيغاسوس، والفرس العنيدة روتش، التي تخص الويتشر.

ولذا، كتعويض، أخذنا ثلاثة خيول أصيلة وحصانًا لحمل الأمتعة. كما جمعنا أكبر قدر ممكن من المعدات التي استطعنا حملها – وإن كنتُ أنصف، ينبغي أن أذكر أننا تخلصنا من نصفها لاحقًا. وكما لاحظت ميلفا قبل البدء، "إن كنت تسرق في الظلام، فلن تعرف بالضبط ما تأخذ". أكثر الغنائم قيمة كانت من نصيب مخبأ ريجيس، الذي يرى في الظلمة أفضل مما يرى في النهار. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد خفّض ريجيس أيضًا من قوة الجيش الليرياني القتالية بمقدار بغل سمين، رمادي اللون كالفأر، استطاع قيادته خارج المعسكر ببراعة مذهلة، حتى إن الحيوان لم ينهق أو يخبط بحافره ولو مرة واحدة. لذا، لا بد من دحض القصص التي تقول إن الحيوانات تشعر بوجود مصاصي الدماء وتصيبها الهستيريا لرائحتهم – على الأقل بعض الحيوانات وبعض مصاصي الدماء.

وأود أن أضيف أن هذا البغل الرمادي لا يزال معنا حتى اليوم. لاحقًا، عندما فرّ حصان الأمتعة مذعورًا من الذئاب وتركنا في غابات ريفرديل، أصبح البغل هو الذي يحمل جميع أمتعتنا – أو ما تبقى منها، على الأقل. اسمه دراكولا. أطلق عليه ريجيس هذا الاسم فور سرقته، ولا يزال يحمله حتى يومنا هذا. الاسم كان يثير ضحك ريجيس بوضوح، ولابد أن له دلالة فكاهية ما في ثقافة ولغة مصاصي الدماء، لكن عندما طلبنا منه تفسيره، زعم أنه تلاعب بالكلمات لا يمكن ترجمته بأي شكل.

وهكذا، انطلقت مجموعتنا مجددًا على الطريق، وقد ازداد طول القائمة المرهقة أصلًا لمن لديهم ضغينة ضدنا.

جيرالت من ريفيا، الفارس الذي لا يخشى شيئًا ولا تشوبه شائبة، غادر صفوف الفرسان قبل أن يُوثّق تنصيبه رسميًا، وقبل أن يُعتمد الشعار النبالي الذي صممه لنفسه. أما كاهير أيف كيلاك – الذي سبق له أن حارب مع جيوش الطرفين في الحرب الكبرى بين الممالك الشمالية ونيلفجارد، ثم انشق عنهما كليهما – فقد نال حكمين بالإعدام غيابيًا من الطرفين معًا. ولم يكن حال بقيتنا أفضل – فالمشنقة تبقى مشنقة، ولا يشكل فارقًا كبيرًا لأي سبب ستُشنق – سواء كان بسبب تدنيس الفروسية، أو الفرار من الجيش، أو لأنك أطلقت على بغل عسكري اسم "دراكولا".

لذا، عزيزي القارئ، لا عجب أننا بذلنا جهودًا هائلة أشبه بالأسطورية لزيادة المسافة بيننا وبين قوات الملكة ميف إلى أقصى حد ممكن.

وبفضل الخيول المستعارة، توجهنا جنوبًا نحو ياروغا، وعبرنا إلى الضفة اليسرى. ولم يكن ذلك فقط لنضع النهر بيننا وبين الملكة ورجال حرب العصابات التابعين لها، بل أيضًا لأن عزلة ريفرديل كانت أقل خطرًا بكثير من أنغرن التي اجتاحتها الحرب. وهكذا، وبمنطق واضح، اخترنا السفر إلى الدرويد في كايد ذو عبر الضفة اليسرى، بدلًا من الضفة اليمنى.

لكن المفارقة تكمن في أن الضفة اليسرى من ياروغا كانت بالفعل تحت سيطرة العدو، إمبراطورية نيلفجارد. وكان صاحب فكرة السفر عبر الضفة اليسرى هو الويتشر جيرالت، الذي استعاد قدرًا كبيرًا من تفكيره العقلاني ومنطقه المعتاد وحذره المعروف، بعدما تخلّى عن أخوية الفرسان المتشدقين. وكما سيثبت لنا المستقبل، كانت خطة الويتشر ذات أهمية بالغة، وأثّرت بشكل حاسم على مصير الرحلة بأكملها.

لكن المزيد عن ذلك لاحقًا.

عندما وصلنا إلى نهر ياروغا، كانت قوات نيلفجارد قد اجتاحت الجسر المعاد بناؤه عند ريد بيندوغا، تتقدم بأعداد غفيرة لمواصلة هجومها على أنغرن، ثم التوجه بعدها إلى تيميريا، ماهكام، أو إلى حيث شاءت خطط هيئة الأركان النيلفجاردية – وربما إلى الجحيم ذاته، إن أرادوا. لم يكن هناك مجال لعبور النهر أثناء زحفهم، لذا اضطررنا للاختباء والانتظار حتى تمر القوات.

يومان كاملان قضيناهما مختبئين في أدغال الصفصاف قرب النهر، نحصد الروماتيزم ونطعم البعوض. وكأن ذلك لم يكن كافيًا، انقلب الطقس إلى الأسوأ. بدأ المطر يتساقط برذاذ بغيض، والريح كانت باردة لدرجة أن أسناننا أخذت تصطك. لم أذكر في حياتي شهر سبتمبر بمثل هذا البرد، رغم أن ذاكرتي تحمل في طياتها العديد من تلك الشهور.

حينها، أيها القارئ العزيز، وبينما كنت أبحث في المعدات التي "استعرناها" من معسكر ليريا، وجدت قلمًا وورقة. ولكي أقتل الوقت وأنسى البؤس الذي كنا فيه، بدأت بتدوين بعض مغامراتنا وتخليدها على الورق.

أثرت الأجواء الكئيبة والمطر اللامتناهي على معنوياتنا، وأطلقت العنان للأفكار السوداء التي أخذت تتسلل إلينا، خاصة إلى الويتشر. جيرالت كان قد اعتاد بالفعل على حساب الأيام التي مضت منذ انفصاله عن سيري، وكان يردد أن كل يوم لا يتحرك فيه للأمام يعني أنه يبتعد عنها أكثر. حسنًا، في ذلك الصفصاف المبتل، وسط المطر والبرد، ازداد وجه الويتشر قتامة ساعة بعد أخرى. لاحظت أيضًا أنه يعرج بشدة، وحين كان يظن أننا لا نراه أو نسمعه، كان يهمس بالشتائم ويزمجر من الألم.

يجب أن تعلم، أيها القارئ، أن عظمة ساق جيرالت كانت قد تحطمت أثناء مؤتمر السحرة في ثانيد. التئمت الكسور وشُفيت، بفضل جهود حوريات الغابة السحرية في غابة بروكيلون، لكنها كانت لا تزال تسبب له مشاكل واضحة. وهكذا، كان الويتشر يعاني، كما يقولون، ألمًا جسديًا وعاطفيًا معًا، وكان غاضبًا إلى درجة أنه فضّل أن يُترك وشأنه.

ومرة أخرى، بدأت الأحلام تطارده.

في التاسع من سبتمبر – في الصباح، لأنه كان قد قضى الليل كله في الحراسة ولم ينم حتى ذلك الحين – أفزعنا جميعًا حين انتفض صارخًا واستل سيفه. بدا وكأنه على وشك الدخول في نوبة هياج، لكن لحسن الحظ، استعاد وعيه في اللحظة الأخيرة.

ابتعد عنّا، ثم عاد بعد وقت قصير بوجه متجهم، واقترح علينا، بلا أي مقدمات، أن نُحلّ مجموعتنا فورًا، وأن يواصل هو وحده، لأن حدثًا رهيبًا قد وقع في مكان ما، ولم يعد هناك متسع من الوقت. قال إن الرحلة ستكون خطيرة، وإنه لن يُجبر أحدًا على تحمل مسؤولية شخص آخر. لكنه قال ذلك بلهجة قاتمة، وبنبرة متذمرة خافتة، جعلت عرضه بالكاد يستحق النقاش.

ريجيس، ذلك المصاص الفصيح عادةً، اكتفى بهز كتفيه بلا مبالاة، ميلفا بصقت على الأرض، أما كاهير، فذكره بجفاف بأنه سبق له أن حاول السفر وحيدًا، لكنه أضاف ملاحظة حادة بشأن المخاطر، قائلًا: "من يحمل السيف، لا ينبغي له أن يشكو من الحزام".

ثم عمّ الصمت، ووجّه الجميع أنظارهم إلى الكاتب العظيم لهذه السطور، بلا شك متوقعين أن أستغل الفرصة للعودة إلى دياري. ولا حاجة لي بأن أضيف أنهم كانوا مخطئين تمامًا.

لكن هذا الحدث كان بمثابة نهاية لخمولنا، ودفعنا إلى القيام بعمل جريء – عبور نهر ياروغا.

أعترف بأنني كنت قلقًا للغاية حيال هذه العملية – فقد كانت الخطة، ببساطة، السباحة عبر النهر ليلاً، أو كما وصفتها ميلفا وكاهير بتهكم: "أن تُسحب بواسطة خيولك من أعضائها الذكورية".

حتى لو كانا يتحدثان مجازًا – وأرجح أنهما كانا كذلك – لم أستطع تخيل نفسي أخوض هذا العبور على ظهر فرسي "بيغاسوس"، وأعتمد على "ما أمتلكه تحت حزامي" للنجاة. فلطالما كان السباحة مهارة لم أُتقنها أبدًا، ولم أكن لأتظاهر بعكس ذلك.

لو أرادتني الطبيعة أن أسبح، لكانت منحتني أصابع مكففة مثل الضفادع أثناء التطور.

والأمر ذاته ينطبق على بيغاسوس.

كانت مخاوفي غير مبررة – على الأقل فيما يتعلق بأن نُسحب عبر النهر بواسطة "أعضاء" الخيول. فقد عبرنا بطريقة مختلفة تمامًا. وربما كانت أكثر جنونًا.

بطريقة لا تخلو من الجرأة والانتحار، عبرنا على الجسر المعاد بناؤه في ريد بيندوغا، تحت أنظار الحراس والدوريات النيلفجاردية مباشرةً.

لكن، كما اتضح لاحقًا، لم تكن هذه العملية مجرد حماقة متهورة أو لعبة مقامرة قاتلة، بل كانت منظمة بدقة تامة.

فعلى الجسر، كان يسير رتل من المشاة، يتبعه موكب من عربات النقل، وقطعان الماشية، وأناس من كافة الأصناف، بما في ذلك مدنيون بثياب عادية. كان من السهل علينا أن نندمج وسط هذا الحشد دون أن نُلاحظ.

وهكذا، في اليوم العاشر من سبتمبر، اجتزنا إلى الضفة اليسرى لنهر ياروغا.

خلال العبور، لم يُوقفنا سوى حارس واحد استفسر عن هويتنا. لكن كاهير، بوجه متجهم وهيئة متسلطة، تظاهر بأنه في مهمة إمبراطورية، ورافق تهديده بتحية عسكرية نيلفجاردية تقليدية لطالما أثبتت فعاليتها: "ابن العاهرة".

وبالفعل، قبل أن يتاح لأحد التحقق من أمرنا، كنا قد وصلنا إلى الضفة اليسرى من ياروغا، عميقًا داخل غابات ريفرديل. حيث لم يكن هناك سوى طريق رئيسي واحد يمتد جنوبًا – وهو طريق لم يكن في مصلحتنا لا باتجاهه ولا بعدد النيلفجارديين المنتشرين عليه.

في أول معسكر لنا في غابات ريفرديل، راودني حلم غريب – لكن ليس عن سيري كما كان يحدث مع جيرالت، بل عن الساحرة ينيفر.

كان الحلم مقلقًا، غامضًا. رأيت يني كما عهدتها دائمًا، ترتدي الأسود والأبيض، لكنها كانت تحلق في الهواء فوق قلعة جبلية صغيرة ومظلمة.

في الأسفل، كانت ساحرات أخريات يصرخن بغضب، يلوّحن بقبضاتهن ويقذفنها بالإهانات.

ينيفر، بنظرة متعالية وساخر، لوّحت بأكمام فستانها الطويلة وانطلقت في الهواء مثل "القطرس الأسود"، متجهة إلى بحر شاسع لا نهاية له، مقابل شروق الشمس.

ومنذ تلك اللحظة، تحوّل الحلم إلى كابوس.

وحين استيقظت، كانت التفاصيل قد تلاشت من ذاكرتي، ولم يبقَ منها سوى صور مشوشة بلا معنى واضح.

لكن تلك الصور كانت مروعة – تعذيب، صرخات، ألم، خوف، موت... بكلمة واحدة: رعب.

لم أخبر جيرالت بحلمي. لم أنطق بكلمة.

وكما سيتبين لاحقًا، كنتُ محقًّا تمامًا في ذلك.

* * *

"ينيفر، كان اسمها! ينيفر من فينجربيرج. ساحرة قوية ومشهورة! ليصعقني البرق إن كنت أكذب!"

انتفضت تريس ميريجولد واستدارت بسرعة، تحاول أن تخترق بعينيها الحشد والدخان الأزرق الكثيف الذي ملأ القاعة الرئيسية في الحانة.

وأخيرًا، نهضت عن الطاولة، مترددة للحظة وهي تترك وراءها طبق شرائح سمك موسى بمعجون الأنشوجة - التخصص المحلي وأحد الأطباق الفاخرة بحق - لكن تريس لم تكن تتردد على حانات بريمرفورد لتذوق الأطعمة الشهية، بل لجمع المعلومات.

كما أن عليها الانتباه إلى جدول أعمالها.

كانت الدائرة التي تجمّع فيها الناس للاستماع إلى الحكاية قد أصبحت مكتظة بشدة – فهنا، في بريمرفورد، كان الناس يعشقون القصص، ويستغلون أي فرصة لسماع واحدة جديدة.

والحانة، حيث البحارة المتوافدون دائمًا من شتى الأماكن، لم تكن لتخذلهم أبدًا إذ كانوا دائمًا يحملون خزانة من النوادر والحكايات الطازجة.

وبالطبع، كانت معظم تلك الحكايات ملفقة، لكن ذلك لم يكن مهمًا. فالقصص لها قواعدها الخاصة.

المرأة التي كانت تروي الحكاية – والتي ذكرت اسم ينيفر – كانت صيادة سمك من جزر سكيليجا.

جسدها ممتلئ وكتفاها عريضان، شعرها قصير مقصوص، وكانت ترتدي – كما رفاقها الأربعة – سترة من جلد الحوت، مهترئة إلى درجة أنها أصبحت لامعة من كثرة الاستخدام.

"كان ذلك في صباح اليوم التاسع عشر من أغسطس، بعد الليلة الثانية من اكتمال القمر،" قالت المرأة، وهي ترفع الكأس إلى شفتيها بينما كانت تسرد قصتها.

لاحظت تريس أن يد المرأة كانت بلون الطوب العتيق، وذراعها العاري، المجدول بالعضلات القوية، كان بحجم محيط خصر تريس تقريبًا عشرون إنشًا من الصلابة مقارنة بخصرها الذي يبلغ اثنين وعشرين إنشًا فقط.

"مع أول خيوط الضوء،" تابعت الصيادة، وهي تمسح بعينيها وجوه مستمعيها، "قادنا مركبنا إلى المضيق بين أرد سكيلج وسبايكيروغ، حيث توجد الشعاب التي نضع فيها شباك السلمون عادةً.

كنا في عجلة من أمرنا، فقد كان الأفق الغربي يبدو مظلمًا بشدة، والعاصفة تلوح في الأفق.

كان علينا أن نسحب السمك من الشباك بأسرع ما يمكن، وإلا..."

توقفت للحظة، ثم تابعت بنبرة عارفة:

"تعرفون كيف يكون الأمر عندما تهدأ العاصفة أخيرًا، وحين تخرج إلى البحر، لا تجد في الشباك سوى رؤوس متآكلة... ويضيع المحصول بأكمله."

الجمهور، ومعظمه من سكان بريمرفورد وسيداريس – أناس عاشوا على البحر وتوقفت حياتهم عليه – أومأوا برؤوسهم وتمتموا بتعاطف.

تريس، التي لم تتعامل مع سمك السلمون سوى كشرائح تصل إلى فمها، أومأت هي الأخرى وتمتمت مثلهم، حتى لا تلفت الانتباه إليها.

لقد كانت هنا متخفية، في مهمة سرية.

"وصلنا،" تابعت الصيادة، بعد أن أفرغت جعتها ولوّحت بيدها مطالبة بكأس أخرى على حساب أحد المستمعين.

"وصلنا، وكنا بالكاد سنبدأ بسحب الشباك حين فجأةً، تصرخ جودرن، ابنة ستورلي! وتشير بيدها إلى الميمنة!"

"نظرنا إلى الخلف، ورأينا شيئًا أسود يطير في السماء! لكنه لم يكن طائرًا!"

"توقف قلبي للحظة، لأن أول ما خطر ببالي أنه قد يكون "وايفيرن" أو "سلايزارد صغير" – وهما، كما تعلمون، أحيانًا ما يطيران إلى سبايكيروغ، خصوصًا في الشتاء، عندما تهب الرياح الغربية."

"لكن الشيء الأسود هذا سقط في الماء!"

"وأثار موجة بلغ ارتفاعها أربعة أقدام! هووووش! اندفعت مباشرة إلى شباكنا!"

"علقت هناك، وظلت تتلوى مثل فقمة عالقة!"

"لقد تطلب الأمر كل ما نملك من قوة، نحن الثماني نساء، لننتشلها ونلقي بها على سطح القارب!"

"عندها فقط، استطعنا أن نفتح أفواهنا من الدهشة!"

"لأنها كانت... امرأة!"

"بثوب أسود، وشعر أسود كالغراب."

"متشابكة في الشبكة بين سمكتين من السلمون أحداهما، كما أجلس هنا، كانت تزن أربعة وعشرين رطلاً ونصف!"

الصيادة من جزر سكيلجا نفخت على زبد الكأس الجديدة وأخذت جرعة طويلة.

لكن لم ينبس أحد من الحضور بكلمة، ولم يُظهر أي شخص أي علامة على عدم التصديق رغم أن حتى أقدم الحاضرين لم يتمكن من تذكر سمكة سلمون بهذا الحجم قد تم اصطيادها يومًا ما.

"الشَّعرُ الأسودُ في الشِّباك،" تابعت المرأة القادمة من الجُزر، "بدأ يسعل، ويبصق الماء، ويشد الشبكة، بينما جودرن – المتوترة لأنها حامل – تصرخ فجأة: 'كِلبي! كِلبي! حورية بحر!'"

"لكن أيّ أحمق كان ليُدرك أن هذه لم تكن كِلبي، لأن الكِلبي كانت ستمزّق الشبكة منذ زمن، ومن المستحيل أن يتم سحب وحش كهذا إلى القارب!"

"كما أنها لم تكن حورية بحر، لأنه لم يكن لديها ذيل سمكة! وحوريات البحر دائمًا لهن ذيل سمكة!"

"ثم إنها سقطت من السماء إلى البحر ومن منكم رأى كِلبي أو حورية بحر تطير في السماء؟!"

"لكن سكادي، ابنة أونا، والتي لا تستطيع التفكير بنفسها، بدأت تصرخ أيضًا: 'كِلبي!'، وامتدت يدها إلى خُطّاف القارب!"

"وبدأت تلوّح بالخُطّاف تجاه الشِّباك!"

"لكن من داخل الشبكة، انطلق وميض أزرق!"

"وفجأةً، طارت سكادي وهي تصرخ!"

"طار الخُطّاف إلى اليسار، وسكادي إلى اليمين، أقسم بذلك ولتجعلني الآلهة أموت في مكاني إن كنت أكذب! لقد دارت سكادي ثلاث شقلبات كاملة في الهواء قبل أن تهوي على مؤخرتها وسط القارب!"

"هاه! وكما اتضح، فقد كانت ساحرة هي من وقعت في الشبكة! ساحرة بنفس خطورة ميدوسا، أو عقرب سام، أو ثعبان البحر الكهربائي!"

"ثم أصبحت الساحرة في موقف دفاعي، وبدأت تصرخ وتلعننا!"

"وأخذت الشبكة تصدر فحيحًا، وتتصاعد منها الأبخرة، وكل شيء بدأ يُفوح برائحةٍ مقززة لأنها مليئة بالسحر!"

"وهنا أدركنا أن الأمر لم يكن مجرد لعبة... ولم يعد الأمر ممتعاً"

أفرغت الصيادة من جزر سكيلجا كأسها دفعة واحدة، ثم تناولت الكأس التالية مباشرة.

ثم تجشأت بصوت عالٍ، ومسحت أنفها وفمها بظاهر يدها وقالت: "لم يكن الأمر مجرد لعبة، ساحرة! لدينا ساحرة عالقة في شِباكنا!"

"وأذكركم، وأنا جالسة هنا، أن سحرها قد بدأ بالفعل يهز القارب!"

"لذلك لم يكن هناك أي تردد!"

"بريتا، ابنة كارين، أمسكت الشبكة بخُطّاف القارب، وأنا أمسكت المجذاف وبدأت أضربها!"

"أضربها! أضربها! أضربها!"

ارتفعت بعض الضحكات المتوترة من الحشد، بينما غرق الآخرون في صمت مشدود.

لكن تريس ميريجولد لم تكن تضحك. كانت عيناها تضيقان بتوتر، وقلبها يخفق بشدة. هل هذه الساحرة في الشبكة حقًا... كانت ينيفر؟!

انسكب الزُبد من الكؤوس، متدفقًا على الطاولة، وانقلبت بضع أباريق على الأرض.

مسح بعض الحاضرين خدودهم وجباههم، لكن لم ينبس أحد بكلمة اعتراض أو استنكار.

فالقصص... لها قواعدها الخاصة.

"ثم أدركت الساحرة مع من كانت تتعامل."

ضربت الصيادة صدرها العريض بكفها، ونظرت حولها بتحدٍّ.

"نساء سكيلجا لسن باللعب!"

"فقالت إنها تستسلم لنا، وتعدُ بأنها ستُبطل أي تعويذات أو سحر قد ألقته."

"ثم طلبت أن نناديها باسمها: ينيفر من فينجربيرج."

ساد الهمس بين الحاضرين.

لم يمضِ سوى شهرين منذ أحداث جزيرة ثانيد، ولا يزال الجميع يذكر أسماء الخونة الذين باعوا أنفسهم لنيلفجارد.

وخصوصًا اسم "ينيفر" الشهير.

"لقد أمسكنا بها،" تابعت الصيادة، "وجلبناها من أرد سكيلج إلى كاير ترولدي، إلى الكونت كراك عن كريت."

"منذ ذلك الحين، لم أرها مرة أخرى."

"يُقال إن الكونت كان في رحلة، وحين عاد، استُقبلت الساحرة استقبالًا قاسيًا، لكن لاحقًا، عاملها باحترام ولطف. هُممم..."

"لكنني ظللتُ أترقب انتقامها مني، فقد سددت لها ضربة بالمجداف، وكنت واثقة أنها ستشي بي للكونت، وتنتقم."

"لكن لا. لم تذكر عني كلمة سوء، على حد علمي."

"امرأة محترمة."

"وحين قتلت نفسها، شعرتُ بالحزن لأجلها..."

"ينيفر لم تعد على قيد الحياة؟!"

خرجت تريس ميريجولد عن صمتها فجأة، وقد نسيت خوفها، ونسيت مهمتها السرية، ونسيت حتى أنها كان يُفترض أن تبقى متخفية.

"ينيفر من فينجربيرج... لم تعد على قيد الحياة؟!"

الصيادة رفعت كأسها إلى فمها، شربت رشفة، ثم هزت كتفيها بلا اكتراث.

"لا .. لم تعد على قيد الحياة"

"لقد ماتت... مثل سمكة ماكريل نافقة."

"قتلت نفسها بسحرها الخاص، أثناء تأدية تعاويذها."

"كان ذلك مؤخرًا فقط، في اليوم الأخير من أغسطس، قبل حلول القمر الجديد."

"لكن تلك... قصةٌ أخرى تمامًا."

* * *

"داندليون! لا تنَم على السرج!"

"أنا لا أنام! أنا أفكر بطريقة إبداعية!"

وهكذا واصلنا مسيرنا، أيها القارئ العزيز، عبر غابات ريفرديل، شرقًا نحو كايد ذو، بحثًا عن الدرويد الذين قد يساعدوننا في العثور على سيري.

لكن لماذا تصرفنا بهذه الطريقة الفظيعة؟ سأخبرك بذلك لاحقًا.

لكن أولًا، ومن أجل الأمانة التاريخية، أود أن أكتب عن مجموعتنا – وأفرادها بشكل خاص.

كان ريجيس، مصاص الدماء، يبلغ من العمر أربعمائة عام – أو على الأقل هذا ما ادّعاه.

وإن لم يكن يكذب، فهذا يعني أنه كان الأكبر سنًا بيننا جميعًا.

بالطبع، كان من الممكن أن يكون هذا مجرد خدعة عادية، فمن منا كان قادرًا على التحقق من صدقه؟

لكنني فضّلت تصديق أن مصاص دمائنا كان يقول الحقيقة، لأنه أخبرنا أيضًا أنه قد تخلى بشكل نهائي عن شرب دماء البشر.

وبفضل هذا التصريح، كنا ننام ليلًا براحة أكبر.

في البداية، لاحظت أن ميلفا وكاهير كانا يفركان أعناقهما بتوتر عند الاستيقاظ، كما لو كانا يتحققان من وجود آثار عضّ، لكنهما سرعان ما توقفا عن ذلك.

كان ريجيس – أو بدا لي كذلك – مصاص دماء بشرف مطلق.

لقد أقسم أنه لن يمتص الدماء، ولذلك لم يفعل.

ومع ذلك، كانت له نقاطُ ضعفٍ، ولا أعني بذلك تلك التي نشأت عن طبيعته كمصاص دماء.

كان ريجيس مثقّفًا، وغالبًا ما كان يُظهر ذلك. وكانت لديه عادةٌ مزعجةٌ تتمثّل في إعلانه ادّعاءاتٍ وحقائقَ بنبرةٍ وهيئةِ نبيّ؛ الأمر الذي جعلنا نكفّ عن الرّدّ عليه سريعًا، لأنّ تلك الادّعاءات المعلَنة إمّا كانت صحيحةً بالفعل، أو بدت وجيهةً على الأقل، أو تعذّر التحقّق منها — وفي جميع الأحوال، كانت النتيجة واحدة.

وكان أشدُّ طباعِ ريجيس التي لا تُطاق أنّه كان يجيبُ عن السّؤال قبل أن يُتمَّ السائلُ طرحَه — وأحيانًا حتّى قبل أن يشرعَ في طرحه. لطالما اعتبرتُ أنّ هذا الدّليلَ المزعومَ على الذّكاءِ العالي ليس إلّا دليلًا على الوقاحةِ والغرور. وهي صفاتٌ قد تلائمُ أروقةَ الجامعاتِ أو مجالسَ البلاط، ولكن من العسيرِ تَحمُّلُها حين تصدُرُ عن رفيقٍ يمضي المرءُ معه النّهارَ ركابًا إلى ركاب، ويبيتُ معه اللّيلَ في المعسكر نفسه، لكن بفضلِ ميلفا، لم يَغضَبْ أحدٌ منّا غضبًا شديدًا من جرّاءِ ذلك.

وعلى خلافِ جيرالت وكاهير، اللذَين بدا أنّهما اندفعا إلى انتهاجِ أسلوبِ مصّاصِ الدّماء بل والتنافُسِ معه في ذلك، لجأت ميلفا، راميةُ السِّهام، إلى حلٍّ بسيطٍ غيرِ متكلَّف. وفي المرّة الثّالثة التي لاحظته يجيبُها في منتصف سؤالها، أمطرته بوابلٍ من الشّتائمِ والأوصافِ التي من شأنها أن تجعلَ حتّى جنديًّا مخضرمًا يَحمَرُّ خجلًا.

ويا للعجب، لقد أثمَرَ ذلك؛ إذ سُرعانَ ما نبذَ مصّاصُ الدّماءِ ذلك الأسلوبَ المُرهِقَ للأعصابِ جانبًا. أمّا الدّرسُ المُستفاد، فهو أنّ أنجعَ دِفاعٍ في مواجهةِ محاولةِ هيمنةٍ فكريّةٍ هو أن تدفعَ ذلك المثقّفَ الذي يريدُ الهيمنةَ إلى إطلاقِ العِنانِ للخنزيرِ الكامِنِ في داخله.

أما عن ميلفا فيخيل إلي أنها كانت تواجه صعوبة في التعايش مع حادثتها المأساوية وفقدانها. أكتب: يخيل لي، إذ أنني كرجل قد لا أدرك معنى مثل هذه الكارثة وهذه الخسارة لامرأة. رغم كوني شاعرًا وأديبًا، حتى مخيلتي المدربة والخبيرة تعجز هنا، ولا حيلة لي.

لقد استعادت القوسية (الرامية) لياقتها الجسدية سريعًا - أما عن حالتها النفسية فقد بدت أسوأ حالًا. إذا كانت تصمت أيامًا بأكملها من الفجر حتى الغسق. وتختفي بفرح وتعزل نفسها، مما بدأ بإثارة قلق الجميع. لكن أخيرًا جاء التحسن. تفاعلت "ميلفا" ك"درياد" أو إلفة - بعنفٍ، واندفاعٍ، وغموضٍ مُحير.

ففي صباحِ يومٍ ما، وأمام أعيننا، انتزعت سكينها وقطعت ضفيرتها من قفاها دون كلمة. قالت وهي ترانا نحدّق بها مذهولين: "لا أستحق هذا لأنني لست عذراء." ثم أضافت: "ولست أرملة أيضًا... بهذا أنهيت حدادي."

منذ تلك اللحظة عادت كما كانت: صارمةً لاذعةً، سليطة اللسان، سريعة التوظيف للكلمات غير المقبولة اجتماعيًا. فاستنتجنا أنها تخطت الأزمة حقًا.

أما العضو الثالث – والذي لا يقل غرابة – عن بقية رفقتنا، فكان "نيلفجارديًا" أراد إثبات أنه ليس "نيلفجارديًا". "كاهير ماور ديفرين أب كيلاخ" كما ادعى...

قال "دانديليون" بحزم وهو يُوجِّه قلم الرصاص الصغير نحو النيلفجاردي: "كاهير ماور ديفرين، ابن كيلاخ! عليَّ أن أتقبّل في هذه الحلقة المرموقة أشياءً كثيرة لا تعجبني، بل تكاد لا تُحتمل. لكن ليس هذا! لا أطيق أن يراقب أحدٌ ما أكتب من خلف كتفي! ولن أسمح بذلك!"

ابتعَد النيلفجاردي عن الشاعر، ثم بعد تأمّل قصير، انتزع سرجه ومعطفه الصوفي وجرّهما نحو "ميلفا" التي بدت كمن تغفو.

"اعذرني،" قال. "اغفر تدخلي، دانديليون. جلست أراقب بدافع الفضول العادي، ظننتُك ترسم خريطة أو تُجري حسابات."

قفز الشاعر واقفًا — حرفيًا ومجازيًا —: "لستُ محاسبًا! ولا رسّام خرائط! وحتى لو كنتُ، ما كان ليُبرِّر لك تقمُّص دور طائر الكركي فوق كتفي لترقب ملاحظاتي!"

ذكّرَه "كاهير" بجفاف وهو يُنظّم معسكره في موقعه الجديد: "لقد اعتذرتُ بالفعل. تعايشتُ وتأقلمتُ مع أمور كثيرة في هذه الحلقة المرموقة... لكني ما زلتُ أصرُّ على أن الاعتذار لا يُقدَّم إلا مرةً واحدة."

"بالفعل،" أيّده "الويتشر"، مما أثار دهشة الجميع — بما فيهم النيلفجاردي الشاب — "صرتَ عصبيًا بلا حدود، دانديليون. يبدو أن الأمر مرتبطٌ بتلك الورقة التي دنّستها مؤخرًا بقطعة الرصاص تلك."

أكّد "ريجيس" مصاص الدماء على حديثه بينما كان يلقي بغصون البتولا على النار: "صحيح. أصبح مُنشدنا في الفترة الأخيرة سريع الاشتعال، مولعًا بالإنزواءات الخجولة والانعزال. لكن لا، شهوته الطبيعية لا تحتاج شهودًا وهو أمر مفهوم في ظل ظروفنا. فخجله وانزعاجه من الأعين الفضولية يقتصران حصريًا على الورقة والقلم. ولعلي أتساءل: هل يدوّن وجودنا في قصيدة؟ ملحمة؟ رومانسية؟ مقطوعة شعرية؟"

قال "جيرالت" بينما يقترب من النار ويلقي بغطاء على كتفيه: "لا، أنا أعرفه جيدًا. هذا لا يمكن أن يكون كلامًا شعريًا، فهو لا يسبّ ولا يتمتم لنفسه ولا يعدّد المقاطع بأصابعه. توقف عن الكتابة، إذن هو نثر."

كشف مصاص الدماء عن أنيابه الحادة التي عادةً ما كان يحاول إخفاءها: "نثر! رواية ربما؟ أم مقالة؟ مقالة أخلاقية؟ تبا لك يا دانديليون! كفّ عن تعذيبي! أخبرنا ماذا تكتب؟"

"مذكّرات."

"كيف؟"

أظهر لهم أسطوانة مليئة بالأوراق: "من هذه الملاحظات، سيُخلق عمري الإبداعي. مذكّرات بعنوان خمسون عامًا من الشعر."

قال "كاهير" بجفاف: "عنوانٌ ساذج فالشعر لا عمر له."

أضاف المصاص: "وإن أصررت على أن له عمرًا، فهو أقدم بكثير."

ردّ "جيرالت": "أنتم لا تفهمون. العنوان يعني أن مؤلف العمل قضى خمسين عامًا - لا أكثر ولا أقل - في خدمة للشعر."

"إذن فهو هراءٌ أكبر!" قال الويتشر. "أنت يا دانديليون لم تتجاوز الأربعين بعد. دُقّت الكتابة في جمجمتك بمدرسة الهيكل بعصا على مؤخرتك حين كنت في الثامنة. حتى لو افترضنا أنك تنظم القوافي منذ ذلك الحين، فخدمتك للشعر لا تتجاوز الثلاثين عامًا. لكنني لست مضطرًا للافتراض، فأنت نفسك صرّحت مرارًا أنك بدأت تنظم القوافي وتلحّن بجدية في التاسعة عشرة، مُلهمًا بحب الكونتيسة دي ستال. هذا يعني أقل من عشرين عامًا من الخدمة. فمن أيّ كُمٍّ تخرج هذه الخمسين عامًا المذكورة في العنوان؟ أهي مجازٌ ما؟"

ال الشاعر بوقار: "أنا أستوعب آفاقًا فكريةً واسعة. أصف الحاضر، لكنني أمدّ يدي إلى المستقبل. العمل الذي أشرع فيه أنوي نشره بعد عشرين أو ثلاثين عامًا، وحينها لن يستطيع أحدٌ إنكار صدق العنوان."

"آه، فهمت الآن. ما يدهشني هو البصيرة. أنت عادةً لا تهتم بالغد."

أعلن الشاعر باستعلاء: "ما زلتُ لا أهتم بالغد. أنا أفكّر فيما بعد الموت! في الخلود!"

قال "ريجيس": "على الأقل من وجهة نظر الأجيال القادمة، ليس من الأخلاقي أن تبدأ الكتابة الآن. قد يتوقعون أن كاتبًا يختار مثل هذا العنوان يكون قد عاش قرنًا بأكمله، وشخصًا اختبر فعليًا نصف قرن من المعرفة..."

قاطعه "دانديليون": "شخصٌ عاش خمسين عامًا سيكون بالضرورة جدًّا سبعينيًا، مخّه محفور بالتصلب. حين أصل إلى تلك المرحلة، سأجلس على الشرفة وأطلق ريحًا في مهب الريح، أنا لا أملي مذكّراتٍ يضحك منها الناس. ولن أرتكب هذا الخطأ، سأكتب مذكّراتي الآن وأنا في أوج قواي الإبداعية. لاحقًا، قبل الاستسلام، سأضيف لمسات تجميلية فحسب."

أيده "جيرالت" وهو يدلك ركبته المؤلمة: "ربما له وجهة نظر. خاصةً بالنسبة لنا. فمع أننا بالتأكيد نظهر في عمله، ومع أنه لم يذكر عنا شيئًا طيبًا، إلا أننا بعد خمسين عامًا لن نكترث."

ابتسم المصاص الدموي: "ما يكون النصف قرن؟ لمحة، طرفة عين... ملاحظة صغيرة يا دانديليون: 'نصف قرن من الشعر' يبدو أفضل من 'خمسون عامًا' في رأيي."

ال المنشد وهو ينحنى على الورقة بقلمه يخدشها باهتمام: "بما أنني لا أعتارض... أشكرك يا ريجيس. أخيرًا، شيء بنّاء. هل لدى أحدٍ آخر إضافة؟"

"عندي ملاحظة!" قالت "ميلفا" فجأةً، مخرجة رأسها من تحت الغطاء. "لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ لأنني لا أقرأ ولا أكتب؟ لستُ غبية! نحن في رحلة إنقاذ سيري، متوجهون بأسلحتنا إلى أرض العدو. ربما تقع كتابات دانديليون بأيدي الأعداء. ونعرف جميعًا أن هذا الشاعر ثرثارٌ نمّام. قد يشنقوننا بسبب خربشاته!"

قال المصاص بلطف: "أنت تبالغين يا ميلفا."

أكد "دانديليون" بلهجةٍ أقوى: "بالتأكيد، وبشدة!"

أضاف "كاهير" بلا اكتراث: "أرى أيضًا أنك تبالغين. لا أعرف عن الشماليين، لكن في الإمبراطورية، امتلاك المخطوطات ليس جريمة، والنشاط الأدبي مباح."

ألقى "جيرالت" عليه نظرةً جانبيةً وهو يقصم الغصن الذي كان يلعب به بضجةٍ عالية: "ومع ذلك تُحرَق المكتبات في المدن التي تحتلها أمتكم المثقفة." نبرته كانت هادئة لكنها تحمل تهمةً واضحة. "على أي حال... أعتقد أنك تبالغين يا ماريا. خربشات دانديليون بلا معنى كالعادة. لا خطر منها."

ردّت الرامية جالسةً: "أعرف ما أعرفه! أبي بالتبني، حين أتى كاتب الضرائب الملكي للإحصاء، هرب إلى الأدغال وبقي أسبوعين مختبئاً، كان دائمًا يقول: 'حيث يوجد الكاتب، هناك القاضي، واليوم يكتبون عنك، وغدًا يشنقونك بسببه.' وكان محقًا، رغم أنه كان وغدًا بلا مثيل. أتمنى أن يغلي في الجحيم، ذلك اللعين!"

نزعت "ميلفا" الغطاء وجلست قرب النار مستسلمةً لليلةٍ بلا نوم. لاحظ "جيرالت" أن الحديث سيطول مرة أخرى.

بعد صمتٍ قصير، قال "دانديليون": "يبدو أنك لم تحبي أباك بالتبني، أليس كذلك؟"

ردّت ميلفا وهي تصرخ بأسنان مطبقة: "لم أحبه. لأنه كان وغدًا. إن غفت عين أمي عنا، كان يتحرش بي ثم ينكر ذلك، في النهاية، انفجرت وضربته بمشط من حديد، وعندما سقط أهديته لمسات

إضافية: ركلتين في الأضلاع، وواحدة في المقعد. حتى أنه قد مكث يومين يبصق دمًا... ثم هربت إلى العالم الواسع، دون أن أنتظر شفاءه. لاحقًا، بلغني موته، ومن ثم وفاة أمي بعده... انتظر يا دانديليون! أتكتب عن هذا؟ لا تجرؤ على ذلك! بل لا تفكر حتى في كتابته، أسمعت؟"

* * *

كان انضمام ميلفا إلينا غريبًا، ومصاحبة المصاص الدمَوي مبهرة. لكن الأغرب من كل شيء كانت دوافع كاهير، الذي تحوَّل فجأة من عدو إلى شبه حليف. أثبت الشاب ذلك في معركة الجسر، حين اختار دون تردد الوقوف مع الويتشر ضد أبناء جلدته. بهذا الفعل، ربح أخيرًا ثقتنا وزالت شكوكنا. عندما أقول "ثقتنا"، أعني نفسي والمصاص والرامية.

أما جيرالت، فمع أنه حارب إلى جانب كاهير، ووقفا سوية في وجه الموت، إلا أنه ظل ينظر إلى النيلفجاردي بعيون مرتابة. حاول إخفاء امتعاضه، ولكن حين يكون المرء –كما سبق أن ذكرتُ– مباشرًا كعمود البلطة، فلن ينجوَ من انتشار عدائه، كما تنزلق السمكة من دَلو مثقوب.

السبب كان واضحًا: سيري.

قدَّر القدر أن أكون في جزيرة ثانيد خلال مُحاق يوليو، حين اشتعلت الحرب الدامية بين السحرة. من جانب، وقف سحرة موالون للملوك، ومن الآخر خونة أثارتهم نيلفجارد. دعم الخونة "السناجب" – إلف ثائرون – وكاهير ابن كيلاخ. أُرسل كاهير إلى ثانيد بمهمة خاصة: اختطاف سيري. عندما دافعت عن نفسها، جرحته – منظر النَّدبة على يده يُجفف حلقي كلما رأيتها. لا بد أن الألم كان جحيمًا، فأصبعان من أصابعه ما زالا عاجزين عن الانثناء.

"بأي ذنب،" سألته، "كانوا سينفذون به حكم الإعدام؟ ألـ مجرد فشله في ثانيد؟"

كان كاهير لا يحب الثرثرة، لكن لي أذنًا تلتقط التلميحات. الفتى لم يتجاوز الثلاثين بعد، لكنه كان فيما يبدو ضابطًا رفيع المستوى في الجيش النيلفجاردي - بما أنه يتقن اللغة المشتركة بطلاقة وهو نادر بين النيلفجارديين - أظنني أعرف أي فرع عسكري كان ينتمي إليه، لمَ تمت ترقيته بسرعة؟ ولماذا أُوكلت إليه مهمة غريبة كهذه؟ مهمة خارجية، على أي حال.

لأن كاهير قد حاول بالفعل اختطاف سيري. قبل أربع سنوات تقريبًا، خلال مذبحة سينترا. حينها شعر لأول مرة بـ"القَدَر" الذي يحكم مصير هذه الفتاة.

محض صدفة أنني تحدثت مع جيرالت عن هذا. كان ذلك في اليوم الثالث بعد عبورنا نهر ياروغا، وعشرة أيام قبل الاعتدال الخريفي، بينما كنا نتقدم عبر غابات ريفردل. رغم قصره، كان الحوار مليئًا بأصوات مزعجة ومقلقة. بينما كانت عينا الويتشر وملامحه تنبئان بوحشية الانفجار الذي حدث لاحقًا في ليلة الاعتدال، بعد انضمام أنجوليم الشقراء إلينا.

* * *

لم ينظر الويتشر إلى دانديليون. ولم يكن يحدق أمامه. بل كان يراقب لَبدَة شعر فرسه "روتش."

"كالانثي — "عاد إلى سرد الموضوع" — أجبرت فرسانًا على القسم - قبل أن تقفز إلى موتها - ألا يسمحوا لسيري بالسقوط في أيدي النيلفجارديين، لكن خلال الهرب قُتل الفرسان جميعهم وتركوها وحيدة بين الجثث والنيران في شوارع المدينة المحترقة. ولم تكن تستطيع أن تنجو بحياتها، لا شك في ذلك. لكنه وجدها. هو، كاهير. أمسكها من عنقها وحملها بعيدًا عن النار. وأنقذها. ياله من عمل بطولي! ونبيل"!

أمسك "دانديليون" بلجام "بيغاسوس" ليُبطئ من سرعته. كانا يمتطيان صهوات الجوادين في المؤخرة – بينما كان "ريجيس" و"ميلفا" و"كاهير" يتقدمون بخمسين خطوة – لكن الشاعر أراد ألا تصل حتى كلمة واحدة من هذا الحوار إلى أسماع الرِّفقة.

"المشكلة،" تابع الويتشر، "أن نُبل 'كاهير' كان مُجبرًا عليه. كان نبيلًا كطائر الغاق الذي لم يبتلع السمكة التي اصطادها لأن طوقًا قد حُشر حول عنقه ومنعه من البلع. فأمسك السمكة بمنقاره، ولم يستطع إلتهامها، ولأنه كان على طائر الغاق إعادة السمكة لسيده حيث تخدر وتشوى. ولكنه فشل في ذلك، فغضب سيده منه! والآن هو يشعر بعار الفشل! ربما لهذا يسعى الآن لصحبة الأسماك وصداقتها؟ ما رأيك، دانديليون؟"

انحنى المنشد في سرجه متجنبًا غصنَ زيزفونٍ متدلٍ. كانت أوراق الغصن صفراء بالكامل.

"مع ذلك أنقذ حياتها، كما ذكرتَ بنفسك. بفضله، وخرجت 'سيري' من 'سينترا' دون أذى."

"وبكت ليلًا لأنها رأته في حلمها."

"لكنه أنقذها. كُفَّ عن الحقد يا جيرالت. الكثير تغير، بل والأكثر يتغير يوميًا. حقدك هذا لا يفيدك. أنقذ 'سيري'، وهذه حقيقة لا تُنكر."

رفع "جيرالت" رأسه أخيرًا، مطلقًا نظره من لبدَة فرسه. ألقى "دانديليون" نظرة خاطفة على وجهه ثم حوّل بصره بعيدًا.

"الحقيقة تبقى،" كرر الويتشر بصوتٍ شريرٍ معدني، "أجل! صرخ هذه الحقيقة في وجهي بثانيد، لكنه ارتعب عندما رأى نصل سيفي فالتصقت الكلمات في حلقه. كان ينبغي ألا تمنعني هذه الحقيقة أو صرختها من قتله. لكن قد حدث ما حدث ولا يمكن تغييره الآن. كان قراراً سيئاً جدًا. لأنني حتى في ثانيد، فكرت أن أبدأ معه سلسلة. سلسلة موت طويلة، سلسلة انتقام، سيَتَنَاقَلُها الناس بعد مائة عام، ويَخْشَوْن ذكرها بعد الغسق. هل تفهم هذا، دانديليون؟"

"لا أفهم ذلك جيدًا."

"إذن اذهب إلى الجحيم."

كان ذلك الحوار مُقززًا، ووجه الويتشر أثناءه بغيضاً للأسف، لم أكن أحبذ دخوله في مثل هذه النزعات، وأن يتحدث عن أمورٍ كهذه.

لكن يجب أن أعترف، بعد تشبيهه المصوّر بطائر الغاق – بدأ القلق يتسلل إليّ. السمكة في منقاره، مُحمَّلة إلى نيلفجارد، حيث تُخدَّر وتُشوى! تشبيهٌ ساحر حقًا، نظرةٌ تفاؤلية مبهجة... لكن المنطق يُناقض هذه المخاوف. في النهاية – إن التزمنا باستعارة الأسماك: من نحن؟ سمكات صغيرة زيتية.

كاهير لا يمكنه أن يرجو رضا الإمبراطور مقابل صيدٍ تافه. هو، بالمناسبة، ليس البايكي (السمك الكبير) الذي يحاول الظهور به. هو سمكة صغيرة مثلنا تمامًا. هل يلاحظ أحدٌ السمكات الصغيرة في زمن الحرب، حين يُشكِّل الحديد العالم ومصائر البشر؟

أراهن رأسي أن لا أحد في نيلفجارد يذكر كاهير الآن.

* * *

استمع "فاتير دي ريدو"، رئيس الاستخبارات العسكرية النيلفجاردية، إلى تأنيب الإمبراطور ورأسه منخفض.

تابع "إمير فار إمريس" بلسانٍ حاد: "إذن هذا كل شيء. القسم الذي يستهلك ثلاثة أضعاف ميزانية التعليم العام والفنون والثقافة مجتمعة، يعجز عن تتبع رجلٍ واحد. لأنه ببساطة تبخّر وبقي مختفيًا، رغم أنني أُنفق أموالًا طائلةً على هذا القسم كي لا يختبئ منه أحد! خائنٌ يجعل من قسمكم أضحوكة، وأنا من منحكم الموارد والامتيازات الكافية لسلب الأبرياء وهم نيام. صدقني يا فاتير، في المرة القادمة التي يناقش فيها المجلس خفض ميزانية الاستخبارات، سأكون مستمعًا متعاطفًا. يمكنك الوثوق بذلك!"

إنحنى"فاتير دي ريدو": "جلالتكم الإمبراطورية – بلا شك – ستتخذ القرار الصائب بعد وزن الإيجابيات والسلبيات. الإخفاقات... والنجاحات التي أُبلغ عنها. يمكن لجلالتكم التأكد أن الخائن كاهير أب كيلاخ لن يفلت من عقابه. بذلتُ جهدًا..."

قاطعه الإمبراطور: "لا أدفع لك مقابل الجهود، بل النتائج. وهي متواضعة يا فاتير، متواضعة! ماذا عن فيلغيفورتز؟ أين هي سيريلا بحق الجحيم؟ ماذا تتمتم؟ ارفع صوتك!"

"أعتقد أن على جلالتكم الزواج بالفتاة التي نُخفيها في دارن روان. نحتاج هذا الزواج لتثبيت شرعية سيادة سينترا، تهدئة جزر سكيليج، وقمع المتمردين في أتري وستريبت وشمال ماج تورغا. نحتاج عفوًا عامًا، سلامًا في الأقاليم الداخلية لضمان خطوط الإمداد... وحياد ملك كوفير، إيستراد ثيسن."

"أعلم. لكن الفتاة في دارن روان ليست الفتاة المناسبة. لا يمكنني الزواج بها."

"عذرًا جلالتكم، هل يهم إن كانت الفتاة مناسبةً تمامًا أم لا؟ الوضع السياسي يستلزم مراسمًا رسمية. قريبًا. سترتدي السيدة الفتاة حجابًا. وعندما نعثر أخيرًا على سيريلا الحقيقية، نستبدل الزوجة ببساطة."

قال الإمبراطور بغضب: "أجننتَ يا فاتير؟"

أجاب فاتير بسرعة: "عرضنا المُحتالة لفترة وجيزة. لم ترَ سينترا سيريلا الحقيقية منذ أربع سنوات، وعلى أي حال يبدو أنها قضت وقتًا في جزر سكيلج أكثر من سينترا. أضمن أن أحدًا لن يكتشف الخدعة."

"لا!"

"جلالتكم..."

"لا يا فاتير! أريد سيري الحقيقية! الآن حرّك مؤخرتك. واعثر لي عليها، وعلى كاهير، وعلى فيلغيفورتز. فأينما كان فيلغيفورتز، ستكون سيري قريبة."

"جلالة الإمبراطور..."

"أنا أسمعك يا فاتير! كنت أسمع طوال الوقت!"

"في الماضي، شككتُ أن قضية فيلغيفورتز كانت استفزازًا. ربما قُتل الساحر أو أُسر، وأن مطاردة ديكسترا الصاخبة له مجرد حيلة لتشويه سمعتنا وتبرير انتقام دموي."

"راودني هذا الشك أيضًا."

"مع ذلك... ليست معلومة عامة في ريدانيا، لكن عملائي أكدوا أن ديكسترا اكتشف أحد مخابئ فيلغيفورتز، حيث وجد أدلة على تجارب وحشية على الأجنة البشرية... والحوامل. إذا كان فيلغيفورتز يمتلك سيري، فالخوف أن بحثنا عنها قد..."

"اخرس بحق الجحيم!"

انحرف فاتير بحديثه مُذعِنًا لنظرة الإمبراطور الغاضبة: "من ناحية أخرى، قد يكون كل هذا تضليلًا. تشويهًا لسمعة الساحر. وهذا ما يتناسب مع ديكسترا."

"عليك إزالته وإيجاد فيلغيفورتز وسيري! ليأخذك الشيطان! توقف عن التخمينات! أين البومة؟ ما زال في جيسو؟ عليه أن يقلب كل حجر وينظر في كل حفرة؟ الفتاة ليست هناك ولم تكن أبدًا؟ المنجم إما أخطأ أو كذب؟ هذه كلها اقتباسات من تقاريره. فما الذي يفعله هناك بعد؟"

"السيد سكيلين... لديه أهداف غير واضحة، قسمه الذي أمرته جلالتكم بتشكيله، أقام قاعدته في حصن روشين بمقاطعة ماخت. هذا القسم – دعوني أضيف – مكون من مجموعة مشبوهة، الأغرب أنه استأجر قاتلًا محترفًا أواخر أغسطس..."

قال الإمبراطور منفعلًا: "ماذا؟!"

أجاب فاتير: "لقد استأجرَ صائدَ جَوَائزَ وكلّفه بتصفية عصابةٍ طاغيةٍ في جيسو. عملٌ مُشجّعٌ في ذاته، لكن أهذه مهمة المشرّح الإمبراطوري؟"

ردّ الإمبراطور متهمًا: "أَمتأكدُ أنت؟ أم أن حسدك له هو من دفعك لقول ذلك وأن تقريرَكَ مُتحيّزٌ بدافع الغيرة؟"

أجاب فاتير ببرود: "لقد سجّلتُ الحقائقَ فحسب، جلالتكم."

قاطعَه الإمبراطور بغضبٍ مفاجئ: "أريدُ أن أرى الحقائقَ!" — صَمتَ قليلًا ثم أضاف — "لقد سَئمتُ من سماعِها فحسب."

* * *

كان يومًا عصيبًا حقًا. "فاتير دي ريدو" كان مُنهكًا. جدول أعماله اليومي يقتضي ساعة أو اثنتين من الأعمال الورقية لتفادي الغرق في الوثائق العالقة غدًا، لكن مجرد التفكير في ذلك أفقده الراحة. لا، لن يقترب من الأوراق الليلة. قرر الذهاب إلى "كانتاريلا" - الحانة الحلوة حيث يستطيع الاسترخاء...

لم ينتظر طويلًا. نهض، أمسك معطفه وخرج. حين حاولت سكرتيرته تسليمه حقيبة جلدية مليئة بوثائق عاجلة تنتظر توقيعه، أوقفها بإيماءة اشمئزاز. "غدًا! الغد يوم جديد!"

غادر القصر من المدخل الخلفي المطل على الحدائق، مشيًا بين صفوف السرو القصيرة. مر بِبِركة اصطناعية تعيش فيها سمكة كارب عجوز تبلغ 132 عامًا. الإمبراطور "توريس" كان مولعًا بها، فمنحها ميدالية ذهبية تذكارية مثبتة على غطاء خياشيمها.

"مساء الخير، أيها الفيكونت."

انسحب "فاتير" بذراعه بسرعة، فك النصل الخفي في كمّه وانزلق المقبض إلى يده.

"أنت تُخاطر كثيرًا يا 'رينس'" - قال ببرودة - "تُخاطر بظهور وجهك المحروق في نيلفجارد. آه، لا بد أن هذا إسقاط سحري..."

"لاحظت؟ فيلغيفورتز أكد أن لا أحد سيكشف الوهم دون اتصال جسدي."

أعاد "فاتير" النصل إلى مكانه. كان قد خمن الأمر، والآن تأكد.

"رينس" - هز رأسه - "أنت جبانٌ لدرجة الحضور شخصيًا. تعرف ما ينتظرك."

"هل ما زال الإمبراطور متحاملًا عليَّ؟ وعلى سيدي فيلغيفورتز؟"

"إن وقاحتك مُنزعِجة."

قال "رينس": "بحق الجحيم، فاتير! أؤكد أننا ما زلنا في صفك، أنا وفيلغيفورتز. حسنًا، أعترف أننا خدعناك بمنحك سيري المزيفة، لكن ذلك كان بحسن نية، أهلكني الله إن كذبت. بعد اختفاء الحقيقية، رأى فيلغيفورتز أن المزيفة أفضل من لا شيء. ظننا أنك لن تكترث..."

ردّ فاتير ببرود: "وقاحتك ليست مُنزعجة فحسب، بل مهينة. لا أنوي إضاعة وقتي مع وهمٍ بغيض. عندما أمسك بك في هيئتك الحقيقية، سنرى حينها أيَّ تسلية ستقدمها لي، وسأحرص على أن تستغرق وقتًا طويلًا. أعدك. لكن حتى ذلك الحين... أغرب عن وجهي يا رينس."

ضحك الوهم: "لم أعد أعرفك يا فاتير. فاتير الذي عرفته، حتى لو ظهر الشيطان أمامه، لن يتردد في استغلاله إن وجد فائدة، قَبل أن يُجري طرد الأرواح."

لم يُجب فاتير، بل تابع التحديق في سمكة الكارب التي تُحرك الطين بِكسل.

"فائدة؟"- كرر الكلمة بشفتين مزمومتين بالازدراء - "أنت؟ ماذا تُمكنك أن تقدم؟ ربما سيري الحقيقية؟ أو رئيسك فيلغيفورتز؟ أو كاهير أب كيلاخ؟"

رفع الوهم يده: "توقف! لقد أصبت."

" أصبت بماذا؟"

"كاهير. سنقدم لك رأس كاهير. أنا وسيدي فيلغيفورتز..."

قهقه فاتير: "رحمتك يا رينس! غيّر تسلسل الأسماء لكن..."

"كما تشاء. فيلغيفورتز - بمساعدتي المتواضعة - سيحضر لك رأس كاهير ابن كيلاخ. نعرف مكانه، ونستطيع إخراجه من كمّنا متى أردت."

"الديكم الفرصة ربما. أخبرني، ألديكم جواسيس بهذه الجودة في جيش الملكة ميف؟"

عبس رينس: "أتختبرني؟ أم أنك تجهل حقًا؟ الأرجح الثاني، عزيزي الفيكونت... نعرف أين كاهير، وإلى أين يتجه، ومع مَن يرتحل. أتريد رأسه؟ سنجلبه لك."

قال فاتير مُبتسمًا": الرأس... الذي لن يعود قادرًا على كشف ما حدث حقًّا في ثانيد".

ردّ رينس بسخرية لاذعة": وهذا غالبًا سيكون أفضل، لمَ نمنح كاهير فرصة إلقاء الخطب؟ وظيفتنا هي تهدئة العداء بين فيلغيفورتز والإمبراطور، لا تعميقه. سأُحضر رأس كاهير أب كيليخ .سنُنسّق الأمر بحيث يذهب الفضل لك وحدك. التسليم خلال ثلاثة أسابيع".

رفرف الشبوط العجوز في البركة بزعانفه الصدرية في الماء، فكّر فاتير، لا بدّ أنه مُشبَع بالحكمة. لكن حكمة حول ماذا؟ نفس الوحل المُعتاد وزنابق الماء ذاتها.

"ما هو الثمن يا رينس؟"

"أمر تافه. أين ستيفان سكيلين؟ وما خططه؟"

* * *

"أخبرته بما أراد أن يعرفه." فاتير دي ريدو تمدد على الوسادة وهو يلعب بخصلة شعر ذهبية لكارثيا فان كانتن.

"أرأيتِ، يا حلوتي، بعض الأمور يجب معالجتها بحكمة. و'الحكمة' تعني الامتثال. إن اختلفتَ، لن تنال شيئًا. سوى وحلٍ نتن وماءٍ راكد في حوض. وماذا يتوقعون عندما يكون الحوض من رخامٍ وعلى بعد خطوات من القصر؟ ألستُ مُحقًا، يا حلوتي؟"

كارثيا فان كانتن، المُلقبة بكانتاريلا، لم تُجب. فاتير لم يتوقع منها ذلك. الفتاة كانت في الثامنة عشرة، وبشكل عام، لم تكن ألمع العقول. اهتماماتها اقتصرت على – حتى الآن – ممارسة الحب، مع – حتى الآن – فاتير. حين يتعلق الأمر بالجنس، كانت كانتاريلا موهوبة فطريًا، حيث تفوقت تقنيتها ومهارتها فقط على تفانيها وحماسها. لكن لم يكن هذا أهم ما فيها.

كانتاريلا تتحدث قليلًا ونادرًا، لكنها كانت مستمعة ممتازة ومُتقبلة. يمكنه أن يُفضي لها بمكنونات صدره، ويسترخي، ويسترخي، ويسترخي، ويعيد بناء نفسه عقليًا وروحيًا.

"في مثل هذه المهنة، يتوقعون تأنيبًا،" قال فاتير بمرارة، "لأنني لم أعثر على سيريلا. ومع ذلك، بفضل عمل رجالي، الجيش يحقق نجاحات، وهذا لا شيء؟ وأن هيئة الأركان العامة تعرف كل حركة للعدو، وهذا لا شيء؟ وأن هناك حصونًا فتحها وكلائي للقوات الإمبراطورية، بدلًا من حصارها لأسابيع؟ لكن لا، لا مديح لهذا. سيريلا فقط هي المهمة!"

أخذ فاتير دي ريدو كأسًا مملوءًا بنبيذ إيست إيست توسان الفاخر من يدي كانتاريلا بَغَتة في غضب. كان نبيذًا يعيد إلى الذاكرة أيامًا كان الإمبراطور إمير فار إمريس طفلًا صغيرًا، مُجردًا من حقه في العرش ومهانًا بوحشية – بينما كان فاتير دي ريدو ضابط المخابرات الشاب، عديم الأهمية في تسلسل الهيئة.

"لقد كانت سنةً جيدة... بالنسبة للنبيذ."

شرب فاتير قليلًا، ولعب بثديي كانتاريلا المتناسقين، وتحدث.

كانتاريلا أصغَت بانتباهٍ أشبه بالعبادة.

"ستيفان سكيلين، يا حلوتي،" همس رئيس مخابرات الإمبراطورية،

"مُحتال ومُتآمر. لكنني عرفت خطته حتى قبل رينس ذاك... لدي بالفعل شخصٌ هناك... قريب جدًا من سكيلين... قريبٌ جدًا..."

فكت كانتاريلا الوشاح الذي يربط ثوبها وانحنت.

شعر فاتير بأنفاسها وتنهد مُتوقعًا اللذة. موهوبة فطرية، فكّر. ثم محت شفتان ناعمتان، ساخنتان، مخملية الملمس كل الأفكار من رأسه.

كارثيا فان كانتن منحت موهبتها لـ فاتير دي ريدو، رئيس مخابرات الإمبراطورية، ببطءٍ ومهارة. لم تكن هذه الموهبة الوحيدة لكارثيا.

لكن فاتير دي ريدو لم يكن يخطر بباله ذلك.

لم يكن يعلم أن كارثيا فان كانتن، رغم المظاهر، تمتلك

ذاكرةً حادة وذكاءً سريعًا كالزئبق.

كل ما قاله لها فاتير، كل جزء من معلومات، كل كلمة نطق بها أثناء لقائهما – كررته كارثيا في صباح اليوم التالي للساحرة أسير فار أناهيد.

* * *

"لكن سنعود لهذا لاحقًا، دعنا أولًا نعود بالزمن إلى اليوم والمكان الذي عبرنا فيه نهر ياروغا. اندفعنا شرقًا بعجلةٍ ما، نحو الغابة السوداء (المُشار إليها بلغة القدماء باسم كايد دهو). كنا نبحث عن حكماء الدرويد، أولئك الذين قد يتمكنون من توقُّع مكان سيريلا، وربما تفسير الأحلام الغريبة التي تلاحق جيرالت. اخترقنا غابات ريفر ديل (التي تُعرف أيضًا بالضفة اليسرى)، تلك المنطقة الموحشة شبه الخالية من السكان، الواقعة بين نهر ياروغا وسفوح جبال أميل، داخل منطقةٍ تُدعى كيس الشمال. تحدها شرقًا وادي دول أنجرا، وغربًا منطقة بحيراتٍ مستنقعية (التي – للأسف – قد نسيتُ اسمها)."

"لم يُطالب أي طرفٍ بهذه الأرض بشكلٍ جازم. وبالتالي، لم يُجِد أحدٌ جوابًا حين سُئل: مَن يملكها؟ أو مَن يحكمها فعليًّا؟ حكام تيمريا، ثم سودن، ثم سينترا، ثم ريفيا – تباعًا – ادعوا أحقيتهم في أجزاءٍ منها، مُؤكِّدين ذلك أحيانًا (دون تردد) عبر النار والحديد. لكن عندما زحفت جيوش نيلفغارد من خلف جبال أميل، لم يَعُد لأحدٍ رأي. كما زالت كل الشكوك حول القانون الإقطاعي للملكيات – فكل ما يقع جنوب ياروغا صار مِلكًا للإمبراطورية. وفي لحظة كتابتي هذه (أؤكد أنني لا أملك معلومات دقيقة)، فإن أراضٍ شمال ياروغا أيضًا تقع تحت السيطرة الإمبراطورية، دون أن أستطيع تحديد مداها الجغرافي."

"عودًا إلى ريفر ديل (عزيزي القارئ، اسمح لي بهذا الاستطراد التاريخي):

تاريخ نشأة أي إقليمٍ غالبًا ما يكون ضربة حظ (أو سوء حظ)، ناتجًا عن تصادم قوى خارجية. فالتاريخ (في أكثر لحظاته إثارة) يُصنعه الغرباء، بينما السكان المحليون (دون استثناء) يدفعون الثمن."

"أهل ريفر ديل (الذين أطلقوا على أرضهم اسم بلد النهر) تشرَّدوا بسبب الحروب الطويلة، تاركين وراءهم قرىً مُحترقة وحقولًا بوارًا (التهمتها الأعشاب البرية). اختفت القوافل (التي تجنبت الطرق المُتداعية)، ولم يبقَ سوى عصابات من البلطجية (الذين اختلفوا عن الدببة وحيوانات الوولفيرين فقط في ارتداء البعض منهم سراويل! – نعم، بعضهم فحسب). كانوا (بغالبيتهم الساحقة) أنانيين، فظين، وبُلهاء."

"وكانوا (وهذا الأهم) يفتقرون إلى أي ذرةٍ من حس الدعابة."

* * *

قذفت ابنة مربي النحل سوداء الشعر ضفيرتها المزعجة خلف ظهرها - والتي ظلت تتساقط على عينيها أثناء العمل - واستأنفت دوران الرحى الحجرية بيدين تعملان بشراسةٍ تُذكّر بطحن الذئاب للعظام. بينما تبخرت جهود دانديليون الشعرية كالدخان - فكلماته المُنمقة لم تُحدث حتى ذبذبة في تعبيرات الفتاة المُتجهمة التي ركزت على حفنة الذرة بين أصابعها المُتصلبة. غمز الشاعر لرفاقه مُمَثلًا تنهدًا دراميًا (مع رفع حاجبيه باتجاه السقف المُتشقق)، لكنه في الحقيقة لم يَزفر حتى.

"هاتيها لي،" أصرّ وهو يُظهر أنيابه في ابتسامةٍ مفتعلة، "دعيني أطحن بدلًا منكِ، بينما تهرولين إلى القبو (ذلك المكان المُظلم تحت السلالم) لاستخراج برميل جعةٍ مُخبأ خلف الأواني الفخارية. لا بد أن والدكِ الطيب خبأ واحدًا هناك، أليس كذلك يا زهرة الغابة؟"

قالت زوجة مربي النحل بصوتٍ حادٍ يُناقض جمالها الآسر: "اترك ابنتي وشأنها أيها السيد"، والتي كانت تقشر جزرًا على منضدة المطبخ الخشبية بسرعةٍ مذهلة. وأكملت: "أخبرتكَ مرارًا: لا جعة هنا، بل عشر مرات!"

تدخل مربي النحل فجأة (مُقاطعًا نقاشًا خفيًّا كان يجري بين الويتشر ومصّاص الدماء حول رائحة دماء البشر)، مما جعل زوجته تقفز جانبًا وتُسقط سكين التقشير.

"سنقدم لكم فطائر بالعسل السائل (من خلايا النحل التي ترونها هناك)، لكن دَعوا الفتاة تُنهي طحن الذرة! فبدون دقيق (إلا إذا كان أحدكم يحمل عصا سحرية في جيبه)، لن يكون لدينا عجين!"

هتف الويتشر وهو يلمع عينيه الزمرديتين بسخرية: "هل سمعتَ يا دانديليون؟ شغّل فمك في كتابة قصيدةٍ عن جوعك بدلًا من إزعاج الفتاة. أو ربما مذكّراتٍ عن مغامراتك الفاشلة مع النساء!"

ناح الشاعر مُمسكًا بحزمة أعشابٍ جافة من حقيبته: "أنا عطشان كالرمال! الماء الساخن يا جدة العزيزة (التي تُشبهين تمثالًا من حكايات الجدات)، هل يُوجد قطرة منه في هذا الكوخ؟ أكرر: أين الماء الساخن؟"

رفعت العجوز رأسها المغطى بوشاحٍ أسود والتي كانت تجلس على مقعدٍ منحوت من جذع شجرة، وتُعيد حشو جوربٍ صوفي ممزق قائلة: "يُوجد يا ولدي،" همست بصوتٍ أجش، "لكنه برد كقلب الإمبراطور القديم."

بينما جثم دانديليون على كرسيٍ مهتز بجانب المدفأة (التي لم تشتعل منذ أيام)، حيث كان رفاقه يتناقشون مع مربي النحل (الذي اصطدموا به عند الفجر بين أشجار البلوط العملاقة، بينما كان يقطع الطريق عليهم فجأة كشبحٍ أسود). الرجل (ذي الأكتاف العريضة المُغطاة بمعطف من جلد الدب) كان شعره الأسود الكثيف (المُشابك كعشّ الغربان) يتدلى على عينيه، مما جعلهم يظنونه وحشًا متوحشًا. المُفارقة الساخرة كانت أن ريجيس (مصّاص الدماء الذي عاصر القرون) هو من صرخ أولًا: "ذئب! ذئب!" (بصوتٍ حادٍ لم يسمعوه منه من قبل). بعد لحظات من الفوضى (والتي تضمنت سقوط حقيبة جيرالت وانكسار قنينة فضية)، اتضح أنهم أمام مُزارعٍ بسيط دعاهم لتناول الفطائر.

المنزل (الذي أصر مضيفهم على تسميته "القصر" رغم جدرانه الطينية المتصدعة) كان يقبع في وسط مُنقَطَعٍ دائري من الغابة (كأنما اقتُلع من الأرض بمغرفة عملاقة). زوجة المربي (التي تحركت بأناقة غزال بين الأواني النحاسية) وابنته (التي لم تفارق الرحى رغم إغراءات دانديليون) - كلتاهما كانتا تحملان ملامحً ساحرة (أنف دقيق كسهم، عيون لوزية بلون الغابة عند الغسق)، ما أكّد شائعات أن جذورهما تعود لسلالة حوريات الغابة (اللاتي زعمن ذات يوم باختفاء إحداهن مع حطّابٍ وسيم). حتى العجوز (بيديها المُتشققتين من العمل) كانت تحمل بقايا جمالٍ أسطوري تحت تجاعيد الزمن.

* * *

"في النقاشات التي تلت، بدا مربي النحل للوهلة الأولى وكأنه لن يتحدث إلا عن: النحل، الخلايا الخشبية، خلايا قمم الأشجار، نحت الخلايا بالمثقاب اليدوي، تبخير الخلايا باستخدام أوراق اللبلاب السامة، أقراص العسل ذات الفتحات السداسية الكاملة، الشمع الذي يُجمع في أواني فخارية، والعسل الذهبي اللزج. لكن المظاهر خدعت."

""الوضع؟ كيف يجب أن يكون؟ كما هو دائمًا! عليك تقديم ضرائب أعلى كل عام. جالونان من العسل (من خلايا السنديان العتيقة) وقرص شمع كامل (بدون شوائب). أُجهد نفسي لأجمع الكمية المطلوبة، وأقضي النهار كله جالسًا على اللوح الخشبي (المُثبت على غصن شجرة)، أنظف الخلايا من يرقات العث... لمن أدفع الضرائب؟ حسنًا، لمن يطلبها! كيف لي أن أعرف من يحكم الآن؟ في الفترة الأخيرة، أصبحنا ندفع لنيلفغارد. لأننا الآن 'مقاطعة إمبراطورية' (هكذا يسمونها). وإن بعتُ أي عسلٍ مقابل عملات فضية، يأخذ الإمبراطور نصيبه (ثلث القيمة دون نقاش). الإمبراطور (الذي صورته على العملات أجمل من الحكام السابقين) يبدو أبهى، لكن القبضة الحديدية نفسها. لذا...""

"جثما كلبان (واحد أسود قاتم ببقع رمادية على الصدر، وآخر بني محمر كأوراق الخريف) أمام مصّاص الدماء ريجيس، رفعا خطومهما نحو السقف المُدخّن وعوّا بصوتٍ مزمجر. فالتفتت زوجة مربي النحل

حورية الأشجار هاماردرياد ذات العينين الزمرديتين عن الموقد الحجري حيث كانت تقلب فطائر العسل على صفيحة معدنية، وحاولت ضرب الكلب البني بالمكنسة القشية لكنها أخطأت، فسقطت المكنسة على جرة عسل فارغة"

"'نذير شؤم!' قال مربي النحل وهو يمسح عسلًا مسكوبًا من جرته المكسورة بكم معطفه الجلدي. 'عواء الكلاب في عز الظهيرة حين تكون الشمس في ذروتها ينذر بكارثة. إذن... بعد أن أفرغ كأس نبيذ من جيبه ما الموضوع الذي تريدون مناقشته؟'"

"'عن درويديي كايد دهو.'"

"'ها! سمعت منه ضحكة مكتومة تشبه قرقعة نحلة محتضرة، أتسخرون مني أيها السادة؟ تريدون حقًا الذهاب للدرويديين؟ (ناظراً إليهم بتحدٍ) أتشتهون الموت المُبطّن؟ إنه الجحيم بعينه! قُطّاع الهدال الذين يحملون مناجلَ من حجر السج الأسود ويخطفون كل من يدخل مروجهم السرية، ليربطونه بألياف جذور الصفصاف الرطبة إلى جذع شجرةٍ مُجوف، ويشوونه على جمرٍ من خشب البلوط ببطءٍ حتى يتحول لحمه إلى فحمٍ أسود.'"

"تبادل جيرالت نظرة سريعة مع ريجيس (الذي كان يلف سيجارة من أوراق نبات مجهول). غمز الأخير بعينه اليسرى بحركةٍ بالكاد تُلاحظ. كلاهما يعلم من سنوات خبرتهما في مسالك السحر أن هذه القصص مجرد أساطير يُروجها القرويون. لكن ميلفا التي كانت تلمع سكينها بقطعة قماش وانديليون الذي كان يرسم خريطةً على ظهر جلد غزال أصغيا الآن بانتباهٍ مُبالغ مع تعرقٍ خفيف على جبين الشاعر."

"'البعض يقول وهم يهمسون في الحانات ليلًا، تابع مربي النحل وهو يلعب بقلادة فضية على صدره تحمل رمز خلية النحل، أن قُطّاع الهدال ينتقمون من النيلفجارديين الذين بدأوا الاعتداءات عندما اجتاحوا دول أنجرا العام الماضي، ودنّسوا بساتين البلوط المقدسة حيث تُقام طقوس الاعتدال الربيعي. آخرون ممن يشربون الخمر حتى الثمالة يدّعون أن الدرويديين اختطفوا جنودًا إمبراطوريين من الفرقة الثالثة عشرة وعذبوهم بصب الذهب المصهور في حلوقهم انتقامًا لتدنيس مذبح الإلهة ميليتيلي. الحقيقة؟ (وضرب بكفه على الطاولة) لا أحد يعرف! لكن اليقين الوحيد الذي تناقلته الألسن من جبل إلى وادٍ هو أنهم سيشنقونكم على أشجار السنديان بأمعائكم المفتوحة إن اقتربتم. الذهاب إليهم هو انتحار حرفيًا!'"

قال جيرالت بصوته الهادئ الذي يحمل رنينًا كصوت السيف يُخرج من غمده: "نحن بكل تواضع، لا نخشى أشباح القصص مهما كانت بشاعتها."

"'بالتأكيد.' نظر مُربي النحل إلى الويتشر جيرالت، وميلفا، وكاهير الذي دخل الكوخ للتو بعد إنهاء إطعام الخيول خارجًا، وقال:

"يُمكن رؤية أنكم لستم من النوع الجبان، بل محاربين مُدرَّعين بالشجاعة. ها! أمثالكم يُمكنهم السير بلا خوف... حسنًا... إلا أن جهودكم ورحلتكم ستذهب أدراج الرياح – فقُطّاع الهدال (mistletoe cutters) قد غادروا أشجار كايد دهو السوداء. نيلفغارد قهرتهم، طردتهم من أعماق الغابة. لم يعد لهم وجود هناك الآن..."

"هكذا فحسب؟"

"هكذا فحسب. رحلوا كالظل عند الفجر."

"إلى أين؟"

ألقى مُربي النحل نظرةً سريعة إلى زوجته الهاماردرياد التي كانت تقف عند المدفأة تُنظف صفيحة الفطائر بقطعة قماشٍ زيتية، ثم صمت لبرهةٍ طويلةٍ تُثقَل بها الأجواء.

"إلى أين؟ كرر جيرالت بصوته المُعتاد الجهوري."

جلست القطة المخططة ذات الفراء الرمادي والأسود أمام مصّاص الدماء ريجيس، وبدأت تموء بعنفٍ أشبه بصراخ طفلٍ جريح. الهاماردرياد رفعت مقشتها المصنوعة من أغصان البتولا وصفعت القطة التي قفزت خائفةً لتختبئ تحت الخزانة الخشبية.

"نذير شؤم عندما تموء القطط في منتصف النهار،' قال مُربي النحل بلهثةٍ مرتبكة وهو يُمسح عرقه بكم سترته المُهترئة، والدرويديون... لقد... فرّوا إلى كيس الشمال (North Case). نعم. هذا صحيح. إلى حيث الصخور البيضاء والضباب الدائم."

"ما يُعادل ستين ميلًا جنوبًا،' قدّر دانديليون بلا مبالاة، بل وبشكلٍ أشبه بالمرح مُلوحًا بيديه كأنه يُحدد الاتجاهات على خريطة خيالية. لكنه التقط نظرة جيرالت تلك النظرة التي تُجمد الدماء في العروق، فسكت فورًا كأن لسانه اقتُلع."

في الصمت الثقيل الذي تبع ذلك، لم يُسمع سوى مواء القطة الخافت من تحت الخزانة بينما كانت الهاماردرياد تُطارِدها خارج الباب الخشبي المُتشقق بعصا طويلة.

"حسنًا،' قال مصّاص الدماء وهو يُشعل سيجارته المُلفوفة يدويًا برقة، " في النهاية فلا فرق يهمّنا في ذلك"

"الصباح التالي أتى بمفاجآتٍ أكثر. وألغاز، مع ذلك، وُجِدت حلولها بسرعةٍ مذهلة.

'الحقيقة تُذهلني...' قالت ميلفا، التي كانت أولَ من زحف خارج كومة القش بعد إيقاظها بأصوات الحشد. 'الحقيقة تُذهلني أنني دائمًا على حق. انظر إلى هذا، جيرالت.'

كان المكان مكتظًا بالناس وقد بدا واضحًا للعيان أن خمسة أو ستة من مربي النحل قد تجمعوا هنا. عين الويتشر الخبيرة رصدت أيضًا بضعة صائدي فخاخ، وواحدًا على الأقل من حارقي الفحم بين الجمهور. معًا، كانوا قرابة عشرين رجلاً، وعشر نساء، وعشرات المراهقين من الجنسين، وأطفالًا لا يُحصَون. كان معهم ست عربات، واثنا عشر ثورًا، وعشر بقرات، وأربعة ماعز وخراف، وكمية وفيرة من الكلاب والقطط بمختلف أنواعها. النباح والمواء الصادر تحت هذه الظروف كان بلا شك نذير شؤم.

'أريد أن أعرف' – فرك كاهير عينيه – 'ماذا يُفترض أن يعني هذا؟'

'مشكلة،' لاحظ دانديليون وهو يسحب قشًا من شعره. ظل ريجيس صامتًا، لكن تعابيره كانت غريبة.

قال مربي النحل عندما لاحظهم: 'نُدعو النبلاء الأفاضل إلى الفطور،'. كان يرافقه إلى كومة القش رجلٌ عريض الكتفين. 'إنه جاهز. عصيدة شوفان بالحليب. وعسل... واسمحوا لي أن أقدم جان كرونين، كبير مربي النحل لدينا...'

'تشرفنا،' كذب الويتشر دون أن يرد التحية (لأن ركبته كانت تؤلمه كالجحيم). 'وهذا الحشد، من هم؟'

'حسنًا...' حك مربي النحل رأسه. 'كما ترى، الشتاء يقترب... العسل جُمع، والخلايا الجديدة نُحِتت... حان الوقت لننتقل إلى كيس الشمال، إلى بلدة ريدبرون... سنقضي الشتاء هناك. لكن الغابات خطيرةٌ على المسافرين... بمفردنا...'

سعل جان كرونين (كبير المربين) في يده. بدا أن مربي النحل استجمع شجاعته قليلًا ونظر إلى جيرالت.

'أنتم تمتطون الخيول وتحملون السلاح،' تلعثم. 'تبدو كمن يستطيع القتال. برفقتكم، نستطيع السفر بأمان... وأنتم ستستفيدون أيضًا... نعرف كل الدروب، كل غابة، كل سهول الفيضان، وكل غابة أشجار... وسنوفر لكم الطعام...'

'والدرويديون،' قال كاهير ببرودة، 'انتقلوا من كايد دهو إلى كيس الشمال. يا لها من صدفة غريبة.'

تحرك جيرالت ببطء نحو مربي النحل. أمسكه بكلتا يديه من جيب سترته الجلدية. لكنه تراجع فورًا، أطلق سراحه، ومهد ثنيات الجاكيت. لم ينطق بكلمة. لم يطرح سؤالًا. لكن مربي النحل اندفع بالشرح:

'قلت الحقيقة! أقسم! ليخسف بي الأرض إن كنتُ أكذب! قُطّاع الهدال رحلوا من كايد دهو! لم يعد لهم وجود هناك!'

"'وهُم الآن في كيس الشمال، صحيح؟' زمجر جيرالت بصوتٍ أشبه بزمجرة الدب الجريح. 'نفس المكان الذي تنوي أنت وحشدك القذر التوجه إليه؟ حيثُ ترغب بالسفر برفقة حراس مسلحين؟ تكلَّم يارجل وتذكَّر كلماتك جيدًا، فقد ينتهي بك المطاف مدفوناً تحت التراب حرفيًا!'"

أحنى مُربي النحل رأسه، محدقًا بعصبيةٍ في الأرض تحت قدميه حيثُ بدت آثار أظافره محفورة في التربة الرطبة. ظل جيرالت صامتًا بصمتٍ بلاغيٍ قاتل. ميلفا التي أدركت أخيرًا الإشارة الخفية في كلام الويتشر أطلقت سلسلةً من الشتائم البذيئة التي تُخجل حتى بحارةٍ مدمني خمر. كاهير زفر زفرةً طويلةً تعبر عن اشمئزازه.

"'و...؟' ضغط الويتشر بينما تقلصت عضلات فكيه. 'إلى أين ذهب الدرويديون؟'"

"'حسنًا... يا سيدي،' تلعثم مُربي النحل بينما كان عرقه البارد يتساقط على طوق قميصه المُتسخ، 'من يستطيع الجزم بمكانهم؟ لكن قد يكونون في كيس الشمال... تخمينٌ منطقي كأي مكان آخر. هناك أشجار بلوط عتيقة مثل تلك التي في غابة ميليسنتي المقدسة، والدرويديون يُحبون البلوط كما... كما تُحب النحلات رحيق الأزهار...'"

وقف خلف مُربي النحل الآن اثنان من حوريات الهاماردرياد التابعتين لجان كرونين كبير الشيوخ، زوجته التي تحمل جمالًا يشع كالقمر في ليلة سوداء وابنته التي ورثت عيني أمها الزمرديتين وفمها القرمزي. كان واضحًا ولحسن حظ الفتاة أنها أخذت ملامح أمها لا ملامح أبيها الذي يشبه - بوجهه

المُتورم وأنفه المُحمر - خنزير بري بجوار فرس عربية أصيلة. لاحظ جيرالت أيضًا ثلاث نساء أخريات أقل جمالًا لكن بنظراتٍ توسليةٍ مُلحة يتقدمن خلف الحوريات.

ألقى الويتشر نظرةً سريعة إلى ريجيس غير قادر على تحديد إن كان يريد الضحك أم إطلاق سيلٍ من اللعنات.

هز مصّاص الدماء كتفيه في حركةٍ اكتسبها من سنوات الترحال وقال بصوته الهادئ الذي يحمل نفحةً من السخرية السوداء:

"'في النهاية، مُربي النحل محقٌ في جزءٍ من كلامه. من المُحتمل جدًا أن الدرويديين انتقلوا إلى كيس الشمال. تضاريس تلك المنطقة بمستنقعاتها الضبابية وأشجارها العملاقة تناسب طقوسهم بشكلٍ مثالي."

"'هذا الاحتمال' – كانت نظرة جيرالت باردةً كالثلج الذي يكسو قمم جبال آمالي في ذروة الشتاء – 'هل تعتقد أنه كافٍ لأن نغير اتجاهنا فجأة بعد كل هذا العناء وننطلق بشكلٍ عشوائي مع هذه القافلة المُزرية؟'"

هز ريجيس كتفيه مجددًا في حركةٍ أصبحت مُزعجة.

"ما الفارق الذي يهم؟ فكِّر: الدرويديون لم يعودوا في كايد دهو وهو ما يلغي هذا الاتجاه بالكامل. العودة إلى نهر ياروغا في تقديري ليست خيارًا مطروحًا. كل الاتجاهات المتبقية شرقًا، غربًا، شمالًا تُعتبر خياراتٍ متساوية القيمة.'"

"'حقًا؟' تطابقت برودة صوت جيرالت التي تُجمد الدم في العروق مع عينيه اللتان تشعان بوهجٍ يشبه حد السيف المُعتق. ومن بين كل هذه الخيارات المُتاحة، أيها تعتبر الأنسب بحسب "حكمتكَ المُطلقة"؟ اتجاه سفر مُربي النحل هذا؟ أم اتجاهٌ آخر تمامًا؟ هل تستطيع تحديد ذلك بينما نحن نقف هنا نتناقش كالجهلة؟'"

التفت مصّاص الدماء ببطء نحو مُربي النحل، الشيوخ، والحوريات، والنساء المُتجمعات اللواتي بدأن يهمسن بخوف.

"‘وما الشيء’ – سأل بنبرةٍ جادة بينما كان يدخن سيجارته المُنطفئة – الذي يرهبكم إلى هذه الدرجة أيها الناس الطيبون، حتى تلجؤون لطلب حماية مسلحة؟ ما هو الخطر الذي تُخفونه؟ قولوا الحقيقة فلن يُساعدكم الكذب الآن؟’"

تنهد جان كرونين بينما ظهر رعبٌ حقيقيٌ ملموس في عينيه اللتان اتسعتا كعيني غزالٍ مُحاصر وقال:

«آه، أيها السادة الأفاضل، هذا هو السؤال الجوهري... علينا عبور السهل المُستنقعي! وهو مكانٌ مرعبٌ حقًا! هناك الغواصون (Drowners)، ووحوش المستنقعات (Sawpads)، وعنكبوتيات الأعماق (Endregas)، والغريفونات (Gryffens)، ومخلوقاتٍ أخرى لا تُحصى! في المرة الأخيرة التي دخلناها (قبل أسبوعين فقط)، خطف عفريت الغابة (wood sprite) ابني ولم يجد وقتًا سوى للأنين قبل أن يختفي إلى الأبد. أتستغربون أننا نرفض دخولها مع نسائنا وأطفالنا؟ هاه؟»

نظر مصّاص الدماء إلى الويتشر، وجعل وجهه جادًا بشكلٍ مبالغ فيه مع تقطيب حاجبيه كأنه فيلسوفٌ يوناني. قال مُقلدًا نبرة جيرالت الساخرة:

«بحكمتي التي لا تُضاهى أوصي بأن الاتجاه الأنسب هو ذاك الذي يناسب الويتشر صياد الوحوش أكثر من غيره».

* * *

"وهكذا سِرنا جنوبًا نحو كيس الشمال، تلك المنطقة الواقعة عند سفح جبال أميل. رحلنا برفقة موكبٍ ضخمٍ يضم كل شيء: عذارى صغيرات، مربي نحل، صيادي فخاخ، نساء، أطفال، عذارى يافعات، حيوانات أليفة، أمتعة منزلية. وكميات هائلة من العسل الذي التصق بكل شيء."

"تحركت القافلة بسرعة الثيران والمشاة. تباطأت خطواتنا، لكن ليس بسبب ضياع الطريق، بل لأن كل شيء سار كالساعة – فمربي النحل كان يعرف المسالك والممرات والسدود بين البحيرات. وهذا العلم أثمر، أجل. بدأ الرذاذ يتساقط، وفجأة غاصت كل أرض النهر في ضبابٍ كثيفٍ كالحساء. لولا دليلنا لضِعنا في أعماق المستنقعات. لم نضطر لإهدار الوقت في البحث عن الطعام – فكنّا نحصل على ثلاث وجبات يوميًا متواضعة لكن كافية. وبعد العشاء، كنّا نستلقي على ظهورنا لنستريح."

"باختصار، كانت الرحلة رائعة. حتى الويتشر العجوز المتذمر بدأ يبتسم أكثر ويستمتع بالحياة، فقد حسب أننا نقطع خمسة عشر ميلًا يوميًا، إنجازٌ لم نحققه منذ مغادرتنا بروكيلون. لكن الفضل لم يكن

له، فبالرغم من أن المستنقعات كانت رطبةً لدرجة لا تُتصور، لم نلقَ أي وحوش. حسنًا، ليلًا كنا نسمع عواء الأشباح قليلًا، ونحيب حوريات الغابة الحزينة قليلًا، وأضواء شاحبة ترقص فوق المستنقعات قليلًا. لكن لا شيء يستحق الذكر."

"كان يقلقنا قليلًا أننا نسير مرة أخرى دون اتجاهٍ محدد، لكن كما قال مصّاص الدماء ريجيس: 'الأفضل أن تسير للأمام بلا هدف، من أن تملك هدفًا وتظل مكانك، وبالتأكيد أفضل من أن تبقى مكانك بلا هدف."

* * *

‘"دانديليون! أَحكِم ربطَ أنبوب الأوراق جيدًا! سيكون من العار أن تُسقط نصف قرنٍ من الشعر بين أوراق السرخس’.

‘لا تقلق! لن أفقدها، يمكنك أن تكون واثقًا من ذلك. ولن أسمح لأحدٍ بأخذها! من يريد انتزاع هذا الأنبوب، عليه أن ينتزعه من جسدي البارد الميت. هل لي أن أسأل، يا جيرالت، ما سبب ابتسامتك المتألقة؟ انتظر، دعني أخمّن... غباء خلقي؟"’

* * *

"حدث أن فريقًا من علماء الآثار من جامعة كاستل جراوبيان أجرى حفريات في بوكلير، تحت طبقة فحمية قديمة تشير إلى حريق هائل. تعمقوا إلى طبقة أقدم تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. عثر الفريق في هذه الطبقة على بقايا جدران من الطين والملاط تشكل كهفًا مغلقًا، قام العلماء بحفره بحماس شديد، ليكتشفوا هيكلين عظميين بشريين بحالة حفظ ممتازة: لامرأة ورجل. إلى جانب الهيكلين، وُجدت - بالإضافة إلى أسلحة وقطع أثرية صغيرة عديدة - أسطوانة جلدية متصلبة يبلغ طولها ثلاثين بوصة. كان الجلد يحمل شعارًا منقوشًا بألوان باهتة، لا تزال أشكال المعينات والأسود مرئية عليها. رئيس الفريق، البروفيسور شليمان (خبير بارز في علم الأختام بالعصور المظلمة)، حدد هذه الرموز كشعارات لمملكة ريفيا القديمة، التي لا يُعرف موقعها بدقة."

"بلغ حماس علماء الآثار ذروته، إذ كانت مثل هذه الأسطوانات تُستخدم لحفظ المخطوطات في العصور المظلمة، ووزن الوعاء جعلهم يعتقدون أنه مليء بالأوراق والرقوق. الحالة المُحفوظة بشكل استثنائي للأسطوانة أثارت آمالًا بأن تكون الوثائق قابلة للقراءة، وتُلقي الضوء على عصور غابرة. القرن سيتحدث! كانت ضربة حظ لا تُصدق، انتصارًا للعلم لا يُمكن إهداره. كإجراء احترازي، تم استدعاء

لغوي وباحث في اللغات الميتة من كاستل جراوبيان، مع مختصين قادرين على فتح الأسطوانة دون أدنى خطر على محتوياتها الثمينة."

"في غضون ذلك، انتشرت إشاعات عن 'كنز' بين عمال البروفيسور شليمان. بحكم الصدفة، وصلت هذه الكلمات إلى آذان ثلاثة أفراد كانوا سابقًا ناهبي قبور، ويعملون الآن في الحفريات لنقل الطين. عُرفوا بأسماء: جرابش، زاب، وكاميل رونستيتر. مقتنعين بأن الأسطوانة مليئة بالذهب والمجوهرات، سرق الثلاثة القطعة الأثرية التي لا تُقدّر بثمن في منتصف الليل، وهربوا إلى الغابة. هناك أشعلوا نارًا صغيرة وجلسوا حولها."

"'ماذا تنتظر؟' قال زاب لجرابش. 'افتح الأسطوانة!'

'أحاول، لكنها لا تتحرك،' تذمر جرابش. 'مغلقة بإحكام!'

'إذن ارفسها بحذائك، يا لك من أحمق!' أوصى كاميل رونستيتر.

أصيب جرابش بالصمت بعد فتحه الاكتشاف الثمين، وتساقط المحتويات على الأرض.

صرخ زاب مندهشًا. 'اللعنة! ما هذا؟'

كان السؤال غبيًا، فمن النظرة الأولى كان واضحًا أنها أوراق. لذا لم يُجب جرابش، بل أخذ إحدى الأوراق بيده ورفعها أمام أنفه. حدّق طويلًا في الأحرف الغريبة.

'مكتوبة من أولها لآخرها، هذه حروف!'

'حروف؟' صاح كاميل رونستيتر شاحبًا من الرعب. 'كتابة؟ يالهذا الحظ اللعين!'

لهث زاب مرتعدًا: 'إنه يصف سحرًا! الحروف تعني أشياء سحرية! لا تلمس هذا الأوراق الملعونة! فقد تُصاب باللعنة!'

لم يحتج جرابش لتكرار التحذير؛ ورمى الأسطوانة في النار ومسح يديه على بنطاله بحركاتٍ متشنجة. رفس كاميل الأوراق المتبقية نحو اللهيب – فبعض الأطفال قد يعثرون على هذه الأشياء النجسة. ثم غادر الثلاثة المكان بسرعة.

القطعة الأثرية النادرة من العصور المظلمة اشتعلت بلهبٍ عالٍ ساطع. للحظات، تحدثت القرون عبر أزيز النار وأوراقٍ تتحول لسواد. ثم انطفأت النار، وخيّم ظلامٌ حالكٌ كالخراء على الأرض.

هوفناغيل، دومينيك بومباستوس(1239–1301)

اكتسب ثروته في مقاطعة إيبينغ عبر إدارة مشاريع اقتصادية واسعة النطاق، ثم أسس أعماله في نيلفغارد.

نال احتراب الأباطرة السابقين، ثم منحه الإمبراطور يان كالفيت لقب فيكونت وسالز غراف فينيندال، كمكافأة على خدماته الجليلة، بالإضافة إلى منصب عمدة المدينة.

مساهماته:

كان مستشارًا مخلصًا للإمبراطور، يتمتع بثقة كاملة، وشارك في العديد من الشؤون العامة.

في إيبينغ، أنشأ العديد من المشاريع الخيرية، وأنفق مبالغ طائلة لدعم المحتاجين، وبناء دور الأيتام، المستشفيات، ومراكز رعاية الأطفال.

كعاشق للفنون الرفيعة والرياضة، تبرع ببناء مسرح وملعب رياضي في العاصمة، حمل كلاهما اسمه.

إرثه:

اعتُبِر رمزًا للياقة، والصدق، والاحترام في الأوساط التجارية، حيث مثل النموذج الأمثل للتاجر النبيل.

المصدر:

إفنبرغ وتالبوت، الموسوعة الكبرى العالمية، المجلد السابع.

الفصل الرابع

"'الاسم الأول والعائلي للشاهدة؟'

'سيلبورن، كينا. عفواً، أعني جوانا.'

'مهنتكِ؟'

'أقدم خدمات متنوعة.'

'هل تستهزئين بالمحكمة؟ على الشاهدة أن تدرك أنها في محاكمة خيانة عظمى أمام محكمة إمبراطورية! حيوات العديد من الأفراد تعتمد على شهادتكِ، إذ أن عقوبة الخيانة هي الإعدام! تُذَكَّر الشاهدة بأنها لم تَحضر طوعًا، بل أُحضرت من القلعة حيث كانت محتجزةً في زنزانة انفرادية، وعودتها إلى هناك أو إطلاق سراحها يعتمد – ضمن عوامل أخرى – على طبيعة شهادتها. سمحت المحكمة بهذا الخطاب المطول لتُدرك الشاهدة مدى عدم ملاءمة هذه المهرجانات والنكات التي جُرِّئت على إدخالها إلى هذه القاعة! فهي ليست فحسب عديمة الذوق، بل قد تُترتب عليها عواقب بالغة الخطورة بحق الشاهدة. للشاهدة نصف دقيقة للتفكير. بعد ذلك، ستُعيد الهيئة القضائية طرح السؤال.'

'جاهزةٌ، سيادة القاضي.'

'خاطبي المحكمة بلقب "الهيئة العليا". ما مهنة الشاهدة؟'

'أنا مُتخصصة في القدرات الذهنية الخارقة (بسيونيك)، الهيئة العليا. أعمل بشكل رئيسي في جهاز الاستخبارات الإمبراطوري، مما يعني...'

'أجيبي بإجابات مختصرة ومحددة. إذا تطلب الأمر أي توضيحات إضافية، سيُطلب منكِ تقديمها. المحكمة على علم بتعاون الشاهدة مع جهاز الاستخبارات الإمبراطوري. مع ذلك، أطلبُ تسجيل معنى مصطلح "بسيونيك" الذي استخدمته الشاهدة لوصف مهنتها.'

'أتمتع بقدرات ذهنية خالصة أي أنني عرَّافة من النوعِ الأول دون أي قدرة على التحريك الذهني تحديدًا، أقوم بما يلي: التحدث والاستماع إلى أفكار الآخرين عن بُعد – مع ساحر أو إلفي أو شخص

خارق آخر – واختراق عقولهم لنقل أوامر رسمية. هذا يعني إجبارهم على تنفيذ ما أريده. كما أنني قادرة على الاستبصار، لكن فقط تحت حالة النوم.'"

"'لِيدوّن في المحضر أن الشاهدة، جوانا سيلبورن، ذات قدرات بسيونيك (خارقة للحواس)، قادرة على التخاطر، التقمص الوجداني عن بُعد، والاستبصار تحت التنويم المغناطيسي، لكن دون قدرات تحريك ذهني. تُذَكَّر الشاهدة بأن استخدام السحر أو القدرات الخارقة ممنوعٌ قطعيًا في هذه القاعة. نستكمل الاستجواب. متى، وأين، وتحت أي ظروف تعرّفتِ الشاهدة على الشخص الذي تَنَكَّرَ بدور سيريلا، أميرة سينترا؟'

'الحقيقة أنني لم أسمع باسم سيريلا إلا خلال وجودي في الزنزانة... أعني الحبس الانفرادي، الهيئة العليا. خلال التحقيق، قيل لي أنها نفس الشخص الذي كان يُشار إليه دائمًا أمامي باسم فالكا أو السينترية. لكن الظروف تتطلب شرحًا زمنيًا لتوضيح الأمر. كالتالي: تمت مقاربتي في حانة بمنطقة إيتوليا من قبل داكر سيلفانت، الموجود هناك...'

'لِيدوّن في المحضر أن الشاهدة، جوانا سيلبورن، أشارت طوعًا إلى المتهم سيلفانت. أكملي.'

'داكر، الهيئة العليا، كان يجنّد طاقمًا... أقصد فرقة مسلحة. قتلة ومأجورين، رجالًا ونساءً... دافيسي كريل، نيراتين سيكا، كلوي ستيتز، أندريس فيرني، تيل إيكراد... جميعهم لقوا حتفهم... أما الناجون، فأغلبهم جالسون هنا تحت الحراسة...'

'حددي بالضبط وقت وتفاصيل لقاء الشاهدة مع المتهم سيلفانت.'"

"'كان ذلك العام الماضي، في شهر أغسطس/آب، قرب نهايته. لا أتذكر التاريخ بالضبط. على أي حال لم يكن في سبتمبر/أيلول، لأن ذلك الشهر – ها! – ترك انطباعًا لا يُنسى! داكَر، الذي سمع عني من مكانٍ ما، قال إنه يحتاج إلى خارق نفساني (بسيونيك) لفريقه، وأن يكون غير خائفٍ من السحر، لأنهم سيتعاملون مع السحرة.

العمل – بحسب قوله – كان لصالح الإمبراطور والإمبراطورية، مع أجرٍ مُجزٍ، وقائد الفريق سيكون البومة نفسه.

'بـ"البومة" تشير الشاهدة إلى ستيفان سكيلين، الطبيب الشرعي الإمبراطوري؟'

'نعم، هو ذاك.'

‘لِيدوَّن في المحضر. متى وأين التقت الشاهدة بالطبيب الشرعي سكيلين؟’

‘كان ذلك في سبتمبر/أيلول، يوم الرابع عشر، في الحصن الصغير روكاين. إذا سمحت الهيئة العليا، حصن روكاين هو موقع حدودي يُحمي طريق التجارة من ميتش إلى إيبينغ، جيسو، وميتينا. هناك قادنا داكَر سيلفانت بفريقنا المكون من خمسة عشر فرساناً. فصار العدد الإجمالي اثنين وعشرين، لأن آخرين كانوا مُتمركزين مسبقًا في روكاين تحت قيادة أولا هارشايم وبيرت بريجدن."

* * *

تردد صدى الأحذية الثقيلة على الأرضية الخشبية، ممتزجًا بصوت الركاب المعدنية المتشابكة وأبزيم الأحزمة المتصادم.

قال: "تحياتي، ستيفان!"

لم يكتفِ "البومة" بالبقاء جالسًا فحسب، بل لم يكلف نفسه حتى عناء إنزال قدميه عن الطاولة. لوّح بيده بإيماءة مقتضبة، لكنها بدت مهيبة. قال بجمود: "أخيرًا. لقد جعلتني أنتظرك طويلًا، سيليفانت."

ضحك داكر سيليفانت وقال: "طويلًا؟ هذه نكتة جيدة. أنت، ستيفان، منحتني أربعة أسابيع فقط لأعثر لك على حوالي اثني عشر من أفضل الرجال في الإمبراطورية ومحيطها. وقد أتيتك بفريق لا يمكن جمع مثله حتى خلال عام كامل من التجنيد! ألا يستحق ذلك بعض المديح، هاه؟"

قال سكيلين ببرود: "لنؤجل المديح إلى أن أعاين فريقك."

قال داكر على الفور: "أنا معني بالأمر فورًا: إنهم أصبحوا ملكي وملكك الآن، سيد سكيلين. الملازمان، نيراتين سيكا ودفيسي كريل."

قال "البومة" أخيرًا وهو ينهض من مجلسه، وقام مساعدوه بالمثل: "تحياتي، تحياتي. قدّموا أنفسكم، أيها السادة... بيرت بريغدن، أولا هارشايم."

قال داكر سيليفانت، وهو يهز يد أولا هارشايم بقوة: "نحن نعرف بعضنا جيدًا. لقد سحقنا التمرد تحت قيادة برايبانت العجوز في نازاير. كان ذلك رائعًا، أليس كذلك، أولا؟ آه، كان يومًا أسطوريًا! لقد

غاصت الخيول في الدماء حتى مفاصلها! وأما السيد بريغدن، إن لم أكن مخطئًا، فهو من جيميرا؟ من مفرزة المهدِّئين الجيميرانيين؟ حسنًا، لديه أصدقاء في الفرقة! لديّ بعض المهدِّئين."

قال "البومة" بنبرة متحمسة: "أنا متحمس جدًا لرؤيتهم. هل ننطلق؟"

قال داكر وهو يرفع يده قليلًا: "لحظة فقط. نيراتين، اذهب وأخبر الفريق أنهم بحاجة إلى أن يتركوا انطباعًا عظيمًا أثناء تفتيش اللورد المُحقِّق."

قال "البومة" وهو يضيق عينيه ويراقب الضابط وهو يغادر: "هل هو رجل أم امرأة، نيراتين سيكا؟ هل هو امرأة أم رجل؟"

تنحنح داكر سيليفانت، لكنه حين نطق، بدا صوته ثابتًا ونظرته باردة، وقال: "سيد سكيلين... هذا لا أعلمه. من المفترض أنه رجل، لكنني لم أتحقق من صحة هذا الادعاء. من ناحية أخرى، فيما يخص كفاءة نيراتين سيكا كضابط، فلا شك لديّ فيها. ما تسأل عنه سيكون مهمًا فقط إن كنتُ أنوي مغازلته. لكنني لا أنوي ذلك. لا هو، ولا هي، على حدٍّ سواء."

قال سكيلين بعد تفكير قصير: "أنت محق. لا يوجد ما يقال أكثر من ذلك. لنلقِ نظرة على فريقك، سيليفانت."

لم يضع نيراتين سيكا، ذلك الشخص ذو الجنس غير المحدد، أي وقت سدى. فعندما دخل سكيلين وضباطه إلى الفناء، كانت الفرقة قد اتخذت تشكيلاً منظمًا بدقة. لم يبرز رأس حصان ولا قدم واحدة بشكل غير منتظم. تنحنح "البومة" طلبًا للصمت.

فكر في نفسه: يا لها من عصابة بغيضة. آه، لو لم تمنعنا السياسات... لو اجتمعت هذه العصبة معًا، لغزت البلدان الحدودية، ونهبت، وقتلت، واغتصبت، وأشعلت الفتن... كفيلٌ بكل ذلك أن يجعل المرء يشعر بالشباب مجددًا... آه، لو أن السياسة تسمح بذلك!

سأل داكر سيليفانت، وقد بدا وجهه محمرًا بحماس مكبوت: "حسنًا، سيد سكيلين؟ ما رأيك بهم، أيها البومة العظيم؟"

جال "البومة" بنظره من وجه إلى وجه، ومن ظل إلى ظل. بعضهم كان يعرفهم شخصيًا—سواء للأفضل أو للأسوأ. آخرون كان يعرفهم فقط من خلال سمعتهم وما قيل عنهم.

تيل إكرادي، الإلفة ذات الشعر اللامع، كشاف في مفرزة 'المهدِّئين الجيميرانيين'.

ريسبات لا بوينت، رقيب من الفرقة نفسها.

وجوهرة أخرى: سيبريان فريب الأصغر. كان سكيلين حاضرًا أثناء إعدام والده الأكبر. وكان يُشاع أن كِلا الأخوين يمتلكان ميولًا سادية.

ثم، وعلى سرج فرس مبرقعة، جلست كلوي ستتز، وهي لصّة محترفة، كانت تُستأجر أحيانًا من قبل جهاز الاستخبارات. نظر "البومة" سريعًا بعيدًا عن نظرتها الوقحة وابتسامتها الماكرة.

أندريس فيرني، شمالي من ريدانيا وجزار.

ستيغوارد، قرصان ومارق من جزر سكيليج.

ديدي فارغاس، قاتل شيطاني.

كابرنيه تورنت، قاتل بدافع العاطفة.

وآخرون... جميعهم متشابهون.

إنهم جميعًا متشابهون، فكر سكيلين. أخوية من القتلة، جميعهم قد قتلوا ما لا يقل عن خمسة أشخاص على الأقل. جميعهم يشبهون بعضهم البعض. نفس الحركات، نفس الإيماءات، نفس طريقة الحديث، المشي، والملبس.

كانت العيون نفسها. باردة، غير مكترثة، مسطحة، وجامدة كعيون الأفاعي، لا يتغير تعبيرها مهما بلغت فداحة الفظائع التي تراها، ولا حتى أمام أشنع الفظائع وأفظعها.

قال داكر سيليفانت، وقد احمر وجهه مجددًا، ثم أدى التحية على الطريقة الجيميرانية، ضاربًا قبضته على صدره: "حسنًا؟ سيد ستيفان؟"

قال سكيلين بعد برهة قصيرة من التفكير: "ليس سيئًا. ليس فريقًا سيئًا، سيليفانت."

قال سكيلين مذكرًا إياه: "على وجه التحديد، كنتُ قد طلبتُ منك العثور على بعض الأفراد الذين لديهم دراية بالسحر، ولا يخشون لا السحر ولا السحرة."

قال سيليفانت، وهو يشير بيده: "لقد أخذتُ ذلك في الاعتبار. في الواقع، هنا لدينا تيل إكرادي! وهناك شخص آخر بجانبه، الآنسة الأنيقة على الفرس الكستنائي الطويل، بجانب كلوي ستتز."

قال سكيلين بصوت هادئ لكنه آمِر: "أحضروا لي الأخيرة."

مال "البومة" على الدرابزين، وضربه بخفة بعصا سوطه المزخرفة بالمسامير، ثم قال بصوت مرتفع: "تحياتي، أيها الرفاق!"

تردد صدى التحية الجماعية في الفناء: "تحياتنا، سيد المُحقِّق!"

تابع سكيلين، بينما بدأت أصوات التحيات تخفت: "كثيرٌ منكم عملوا معي سابقًا، أو تحت إمرتي، أو لأجلي. أما الذين لا يعرفونني، فسأوضح لهم ما أتوقعه من رجالي، وما لا أقبل به مطلقًا. اعلموا أنني لا أتحدث لمجرد سماع صوتي."

توقف للحظة، ثم قال بنبرة أكثر جدية: "حتى اليوم، بعضكم سيحصل على مهام ستبدأ صباح الغد، في أراضي إيبينج. وأذكّركم أن إيبينج مملكة مستقلة رسميًا، وليس لنا الحق في اتخاذ إجراءات عنيفة هناك، لذا فإنني آمركم بالتحرك بحذر وبكامل السرية. أنتم تخدمون في الجيش الإمبراطوري، لكنني أمنعكم من اعتبار ذلك ذريعةً للتباهي أو للتعامل مع السلطات المحلية بغطرسة. لا أسمح لأي أحد بإظهار مثل هذا السلوك. هل هذا واضح؟"

تعالى صوت المجموعة في رد موحد: "نعم، أيها القائد، سيدي!"

قال سكيلين، وهو يحدق في الوجوه أمامه: "نحن هنا في روكاين كضيوف، وأتوقع منكم أن تتصرفوا كضيوف. أمنعكم من مغادرة مقراتكم المخصصة إلا لسبب وجيه. أمنعكم من التواصل مع أي شخص خارج القلعة. حسنًا، سيجد الضباط طريقة ليبقوكم مشغولين حتى لا تقتلوا أنفسكم من الملل. السيد هارشايم، السيد بريغدن، دلّا الفرقة على أماكن إقامتهم!"

* * *

قالت كينا أمام المحكمة العليا: "لم أكن قد ترجّلت بعد، أيها المجلس الأعلى، عندما أمسك داكر بذراعي وقال: "اللورد سكيلين يريد التحدث إليك، كينا." فذهبنا إليه. كان البومة جالسًا وقد رفع قدميه على الطاولة، يضرب بسوطه على مقدمة حذائه. ثم فجأة طرح عليّ السؤال ذاته—ما إذا كنتُ جوانا سيلبورن نفسها التي تورطت في اختفاء السفينة نجمة الجنوب. عندها أخبرته أنه لا شيء لديّ لأثبته. فبدأ يضحك وقال: "أنا أحب الأشخاص الذين ليس لديهم شيء لإثباته." ثم سألني إن كنتُ أمتلك موهبة القدرات الذهنية الفطرية. وعندما أكدتُ له ذلك، أصبح جادًا وقال: "كنتُ أفكر في استخدام مواهبك مع السحرة، لكن عليكِ أولًا التعامل مع شخص آخر، شخص لا يقلّ غموضًا عنهم."

سأل القاضي: "هل الشاهدة متأكدة من أن المُحقِّق سكيلين استخدم هذه الكلمات تحديدًا؟"

قالت كينا بثقة: "نعم. أنا وسيطة نفسية."

قال القاضي: "تابعي من فضلك."

قالت كينا: "ثم قاطعنا رسول. كان مغطى بالغبار، وكان واضحًا أنه لم يُرِح حصانه أبدًا. كان يحمل أخبارًا عاجلة للبومة، فقام داكر سيليفانت بأخذي إلى الإسطبلات وقال لي إنه لديه شعور بأننا سنقضي المساء على صهوات الخيل بسبب هذا الرسول. وكان محقًا، أيها المجلس الأعلى. قبل أن يتمكن أي أحد حتى من التفكير في العشاء، كان نصف الفرقة قد امتطى خيوله بالفعل. كنتُ محظوظة—لقد أخذوا معهم تيل إكرادي، الإلفة. وكنت سعيدة بذلك أيضًا، لأنني كنت أعاني من ألم فظيع بسبب السرج لعدة أيام... ومؤخرتي كانت تؤلمني بشدة... ثم بدأت دورتي الشهرية في ذلك الوقت..."

قال القاضي مقاطعًا بصرامة: "الشاهدة ستمتنع عن الإدلاء بوصف حيّ لمشاعرها الحميمة. ابقي في صلب الموضوع. متى اكتشفتِ هوية الشخص الغامض الذي أشار إليه المُحقِّق سكيلين؟"

قالت كينا بحزم: "سأخبركم، لكن عليّ أن أحكيه بالترتيب الصحيح، وإلا سيصبح الأمر معقدًا لدرجة لن تتمكنوا من فهمه! في ذلك الوقت، أولئك الذين اضطروا إلى الإسراع لامتطاء الخيول قبل العشاء كانوا الصيادين. ركبوا من روكاين إلى مالهون، وعادوا من هناك ومعهم مراهق..."

* * *

كان نيكيلار غاضبًا من نفسه، غاضبًا لدرجة أنه كان يتمنى حقًا لو استطاع أن ينهض ويرحل فورًا.

لو أنه فقط تذكر التحذيرات التي أسداها له أهل العقل! أو حتى لو استحضر الأمثال، وخاصةً قصة الغراب الذي لم يستطع أن يغلق منقاره! لو أنه فقط فعل ما كان ينبغي عليه فعله وعاد مباشرةً إلى جيلاوسي! لكن لا! فقد أغراه الغرور، والمغامرة، وركوب الخيل، وكيس نقوده المزين بالعملات، فلم يستطع مقاومة فرصة التألق. وبدلًا من أن يعود مباشرةً من كليرمونت إلى جيلاوسي، توجه إلى مالهون، حيث كان لديه العديد من الأصدقاء، ومن بينهم الكثير من الفتيات اللواتي كان يسعى وراء ودهن.

في مالهون، انتفخ صدره كالوز في الربيع، وصاح، وتبجح، واندفع عبر السهل الأخضر، واشترى الجولات في الحانة، وبعثر المال بوجه متجهم كما لو كان أميرًا من سلالة ملكية، أو على الأقل كونتًا. وبدأ يتحدث.

حكى لهم كل ما حدث قبل أربعة أيام في جيلاوسي. حكى كل شيء، ثم بدأ بإضافة التفاصيل المبالغ فيها، ونسج الحكايات، وانتهى به الأمر إلى الكذب الصريح—وهو ما لم يزعج المستمعين على الإطلاق. فقد كان رواد الحانة، من السكان المحليين والغرباء، متعطشين لسماع المزيد. وكان نيكيلار يعرف الكثير. وكلما استمر في الحديث، زاد من وضع نفسه في قلب القصة، حتى بدا وكأنه البطل الأوحد فيها.

في الليلة الثالثة، جلب لسانه عليه المتاعب.

ساد صمت مميت عند دخول أولئك الأشخاص إلى الحانة. لم يُكسر ذلك الصمت سوى بأصوات الرِّكاب المعدنية المتشابكة، وصليل الأبازيم الحديدية، ووقع الأحذية الثقيلة على الأرض الخشبية، أصواتٌ كانت أشبه بالأجراس المشؤومة التي تدق من برج الكنيسة قبل أن تحل مأساة على القرية.

لم يحصل نيكيلار حتى على فرصة ليلعب دور البطل. تم سحبه من الحانة بسرعةٍ لدرجة أن البعض زعم أنه بالكاد لمس الأرض بكعبيه ثلاث مرات قبل أن يُقتاد بعيدًا. أما معارفه، الذين كانوا قبل يوم واحد فقط يشربون على نفقته ويقسمون له بالولاء حتى الموت، فقد خفضوا رؤوسهم بصمت، وكأنهم يتأملون بحماس في مشهد عجيب تحت الطاولات، ربما نساءٌ عارياتٌ يرقصن أو أمرٌ مذهلٌ آخر شغل انتباههم فجأة. حتى نائب ممثل العمدة، الذي كان حاضرًا في الحانة، أدار ظهره للحائط ولم ينبس ببنت شفة.

لم ينطق نيكيلار بكلمة، ولم يسأل من، أو ماذا، أو أين، أو لماذا. فقد جفّ الخوف حلقه وحوّل لسانه إلى وتدٍ يابسٍ متصلّب.

وضعوه على حصانه، وأمروه بالركوب. لساعاتٍ عدّة. ثم ظهرت قلعة، تحيط بها متاريس وبرج. ساحةٌ تعجّ بالجنود المتغطرسين، الصاخبين، والمسلحين جيدًا. ثم غرفة مكتب. ثلاثة أشخاص في الداخل. قائدٌ واثنان من المرؤوسين، وكان ذلك واضحًا على الفور.

كان القائد رجلًا قصير القامة بعض الشيء، داكن الملامح، يرتدي ثيابًا فاخرة، ويتحدث بلباقة مذهلة. سقط فك نيكيلار من الدهشة حين سمع القائد يعتذر عن الإزعاج والمضايقة، ويؤكد له أن أحدًا لن يؤذيه. لكنه لم يكن مغفّلًا. فهؤلاء الأشخاص ذكّروه كثيرًا ب بونهارت.

ثبت أن انطباعه كان دقيقًا بشكل مذهل. إذ إن هؤلاء الأشخاص كانوا يبحثون عن بونهارت تحديدًا. وكما هو متوقع — لأن لسانه هو الذي ورّطه في هذه الورطة من البداية — بدأ نيكيلار يتحدث بمجرد أن طلبوا منه ذلك.

حذّروه من الكذب، ومن تزيين الحقيقة أو المبالغة في أي شيء. كانت التحذيرات مؤدبة، لكنها حازمة وقاطعة. كان الرجل ذو الثياب الفاخرة هو من أعطاه تلك التحذيرات، بينما كان يلعب بلا توقف بسوطٍ معدني الطرف، وعيناه كانتا تثيران الاشمئزاز والرهبة.

تحدث نيكيلار، ابن صانع النعوش من قرية جيلاوسي، بالحقيقة كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة. أخبرهم عن صباح التاسع من سبتمبر في جيلاوسي، عندما قام صائد الجوائز بونهارت بإبادة عصابة الجرذان بأكملها، ولم يترك على قيد الحياة سوى أصغرهم، والتي كانت تُدعى فالكا.

أخبرهم كيف احتشد سكان جيلاوسي ليشهدوا اللحظة التي سينهي فيها بونهارت الأمر وينفذ الإعدام على الأسيرة، لكن الحشد خُدع، لأن بونهارت، بمعجزة غريبة، لم يقتل فالكا بل لم يعذبها حتى! لم يفعل لها أي شيء، لا أكثر مما قد يفعله رجل عادي بزوجته ليلة السبت عندما يعود من الحانة — بضع ركلات، لكمتان على الوجه — ولا شيء أكثر من ذلك.

توقف الرجل ذو الثياب الفاخرة عن العبث بالسوط بينما كان نيكيلار يروي كيف قام بونهارت لاحقًا بقطع رؤوس الجرذان المقتولين أمام عيني فالكا، وكيف انتزع الأقراط الذهبية من رؤوسهم وكأنّه يلتقط الزبيب من كعكة. وكيف كانت فالكا، المربوطة إلى أعمدة التثبيت، تتمايل ذهابًا وإيابًا وتتقيأ عند رؤية ذلك المشهد.

روى كيف قام بونهارت بعد ذلك بتزيين فالكا بطوق، كطوق كلبة، وسحبها إلى داخل رأس الكاميرا. ثم...

* * *

قال الفتى وهو يلعق شفتيه مرارًا وتكرارًا: "ثم، أيها السادة، أمر النبيل المحترم بونهارت بإحضار البيرة، لأنه كان يتصبب عرقًا وجاف الحلق من العطش. ثم صاح فجأة أنه يرغب في منح أحدهم حصانًا جيدًا وخمسة فلورينات كاملة نقدًا. قالها بهذه الكلمات بالضبط. عندها سارعت على الفور للإبلاغ، حتى لا يسبقني أحد إلى هذه الفرصة، ولأنني كنت شديد الرغبة في الحصول على حصان وبعض المال. والدي كان يشرب كل ما يكسبه من صناعة النعوش. لذا تقدمت إليه وسألته أي حصان يمكنني أخذه،

هل هو أحد خيول الجرذان؟ نظر إليّ النبيل بونهارت بنظرة جعلت القشعريرة تسري في عمودي الفقري، ثم قال إن بإمكاني الحصول على ركلة في مؤخرتي، لكنني سأحتاج إلى أن أكسب باقي الأمور."

"ماذا عساي أن أفعل؟ الحصان كان على مرمى يدي، بالمعنى الحرفي، فقد كانت خيول الجرذان مربوطة إلى الأوتاد. كنت أرغب تحديدًا في الفرس السوداء الخاصة بـ فالكا—حيوان رائع الجمال بحق. لذا انحنيت وسألته عما يجب علي فعله لأستحقها. فأجابني اللورد بونهارت بأن عليّ أن أمتطي أحد الخيول وأتوجه إلى كليرمونت، متوقفًا في فانو في الطريق. كان بإمكاني اختيار أي حصان أريده. لكنه لا بد أنه كان يعلم أنني طمعت في الفرس السوداء، لأنه منعني من أخذها. لذا أخذت الفرس ذات الشامة البيضاء على جبينها..."

قال ستيفان سكيلين بجفاف: "حديث أقل عن ألوان الخيول، ومزيد من الوقائع الدقيقة. ماذا أعطاك بونهارت؟"

قال الفتى: "النبيل بونهارت كتب رسائل وأمرني أن أعتني بها جيدًا. كنتُ ملزمًا بتسليمها شخصيًا إلى بعض الأشخاص في فانو وكليرمونت."

سأل سكيلين: "رسائل؟ ماذا كان مكتوبًا فيها؟"

قال الفتى وهو يهز رأسه: "وكيف لي أن أعرف ذلك، سيدي؟ لم أستطع قراءتها لأنها كانت مختومة. مختومة بخاتم اللورد بونهارت."

قال سكيلين بنبرة جافة: "لكن هل تتذكر لمن كانت الرسائل موجهة؟"

قال الفتى وهو يهز رأسه بثقة: "بالتأكيد، أتذكر جيدًا. لقد جعلني اللورد بونهارت أكرر الأسماء عشر مرات حتى لا أنساها. ركبت مباشرة دون أي انحراف عن الطريق، وسلّمت الرسائل شخصيًا إلى الأشخاص المعنيين. كلاهما قال لي إنني فتى ذكي، وهذا اللورد النبيل رجل الأعمال أعطاني حتى قرشًا مكافأةً لي..."

صرخ سكيلين بحدة: "لمن سلمت الرسائل؟ توقف عن ثرثرتك غير المفهومة!"

قال الفتى بسرعة: "الرسالة الأولى أُرسلت إلى المعلم إيسترهازي، حدّاد السيوف والمعادن في فانو. أما الثانية فكانت موجهة إلى اللورد النبيل هوفيناخيل، تاجر في كليرمونت."

سأل سكيلين وهو يحدق فيه ببرود: "هل فتح أحدهم الرسائل أمامك؟ ربما قال أحدهم شيئًا بعد قراءتها؟ فكر جيدًا، أيها الفتى."

قال الفتى متلعثمًا: "لا أعرف... لم أُعر الأمر اهتمامًا وقتها، ولا أتذكر شيئًا الآن..."

أومأ سكيلين برأسه إلى مساعديه دون أن يرفع صوته: "أولا، مون، أنزلا سروال الصبي. أخطط لترك ثلاثين علامة بالسوط."

صرخ الفتى فجأة: "تذكرت! لقد عاد إليّ الأمر الآن!"

أظهر "البومة" أسنانه في ابتسامة باردة وقال: "لا شيء يعيد الذاكرة أفضل من الجوز بالعسل... أو بالسوط على المؤخرة. تكلم."

قال الفتى وهو يلهث: "في كليرمونت، قرأ رجل الأعمال اللورد هوفيناخيل الرسالة بصوت عالٍ لأن هناك رجلًا آخر كان معه... رجل صغير، نصف إنسان نقيّ. ثم قال اللورد هوفيناخيل لذلك الرجل... آه... قال إنه في أي لحظة سيكون هناك اندفاع نحو البنك، لم يشهد العالم مثله من قبل! هذا ما قاله بالضبط!"

سأل سكيلين وهو يضيّق عينيه: "هذا كل ما تتذكره؟"

رفع الفتى يديه بتوسل وقال: "أقسم على قبر أمي، هذا كل شيء! أرجوك، لا تضربني، سيدي! ارحمني!"

قال سكيلين وهو يلوّح بيده بلا مبالاة: "حسنًا، حسنًا، انهض. لا تلعق حذائي! خذ، هذا قرش."

قال الفتى بصوت مرتعش: "شكرًا جزيلًا... سيدي..."

قال سكيلين ببرود وهو ينظر إلى مساعديه: "قلتُ لك، لا تلعق حذائي. أولا، مون، ماذا تظنان في الأمر؟ ما علاقة البنك..."

قال بورياس مون فجأة، مقاطعًا التفكير: "ليس اندفاعًا، بل ذعر."

صرخ الفتى بحماس: "نعم! هذا ما قاله! وكأنك كنت هناك، سيدي!"

ضرب أولا هارشايم قبضته على راحة يده بقوة وقال: "ذعر واندفاع! إنه شيفرة جيدة، لكنها ليست شديدة الإبداع. الكلمة 'اندفاع' أو 'ذعر' هي تحذير من متعقبين أو غارة. بونهارت كان يحذرهم ليكونوا مستعدين لذلك! لكن من؟ من سبقنا إلى هناك؟"

قال البومة وهو يحدق في الفراغ، متفكرًا: "من يعلم... من يعلم... علينا إرسال رجال إلى كليرمونت... وأيضًا إلى فانو. أولا، أنت المسؤول عن ذلك. اجعل المجموعات تنقسم وتوزع المهام بدقة..." ثم التفت إلى الفتى وقال: "والآن، اسمعني جيدًا أيها الفتى..."

أجاب الفتى بسرعة: "نعم، سيدي!"

سأله سكيلين وهو يراقبه عن كثب: "بينما كنتَ منطلقًا لتسليم رسائل بونهارت، هل بقي هو في جيلاوسي؟ لكنه كان يستعد للمغادرة، صحيح؟ هل كان في عجلة من أمره؟ هل ذكر لك إلى أين كان ينوي الذهاب؟"

هز الفتى رأسه وقال: "لم يقل. لكنه لم يكن مستعدًا للمغادرة على الفور. لقد أمر بغسل وتنظيف ملابسه الخارجية، التي كانت ملطخة بالدماء بشكل مريع، لذا كان يتجول مرتديًا قميصه وسرواله وحزام سيفه فقط. ومع ذلك، أعتقد أنه كان مستعجلًا. لقد قتل الجرذان وقطع رؤوسهم للحصول على مكافأته، وكان عليه أن يرحل ليسلمهم. وأيضًا ليسلم فالكا التي قبض عليها حيّة لشخصٍ ما. أليس هذا هو عمله، أليس كذلك؟"

ضاقت عينا سكيلين ونظر إلى الفتى بحدة، ثم سأله: "هذه فالكا... هل نظرت إليها جيدًا؟"

رأى الابتسامة ترتسم على وجه الفتى، فعبس وسأله بصرامة: "لماذا تبتسم بهذه الطريقة، أيها الأحمق؟"

ضحك الفتى بخفة وقال: "أوه، سيدي! هل نظرت إليها جيدًا؟ بالطبع! بكل التفاصيل!"

* * *

قال بونهارت بصوت منخفض لكنه حازم: "اخلعي ملابسك."

كان في صوته شيء جعل سيري ترتجف غريزيًا. لكن سرعان ما تغلّب التمرّد على الخوف.

صرخت: "لا!"

لم ترَ حتى حركة قبضته، التي ارتطمت بعينها مباشرة. لمع الضوء أمام ناظريها، وبدأت الأرض تهتز، ثم تلاشت تحت قدميها لتصطدم فجأة بوركها المتألم. احترق خداها وأذناها وكأن النار اشتعلت فيهما— أدركت حينها أنها لم تُضرب بقبضة، بل بظهر يدٍ مسطّح.

وقف فوقها، قابضًا يده أمام وجهها. رأت الخاتم الضخم الذي كان يحمل نقش جمجمة، وهو ذاته الذي لدغ وجهها كالدبّور.

قال بصوت متجمد: "بما أنكِ لم تفقدي سنًا أمامية هذه المرة، فسأحرص في المرة القادمة، إن سمعتُ منكِ كلمة 'لا' مجددًا، أن أُسقطهما معًا. اخلعي ملابسك."

نهضت سيري مترنحة، وبدأت تفك الأربطة وتفتح الأزرار بأصابع مرتجفة. كان روّاد رأس الكاٍميرا، النُزل في جيلاوسي، يتهامسون فيما بينهم، يتنحنحون، ويحدّقون. انحنت صاحبة النُزل، أرملة ذات شعر كاللهب، خلف المنضدة، متظاهرة بأنها تبحث عن شيء ما.

قال بونهارت ببرود: "اخلعي كل شيء. حتى آخر قطعة."

أنا لست هنا، فكرت سيري بينما كانت تخلع ملابسها وعيناها معلقتان بالأرض الخاوية. لا أحد هنا. حتى أنا لست هنا.

قال بونهارت بأمر قاسٍ: "افتحي ساقيكِ."

أنا لست هنا. ما يحدث الآن لا يعنيني أبدًا. لا يعنيني أبدًا. لا أشعر بأي شيء.

ضحك بونهارت وقال ساخرًا: "لدي انطباع أنكِ تملئين رأسك بالكثير من الأوهام. يجب أن أبدد هذه الخرافات. أجعلكِ تتعرين، أيتها الحمقاء، فقط لأتأكد من أنكِ لم تخفي أي أختام سحرية، أو تعويذات، أو تمائم على جسدك. وليس لأنني أرغب في الاستمتاع بالمشهد البائس لعريكِ. لا أستطيع تخيل من قد يفعل. أنتِ مجرد مراهقة نحيلة، مسطحة كالورقة، وقبيحة كالمعصية. حتى لو كنت أميل لهذه الصفات، أعتقد أنني سأفضّل ممارسة الجنس مع ديك رومي بدلاً منك."

اقترب منها أكثر، وبإصبع قدمه فرق ملابسها جانبًا وهو يتفحصها بعينيه الناقدتين. قال بحدة: "قلتُ كلها! الخواتم، الأقراط، العقد، الأساور!"

بسرعة، خلعت سيري مجوهراتها، ورمتها إلى الأرض.

بركلة قدم، دفع بونهارت معطفها المزود بفرو الثعلب الأزرق، وأوشحتها الملونة، وأحزمتها المصنوعة من سلاسل فضية، وقفازاتها إلى أحد الزوايا.

قال بصوت قاسٍ: "لن تتأنقي كطائر ببغاء أو نصف إلف من ماخور! يمكنكِ ارتداء بقية الملابس. أما أنتم، لماذا تحدقون هكذا؟ أحضروا لي بعض الطعام، فأنا جائع! وأنت، أيها البدين، اهتم بملابسي في المغسلة!"

قال الرجل ممتعضًا وهو ينفخ صدره: "أنا شيخ البلدة هنا!"

قال بونهارت بلهجة باردة لكنها حازمة: "هذا جيد." تحت نظرته القاسية، بدا أن شيخ بلدة جيلاوسي قد تقلّص حجمه فجأة. "إن تعرضت ملابسي للتلف في الغسيل، فسأحمّلك المسؤولية رسميًا. انطلق فورًا إلى المغسلة!"

التفت نحو الآخرين وصاح: "والبقية، اخرجوا من هنا!"

ثم نظر إلى الفتى الذي كان واقفًا مترددًا وقال بحدة: "وأنت، لماذا لا تزال هنا؟ لديك الرسائل، والحصان قد جُهّز، لذا امتطِ صهوته وانطلق كالسهم!"

ثم أضاف وهو يحدق في الفتى بتهديد: "وتذكر: إن لم تفِ بوعدك، إن أضعت الرسائل أو خلطت العناوين فسأعثر عليك، وسأجعلك في حالة لن تتعرف فيها عليك حتى والدتك!"

صرخ الفتى وهو يسرع مبتعدًا: "أنا في طريقي، سيدي! ها أنا أنطلق!"

* * *

قالت سيري وهي تضم شفتيها بإحكام: "ذلك اليوم... ضربني مرتين بقبضته وبحزامه. ثم فقد اهتمامه. جلس هناك يحدق بي بصمت. عيناه كانتا... تشبهان عيون الأسماك."

تابعت بصوت منخفض: "لا حواجب، لا رموش... كرتان مائيتان، غارقتان في نواة سوداء. كان يحدق بي بتلك العيون ويبقى صامتًا. لقد أخافني ذلك أكثر من الضرب. لم يكن لدي أدنى فكرة عما يخطط له."

ظل فيسجوتا صامتًا. ركضت الفئران عبر أرجاء المقصورة.

تابعت سيري: "كان يسألني باستمرار من أكون، لكنني لم أقل شيئًا. كما حدث عندما وقعت في الأسر في مقلاة صحراء كوراث، هربتُ عميقًا إلى داخلي، إن كنت تفهم ما أعني. كأنني كنت دمية، دمية خشبية، ميتة ومتبلدة تجاه كل ما يحدث لها. كنت أنظر إلى نفسي كما لو كنت أراقب من الأعلى. ما الفرق إن ضربني، أو داس عليّ، أو وضع طوقًا حول عنقي كالكلب؟ لم يكن ذلك أنا. لم أكن هناك أبدًا... أتفهم ذلك؟"

أومأ فيسجوتا برأسه وقال بهدوء: "أفهم. أفهم يا سيري."

* * *

"هذه المرة، أيها المجلس الأعلى، كان دورنا. مجموعتنا."

قال الشاهد وهو يبلع ريقه قبل أن يتابع: "تلقّى نيراتين سيكا أوامرنا، وتم تعيين بورياس مون كمتعقب لنا. بورياس مون، أيها المجلس الأعلى، كان يُقال إنه يستطيع تتبع أثر السمكة في الماء. يا له من متعقب ماهر! لقد قيل عنه إنه ذات مرة..."

قاطع القاضي بصرامة: "على الشاهد أن يمتنع عن هذه الاستطرادات الجانبية."

تلعثم الشاهد للحظة وقال: "ماذا؟ آه، نعم... أفهم. حسنًا، قمنا بامتطاء الخيول وانطلقنا إلى فانو. كان ذلك في صباح اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر..."

* * *

ركب نيراتين سيكا وبورياس مون في المقدمة، وخلفهما—جنبًا إلى جنب—كانا كابرنيه تورنت وسيبريان فريب. تبعهم كينا سيلبورن وكلوي ستتز، وفي المؤخرة كان أندريس فيرني وديدي فارغاس، اللذان كانا يغنيان أغنية الجنود الجديدة الرائجة، التي تم تمويلها وتوزيعها من قبل وزارة الحرب.

حتى الحيوانات التي عاشت في البرية القاحلة التي عبرتها الفرقة تأذت من قوافي الأغنية المريرة المروعة، واستهتارها الصارخ بأساسيات النحو. كان عنوانها "نعم، في الجبهة"، وكل مقاطعها—التي تجاوزت الأربعين—بدأت بتلك الكلمات نفسها:

نعم، يحدث ذلك في الجبهة،
ذلك الوقت حيث يفقد المرء رأسه،
أو ربما في الغد سيتضح،

اعتمادًا على الأحشاء التي أفرغتها.

صفرت كينا بصوت منخفض، راضية بأنها استطاعت البقاء مع الأشخاص الذين التقت بهم خلال رحلتها الطويلة من إيتوليا إلى روكاين. بعد حديثها مع البومة، كانت تتوقع أن يتم تكليفها في فرقة عشوائية، مثل تلك التي تضم رجالًا من فرقة بريغدن وهارشايم. تيل إكرادي تم تعيينه لمثل هذه الفرقة، لكن الإلف كان يعرف معظم زملائه الجدد، وكانوا يعرفونه بدورهم.

على الرغم من أن داكر سيليفانت أمرهم بالتحرك بأقصى سرعة، إلا أنهم ساروا ببطء. كانوا محترفين. انطلقوا يركضون ويتسابقون ما دامت أعين الحراس في القلعة تراقبهم، ثم خففوا سرعتهم. الركوب الطائش والجري المتسرع كان مناسبًا للصبية والهواة، لكن العجلة، كما هو معروف، لا تليق إلا بمن أصيب بالقمل!

أخذت كلوي ستتز، اللصة المحترفة القادمة من إيملاك، تروي لـ كينا عن تعاونها السابق مع المحقق ستيفان سكيلين. كان كابرنيه تورنت وفريب الأصغر يبطئان خيولهما بين الحين والآخر، ملتفتين للاستماع إلى حديثهما.

قالت كلوي: "أنا أعرفه جيدًا. لقد خدمت تحت قيادته أكثر من مرة..."

توقفت فجأة حين أدركت التلميح المزدوج في كلامها، لكنها سرعان ما ارتسمت على وجهها ابتسامة لامبالية، وأردفت بسرعة: "أقصد، خدمتُ تحت إمرته بشكل جيد جدًا." ثم نظرت إلى كينا قائلة: "لا تقلقي، كينا. هذا الأمر ليس إلزاميًا مع البومة. لم يجبرني—أنا من سعت وراء الفرصة ووجدتها. لكن لأكون صريحة، سأخبركِ أن الحماية لا تُكتسب بهذه الطريقة. ليس معه."

زمّت كينا شفتيها وقالت بتحدٍّ، بينما تحدق في وجهي تورنت وفريب المبتسمين بسخرية: "أنا لم أفعل شيئًا كهذا من قبل. ولستُ أبحث عن فرصة، ولا عن حماية. ولا يمكن تخويفي بسهولة. وخصوصًا ليس من ديك!"

قال بورياس مون وهو يشد لجام جواده الأشقر وينتظر كلوي وكينا: "لنحوّل هذا إلى معركة ديوك، سيداتي."

ثم تابع وهو يمتطي جواده بمحاذاتهما: "دعونا نتحدث عن شيء آخر. بونهارت لا نظير له بالسيف. سأكون سعيدًا إن لم تكن هناك أي مواجهة أو عداء بينه وبين السيد سكيلين—وأن يُحل كل شيء بسلاسة."

قال أندريس فيرني من الخلف، وهو يتنهد بضيق: "لست متحمسًا لشد حزام سيفي. كنت أظن أننا سنقوم بتعقب الساحر، بما أنهم وضعوا الوسيطة النفسية كينا سيلبورن معنا. والآن أصبحنا نطارد بونهارت وفتاة ما!"

قال بورياس مون وهو ينحنح: "بونهارت، صائد الجوائز، كان لديه عقد مع السيد سكيلين. وقد خالفه. رغم أنه وعد السيد سكيلين بأنه سيقتل الفتاة، إلا أنه تركها حية."

هزت كلوي ستتز كتفيها وقالت بلا مبالاة: "بالتأكيد لأن شخصًا آخر عرض عليه مبلغًا أكبر مقابل أن تبقى على قيد الحياة، أكثر مما دفعه البومة ليحصل عليها ميتة. هكذا هم صائدو الجوائز. لا أثر للشرف!"

قال فريب الأصغر معترضًا، وهو يدير رأسه إلى الوراء: "بونهارت كان مختلفًا. كان من علاماته الفارقة أنه لم يسبق له أن نكث بكلمته قط."

قال بورياس مون بجدية: "مما يجعل الأمر أغرب أنه بدأ الآن بفعل ذلك."

سألت كينا وهي تعقد حاجبيها: "لكن لماذا؟ لماذا هذه الفتاة مهمة جدًا؟ لماذا كان يجب أن تُقتل، ولماذا لم تُقتل؟"

قال بورياس مون ببرود وهو يقطب جبينه: "وما شأننا بذلك؟ لدينا أوامر! والسيد سكيلين لديه الحق فيما هو من حقه. كان على بونهارت أن يجعل فالكا جثة باردة، لكنه لم يفعل. والسيد سكيلين يطالب بالمحاسبة."

قالت كلوي ستتز بإصرار: "هذا بونهارت بالتأكيد يحصل على مقابل أكبر للإبقاء عليها حية بدلاً من قتلها. هذا هو سر القصة كلها."

قال بورياس مون: "كانت تلك الفكرة الأولى التي راودت اللورد المُحقِّق كذلك. بونهارت تم استئجاره من قبل أحد بارونات جيسو، الذي كان غاضبًا بشدة من عصابة الجرذان، ووعد بمكافأة لمن يستطيع القبض على فالكا حية—حتى يتمكن من تعذيبها حتى الموت ببطء. لكن ثبت أن الأمر ليس كذلك. لا نعرف لمن يحتفظ بونهارت بهذه فالكا، لكنه بالتأكيد لا يحتفظ بها لذلك البارون."

اندفع شيخ بلدة جيلاوسي الضخم إلى داخل النُزل، يلهث بشدة، ثم صاح: "السيد بونهارت! السيد بونهارت! هناك رجال مسلحون في القرية! دخلوا راكبين على خيول!"

مسح بونهارت طبقه بقطعة خبز وقال بسخرية: "حسنًا، كان سيكون معجزة لو أنهم دخلوا راكبين على رجال أو قرود، على سبيل المثال. كم عددهم؟"

قال الشيخ وهو لا يزال يلهث: "أربعة."

سأل بونهارت ببرود: "وأين ملابسي؟"

قال الشيخ معتذرًا: "لا تزال مبللة... لم تجف بعد..."

زمجر بونهارت: "اذهبوا جميعًا إلى الجحيم. لأنني سأضطر إلى استقبال الضيوف وأنا بملابسي الداخلية. وطبعًا، مثل الضيوف، مثل الاستقبال."

أمسك بحزامه وثبّته فوق ملابسه الداخلية، ثم علق سيفه، وحشر أطراف سرواله في حذائه، وبعدها شدّ طوق سيري وسحب السلسلة بقوة. قال بلهجة قاسية: "انهضي، أيتها الجرذ الصغيرة."

بحلول الوقت الذي أخرجها فيه إلى الشرفة، كان الفرسان الأربعة قد اقتربوا من النُزل. كان واضحًا أنهم عبروا مسافات طويلة في البرية كانت أغطيتهم، أطباقهم، وحتى خيولهم مغطاة بالوحل الجاف والغبار. كانوا أربعة، لكنهم كانوا يقودون معهم حصانًا محمّلًا بالأمتعة.

شعرت سيري بحرارة شديدة فجأة، رغم أن اليوم كان باردًا. لقد كان حصانها الأبيض، ما زال يحمل لجامه وسرجه. وعلى رأسه كان لا يزال الطوق القماشي الذي حصلت عليه من ميستل.

كان الفرسان الأربعة هم أنفسهم الذين قتلوا هوتسبورن.

توقفوا أمام النُزل. اقترب أحدهم—بالتأكيد كان القائد—ورفع قبعته المزينة بفرو السمور محييًا بونهارت.

كان بشرته مسمرة بشدة، وتحت أنفه شارب أسود بدا وكأنه رُسم بخط فحم. لاحظت سيري أنه كان يرفع شفته العليا بشكل متكرر عصبية جعلته يبدو دائمًا غاضبًا. وربما كان كذلك بالفعل.

قال الرجل بنبرة واثقة وهو يحيي بونهارت: "مرحبًا، السيد بونهارت!"

قال بونهارت بلا استعجال وهو يثبت سلسلة سيري في خطاف على الشرفة: "مرحبًا، السيد إمبرا. تحياتي لكم، أيها السادة." ثم أضاف بنبرة ساخرة: "اعذروا مظهري الغريب أمامكم، فلم أكن أتوقع قدومكم. لقد قطعتم طريقًا طويلًا... هل جرفكم التيار إلى إيبينج قادمين من جيسو؟ وكيف حال البارون المبجّل؟ هل لا يزال بصحة جيدة؟"

رد الرجل الأسمر بلا اكتراث، ثم رفع شفته العليا مجددًا: "إنه يزدهر بالحياة." ثم تابع ببرود: "لكننا لا نملك وقتًا نضيعه في الأحاديث الجانبية. نحن في عجلة من أمرنا."

شد بونهارت حزامه وعدّل وضع سرواله الداخلي وقال بسخرية: "لا تدعني أعطّلكم إذًا."

قال إمبرا وهو يحدق في سيري الواقفة على الشرفة: "سمعنا أنك قضيت على الجرذان."

أومأ بونهارت برأسه وقال: "هذا صحيح."

أضاف الرجل الأسمر، بينما واصل رفع شفته بعصبية: "ووفقًا للوعد الذي قطعته للبارون... لم تقتل فالكا."

قال بونهارت ببرود: "أيضًا، أعتقد أن هذا صحيح."

نظر إمبرا نحو الفرس البيضاء وقال بنبرة ساخرة: "إذًا، أنت حظيت بكل الغنائم، ونحن لم نحصل على شيء. حسنًا، سنأخذ الفتاة ونعود إلى الديار. روبرت، ستافرو، خذاها."

رفع بونهارت يده ببطء وقال بلهجة قاتمة: "على مهلك، إمبرا. لن تأخذوا أحدًا. لسبب بسيط جدًا، وهو أنني لن أعطيكم أحدًا. لقد غيّرت رأيي. سأحتفظ بالفتاة لنفسي."

انحنى الرجل الأسمر، الذي دعاه بونهارت بـ إمبرا، قليلًا فوق سرجه، سعل، ثم بصق بقوة، لتكاد بصقته تصل إلى درجات الشرفة. قال وهو يحدق فيه بحدة: "لقد وعدتَ البارون!"

قال بونهارت وهو ينظر إليه ببرود: "لقد فعلت. لكنني غيّرت رأيي."

رفع إمبرا حاجبيه بدهشة وقال ببطء: "ماذا؟ هل سمعتُ ذلك بشكل صحيح؟"

قال بونهارت ببرود وهو يشدّ على مقبض سيفه: "لا يهمني، إمبرا، ما الذي سمعته."

قال إمبرا وهو يحدق في بونهارت بعينين ضيقتين، بينما كان يحاول كبح التشنج المستمر في شفته: "لثلاثة أيام، استمتعتَ في القلعة. بسبب الوعد الذي قطعته للبارون، شربتَ وأكلتَ لمدة ثلاثة أيام. أفضل أنواع النبيذ من القبو، طاووس مشوي، لحم غزال، فطائر، سمك رمح بالكريمة. لثلاث ليالٍ، نمت كملك فوق سرير محشو بأفضل الريش. والآن... غيرت رأيك؟ أهذا صحيح؟"

ظل بونهارت صامتًا، مرتديًا تعبيرًا غير مبالٍ ومملًا، كأن الكلمات لم تصل إليه أو لم يكن يكترث بها إطلاقًا.

قبض إمبرا على أسنانه بشدة ليمنع شفته من الارتجاف، ثم قال بصوت منخفض لكنه حاد: "أنت تدرك، بونهارت، أننا يمكننا أن نأخذ منك الجرذ بالقوة؟"

عندها فقط تبدد الملل من وجه بونهارت، وتحولت نظرته إلى تركيز حاد، كالنصل المسنون.

قال بصوت منخفض لكنه واضح وحاد: "جربوا. أنتم أربعة، وأنا واحد. وعلاوة على ذلك، أنا لا أرتدي حتى سروالي. لكن بالنسبة لحثالة مثلكم، لا أحتاج إلى ارتداء سروال."

بصق إمبرا مرة أخرى، شدّ لجام حصانه، وأدار وجهه بعيدًا عنه قبل أن يقول بتهكم: "أوه، بونهارت، ما خطبك؟ كان يُقال عنك إنك محترف صادق، لا يخطئ أبدًا في الوفاء بكلمته. لكن الآن يتضح أن كلمتك لا تساوي حتى القذارة! وبما أن الرجل يُحكم عليه من خلال كلمته، فهذا يعني أنك بنفسك لا تساوي سوى..."

قاطعه بونهارت بصوت بارد كالثلج، وهو يضع يده على مشبك حزامه: "كن حذرًا... لا تدع لسانك ينزلق إلى شيء فظّ أكثر مما ينبغي. لأنك ستشعر بالألم حين أعيده إليك، محشوًا في حلقك..."

قال إمبرا وهو يحدق فيه بغضب، عاقدًا حاجبيه بشدة: "تتصرف بشجاعة أمام أربعة! لكن هل لديك نفس الشجاعة أمام أربعة عشر؟ يمكنني أن أؤكد لك أن البارون كاساداي لن يترك هذا يمر مرور الكرام!"

ابتسم بونهارت ابتسامة خالية من المشاعر وقال بهدوء قاتل: "كنت سأقول لك إنني سآتي لزيارة بارونك لولا أن هناك أناسًا حوله، من بينهم نساء وأطفال. لذا، بدلًا من ذلك، سأخبرك أنني سأبقى في كليرمونت لمدة عشرة أيام تقريبًا. أي شخص يريد أن يأخذ فالكا مني، أو يريد الانتقام مني، فليأتِ إلى كليرمونت."

قال إمبرا وهو يزمجر، مشدّدًا على لجام حصانه: "سأكون هناك!"

قال بونهارت بنفس البرود، وكأنه يتحدث عن طقس الغد: "سأكون في انتظارك. والآن، انصرفوا من هنا."

* * *

قالت سيري بصوت منخفض لكن مشحون بالتوتر: "كانوا خائفين منه. خائفين بشكل وحشي. كنتُ أشعر بالخوف الذي ينبعث منهم."

صهلت كيلبي بصوت عالٍ وهزت رأسها بقوة، متناغمة مع التوتر الذي يسود الجو.

تابعت سيري وهي تحدق في الأفق: "كانوا أربعة، مسلحين حتى الأسنان. وهو كان وحيدًا، يرتدي فقط ملابسه الداخلية وقميصًا مهترئًا بأكمام قصيرة. كان من الممكن أن يكون مشهدًا مضحكًا... لو لم يكن مرعبًا إلى هذا الحد."

أغمض فيسجوتا عينيه بصمت، وهو يشعر بالرياح القاسية تدمع مقلتيه. كانا يقفان على تل عالٍ يُشرف على مستنقعات بيربلوت، بالقرب من المكان الذي وجد فيه العجوز سيري قبل أسبوعين. الريح كانت تنحني بالأعشاب وتخلق تموجات على سطح المياه في السهول الفيضية للنهر.

تابعت سيري حديثها، بينما كانا يسمحان للفرس بالنزول إلى الماء والشرب: "كان أحد الأربعة يحمل قوسًا مستعرضًا صغيرًا على سرجه، وكانت يده تزحف نحوه ببطء. كنتُ أسمع تقريبًا أفكاره، وأشعر بحيرته وخوفه: 'هل يمكنني شد الوتر؟ هل أستطيع أن أطلق؟ وماذا لو كنت بطيئًا جدًا؟' بونهارت لاحظ القوس أيضًا، ورأى اليد التي تزحف نحوه، وأنا واثقة من أنه قرأ أفكاره، تمامًا كما فعلتُ. وأنا متأكدة من أن ذلك الرجل لم يكن ليتمكن من شد القوس."

رفعت كيلبي رأسها وبدأت تصهل، وأسنانها تقرع اللجام بعصبية.

قالت سيري وهي تراقب الفرس بقلق: "كنتُ أعرفه جيدًا. كنتُ قد وقعت بين يديه. ومع ذلك، لم أكن أفهم دوافعه بعد. حديثهم ذكرني بما قاله هوتسبورن سابقًا. ذلك البارون كاساداي أراد أن أُسلَّم إليه حية، وبونهارت وعده بذلك. لكنه الآن كان مستعدًا للقتال من أجلي. لماذا؟ هل كان يخطط لتسليمي إلى من دفع أكثر؟ هل اكتشف حقيقتي بطريقة ما؟ هل كان يستعد لتسليمي إلى النيلفجارديين؟"

تنهدت، ثم تابعت بصوت منهك لكنه متماسك: "غادرنا المستوطنة في تلك الليلة. سمح لي بركوب كيلبي، لكن يداي كانتا مقيدتين بالأصفاد أمامي، وكان يمسكني طوال الوقت بالطوق والسلسلة. طوال الوقت. كنا نركب، بلا توقف تقريبًا، طوال الليل وطوال النهار. شعرتُ أنني كنت أموت من الإرهاق. لكنه لم يكن متعبًا على الإطلاق. لم يكن بشرًا. كان الشيطان متجسدًا."

سألها فيسجوتا بصوت هادئ لكنه محمل بالاهتمام: "إلى أين أخذكِ؟"

قالت سيري وهي تنظر إليه بعينين مليئتين بالتعب والمرارة: "إلى مكان يُدعى فانو."

* * *

"عندما وصلنا إلى فانو، أيها المجلس الأعلى، كان الظلام قد حلّ بالفعل، ظلامٌ لم يكن بإمكانك حتى أن ترى فيه رأسك. كان في الواقع اليوم السادس عشر من سبتمبر فقط، لكن مع تلك الليلة — المشؤومة، الملبدة بالغيوم، والباردة — كان من الممكن أن يعتقد المرء أنها ليلة من ليالي نوفمبر."

"لم نكن بحاجة للبحث طويلًا للعثور على ورشة حداد السيوف، ليس فقط لأنها كانت أكبر عقار في المدينة بأكملها، ولكن أيضًا لأنها كانت تصدر باستمرار أصوات الطرق على الفولاذ."

"نيراتين سيكا... السيد الكاتب لا يحتاج إلى تدوين هذا الاسم، لأنني لا أعرف إن كنت قد ذكرتُ مسبقًا، لكن نيراتين لم يعد على قيد الحياة، لقد قُتل في قرية تُدعى ون-هورن، لقد مزّقوه هناك كالكلب المسعور..."

قال القاضي مقاطعًا بصرامة: "الرجاء عدم إعطاء تعليمات إلى كاتب المحضر. تابع الإدلاء بشهادتك."

تابع الشاهد قائلاً: "طرق نيراتين على البوابة. سُئلنا بأدب عمّن نكون وما الذي نريده. طلبنا بأدب لقاءً معهم. فسمحوا لنا بالدخول. كانت ورشة حداد السيوف مبنى رائعًا، بل أشبه بحصنٍ صغير—سياجٌ من جذوع الصنوبر، أبراجٌ من خشب البلوط، جدران داخلية مصنوعة من خشب الأرز المصقول، بوابة من خشب الزان السميك معززة بأشرطة من الحديد... لم يكن ذلك مجرد ورشة، بل معقل دفاعي بحق."

قال القاضي بنبرة حازمة: "المحكمة غير معنية بالتفاصيل المعمارية. يمكن للشاهد أن يصل إلى صلب الموضوع. ولكن أولًا، أطلب منك تكرار اسم حداد السيوف لأجل السجل الرسمي."

قال الشاهد بوضوح، وهو ينطق الاسم بحذر: "إيسترهازي، أيها المجلس الأعلى. إيسترهازي من فانو."

* * *

حدّق إيسترهازي، حداد السيوف، في بورياس مون طويلًا، دون أن يبدي أي استعجال في الردّ على السؤال الذي طُرح عليه.

وأخيرًا، قال وهو يعبث بصفارة عظمية كانت تتدلى من عنقه: "ربما كان بونهارت هنا. أو ربما لم يكن؟ من يعلم؟ أيها السادة والسيدات، هذه ورشة لتصنيع السيوف. في أي مسألة تتعلق بالسيوف، سنكون سعداء بتقديم إجابة سريعة، سلسة، وشاملة. لكنني لا أرى أي سبب للإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بضيوفنا وعملائنا."

سحبت كينا منديلًا من كُمّها، وتظاهرت بأنها تمسح أنفها.

قال نيراتين سيكا بصوت خافت لكنه ذو دلالة واضحة: "يمكن العثور على سبب." ثم تابع وهو يحدق في إيسترهازي: "يمكنك أن تجده بنفسك، يا سيد إيسترهازي. أو يمكنني أن أجد واحدًا لك. هل تودّ أن تختار؟"

على الرغم من مظهر نيراتين الناعم الملتبس، إلا أن وجهه أصبح صارمًا، وصوته بدا حادًا ينذر بالخطر.

لكن إيسترهازي لم يفعل سوى أن شخر بازدراء، بينما واصل العبث بصفارته العظمية.

قال ببرود: "الاختيار بين الرشوة والتهديد؟ لا، لا أرغب في ذلك. كلاهما لا يستحقان سوى البصق عليهما."

تنحنح بورياس مون محاولًا تهدئة الوضع: "مجرد القليل من المعلومات. أهو طلب كبير إلى هذا الحد؟ لقد عرفنا بعضنا منذ مدة، يا سيد إيسترهازي، واسم المحقق سكيلين ليس غريبًا..."

قاطعه إيسترهازي بسرعة وهو يرفع حاجبه: "ليس غريبًا على الإطلاق. بل إن التحقيقات والإجراءات المرتبطة بذلك الاسم ليست غريبة عليّ أيضًا. لكننا هنا في إيبينج، مملكة لها حكومتها الذاتية واستقلالها... حتى لو كان ذلك مجرد مظهر. لذلك، لن أخبركم بشيء. انطلقوا في طريقكم. وكعزاء لكم، أعدكم أنه إذا سأل عنكم أحد بعد أسبوع أو شهر، فلن يتعلم أي شيء مني أيضًا."

قال بورياس مون بصوت محاولًا الإقناع: "لكن، سيد إيسترهازي..."

قاطعه الحداد بحدة، وهو ينظر إليهم نظرة صارمة: "هل تريد الأمر بشكل أوضح؟ حسنًا—اخرجوا من هنا!"

زمجرت كلوي ستنتز بغضب، وزحفت أيادي فريب وفارغاس إلى مقابض سيوفهم، بينما وضعت يد أندريس فيرني على مطرقة الحرب التي كانت تتدلى من وركه.

أما نيراتين سيكا، فلم يتحرك على الإطلاق، حتى أنه لم يرمش. لكن كينا رأت عينيه تنجرفان إلى الصفارة العظمية.

لقد تم تحذيرهم مسبقًا من قبل بورياس مون قبل دخول الورشة—صوت تلك الصفارة كان إشارة لاستدعاء الحراس المختبئين، رجال مدرعون يمتطون خيول الحرب، يعملون لدى الورشة بصفتهم "مفتشي الجودة".

لكن نيراتين وبورياس كانا قد توقعا وخططا لكل هذا مسبقًا. لا يزال لديهما ورقة رابحة في الاحتياط.

كينا سيلبورن. الوسيطة النفسية.

كانت كينا قد بدأت بالفعل في استكشاف عقل إيسترهازي، بحذر ودقة، تتبع إيقاع نبضه، وتتقدم ببطء وسط أدغال أفكاره. والآن، كانت مستعدة.

وضعت قطعة القماش على أنفها—إذ كان هناك دائمًا خطر حدوث نزيف—ثم أطلقت الإرادة النابضة، الآمرة، داخل عقله.

بدأ إيسترهازي يختنق واحمر وجهه بشدة. أمسك بحافة الطاولة بكلتا يديه، وكأنه يخشى أن تطير بعيدًا إلى مناطق أكثر دفئًا، حاملة معها رزمة الأوراق النقدية، ودواة الحبر، وثقالة الأوراق المصنوعة على شكل حورية بحر تمسك بمزمارين ثلاثي الشعب.

"لا شيء، لا شيء يحدث." أمرته كينا بصمت، أفكارها تنساب إلى عقله كتيار هادئ لكنه لا يُقاوم. "أنت فقط تريد أن تخبرنا بما يهمنا. أنت تعلم بالفعل ما يهمنا، وتشعر أن الكلمات تكاد تندفع منك. لذا تحدث. تحدث الآن. ستجد أنه بمجرد أن تبدأ في الحديث، ستتوقف تلك الأصوات في رأسك، وستختفي الطرقات في صدغيك، وسيخف الطنين في أذنيك حتى لا يعود بإمكانك احتماله. وسوف تزول تلك التشنجات في خدك."

قال إيسترهازي بصوت أجش، متلعثمًا في نطق الحروف بشكل غير معتاد: "بونهارت كان هنا قبل أربعة أيام، في الثاني عشر من سبتمبر. أحضر فتاة معه... كان يسميها فالكا. كنتُ أتوقع زيارته، لأنني قبل يومين تلقيتُ رسالة منه..."

بدأ خط رفيع من الدم يتدفق من فتحة أنفه اليسرى.

"تحدث." أمرته كينا بصوت عقلي أكثر قوة. "تحدث. أخبرني بكل شيء. سترى أن الأمر سيكون أسهل عليك."

* * *

حدّق إيسترهازي في سيري بفضول، دون أن ينهض من خلف الطاولة المصنوعة من خشب البلوط.

قال وهو يربت بطرف قلمه على ثقالة الأوراق التي كانت منحوتة بشكل غريب: "من أجلها، أليس كذلك؟ السيف الذي طلبته في رسالتك هو لها. هل هذا صحيح، بونهارت؟ حسنًا إذن، لنُقيّم... لنرى إن كان ذلك يتطابق مع ما كتبته."

بدأ يراجع التفاصيل وهو يقرأ: "الطول: خمسة أقدام وتسع بوصات... صحيح. الوزن: مئة واثنا عشر أونصة... حسنًا، كان بإمكاننا أن نجعلها أقل من ذلك، لكنه ليس جوهريًا. المقبض... لقد كتبت أنه يناسب قفازًا بمقاس خمسة... لنرَ يديكِ، أيتها الفتاة الصغيرة... حسنًا، كنت محقًا في ذلك."

قال بونهارت بجفاف: "أنا دائمًا كذلك. هل لديك معدن جيد لصنعها؟"

قال إيسترهازي بفخر: "في عملي، لا نقدم أي شيء مصنوع من معدن ليس بالجودة المطلوبة. أفهم أنك تحتاج إلى سيف للقتال، وليس للمشي والتفاخر به. آه، نعم، لقد كتبتَ ذلك بالفعل. لا شك، يمكننا العثور بسهولة على سلاح مناسب لهذه الشابة. هذا الوزن والحجم يناسبان سيفًا قياسيًا. لجسدها الخفيف ويدها الصغيرة، ستحتاج إلى سيف هجين صغير بمقبض ممتد بطول تسع بوصات ونهاية كروية. يمكننا أيضًا أن نعرض عليها تالداغا إلفي، أو سيف زيريكاني، أو فيروليداني..."

قال بونهارت بحدة: "أرنا البضائع، إيسترهازي."

رفع الحداد حاجبه وقال بنبرة ساخرة: "هل نحن في عجلة من أمرنا؟ حسنًا، إذن نريد... نريد... انتظر، بونهارت؟ ما هذا بحق الجحيم؟ لماذا تقودها بسلسلة؟"

رفع بونهارت عينيه نحوه ببرود وقال بصوت حاد: "أبقِ أنفك خارج هذا، إيسترهازي. لا تدسه حيث لا ينتمي، وإلا فقد تفقده!"

أخذ إيسترهازي يعبث بالصفارة المعلقة حول عنقه، ونظر إلى صائد الجوائز دون خوف أو احترام، رغم أنه اضطر إلى رفع رأسه قليلًا لينظر في عينيه.

عبث بونهارت بشاربه وتنحنح، ثم قال بصوت أكثر انخفاضًا لكنه لا يزال غاضبًا: "أنا لا أتدخل في شؤونك ومصالحك. فهل يفاجئك أنني أتوقع منك الشيء نفسه؟"

لم يرمش إيسترهازي ولم يتردد، بل قال بحزم: "يا بونهارت، إذا غادرت منزلي وساحتي، وإذا أغلقت الباب خلفك، فسأحترم خصوصيتك، وسرية أعمالك، وخصوصية مهنتك. ولن أقحم نفسي فيها، يمكنك أن تكون واثقًا من ذلك. ولكن داخل بيتي، لا أسمح بانتهاك الكرامة البشرية. هل تفهمني؟ خارج بابي، يمكنك جرّ هذه الفتاة خلف الخيول إذا كان ذلك يروق لك. لكن في منزلي، ستنزع هذا الطوق الآن."

قبض بونهارت على الطوق وفكّه، لكنه لم يفعل ذلك قبل أن يشده بعنف شديد جعل سيري تترنح وكادت أن تسقط على ركبتيها.

تصرف إيسترهازي وكأنه لم يرَ شيئًا، ثم أرخى قبضته عن الصفارة وقال ببرود: "هذا أفضل. هيا بنا."

ساروا عبر ممر صغير إلى فناء آخر أصغر قليلًا، يجاور الجزء الخلفي من الحدادة من جهة، وبستانًا من الجهة الأخرى. تحت سقف مدعوم بأعمدة منحوتة، كان هناك طاولة يقف عندها خدم، جاهزون لتقديم الأسلحة وتصميم السيوف.

أشار إيسترهازي إلى بونهارت وسيري بالاقتراب وقال: "تفضلوا، هذا ما لديّ لأعرضه عليكم."

فتقدما.

أشار إيسترهازي إلى سلسلة طويلة من السيوف المصطفة على الطاولة وقال: "هنا لدينا إنتاجي، أغلبها مصنوع هنا في ورشتي. يمكنك رؤية علامة الحدوة الحديدية، وهي ختمي الخاص. تتراوح الأسعار بين خمسة إلى تسعة فلورينات، لأنها سيوف قياسية. أما هنا، على الجانب الآخر، فلدينا سيوف لم أصنعها بالكامل، بل قمت بتجميعها أو تعديلها فقط. معظمها مستوردة، ويمكنك التعرف على ذلك من خلال علامات الحدادة. تلك التي تحمل شعار المطرقة المتقاطعة قادمة من ماهاكام، أما التي تحمل رأسًا بتاج أو حصانًا فهي من بوفيس، وتلك التي تحمل شمسًا فهي من ورش فيروليدا الشهيرة للنقش. الأسعار تبدأ من عشرة فلورينات."

سأل بونهارت وهو ينظر إلى نهاية الصف: "وماذا عن آخر السيوف هناك؟"

"يعتمد ذلك على النوع. خذ على سبيل المثال هذا الفيروليداني الجميل."

التقط إيسترهازي السيف من الطاولة، ورفعه بتحية، ثم انتقل إلى وضعية مبارزة حيث قام بحركة معقدة تُعرف باسم "تحريك الملاك"، مستخدمًا يده وساعده بحركات دقيقة.

قال موضحًا: "سعره خمسة عشر فلورينًا. قطعة قديمة، ومقبضها يُعد من مقتنيات هواة الجمع. يمكن رؤية أنه قد صُنع حسب الطلب. النقوش على النصل تشير إلى أنه كان مخصصًا لامرأة."

ثم أدار السيف في يده، بحيث يتمكن الجميع من رؤية وجه النصل المسطح، وأضاف: "النقش التقليدي على النصل يصف كيفية استخدام الفيروليداني: 'لا يُسحب من الغمد بلا سبب، ولا يُرفع بلا شرف.' ها! في فيروليدا، لا تزال هذه القواعد تُنقش على السيوف. لكن في أنحاء البلاد، تُستخدم هذه الشفرات على أيدي الأوغاد والمغفلين."

تنهد وأضاف: "وكما سقط شرف البلاد، فقد سقطت أسعارها أيضًا، لأن بالكاد يريد أحد مثل هذه البضائع في هذه الأيام..."

قاطعه بونهارت بحدة: "لا تُكثر الحديث يا إيسترهازي. أعطِها السيف، عليها أن تجربه بيدها. خذي السلاح، أيتها الفتاة."

أخذت سيري السيف الخفيف، وعلى الفور شعرت كيف انطبق مقبضه بإحكام في راحة يدها. ذاب وزن النصل في يدها، وكأنه كان يدعو ذراعها للانحناء والتوجيه نحو الضربة.

قالت بصوت هادئ، وكأنها تخاطب نفسها: "إنه سيف صغير من نوع الباستارد." لم تكن بحاجة لشرح ذلك لـ إيسترهازي، فقد كانت تعرف تمامًا كيفية التعامل مع المقبض الطويل وثلاثة أصابعها الموضوعة على المقبض الكروي.

تراجع بونهارت خطوتين إلى الوراء داخل الفناء، ثم استل سيفه من غمده وقام بقطع استعراضي في الهواء.

قال ببرود: "هيا!"

ثم نظر إليها بعينيه الباردتين وأردف: "اقتليني. لديك سيف. لديك فرصة. لديك القدرة. استغليها، لأنكِ لن تحصلي على ثانية قريبًا."

صاح إيسترهازي وهو يراقب المشهد بقلق: "هل جُننت؟"

صرخ بونهارت بحدة: "أغلق فمك، إيسترهازي."

حاولت سيري خداعه بنظرة جانبية، وأوهَمَته بحركة بسيطة من كتفها، ثم هاجمته كضربة برق خاطفة عبر ضربة سينستر المسطحة.

لكن نصلها اصطدم بصدّه، وكان ردّه قويًا لدرجة جعلت سيري تفقد توازنها، مما اضطرها للقفز إلى الوراء، فاصطدمت وركها بطاولة السيوف. وبينما كانت تحاول استعادة توازنها، خفضت سيفها غريزيًا وفي تلك اللحظة، كلاهما عرف أنه لو أراد، لكان قد قتلها بسهولة.

صاح إيسترهازي وقد ارتفع صوته غاضبًا: "هل جُنّ الجميع هنا؟"

كانت الصفارة قد عادت إلى يدي الرجل قصير القامة، فيما راقب الخدم والعمال المشهد في صدمة تامة.

قال بونهارت دون أن يشيح بنظره عن سيري: "أعيدي الحديد إلى مكانه." لم يعر أي انتباه لـ إيسترهازي على الإطلاق.

كرر بصوت أكثر قسوة: "قلتُ لكِ، أعيديه إلى مكانه. وإلا سأقطع يديكِ!"

بعد لحظة من التردد القصير، استجابت سيري للأمر.

ابتسم بونهارت ابتسامة مخيفة، تشبه زحف الثعابين. "أنا أعرف من أنتِ، أيتها الأفعى. لكنني سأجعلكِ تعترفين بنفسك. بالكلمات... أو بالأفعال! سأجبركِ على الاعتراف بحقيقتك. وبعدها، سأقتلكِ."

أصدر إيسترهازي صوتًا حادًا، وكأن أحدهم قد طعنه.

قال بونهارت وهو يحدق في السيف: "وهذا السيف ثقيل جدًا عليكِ. لهذا كنتِ بطيئة. بطيئة كالحلزون الحامل. إيسترهازي! هذا السيف الذي أعطيتها إياه أثقل بأربع أونصات على الأقل!"

كان الحداد شاحب الوجه، وعيناه تتنقلان بين سيري وبونهارت، ذهابًا وإيابًا، بتعبير غريب على ملامحه. أخيرًا، أومأ إلى أحد خدمه وتحدث معه بصوت منخفض.

قال إيسترهازي ببطء: "لدي شيء... يجب أن يرضيك، بونهارت."

زمجر صائد الجوائز بحدة: "ولماذا لم تعرضه عليّ من قبل؟ لقد كتبتُ لك أنني أريد شيئًا فريدًا. هل ظننتَ ربما أنني لا أستطيع تحمل تكلفة سيف أفضل؟"

قال إيسترهازي بنبرة مشددة: "أنا أعرف ما يمكنك تحمله. لقد تعلمتُ ذلك للتو. أما لماذا لم أعرضه عليك سابقًا؟ لم أكن أعرف من ستجلبه لي... مقيدًا بطوق وسلسلة. لم أكن أستطيع تخيل لمن سيكون السيف أو لأي غرض كان معدًا. أما الآن، فأنا أعرف كل شيء."

عاد الخادم حاملًا علبة عرض طويلة.

قال إيسترهازي بهدوء: "تعالي إلى هنا، يا فتاة. انظري."

اقتربت سيري، ونظرت... ثم أطلقت تنهيدة طويلة ومسموعة.

* * *

استلت سيري السيف بحركة سريعة. انعكس ضوء الموقد على نصل السيف المتموج، متوهجًا بلون أحمر متلألئ.

قالت وهي تحدق فيه: "هذا هو." ثم نظرت إلى فيسجوتا وسألته: "ما رأيك؟ بالطبع، يمكنك أن تمسكه إن أردت. لكن كن حذرًا، إنه أكثر حدة من شفرة الحلاقة. هل تشعر كيف يلتصق المقبض براحة يدك؟ إنه مصنوع من جلد سمكة مسطحة، تمتلك شوكة سامة في ذيلها."

قال فيسجوتا وهو يومئ برأسه: "سمكة الراي."

قالت سيري وهي تقلب السيف في يدها: "ربما. هذه السمكة لديها أسنان دقيقة للغاية على جلدها، لذا فإن المقبض لا ينزلق من يدك، حتى عندما تتعرق. انظر إلى ما هو منقوش على النصل."

انحنى فيسجوتا إلى الأمام، وحدّق في النقش بعينين مركزتين.

قال بعد لحظات من التأمل: "إنه ماندالا إلفي... ما يسمى بلاثان كايرميه، رمز القدر: أزهار البلوط، وزهرة سبيريا، ونبات نفل الماعز، منمقة في نقش معقد. البرج المضروب بالبرق هو رمز للفوضى والدمار عند الأجناس القديمة... وعلى البرج..."

أكملت سيري بصوت منخفض، لكنه حاسم: "سنونو." ثم ابتسمت ابتسامة غامضة وأضافت: "زيراييل... اسمي."

* * *

قال بونهارت أخيرًا، وهو يقلب السيف في يده بتأنٍ: "ليس سيئًا على الإطلاق. إنه سلاح قزمي—يمكن معرفة ذلك على الفور. وحدهم الأقزام هم من صهروا مثل هذا الحديد الداكن. وحدهم الأقزام هم من صنعوا شفرات مموجة كاللهب، ووحدهم الأقزام هم من اخترقوا اللحامات لتقليل الوزن... اعترف، إيسترهازي، هل هذا مجرد تقليد؟"

قال الحداد بثبات: "لا، إنه أصلي. غوينهير قزمي حقيقي. المقبض عمره حوالي مئتي عام. أما النسخة الحالية، فهي بالطبع أحدث بكثير، لكنها ليست تقليدًا. لقد صنعه أقزام تير توخير بناءً على طلبي، وفقًا للتقنيات والأساليب والأنماط القديمة."

تمتم بونهارت وهو يحدق في السيف مجددًا: "اللعنة. ربما لا أستطيع حتى تحمّل ثمن هذا السيف. كم تريد مقابله؟"

ظل إيسترهازي صامتًا للحظة، وكانت ملامحه غير مقروءة، ثم قال أخيرًا بنبرة خالية من المشاعر: "لا أطلب شيئًا، بونهارت."

تجمدت نظرة بونهارت عليه، وكأن الكلمات لم تصل إليه بعد.

أضاف إيسترهازي ببطء: "إنه هدية. لكي يتحقق ما يجب أن يتحقق."

حدّق بونهارت فيه للحظة، ثم قال، وقد بدا عليه الاندهاش الحقيقي لأول مرة: "شكرًا، إيسترهازي... شكرًا لك. إنها هدية ملكية، بكل معنى الكلمة... أظن ذلك، نعم. وأنا مدين لك."

* * *

"لم يكن هناك الكثير من المعلومات المفيدة في عقل الحداد، أيها المجلس الأعلى."

قال الشاهد وهو يتحدث بثبات: "كنا هناك في السادس عشر من سبتمبر، قبل ثلاثة أيام من اكتمال القمر. ولكن في طريق عودتنا من فانو إلى روكاين، التقينا بـ أولا هارشايم ممتطيًا حصانه، يقود سبعة رجال—وهم كل ما تبقى من الفرقة. لأن اليوم الذي سبق ذلك، في الخامس عشر من سبتمبر، وقع مذبحة في كليرمونت..."

توقف لوهلة، ثم أضاف بصوت جاف: "لكنني أظن أنني لست بحاجة للحديث عنها، لأن المجلس الأعلى يعرف بالفعل عن مذبحة كليرمونت..."

قال القاضي بصرامة: "أدلي بشهادتك دون القلق بشأن ما يعرفه المجلس الأعلى."

تنهد الشاهد، ثم تابع: "بونهارت سبقنا بيوم واحد. في الخامس عشر من سبتمبر، كان قد أحضر فالكا إلى كليرمونت..."

* * *

قال فيسجوتا وهو يكرر الاسم ببطء: "كليرمونت... أعرف تلك البلدة. إلى أين أخذكِ؟"

ردت سيري بصوت منخفض لكنه حازم: "إلى بيت كبير في ساحة السوق. كان عند مدخله أعمدة وأقواس. يمكنك أن تدرك فورًا أن رجلاً ثريًا يعيش هناك..."

* * *

غطت جدران الغرفة أقمشة فاخرة ونسيج مزخرف بشكل مذهل، تمثّل مشاهد دينية وصيدًا وحياة ريفية، جميعها كانت تتمحور حول النساء. الأثاث كان يلمع بلمسات من النحاس المطعّم، والسجاد كان من الفخامة بحيث تغوص فيه الأقدام حتى الكاحل عند السير عليه.

لكن سيري لم يكن لديها وقت لملاحظة هذه التفاصيل، فقد كان بونهارت يسير بسرعة عبر الغرفة، يسحبها خلفه بالسلسلة.

قال بصوت جاف: "تحية لك، هوفيناغل."

ألقت أشعة الضوء، المنعكسة بألوان الطيف عبر نافذة زجاجية، ظلالًا متراقصة على نسيج جداري يصوّر مشاهد صيد. أمام تلك اللوحة كان يقف رجل ضخم، ذو بنية مهيبة، يرتدي سترة مطرزة بالذهب ورداءً طويلًا من الفرو. رغم أنه كان في أوجِ رجولته، إلا أن رأسه كان أصلع تمامًا، وخدّاه مترهلان كخدود كلب صيد ضخم.

قال الرجل بصوت جهوري: "تحية لك، ليو." ثم التفت إلى سيري وأضاف: "وأنتِ، آنسة..."

أشار بونهارت إلى السلسلة والطوق وقال ببرود: "ليست بحاجة إلى تحية."

قال هوفيناغل بابتسامة ساخرة: "اللباقة لا تكلف شيئًا."

قال بونهارت بحدة وهو يشد السلسلة بقوة: "لا تضيع وقتك."

اقترب بونهارت من الرجل دون أي مقدمات، وربّت على بطنه الممتلئ، ثم قال بابتسامة ساخرة: "لقد ازداد وزنك كثيرًا. حقًا، هوفيناغل، لو وقفت في طريقي، لكان من الأسهل أن أقفز فوقك بدلًا من الدوران حولك."

ضحك هوفيناغل وهزّ خديه الممتلئين، وقال بمزاج مرح: "الحياة المترفة." ثم أضاف وهو يرحب به بحرارة: "تحية لك، ليو، ومرحبًا بك. أنت ضيف مرحب به، لأن لدي سببًا كبيرًا للاحتفال اليوم. الأعمال تسير بشكل رائع لدرجة أنك تكاد ترغب في الطرق على الخشب تفاؤلًا—الصندوق النقدي لا يتوقف عن الرنين! فقط اليوم، على سبيل المثال، جاءني نقيب احتياط نيلفجاردي، وهو مأمور إمداد، وباعني شحنة معدات من الجبهة—ستة آلاف قوس حربي. يمكنني بيعها بعشرة أضعاف ما دفعته، عبر توزيعها على الصيادين، والصيادين غير الشرعيين، واللصوص، والإلف، وكل المقاتلين من أجل الحرية. كما أنني اشتريت قلعة بسعر زهيد من مركيز محلي..."

قطّب بونهارت حاجبيه وقال ساخرًا: "ماذا بحق الجحيم ستفعل بقلعة؟"

قال هوفيناغل وهو يتحدث بنبرة واثقة، بينما يمدد ذراعيه براحة: "يجب أن أعيش بمظهر يليق بمكانتي. ثم إن الأعمال تسير على ما يرام. في الواقع، هناك أمر واحد أدين لك به. مدينٌ ميؤوسٌ منه قد سدد ما عليه. قبل لحظات فقط. كانت يداه ترتجفان وهو يدفع. لقد رأى وجهك واعتقد..."

قاطعه بونهارت ببرود: "أعرف ما كان يعتقده. هل استلمتَ رسالتي؟"

أومأ هوفيناغل وهو يجلس بثقل، مصطدمًا ببطنه بالطاولة، مما جعل القوارير والكؤوس تصدر رنينًا خفيفًا.

قال بصوت واثق: "نعم. وقد جهّزتُ كل شيء. ألم ترَ الرهانات؟ لقد أوفت بوعدها في جذب الجماهير... الناس موجودون بالفعل في الساحة. الصندوق النقدي لا يتوقف عن الرنين... اجلس، ليو. لدينا وقت. دعنا نتحدث، خذ كأسًا من النبيذ..."

قال بونهارت بجفاء: "لا أريد نبيذك. الذي بلا شك قد نُهب من إحدى قوافل نيلفجارد."

ضحك هوفيناغل وهو يصب لنفسه كأسًا وقال بسخرية: "لا بد أنك تمزح. هذا إست إست توسّان، والعنب الذي صُنع منه هذا النبيذ كان يُعصر عندما كان إمبراطورنا العظيم إمير لا يزال طفلًا صغيرًا، يبول في حفاضه الصوفي. سنة جيدة للنبيذ... نخبك، ليو."

رفع بونهارت كأسه بصمت، دون أن يعلق.

أخذ هوفيناغل يحدق في سيري بعينين ناقدتين قبل أن يغمغم: "إذًا، هذه هي الغزالة الواسعة العينين، التي وعدتَ بها في رسالتك بأنها ستضمن الترفيه؟ سمعت أن ويندسور إمبرا في البلدة. ويقال أيضًا إنه جلب معه بعض القتلة المأجورين..."

قال بونهارت بلهجة ساخرة: "هل خذلتك بضائعي يومًا، هوفيناغل؟"

ابتسم هوفيناغل ابتسامة واسعة وقال: "لا، هذا صحيح. لكن مضى وقت طويل منذ آخر مرة حصلتُ منك فيها على شيء."

قال بونهارت وهو يريح نفسه على المقعد، واضعًا قدمه على كرسي، مجبرًا سيري على الجلوس أيضًا: "أعمل أقل مما كنت أفعل في السابق. أبحث عن فرصة للتقاعد نهائيًا."

رفع هوفيناغل حاجبيه باهتمام وقال: "يتطلب ذلك رأس مال لتحقيقه. ربما أعرف طريقة... هل ترغب في سماعها؟"

قال بونهارت وهو يغير وضع جلوسه قليلًا: "في ظل غياب أي تسلية أخرى."

تابع هوفيناغل وهو يملأ كأسه من جديد: "هل فكرت يومًا في التوجه نحو الشمال؟ إلى سينترا، أو على الضفة الشمالية من ياروغا؟ هل تعلم أن أي شخص يشد رحاله إلى هناك ويستقر في الأراضي المحتلة يضمن له الإمبراطورية تخصيص أربع هيكتارات من الأرض؟ وعشرة أعوام من الإعفاء الضريبي؟"

قال بونهارت بهدوء، لكن بنبرة ساخرة: "أنا لا أرغب في امتلاك مزرعة. لا أستطيع أن أحفر في الأرض أو أربي الماشية. أنا حساس جدًا. عند رؤية دودة الأرض أو الروث، أتقيأ."

ضحك هوفيناغل وهزّ فكه ببطء: "تمامًا مثلي. في المجمل، يمكنني فقط تحمل الزراعة غير المشروعة. أما الباقي، فهو مثير للاشمئزاز. يقولون إن الزراعة هي العمود الفقري للاقتصاد وتضمن الازدهار. لكنني أجد أنه من المهين والمبتذل الإيحاء بأن ثروتي تعتمد على شيء تفوح منه رائحة الروث."

أخذ رشفة أخرى من كأسه قبل أن يضيف ببطء: "لقد قمت ببعض الترتيبات في هذا الصدد. لا يوجد التزام بحرث الأرض أو تربية الماشية. يكفي أن تمتلكها. وإذا قمت بتطويرها بالطريقة المناسبة، يمكنك تحصيل إيجار محترم منها. صدقني، هذا كافٍ للعيش بشكل مريح. نعم، لقد عملتُ على ذلك، لذا فإن سؤالي بشأن السفر إلى الشمال لا يزال قائمًا. لأنك ترى، بونهارت، لدي وظيفة لك هناك. وظيفة دائمة، مربحة، وسهلة عليك. وهي تتناسب تمامًا مع طبيعتك: لا روث، لا ديدان."

أومأ بونهارت برأسه ببطء وقال: "أنا مستعد للاستماع. دون أي التزامات، بالطبع."

ابتسم هوفيناغل وقال: "مع القليل من روح المبادرة واستثمار رأسمالي أولي منخفض، يمكن إنشاء مزارع واسعة النطاق من قطع الأراضي التي يمنحها الإمبراطور للمستوطنين."

قال بونهارت وهو يعضّ على شاربه بتفكير: "أنا أفهم. أفهم إلى أين تذهب بهذه الفكرة. وأعرف جيدًا الجهود التي تبذلها لضمان رخائك. لكنك تفترض أنه لن تكون هناك صعوبات؟"

قال هوفيناغل وهو يرفع سبابته: "نعم، باستثناء مشكلتين. أولًا، نحتاج إلى العثور على أشخاص يتم تعيينهم كواجهة للتظاهر بأنهم مستوطنون في الشمال، واستلام قطع الأراضي باسمهم ظاهريًا، لكن في الواقع، ستكون لي. لكن بما أنني أتعامل مع هذا الأمر، فإن المشكلة الثانية هي التي تخصك."

قال بونهارت وهو يريح مرفقه على الطاولة: "أنا أسمعك."

أخذ هوفيناغل نفسًا عميقًا قبل أن يقول: "بعض المستوطنين سيحصلون على قطع الأرض، لكن لن يكون لديهم أي نية للتخلي عنها. سينسون العقد الذي وقعوه معي، والمال الذي تلقوه مني. لن تصدق مدى تغلغل الخداع، وانعدام الضمير، والانحطاط في الطبيعة البشرية."

ابتسم بونهارت ابتسامة باردة وقال: "بل أصدق ذلك."

أومأ هوفيناغل برأسه وأضاف بنبرة حازمة: "يجب إقناعهم بأن عدم الأمانة ليس أمرًا مربحًا. وأنهم سيُعاقبون. وهنا يأتي دورك."

ابتسم بونهارت وهو يميل إلى الخلف في مقعده، قائلاً: "يبدو هذا جيدًا."

"هذا بالضبط كما يبدو عليه الأمر." قال هوفيناغل وهو يميل إلى الوراء بثقة. "لقد أجريتُ دورة تجريبية بالفعل. بعد الإدماج الرسمي لـ إيبينج في الإمبراطورية، تم توزيع قطع الأراضي. وبعد ذلك، عندما دخل قانون الجباية في المدن حيز التنفيذ، أصبحت كليرمونت—هذه البلدة الجميلة الصغيرة—على أرضي،

وبالتالي فهي تخصني. هذه المنطقة بأكملها تخصني. انظر هناك، حيث يغلف الضباب الأزرق الرمادي الأفق؟ كل ذلك لي. مئة وخمسون هيدًا كاملة. أراضٍ إمبراطورية، ليست مجرد مزارع صغيرة. هذا يعادل ما يقارب عشرة آلاف يوك، أو ثمانية عشر ألفًا وتسعمائة وحدة قياسية."

ابتسم بونهارت ابتسامة ساخرة، وردد بنبرة تهكمية: "يا أرض الفوضى، ها قد اقتربت النهاية، الإمبراطورية ستسقط، فاسرقوا كل شيء. في الجشع والمصلحة الذاتية يكمن ضعفها."

هز هوفيناغل رأسه، وابتسم ابتسامة واسعة، قائلاً: "بل فيهما تكمن قوتها وعظمتها." ثم أضاف وهو يشير إليه: "أنت يا بونهارت، تخلط بين السرقة وروح المبادرة الفردية."

هز بونهارت كتفيه بلا مبالاة وقال: "كثيرًا ما أفعل ذلك."

قال هوفيناغل وهو يراقبه باهتمام: "إذن، ما رأيك في شراكتنا؟"

أجاب بونهارت وهو يتكئ قليلاً إلى الخلف: "ألا نقسم الأراضي في الشمال مبكرًا جدًا؟ أليس من الأفضل أن نلعبها بذكاء، وننتظر حتى تكسب نيلفجارد هذه الحرب؟"

ضحك هوفيناغل بصوت خافت، وقال: "تلعبها بذكاء؟ لا تمزح معي، ليو. نتيجة الحرب محسومة سلفًا. الحروب تُكسب بالمال. والإمبراطورية تملك ما لا يملكه الشمال."

رفع بونهارت حاجبه وقال: "وبما أننا نتحدث عن المال..."

أومأ هوفيناغل وأخذ يبحث بين الوثائق المبعثرة على الطاولة، ثم سحب ورقة قائلاً: "تم الأمر. ها هو سند بنكي بقيمة مئة فلورين. وهنا، العقد الذي ينقل إليّ مستحقات عائلة فارنهاغن من جيسو، مقابل المكافأة على رؤوس قطاع الطرق. تفضل، وقّع هنا... شكرًا لك. ستحصل على نسبة من الأرباح المستقبلية، لكن الحسابات لم تُغلق بعد، فالصندوق النقدي لا يزال يرن. هناك اهتمام كبير بها، ليو، اهتمام هائل. الناس في مدينتي يعانون من الملل والكآبة."

ثم توقف لبرهة، وألقى نظرة على سيري، قبل أن يضيف بصوت خافت لكنه مثقل بالمعنى: "آمل بصدق أنك لم تكن مخطئًا بشأن هذه الفتاة. آمل أن تكون قادرة على تقديم ترفيه لائق... أن تتعاون في تحقيق الأرباح المشتركة..."

نظر بونهارت إلى سيري نظرة باردة تمامًا، وقال بلا مبالاة: "بالنسبة لها، لا يوجد أي ربح هنا. أنت تعرف ذلك."

عبس هوفيناغل، وبدا عليه الامتعاض الواضح: "من السيئ، بحق الجحيم، أن تعرف ذلك! لم يكن عليك أن تخبرها بذلك! ما خطبك يا ليو؟ وماذا لو لم تكن ممتعة كما توقعنا؟ ماذا لو أظهرت عدم التعاون، أو أبدت عنادًا خبيثًا؟ ماذا عندها؟"

لم يتغير تعبير بونهارت على الإطلاق. ظل وجهه باردًا كالحديد، وقال بصوت ثابت: "عندها... نتركها في الساحة، ونطلق عليها كلابك المفترسة. كانت دائمًا، على حد علمي، موثوقة ومسلية للغاية."

* * *

ظلت سيري صامتة لفترة طويلة، تدلك وجنتها المشوهة بأصابعها.

وأخيرًا، قالت بصوت منخفض لكنه ثابت: "بدأت أفهم."

ثم أضافت، كأنها تتحدث لنفسها: "بدأتُ أفهم ما الذي كانوا ينوون فعله بي. شددتُ جسدي، عاقدة العزم على الفرار عند أول فرصة... بغض النظر عن المخاطر. لكنهم لم يمنحوني أي فرصة. كانوا يراقبونني جيدًا."

ظل فيسجوتا صامتًا، لكنه لم يرفع عينيه عنها.

تابعت سيري بنبرة مشوبة بالغضب: "جرّوني إلى الطابق السفلي. كان ضيوف ذلك المتضخم هوفيناغل ينتظرون هناك. ومرة أخرى، لم يكن هناك سوى الشواذ والمنحرفين! من أين يأتي هذا العدد الهائل من الغرباء والمجانين يا فيسجوتا؟"

رفع العجوز حاجبيه قليلًا وقال بهدوء ساخر: "إنهم يتكاثرون بالانتقاء الطبيعي."

* * *

كان أول الرجال قصير القامة وممتلئ الجسم لدرجة أنه بدا أقرب إلى نصف إنسان منه إلى رجل عادي. حتى أنه كان يرتدي ملابس تشبه ملابس أنصاف البشر متواضعة، أنيقة، نظيفة، وبألوان الباستيل الهادئة.

أما الرجل الآخر، رغم تقدمه في السن، فقد حمل في مظهره وهيئته وقفته وقوة جندي. كان يحمل سيفًا، وعلى كتفي سترته السوداء تلمع بروش فضي يصوّر تنينًا بأجنحة خفاشية.

أما المرأة، فكانت نحيلة ذات شعر فاتح، وأنف معقوف قليلًا، وشفاه رفيعة. كانت ترتدي فستانًا بلون الفستق، ذو ياقة منخفضة للغاية. لم يكن ذلك قرارًا حكيمًا، فلم يكن لديها الكثير لتعرضه من فتحة صدرها، سوى جلد متجعد وجاف كقطعة من الرق، مغطى بطبقة كثيفة من البودرة والمساحيق البيضاء.

قال هوفيناغل وهو يقدم الحضور بابتسامة واسعة: "عالية المقام الماركيزة دي-نيمنث أويفار. السيد ديكلان أيب ميلخلاد روس، نقيب الاحتياط في خدمة جلالة إمبراطور نيلفجارد. السيد بينيكويك، عمدة كليرمونت. وهذا هو السيد ليو بونهارت، ابن عمي ورفيقي القديم في السلاح."

انحنى بونهارت بانحناءة رسمية جافة.

حدقت الماركيزة في سيري بعينيها الشاحبتين، الزرقاوين الباهتتين، ثم قالت بصوت أجش، متخم بالسُكْر والإعياء، وله نبرة مزعجة مرتعشة، كأنها تخفي تحتها رغبة غير سليمة:

"إذًا، هذه هي اللصة الصغيرة التي ستُسلينا اليوم؟ ليست جميلة جدًا، سأقول ذلك. لكنها ليست سيئة البنية... أعتقد أن الجسد جميل جدًا..."

استدارت سيري بعنف، وأبعدت يد الماركيزة الممدودة نحوها، مشتعلة بالغضب، وهي تزمجر كالأفعى.

قال بونهارت ببرود: "الرجاء عدم اللمس. عدم الإطعام. عدم الاستفزاز. لست مسؤولًا عمّا سيحدث إذا لم تطيعوا تحذيراتي."

لكن الماركيزة تجاهلته تمامًا، ولعقت شفتيها الجافتين قبل أن تقول بنبرة مشوبة بالإثارة المريضة:

"يمكن دائمًا تقييد الجسد إلى السرير، هكذا يصبح أكثر سهولة... هل ستجردني من متعتي يا بونهارت؟ الماركيز وأنا نحب هذا النوع من الأجساد، لكن اللورد هوفيناغل يوبخنا عندما نأخذ راعيات الغنم والأطفال الفلاحين من هذه المناطق. لم يعد لدى الماركيز القدرة على مطاردة الصغار، لم يعد بإمكانه الجري سريعًا بسبب التقرحات والنتوءات التي تلتهب كلما تحرك كثيرًا..."

كان صوتها يقطر قذارة، ممتزجًا بسخرية باردة، بينما بدا المكان كله كما لو أنه يغرق أكثر في هوّة من الانحطاط.

"كفى، كفى، ماتيلدا." قال هوفيناغل بنبرة هادئة، لكنها سريعة، عندما رأى التعبير المليء بالاشمئزاز على وجه بونهارت. "علينا التوجه إلى الساحة. لقد أُبلغ السيد العمدة الآن بوصول ويندسور إمبرا إلى المدينة مع مجموعة من خدم البارون كاساداي. لذا حان الوقت لنذهب."

دون أن ينبس بكلمة، أخرج بونهارت زجاجة صغيرة من جيبه، ومسح بكمه سطح طاولة صغيرة من الأونيكس، ثم سكب فوقها كومة صغيرة من مسحوق أبيض. شدّ السلسلة المتصلة بطوق سيري.

قال بصوت منخفض لكنه قاطع: "تعرفين كيف تستعملينه؟"

عضّت سيري على أسنانها بقوة، تملؤها الكراهية والغضب.

قال بونهارت دون أن يظهر عليه أي تأثر: "استنشقيه عبر أنفك. أو ابصقي على إصبعك وادعكيه في لثتك."

صرخت بغضب: "لا!"

لم يلتفت بونهارت حتى إليها، بل قال بصوت بارد يشبه نصلًا مسنونًا: "إما أن تفعلي ذلك بنفسك، أو سأفعله أنا، لكن بطريقة تضمن أن يستمتع الجميع بالمشهد. لديك أغشية مخاطية ليست فقط في الفم والأنف، أيتها الجرذ الصغير. بل هناك أماكن أخرى... غريبة."

توقف قليلًا ثم أضاف بنبرة أخفض لكنها تحمل تهديدًا أشد: "سأستدعي الخدم، سيقومون بتثبيتك، وسأجعلهم يستغلون تلك الأماكن الغريبة."

أطلقت الماركيزة دي-نيمنث أويفار ضحكة غليظة، وهي تراقب المشهد بعينين متلألئتين بالانحراف واللذة المريضة.

تمتمت وهي تلعق شفتيها: "أماكن غريبة... فكرة مثيرة للاهتمام. لا بد أن أجرب ذلك في وقت ما!"

ثم صاحت وهي تراقب سيري ترفع يدين مرتعشتين نحو المسحوق المخدر: "ه-هاي، أيتها الفتاة، انتبهي، لا تضيّعي الفيستيك الجيد! اتركِي لي القليل منه!"

كان المخدر أقوى بكثير من ذلك الذي جربته مع الجرذان.

بعد لحظات فقط من تناوله، اجتاح سيري شعور بالابتهاج الكاسح، وكأن موجة من النشوة العمياء ضربت عقلها وجسدها. أصبحت الأشكال أوضح وأكثر تحديدًا، الأضواء والألوان اخترقت عينيها وكأنها سهام حارقة، الروائح أصبحت أكثر نفاذًا وأقوى تأثيرًا، الأصوات ترددت في أذنيها كهدير لا يُحتمل. كل شيء بدا كأنه حلم، عابر وغير حقيقي، كأنها محاصرة داخل كابوس هائج لا يمكن السيطرة عليه.

رأت السلالم... النسيج الجداري المغبر ذي الرائحة الكريهة... ضحكات الماركيزة دي-نيمنث أويفار الصاخبة تتردد حولها. رأت الفناء... قطرات المطر السريعة ترتطم بوجهها... السحب العنيف على الطوق الذي لا يزال يلتف حول رقبتها.

ثم ظهر أمامها مبنى ضخم، ببرج خشبي، ولوحة أمامية ضخمة، فجة، ومزعجة الألوان. اللوحة كانت تُظهر كلبًا ينهش وحشًا تنينًا، غريفون، أو ربما وِيفِرن.

أمام المدخل، كان هناك حشد من الناس ينتظرون بفارغ الصبر. من بينهم، كان رجل واحد يصرخ ويلوح بذراعيه بغضب:

"هذا مقزز! مقزز وخطيئة، يا سيد هوفيناغل! استخدام معبد سابق في مثل هذه الأعمال اللاأخلاقية، غير الإنسانية، والمنحطة! حتى الحيوانات تشعر، يا سيد هوفيناغل! حتى لها كرامتها! إجبارها على القتال من أجل المال ومتعة الحشود هو جريمة!"

ضحك هوفيناغل بسخرية، ثم رد ببرود:

"اهدأ، أيها الرجل التقي! ولا تتدخل في مشروع خاص! ثم على أي حال، لن يكون هناك أي قتال بين الحيوانات اليوم. لن يكون هناك حيوان واحد في الحلبة!"

تراجع الرجل بخضوع غير متوقع، ثم قال وهو يهز رأسه:

"حسنًا إذن... تقبل اعتذاري."

بداخل المبنى، كان المكان يعج بالناس، يجلسون على مقاعد خشبية مصفوفة في شكل مسرحي نصف دائري، يطلون على ساحة منخفضة محفورة في الأرض. كانت الساحة دائرية، قطرها حوالي ثلاثين قدمًا، محاطة بجدران خشنة مدعمة بعوارض ثقيلة، وتحيط بها درابزينات منخفضة.

كانت الرائحة كريهة، ممتزجة برائحة العرق والدم والنبيذ المسكوب. الضوضاء كانت تصم الآذان، خليط من الضحكات، الصراخ، وصفقات الرهان.

ثم جاء السحب على الطوق مرة أخرى، وهذه المرة، شعرت بيدين قويتين تمسكانها من تحت إبطيها، قبل أن يندفع شخص ما ويدفعها بعنف.

فجأة، وجدت نفسها تسقط... تهوي مباشرة إلى أسفل الحفرة، حيث اصطدمت بالرمل البارد القاسي.

انتهى أثر الصدمة الأولى للمخدر، والآن لم يعد سوى يرفع معنوياتها ويشحذ حواسها.

وضعت سيري يديها على أذنيها، فالجمهور الهائج المتزاحم على مقاعد المسرح النصف دائري كان يصرخ، يصفر، ويفقد صوابه. كان الضجيج لا يُحتمل.

شعرت فجأة بوجود درع جلدي ثقيل مشدود بإحكام حول معصمها الأيمن وساعدها، يمنحها بعض الحماية. لم تستطع تذكر متى تم وضعه عليها.

رفعت رأسها، ورأت الشخصيات المألوفة تتجمع في المقصورة العالية المطلة على الساحة. الماركيزة النحيلة، بفستانها الفستقي، نقيب نيلفجارد، العمدة ذو الألوان الباستيلية، هوفيناغل يضحك، وبونهارت يقف هناك، مهيبًا كطيف قاتم.

أزاحت يديها عن أذنيها عندما دوّى صوت ضربة معدنية مفاجئة—أحدهم ضرب جرسًا نحاسيًا ثقيلًا.

"انظروا، أيها الناس! اليوم، في الساحة، ليس لدينا ذئب، ولا عفريت، ولا إندريغا! اليوم، في الساحة، لدينا القاتلة فالكا من عصابة الجرذان!"

"المراهنات تُقبل عند الشباك قرب المدخل! لا تبخلوا بقطع النقود، أيها السادة!"

"هذه هي أفضل وسيلة للترفيه لا يمكنكم أكلها أو شربها—من يدخر ماله هنا فهو الخاسر الوحيد!"

تعالى هدير الحشود، تصفيقهم وتصفيحاتهم ملأت الأجواء.

كانت آثار المخدر في ذروتها، سيري شعرت بارتعاشة النشوة، وحواسها التقطت كل شيء—كل تفصيل صغير.

سمعت ضحكات هوفيناغل الجهورية، قهقهة الماركيزة المتسكعة، صوت بونهارت العميق الجليدي، صراخ الكاهن الذي كان يدافع عن الحيوانات، عويل النساء، وبكاء الأطفال.

رأت بقع الدم الداكنة التي لطخت العوارض الخشبية المحيطة بالساحة، ورأت الفتحة المظلمة، المليئة بالقضبان، تفوح منها رائحة نتنة.

رأت وجوه الجمهور فوق الدرابزين متلألئة بالعرق، مشوهة بالوحشية، متعطشة للدماء.

حركة مفاجئة، أصوات مرتفعة، لعنات تتطاير.

اندفعت الأسلحة بين الحشود، لكنها توقفت فجأة، مصطدمة بجدار من الحراس المسلحين بالحِراب.

رأت سيري أحد هؤلاء الرجال من قبل—تذكرت وجهه الأسمر وخط شاربه الأسود، الذي بدا كما لو أنه رسم بخط فحم على شفته العليا المرتعشة بتوتر.

"السيد ويندسور إمبرا؟" جاء صوت هوفيناغل متهكمًا. "من جيسو؟ وكيل البارون كاساداي النبيل؟ مرحبًا، مرحبًا بضيوفنا الأجانب. اجلسوا فورًا، العرض سيبدأ قريبًا. لكن لا تنسوا دفع الرسوم عند الباب!"

قال إمبرا بصوت حاد: "لم آتِ هنا للترفيه، هوفيناغل! أنا هنا في مهمة رسمية! بونهارت يعرف جيدًا ما أعنيه!"

رفع هوفيناغل حاجبه بابتسامة ساخرة: "حقًا؟ ليو، هل تعرف عن ماذا يتحدث السيد الوكيل؟"

صرخ إمبرا بانفعال: "لا مزاح! معي خمسة عشر رجلًا! نريد فالكا! سلموها لنا، وإلا فستكون هناك مشكلة!"

قطّب هوفيناغل جبينه، وقال بصوت منخفض لكنه محذّر: "لا أفهم سبب انزعاجك الشديد، إمبرا. لكن دعني أوضح لك أمرًا: هذا المكان ليس جيسو، وليس تحت حكم البارون كاساداي. إذا استمريت في الصراخ وإثارة المتاعب، فسأطردك من هنا بالسياط."

تراجع إمبرا قليلًا، لكنه ظل متصلبًا، وقال بحدة: "لا أقصد الإهانة، هوفيناغل! لكن القانون إلى جانبنا! بونهارت وعد البارون كاساداي بتسليم فالكا إليه! لقد أعطى كلمته! ودعونا نرى ما تعنيه الالتزامات والوعود!"

استدار هوفيناغل إلى بونهارت وهزّ خديه ببطء. "ليو؟ هل لديك ما تقوله عن هذا؟"

نهض بونهارت ببطء من مقعده، ولوّح بيده بإيماءة متهاونة، وقال ببرود: "أنا لا أعارض ذلك، ولا أقدم أي اعتراض. الفتاة هناك، ترونها جميعًا. من أرادها، فليأخذها."

اتسعت عينا ويندسور إمبرا بدهشة، وبدأت شفته العلوية في الارتعاش بعصبية. "كيف؟"

كرر بونهارت بصوت بارد، وهو يغمز لـ هوفيناغل: "الفتاة هناك، لكل من يريد إخراجها من الحلبة. ميتة أو حية، كما يحلو لكم."

"ماذا؟!"

"اللعنة، إنني أفقد صبري تدريجيًا!" صرخ بونهارت بغضب زائف.

"كيف؟ مثل ماذا؟ لا شيء يشبه شيئًا! أيها العازف الملعون! كيف؟ كما يحلو لك! إذا كان ذلك يناسبك، قم برمي قطعة لحم مسمومة لها كما تفعل مع ذئب. لكنني لا أعرف إن كانت ستأكله. إنها لا تبدو غبية، أليس كذلك؟ لا، إمبرا. من يريدها، فعليه أن يبذل الجهد بنفسه. هناك، في الساحة. هل تريد فالكا؟ خذها!"

زمجر ويندسور إمبرا بغضب: "أتظن أنك تستطيع أن تلوّح بهذه الفتاة أمام وجهيكما يُعلَّق الضفدع على الخطاف للإيقاع بسمك السلور؟ أنا لا أثق بك، بونهارت. أنا أشتم رائحة الخداع وأشعر أن هناك خطاف معدني في الطعم الذي ألقيته لي!"

"يمكنك أن تكون ممتناً لهذا الطعم وهذا الخطاف الحديدي." قال بونهارت ببرود، وهو ينهض ويسحب السيف الذي حصل عليه من فانو من تحت مقعده. استلّه من غمده ورماه داخل الساحة بمهارة، فانغرس نصله بشكل عمودي في الرمل، على بعد خطوتين فقط من سيري.

قال ببرود، وهو يترك صدى كلماته يتردد في الهواء: "لأنه لولا ذلك، لما كان هناك خطاف معدني. إنه واضح تمامًا، ليس مخفيًا. فأنا لا أضع أي قيمة لهذه الفتاة، من أرادها فعليه أن يأخذها، ليأخذها إذا استطاع."

أطلقت الماركيزة دي-نيمنث أويفار ضحكة عصبية، وقالت بصوتها الأجش المترنح بسبب السُكْر: "إذا استطاع." ثم تابعت بلهجة مشوبة بالافتتان القذر: "لأن الآن، ذلك الجسد الصغير الجميل يحمل سيفًا. برافو، سيد بونهارت. لم تعجبني فكرة أن هؤلاء الأوباش سيتهافتون على التهام جسدها العاجز."

وقف ويندسور إمبرا، واضعًا يديه على خصره، دون أن يلقي حتى نظرة على الأرستقراطية النحيلة التي كانت تنظر إليه بإعجاب خفي. "السيد هوفيناغل، هذا العرض يجري تحت إشرافك، لأن الساحة ملك لك. أخبرني، أي القواعد سنتبع هنا؟ قواعدك أنت، أم قواعد بونهارت؟"

"قواعد الضحك والهتاف في الساحة." أجاب هوفيناغل، بينما ارتجف بطنه وفكه المترهل مثل كلب ضخم. "لأنه رغم أن الساحة ملكي، فإن ملكنا الحقيقي هو الزبون الذي يدفع، الذي يمول هذا العرض! الزبون هو من يضع القواعد. ونحن، التجار، يجب أن نلتزم بها: ما يريده الزبون، يجب أن يحصل عليه."

أشار ويندسور إمبرا بحركة واسعة إلى المقاعد الممتلئة بالحضور: "الزبون؟ تقصد هؤلاء الناس؟ كل هؤلاء الأشخاص قد جاؤوا ودفعوا المال لرؤية هذا العرض؟"

قال هوفيناغل ببرود: "الأعمال هي الأعمال، إذا كان هناك طلب على شيء، فلماذا لا نبيعه؟ الناس يدفعون لمشاهدة معركة بين الذئاب؟ ومبارزات بين إندريغا وأيردفارك؟ كلاب تطارد الأرانب في الحقول؟ لماذا تستغرب، إمبرا؟ الناس يريدون الألعاب والعروض تمامًا كما يريدون الخبز اليومي—وربما أكثر. الكثير ممن جاؤوا هنا اليوم قد اقتطعوا من قوتهم لشراء تذكرة. لكن انظر إلى أعينهم... إنها تلمع بالحماس. إنهم لا يستطيعون الانتظار لرؤية كيف سيبدأ العرض."

لكن رغم كل ذلك،" أضاف بونهارت بابتسامة لئيمة، "يجب الحفاظ على شيء من الروح الرياضية، ولو شكليًا. والآن الفتاة تحمل نصلًا. ما رأيكم، أيها الناس الطيبون؟ أليس كذلك؟"

أكد "الناس الطيبون" بصخب، رغم ارتباكهم، لكنهم فعلوا ذلك بحماسة وفرح، كما توقع بونهارت تمامًا.

قال ويندسور إمبرا ببطء، وهو يحدق في هوفيناغل: "البارون كاساداي لن يعجبه هذا، يا هوفيناغل. أؤكد لك، لن يسره ذلك. لا أدري إن كان من الحكمة أن نحاول القبض عليها وهي مسلحة."

كرر هوفيناغل وهو يهز فكّه المتدلّي: "الأعمال هي الأعمال والبارون كاساداي يدرك هذا جيدًا، لقد استدان مني الكثير من المال بفوائد منخفضة، وعندما يأتي ليستدين مرة أخرى، سنجد طريقة لحل خلافاتنا. لكن لن يتدخل أي بارون أجنبي في مشاريعي الخاصة وشؤوني التجارية المستقلة. الرهانات قد وُضعت، والتذاكر قد بيعت. لا بد أن يتسرب الدم إلى هذا الرمل، هنا في هذه الساحة."

صرخ ويندسور إمبرا غاضبًا: "لا بد؟! يا له من هراء! لا بد من لا شيء! كنت لأريك كيف أن الدم لن يُسفك هنا في ساحتك! أستطيع بكل بساطة أن أستدير وأغادر دون أن ألتفت إليك حتى. عندها يمكنك أنت أن تنزف دمك هنا! فكرة أنني سأعمل لإمتاع هذه الحثالة تجعلني أشعر بالغثيان!"

قال فجأة أحد الرجال في الحشد: "دعه يرحل. كان رجلاً ضخم الجثة يرتدي سترة مصنوعة من جلد الحصان. "دعه يرحل إذا كان يشعر بالغثيان. لن يزعجني ذلك. فقد قيل إن من يحصل على الجرذ، يحصل على المكافأة. سأدخل إلى الساحة."

صرخ أحد رجال إمبرا، رجل ليس ضخمًا، لكنه متين البنية بشكل واضح، وكانت خصلات شعره كثيفة، متشابكة، متجمعة في ضفائر خشنة: "لا! هذا غير وارد! لقد كنا هنا أولًا! أليس كذلك، أيها الفتيان؟"

وافقه رجل آخر من رجال إمبرا، كان نحيفًا بلحية صغيرة مدببة: "بالطبع كنا هنا أولًا! لدينا الأولوية! ثم لا تكن حساسًا بشأن سمعتك يا ويندسور! الحثالة تراقب، فليكن! فالكا في الساحة، وكل ما علينا فعله هو مدّ أيدينا وأخذها. فما المشكلة لو رمقنا الغوغاء بعيونهم الجاحظة؟ نحن لا نهتم!"

"وماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟!" صرخ رجل ثالث كان يرتدي صدرة بلون مزيج بين الأحمر والوردي. "يجب أن يكون الأمر رياضيًا، أليس كذلك، يا سيد هوفيناغل؟ هذه هي الساحة المناسبة للعرض إذًا! وكان هناك حديث عن مكافأة!"

ابتسم هوفيناغل ابتسامة واسعة، وأومأ برأسه مؤكدًا، بفخر وهيبة، بينما تهتز وجنتاه المتدليتان.

سأل ذو اللحية المدببة: "وما هي الاحتمالات؟".

ابتسم هوفيناغل وهو يرد بصوت مرح: "في الوقت الحالي، لم يتم تحديد نسب الرهانات بناءً على نتيجة القتال! حتى الآن، النسبة هي ثلاثة إلى واحد على أن لا أحد منكم سيتجرأ على دخول الساحة."

زأر ذو السترة الجلدية: "فووووه! أنا أراهن على ذلك! أنا مستعد!"

صاح ذو الضفائر المتشابكة بغضب: "اغرب عن وجهي! لقد كنا هنا أولًا، ولدينا الأحقية في المحاولة الأولى. هيا، لماذا ننتظر؟"

تساءل ذو السترة وهو يعدّل حزامه: "كم عدد من يمكننا إدخاله إلى الساحة؟ أم أننا سنتناوب؟"

صاح فجأة العمدة بصوت قوي يشبه زئير الثور، لم يتناسب إطلاقًا مع جسده النحيل: "أوه، أيها الأوغاد! ربما تريدون دخول الساحة عشرة ضد واحد؟ ربما تودون امتطاء الخيول أيضًا؟ أو ربما تفضلون دخولها بعربة حربية؟ أو ماذا عن زيارة مخزن الأسلحة وسؤالهم إن كان بإمكانكم استعارة منجنيق لتلقوا الصخور على الفتاة من مسافة آمنة؟ هاه؟"

قاطع بونهارت بعد أن تشاور سريعًا مع هوفيناغل: "حسنًا، حسنًا، يجب أن يكون الأمر رياضيًا، لكنه يجب أن يكون ممتعًا أيضًا. يمكنكم التنافس على شكل أزواج. أي اثنان معًا."

حذر هوفيناغل: "لكن المكافأة لن تتضاعف! إذا كنتم في زوج، عليكم أن تتشاركوها."

قذف ذو الضفائر شعره عن كتفيه بحركة عنيفة: "لماذا على شكل أزواج؟ لماذا اثنان؟ ألا تخجلون يا رجال؟ إنها مجرد فتاة! تبًا لكم! تنحوا جانبًا. سأدخل إلى الساحة وحدي. ماذا تريدونني أن أفعل بها؟"

احتج ويندسور إمبرا، وضرب بقبضته على درابزين المنصة: "أريد فالكا حية! إلى الجحيم مع معارككم ومبارزاتكم! لا يهمني عرض بونهارت! أريد تلك الفتاة! حية! ستدخلون اثنين معًا، أنت وستافرو. وأخرجوا لي الفتاة من هناك."

قال ستافرو، الرجل ذو اللحية المدببة: "بالنسبة لي، إنه أمر مهين أن أواجه كائنًا نحيلًا كهذا مع شخص آخر بجانبي."

رد إمبرا :"سيعوضك البارون عن هذه الإهانة بفلورن."

ثم أضاف ببرود: "ولكن فقط إذا أحضرتموها حية!"

ضحك هوفيناغل بصخب، وارتجف بطنه وفكه المتهدل مثل كلب بولدوغ مترهل: "إذًا، البارون بخيل. ليس لديه روح رياضية ولا يقدم مكافأة تستحق العناء! أما أنا، فأدعم الرياضة. ولذلك، أرفع المكافأة.

لأي شخص يدخل إلى الساحة بمفرده ويخرج منها على قدميه، سأدفع له، بيدي هذه، ومن هذه الحقيبة هنا، ليس عشرين، بل ثلاثين فلورنًا."

صرخ ستافرو: "لماذا ننتظر؟! أنا أول الداخلين!"

صاح العمدة الصغير مرة أخرى بصوته العميق المفاجئ: "تمهل! الفتاة ترتدي قطعة قماش رقيقة فقط على ظهرها! إذًا، عليك أن تخلع درعك الجلدي أيضًا، أيها الجندي. هذا هو العدل الرياضي!"

"اذهبوا إلى الجحيم جميعًا!"

رمى ستافرو سترته المغطاة بالمسامير الحديدية، ثم شد قميصه وخلعه من فوق رأسه وكتفيه. أصبح الآن عاري الصدر، نحيف الجسد، ومغطى بشعر كثيف. "اذهبوا إلى الجحيم، أنتم ورياضتكم القذرة! حسنًا، سأدخل بجسدي العاري! أوه! هل تريدونني أن أخلع سروالي أيضًا؟"

"انزع السروال!" صاحت الماركيزة دي-نيمنث أويفار بصوت ملتوٍ مغرٍ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مريبة.

"عندها سنرى إن كنت رجلًا بأكثر من مجرد لسان طويل!"

تعالت أصوات الضحك والتصفيق من الحشد، بينما تقدم ستافرو نحو الساحة، ورمى ساقه الأولى فوق الحاجز، موجهًا عينيه نحو سيري بحذر.

شبكت سيري ذراعيها على صدرها، لم تتحرك حتى، لم تخطُ باتجاه السيف المنغرس في الرمال.

تردد ستافرو للحظة.

قالت سيري بصوت هادئ بالكاد يُسمع: "لا تفعلها. لا تجبرني... لن تلمسني."

قفز ستافرو إلى داخل الساحة: "لا تأخذي الأمر بشكل شخصي، يا صغيرة." وأضاف: "ليس لدي شيء ضدك. لكن الأعمال هي الأعمال..."

توقفت كلماته في حلقه، لأن سيري كانت قد انطلقت نحوه بالفعل، كانت تمسك بالسيف—زيريل، كما أسمته في ذهنها.

نفذت سيري حيلة بسيطة، يكاد يكون من المستحيل أن تنجح دائمًا، تُسمى "ثلاث خطوات صغيرة"—لكن ستافرو وقع في الفخ.

تراجع بخطوة إلى الوراء، رفع سيفه بشكل غريزي للدفاع، ولكن بالفعل كان قد انتهى أمره—التصق ظهره بالحاجز، وتعلقت عيناه مرتعبتين بطرف زيريل، الذي لم يكن يبعد سوى بوصة واحدة عن أنفه.

شرح بونهارت للماركيزة، متجاهلًا صرخات الجمهور وهتافاتهم: "هذه الخدعة، تُسمى ثلاث خطوات صغيرة، تظاهر، ثم سقوط. حركة رخيصة، كنت أتوقع من الفتاة شيئًا أكثر تعقيدًا. لكن عليكِ أن تعترفي—لو أرادت، لما بقي هذا الرجل حيًا."

"اقتلوه! اقتلوه!" صرخ الحشد، وهم يلوحون بأيديهم نحو العمدة وهوفيناغل بإبهام موجه إلى الأسفل.

تلاشى لون الدم من وجه ستافرو، مما جعل البثور والقروح البشعة على خديه تبدو أكثر وضوحًا.

"قلت لك ألا تجبرني." همست سيري، عيناها تضيقان بحدة. "لا أريد أن أقتلك! لكنك لن تلمسني. عد من حيث أتيت."

تراجعت خطوة للخلف، استدارت، خفضت سيفها، ثم رفعت رأسها ونظرت نحو المنصة.

"أتتلاعبون بي؟" صاحت بصوت مكسور. "تريدون إجباري على القتال؟ على القتل؟ أنتم لا تجبرونني. لن أقاتل!"

"هل سمعت، إمبرا؟" تردد صوت بونهارت الساخر في الصمت الذي عمّ الساحة. "ربح صافٍ! ولا يوجد أي خطر! إنها لن تقاتل. يمكنك الدخول، أخذها من الساحة حية، وتسليمها إلى البارون كاساداي، فيكون سعيدًا بك. تستطيع أخذها بلا خطر! بيديك العاريتين!"

بصق ويندسور إمبرا على الأرض.

في الزاوية، حيث كان ستافرو لا يزال ملتصقًا بالقضبان، كان يتنفس بصعوبة، وأصابعه تقبض على سيفه بجنون.

ابتسم بونهارت بخبث. "لكن، إمبرا، أراهنك بالماس مقابل المكسرات، أنك لن تحقق مرادك."

زفر ستافرو بقوة. بدا وكأن الفتاة التي وقفت أمامه، ظهرها نحوه، كانت شاردة، مشتتة.

زمجر بغضب، بإحساس غامر بالخزي والكراهية. لم يستطع تحمل ذلك. هجم بسرعة وغدر.

لم يرَ الجمهور كيف تفادت الضربة وردّت. بدا المشهد وكأن ستافرو اندفع نحو فالكا، ثم قفز فجأة في الهواء مثل راقص باليه—بل إنه أدى نوعًا من القفزة الخفيفة قبل أن يهوي على الرمل، الذي امتلأ فورًا بدمه.

"الغرائز ستنتصر!" صرخ بونهارت وسط صخب الجماهير. "ردود الفعل تعمل! ماذا قلت لك يا هوفيناغل؟ سترى أن كلاب الصيد لن تكون ضرورية!"

"يا لها من دراما جميلة ومربحة." قال هوفيناغل بنشوة، وعيناه تلمعان بالإثارة.

رفع ستافرو نفسه على ذراعيه، مرتجفًا من شدة الألم، وهز رأسه بعنف يمنة ويسرة، صرخ، لهث، بصق الدم، ثم هوى مجددًا على الرمال.

"ما هذه الضربة، يا سيد بونهارت؟" همست الماركيزة دي-نيمنث أويفار بصوتها الأجش، بينما كانت تفرك ركبتيها بشهوة ظاهرة.

"كانت ارتجالًا." انفرجت شفتا بونهارت عن أسنان لامعة وهو يجيب. "ارتجالًا جميلًا، مبدعًا، بل يمكن القول إنه ضربة غريزية تقريبًا. سمعت عن مكانٍ يُدرّسون فيه مثل هذه الضربات الارتجالية في البطن. أراهن أن شابتنا هذه تعرف ذلك المكان. أعرف من تكون."

"لا تجبروني!" صرخت سيري بصوت شاحب كالشبح. "لن أفعل! هل تسمعونني؟ لن أفعل!"

"هذه الفتاة آتية من الجحيم!" صاح الأمارانثي وهو يقفز بمهارة فوق الحاجز، ثم بدأ بالدوران حول الساحة، محاولًا تشتيت انتباه سيري حتى لا تلاحظ ذو الضفائر الذي كان يقفز بدوره إلى الحلبة.

قفز ذو السترة الجلدية عبر الحاجز بعد ذو الضفائر مباشرة.

"لعب غير عادل!" صرخ العمدة بينيكويك بصوت غاضب، وردد الجمهور هتافه. "ثلاثة ضد واحد! لعب غير عادل!"

ابتسم بونهارت ببرود. الماركيزة لعقت شفتيها، وبدأت تحرك ساقيها بعنف أكبر، مستمتعة بالإثارة المتزايدة.

كانت خطة الثلاثة واضحة وبسيطة إجبار الفتاة الصغيرة على التراجع حتى تصطدم بالحاجز، ثم يقوم اثنان بحصارها بينما يوجه الثالث الضربة القاتلة.

لكن الخطة فشلت لسبب بسيط جدًا فالفتاة لم تتراجع بل هاجمت.

نزلقت سيري بين خصومها في دوران رشيق، كراقصة تؤدي بيرويه سلسة، بالكاد لامست قدماها الرمال. في لحظة خاطفة، ضربت ذو الضفائر أثناء مرورها، فسقط مباشرة في مكانه. كانت الضربة عند الشريان السباتي، خفيفة لدرجة أنها لم تكسر إيقاع حركتها، وأناقة أدائها وسرعتها جعلتا الدوران المضاد يكتمل قبل أن تتناثر أول قطرة دم من عنقه الذي امتد فجأة بفعل الجرح.

الأمارانثي، الذي كان خلفها، حاول أن يضربها في العنق، لكن ضربته الغادرة ارتدت على الجزء الخلفي من السيف المنحني. استدارت سيري، انطلقت، ووجهت ضربة بكلتا يديها، مع حركة حادة للورك تعزز قوتها. كانت النصل القزمية الداكنة حادة كحد شفرة، ومزقت بطن الأمارانثي الذي أصدر صوتًا هسهسًا مشؤومًا بينما الهواء انطلق من جرحه المفتوح. عوى وسقط يتلوى في الرمال.

ذو السترة الجلدية اندفع نحوها، قفز محاولًا قطع حلقها. لكنها سقطت، لكن بسقوط محسوب. استدارت بسلاسة وضربته بقطع سريع في منتصف شفرة السيف، فشقت وجهه—عينه، أنفه، فمه، وذقنه في خط واحد.

زمجر الجمهور، أطلقوا الصفارات، دقوا الأرض بأقدامهم، وصاحوا في نشوة. الماركيزة دي-نيمنث أويفار وضعت كلتا يديها بين ساقيها المشدودتين، لعقت شفتيها اللامعتين، وضحكت ضحكة متوترة ذات نغمة أجشّة. كان قائد الاحتياط النيلفجاردي شاحبًا كصفحة رق قديمة. كانت امرأة تحاول تغطية عيني طفلها بكفيها—بينما كان الصغير يكافح ليتحرر. رجل مسن ذو شعر رمادي في الصف الأمامي تقيأ بعنف، رأسه منحنٍ بين ركبتيه.

ذو السترة الجلدية شهق، واضعًا يديه على وجهه، حيث كان الدم يخرج من بين أصابعه مختلطًا بالمخاط واللعاب. الأمارانثي كان يتلوى على الرمال، يطلق صرخات مثل خنزير مذبوح. أما ذو الضفائر، فكان يحاول التمسك بالحواجز، متشبثًا بالقضبان المنزلقة تحت أصابعه بفعل الدماء التي كانت تتدفق من عنقه مع كل نبضة من قلبه.

"أنقذوووني!" عوى الأمارانثي، وهو يحاول يائسًا أن يحفظ أحشاءه المنتفخة من التدلي أكثر. "يارفاق! ساعدووني!"

"أرجو... أرجووووكم... أرجووكم..." شهق ذو السترة الجلدية، قبل أن يبصق دمًا ويفقد توازنه.

"اقتليهم! اقتليهم!" بدأ الحشد يهتف بإيقاع متصاعد، يضربون الأرض بأقدامهم في تناغم وحشي.

الرجل العجوز، الذي تقيأ قبل لحظات، دفع نفسه بعيدًا عن مقعده وركل الحاجز الحديدي بقوة.

"'أحجار كريمة مقابل حثالة!' انطلق صوت بونهارت الساخر وسط الضجيج، 'ألا يوجد أحدٌ يجرؤ على دخول الساحة بعد الآن. أحجار كريمة مقابل حثالة يا إمبرا! بل أحجارٌ مقابل حثالةٍ ميته!'

'اِقْتُليهُمْ!' هتافاتٌ تصدح، دويُّ أقدامٍ تصفق، 'اِقْتُليهُمْ!'

صاح ويندسور إمبرا موجهاً رجاله: "آنستي!، دعينا ننقل الجرحى! أدخلوا الساحة وأنقذوهم قبل أن ينزفوا حتى الموت! كوني نبيلة يا سيدتي!'

'نبيلة!' همست سيري بينما شعرت باندفاع الأدرينالين في عروقها. كتمته بنفثٍ سريعٍ كما تعلمت. "ادخلوا وأخذوهم" قالت، "لكن بلا أسلحة. أنتم أيضًا بشر... على الأقل هذه المرة."

'لا!' زأر الجمهور، 'أقتليهم! أقتليهم!'

التفتت سيري محدقةً في المدرجات: "أيها الوحوش النتنة! أيها الخنازير الجاحدة! أيها الأوغاد! أيها اللقطاء الجربى! تشتهون الدم؟ هلموا إلى الساحة ذوقوه واشتموه! والعقوه قبل أن يجف! وحوش! مصاصو دماء!'

أخذت الماركيزة تئن، ترتجف، تلفظ عينيها إلى الخلف، وتتمايل على بونهارت بينما تمسك بفخذيها. عبس الأخير ودفعها بعيدًا محاولاً إخفاء اشمئزازه. صاح الجمهور، رُميت نقانق نصف مأكولة في الساحة، ثم حذاءٌ متسخ، ثم حتى خيارةٌ طارت نحو سيري. قطعت الأخيرة الخيارة إلى نصفين بسيفها، فتصاعدت الهتافات أكثر.

بينما كان ويندسور إمبرا ورجاله يحملون أمارانث وهورسهايد، أخذ الجريح الأول يصرخ بينما فقد الثاني الوعي. أما دريدلوكس وستافرو فلم تظهر عليهما أي علامة حياة. تراجعت سيري إلى أبعد نقطة في الساحة، بينما سعى رجال إمبرا إلى الحفاظ على مسافة آمنة منها."

وقف ويندسور إمبرا بلا حراك، ناظرًا إلى سيري من تحت جفونه المنخفضة، لكن يده كانت تستقر على مقبض السيف الذي وعد بعدم سحبه عند دخوله إلى الساحة.

حركت سيري شفتيها بالكاد، قائلة بصوت بالكاد يُسمع: "لا، لا تفعل. لا أريد ذلك. أرجوك."

كان إمبرا شاحبًا. على المدرجات، علت دقات الأقدام، الزئير، والصيحات.

هتف بونهارت بصوته الجهوري، قاطعًا الضجيج: "لا تستمع لها! اسحب سيفك! وإلا فدَعِ العالم كله يرى أنك جبان، أنك مجرد فار من ساحة المعركة، أنك مجرد كلب ينبح ولا يعض! من ألبا إلى الياروغا، سيسمع الناس أن ويندسور إمبرا قد هرب من فتاة قاصرة—ككلب يطأطئ ذيله بين ساقيه!"

انزلقت شفرة إمبرا إنشًا خارج غمدها.

قالت سيري بنبرة ثابتة: "لا."

عادت الشفرة إلى موضعها.

"جباااان!" صرخ أحدهم من بين الجماهير. "جبان! خائف كالدجاج!"

بوجه حجري، تقدم إمبرا نحو حافة الساحة. تحته، امتدت الأيدي التي حاولت مهاجمة سيري في وقت سابق. استدار ليلقي عليها نظرة أخيرة.

قال بصوت خافت، لكن كلماته اخترقت الهواء البارد كسكين: "أنتِ تعرفين بالفعل ما ينتظرك، أليس كذلك، أيتها الفتاة؟ أنتِ تعرفين بالفعل من هو ليو بونهارت. تعرفين بالفعل ما هو قادر عليه. ما الذي يثيره. سيأتي آخرون ليواجهوكِ في الساحة. ستقتلين من أجل متعة هؤلاء الخنازير، من أجل ترفيه هؤلاء السفلة الذين يجلسون هنا، ومن هم أسوأ منهم."

استمر صوته محايدًا، لكن نبرته حملت نذير سوء:

"وحين يفقدون اهتمامهم بقتلِكِ، أو حين يمل بونهارت من العنف الذي ترتكبينه، سيقتلكِ بنفسه. سيرسلكِ إلى الحلبة مع عدد لا يمكنكِ مواجهته وحدكِ. سيطلق عليكِ كلابه، ستنهشكِ وتقطّعكِ إربًا، سيشتم الجمهور رائحة الدم، وسيرفعون أصواتهم بالهتاف، بينما أنتِ تنزفين على الرمال المتسخة. تمامًا كما فعلتِ بهؤلاء اليوم. فكّري بكلامي."

عندها فقط، رأت سيري الدبوس الصغير الذي يزين طوق معطفه المزيّن بالمينا. وحيد القرن الفضي مقلوبًا، داخل مربع أسود.

وحيد القرن.

خفضت سيري رأسها، نظرت إلى شفرة السيف اللامعة في يدها.

فجأة، عمّ صمت غريب.

صاح فجأة ديكلان روس أپ مالكلاد، "بشمس الإمبراطورية العظيمة!" كان قائد الاحتياط النيلفجاردي قد لزم الصمت حتى الآن، لكنه الآن صرخ بصوت مرتجف: "لا. لا تفعلي ذلك، أيتها الفتاة. Ne tuv’en que’ss, Luned!"

سيري ابتلعت ريقها ببطء، ثم أدارت يدها حول المقبض، وأراحت قبضتها على الرمال. انثنت ركبتيها، ووضعت راحة يدها اليمنى على حدّ السيف، موجهة سنّه بدقة إلى أسفل عظم صدرها الأيسر. انغرست الشفرة قليلًا في قماش ملابسها.

فقط لا تبدأي بالبكاء، فكرت سيري وهي تضغط بقوة على السيف. فقط لا تبكي، لا يوجد شيء يستحق البكاء، لا شيء أريده أو أحتاجه لأجل البكاء.

حركة عنيفة واحدة، وينتهي كل شيء...

كسر بونهارت الصمت المثالي بصوته القاسي: "لن تستطيعي فعلها."

تابع بصوت بارد كالجليد، "لن تستطيعي فعلها، أيتها الساحرة الصيادة. في كاير مورهن، علّموكِ القتل، درّبوكِ لتقتلي مثل آلة، بلا تفكير، بلا تردد. أن تقتلي نفسك يتطلب شيئًا آخر... يتطلب شخصية، قوة، عزيمة، شجاعة. لكن هذا... هذا لم يعلموكِ إياه."

* * *

اعترفت سيري بصعوبة، قائلة: "كما ترى، لقد كان على حق. لم أستطع فعلها."

التزم فايسوغوتا الصمت، ممسكًا بفراء فأر المسك، بلا حراك. ظلّ جالسًا على هذا النحو لفترة طويلة، حتى كاد ينسى أن الفراء كان بين يديه.

تابعت سيري بصوت مختنق، "لقد خفت. كنت جبانة. ودفعت الثمن، كما يدفعه أي جبان. بالألم، بالخزي، بالخضوع المقرف... وبكراهية رهيبة للذات..."

ظل فيسجوتا صامتًا.

* * *

لو أن أحدًا تمكن من التسلل ليلًا إلى الكوخ ذي السقف المتهالك والمغطى بالقش المتداعي، ولو أنه تجسس عبر شق في المصاريع الخشبية، لرأى في الداخل المعتم ضوءًا خافتًا يكشف عن شيخ رمادي اللحية وفتاة شقراء بلون الرماد يجلسان بجوار الموقد.

كانا كلاهما صامتين، يحدقان في الجمر المتوهج بلون الياقوت الأحمر.

لكن لم يكن هناك أحد ليرى ذلك. كان الكوخ ذو السقف المغطى بالطحالب مخفيًا جيدًا وسط الضباب والضوء الخافت، محاطًا ببحر لا نهائي من القصب في مستنقعات *بيريبلوت*، حيث لا يجرؤ أحد على الدخول.

"مَنْ سَفَكَ دَمَ ٱلْإِنْسَانِ، بِٱلْإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ".

الكتاب المقدس، سفر التكوين ٩:٦

"كَثِيرُونَ مِمَّنْ يَعِيشُونَ يَسْتَحِقُّونَ ٱلْمَوْتَ، وَبَعْضٌ مِمَّنْ يَمُوتُونَ يَسْتَحِقُّونَ ٱلْحَيَاة. أَتَقْدِرُ أَنْ تَمْنَحَهُمْ إِيَّاهَا؟ إِذًا لَا تَكُنْ مُسْرِعًا فِي نُطْقِ حُكْمِ ٱلْمَوْتِ. فَحَتَّى أَعْظَمَ ٱلْحُكَمَاءِ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ جَمِيعِ ٱلْعَوَاقِبِ".

ج.ر.ر. تولكين

"حَقًّا، يَتَطَلَّبُ كِبْرِيَاءٌ عَتِيقٌ وَعَمًى مُطْبِقٌ أَنْ يُسَمَّى ٱلدَّمُ ٱلَّذِي يَسِيلُ مِنْ مِحْرَاقِ ٱلْعُقُوبَاتِ: عَدَالَةً"!

فيسجوتا من كورفو

الفصل الخامس

‘"ماذا يريد قاتل الوحوش الويتشر في منطقتي؟’ كرر فولك أرتفيلد، حاكم ريدبرون، بلهجةٍ تفيض بالضجر من الصمت المستمر. من أين أتى هذا الويتشر؟ وما الذي يبحث عنه؟ وما الغرض’

فكر جيرالت بينما كان يحدق في وجه الحاكم المُثقب بالندوب "هكذا تنتهي متعة فعل الخير حين تلعب دور الويتشر النبيل الرحيم أمام حشدٍ من أبناء الريف المتخلفين. هكذا يقودك الشغف بالرفاهية إلى المبيت في نزلٍ لا يخلو من جواسيس. هذه عواقب السفر برفقة شاعرٍ مدمنٍ على الثرثرة. والآن أجلس في زنزانةٍ تشبه غرفةً بلا نوافذ، على كرسيٍ صلبٍ مُثبت بالأرض للاستجواب، ولا يسعني إلا ملاحظة الأصفاد والأحزمة الجلدية على ظهر الكرسي... لتقييد اليدين وتثبيت الرقبة. حتى الآن، لم تُستخدم. لكنها موجودة.

فكيف بحق الجحيم سأنجو من هذا المأزق الآن؟"

* * *

"عندما خرجوا أخيرًا من البريّة المُشبعة بالمطر بعد خمسة أيام من السفر مع مُربي النحل من أرض النهر، توقفت الأمطار – ليمزق الريح الضباب والرذاذ الرطب. اخترقت الشمس السحاب، وبرعت قمم الجبال الثلجية تحت أشعتها.

لم يمض وقت طويل منذ شعر الجميع أن نهر ياروغا كان نقطة تحول مصيرية، حدًّا فاصلًا بين مرحلةٍ وأخرى أكثر خطورة في الرحلة. لكن الشعور تصاعد الآن مع اقترابهم من حاجزٍ جديد، مكانٍ يبدو أن التراجع منه هو الخيار الوحيد. الكل شعر بذلك، خاصة جيرالت. لا مفر، فمن الفجر حتى الغسق، كانت الجبال الشاهقة المُسننة – المكسوة بالثلوج والأنهار الجليدية – تومض أمامهم جنوبًا، سادّة الطريق: جبال أميل. وفوق هذا الحزام الجبري القاسي، ارتفعت هيئة جورغون المهيبة المُهددة أو جبل الشيطان. تناطح السحاب كَنَصْلِ مسلةٍ حادة فوق خطوط جبال أميل المُسننة. لم يتحدثوا عن الأمر، لكن جيرالت علم أن الجميع يُفكرون فيه. فحين ينظر إلى جبال أميل والجورغون، يدرك أن فكرة التقدم جنوبًا هي ضرب من الجنون.

لحسن الحظ، تبين فجأة أنهم لن يحتاجوا للسفر جنوبًا بعد الآن.

جاءهم الخبر مع مُربي النحل أشعث الشعر، قائد رحلتهم عبر البريّة، الذي كانوا يحمونه منذ خمسة أيام. زوج وأب حوريات الأشجار الجميلات، الذي يبدو بجوارهن كخنزير بري بين مهور أصيلة. والكذاب الذي حاول إقناعهم بأن الدرويديين هاجروا إلى كيس الشمال.

حدث هذا بعد يوم من وصولهم إلى بلدة ريدبرون الصغيرة – وجهة مربي النحل وصيادي النهر – التي تغص بالناس كخلية نمل. حدث بعد يوم من فراقهم لمُربي النحل، الذي لم يعد بحاجة إلى الويتشر، والذي لم يتوقع جيرالت رؤيته مجددًا. لذا كانت مفاجأته أكبر بكثير."

بدأ مربي النحل بشكر جيرالت بكلام مطول، ثم سلمه كيسًا صغيرًا مملوءًا بالنقود لدفع أتعاب الويتشر. قبلها جيرالت وهو يشعر بنظرات ريجيس وكاهير الساخرة. أكثر من مرة خلال المسيرة، كان قد شكا لهما من جحود البشر، مؤكدًا كم هو عبثي وحمقاء أن يمارس الإيثار الموضوعي.

ثم أخبرهم مربي النحل المتحمس أخيرًا نبأه:

«إذن، قاطعو الهدال، أي الدرويديون، يا سيد ويتشر، يجلسون في أحراج البلوط على ضفة بحيرة لوك موندوين، الموجودة على بعد خمسة وثلاثين ميلًا غربًا من هنا».

سمع مربي النحل الخبر وهو يتاجر بالعسل والشمع مع قريبه، وهذا القريب نقله بدوره من صياد ألماس. عندما علم أن الدرويديين قريبين، أسرع ليخبرهم. والآن كان يشع بالرضا والفخر والأهمية التي يمتلكها أي كذاب عندما تثبت كذبته صحيحة بالمصادفة.

فخطط جيرالت للتوجه فورًا إلى لوك موندوين، لكن رفاقه احتجوا بعنف. جادل ريجيس وكاهير بأن عليهم استخدام النقود من مربي النحل لتجديد مؤنهم ومعداتهم في المدينة. أضافت ميلفا أن عليهم شراء بعض السهام، لأنهم يحتاجون باستمرار لصيد الطرائد، وهي لا تنوي الرمي بعصي مُسننة. أما دانديليون فأراد قضاء ليلة واحدة على الأقل في سرير بخان، حيث يمكنه الاستحمام والاستمتاع بجعة لطيفة قبل النوم.

أما الدرويديون، فقد أكد الجميع لجيرالت بأنهم لن يهربوا.

غم أنها مُجرد صدفة بحتة»، قال مصاص الدماء ريجيس بابتسامة غريبة، «فإن فريقنا قطعًا على المسار الصحيح ويتجه تمامًا نحو الاتجاه الصائب. لذا فمن الواضح أننا محتومون بلقاء الدرويديين لا محالة. وتأخير يوم أو يومين لن يغيّر من الأمر شيئًا».

وأضاف متحذلقًا: «الإسراع، مع ذلك، يوحي بأن الوقت قصير بشكل مرعب. ينبغي عادةً أن ينطوي على إشارة خطر تُلمّح إلى وجوب التمهل ومراجعة المسار بعقلانية».

لم يُجادل جيرالت أو يعترض على فلسفة مصاص الدماء، رغم أن الكوابيس التي تطارده ليلًا كانت تُذكّره بالاستعجال. حتى إنه كان عاجزًا عن تذكر محتوى تلك الأحلام بعد الاستيقاظ.

كان اليوم السابع عشر من سبتمبر، ليلة البدر. ستة أيام قبل الاعتدال الخريفي.

* * *

تولّى ميلفا وريجيس وكاهير مهمة شراء الإمدادات وتجديد المعدات، بينما خرج جيرالت وداندليليون لاستقصاء الأخبار من سكان ريدبرون.

كانت ريدبرون تقع على منعطف نهر نيوي. وإذا كنت تحتسب فقط المباني المشيدة من الطوب والخشب داخل نطاق الأسوار الترابية المتوجة بالحصون الخشبية، فستبدو كبلدة صغيرة. لكن لم يكن أكثر من عُشر السكان يعيشون في مركز المدينة، في تلك المباني المحاطة بالأسوار.

أما التسعة أعشار المتبقية، فكانوا يعيشون خارج الأسوار، وسط بحر صاخب من الأكواخ، والأكشاك، والحظائر، والخيام، والعربات، ممتدًا بلا نهاية.

قادهم سيشرون، قريب مربي النحل، وكان شابًا مستفزًا ومتعجرفًا، نموذجًا مثاليًا لصعلوك شوارع وُلد في الأزقة القذرة، وترعرع فيها، واستحمَّ بمياهها، وارتوى عطشه من قاذوراتها. كان يتحرك بسهولة في الفوضى، مثل سمكة الترويت في مجرى جبلي صافٍ، بينما كان يقودهم عبر ضجيج المدينة وحشودها وقذارتها ورائحتها النتنة.

كانت فرصة إرشاد الغرباء في مدينته البائسة تسعده، وبدون أن يطلب منه أحد، بدأ بسرد حكاياته الصعلوكية بحماسة.

قال إن ريدبرون تعد محطة رئيسية للمستوطنين النيلفجارديين الذين يتجهون شمالًا نحو الأراضي الموعودة التي منحها لهم الإمبراطور: أربع هكتارات، أي حوالي خمسين فدانًا، مع إعفاء ضريبي لمدة عشر سنوات.

وأوضح أن ريدبرون تقع عند فم وادي دول نيوي، بالقرب من ممر ثيودولا الذي يشق طريقه عبر الشمال الشرقي لسلسلة جبال أميل، بجوار ريفيرديل، المدينة المتصلة بالممالك التي خضعت منذ زمن طويل لحكم نيلفجارد: ماج تورجا، جيسو، ميتينا، وماخت.

وأكد أن ريدبرون كانت آخر مدينة يمكن للمستوطنين فيها الاعتماد على أي شيء آخر غير أنفسهم وزوجاتهم وما يحملونه في عرباتهم.

لذلك، كان أغلبهم يعسكرون خارج المدينة لفترات طويلة، يلتقطون أنفاسهم قبل خوض الرحلة الأخيرة إلى ما وراء الياروغا.

ثم أضاف، بفخر ممزوج بروح الولاء الصعلوكية، أن الكثير منهم استقروا نهائيًا في المدينة، لأن ريدبرون، أوهوه! ليست مجرد مستوطنة بائسة! بل مدينة متحضرة! وليست حفرة نتنة تفوح منها رائحة الروث!

كانت مدينة ريدبرون تفوح برائحة خانقة، مزيج من الروث، العفن، العرق، والدم.

كان جيرالت قد زار هذا المكان قبل سنوات عديدة، لكنه لم يستطع التعرف عليه الآن، فقد تغيّر كثيرًا.

في الماضي، لم يكن هناك هذا العدد الكبير من الجنود بسترهم السوداء ودروعهم المزينة بشارات فضية على أكتافهم.

في الماضي، لم يكن اللسان النيلفجاردي يُسمع في كل زاوية من المدينة.

في الماضي، لم يكن هناك هذا المحجر المريع، الذي يضج بأشخاص رثّي الثياب، قذرين، هزيلين، ومغطّين بالدماء، يقضون يومهم في تحطيم كتل الحجر الضخمة، تحت سياط الحراس بالملابس السوداء.

أوضح مرشدهم أن وجود الجنود النيلفجارديين هنا مؤقت، فهم يستريحون فقط قبل أن ينطلقوا في حملة جديدة ضد مقاتلي العصابات، المعروفين باسم "شمال كيس الحر".

أما العبيد في المحجر، فقد جُلِبوا من مناطق الحرب، حيث كان الإمبراطوريون بحاجة إلى مزيد من العمال لبناء حصن حجري ضخم بدلًا من المتراس الخشبي القديم، باستخدام الأحجار المستخرجة من المحاجر.

هؤلاء العمال كانوا أسرى حرب، جاءوا من ليريا وأيدين، ومن الأراضي التي كانت تُعرف سابقًا باسم سودين، وبروج، وأنجرين، بالإضافة إلى أسرى من تيميريا.

في ريدبرون وحدها، كان هناك حوالي أربعمائة أسير يعملون في المحاجر، في حين كان هناك خمسمائة آخرون في المناجم قرب بيلهفن، وأكثر من ألف سجين يعملون على بناء الجسور وشق طريق معبّد عبر ممر ثيودولا.

عندما زار جيرالت المدينة آخر مرة، كان هناك مشنقة في ساحة السوق، لكنها لم تكن بهذه الفظاعة.

في الماضي، لم تكن تحمل هذا العدد المرعب من الأدوات، ولم تكن محاطة بهذه الأجزاء المتعفنة من الجثث، المعلقة كتحذير قاتم.

عندما وقع نظرهم على المشنقة المروعة، أوضح فتى الشارع أن هذه المشاهد الدامية هي من صنيع الحاكم العسكري الجديد، اللورد فولك أرتفيلد، الرجل الذي لا يتوانى عن استخدام السياف.

وأضاف الفتى أن اللورد فولك لا يمكن العبث معه، فهو رجل صارم لا يرحم.

قادهم الفتى إلى صديقه، صائد الألماس، في إحدى الحانات.

لكن هذا الأخير لم يكن مبشِّرًا بأي خير، إذ بدا شاحبًا، مرتجفًا، عالقًا بين الصحو والسُّكر، في تلك الحالة التي يصل إليها المرء بعد أيام متواصلة من الشرب دون انقطاع.

شعر جيرالت بالإحباط، فقد بدأ يظن أن كل الأخبار المثيرة حول الدرويد لم تكن سوى أوهام سُكران يهذي.

لكن رغم سُكره، أجاب صائد الألماس على أسئلتهم بوضوح وعقلانية.

حين اتهمه دانديليون مازحًا بأنه لا يبدو مثل صائد ألماس حقيقي، ردّ قائلاً إنه حتى لو عثر على ألماس حقيقي، فسيظل يبدو كما هو الآن.

ثم وصف موقع الدرويد في بحيرة موندوين بدقة وبساطة، دون مبالغة أو زخرفة في الحديث.

سمح لنفسه بأن يسأل عن سبب اهتمام المسافرين بالدرويد، لكنه لم يتلقَ سوى صمتٍ ساخر ومُحتقر.

ثم حذّرهم قائلاً إن الذهاب إلى غابة الدرويد يعني الموت المحتم، موضحًا أن الدرويد اعتادوا القبض على المتطفلين، وحبسهم في أقفاص مصنوعة من أغصان الصفصاف، قبل أن يبدأوا بالصلاة والتمتمات السحرية أثناء إحراقهم أحياء.

هذا الادعاء الخرافي، كما تبين لاحقًا، كان يتنقل مع الدرويد حيثما ذهبوا.

لكن المحادثة قُوطعت فجأة.

تقدّم نحوهم تسعة جنود مسلحين، يرتدون زيًّا أسود مزخرفًا بشارات تحمل شعار الشمس.

قال الرقيب القائد، وهو يضرب ساقه بعصًا من خشب البلوط:

"هل أنت الساحر جيرالت؟"

بعد لحظة تردد، قال جيرالت بهدوء:

"نعم، أنا هو."

قال الرقيب بصوت بارد:

"إذن عليك أن تأتي معنا."

تصلّب وجه جيرالت، وسأله بهدوء قاتل:

"وما مدى تأكدك من أنني أريد ذلك؟ هل أنا قيد الاعتقال؟"

حدّق الجندي فيه بصمت طويل، كان مليئًا بعدم الاحترام والتحدي.

لم يكن هناك شك في أن وجود ثمانية رجال مسلحين خلفه هو ما أعطاه الجرأة على ذلك.

ثم أخيرًا، بعد لحظة بدا وكأنها دهرٌ من الصمت المتوتر، قال الرقيب:

"لا. أنت لست قيد الاعتقال. لم يُؤمر باعتقالك. ولو كان ذلك، يا سيدي، لطلبت منك الأمر بطريقةٍ مختلفة... مختلفة تمامًا."

تعمّد جيرالت شدّ حزام سيفه بإشارة واضحة، ثم قال ببرود:

"وأنا كنتُ سأرد عليك بطريقةٍ مختلفة."

تدخّل دانديليون سريعًا، واضعًا على وجهه ابتسامة مصطنعة تشبه تلك التي يرتديها السياسيون في المآزق.

"يا سادة، يا سادة،" قال دانديليون وهو يرفع يديه بمرح. "لماذا هذا التوتر؟ نحن أناسٌ شرفاء، ولسنا بحاجة إلى الخوف من السلطات، أليس كذلك؟"

ثم أضاف، محاولًا إضفاء نبرة ودية على الموقف:

"وبالطبع، نحن مستعدون دائمًا للتعاون مع الحكومة، في حدود ما تسمح به الظروف، بطبيعة الحال. ولكن، في المقابل، أليس من حقنا أن نعرف لماذا تريد الحكومة تقييد حريتنا المدنية؟ مجرد سبب صغير، لا أكثر؟"

قال الجندي دون أن يتأثر بالكلام المتدفق:

"إنها الحرب، يا سيدي. الحرية، كما يوحي اسمها، هي شيء يخص زمن السلم. أما السبب، فسيُشرح لك من قِبَل الحاكم. أنا أنفذ الأوامر، لا أُجري مناقشات."

قال الويتشر وهو يومئ برأسه قليلاً:

"حيثما كان محقًا، فهو محق." ثم غمز دانديليون بمكر خفيف.

"إذاً، خذني إلى الحاكم، أيها الجندي الفاضل. وأنت، دانديليون، عد إلى الآخرين وأخبرهم بما جرى. افعل ما ينبغي فعله. ريجيس سيفهم."

* * *

في مكتب الحاكم، قال الرجل عريض المنكبين، ذو الشعر الأسود والندوب العميقة، وعين اليسرى المغطاة برقعة جلدية:

"ماذا يريد الويتشر في الشمال؟ ماذا يفعل هنا؟"

كان مشهد وجهه بعين واحدة كفيلًا بإثارة الرعب في النفوس، خاصة لو صادفته في زقاق مظلم. ولكن ذلك كان خطأً كبيرًا في التقدير، لأن هذا الوجه كان وجه اللورد فولك آرتيفيلدي، حاكم ريدبرون، والمسؤول الأعلى عن القانون والنظام في المنطقة بأسرها.

كرّر الحاكم ببطء، بنبرة باردة:

"ماذا يبحث عنه الويتشر في الشمال؟"

تنهد جيرالت، ثم رفع كتفيه متظاهراً بعدم الاكتراث، وقال:

"أنت تعرف الإجابة، يا سيدي. أنا ويتشر، استأجرني نحّال من ضفاف النهر لحمايتهم أثناء رحلتهم إلى هنا. وكويتشر، أنا أبحث عن المال سواء هنا أو في أي مكان آخر. أمضي حيثما وجدت زبائن."

أومأ فولك آرتيفيلدي برأسه قائلاً ببرود:

"بالطبع. هذا على الأقل وفقًا لروايتك. لكنك انفصلت عن النحال قبل يومين، وتستعد للسير جنوبًا... بصحبة غريبة. لأي غرض؟"

لم يُبعد جيرالت نظره، بل ثبّت عينيه المتقدتين في العين الوحيدة للحاكم، وقال بصوت خافت لكن قاطع:

"هل أنا قيد الاعتقال؟"

"لا. في الوقت الحالي، لست كذلك."

"إذًا، أفترض أن غرضي هو المضي نحو هدفي، وشؤوني الخاصة."

قال الحاكم فولك آرتيفيلدي بنبرة محايدة، وإن كان في صوته ظل من التحذير:

"مع ذلك، أوصي بالصدق والصراحة. على الأقل لإثبات أنك لم ترتكب أي مخالفة، وأن الحكومة ليست بحاجة إلى أن تخشى منك على أمنها. سأحاول تكرار السؤال: ما هو هدف رحلتك، أيها الويتشر؟"

تردد جيرالت للحظة، ثم قال:
"أسعى للوصول إلى الدرويد الذين كانوا يعيشون في أنجرين، لكنهم انتقلوا الآن إلى هذه المنطقة. يمكنك التأكد من هذا بسهولة عبر النحال الذي قمت بحمايته."

"ومن استأجرك ضد الدرويد؟ هل احترق أحد الأشخاص أكثر من اللازم في أقفاصهم المصنوعة من الخوص؟"

"خرافات، شائعات، وخزعبلات أطلقها أناس غريبون. أبحث عن معلومات لدى الدرويد، وليس عن دمائهم. لكن في الحقيقة، أيها الحاكم، أعتقد أنني كنت صريحًا بما يكفي لإثبات أنني لم أرتكب أي مخالفة."

قال فولك آرتيفيلدي بنبرة أكثر هدوءً، لكنه أبقى على الحدة في عينيه:

"الأمر ليس متعلقًا بجُرمك. على الأقل، ليس بعد. لكنني سأكون سعيدًا للغاية لو سادت محادثتنا أجواء من التفاهم المتبادل. فخلافًا لما يبدو، الغرض من هذا النقاش هو الحفاظ على حياتك وحياة رفاقك، من بين أمور أخرى."

لم يرد جيرالت على الفور، بل رفع حاجبه قليلاً وقال ببطء:

"لقد أثرت فضولي كثيرًا، سيدي. من بين أمور أخرى. سأستمع إلى شروحاتك بكل اهتمام."

"دون أدنى شك. سنصل إلى هذه الشروحات، ولكن تدريجيًا. على مراحل. هل سمعت يومًا، أيها الويتشر، عن مفهوم 'إقرار الشاهد'؟ هل تعلم ما هو؟"

قال جيرالت ببرود، متجاهلًا ما شعر به من نفاد الصبر:

"أعلم. إنه الشخص الذي يحاول التهرب من المسؤولية عبر الوشاية بزملائه."

قال فولك آرتيفيلدي دون أن يبتسم:

"تفسير مبسط للغاية، بأسلوب نوردليني تقليدي. كثيرًا ما تحاولون تغطية فجواتكم المعرفية بالسخرية والتبسيط، مما تجدونه مضحكًا. لكن هنا، أيها الويتشر، يسود قانون الإمبراطورية. وبشكل أكثر دقة، قانون الإمبراطورية ساري هنا حتى يتم اجتثاث الفوضى والجريمة – من جذورها. وأفضل طريقة

لاجتثاث الفوضى وقطاع الطرق هي المشانق، والتي رأيتها بلا شك في ساحة السوق. لكن في بعض الأحيان، يكون الأمر متعلقًا أيضًا بـ 'إقرار الشهود'."

توقف للحظة، متعمدًا ترك مجال للتأثير. لم يقاطعه جيرالت.

قال الحاكم بعد برهة:

"مؤخرًا، تمكّنا من استدراج عصابة من المجرمين الشباب إلى كمين. قاوموا، وقُتلوا جميعًا..."

"لكن ليس جميعهم؟" قاطعه جيرالت دون مواربة، وقد بدأ يمل من الخطابة المطولة. "لقد احتفظتم بأحدهم حيًا. ووعدتموه بالعفو مقابل الشهادة. أي أنه اتهم شخصًا ما. وقد اتهمني."

قال الحاكم فولك آرتيفيلدي وهو يفرك جبينه المشوه بندبة:

"ما الذي يجعلك تقول ذلك؟ هل كان لك أي اتصال بعالم الجريمة المحلي؟ الآن أو في وقت سابق؟"

رد جيرالت ببرود، محافظًا على هدوئه:

"لا. لم يكن لي أي اتصال، لا الآن ولا سابقًا. لذا، سامحني يا سيدي الحاكم، لكن هذه القضية برمتها إما أن تكون مجرد سوء فهم تام، أو عملية احتيال، أو استفزاز موجّه ضدي. وإذا كان الاحتمال الأخير هو الصحيح، فأنا أقترح ألا نضيع الوقت، بل ندخل في صلب الموضوع."

قال الحاكم فولك آرتيفيلدي وهو يراقبه بعين واحدة ثاقبة:

"إذن، تعتقد أن هذه مؤامرة ضدك؟ ربما، على عكس ادعاءاتك السابقة، لديك سبب يدعوك للخوف من القانون؟"

رد جيرالت وهو يتكئ قليلاً إلى الخلف، بنبرة ساخرة:

"لا. بل أبدأ في الخوف من أن تصبح محاربة الجريمة هنا متوحشة، بلا تفاصيل، ودون اختبار مطوّل لمعرفة إن كان الشخص مذنبًا أم بريئًا. لكن ربما يكون هذا مجرد كاريكاتير وتبسيط، كما هو متوقع من نوردليني غبي. وهو ما يفسر لماذا لا يفهم هذا النوردليني حتى الآن كيف ينوي حاكم ريدبرون إنقاذ حياته."

نظر إليه فولك آرتيفيلدي للحظة بصمت، ثم صفق بيديه قائلاً:

"أحضروها."

أخذ جيرالت نفسًا عميقًا ليهدئ من توتره، إذ شعر فجأة بشيء ما يجعله يرتجف، يرفع من معدل نبضه ويملأ عروقه بالأدرينالين. كان عليه أن يأخذ نفسًا آخر، بل أكثر من ذلك، وضع يده تحت الطاولة ورسم إشارة سحرية لتهدئة نفسه – وهو أمر لم يفعله من قبل. ومع ذلك، لم يكن هناك أي تأثير. لا شيء. فقط حرارة مفاجئة، ثم برودة قاسية.

لأن الحراس قد أحضروا للتو سيري إلى الغرفة.

قالت سيري، بمجرد أن قيدوها في الكرسي وأوثقوا يديها خلف ظهرها، بتهكم واضح:

"انظروا من أتى به الهواء إلينا!"

أشار فولك آرتيفيلدي بإيماءة صغيرة، وبلا تردد، رفع أحد الحراس – رجل طويل ذو ملامح بليدة بعض الشيء – يده وصفعها بقوة جعلت الكرسي يهتز.

قال الحارس، بصوت بدا عليه بعض الأسف بشكل غريب:

"اعذرها، سيدي. إنها صغيرة... متهورة."

قال الحاكم، ببطء ووضوح:

"أنغوليم، لقد وعدتك أنني سأستمع إليك. لكن هذا يعني أنني سأستمع إلى إجاباتك على أسئلتي. أتذكر تصرفاتك جيدًا. إذا لم تستمعي إلي، ستُعاقبين. هل تفهمين؟"

قالت سيري بمرح مستفز، رغم الموقف:

"نعم، يا عمّاه."

أشار الحاكم، فجاءت صفعة أخرى. اهتز الكرسي من جديد.

تمتم الحارس وهو يهز يده بعد الصفعة:

"إنها صغيرة... متهورة..."

رأى جيرالت على الفور أنها لم تكن سيري، ولم يستطع إلا أن يتعجب من ارتباكه.

كانت هناك خيط رفيع من الدم يسيل من أنف الفتاة المقلوب. سحبت الفتاة الهواء بقوة عبر أنفها، ثم ابتسمت بابتسامة مفترسة.

قال الحاكم، مكرراً الاسم:

"أنغوليم، هل تفهمين؟"

قالت الفتاة وهي تأخذ نفساً عميقاً آخر، تنحني برأسها وتنظر إلى جيرالت بعينيها الواسعتين بلون البندق، وليس الخضرة المعتادة. ثم هزت شعرها الأشقر بلون القش، لينسدل خصلات مشعثة على جبينها.

قالت وهي تلعق الدم الذي تسرب إلى شفتها:

"لم أره من قبل."

تابعت وهي تبتسم بخبث:

"لكنني أعرف من يكون. لقد أخبرتك بالفعل، أيها اللورد فولك، والآن يمكنك أن ترى أنني لم أكذب. إنه جيرالت. إنه ويتشر. قبل عشرة أيام، عبر الياروغا وهو في طريقه إلى توسان. أليس كذلك، أيها العم ذو الشعر الأبيض؟"

قال الحارس على عجل، وهو يلقي نظرة قلقة على الحاكم:

"صغيرة... متهورة..."

لكن فولك آرتيفيلدي لم يفعل سوى أن عبس وهز رأسه.

"ستستمرين في المزاح حتى على منصة الإعدام، أنغوليم. لا بأس، لا مشكلة في ذلك بالنسبة لي. من يرافق جيرالت في رحلته؟"

أخذت الفتاة نفساً آخر وأجابت:

"لقد أخبرتك بذلك أيضاً! مع فتى وسيم يُدعى دانديليون، وهو شاعر جوال يحمل عوداً موسيقياً. مع امرأة شابة ذات شعر أشقر داكن، مربوطة ضفيرته ومقصوصة عند العنق. لا أعرف أسمائهم. ومع رجل بدون أوصاف، لم يُذكر اسمه أيضاً. بالمجمل هم أربعة."

أسند جيرالت ذقنه على قبضتيه، ينظر إلى الفتاة باهتمام. لم تخفض أنغوليم نظرها، بل تأملته بفضول.

قالت مستغربة:

"عيناك... غريبتان!"

حثها الحاكم بصرامة:

"تابعي، تابعي."

قطبت أنغوليم جبينها.

"من أيضاً يسافر مع الويتشر؟"

"لا أحد. قلت لك، هم أربعة. هل ليس لديك أذنان، أيها العم؟"

بإشارة واحدة، جاءت صفعة جديدة، وسال الدم من أنفها مجدداً. مسح الحارس يده على فخذه، ثم تمتم عن تهور الشباب.

قال الحاكم ببرود:

"أنت تكذبين، أنغوليم. سأعيد السؤال، كم عددهم؟"

أجابت، ساخرة، وهي تبتسم ابتسامة مستهزئة، تتلاعب بلهجتها:

"كما تشاء، لورد فولك. كما تشاء. كما تحب. إنهم مئتان. ثلاثمئة! ستمئة!"

صاح جيرالت بسرعة وحِدَّة قبل أن يتمكنوا من ضربها:

"اللورد الحاكم!"

ثم تابع بصوت حازم:

"هذا ممكن. ما قالته دقيق للغاية لدرجة أن أحدًا لا يستطيع أن ينعتها بالكاذبة، بل فقط أنها غير مُطَّلعة بالكامل. ولكن من أين حصلت على هذه المعلومات؟ لقد اعترفت بنفسها أن هذه هي المرة الأولى في حياتها التي تراني فيها. وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أراها فيها. يمكنني أن أؤكد لك ذلك."

نظر إليه آرتيفيلدي بازدراء وقال ببرود:

"شكرًا لك على المساعدة في التحقيق. أنت مساعدة قيّمة. عندما أبدأ في استجوابك، آمل أن تكون بنفس القدر من الحديث."

ثم نظر إلى الفتاة قائلاً:

"أنغوليم، هل سمعتِ ما قاله اللورد ويتشر؟ تكلّمي. ولا تطرحي أسئلة."

لعقت الفتاة الدم من أنفها، ثم قالت بتحدٍّ:

"يُقال إنه إذا بلّغت عن جريمة مُخطَّط لها وكشفت من يخطط لها، فستنال العفو. حسنًا، أنا أتكلم، أليس كذلك؟ أنا أعرف جريمة مُخطَّط لها وأريد منعها. استمعوا لما أقوله: نايتينغيل وعصابته في بيلهَافن بانتظار أن يجعلوا هذا الويتشر ورفاقه جثثًا باردة. الشخص الذي أوكل إليهم المهمة كان نصف-إلف، غريب – الشيطان وحده يعلم من أين أتى، لا أحد يعرفه. كل ما أخبرنا به هذا النصف-إلف هو: من هو، كيف يبدو، كيف سيصل، ومن سيرافقه، ومن أين سيغادر. لقد حذّرهم بأنه ويتشر – ليس ضعيفًا، بل مقاتل ماهر، وأنه لا ينبغي لهم أن يتظاهروا بالشجاعة، بل أن يغدروا به، يطعنوه في الظهر، أو يطلقوا عليه سهام القوس المستعرض، أو إن أمكن، يسمموه إذا أكل أو شرب في بيلهَافن. لقد أعطى نصف-الإلف نايتينغيل مالًا. الكثير من المال. ووعد بالمزيد بعد تنفيذ المهمة."

قال فولك آرتيفيلدي وهو يفكر بعمق:

"بعد التنفيذ؟ إذن هذا النصف-إلف ما زال في بيلهَافن؟ مع نايتينغيل وعصابته؟"

هزّت الفتاة كتفيها قائلة:

"ربما. لا أعلم. لقد مر أكثر من أسبوعين منذ أن هربت من عصابة نايتينغيل."

ابتسم جيرالت بسخرية وقال:

"هل هذه هي السبب وراء وشايتك به؟ حسابات شخصية؟"

ضيّقت الفتاة عينيها وارتعشت شفتاها المتورمتان باشمئزاز، ثم صاحت بغضب:

"اللعنة عليك وعلى حساباتك، أيها الويتشر! لقد فضحت خطتهم، وأنقذت حياتك، أليس كذلك؟ عليك أن تشكرني!"

قال جيرالت بسرعة قبل أن يتمكنوا من ضربها:

"شكرًا لك."

ثم أردف بلهجة هادئة ولكنها جافة:

"أردت فقط أن أقول إنه عندما يتعلق الأمر بالحسابات الشخصية، فإن مصداقيتكِ كشاهدة رئيسية تنهار. الناس يبلغون عن الآخرين لينقذوا جلودهم وحياتهم، ولكن عندما يريدون الانتقام، فإنهم يكذبون."

قاطع فولك آرتيفيلدي ببرود قائلاً:

"أنغوليم ليس لديها فرصة لإنقاذ حياتها. لكن يمكنها إنقاذ جلدها إن أرادت. بالنسبة لي، هذا دافع موثوق تمامًا. ماذا عنكِ، أنغوليم؟ هل تريدين إنقاذ جلدكِ، أليس كذلك؟"

عضَّت الفتاة على شفتيها، وبدت شاحبة بوضوح.

قال الحاكم بازدراء:

"قطاع الطرق جبناء كالدجاج. لديهم الجرأة لمهاجمة وسلب الضعفاء، وقتل العزل، نعم. ولكن مواجهة الموت وجهاً لوجه، فهذا ما لا يستطيعون فعله."

زمجرت أنغوليم قائلة:

"سنرى."

أومأ فولك آرتيفيلدي برأسه بجدية وقال:

"سنرى، وسنسمع أيضاً. ستصرخين بأعلى صوتك على المشنقة، أنغوليم."

صرخت الفتاة بغضب وهي تهتز على الكرسي:

"سيدي، لقد وعدتني."

هز الحاكم رأسه وأجاب ببرود:

"وأنا أفي بوعودي. إذا ثبتت صحة ما اعترفتِ به."

التفتت أنغوليم نحو جيرالت، مشيرة إليه بجسدها النحيل وكأنها تحاول إثبات نقطة:

"وهذا؟ أليس هذا دليلاً على أنني صادقة؟ دعه ينكر أنه جيرالت الويتشر! دعهم يقولون إنني لست موثوقة! كان بإمكاني أن أتركه يذهب إلى بيلهَافن، وحينها كان سيكون لديكم دليل على أنني لم أكذب! كنتم ستعثرون على جثته في إحدى الأزقة. لكن لا، عندها كنتم ستقولون إنني لم أمنع الجريمة ولم أكن رحيمة! أليس كذلك؟ أنتم مجرد مخادعين! مجرد محتالين!"

قال جيرالت بصوت هادئ لكنه قوي:

"لا تضربوها. أرجوكم."

كان هناك شيء في صوته جعل الأيادي المرتفعة للحاكم والحارس تتوقف في الهواء.

رفعت أنغوليم أنفها في الهواء ونظرت إليه بتمعن، ثم قالت بصوت ساخر:

"شكراً لك، أيها العم."

ثم تابعت، وعيناها تتقدان بتحدٍّ:

"لكن الضرب ليس بالأمر الكبير، إن أرادوا ضربي فليفعلوا. لقد ضُرِبت منذ صغري، أنا معتادة عليه. إن كنتَ تريد أن تكون كريماً، فقم بتأكيد أنني صادقة. كي يلتزموا بكلمتهم. اقتلوني، اللعنة عليكم!"

أمر فولك آرتيفيلدي الجنود قائلاً:

"خذوها بعيداً."

رفع جيرالت يده ليحتج، لكن الحاكم أشار إليه بالصمت وقال:

"لم نعد بحاجة إليها."

وبعد أن خرجت أنغوليم وبقي الاثنان وحدهما، قال الحاكم بصوت هادئ:

"أنا الآن أعرف كل شيء وسأقدم لك التفسيرات. وبعد ذلك، سأطلب منك بالمثل شيئاً بالمقابل."

تحدث جيرالت بصوت بارد، وعيناه تلمعان بحدة:

"أولاً، فسّر لي هذا المشهد الصاخب، ولماذا انتهى بطلب غريب للإعدام. كشاهد رئيسي، الفتاة قامت بدورها بالفعل."

أجابه الحاكم ببرود:

"ليس بعد."

قطّب جيرالت حاجبيه وسأل بصوت حاد:

"كيف ذلك؟"

أوضح فولك آرتيفيلدي وهو يميل بجسده إلى الأمام:

"هومر ستراغين، الملقب بنايتينغيل، مجرم خطير للغاية. قاسٍ وجريء، ماكر، محظوظ، وليس غبياً. حقيقة أنه يفلت من العقاب فهذا يحفز آخرين غيره من المجرمين على السير في دربه. ولا بد لي من وضع حد لذلك. ولهذا السبب عقدت اتفاقاً مع أنغوليم. لقد وعدتها بأنه إذا أدّى اعترافها إلى الإيقاع بنايتينغيل وعصابته والقضاء عليهم، فسوف نشنقها."

قال الويتشر بدهشة:

"عذراً؟ إذن هذه هي طريقة إقامة الشاهد؟ التعاون مع السلطات يؤدي إلى... الحبل؟ وماذا يحصل من يرفض التعاون؟"

أجابه فولك آرتيفيلدي ببرود:

"المشنقة، تسبقها اقتلاع العيون والثديين بالكلّابات الساخنة."

لم ينطق جيرالت بكلمة.

تابع الحاكم بعد لحظة:

"هذا ما يسمى بالرادع. وهو ضروري تماماً في الحرب ضد قطاع الطرق. لماذا تشد قبضتيك بقوة لدرجة أنني أكاد أسمع مفاصلك تتصدع؟ هل أنت من أنصار القتل الرحيم؟ يمكنك أن تترفّع عن هذا، لأنك تقاتل في العادة كائنات قد تقتلك، لكن بطرق قد تبدو إنسانية، رغم أن هذا قد يبدو سخيفاً

للبعض. أما أنا، فلا يمكنني تحمل هذا الترف. لقد رأيت القوافل التجارية والمنازل التي نهبها نايتينغيل وعصابته. رأيت ما فعلوه بالرجال ليجعلوهم يبوحون بكلمات السر السحرية ويخبرونهم عن أماكن إخفاء صناديقهم وخزائنهم. رأيت النساء يُقطّعن إن فشلن في إرضاء نايتينغيل، أو إن لم يحملن أشياء ثمينة مخبأة. رأيت أشياء أسوأ من ذلك تُفعل بالبشر فقط ليشبع هؤلاء الأوغاد رغباتهم في التسلية."

ثم نظر إلى جيرالت مباشرة وأكمل:

"أنغوليم، التي بدا أن مصيرها حرّك مشاعرك، قد اقترفت مثل هذه الأفعال، بلا شك. لقد كانت مع العصابة لفترة طويلة بما يكفي. ولولا المصادفة البحتة التي دفعتها للهروب من العصابة، لما سمع أحد عن الكمين في بيلهَافن، ولكنت قد التقيت بها بطريقة أخرى. ربما كانت هي من ستطلق عليك سهم النشاب في ظهرك."

قال جيرالت ببرود:

"لا أحب الافتراضات. هل تعرف لماذا فرت من العصابة؟"

اعترف الحاكم، بينما أدار يده ببطء، قائلاً:

"لا أملك إجابة مؤكدة، ولم يكلف رجالي أنفسهم عناء الخوض في الأمر. لكن الجميع يعرفون أن نايتينغيل هو رجل يرى أن المرأة تؤدي دوراً واحداً فقط في الحياة. وإن لم تستجب لهذا الدور طواعية، فهو لا يتردد في فرضه عليها بالقوة. علاوة على ذلك، لا بد أن التوترات الجيلية قد بدأت تتفاقم. نايتينغيل رجل ناضج، بينما بقية عصابته هم صغار السن، مثل أنغوليم. لكن هذا كله مجرد تخمينات، وبصراحة، لا يهمني الأمر كثيراً."

ثم نظر إليه نظرة متفحصة وسأل ببطء:

"لكنني أسمح لنفسي بأن أتساءل، لماذا يهمك الأمر؟ لماذا أثار مشهد أنغوليم كل هذه المشاعر القوية داخلك؟"

تحدث جيرالت بصوت هادئ لكنه حاد:

"سؤال غريب. الفتاة أبلغت عن هجوم مخطط ضدي، عن نية عصابتها السابقة تنفيذ عقد لصالح نصف-إلف. هذا بحد ذاته أمر مثير، لأنني لا أملك أي عداء مع أي نصف-إلف. كما أن الفتاة تعرف من يرافقني في رحلتي. بل وحتى تفاصيل مثل أن الشاعر المتجول يُدعى دانديليون، وأن المرأة لديها

ضفيرة مقصوصة. بسبب هذه التفاصيل، أعتقد أن كل هذا كذب أو استفزاز. لن يكون صعباً على أحد أن يمسك مربي النحل الذي كنت أسافر معه الأسبوع الماضي ويستجوبه. ومن ثم..."

صاح آرتيفيلدي بغضب وهو يضرب بقبضته على الطاولة:

"كفى!"

ثم أضاف بصوت كالصخر:

"لقد راهنت بكل شيء، يا ويتشر. هل تعتقد أنني أدبّر مكيدة هنا؟ ولماذا قد أفعل ذلك؟ هل تظن أنني أريد خداعك، إغراءك بحكاية مختلقة؟ ومن تكون أنت، حتى تخاف إلى هذا الحد من الاستفزاز؟ فقط المجرمون هم من يحترق قبّعَتهم، يا سيد ويتشر. فقط المجرمون!"

قال الويتشر بهدوء:

"أعطني تفسيراً آخر."

أجابه الحاكم ببرود:

"لا، أنت من يجب أن يعطيني تفسيراً."

قال جيرالت وهو يهز رأسه قليلاً:

"عذراً. ليس لدي أي تفسير."

ابتسم الحاكم ابتسامة خبيثة وقال:

"يمكنني اختلاق شيء ما. لكن لماذا؟ دعنا نضع الأمور على الطاولة بوضوح. لا يهمني من يريد موتك، ولا لماذا. لا يهمني كيف حصل ذلك الشخص على هذه المعلومات الدقيقة عنك، حتى لون وطول شعرك. بل أكثر من ذلك، لم يكن عليّ أن أخبرك عن الكمين، يا ويتشر. كان بإمكاني تركك وشأنك، وترك نايتينغيل يستخدمك كطعم بينما يجهل ما ينتظره. كنت سأراقب وأنتظر حتى يرمي شباكه عليك، وتبتلع الطُعم. وحينها كنت سأقبض عليه. لأن من يهمني هو نايتينغيل، لا أنت. وإن كان موتك هو الثمن للإيقاع به؟ ها! مجرد شر لا بد منه، يستحق التضحية!"

توقف لحظة، فلم يعلّق جيرالت بشيء.

تابع الحاكم بعد صمت قصير:

"يجب أن تعلم، أيها الويتشر، أنني أقسمت على فرض القانون في هذه المنطقة. بأي ثمن، وبأي وسيلة، شرعية كانت أم غير شرعية. لأن القانون ليس فلسفة نظرية ولا فصولاً مملة مليئة بالمصطلحات الأخلاقية والعدالة الخيالية، وليس عبارات جوفاء عن الأخلاق والمبادئ. القانون هو الطرقات الآمنة، والشوارع التي يمكن السير فيها حتى بعد حلول الظلام. القانون هو أن تستطيع دخول المرحاض في الحانات وترك محفظتك وزوجتك على الطاولة دون أن تخشى سرقتهما. القانون هو أن ينام الناس في سلام وهم متأكدون أنهم سيستيقظون على صياح الديك، وليس على لهب النيران الحمراء وهي تلتهم منازلهم! أما من يخرق القانون – فالحبل، والفأس، والحديد المحمّى بالنار في انتظاره! العقاب يجب أن يكون رادعاً. ومن يخرج عن القانون، عليه أن يتحمل العواقب. بكل الوسائل المتاحة... هيه، ويتشر! أرى ملامح الاستياء ترتسم على وجهك؛ هل ترفض أهدافي أم طريقتي؟ أعتقد أنك ترفض الطريقة! لأن الأساليب يسهل انتقادها، لكن هل تريد العيش في عالم آمن أم لا؟ هيا، أجبني!"

قال جيرالت ببرود دون أن يشيح بنظره:

"ليس لدي ما أقوله."

قال الحاكم بابتسامة ساخرة:

"بل لديك."

قال جيرالت بهدوء، لكنه كان واثقاً من كلماته:

"في الواقع، يا لورد فولك، أنا حتى معجبٌ بالعالم الذي تتخيله وتحلم به."

رفع الحاكم حاجبه وسأله ببطء:

"حقاً؟ لكن وجهك يقول شيئاً آخر."

قال جيرالت بهدوء، لكن نبرته حملت سخرية واضحة:

"العالم الذي تتخيله هو العالم المثالي لصياد وحوش. لن ينقص فيه العمل للويتشر أبداً. فبدلاً من الكتب القانونية والمبادئ العادلة والأوهام الفارغة حول العدالة، سيجلب عالمك الفوضى، والطغيان،

والأنانية المطلقة لملوك صغار ومستبدين، وحماسة مفرطة لمسؤولين يسعون لنيل رضا رؤسائهم، وانتقام أعمى من المتطرفين، وقسوة عدالة الغوغاء، وانتقام سادي وحشي. رؤيتك هذه ستجعل من العالم مكاناً يحكمه الخوف، حيث يخشى الناس مغادرة بيوتهم بعد حلول الظلام – ليس خوفاً من قطاع الطرق، بل خوفاً من حراس القانون أنفسهم، لأن مطاردة اللصوص بأعداد كبيرة تؤدي دائماً إلى أن يصبح هؤلاء اللصوص جزءاً من سلطات القانون ذاتها."

توقف للحظة، ثم أضاف بنبرة جافة:

"عالمك هو عالم من الرشاوى والاستفزازات الصحفية، عالم الشهادات المزيفة والشهود الكذبة، عالم التجسس والاعترافات المنتزعة بالقوة. عالم البلاغات الكيدية والخوف من الوشاية. وسيأتي يومٌ لا محالة، في عالمك، حيث يتم اقتلاع صدر الشخص الخطأ بالكماشات، وسيُشنق الأبرياء أو يُدقون على الأوتاد. وحينها، سيكون عالمك هذا هو عالم الجريمة. باختصار، عالمٌ سيشعر فيه الويتشر وكأنه سمكة في الماء."

مرر فولك أرتيفيلد يده على تجويف عينه المخفية تحت رقعة الجلد، ثم قال بعد صمت قصير:

"مثالي! صياد وحوش، قاتل محترف، ولكنه مثالي! ومُدافع عن الأخلاق! هذا أمر خطير في مهنتك، يا ويتشر. إنه علامة على أنك بدأت تخرج من نطاق عملك شيئاً فشيئاً. سيأتي يوم تتساءل فيه إن كان ينبغي لك قتل ستريغا – لأن ربما هذه الستريغا بريئة؟ هل تفهم قصدي؟ ربما يحمل عالمي انتقاماً أعمى وتطرفاً متحمساً؟ آمل ألا يصل الأمر إلى ذلك الحد، لكن... لا شيء مستبعد. تخيل لو أن شخصاً ما انتهك شخصاً قريباً منك بطريقة وحشية وسادية، حينها أود أن أعود إلى هذه المحادثة، وأعيد مناقشة مسألة العقوبة المناسبة. من يدري؟ ربما لن تختلف آراؤنا كثيراً؟ لكن اليوم، هنا والآن، لا يتعلق الأمر بالمبادئ ولا بالمُثل، بل بالحقائق والواقع. وأنت يا ويتشر... أنت واقع ملموس!"

رفع جيرالت حاجبه قليلاً لكنه لم يتكلم.

تابع الحاكم بنبرة حادة:

"حتى لو سخرت من أساليبي ومن رؤيتي للنظام، فسوف أستخدمك، يا ويتشر، لتحقيق هذه الرؤية. أعيدها مرة أخرى: لقد أقسمت على أن ينال كل من يكسر القانون جزاءه المستحق. كل واحد منهم. من ذلك التاجر الصغير الذي يزيف الأوزان في السوق، إلى اللص الذي يسرق شحنات الأسلحة المخصصة للجيش. اللصوص، النشالون، قُطاع الطرق، المجرمون. إرهابيو منظمة 'الشمال الحر'،

الذين يسمّون أنفسهم مقاتلي الحرية بكل فخر. ونايتينغيل. خاصة نايتينغيل. نايتينغيل يجب أن يُعاقب. بأي وسيلة كانت، لا يهم."

ثم أكمل بصوت جاد وملامحه متصلبة: "يجب أن نتحرك بسرعة، قبل أن يُعلن العفو، حينها سيجلس نايتينغيل يضحك في عبّه من سخريته بي... كنت أنتظر منذ شهور فرصة تُمكنني من توجيه ضربة استباقية له، فرصة تجعله يرتكب خطأ، خطأً قاتلًا يكون نهايته. هل أحتاج إلى الاستمرار في الحديث، أم أنك فهمت؟"

أجاب جيرالت دون أن يشيح بنظره: "لقد فهمت، لكن أكمل حديثك."

تابع الحاكم بنبرة هادئة، لكن فيها حدة مضمرة: "ذلك النصف-إلف الغامض، الذي يبدو أنه هو من دبر الهجوم وأشرف عليه، قد حذر نايتينغيل منك، أوصاه بالحذر، نصحه بعدم التهاون، بعدم الغرور، بعدم الاستهتار. وأعلم أنه كان لديه أسباب وجيهة ليقول ذلك. لكن التحذيرات لن تجدي نفعًا. نايتينغيل سيرتكب خطأه. سيهاجم ويتشرًا مستعدًا، متيقظًا، منتظرًا هجومه. وهذه ستكون نهايته. لهذا سأعقد معك اتفاقًا، يا جيرالت. ستكون الويتشر المتوج الخاص بي. لا تقاطعني. الاتفاق بسيط، كل طرف لديه التزام، كل طرف يؤدي مهمته. عليك أن تجعل نايتينغيل أولويتك المطلقة. ومن جهتي..."

توقف لحظة، ابتسامة مكر تعلو وجهه، ثم أكمل: "لن أسألك من تكون، أو من أين أتيت، أو لماذا وإلى أين تسافر. لن أسألك لماذا تتحدث النيلفجاردية بلكنة تكاد لا تُلاحظ، أو لماذا الكلاب والخيول تنفر منك أحيانًا. سأسمح للمغني المتجول دانديليون بالاحتفاظ بأنبوبه المليء بالملاحظات. ولن أبلغ الاستخبارات الإمبراطورية عنك حتى يُقتل نايتينغيل أو يُلقى في سجني. وربما حتى بعد ذلك، فما العجلة؟ سأمنحك الوقت. وسأمنحك فرصة."

رفع جيرالت رأسه قليلًا، سائلًا بصوت بارد: "فرصة ماذا؟"

أجاب أرتيفيلد مبتسمًا: "للوصول إلى توسان. تلك الإمارة السخيفة، الخيالية، التي لن تجرؤ حتى الاستخبارات النيلفجاردية على انتهاك حدودها. بعدها، قد تتغير أمور كثيرة. قد يكون هناك عفو عام. ربما يتوقف توسع ياروغا. وربما حتى يعم السلام."

بقي الويتشر صامتًا لفترة طويلة. وجه الحاكم المتصلب لم يتحرك، لكن عينيه كانتا تتألقان بدهاء.

قال جيرالت أخيرًا: "موافق، إتفقنا إذاً."

ضاقت عينا الحاكم قليلًا وهو يسأل: "دون شروط؟ بلا قيود؟"

أجاب الويتشر بثبات: "بشرطين."

أومأ الحاكم برأسه، متكئًا إلى الخلف في كرسيه: "بالطبع. أنا مصغٍ."

قال جيرالت بعد لحظة من الصمت:

" أولًا، يجب أن أقضي بضعة أيام في الترحال نحو الغرب. إلى لوك موندورن. إلى الدرويد، لأن..."

قاطعه فولك أرتيفيلد بابتسامة ساخرة:

"لأنك تبحث عن المعلومات، صحيح؟ تبحث عن إجابات، عن نصائح الحكمة القديمة، عن التوجيه من كهنة الغابة القدامى؟ ألا ترى أن هذا مضيعة للوقت؟"

ثم أكمل حديثه بعنف، ضاربًا الطاولة بقبضته: "هل تظنني أحمق؟ تحاول خداعي؟ إلى الغرب؟ الجميع يعلم إلى أين يقودك طريقك! بما في ذلك نايتينغيل، الذي أعد كمينه على هذا المسار. إلى الجنوب، إلى بيلهفن، عند النقطة التي تعبر فيها نيوي وادي سانسرتور، المؤدي إلى توسان."

تصلب وجه جيرالت للحظة قبل أن يهمس: "تقصد أن..."

قال الحاكم ساخرًا: "أن الدرويد ليسوا في لوك موندورن. ليسوا هناك منذ قرابة الشهر. لقد عبروا وادي سانسرتور إلى توسان، تحت رعاية الأميرة أناريتا من بيوكلير، التي لديها ولع بكل أنواع غريبي الأطوار، والمجانين، والمخلوقات العجيبة. هؤلاء يُمنحون اللجوء بسهولة في مملكتها الخيالية. أنت تعلم ذلك، ويتشر. لا تعتبرني أحمق. لا تحاول خداعي!"

أخذ جيرالت نفسًا عميقًا، ثم قال بهدوء:

"لست أحاول خداعك."

تراجع قليلًا في كرسيه، ثم أضاف ببطء:

"أعطيك كلمتي أنني لست كذلك. غدًا، أرحل إلى بيلهفن."

رفع الحاكم حاجبه الوحيد، نظر إليه بعين واحدة فاحصة، ثم قال:

"ألم تنسَ شيئًا؟"

هزّ جيرالت رأسه، ثم قال بثبات:

"لم أنسَ. شرطي الثاني: أريد أنجوليم. أطالب بعفو عنها يخرجها من السجن. ويتشرك التاجي يحتاج إلى شاهدة التاج. بسرعة، هل توافق أم لا؟"

تبادل الحاكم نظرة طويلة مع الويتشر، ثم هز رأسه قليلاً، وكأنه يزن الخيارات أمامه. أخيراً قال:

رفع الحاكم حاجباً، بينما كان يراقب الويتشر بعين واحدة مليئة بالفضول. ثم انفجر ضاحكاً، ضحكة قصيرة جافة، خالية من الفرح.

قال وهو يهز رأسه:

"رائع! لم أتوقع هذا منك، لكن أرى الآن أنني كنت على حق عندما قلت إنك لم تعد مجرد قاتل مأجور، بل مثالي وعاطفي أيضاً. حسناً، لن أخوض معك نقاشاً حول أخلاقية الأمر، ولن أجادلك في أن هذه الصبية لا تستحق الرحمة. لكن ليكن، شرطك الثاني مقبول."

شعر جيرالت ببرودة غريبة تمر عبر ظهره، لكنه لم يُظهر شيئاً، بل ظل صامتاً.

تابع الحاكم بصوت أكثر هدوءً، لكنه لا يزال محملاً بالخبث:

"لكن تذكّر، لا شيء يأتي مجاناً. سأطلق سراحها، ولكنها ستذهب معك. ستكون تحت مسؤوليتك، وستتحمل عواقب أفعالك. إذا قامت بارتكاب أي جرم، سيكون ذلك على رأسك. وإذا حاولت الهرب، فلا تتوقع مني إرسال كلابي للبحث عنها. لن تحصل على فرصة أخرى لمثل هذا الطلب."

قال جيرالت بهدوء:

"حسناً."

حكّ الحاكم ذقنه، ثم أشار إلى أحد الحراس:

"أطلقوا سراح الصبية. واجعلوا الويتشر يوقع وثيقة يقر فيها بمسؤوليته الكاملة عنها."

ابتسم الحاكم، لكنها لم تكن ابتسامة طيبة. ثم أضاف، بصوت خافت، مليء بالسخرية والخبرة السياسية:

"ليس لدي خيار آخر. أنغوليم لك. أعلم أنها السبب الوحيد الذي يجعلك تتعاون معي."

* * *

كان مصاص الدماء يركب جنبًا إلى جنب مع جيرالت، يستمع بانتباه دون أن يقاطع. وكما توقع الويتشر، لم يخطئ في قراءته الحادة للأمور.

استخلص سريعًا بعد أن انتهى جيرالت من قصته: "نحن خمسة، ولسنا أربعة."

أومأ وهو يوضح: "نحن خمسة منذ نهاية أغسطس، وخمسة عبرنا الياروغا. ميلفا فقط هي من قصّت جديلتها في الريف النهري، قبل أسبوع واحد فقط. ومع ذلك، تلك الفتاة الشقراء التي استشهدتَ بكلامها كانت تعلم بأمر جديلة ميلفا المقصوصة... لكنها لم تحتسب العدد خمسة. غريب."

قال جيرالت بحدة وهو يحفّز فرسه رواتش الذي بدأ يتباطأ: "هل هذا هو أغرب شيء في القصة برمتها؟"

أجاب مصاص الدماء دون تردد: "ليس على الإطلاق. الأغرب هو بيلهفن. البلدة التي نُصب فيها الكمين. بلدة تقع بعيدًا في الجبال، عبر وادي نيوي وممر ثيودولا..."

أنهى جيرالت الجملة بنفسه، وكأن إدراكًا مفاجئًا قد ضربه: "حيث لم نكن نخطط للذهاب أبدًا."

تحدث بصوت منخفض كأنه يخاطب نفسه، بينما شدّ لجام حصانه: "قبل ثلاثة أسابيع، عندما أمر ذلك النصف-إلف زعيم العصابة نايتينجيل باغتيالي، كنا لا نزال في أنجرين، نحاول الوصول إلى كايد دو، ونخشى مستنقعات يسغيث. لم نكن نعلم حتى أننا سنضطر إلى عبور الياروغا... اللعنة، حتى هذا الصباح لم نكن نعلم ذلك..."

قاطعه مصاص الدماء قائلاً: "كنا نعلم. كنا نعلم أننا نبحث عن الدرويد. هذا الصباح، وقبل ثلاثة أسابيع أيضًا. ذلك النصف-إلف الغامض نظّم الكمين على الطريق المؤدية إلى الدرويد، واثقًا من أننا سنتخذ هذا المسار تحديدًا. إنه فقط... يعلم."

ردّ الويتشر عليه بسرعة، مستعيدًا زمام الحوار الذي قاطعه به ريجيس: "أكثر مما نعلم نحن إلى أين يقودنا هذا الطريق." ثم أضاف متسائلًا: "كيف يعرف ذلك؟"

راقبه مصاص الدماء بصمت للحظة، ثم قال أخيرًا: "هذا، سيتعين عليك أن تسأله بنفسك. ولهذا قبلتَ عرض الحاكم، أليس كذلك؟"

ابتسم جيرالت ابتسامة ساخرة، وقال باقتضاب: "بالطبع. أعتقد أنني سأجري حديثًا صغيرًا مع هذا السيد... مع هذا النصف-إلف." ثم زفر مستاءً: "ولكن حتى بدون ذلك، أليس التفسير واضحًا؟ إنه لا يعمل بمفرده."

صمت ريجيس، متأملاً جيرالت قبل أن يجيب بحذر: "لا يعجبني ما تقوله، جيرالت. ولا يعجبني ما تفكر فيه. هذه فكرة قبيحة، متسرعة، ولا تأخذ كل شيء بعين الاعتبار. إنها نتيجة للتحيز والاستياء."

تساءل الويتشر بحدة: "إذن، كيف تفسّر الأمر؟"

قاطعه ريجيس، ولكن هذه المرة بنبرة لم يسمعها جيرالت منه من قبل: "على أي حال، هذا ليس التفسير الوحيد. على سبيل المثال، هل فكّرت في احتمال أن تكون حاميتك الشقراء تكذب ببساطة؟"

صرخت أنغوليم، التي كانت تمتطي البغل "دراكولا" خلفهم: "حسنًا، حسنًا، أيها العم! لا تلقِ اتهامات قبل أن تتمكن من إثباتها!"

قال ريجيس ببرود: "لستُ عمّك، يا صغيرتي."

تحدته أنغوليم بوقاحة: "وأنا لست صغيرتك، أيها العم!"

استدار جيرالت في سرجه، ونظر إليها مباشرة وهو يأمرها بصوت حازم: "اصمتي، أنغوليم."

رفعت حاجبيها بتحدٍّ، ثم قالت بنبرة أكثر هدوءً: "كما تشاء." ثم أضافت بمكر: "يمكنك أن تصدر لي الأوامر. أنت من أخرجني من السجن، وانتزعتني من قبضة اللورد فولك. أنت الآن زعيم عصابتي..."

نظر إليها الويتشر بحدة وكرّر طلبه بلهجة لا تحتمل الاعتراض: "قلتُ لكِ... اصمتي."

تمتمت أنغوليم بشيء غير مفهوم، ثم أوقفت تحفيزها للبغل "دراكولا" وتراجعت إلى الخلف، حيث زاد جيرالت وريجيس من وتيرتهما وتجاوزا دانديليون وملفا وكاهير، الذين كانوا يركبون أمامهما. ساروا نحو

الجبال، بمحاذاة ضفاف نهر نيوي، الذي تحول ماؤه إلى لون بني مصفر عكر بعد الأمطار الأخيرة، مندفعًا بين الصخور والتيارات.

لم يكونوا وحدهم. فقد صادفوا مرارًا فرقًا من الفرسان النيلفجارد، وفرسانًا منفردين، وعربات المستوطنين، وقوافل التجار.

إلى الجنوب، ارتفعت جبال أميل، متزايدة الاقتراب والرهبة، شاهقة في الأفق. وفي وسطها، برزت إبرة جارجون الحادة، "جبل الشيطان"، غارقة في السحب الداكنة التي غطت السماء بأكملها.

أشار مصاص الدماء إلى الثلاثة الذين يركبون أمامهم، ثم سأل بهدوء: "متى ستخبرهم؟"

أجاب جيرالت دون أن يرفع نظره عن الطريق: "عندما ننصب المعسكر."

كان دانديليون أول من تحدث بعد أن أنهى جيرالت حديثه. قال وهو يحدق في النار: "صححني إن كنت مخطئًا، لكن الفتاة التي قبلتَها عن طيب خاطر ودون أي شروط في رفقتنا... مجرمة. ولكي تحميها من العقاب – الذي تستحقه بالمناسبة – قررت التعاون مع النيلفجارديين. لقد سمحت لهم بتوظيفك... ما الذي أقوله؟ لم توظف نفسك فقط، بل وظفتنا جميعًا. علينا جميعًا مساعدة النيلفجارديين في القبض على أي مفترسين محليين وتسليمهم إلى حبل المشنقة. باختصار: لقد أصبحتَ، يا جيرالت، مرتزقًا نيلفجارديًا، صياد جوائز، قاتلًا مأجورًا. وعلينا أن نلعب دور أتباعك... خدمك... مريديك..."

تمتم كاهير: "لديك موهبة لا تصدق في التبسيط يا دانديليون." ثم نظر إليه بحدة وأضاف: "هل حقًا لا تفهم ما هو على المحك؟ أم أنك تتكلم لمجرد الكلام؟"

"اصمت، أيها النيلفجاردي. ما رأيك في ماقلته جيرالت؟"

قال جيرالت بينما يرمي غصنًا صغيرًا كان يلعب به في النار: "لنبدأ بحقيقة أن هذا خطتي، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد. يمكنني القيام بها وحدي. دون أتباع أو مريدين."

سمعت أنغوليم كلامه وضحكت بسخرية: "لديك شجاعة، يا عم، لكن في عصابة نايتينغيل يوجد أربعة وعشرون رجلًا، جميعهم شجعان أيضًا. لن يتم إخافتهم بسهولة – حتى لو كان ذلك من قبل ويتشر. وعندما يتعلق الأمر بالقتال بالسيف، حتى لو كان كل ما يُقال عن الويتشر صحيحًا، فلا يمكن

لرجل واحد أن يصمد أمام اثنين وعشرين خصمًا. لقد أنقذتَ حياتي، لذا سأرد لك الدين. سأحذرك... وسأساعدك."

"ما هذا بحق الجحيم! عصابة؟" سأل دانديليون وهو ينظر إلى كاهير.

"أين هانسي"، قال كاهير ببرود، "تعني في لغتنا طاقمًا مسلحًا، لكنه مُرتبط أيضًا بروابط صداقة..."

"مجتمع سري؟" تساءل الشاعر.

"شيء من هذا القبيل. الكلمة، كما سمعتها في اللهجة المحلية..."

قاطعتها أنغوليم بمرح: "الهانسي هي الهانسي. يمكنك أن تسميها عصابة أو طائفة أو كتيبة، لكن هذا ليس مهمًا. المهم هو تحذيري. شخص واحد لا فرصة له ضد عصابة كاملة. علاوة على ذلك، لدى نايتينغيل الكثير من الأصدقاء والحلفاء في بيلهفن والمنطقة المحيطة بها. وإذا كنت لا تعرف الطريق، فهناك عدة مسارات تؤدي إلى أماكن أخرى غير المدينة. أقول لك: الويتشر لن ينجح بمفرده. لا أعرف ما هي العادات السائدة عندكم، لكنني لن أترك الويتشر في ورطته. لقد قبلني في رفقتكم، مثلما قال العم دانديليون، 'عن طيب خاطر ودون شروط'، رغم أنني مجرمة...

ما زال شعري تفوح منه رائحة السجن، لأنني لم أتمكن من غسله بعد... الويتشر، وليس أي شخص آخر، هو من أخرجني من هناك. أنا ممتنة له. ولهذا لن أتخلى عنه. سأقوده إلى بيلهفن، إلى نايتينغيل، وإلى ذلك النصف-إلف. سأذهب معه."

«أنا أيضًا»، قال كاهير على الفور.

«وكذلك أنا!»، قالت ميلفا بشراسة.

أمسك داندليون الأنبوبَ المحتويَّ على المخطوطات إلى صدره. لم يفارقه مؤخرًا، حتى للحظة. كان واضحًا أنه يخوض صراعًا داخليًّا مع أفكارٍ تدور حول المكاسب والخسائر.

«لا تتردد أيها الشاعر»، قال ريجيس بنعومة. «لا عيب في ذلك. أنت مُبرَّرٌ بعدم مشاركتك في معركة دموية بالسيف والسكين أكثر مني. لم نُخلَق لنُشوِّه جيراننا بالحديد. بالإضافة... أنا أيضًا...»، أومأ بعينيه إلى جيرالت وميلفا.

«أنا جبان»، اعترف باختصار. «إن لم يكن ضروريًّا، لا أريد المرور بتجربة مثل تلك التي عشناها على الزورق والجسر مرة أخرى. أبدًا. وأطلب إعفائي من مجموعة القتال المتوجهة إلى بيلهافن».

«من ذلك الزورق والجسر»، ردت ميلفا بجفاء، «حملتني على ظهرك حين كانت ساقاي ضعيفتين لدرجة التعثُّر. لو كان مكانك شخصٌ جبانٌ لفرَّ تاركًا إياي. لكن لم تكن جباناً. كنت أنت فقط، ريجيس».

«كلام جميل، يا عمة»، قالت أنغوليم مقتنعة. «لا أفهم تمامًا ما النقاش، لكنه كلام جميل».

«لست عمتك!»، اشتعلت عينا ميلفا بتهديد. «انتبهي يا فتاة! إن ناديتني هكذا مجددًا سترين!».

«ماذا سأرى؟».

«أصمتوا!»، زمج الويتشر بحدة.

وأكمل: «كفى، أنغوليم! أرى أنني بحاجة لفرض النظام عليكم جميعًا. زمن الترحال العشوائي نحو المجهول، لمجرد احتمال وجود شيء ما هناك، قد ولى. حان وقت الأفعال الملموسة. وقت قطع الحناجر. لأننا أخيرًا وجدنا حناجرَ يمكن قطعها.

على من لم يستوعب بعد أن يفهم: أنه أخيرًا قد أصبح لدينا عدو حقيقي في مرمى أيدينا. نصف-إلف يريدنا أمواتًا، عميلٌ لأعدائنا. وبفضل أنغوليم، حُذِّرنا وحددنا الخطر – "وتجنبنا كارثة كانت قد تحدث" كما يُقال. عليَّ أن أمسك بهذا النصف-إلف وأستخلص منه أوامر من يعمل. هل فهمت أخيرًا، دانديليون؟»

"يبدو"، قال الشاعر بهدوء، "أنني أفهم أكثر وأفضل منك. دون الحاجة إلى البحث والاستنتاج، يمكنني أن أتخيل أن ذلك النصف-إلف الغامض يعمل بأوامر ديكسترا، ذلك الذي هشمتَ كاحله أمام عيني على ثانيد. وفقًا لتقرير المارشال فيسيغيرد، لا شك لدى ديكسترا أننا جواسيس نيلفجارد. وبعد فرارنا من فيلق ليريا والملكة ميف، هناك بضع نقاط ستُضاف بلا شك إلى قائمة جرائمنا..."

"خطأ، دانديليون"، قال ريجيس بنبرة ناعمة. "ليس ديكسترا. ولا فيسيغيرد. ولا ميف."

"إذًا من يكون؟"

"أي حكم، وأي استنتاج سيكون متسرعًا."

"صحيح"، قال الويتشر ببرود. "يجب أن يُحقق في الأمر مباشرة. والاستنتاجات يمكن استخلاصها من التشريح."

"لكنني"، أصرّ دانديليون، "ما زلتُ أرى أن هذه الفكرة غبية ومتهورة. من حسن الحظ أننا تم تحذيرنا من الكمين وأننا نعرف بشأن النصف-إلف. والآن بعد أن عرفنا، يمكننا أن نأخذ طريقًا أطول ونتجنبه. يمكن لذلك الإلف أو النصف-إلف أن ينتظرنا بينما نتابع طريقنا بسرعة..."

"لا"، قاطعه الويتشر. "انتهى النقاش، يا صديقي. انتهى زمن الفوضى. حان الوقت لكي تحصل فرقتنا... أو لنقل هانسنا... على قائد أخيرًا."

* * *

الجميع، باستثناء أنغوليم، نظروا إليه بترقب."

"أنا، أنغوليم، وملفا،" قال جيرالت، "سنذهب إلى بيلهافن. كاهير، ريجيس، ودانديليون سيتوجهون إلى وادي سانسرِتور ثم يكملون إلى توسان."

"لا،" قال دانديليون بسرعة وبحزم، ممسكًا بأنبوب مخطوطاته. "لن أفعل ذلك بأي ثمن. لا أستطيع..."

"اصمت. هذه ليست مناقشة. هذا أمر من قائد هذه الهانسا! اذهب إلى توسان – أنت، ريجيس، وكاهير. انتظرونا هناك."

"توسان تعني الموت بالنسبة لي،" قال الشاعر بصوت ضعيف. "إذا تعرفوا علي في قصر بوكلير، فالأمر انتهى. يجب أن أخبرك..."

"يجب ألا تخبرني،" قاطعه الويتشر ببرود. "فات الأوان. كان يمكنك التراجع، لكنك لم ترغب بذلك. بقيت مع المجموعة. لإنقاذ سيري، صحيح؟"

"نعم."

"إذن ستعبر وادي سانسرِتور مع ريجيس وكاهير. ستنتظروننا في الجبال – لا تتجاوزوا حدود توسان بعد. لكن عندما... إذا تطلب الأمر، عندها تخطوها. لأن درويد كايد دو هم في توسان. إذا دعت الحاجة، ستحصلون على المعلومات منهم وتواصلون البحث عن سيري... وحدكم."

"ماذا تعني بوحدكم؟ لا يمكنك أن تتوقع..."

"أنا لا أتوقع، لكنني أضع كل الاحتمالات في الحسبان. لجميع الحالات. إنها الملاذ الأخير، إن شئت. ربما تسير الأمور كما ينبغي ولن تحتاجوا لعبور توسان. ولكن في الحالة الأخرى... الأمر مهم لأن النيلفجارديين لن يلاحقوكم داخل توسان."

"صحيح، لن يفعلوا،" أضافت أنغوليم. "إنه أمر غريب، لكن نيلفجارد تحترم حدود توسان. لقد اختبأت هناك مرة من مطاردين. لكن الفرسان هناك ليسوا أفضل من السود! يتحدثون بنبل وأدب، لكنهم سريعو اللجوء إلى رماحهم وسيوفهم. وهم يقومون بدوريات على الحدود باستمرار. يسمون أنفسهم 'الفرسان الجوالين'. يركبون بمفردهم، أو في أزواج، أو مجموعات ثلاثية. وهم يقتلون الرعاع. ممن هم مثلنا. ويتشر، عليك أن تجري تغييرًا واحدًا على خطتك."

"ما هو؟" هدأ جيرالت مِلفا بإيماءة.

"لأننا بحاجة إلى رجال لهذه المهمة. ما الأمر، يا عمّة؟ أنا أعلم ما أقول! إذا وصلنا إلى تلك المرحلة، فقد نتمكن من إخافتهم بدلاً من اللجوء إلى القوة. ولن يخشى أحد في عصابة نايتينغيل من ثلاثة أشخاص عندما يكون اثنان منهم نساء."

"ملفا ستذهب معنا." قبضت أصابع جيرالت على كتف الرامية، التي كانت تغلي غضبًا. "ملفا، وليس كاهير. لا أريد أن أرحل مع كاهير."

"ولماذا لا؟" سأل كل من أنغوليم وكاهير في آنٍ واحد تقريبًا.

"بالفعل،" قال ريجيس ببطء. "لماذا لا؟"

"لأنني لا أثق به،" قال الويتشر بصرامة.

ساد صمت محرج، ثقيل، يكاد يكون لزجًا. كانت أصوات الصياح والغناء تتردد عبر الغابة، حيث كانت قافلة تجار قد أقامت مع مجموعة أخرى من المسافرين.

"اشرح ذلك،" قال كاهير.

"لقد خاننا أحدهم،" قال جيرالت بجفاف. "بعد التحدث مع الحاكم وسماع معلومات أنغوليم، لم يعد هناك شك. وعندما تفكر في الأمر، تصل إلى استنتاج مفاده أن هناك خائنًا بيننا. ومن السهل تخمين من هو."

قال: كاهير ببطء، "إذن لم أكن مخطئًا؟ أنا خائن؟ خائن ماكر مزدوج الوجه؟"

تدخل: ريجيس في النقاش، قائلاً بصراحة، "جيرالت، سامحني على صراحتي، لكن نظريتك مليئة بالثغرات مثل غربال قديم. وطريقتك في التفكير، كما قلت لك من قبل، بشعة."

ردد: كاهير، كأنه لم يسمع كلمات مصاص الدماء، "أنا خائن. لكن مما أفهمه، لا يوجد دليل على خيانتي—فقط شكوك وافتراضات غامضة من هذا الويتشر. ومما أفهمه أيضًا، فإن عبء الإثبات يقع عليّ لأثبت براءتي. عليّ أن أثبت أنني لست حصانًا، أليس كذلك؟"

زمجر: جيرالت، وهو يحدق في عيني كاهير، " لا تمثل دور الضحية أيها النيلفجاردي، لو كان لدي دليل على خيانتك، لما أضعت وقتي في الكلام، بل قطّعتك إلى شرائح مثل سمكة الرنجة! هل تعرف مبدأ (لمصلحة من؟ ومن المستفيد؟) إذن، أخبرني: من غيرك قد يكون لديه سبب لخيانة المجموعة؟ من غيرك سيستفيد من الخيانة؟"

دوى: هدير عالٍ مستمر من معسكر قافلة التجار. انفجر: السماء السوداء بشرارات حمراء وذهبية متألقة. انطلقت: الألعاب النارية كأسراب من النحل الذهبي وسقطت كأمطار ملونة.

قال: كاهير بصوت قوي، "أنا لست حصانًا. للأسف، لا يمكنني إثبات ذلك. لكن يمكنني فعل شيء آخر. شيء أفعله عندما تُهان كرامتي أو يُداس على شرفي."

تحرك بسرعة البرق، لكن لم يكن سريعًا بما يكفي ليباغت الويتشر، على الأقل لولا ركبته المصابة والمؤلمة. لكن جيرالت لم يستطع تمامًا من تفادي الضربة، فارتطمت قبضة كاهير المغطاة بالقفاز بخد الويتشر بقوة فسقط على ظهره مباشرة في النار، متسببًا في تطاير الشرر.

قفز جيرالت بسرعة، لكنه تباطأ مجددًا بسبب ألم ركبته. كان كاهير قد وصل إليه بالفعل. وفي هذه المرة، لم يتمكن الويتشر من تجنب الضربة.

سدد كاهير لكمة قوية إلى جانب رأسه فتراقصت الألعاب النارية أمام عينيه، أجمل حتى من تلك التي أطلقها التجار. بصق جيرالت شاتماً وألقى بنفسه على كاهير وأحاطه: بذراعيه وأسقطه أرضًا، حيث تدحرجا فوق الحصى وانهالا على بعضهما باللكمات.

ستمرت: السماء في الانفجار بضوء ناري مخيف وغير طبيعي، بينما كانت الألعاب النارية تملأ الأفق.

صرخ: دانديليون بأعلى صوته، "توقفا! توقفا، أيها الأحمقان الملعونان!"

لكم كاهير جيرالت، الذي كان يحاول النهوض، وأسقطه مجددًا أرضًا. دوت الضربة بقوة. فتدحرج جيرالت لكنه استقام، وسدد ركلة إلى ورك كاهير. عادت المعركة من جديد، تدحرجا فوق بعضهما البعض، متبادلين الضربات، أعمتهما الرمال والغبار بقدر ما أعمتهما اللكمات.

وفجأة، انفصلا عن بعضهما البعض، متدحرجين في اتجاهين مختلفين، أيديهما مرفوعة فوق رؤوسهما، تحسبًا للضربات التي بدأت تمطر عليهما من الأعلى.

كانت: ميلفا قد خلعت الحزام الجلدي العريض من على خصرها ولفت مشبكه حول يدها. اندفعت: نحو المتقاتلين، وبدأت تضربهما بكل قوتها، غير آبهة بألم يدها أو الحزام. صفع الحزام الهواء بصوت حاد قبل أن يهوى على الأذرع، الأكتاف، الظهور – تارةً على كاهير، وتارةً على جيرالت. وعندما حاولا التراجع، كانت ميلفا تتنقل بينهما كجرادة، تواصل جلد الاثنين دون تمييز.

صاحت: غاضبة، وهي تسدد ضربة قاسية إلى ظهر جيرالت، "أيها الحمقى الأغبياء!"

تابعت: وهي تلهث من الغضب، "أيها الأغبياء! سأعيدكما إلى رشدكما، كلاكما!"

صرخت: بصوت أعلى، بينما رفع كاهير يده ليحمي رأسه، "هل انتهيتما؟ هل أنتما مستعدان للتصرف بعقل؟ هل هدأتما؟"

زمجر: الويتشر بألم، "مستعد! كفى!"

قال: كاهير، منكمشًا على نفسه، "كفى! كفى!"

قال: ريجيس بهدوء، "يكفي يا ميلفا. يكفي حقًا."

كانت: الرامية تلهث، تمسح جبهتها بيدها التي كانت لا تزال تمسك بالحزام الملفوف حولها.

قالت: أنغوليم بإعجاب ساخر، "برافو، أيتها العجوز!"

استدارت: ميلفا على عقبيها، ولوّحت بالحزام بكل قوتها على كتف أنغوليم.

صرخت: الفتاة الصغيرة، سقطت أرضًا، وبدأت تبكي.

قالت: ميلفا، وهي تتنفس بصعوبة، "لقد أخبرتك من قبل ألا تناديني بذلك! لقد حذرتك!"

طمأن: دانديليون التجار والمسافرين بصوت مهتز بعض الشيء، بينما كانوا يهرعون هرباً من النيران القريبة التي تطايرت نتيجة المشاجرة: "لم يحدث شيء! مجرد سوء فهم بسيط بين الأصدقاء. اختلاف في الرأي بين الأصدقاء. وقد تم حله بالفعل!"

تحسس: الويتشر أحد أسنانه المتحركة بلسانه، وبصق الدم الذي سال من شفته المشقوقة. شعر: بالورم ينتفخ على ظهره وذراعيه، إحدى الضربات أصابت أذنه، والتي باتت تشعره وكأنها بحجم قرنبيطة.

رفع: كاهير نفسه عن الأرض بشكل غير أنيق تمامًا، واضعًا يده على خده المتورم، والندوب بدأت تظهر واضحة على بشرته العارية.

سقط: مطر كريه الرائحة من الكبريت على الأرض، وهو رماد الألعاب النارية الأخيرة.

كانت: أنغوليم تمسك بكتفها وتبكي نحيبًا مؤلمًا. أما ميلفا، فقد أسقطت الحزام على الأرض، جثت على ركبتيها، وبعد لحظة من التردد، احتضنت نفسها بصمت.

قال: ريجيس ببرود، "أقترح أن يبقي الجميع أيديهم لأنفسهم. وأقترح ألا نعود أبدًا، مطلقًا، لهذا الموضوع."

فجأة، هبّت ريح من الجبال، تصفر بصوت بدا وكأنه صرخات أشباح، ونحيبًا، وأنينًا قادمًا من الظلام. تراقصت: السحب عبر السماء، واتخذت أشكالًا خرافية، بينما تحول القمر إلى لون أحمر قانٍ، كدم مسفوك.

* * *

أيقظتهم قبل الفجر، جلبة عارمة من ضربات الأجنحة مصحوبة بجوقة من خُلاب الماعز الغاضبين فغادروا فور شروق الشمس، لأن الأشعة المنعكسة على القمم المغطاة بالثلوج كانت ستسطع بضوء أعمى البصر.

بدأوا رحلتهم قبل أن تتمكن الشمس من الظهور فوق القمم، وبالمصادفة، كانت السماء قد غطتها الغيوم قبل أن يحدث ذلك بوقت طويل.

ساروا عبر الغابات، والطريق ترتفع بهم شيئًا فشيئًا، وكان ذلك واضحًا من خلال التغير في الأشجار المحيطة. فقد توقفت أشجار البلوط والزان فجأة، وحلت محلها كثافة الظلال المنبعثة من أشجار الزان العظيمة. تفوح رائحة العفن من الأرض، حيث غطتها الأوراق المتساقطة، وشبكات العنكبوت، والفطريات.

انتشر الفطر بكثرة، إذ أن نهاية الصيف الرطبة قد جلبت فيضانًا هائلًا من العفن والفطريات. في بعض الأماكن، كانت أشجار الزان بالكاد مرئية تحت قبعات الفطر والذباب السام والفطريات المضيئة.

وقد بدت الغابات هادئة، وكأن معظم الطيور قد هجرتها. لم يكن يسمع سوى نعيق الغربان وهي تجثم عند أطراف الأشجار.

أصغوا للصمت، قبل أن تظهر فجأة أشجار التنوب، حاملة معها عبق الراتينج النفاذ.

بدأت التلال العارية والقمم الجرداء تتكرر في طريقهم، حيث كانت الرياح تنقض عليهم من أعلى. عند أسفلها، كان نهر نيوي يفور فوق المنحدرات والشلالات، فيما أصبحت مياهه صافية كالبلور رغم الأمطار.

وتراءت قمة جورجون في الأفق، تزداد اقترابًا شيئًا فشيئًا.

كان الجليد والثلج ينسابان من الحواف المسننة لتلك الجبال المهيبة، مما جعلها تبدو كما لو أنها مغلفة بشالات بيضاء. كانت قمة "جبل الشيطان" محاطة على الدوام بالغيوم، كأنها تحجب رأس وعُنق عروس غامضة.

وفي بعض الأحيان، كانت: جورجون تهتز كراقصة في ثوبها الأبيض، منظر آسر، بقدر ما هو فتاك؛ إذ كانت الانهيارات الثلجية تتدحرج من على المنحدرات الحادة، مكتسحة في طريقها كل شيء، حتى تصل إلى السفوح الحجرية في قاعدة الجبل، ثم تعبر ممر ثيودولا، وتندفع عبر وديان نيوي وسونسراتور، حتى تستقر في العيون السوداء لبحيرات الجبال.

خيرًا، خرجت: الشمس من خلف الغيوم، لكنها لم تلبث طويلاً – سرعان ما اختفت خلف الجبال في الغرب، تاركة السماء تتوهج بلهب أرجواني وذهبي.

قضوا: الليل هناك. أشرقت الشمس من جديد.

ثم حان وقت الفراق.

* * *

لفَّ: جيرالت بعناية وشاح ميلفا الحريري حول رأسه. وارتدى غطاء رأس ريجيس. وتحقق مجددًا من موضع سيف السيهيل على ظهره ومن موقع الخنجرين المخفيين في حذائه.

بالقرب منه كان كاهير يشحذ سيفه النيلفجاردي الطويل.

أنغوليم كانت تلف شريطًا صوفيًا حول جبهتها، وقد وضعت خنجر صيد في حذائها – هدية من ميلفا. كانت الرامية ومصاص الدماء يجهزان الأحصنة.

ريجيس قد تخلّى عن حصانه لأنغوليم، رافعًا من منزلتها بركوب البغل "دراكولا".

كانوا جاهزين. لم يتبقَّ سوى شيء واحد يجب القيام به.

قال: "تعالوا جميعًا."

جاءوا إليه.

بدأ: جيرالت، محاولًا ألا يبدو الأمر محزناً، "كاهير، ابن كيلاك، لقد أسأت إليك بشكوك لا أساس لها، وتصرفت نحوك بخبث. أولًا، أعتذر لك الآن، ورأسي منحني خجلًا. أطلب الصفح منك. كما أطلب السماح منكم جميعًا، فقد كان قاسيًا أن أجعلكم تشهدون وتسمعون كل هذا."

"لقد: حجبت عن كاهير وعنكم جميعًا السبب الحقيقي وراء غضبي، وسخطي، وحزني. إن ذلك ينبع من كوني أعلم من خاننا. أعلم من خان وخطف سيري، التي نسعى لإنقاذها. غضبي ينبع من حقيقة أن الشخص الذي فعل ذلك كان ذات يوم قريبًا مني جدًا."

"إن مكاننا وما نفعله، وإلى أين نذهب، وما نريد – كل هذا تم تحديده عبر وسائل السحر والتجسس والاستكشاف السحري. إذ ليس من الصعب على ساحر أو ساحرة بارعين أن يحددوا موقع شخص ما من بعيد ويراقبوه – طالما كان ذلك الشخص قريبًا منهم في السابق، وطالما تشاركوا معه رابطًا ذهنيًا طويلاً بما يكفي لتكوين مصفوفة منه.

لكن الساحر والساحرة اللذين أتحدث عنهما ارتكبا خطأً. لقد كشفا عن نفسيهما. أخطآ في عدد أعضاء مجموعتنا، وهذا الخطأ فضحهما. أخبرهم يا ريجيس."

قال: ريجيس ببطء: "قد يكون جيرالت محقًا. كأي مصاص دماء، أنا هدف غير مرئي لطلسمات الكشف والتعقب السحرية. يمكن حساب وجود مصاص دماء عبر السحر التحليلي عن قرب، لكن لا يمكن اكتشافه من مسافة بعيدة باستخدام تعاويذ التحديد أو التعقب. حيث يوجد مصاص دماء، تقول تعاويذ الكشف إنه لا يوجد أحد. لذا، الوحيد الذي يمكن أن يخطئ في تعدادنا هو ساحر، إذ يظن أننا أربعة، بينما نحن في الحقيقة خمسة، أي أربعة رجال ومصاص دماء."

قال: جيرالت، مستعيدًا الحديث، "سنستغل هذا الخطأ للإيقاع بالساحر. أنا، وكاهير، وأنجوليم سنذهب إلى بيلهافن ونتحدث مع النصف-إلف، قاتلنا المأجور. لن نسأله بأمر من يعمل، لأننا نعلم بالفعل. سنسأله عن مكان الساحر. وإن تمكنا من انتزاع الموقع منه، سنذهب إلى هناك لننال منه."

ساد: الصمت.

قال: جيرالت بصوت منخفض، "لقد توقفنا عن عد الأيام، لذلك لم ننتبه أن اليوم هو الخامس والعشرون من سبتمبر. منذ يومين كان الاعتدال. الاعتدال... نعم، كان نفس الليلة التي تعتقدون أنها كانت.

أرى الحزن في أعينكم ربما تلقيتم إشارة في تلك الليلة البغيضة، حينما خيمنا بجوار التجار الذين جعلهم البراندي شجعانًا كفاية ليغنوا ويطلقوا الألعاب النارية، ربما لم يكن لديكم حدس واضح كما كان الحال معي ومع كاهير، لكن يمكنكم التخمين، نعم. لديكم شكوك. وأخشى أن هذه الشكوك مبررة."

حامت: الغربان فوق الصخور العارية وبدأت بالنعيق.

أضاف: جيرالت بصوت قاتم، "كل شيء يشير إلى أن سيري لم تعد على قيد الحياة. منذ يومين، في الاعتدال، تم قتلها. في مكان بعيد عن هنا وحيدة، ومعزولة، وبين غرباء معادين."

قال جيرالت بصوت ملتهب بالغضب: "لم يتبقَّ لنا سوى الانتقام. انتقامٌ دمويٌّ ووحشي، سيُحكى عنه لمئة عام، وستصبح قصصنا همسًا بين الناس، يخشون سماعها بعد غروب الشمس. ومن تسوّل له نفسه تكرار مثل هذه الجريمة سيرتعد عند مجرد التفكير في انتقامنا.

سنصنع لهم مثالًا مرعبًا يُرهبهم! سنطبق منهج اللورد فُلك آرتيفيلد، اللورد الداهية الذي يعلم كيف يُعامل المجرمين بالمشانق. سنصنع لهم عبرةً مرعبةً تذهله حتى هو!"

صرخ: "لنبدأ رحلتنا إلى الجحيم! كاهير، أنجوليم: امتطوا الخيول. سنسير بمحاذاة نيوي، ثم نصعد إلى بيلهافن.

دانديليون، ميلفا، ريجيس: تابعوا الطريق عبر وادي سانسريتور نحو حدود توسان. لا يمكنكم أن تضلوا الطريق، فجورجون ستقودكم. وسنلتقي قريبًا."

* * *

داعبت: سيري القط الأسود، الذي عاد إلى الكوخ في المستنقع. وكحال جميع القطط، فقد طغى نفوره من البرد والجوع وعدم الراحة في النهاية على حبه للحرية. الآن، كان ممددًا على حجرها، يقدّم عنقه لتداعبه، وهو يخرّ بلذة.

لم يكن للقط أدنى اهتمام بقصّة الفتاة.

تابعت: "كانت تلك المرة الوحيدة التي حلمت فيها بجيرالت." تنهدت بصوت خافت. "لم أره في أي حلم منذ افترقنا على جزيرة ثانيد، منذ برج النوارس. لذا ظننت أنه قد مات. ثم فجأة، ظهر في ذلك الحلم، أحد تلك الأحلام التي علّمتني ينيفر منذ زمن أنها أحلام نبوية، تكشف الماضي أو المستقبل."

تمتم: فيسجوتا وهو يرفع رأسه، "أخبريني عنه."

أجابت: "كان ذلك قبل يوم من الاعتدال. في بلدة صغيرة نسيت اسمها. في قبو حيث احتجزني بونهارت، بعد أن عذبني وأجبرني على الاعتراف بحقيقتي."

حدّق بها العجوز بعينين متسائلتين، "أخبرتيه من تكونين؟ أخبرتيه بكل شيء؟"

أغمضت: سيري عينيها، كأنها تحاول محو الذكرى، "دفعتُ ثمن جبني بالخضوع واحتقار الذات."

عاد العجوز ليتمتم: "أخبريني عن الحلم."

ابتلعت ريقها، وأجابت بصوت منخفض: "رأيته كأنني جبل، شاهق، وحاد الأطراف كحد السكين الصخري. رأيت جيرالت. سمعت كلماته، كل كلمة، كأنني كنت هناك حقًا. أتذكر أنني أردت أن

أصرخ، أن أخبره أن الأمور لم تكن كما يظن، أن كل شيء ليس حقيقيًا، أنه كان مضلَّلاً بشكل فظيع... أنه كان مخطئًا تمامًا!"

شهقت فجأة، وعانقت القط بين ذراعيها. "أردت أن أقول له إن الاعتدال لم يأتِ بعد، وحتى لو جاء، فلن أموت فيه كما تنبأ سابقًا، لأنني ما زلت حيّة. وأردت أن أمنعه من اتهام ينيفر، ومن قول مثل تلك الأمور عنها..."

توقفت لوهلة، داعبت القط مجددًا، ثم شهقت بعنف.

"لكنني لم أكن أملك صوتًا. لم أستطع حتى التنفس... كان الأمر وكأنني أغرق."

استنشقت الهواء بصعوبة، ثم أضافت بصوت شاحب: "ثم استيقظت. آخر ما رأيته، آخر ما أذكره من هذا الحلم... ثلاثة فرسان. جيرالت واثنان آخران، يركضون عبر ممر ضيق، والشلالات تنهمر من جدرانه الصخرية..."

ظل فيسجوتا صامتًا.

* * *

لو تمكن أحدهم من التسلل خلال الظلام إلى الكوخ ذي السقف المتداعي، ولو أنه ألقى نظرة عبر شق في المصاريع، لرأى في الداخل المعتم، رجلاً عجوزًا رمادي اللحية، منصتًا بتركيز إلى قصة فتاة شقراء رمادية الشعر، تحمل ندبة قبيحة تشوه خدها.

لكان رأى أيضًا قطًا أسود يجلس في حجر الفتاة، يخرّ بكسل، راغبًا في مزيد من المداعبة، وسط بهجة الفئران التي تمر عبر الكوخ دون اكتراث.

لكن لم يكن هناك أحد ليرى ذلك. فقد كان الكوخ ذو السقف المترهل المكسو بالأكياس والطحالب مخفيًا جيدًا وسط ضباب المستنقعات اللامتناهية في بيربلوت، حيث لا يجرؤ أحد على الدخول.

من المعروف أن الويتشر يجلب الألم والمعاناة والموت. إنه يجد لذة منحرفة ومتعة في هذه المشاعر البسيطة، كما يجد الإنسان العادي، التقيّ، متعته مع زوجته في ليلة زفافه. وعليه، فمن الواضح أن الويتشر كائن غير طبيعي، مخلوق حقير لا أخلاق له، منحدر من أعمق وأحلك دهاليز الجحيم، لأنه، وبكل تأكيد، لا أحد غير الشيطان يمكنه أن يجد الفرح في العذاب والعناء.

من كتاب "مونستروم، أو تصوير للويتشرز" لمؤلف مجهول

الفصل السادس

تركوا الطريق الذي امتد على طول وادي نيوي، واختصروا المسافة عبر الجبال. كانوا يركبون بأقصى سرعة يسمح بها المسار، وهو ممر ضيق متعرج تحيط به صخور ذات أشكال خيالية، مغطاة بطبقات من الطحالب والأشنيات الملونة. ساروا بين جدران صخرية عمودية، تتدلى منها شرائط مخططة من الشلالات والمجاري المائية. اجتازوا الأخاديد والوديان، وعبَروا جسورًا صغيرة تمتد فوق الهاويات، حيث كانت الرغوة البيضاء تدور في أعماقها السحيقة.

بدت الشفرة الزاوية لجبل جورجون وكأنها تلوح فوق رؤوسهم مباشرة، رغم أنهم لم يتمكنوا من رؤية قمة جبل الشيطان، إذ غاصت في الغيوم والضباب الذي غطى السماء. وكما هو الحال في الجبال، تغير الطقس للأسوأ في غضون ساعات قليلة، وبدأت الأمطار تتساقط برذاذ خفيف مزعج ومزعج.

ومع حلول المساء، بدأ الثلاثة يراقبون بنفاد صبر وقلق أي مأوى محتمل: كوخ راعٍ، زريبة مهجورة، أو حتى كهف، أو أي شيء يحميهم من برودة الليل والمطر المتساقط.

قالت أنغوليم بصوت يحمل الأمل: "يبدو أن المطر قد توقف. لم يعد يتساقط الآن إلا من خلال الثقوب الموجودة في سقف الكوخ. إذا حالفنا الحظ، سنصل إلى بيلهفن غدًا، حيث يمكننا المبيت في أحد الأكواخ أو الحظائر القريبة."

سألها كاهير: "ألن ندخل إلى المدينة؟"

ردت بحزم: "مستحيل. الغرباء على ظهور الخيل يلفتون الأنظار، ولدى نايتينغيل العديد من المخبرين في المدينة."

علق الويتشر، وهو يقلب قطع الحطب في النار: "لكن الخطة هي أن نقدم أنفسنا كطُعم عن قصد..."

قاطعته أنغوليم قائلة: "لا، إنها خطة فاشلة، إذا ظهرنا معًا، فسوف نثير الكثير من الشبهات. نايتينغيل كلب ماكر، وبالتأكيد وصلت إليه أخبار اعتقالي الآن. وإذا ساورته الشكوك، فسوف يعلم النصف-إلف بذلك."

سألها كاهير: "وماذا تقترحين إذن؟"

قالت وهي تتأمل ألسنة اللهب الراقصة: "سنسلك طريقًا يمر شرق المدينة، بالقرب من فم وادي سانسرتور، حيث توجد مناجم الحديد. لدي صديق في أحد المناجم، سنزوره. ومن يدري، ربما يكون لهذه الزيارة فائدة عظيمة."

رفع الويتشر حاجبيه وقال بلهجة متشككة: "هل يمكنك أن تتحدثي بوضوح أكثر؟"

هزّت رأسها وقالت بإصرار: "سأفعل ذلك غدًا، في المنجم. لا أريد أن أجلب النحس."

ألقى كاهير أغصان البتولا في النار، فاشتعلت بسرعة بألسنة زرقاء، رغم أن المطر كان يتساقط طوال اليوم ولم يكن أي نوع آخر من الخشب ليشتعل بهذه السهولة.

سألها وهو ينظر إلى ألسنة اللهب: "من أين أنتِ، أنغوليم؟"

أجابت وهي تحدق في النار: "أنا من سنترا، أيها الويتشر. إنها مملكة ساحلية، عند مصب نهر ياروغا."

قال كاهير بهدوء: "أعلم أين تقع سينترا."

رفعت أنغوليم حاجبها وسألت بسخرية: "لماذا تسأل إذن إذا كنت تعرف كل هذا؟ هل أنا مثيرة للاهتمام إلى هذا الحد؟"

أجاب ببرود: "لنقل... قليلاً."

ساد الصمت. النار كانت تشتعل وتُصدر طقطقة هادئة.

بعد لحظة، تنهدت أنغوليم وقالت وهي تحدق في ألسنة اللهب: "أمي كانت من نبلاء سينترا، بالنسب والدم. كان شعار عائلتها حيوان "السرقاط". كنت سأريك إياه، لأن أمي أعطتني قلادة تحمل صورة هذا القط الغبي، لكنني فقدتها في لعبة نرد... لكن هذا البيت النبيل اللعين تنكر لي، لأن أمي – على ما يبدو – أقامت علاقة مع رجل من العامة، ربما كان سائس خيول، وأنا – على ما يبدو – ابنة غير شرعية، عار، وصمة، لطخة على شرف العائلة.

لذا سلموني لبعض الأقارب البعيدين، الذين لم يكن لديهم لا قط ولا كلب ولا أي حيوان على شعارهم، لكنهم لم يكونوا سيئين معي. أرسلوني إلى المدرسة، ولم يضربوني كثيرًا... رغم أنهم لم يتوقفوا عن تذكيري دائمًا من أكون – طفلة غير شرعية، وُلدت في الأحراش.

زارتني أمي ربما ثلاث أو أربع مرات عندما كنت صغيرة. ثم توقفت. يبدو أنها لم تكن تكترث لأمري... رغم أن..."

سألها الويتشر بصوت خافت: "كيف انتهى بك الأمر بين المجرمين؟"

أصدرت صوتًا ساخرًا وهي تتصنع هيئة القاضي قائلة: "تتحدث وكأنك محقق قضائي!" ثم قلدت لهجته بتصنع: "بين المجرمين، تاهت عن طريق الفضيلة، سقطت في الهاوية!"

تمتمت بشيء غير مسموع، وبدأت تبحث في جيب سترتها حتى أخرجت شيئًا لم يكن مألوفًا للويتشر.

قالت وهي تفرك القليل منه على لثتها وتستنشق جرعة عبر أنفها: "يبدو أن فولك الأعور ليس بهذا السوء في النهاية. أخذ ما أخذ، لكنه ترك لي بعض الغبار. هل ترغب في جرعة، أيها الويتشر؟"

هز رأسه رافضًا وقال بحدة: "لا. وأفضل لو أنكِ أيضًا لا تأخذين منه."

رفعت حاجبها وسألته باستفزاز: "لماذا؟"

قال بإيجاز: "لأنني قلت ذلك."

التفتت إلى كاهير وسألته: "وأنت؟"

هز رأسه قائلاً بجفاف: "أنا لا أستخدم الفيستيك."

ضحكت بسخرية وهزت رأسها قائلة: "يبدو أنني بين مجموعة من قديسي الأخلاق! هل ستلقون علي محاضرة كيف أن الغبار سيفسد عقلي، وسيجعلني عمياء وصماء، وسألد طفلًا مشوهًا؟"

تمتم الويتشر ببرود: "كفي عن هذا، أنغوليم. وأكملي قصتك."

الفتاة عطست بعنف. ثم قالت: "حسنًا، كما تشاء. أين كنت... آه، نعم. اندلعت الحرب، تعرف تلك الحرب مع نيلفجارد، وفقد أقاربي كل ممتلكاتهم واضطروا لمغادرة منزلهم.

كان لديهم ثلاثة أطفال، وكنت أنا عبئًا زائدًا عليهم، فقرروا منحي بيتًا جديدًا. كان يُدار من قبل كهنة معبدٍ ما. مكان ممتع، كما اتضح لاحقًا. مجرد بيت دعارة، وكر دعارة لمن يحبون تذوق الفاكهة اليانعة ذات البشرة البيضاء، تفهم قصدي؟ الفتيات الصغيرات. والصبية الصغار أيضًا.

كنت قد كبرت بالفعل حينما وصلت إلى هناك، فلم يكن هناك عشاقٌ لي..."

بشكل غير متوقع، احمر وجهها؛ حتى أن توهج الخجل بدا واضحًا في ضوء النار. قالت بصوت مرتجف: "حسنًا... تقريبًا لم يكن هناك أحد."

سألها جيرالت بصوت هادئ: "كم كان عمرك آنذاك؟"

أجابت بلامبالاة مصطنعة: "خمسة عشر عامًا. تعرفتُ على فتاة وخمسة فتيان، في عمري وأكبر مني قليلًا. واتفقنا بالإجماع. كنا نعرف الأساطير والقصص. عن المجنون دي آي، وعن بلاك بارت، وعن إخوة كاسيني... أردنا حرية الطريق، حياة قطاع الطرق البهيجة! لماذا، قلنا لأنفسنا، نبقى في مكانٍ بالكاد نحصل فيه على الطعام مرتين يوميًا، ونُباع فيه لحثالةٍ مقززة...؟"

تدخل جيرالت بحدة: "خففي من ألفاظك، أنغوليم. تعرفين، الإسراف في الشتائم غير صحي."

قهقهت الفتاة ثم بصقت في النار. "يبدو أنك رجل فاضل بالفعل! حسنًا، سأختصر القصة، لأنني لا أرغب في الحديث كثيرًا. وجدنا سكاكين في مطبخ الملجأ - كانت كافية بعد أن شحذناها جيدًا على حجر السن والحزام. وحولنا أرجل الكراسي إلى هراواتٍ ممتازة. كان ينقصنا فقط الأحصنة والمال، فانتظرنا حتى جاء اثنان من الأوغاد، زبائن دائمون، عجائز، ها، لا يقلون عن الأربعين. جلسوا، شربوا قليلًا من النبيذ، وانتظروا حتى يربط لهم الكهنة، كما هي العادة، ضحيتهم الصغيرة في قطعة أثاث خاصة ومعدّة خصيصًا للمتعة المنحرفة..."

قاطَعها جيرالت بنبرة حازمة: "أنغوليم."

تنهّدت وقالت بسرعة: "حسنًا، حسنًا. باختصار: أفسدنا الأمور لهذين العجوزين القذرين، ولثلاثة كهنة، ولصبيّ الإسطبل الوحيد الذي قاتل لأجل الأحصنة بدلًا من الفرار.

رفض حارس المعبد إعطاءنا مفتاح البوابة، فأحرقنا البوابة حتى خرج بنفسه، لكننا أبقينا على حياته، لأننا كنا في زمنٍ أفضل فقد كنا دائمًا متسامحين وطيبين.

وانطلقنا في طريق قطاع الطرق. هكذا بدأت حياتنا، أحيانًا جيدة، أحيانًا سيئة، أحيانًا كنا نحن من يضرب، وأحيانًا كنا نحن من يُضرب.

أحيانًا كنا متعبين، وأحيانًا كنا جائعين. ها، في الواقع كنا جائعين أكثر مما كنا شبعانين. لقد اصطدت وأكلت أكثر مما كان يزحف ويزحف على الأرض مما كنت أفعله في حياتي. بل وأكلت ما يطير ذات مرة حتى أكلت طائرة ورقية لطفل صغير، لأنها كانت ملصقة بغراء مصنوع من الدقيق."

توقفت لحظة، ثم مررت يدها بقوة عبر شعرها الأشقر الفاتح كالقش. ثم قالت: "لكن ما مضى قد مضى. كل ما يمكنني قوله لك هو: لا أحد من الذين هربوا معي من الملجأ لا يزال على قيد الحياة. آخر اثنين، أوين وأبيل، قتلهما جنود اللورد فالك قبل بضعة أيام. حتى أبيل، الذي ألقى بسيفه مثلي، لم يرحموه وقطعوه رغم ذلك."

تنهدت، ثم تابعت بصوت خافت: "أما أنا، فقد تركوني على قيد الحياة. لكن لا تظن أن ذلك كان بدافع الرحمة أو الشفقة. لقد كان جنود اللورد قد طرحوني أرضًا ووسعوني ركلًا، كأنني أُسطح جلدي على الأرض، حتى جاء ضابط وأمرهم أن يتوقفوا عن التسلية بي. ثم جئتَ أنت، أيها الويتشر، وأنقذتني من حبل المشنقة..."

توقفت لحظة، بدت كأنها تفكر، ثم نادت بصوت هادئ: "ويتشر؟"

رد جيرالت بنبرة ثابتة: "أنا أستمع."

ترددت قليلًا، ثم قالت ببطء: "أعرف كيف يمكنني إثبات امتناني لك. إذا كنت ترغب في ذلك فقط..."

سارع كاهير بالنهوض، ولف عباءته حول جسده، قائلاً بسرعة: "يجب أن ألقي نظرة على الخيول، سأرى كيف حال حوافرها..."

عطست الفتاة، ثم شَهقت ومسحت أنفها، قبل أن تتابع بصوت نصف هامس، مليء بالتردد: "ألّا ترغب بي حقًا؟ ولا حتى قليلًا؟"

أجابها جيرالت بصرامة وهو يشعر بعدم الارتياح والخجل والتوتر في آنٍ واحد: "ميلفا لقنتك درسًا بالحزام، أيتها الشقية الصغيرة. وإذا لم تصمتي في الحال، سأكرر لك الدرس بنفسي!"

تراجعت الفتاة بسرعة، قائلة بهدوء: "لن أنطق بكلمة أخرى."

نظر إليها جيرالت نظرة أخيرة، قبل أن يقول بنبرة أخف قليلاً: "فتاة جيدة."

* * *

"لقد غطت المنحدرات أشجار الصنوبر الصغيرة الملتوية، التي كانت تنحني بشكل غير طبيعي، وكأنها تتشبث بالأرض الموحلة، بين حفر واسعة وفوهات غامضة. إلى جانب ذلك، انتشرت ألواح خشبية

مُثبتة بأختام مطاطية، تتصل ببعضها عبر سلالم وممرات وسقالات، تشكل شبكة من الممرات المرتفعة، التي تمتد من الفتحات مدعومة بأعمدة متقاطعة. وعلى بعض تلك الممرات، كان الناس يتحركون بنشاط، يدفعون عربات يدوية محملة بمزيج من الطين والصخور، يفرغون حمولتهم في حوض مربع ضخم، يتدفق منه الماء عبر سلسلة من الأحواض المتدرجة والمتفرعة. كان الماء يتدفق باستمرار، بصخب، عبر قنوات خشبية، مثبتة على مجاري مائية خشبية منخفضة، تمتد إلى الأسفل على امتداد التل. يبدو أن مصدر الماء كان في مكان ما أسفل المنحدر."

ترجّلت أنغوليم وأشارت إلى جيرالت وكاهير ليفعلا مثلها. قاموا بربط خيولهم إلى سور خشبي، ثم توجهوا سيرًا على الأقدام عبر الوحل، بجانب قنوات وأنابيب متسربة.

قالت أنغوليم، وهي تشير إلى العمل الجاري: "يتم هنا غسل خام الحديد. هناك، يتم استخراجه من أنفاق المنجم، ثم يُسكب في هذه الأحواض حيث يُغسل بالماء الجاري من الجداول. يترسب الخام في المناخل حيث يتم فصله عن الطين والشوائب. توجد العديد من المناجم ومخيمات التصفية مثل هذه حول بيلهَافِن، لكن الخام يُنقل لاحقًا إلى الوديان المشجرة مثل ماج تورغا، حيث يُستخدم الخشب في الأفران والمسابك..."

قاطعها جيرالت بتعبير عابس: "شكرًا على المحاضرة، لقد رأيت العديد من المناجم في حياتي، وأعرف تمامًا كيف يتم صهر المعادن. متى ستخبريننا أخيرًا بالسبب الحقيقي وراءِ قدومنا إلى هنا؟"

ابتسمت أنغوليم بخبث وقالت: "للتحدث مع أحد معارفي. إنه مشرف حفريات هنا. تعالوا معي. ها، أراه بالفعل! هناك، في مبنى النجارة. هيا بنا."

سألها كاهير، وهو ينظر باتجاه المبنى: "ذلك القزم هناك؟"

أومأت أنغوليم قائلة: "نعم. اسمه جولان دروسديك. إنه، كما قلت..."

هز جيرالت رأسه بضيق قائلاً: "مشرف حفريات، نعم، لقد قلت ذلك. لكنك لم تخبرينا بعد لماذا تريدين التحدث معه."

"انظر إلى حذائك."

أطاع جيرالت وكاهير ونظرا إلى حذائهما، الذي كان مغطى بطين غريب ذي لون مائل إلى الحمرة.

قالت أنغوليم قبل أن يتمكن أحدهما من طرح السؤال: "النصف-إلف الذي تبحثان عنه كان في اجتماعه مع نايتينغيل، وكانت حذاؤه مغطى بنفس الطين الأحمر هذا. هل فهمتما الآن؟"

قال جيرالت ببطء: "الآن، نعم. وماذا عن القزم؟"

هزت أنغوليم رأسها وقالت بمكر: "أنتما تردان على كل شيء طوال الوقت. من أجل التغيير، جربا الصمت للحظة، فهو يعطيك مظهرًا أكثر جدية."

لم يواجها أي صعوبة أثناء سيرهما في مخيم التعدين. نظر إليهما بعض عمال المناجم سريعًا قبل أن يصرفوا أنظارهم، بينما بقي آخرون يحدقون فيهما وأفواههم مفتوحة. أما من كان يقف في طريقهما، فقد تحرك بسرعة جانبًا. لم يكن ذلك مفاجئًا بالنسبة لجيرالت؛ فقد كان وجهه لا يزال منتفخًا، وكاهير كان مغطى بالكدمات والخدوش وآثار الضرب التي تلقياها من ميلفا. بدا كلاهما كشخصين يستمتعان بضرب بعضهما البعض، ولن يترددا في تسوية حساباتهما مع شخص ثالث."

كان القزم، صديق أنغوليم، يقف بجانب مبنى النجارة، يرسم كتابة على شيء يشبه سبورة مكونة من لوحين خشبيين. لاحظ الثلاثة القادمين، فوضع الفرشاة جانبًا، وأبعد دلو الطلاء، وحدق فيهم من تحت حاجبيه المنخفضين. تزينت ملامحه بلحية متشابكة وامتلأت بالدهشة المطلقة.

قال بدهشة: "أنغوليم؟"

ابتسمت الفتاة بمكر وقالت: "مرحبًا، دروسديك."

فتح القزم فمه المغطى باللحية وقال: "هل هذه أنتِ حقًا؟"

ردت أنغوليم بتهكم: "لا، لستُ أنا. بل النبي مارغورام بعث من جديد. لا تطرح أسئلة سخيفة، غولان. حاول أن تبدو أكثر ذكاءً، ولو لمرة واحدة."

قطّب القزم حاجبيه وقال بجدية: "لا تمزحي، برايت. لم أتوقع أن أراكِ مجددًا. كان مولسلين هنا قبل خمسة أيام وأخبرني أنهم قبضوا عليكِ وأحرقوكِ على الخازوق في ريدبرون. أقسم أن الأمر صحيح!"

هزّت أنغوليم كتفيها بلا مبالاة وقالت: "حسنًا، هذا أمر جيد. على الأقل الآن، إن أراد مولسلين أن يقترض منك مالًا يومًا ما وأقسم أنه سيعيده، فستعرف كم تساوي قسمته."

قال القزم وهو يرمش بسرعة ويحرك أنفه مثل الأرنب: "كنت أعرف ذلك بالفعل. لن أقرضه بنسًا واحدًا حتى لو أمطرت السماء مالًا. لكن رؤية أنكِ حية وبصحة جيدة، ها، هذا يسعدني! ربما ستسددين دينك لي أخيرًا؟"

هزّت أنجوليم كتفيها بلا مبالاة وقالت: "ربما. من يدري؟"

نظر القزم إلى مرافقيها وسأل: "ومن هؤلاء الذين معكِ، برايت؟"

ردت بابتسامة ماكرة: "أصدقاء طيبون."

أومأ القزم وهو يمعن النظر فيها: "تبدين بحال جيد، ولكن... إلى أين تأخذك الآلهة؟"

قالت بتهكم وهي تستنشق قرصة صغيرة من الفيستيك ثم تفرك بقاياه على لثتها، متجاهلة نظرات الساحر المهددة: "كالعادة، أضلّ الطريق. أنت تشمّ، غولان؟"

مد القزم يده بسرعة وسحب قرصة من المخدر إلى أنفه، ثم قال: "حسنًا."

تابعت الفتاة حديثها بلا اكتراث: "على الأرجح، سأذهب إلى بيلهفن. هل تعرف أين يمكن أن أجد نايتينغيل وعصابته؟"

رفع غولان دروسديك حاجبه بتوجس وقال: "برايت، عليكِ أن تبتعدي عن طريق نايتينغيل. يقولون إنه غاضب عليكِ كما يغضب المستذئب إذا أُيقظ في الشتاء."

قهقهت أنغوليم بمرح وقالت: "واو! حتى بعد أن سمع أن حصانين سحباني إلى وتد حاد؟ ألم يشعر بالأسف؟ ألم يذرف دمعة واحدة؟"

هز القزم رأسه: "بالعكس تمامًا. يُقال إنه قال: 'الآن حصلت أنغوليم على ما كنا نعلم جميعًا أنها ستناله يومًا ما وتد في المؤخرة.'"

ضحكت أنغوليم بصوت عالٍ وقالت: "يا له من وقح. وغليظ. لو كان اللورد فوليك هنا لقال 'حثالة المجتمع'. لكنني أقول: 'حثالة المجاري!'"

خفض القزم صوته قليلًا وقال بتحذير: "هذا شيء يُفضَّل أن تقوليه خلف ظهره، برايت. لا تتسكعي حول بيلهفن، خذي طريقًا آخر. وإذا كان لا بد أن تدخلي المدينة، فاذهبي متنكرة..."

ضحكت أنغوليم بسخرية وقالت: "لا تعلّم جدياً كيف يسعل، ياغولان."

أومأ القزم بسرعة وقال: "لن أجرؤ على ذلك."

وضعت الفتاة قدمها على إحدى درجات سلم النجارة، ثم نظرت إلى القزم بحدة وقالت: "انظر، غولان. سأطرح عليك سؤالًا. لا تتعجل في الإجابة فكّر مرتين قبل أن تردّ."

أومأ القزم ببطء وقال: "اسألي."

قال غولان دروسديك وهو يستنشق الهواء بعنف ثم يعطس بقوة ويمسح أنفه على رسغه: "نصف-إلف، تقولين؟ أي نصف-إلف؟"

قالت أنغوليم بحدة: "لا تكن غبيًا، دروسديك. ذلك الذي استأجره نايتينغيل لمهمة خاصة. للتخلص من شخص ما. ويتشر معين..."

رفع القزم حاجبيه وقال بلهجة ماكرة: "ويتشر؟ تخيلي هذا! في الواقع، نحن نبحث عن ويتشر لهذا السبب كنا نكتب هذه الإعلانات ونعلقها في المنطقة. انظري هنا نبحث عن ساحر، أجر جيد، بالإضافة إلى السكن والطعام، للاستفسار عن التفاصيل تواصل مع إدارة منجم ليتل بابيت.' كيف تتهجئين كلمة تفاصيل؟"

قالت أنغوليم وهي تنظر إليه باشمئزاز: "اكتب: بيانات ولماذا تحتاجون إلى ساحر في المنجم؟"

قال القزم بجدية: "أي سؤال هذا؟ ماذا غير الوحوش؟"

سألها جيرالت بهدوء: "أي نوع من الوحوش؟"

أجاب القزم وهو يشير بإصبعه نحو الأسفل: "ناكيرز وباربغازي. إنهم في كل مكان في المستويات السفلى من المنجم."

نظرت أنغوليم إلى جيرالت، الذي أومأ برأسه ليؤكد لها أنه يعرف تلك المخلوقات. ثم سعل قاصدًا تنبيهها، مشيرًا إلى أنه يريد العودة إلى موضوعهم الأساسي.

فهمت الفتاة الإشارة فورًا، فالتفتت إلى القزم وقالت بحدة: "حسنًا، لنعد إلى الموضوع. ماذا تعرف عن ذلك النصف-إلف؟"

أشاح غولان دروسديك بنظره بعيدًا وقال ببرود: "لا أعرف أي نصف-إلف."

ضيّقت أنغوليم عينيها وقالت بنبرة تهديدية: "قلت لك أن تفكر مرتين."

نظر إليها القزم نظرة جانبية وقال بمكر: "وقد فعلت ذلك."

رفعت حاجبها وقالت بحذر: "و؟"

قال القزم بصوت منخفض، وهو يحدق في الأفق: "وأفكر أن الأمر لا يستحق أن أعرف أي شيء عن هذا الموضوع."

بدأت أنغوليم تنطق بشيء لكنه قاطعها قائلاً: "المنطقة ليست مستقرة. الأوضاع ليست مستقرة. العصابات، النيلفجارد، المقاتلون من أجل قضية الشمال الحر... وعناصر غريبة أخرى، أنصاف-إلف. كل واحد منهم يتوق لإثارة المشاكل..."

عقدت أنغوليم حاجبيها وقالت مستنكرة: "ماذا يعني ذلك...؟"

قال القزم وهو يرمق أنغوليم بنظرة حادة: "هذا يعني أنكِ مدينة لي بالمال، برايت. وبدل أن تردي الدين، تريدين أن تضيفي دينًا جديدًا. دينًا ثقيلًا – لأن ما تطلبينه يمكن أن يجلب لصاحبه ضربة على رأسه، وليس بقبضة يد، بل بمعول. ماذا سأكسب؟ هل يستحق الأمر أن أعرف شيئًا عن هذا النصف-إلف، ها؟ هل سأحصل على أي شيء مقابل ذلك؟ يبدو أن هناك فقط المخاطر دون أي مكافأة..."

كان جيرالت قد سئم بالفعل. الحديث أزعجه، ولم يكن أسلوب القزم في الكلام يعجبه. بحركة خاطفة، أمسك لحية القزم وسحبها نحوه بعنف، ثم دفعه بقوة إلى الخلف. تعثر غولان دروسديك في دلو الطلاء وسقط على الأرض. قفز الساحر فوقه، وضع ركبته على صدره، واضعاً نصل خنجره أمام عيني القزم اللامعتين.

قال الساحر بصوت خفيض، لكنه ثقيل كالرصاص: "مكافأتك ستكون أنك ستخرج من هنا حيًا. تكلّم."

تحركت عينا غولان في كل اتجاه، من الكهوف إلى الممرات الخشبية المرتفعة.

كرر جيرالت ببرود: "تكلّم. أخبرني بما تعرف. وإلا سأشق حلقك بحيث تغرق في دمك قبل أن تنزف حتى الموت..."

أطلق القزم تأوّهًا مرتجفًا، ثم قال بصوت متقطع: "ريالتو... في المنجم المسمى 'ريالتو'...

* * *

شدّت أنغوليم لجام حصانها بقوة إلى السور، ثم قالت: "لا أعرف أحدًا هنا، لكننا سنحاول التحدث إلى المدير. جيرالت، إذا أمكن، لا تبدأ فورًا بالإمساك به من عنقه وتهديده بسكين. لنتحدث أولًا..."

قال الساحر ببرود وهو يتفحّص المكان: "لا تعلّمي الجدّ كيف يسعل، أنغوليم."

لم يتحدثوا. لم يكن هناك حتى داعٍ للذهاب إلى المبنى الذي اشتبهوا بأنه مكتب المدير. في الساحة الصغيرة، حيث كان يتم تحميل خام الحديد على العربات، التقوا بخمسة فرسان.

تمتمت أنغوليم بقلق، وهي تراقبهم بعينين ضيقتين: "اللعنة... اللعنة... انظروا ماذا جلب لنا القدر الآن."

قال كاهير، وهو يعدل وضع يده على مقبض سيفه: "ما الأمر؟"

أجابت بصوت خافت، دون أن تحوّل نظرها عن القادمين: "هؤلاء رجال نايتينغيل. جاؤوا لجمع أموال الحماية. لقد رأوني... وتعرفوا عليّ... تبا لنا! اللعنة .. لقد وقعنا في الفخ."

سأل كاهير بسرعة، وهو يحاول تقدير الموقف: "هل يمكنك خداعهم؟"

هزّت أنغوليم رأسها بتردد، ثم تمتمت: "لا أعتقد."

"لماذا؟" سأل جيرالت ببرود.

"لأنني سرقت نايتينغيل عندما هربت من العصابة، وهم لا يغفرون ذلك أبداً..." أخذت نفسًا عميقًا، ثم واصلت: "لكنني سأحاول. أنتما التزما الصمت. ابقيا أعينكما مفتوحة... واستعدّا... لأي شيء."

اقترب الفرسان أكثر. كان اثنان منهما يتقدمان – رجل أشيب ذو شعر طويل يرتدي فرو الذئب، وشاب طويل القامة ذو لحية بدا أنه قد أطلقها ليخفي آثار ندوب حب الشباب. لاحظ جيرالت اللمعان الخفي للكراهية في أعينهما عندما نظرا إلى أنغوليم.

قال الرجل الأشيب بصوت متحجر: "برايت."

ردت أنغوليم بلهجة ساخرة ولكن واثقة: "نوفوساد. بيريل. تحياتي. يوم جميل اليوم. لكن، يا للأسف، إنه ماطر."

قفز الأشيب من على سرجه بخفة، قاذفًا ساقه اليمنى فوق عنق حصانه بحركة استعراضية. تبعه الآخرون بالنزول من خيولهم. أثناء اقترابه، سلّم لجام حصانه إلى بيريل الرجل النحيف ذو اللحية.

قال الأشيب وهو يحدق في أنغوليم بعينين ضيقتين: "إذن... أوزتنا الثرثارة. وكما يبدو، فأنتِ حيةً تُرزقين، وبصحة جيدة؟"

رفعت أنغوليم حاجبها وردّت بلا مبالاة: "وما زلت أركل أيضًا."

زمجر نوفوساد بازدراء: "فتاة طائشة! يُقال إنكِ كنتِ تركلين، لكن وأنتِ فوق الوتد. يُقال إن فُلك الأعور قد أمسك بكِ. ويُقال إنكِ غردتِ مثل طائر القبرة على آلة التعذيب وبعتِنا جميعًا عندما سُئلتِ!"

اتسعت ابتسامة أنغوليم الساخرة وهي ترد بحدة: "ويُقال أيضًا، نوفوساد، إن أمك تطلب من زبائنها أربع بنسات، لكن لا أحد يدفع لها أكثر من اثنتين."

بصق نوفوساد عند قدميها باشمئزاز.

لكن أنغوليم لم تهتز، بل رفعت ذقنها بجرأة، ووضعت يديها على خصرها كما لو أنها لم تتأثر بإهانته: "نوفوساد، لدي عمل مع نايتينغيل."

ضاقت عيناه بينما كان يدرسها بتمعن، ثم قال بصوت منخفض لكنه حاد: "هذا مثير للاهتمام. لديه أيضًا عمل يريد مناقشته معك."

قالت أنغوليم بحدة: "اصمت واستمع ما دمت أتحدث، قبل يومين، على بعد ميلٍ واحد من ريدبرون، قام صديقاي هذين بقتل الويتشر، ذلك الذي كان لدى نايتينغيل مهمة من أجله. هل تفهم؟"

نظر نوفوساد إلى رفاقه نظرة ذات معنى، ثم عدّل قفازيه ونظر إلى جيرالت وكاهير بتقييمٍ متأنٍ. قال ببطء: "أصدقاؤك الجدد، هاه؟ أرى من وجوههم أنهم ليسوا كهنة. تقولان إنكما قتلتما الويتشر؟ كيف؟ بطعنة في الظهر؟ أم بينما كان نائمًا؟"

قطّبت أنغوليم وجهها بتهكمٍ يشبه قردًا ساخرًا، ثم قالت: «هذه مجرد تفصيلة صغيرة. لكن المهم هي أن الويتشر قد سقط صريعًا. لا أريد العبث مع نايتينغيل، ولا أريد إفساد لعبته. لكن العمل هو العمل. لقد أعطاكم النصف-إلف مقدمًا وهذا لا يهمني، فهو مالكم، نظير الجهد والمصاريف، لكن الدفعة الثانية، التي وعد بها النصف-إلف بعد تنفيذ المهمة، فهي من حقي".

رفع نوفوساد حاجبه بسخرية وقال: "من حقك؟"

أجابت أنغوليم غير مكترثة بنبرته الساخرة: "نعم! لأننا أنجزنا المهمة وقتلنا الويتشر، ويمكننا إثبات ذلك للنصف-إلف. سأحصل على نصيبي وأختفي في الأفق الأزرق الضبابي. وكما قلت، لا أريد منافسة نايتينغيل. ولا توجد مساحة كافية على الساحل الشمالي لنا نحن الاثنين. بلّغه ذلك، نوفوساد."

تحدث نوفوساد بنبرة مشحونة بالسخرية اللاذعة: "هل هذا كل شيء؟"

تنهّدت أنغوليم وغمغمت: «وأرسل له قبلاتي أيضًا.» ثم أضافت ساخرة: "يمكنك تقبيل مؤخرتي نيابة عنه، بالوكالة."

نظر نوفوساد إلى رفاقه مجددًا، ثم أعلن ببرود: «أعتقد أنني سأجلب مؤخرتك إليه بنفسي، أنغوليم. سأقيدك بالسلاسل وأخذك إليه حتى يتحدث إليك ويوضح لك كل شيء... ويُسوّي كل شيء. مسألة من يستحق المال من عقد النصف-إلف شيررو. وأيضًا، ثمن ما سرقتِه. ثم هناك مسألة أن الساحل الشمالي لا يتسع لكليكما. وهكذا، سيتم تسوية كل التفاصيل"

أسدلت أنغوليم ذراعيها وقالت: "هناك مشكلة صغيرة واحدة فقط، نوفوساد. كيف تخطط لأخذي إلى نايتينغيل؟"

إبتسم اللص ببرود، ومدّ يده قائلاً: «هكذا، من حنجرتك!"

بحركة خاطفة كالبرق، وضع جيرالت سيفه السيهيل تحت أنف نوفوساد. زمجر بصوت منخفض: «لا أنصحك بذلك.»

تراجع نوفوساد بسرعة واستل سيفه. بصوت حاد، بينما سحب بيريل سيفًا معقوفًا من غمده المعلق على ظهره. وسار الآخرون على خطاه.

كرر الويتشر بصوت بارد: «لا أنصحكم بذلك.»

لعن نوفوساد في سره ناظراً إلى رفاقه. لم يكن بارعًا في الحساب، لكنه أدرك رغم ذلك أن خمسة أكثر بكثير من ثلاثة. صرخ بغضب: «اهجموا عليهم! اقتلوهم!» ثم اندفع نحو جيرالت.

تفادى الويتشر الضربة بدوران نصف دائري، ثم ضربه أسفل الصدغ مباشرة. حتى قبل أن يسقط نوفوساد، قذفت أنغوليم بخفة سكينًا في الهواء، ليصيب بيريل المهاجم مباشرة تحت ذقنه، حيث برز المقبض العظمي من حلقه. أسقط قاطع الطرق سيفه وأمسك بالسكين بكلتا يديه، بينما تدفق الدم من حنجرته. قفزت أنغوليم برشاقة وركلته في صدره، فأطاحت به أرضًا.

في تلك الأثناء، كان جيرالت قد أردى قاطع طريق آخر، بينما سدد كاهير ضربة هائلة بسيفه النيلفجاردي، فقطع رأس أحدهم، ليتدحرج على الأرض وكأنه شريحة بطيخ. أما آخر قطاع الطرق، فقد تراجع بسرعة وقفز على صهوة حصانه. رفع كاهير سيفه، أمسكه من النصل، ثم ألقاه كالرمح. اخترق السيف ظهر الرجل مباشرة بين لوحي كتفيه. صهل الحصان، وألقى برأسه للخلف، ثم سقط على ركبتيه، قبل أن يبدأ بالرفس وسحب الجثة التي كانت يداها لا تزالان متشبثتين بعنان اللجام، تاركة أثرًا من الوحل الأحمر.

لم يستغرق كل ذلك أكثر من خمس نبضات قلب.

صرخ أحدهم بين المباني: «أوووه، النااااس! النااااس! النجدة! جريمة قتل، لقد قتلوهم!»

صاح رجل آخر من الجبال بينما كان يبعد الأطفال، الذين اندفعوا وفقًا لعادات جميع الأطفال منذ بداية الزمن للتجمع والتحديق في المشهد، مما أعاق طريق الناس: «الجيش! أحدهم اذهب واستدعِ الجيش!»

التقطت أنغوليم سكينها، مسحته جيدًا، ثم خبأته في حذائها. صاحت وهي تنظر حولها: «كفاكم هذا، بالله عليكم! هل أنتم عميان، أيها الحفارون الجبليون، أم ماذا؟ لقد كان ذلك دفاعًا عن النفس! هؤلاء الأوغاد هاجمونا! ألم تلاحظوا؟ ثم ألم تلحظوا أنهم أشرار؟ ألم يبتزوا بعضكم مقابل الحماية؟»

عطست بقوة، ثم نزعت الكيس من حزام نوفوساد، الذي لا يزال جسده يرتجف في أنفاسه الأخيرة، وانحنت فوق بيريل.

قال جيرالت بصرامة: «أنغوليم.»

«ماذا؟»

«توقفي.»

«لماذا؟ هذه غنيمة! هل لديك فائض من المال؟»

قال بحدة: «أنغوليم...»

وفجأة، قاطعها صوت جهوري: «أنتِ هناك، تعالي إلى هنا لحظة.»

كان هناك ثلاثة رجال يقفون عند مدخل مبنى صغير يستخدم كمستودع للأدوات. كان اثنان منهما ضخمي البنية، بقصات شعر منخفضة، ووجوه ذات جباه منخفضة، وعقول بالتأكيد أكثر انخفاضًا. أما الثالث — ذلك الذي ناداهم — فكان رجلاً طويل القامة بشكل غير عادي، ذو شعر داكن، ووسامة لافتة.

قال الرجل بنبرة هادئة لكنها حادة: «لم يسعني إلا سماع النقاش الذي سبق هذا الضجيج. لم أصدق أنكم قتلتم الويتشر، ظننت أنكم تتفاخرون بالكلام الفارغ. لكنني لم أعد أظن ذلك الآن. ادخلوا إلى هنا، إلى داخل المبنى.»

حبست أنغوليم أنفاسها للحظة، ثم نظرت إلى الويتشر بإيماءة خفيفة بالكاد ملحوظة.

كان الرجل نصف-إلف.

* * *

كان النصف-إلف شيررو طويل القامة، يزيد طوله عن ستة أقدام. كان شعره الداكن الطويل مربوطًا في ذيل حصان يتدلى على ظهره. عيناه، اللتان كشفتا عن دمه المختلط، كانتا واسعتين، لوزيتين، بلون أخضر مصفر يشبه عيون القطط.

ابتسم بابتسامة خبيثة وقال: «إذن، لقد قتلتم الويتشر.» كرر عبارته بنبرة ساخرة. «وفعلتم ذلك قبل هومر ستراغن، الملقب بنايتينغيل؟ مثير للاهتمام، مثير جدًا. باختصار، يجب أن أدفع لكم خمسين فلورين. الدفعة الثانية. هذا يعني أن ستراغن حصل على خمسينه مجانًا. لأنني أشك في أنكم ستتمكنون من انتزاعها منه.»

ردت أنغوليم، التي كانت تجلس على صندوق وتتأرجح بساقيها: «كيف أتعامل مع نايتينغيل هذا شأني. أما العقد بخصوص الويتشر، فهذا شأنك. وقد أنجزنا المهمة. نحن، وليس نايتينغيل. الويتشر ميت. ورفاقه الثلاثة ماتوا أيضًا. إذن، العقد قد نُفِّذ.»

ضاقت عينا شيررو قليلاً وهو يراقبها. قال ببرود: «على الأقل، أنتِ تزعمين أنه ميت؟»

تابعت أنغوليم تأرجح ساقيها بلا اكتراث وقالت بنبرتها الوقحة المعتادة: «عندما أصبح عجوزة، سأكتب قصة حياتي. وسأروي فيها ما حدث بكل تفاصيله. حتى ذلك الحين، عليك الانتظار، سيد شيررو.»

قال النصف-إلف ببرود: «إذن، أنتم تشعرون بالخزي. لأنكم قتلتموه غدرًا وبطريقة خسيسة.»

تدخل جيرالت ببرود: «هل يزعجك ذلك؟»

نظر شيررو إليه بحذر، ثم بعد لحظة قال: «لا. الويتشر جيرالت من ريفيا لم يكن يستحق مصيرًا أفضل. كان أحمقًا ساذجًا وأبله. لو كان قد نال موتًا أشرف وأكرم، لصارت عنه أساطير. لكنه لا يستحق الأساطير.»

قال جيرالت بهدوء قاتم: «الموت واحد، لا فرق فيه.»

قال النصف-إلف وهو يهز رأسه: «ليس دائمًا.» كان يحاول طوال الوقت النظر إلى عيني جيرالت، اللتين ظلتا مخفيتين في ظل قلنسوته. «أؤكد لك، ليس دائمًا. أعتقد أنك أنت من وجه الضربة القاتلة.»

لم يُجب جيرالت. كان في داخله رغبة طاغية للإمساك بهذا الهجين من ذيل حصانه، وطرحه أرضًا، وانتزاع كل ما يعرفه منه، ثم ركله حتى يتطاير كل سن في رأسه. لكنه ضبط نفسه. صوت العقل أخبره أن الخدعة التي ابتكرتها أنغوليم قد تؤتي نتائج أفضل.

انتظر شيررو لحظة، ثم قال: «كما تشاء.» لمّا لم يتلقَّ ردًا، تابع بنبرة ملغومة: «لن أصرّ على تقريرٍ مفصلٍ عمّا حدث. من الواضح أنك لا تريد الحديث عنه، مما يعني أنه لم يكن شيئًا يستحق الافتخار به. إلا إذا... كان هناك سببٌ آخر لصمتك... مثلًا أنه لم يحدث شيء على الإطلاق. هل لديكم أي دليلٍ يثبت صحة كلامكم؟»

أجابت أنغوليم بهدوء: «قطعنا يد الويتشر اليمنى، لكن راكونًا سرقها وأكلها لاحقًا.»

قال جيرالت ببطء وهو يمدّ يده أسفل قميصه: «لم يكن هذا الشيء الوحيد الذي أخذناه.» ثم أخرج ميداليته التي تحمل رأس الذئب. «كان الويتشر يرتديها حول عنقه.»

قال شيررو ببرود: «من فضلك.»

لم يتردد جيرالت طويلًا.

أمسك النصف-إلف بالميدالية، وأخذ يزنها في يده، ثم قال ببطء: «الآن أصدقكم. هذه التميمة تبث سحرًا قويًا. لا يمكن أن يملك مثلها سوى ويتشر.»

ابتسمت أنغوليم بسخرية وقالت: «وويتشر لن يتخلى عنها، حتى لو كانت حياته على المحك. إنها دليلٌ دامغ. لذا، يا سيدي العزيز، ضع المكافأة على الطاولة.»

أخفى شيررو الميدالية بحرص، ثم سحب حزمة أوراق من جيبه، ووضعها على الطاولة، وسوّاها بكفه، ثم قال بهدوء: «من فضلك.»

قفزت أنغوليم عن الصندوق وتقدمت بخطوات متمايلة بشكل مبالغ فيه. انحنت عبر الطاولة—لكن شيررو أمسكها بسرعة من شعرها، وطرحها بعنف فوق الطاولة، ثم ضغط بسكينه على حلقها. لم تستطع الفتاة حتى أن تصرخ.

أمسك جيرالت وكاهير بسيفيهما. لكن ذلك كان متأخرًا.

كان رجلا شيررو، الضخمان منخفضا الجباه، قد أخرجا بالفعل خطافاتٍ حديدية من أحزمتهم، ولم يترددوا في الاقتراب.

زمجر شيررو: «ألقيا السيفين على الأرض. كلاكما. وإلا فسأوسع ابتسامة الفتاة.»

بدأت أنغوليم بالقول: «لا تفعلوا...» لكنها قطعت صرختها، عندما شد النصف-إلف شعرها بقوة. خدش جلدها بطرف خنجره، فسال خط قرمزي مشرق على عنقها.

صرخ شيررو بغضب: «السيوف بعيدًا! أنا جاد!»

حاول جيرالت تجاهل الغضب العارم الذي بدأ يتصاعد في داخله، وقال ببرود: «ربما يمكننا التواصل؟ مثل البشر المتحضرين؟»

ابتسم النصف-إلف ابتسامة مسمومة. «التواصل؟ معك، أيها الويتشر؟ لقد أُرسلت إلى هنا لأقتلك، لا للتواصل معك. نعم، نعم، أنت أيها المسخ. دخلت هنا، وحاولت نسج أكاذيبك، لكنني عرفتك منذ اللحظة الأولى. لقد تم وصفك لي بالتفصيل. هل يمكنك تخمين من هو الشخص الذي وصفك بهذه الدقة؟ من الذي أعطاني تعليمات محددة عن مكانك ونوع الصحبة التي ستكون فيها؟ أوه، أنا متأكد أنك تستطيع التخمين.»

قال جيرالت بحدة: «اترك الفتاة.»

تابع شيررو، دون أن يبدي أي نية للإفراج عن أنغوليم: «لكنني لا أعرفك فقط من خلال الوصف. لقد رأيتك من قبل. كنتُ حتى أتتبع أثرك ذات مرة. في تيميريا. في يوليو. تبعتك إلى بلدة دوريان. إلى المكتب القانوني لكودرينغر وفين. هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟»

أدار جيرالت سيفه ببطء، بحيث انعكس ضوء الشفرة في عيني النصف-إلف، ثم قال ببرود قاتل: «أتساءل، شيررو، كيف ستخرج من هذا المأزق؟ أرى طريقين فقط. الأول، أن تطلق سراح الفتاة. والثاني، أن تقتلها... وبعد لحظة واحدة، سيكون دمك متناثرًا بطريقة جميلة على الجدران والسقف.»

ال شيررو وهو يمزق شعر أنجوليم بوحشية: «لديكم حتى العد إلى ثلاثة لتلقوا أسلحتكم على الأرض. بعدها، سأبدأ بتمزيق الفتاة.»

ردّ جيرالت ببرود: «سنرى إلى أي مدى ستصل في ذلك. أعتقد أنك لن تصل بعيدًا.»

صرخ شيررو: «واحد!»

قال جيرالت بصوت هادئ لكنه مميت: «اثنان!» ثم دار بسيفه السيهيل في حركة خاطفة.

من الخارج، سُمع دوي صياح وأصوات خيول ترفس وتنهق وتشهق.

ابتسم شيررو بثقة وقال: «وماذا الآن؟ لقد كنتُ أتوقعهم. هذا ليس موقفًا متعادلاً، بل كش ملك! أصدقائي قد وصلوا.»

نظر كاهير من النافذة وقال ببرود: «حقًا؟ ما أراه هو زيّ فرسان الإمبراطورية الخفيفة.»

قال جيرالت ببرود وهو يحدق في شيررو: «إذن، كش ملك، لكن ليس لك. لقد خسرت، شيررو. أطلق سراح الفتاة.»

ردّ النصف-إلف بعناد: «لا مجال لذلك.»

فجأة، فُتح الباب بركلةٍ عنيفة، واقتحم المكان عشرات الرجال، معظمهم يرتدون زيًا أسود موحدًا. كان يقودهم رجل أشقر ذو لحية، يرتدي شارة كتف تحمل نقش دب فضي.

قال بلهجة تهديد واضحة: ما الذي يحدث هنا؟ من المسؤول عن هذه الفوضى؟ عن الجثث في الخارج؟ أخبروني حالًا!»

حاول أحدهم الكلام: «سيدي...»

لكن القائد صرخ بغضب: ضعوا سيوفكم جانبًا!»

أطاعوا الأوامر على الفور، إذ كانت الأقواس مصوبة نحوهم. أما أنغوليم، التي أفلتها شيررو أخيرًا، فقد حاولت الهرب بعيدًا عن الطاولة، لكنها وقعت فجأة بين يدي رجلٍ ضخم الجثة، يرتدي ملابس زاهية الألوان، وعيناه منتفختان مثل عيني ضفدع. حاولت الصراخ، لكنه ضغط قبضته المغطاة بالقفاز على فمها، مانعًا أي صوت.

قال جيرالت ببرود للقائد الذي يحمل شارة الدب: «نحن نتجنب العنف. لسنا مجرمين.»

رفع الرجل الأشقر حاجبه وقال بسخرية: «حقًا، هل هذا صحيح؟»

أضاف جيرالت: «نحن نتصرف بعلم وموافقة اللورد فولك آرتيفيلد، حاكم ريدبرون.»

رفع القائد حاجبه مجددًا وكرر ببرود: «هل هذا صحيح أيضًا؟ بعلم وموافقة اللورد فولك آرتيفيلد؟ اللورد آرتيفيلد النبيل؟ هل سمعتم ذلك، أيها الفتيان؟»

انفجر رجاله – الذين كانوا كئيبين بقدر ما كانت ملابسهم سوداء – في موجةٍ من الضحك العالي.

تلوّت أنغوليم يائسة في قبضة الضفدع، محاولةً الصراخ، لكن دون جدوى. لم يكن الأمر ضروريًا. جيرالت فهم كل شيء. حتى قبل أن يبدأ شيررو المبتسم في مصافحة بير. حتى قبل أن يمسك أربعة من النيلفجارديين السود بكاهير، ويوجه ثلاثة آخرون أقواسهم مباشرة إلى وجه جيرالت.

الرجل الضفدع، الذي ما زال ممسكًا بأنجولي، انضم إلى رفاقه. كانت الفتاة تتدلى في قبضته مثل دمية قماشية. لم تحاول حتى المقاومة.

تقدم بير ببطء نحو جيرالت، ثم فجأة، وجه ضربة قاسية بكفه المدرع إلى أسفل بطن الويتشر. انحنى جيرالت من الألم، لكنه لم يسقط. الغضب البارد أبقاه واقفًا.

قال بير بسخرية: «ربما يسعدك أن تسمع أنك لست أول أحمق يستغلّه فولك الأعور لتحقيق أغراضه. لديّ تجارة مربحة مع السيد هومر ستراغن هنا، المعروف لدى البعض بلقب نايتينغيل. فولك غاضب لأنني أدير هذه التجارة، ولأنني عيّنت هومر ستراغن في الخدمة الإمبراطورية كقائد لفصيلة مشاة لحماية صناعة التعدين. وبما أنه لا يستطيع الانتقام رسميًا، فقد استأجر مجموعة من الحثالة للقيام بذلك بالنيابة عنه.»

أضاف شيررو بابتسامة خبيثة: «وويتشر أيضًا.»

تابع بير بصوت عالٍ: «في الخارج، هناك خمس جثث ملقاة تحت المطر. لقد قتلتم رجالًا كانوا في الخدمة الإمبراطورية! لقد عرقلتم عمل المناجم! لا شك لدي أنكم جواسيس، مخربون، وإرهابيون. القانون العسكري يحكم هذه الأراضي. ووفقًا له، أحكم عليكم جميعًا بالإعدام.»

ضحك الرجل الضفدع بصوت عالٍ. ضغط بقوة على أنغوليم، ثم هاجم صدرها بحركة سريعة وعنيفة.

قال بنبرة مشؤومة وصوته المتشقق أشبه بنقيق ضفدع: «والآن، برايت؟» إذا كان قد اختار لقبه بنفسه، فهذا دليل على حس فكاهي منحرف. لكن لو احتاج يومًا إلى التخفي، فسيكون لقبه تمويهًا فعالًا للغاية.

قال نايتينغيل مجددًا وهو يقرص أنجوليم بقسوة: «ها نحن نلتقي من جديد! هل أنتِ سعيدة؟»

تأوهت الفتاة من الألم.

صرخ بها غاضبًا: «أين أخفيتِ الأحجار الكريمة التي سرقتِها مني؟»

هتفت أنغوليم بحدة، محاولةً أن تبدو غير خائفة، رغم أن ارتجاف صوتها خانها: «فولك صادر بعضها عندما تم القبض عليّ! إذا أردت استعادتها، وقّع عقدًا معه!»

نقنق نايتينغيل وانتفخت عيناه وبات يشبه الضفدع تمامًا الآن، ولم يكن ينقصه سوى أن يبدأ بالتقاط الذباب بلسانه. وبدأ باحتضان أنغوليم بقوة ويهزها بعنف ويقذفها ذهابًا وإيابًا. تأوهت الفتاة من الألم.

عبر الضباب الأحمر الذي ملأ عيني جيرالت بفعل الغضب، بدأت ملامح أنغوليم تتداخل، لتشبه وجه سيري.

قال بير بنفاد صبر: «أمسكوهم. خذوهم إلى الخارج."

تردد أحد الرجال من فرقة نايتينغيل لحماية المناجم وقال بقلق: «هذا ويتشر... إنه شخص خطر! كيف نمسك به بأيدينا العارية؟ قد يستخدم السحر ضدنا أو أي شيء آخر".

طمأنه شيررو بابتسامة وهو يربّت على حقيبته: «لا تقلق لا يستطيع استخدام السحر بدون ميداليته الويتشرية، وأنا أملكها. أمسكوا به".

في الخارج، كان المزيد من النيلفجارديين المسلحين في معاطفهم السوداء ينتظرون إلى جانب قطاع الطرق الملونين من عصابة نايتينغيل. تجمعت مجموعة من عمال المناجم، فيما كانت الكلاب والأطفال يحيطون بالمكان، كعادتهم في كل مكان وزمان.

فجأة، فقد نايتينغيل السيطرة على نفسه، كما لو أن شيطانًا قد تلبّسه. نقنق بغضب نحو أنغوليم، ثم وجه لها لكمة أسقطتها أرضًا، وما إن سقطت حتى انهال عليها بركلات متتالية.

تلوّى جيرالت في قبضة قطاع الطرق، محاولًا الإفلات، لكن ذلك لم يجلب له سوى ضربة قاسية على عنقه بشيء صلب.

صرخ نايتينغيل بجنون وهو يقفز جيئة وذهابًا فوق أنغوليم مثل ضفدع مسعور: «قيل إنهم غرسوا وتدًا في مؤخرتك في ريدبرون، أيتها العاهرة الصغيرة! يبدو أنهم كانوا قادرين على رؤية المستقبل! لأنك ستموتين على الوتد! هيه، أيها الفتيان، ابحثوا لي عن عمود! بسرعة!»

قطّب بير حاجبيه وقال بجفاء: «السيد ستراغن، ليست لدي رغبة في إضاعة الوقت على إعدام وحشي وبطيء. سيتم شنق الأسرى ببساطة...»

لكن نظرة الضفدع الشريرة أسكتته.

زمجر نايتينغيل ببرود: «اصمت فحسب، أيها القبطان. أدفع لك أكثر مما تستحق لتبقى فمك مغلقًا. لقد وعدت أنغوليم بموتٍ بشع، لذا سألهو بها كما أشاء. إذا كنت ترغب في شنق الآخرين، فافعل، لا يهمني أمرهم.»

لكن شيررو قاطعه ببرود: «أما أنا، فأهتم بهم. أحتاج كليهما. وخاصة الويتشر. فوق الجميع، هو.»

اقترب خطوة أخرى، وعيناه اللوزيتان، الشبيهتان بعيون القطط، تركزتا على جيرالت.

قال بنبرة باردة: «ينبغي أن تعلم، أيها المسخ، أنني كنت هناك عندما قُتل صديقك كودرينجر في دوريان. كنت أنفذ أوامر سيدي، السيد فيلغيفورتز، الذي أُخدمه منذ سنوات. شققت بطنه بسكيني. أما ذلك المسخ القذر فين، فقد أشعلت فيه النيران وسط أوراقه، وتركتُه يُشوى. كان بإمكاني طعنه ببساطة، لكنني انتظرت قليلًا فقط لأسمع صرخاته ونحيبه. آه، لقد صرخ ونحب، أؤكد لك، كخنزير مذبوح. لم يكن في صراخه أي شيء... أي شيء بشري على الإطلاق.»

قال شيررو بصوت هادئ لكن مفعم بالشر: «هل تعلم لماذا أخبرك بكل هذا؟ لأنه كان بإمكاني ببساطة أن أطعنَك أو أسمح لهم بطعنك. لكنني سأكرّس بعض الوقت والجهد من أجلك. سأستمع إلى صرخاتك. قلت إن الموت واحد، لا فرق فيه؟ سترى قريبًا أن ليس كل الموت متشابهًا. أيها الفتيان، أشعلوا القطران في آلة التزليق. وأحضروا بعض السلاسل.»

ومع صوت مكتوم، اصطدم شيءٌ بحافة المبنى وانفجر على الفور بكتلة نارية هادرة.

الوعاء الحجري الثاني، المليء بالزيت—عرف جيرالت رائحته على الفور—أصاب آلة التزليق، بينما انفجر الثالث بجوار الرجال الممسكين بالخيول. انتشرت ألسنة اللهب بفرقعة وهسهسة، وأطلقت الخيول صهيلًا مذعورًا، ناشرةً الفوضى في المكان. انتشرت النيران في كل اتجاه، بينما علت عواءات الكلاب. فجأة، رفع أحد قطاع الطرق التابعين لنايتينغيل ذراعيه على اتساعهما قبل أن يسقط في الوحل، وسهمٌ مغروس في ظهره.

ارتفع صوت هتاف من التلال: «يحيا الساحل الشمالي الحر!»

عند قمة الهضبة، وعلى المنصات والجسور الخشبية، تحركت ظلال لرجال يرتدون عباءات رمادية وقبعات مكسوة بالفرو. المزيد والمزيد من القنابل الحارقة بدأت تتساقط على البشر والخيول والأكواخ. تفرّعت ألسنة النيران والدخان بسرعة. سقطت قنبلتان داخل ورشة عمل، فوق أرضية مغطاة بنشارة الخشب والغبار.

تعالت الصيحات مجددًا: «يحيا الساحل الشمالي الحر! الموت للغزاة النيلفجارديين!»

بدأت الأسهم المريشة والمسامير الحديدية تئزّ في الهواء.

سقط أحد النلفجارديين السود تحت حوافر الخيول، بينما اخترق سهم حلق أحد رجال عصابة نايتينغيل، وسقط أحد الرجال ضخام البنية بشعره المقصوص على الأرض، وقد استقرت في عنقه مسمار قوس مستعرض.

أما بير، فقد سقط متأوهًا أنينًا مروعًا. سهمٌ أصابه في صدره، تحت عظم القص، ولم يكن درعه كافيًا لحمايته. كان ذلك السهم—دون أن يعلم أحد—قد سُرق من شحنة عسكرية، وهو نسخة معدلة قليلًا من السهم القياسي للجيش الإمبراطوري.

كانت رأس السهم العريضة ذات الحدين قد نُشرت في أماكن عدة، ما جعلها تتشظى عند الاصطدام.

ومع ارتطامها، مزقت أحشاء بير... بطريقة جميلة جدًا.

كان أحد الأطفال يتدحرج في الوحل الأحمر، وقد اخترقه سهمٌ أطلقه أحد مقاتلي الحرية الأقل دقة. أحد الرجال الذين كانوا يمسكون بجيرالت سقط ميتًا. وكذلك أحد الذين كانوا يقيدون أنجوليم.

تمكنت الفتاة من الإفلات من الآخر، وسحبت بسرعة سكينًا من حذائها، ثم وجهت ضربة قاطعة. لكنها، في عجلتها، أخطأت حنجرة نايتينغيل، وبدلًا من ذلك، شقت خده بشق عميق، امتد تقريبًا حتى أسنانه.

أطلق نايتينغيل صرخة مدوية بدلًا من نقيقه المعتاد، وانتفخت عيناه بشكل مخيف. سقط على ركبتيه، والدم يندفع بغزارة بين يديه اللتين أمسكتا بوجهه.

صرخت أنغوليم كالمجنونة، وارتمت نحوه لتجهز عليه، لكنها لم تستطع، إذ انفجرت قنبلة أخرى بينها وبينه، ناشرةً النيران ورائحة الدخان الكريهة في كل مكان.

اندلعت ألسنة اللهب بزئير مخيف—وبات الجحيم المشتعل يسيطر على المكان. الخيول كانت ترفس، تصهل، وتقفز بذعر. صرخ النيلفجارديون وقطاع الطرق. عمال المناجم اصطدموا ببعضهم البعض، بعضهم كان يفر، وآخرون يحاولون إطفاء المباني المشتعلة.

كان جيرالت قد التقط بالفعل سيفه السيهيل من جثة أحد النيلفجارديين الساقطين. وضع جرحًا عميقًا عبر جبهة امرأة طويلة كانت ترتدي درعًا من السلاسل، والتي كانت قد رفعت ذراعها لتضرب أنغوليم بسلاحٍ مدبب.

الهجوم التالي جاء من نيلفجاردي أسود، مندفعًا نحوه بحربة، لكن جيرالت قطع فخذه بضربة سريعة. أما الرجل الذي وقف في طريقه بعده، فقد ذبحه بلمحة واحدة.

بجواره مباشرة، اندفع حصان محروق البصر بفعل النيران، في حالة من الذعر، وطرح أرضًا طفلًا آخر قبل أن يدهسه بوحشية.

صرخ كاهير: «امسكوا بالحصان! علينا الفرار!» كان يقف بجانب جيرالت، يضرب بسيفه في كل اتجاه، ليخلق معه دائرة قاتلة من الضربات.

لكن جيرالت لم يكن يسمعه. لم يكن حتى ينظر إليه. كان يبحث عن هدفه الحقيقي—شيررو.

ركعت أنغوليم على الأرض، وأطلقت مسمارًا من قوسها المستعرض على بعد ثلاثة أقدام، ليخترق بطن أحد رجال العصابة المكلفين بحماية المناجم. ثم قفزت بسرعة وأمسكت بلجام الحصان الذي كان يركض بالقرب منها.

صرخ كاهير مجددًا: «امسكوا الحصان، واهربوا من هنا!»

بضربة علوية هائلة، شق الويتشر جسد نيلفجاردي آخر من عظم القص وحتى الخصر. أدار رأسه بسرعة، وهزّه بعنف ليطرد الدماء من حاجبيه ورموشه.

زأر بصوت غاضب: «شيررو! أين أنت أيها الوغد؟!»

ثم جاءت الضربة. تلاها الصراخ. قطرات دافئة ناثرت وجهه.

كان هناك رجل يرتدي الزي الأسود، راكعًا في الوحل، يبكي متوسلًا: «الرحمة!»

تردد جيرالت.

صرخ كاهير بغضب، وهو يمسك بجيرالت من كتفيه ويهزه بعنف: «استفق! استفق يا رجل! هل فقدت عقلك؟!»

في تلك اللحظة، عادت أنغوليم مسرعة على صهوة حصانها، تسحب معها لجام حصان آخر. كان اثنان من الفرسان يطاردانها. أحدهما سقط، بعدما اخترقه سهم أطلقه أحد مقاتلي الحرية من الساحل الشمالي. أما الآخر، فقد أطاح به سيف جيرالت من على سرجه بضربة واحدة.

قفز جيرالت إلى ظهر الحصان، وحينها، على ضوء النيران، رآه—شيررو، وسط بقايا النيلفجارديين المذعورين، الذين كانوا يصرخون في فوضى عارمة. بجانبه، كان نايتينغيل يتلوى ويطلق الشتائم، ووجهه المغطى بالدماء جعله يبدو كأنه ترول آكل للبشر.

زمجر الويتشر غاضبًا، أدار حصانه، ورفع سيفه استعدادًا للانقضاض.

بجانبه، صرخ كاهير، بدأ يسبّ، ثم ترنح في سرجه، إذ سالت الدماء من جبهته وغمرت عينيه ووجهه على الفور.

«جيرالت! ساعدني!»

كان شيررو قد جمع حوله مجموعة من الرجال، يصرخ فيهم، يأمرهم بتوجيه أقواسهم المستعرضة وإطلاق النار.

ضرب جيرالت مؤخرة حصانه بجانب سيفه، مستعدًا لهجوم انتحاري. كان شيررو يجب أن يموت. كل شيء آخر لم يكن مهمًا. لا كاهير، ولا أنغوليم... لا شيء آخر يهم.

لكن أنغوليم صرخت: «جيرالت! ساعد كاهير!»

استفاق من جنونه، وشعر بالخزي.

مد يده إلى كاهير، وأسنده.

مسح كاهير الدم عن وجهه بكُمّه، لكن الدم عاد ليسيل مجددًا. قال بصوت مرتعش: «لا شيء... مجرد خدش...» لكنه أضاف بصعوبة: «اهرب من هنا، أيها الويتشر... الحق بأنغوليم... انطلق!»

ارتفعت صيحات مدوية من أسفل التل — كان حشد يقترب، مسلحين بالفؤوس، والمطارق، والمناجل. لقد جاء رفاق عمال المناجم من ريالتو للمساعدة، وكذلك عمال المناجم من الحفر المجاورة — من الحفرة السعيدة، أو القضية المشتركة، أو أي مكان آخر. من كان يدري؟

ضغط جيرالت بكعبيه على جانبي حصانه، وانطلق في جموح مجنون، بأقصى سرعة، حتى التصق بطن الحصان بالأرض.

اندفعوا إلى الأمام دون أن ينظروا خلفهم، متشبثين بأعناق خيولهم.

* * *

كان أفضل الخيول قد وقع بين يدي أنغوليم، حصان صغير لكنه مفعم بالحيوية، كان ملكًا لأحد قطاع الطرق. أما حصان جيرالت، وهو فحل بني اللون بسِرج نيلفجاردي، فقد بدأ ينهج ويسعل، وكان بالكاد قادرًا على إبقاء رأسه مرفوعًا.

حصان كاهير، الذي كان أيضًا من سلاح الفرسان العسكري، كان أقوى وأكثر قدرة على التحمل، لكن ذلك لم يكن مهمًا، لأن فارسه كان يعاني. كان يتمايل في سرجه، يضغط على فخذيه غريزيًا ليتمسك، بينما يتطاير الدم من جرحه لينثر نفسه على عنق الحصان ولبدته. ومع ذلك، واصل الركض.

كانت أنغوليم، التي تركت الاثنين خلفها، تنتظرهم عند منعطف في الطريق، حيث بدأ المسار يهبط بين جدارين من الصخور.

لهثت، ووجهها ملطخ بالتراب: «المطاردون... إنهم يعيدون تمركزهم، لن يتركوا لنا مجالًا للفرار... عمال المناجم رأوا أين هربنا. لا يمكننا البقاء على الطريق... علينا أن نغوص في الغابة، حيث لا توجد مسارات... يعتمدون على...»

قاطَعها جيرالت بقلق، وهو يسمع الأنفاس المتقطعة لحصانه: «لا.»

رمقته أنغوليم بدهشة: «لماذا؟»

أجاب بصوت حازم: «ليس الوقت مناسبًا للشرح. إلى الأمام! استخرجوا كل ما يمكنكم من الخيول...»

اندفعوا مجددًا في سباق يائس، بينما كان الفحل البني للويتشر يلهث بصوتٍ مخنوق، يكافح لمواصلة الركض.

لم يكن الفحل البني قادرًا على الاستمرار في الركض. تيبست ساقاه كالعصي، بالكاد كان يستطيع المشي، وارتخت خاصرتاه، بينما كان الهواء يخرج منه على شكل أنين أجش. وأخيرًا، سقط على جانبه، مستلقيًا بلا حراك، ناظرًا إلى الفرسان بعينين ملبدتين باللوم، قبل أن تصبح نظراته غائمة.

أما حصان كاهير، فكان في حالة أفضل قليلًا، لكن كاهير نفسه كان في حالة أسوأ بكثير. سقط من سرجه، حاول النهوض، لكنه لم يستطع سوى أن يسند نفسه على أطرافه الأربعة. ثم تقيأ بعنف، رغم أنه لم يكن هناك شيءٌ تقريبًا ليخرجه.

وحين حاول جيرالت وأنغوليم لمس رأسه المغطى بالدماء، أطلق صرخة ألم حادة.

قالت الفتاة وهي تحدق في جرحه: «تبًا... لقد أفسدوا تسريحة شعره.»

كان جزء كبير من الجلد فوق جبهته وسديله الأيسر قد استُبدل بعظام الجمجمة العارية. ولولا أن الدم قد جفّ والتصق، لكانت قطعة الجلد المرتخية قد تدلت حتى أذنه. المشهد كان مريعًا.

سأل جيرالت بحدة: «كيف حدث هذا؟»

قالت أنغوليم بلامبالاة: «ببساطة، رُمي بفأس على رأسه. والأمر الطريف أن الفاعل لم يكن من النيلفجارديين، ولا من رجال نايتينغيل، بل كان أحد عمال المناجم.»

رد الويتشر وهو يلف رأس كاهير بإحكام بقطعة ممزقة من قميصه: «لا يهم من كان. المهم، وهو لحسن الحظ، أن الرامي كان سيئ التصويب، ولم يفعل سوى أن قشر فروة رأسه، وإلا لكان رأسه قد انقسم إلى نصفين. لكن عظام الجمجمة تعرضت لبعض الضرر، والدماغ تأثر أيضًا. لم يكن ليستطيع البقاء في السرج، حتى لو كان الحصان قادرًا على حمله.»

قالت أنغوليم بقلق: «ماذا نفعل الآن؟ حصانك ميت، حصانه في حكم الميت، وحصاني يتصبب عرقًا... ونحن مُطاردون. لا يمكننا البقاء هنا...»

قال جيرالت بحزم: «علينا البقاء هنا. أنا وكاهير. وحصانه أيضًا. أما أنتِ، فتابعي الركوب. بسرعة. حصانك قوي، سيتحمل الركض. وحتى لو اضطررتِ إلى دفعه حتى الموت... أنغوليم، في مكان ما بوادي سانسريتور، ينتظرنا ريجيس، ميلفا، ودانديليون. لا يعلمون شيئًا مما حدث، وقد يقعون في قبضة شيررو. عليكِ أن تجديهم وتحذريهم، ثم تتابعون جميعكم الرحلة إلى توسان. لن يتعقبكم أحد هناك. على الأقل، هذا ما نأمله.»

عضت أنغوليم على شفتها وقالت: «وماذا عنكما أنت وكاهير؟ ماذا سيحل بكما؟ نايتينغيل ليس غبيًا، وإذا رأى جثة الفحل البني، فسيبحث عنكما في كل شبرٍ هنا! وأنت لن تستطيع الذهاب بعيدًا مع كاهير وهو في هذه الحالة!»

ردّ جيرالت ببرود: «شيررو، لأنه هو من يطاردنا، سيركض خلفكِ أنتِ.»

ضاقت عيناها بارتياب: «أتعقد ذلك؟»

قال بحزم: «أنا متأكد. انطلقي.»

تنهدت، ثم قالت بنبرة قلقة: «وماذا سأخبر العمة عندما أصل من دونكما؟»

قال جيرالت: «اشرحي الأمر. لكن ليس لها، بل لريجيس فقط. ريجيس سيعرف ما عليه فعله. أما نحن... إذا التصقت فروة رأس كاهير برأسه أكثر، فسنمشي إلى توسان. وسنجدكم هناك، بطريقة ما. لا تضيعي الوقت، يا فتاة. امتطي الحصان وانطلقي. لا تسمحي للمطاردين باللحاق بك. ولا تدعيهم يلمحونك.»

ابتسمت أنغوليم بسخرية وقالت: «لا تعلّم الجد كيف يسعل! تمسكا جيدًا! إلى اللقاء حتى ذلك الحين!»

ابتسم جيرالت ابتسامة خفيفة، وقال بصوت هادئ: «حتى ذلك الحين، أنغوليم.»

* * *

لم يبتعد كثيرًا عن الطريق. لم يستطع مقاومة إلقاء نظرة على مطارديهم. لكنه لم يكن قلقًا من أي تحرك منهم، لأنه كان واثقًا من أنهم لن يضيعوا الوقت وسيلاحقون أنغوليم.

ولم يكن مخطئًا.

مر الفرسان بعد أقل من ربع ساعة. رغم أنهم كانوا يصرخون، ويتجادلون، ويفتشون الأدغال القريبة من جثة الحصان الميت، إلا أنهم عادوا سريعًا إلى الطريق. لا شك أنهم استنتجوا أن الثلاثة الهاربين كانوا يمتطون حصانًا واحدًا لشخصين، وأنه يمكنهم اللحاق بهم بسرعة إن لم يضيعوا المزيد من الوقت. رأى جيرالت أن بعض خيول المطاردين لم تكن في أفضل حالاتها.

كان عدد فرسان النيلفجارديين الخفيفين ذوي المعاطف السوداء قليلًا جدًا بين المطاردين، إذ كانت الأغلبية من قطاع الطرق الملونين التابعين لـ نايتينغيل. لم يستطع جيرالت تمييز ما إذا كان نايتينغيل نفسه يشارك في المطاردة، أم أنه كان منشغلًا بتنظيف وجهه المشقوق وتضميده.

ومع تلاشي صوت الحوافر في المسافة، خرج جيرالت من مخبئه بين السرخس، ورفع كاهير الذي كان يئن ويتأوه، وساعده على الوقوف.

قال له بهدوء: «الحصان ضعيف جدًا على أن يحملَك. هل تستطيع المشي؟»

أصدر النيلفجاردي صوتًا غامضًا، يمكن تفسيره على أنه تأكيد أو نفي... أو شيء آخر. لكنه وضع قدمًا أمام الأخرى، وذلك هو المهم.

نزلوا إلى وادٍ، إلى مجرى نهر جاف. تعثر كاهير في الخطوات الأخيرة، وانزلق على المنحدر الزلق وسقط متدحرجًا ببؤس. زحف نحو الجدول، شرب منه حتى ارتوى، ثم سكب بعض الماء على رأسه المضمد. لم يحثه الويتشر على الإسراع بل أخذ نفسًا عميقًا، يستجمع قوته.

تابعوا سيرهم صعودًا عبر المجرى، حيث كان جيرالت يسند كاهير من جهة، ويجر الحصان الضعيف من الجهة الأخرى. كانوا يخوضون في الماء، يضعون أقدامهم بحذر على الصخور وجذوع الأشجار المتساقطة.

لكن بعد فترة، لم يعد كاهير قادرًا على التقدم فقد توقفت قدماه عن حمله، ولم يعد يحركهما، واضطر جيرالت إلى جره. لم يكن بإمكانهما الاستمرار بهذا الشكل، خصوصًا أن المجرى قُطع بشلالات صغيرة ومياه متدفقة.

تأوه جيرالت وهو يرفع كاهير المصاب على ظهره. كان جرّ الحصان خلفه يزيد الأمر صعوبة.

وأخيرًا، حين خرجوا من الوادي، انهار الويتشر على أرض الغابة المبللة، واستلقى وهو يلهث، منهكًا تمامًا، إلى جوار كاهير الذي كان يئن من الألم.

ظل ممددًا هناك طويلًا. في مؤخرة ركبته، بدأ ألم غاضب ينبض بحدة.

أخيرًا، أظهر كاهير بعض علامات الحياة، وبعد لحظات—بأعجوبة—وقف على قدميه، شتم نفسه، ثم أمسك برأسه المتألم. تابعوا سيرهم. في البداية، كان كاهير يتحرك بسرعة. ثم بدأ يبطئ. ثم سقط مجددًا.

اضطر جيرالت إلى حمله على ظهره تارة، وجرّه تارة أخرى، متأوهًا، متكئًا على الصخور ليحافظ على توازنه. الألم كان يشتعل في ركبته، بينما غزت عينَيه نقاط سوداء تتراقص كالزنابير الملتهبة.

تمتم كاهير من فوق ظهره، بصوت واهن: «قبل شهر فقط... من كان ليصدق أنك ستحملني على ظهرك...»

قال جيرالت بحدة، رغم إنهاكه: «اصمت، أيها النيلفجاردي... لا تهدر قوتك بالكلام...»

عندما وصلوا أخيرًا إلى التضاريس الصخرية والمنحدرات، كان الظلام قد بدأ يزحف. لم يكن الويتشر يأمل كثيرًا في العثور على كهف، لكنه وجده وبلا قوة متبقية، انهار داخله، مستلقيًا في أول فجوة وجدها.

* * *

كانت الكهف مليئًا بجمجمة بشرية وحيدة، وبعض الأضلاع، وعظم الحوض، وبقايا عظام متناثرة. لكن — والأهم من ذلك — كان هناك أيضًا أغصان جافة.

كان كاهير محمومًا، جسده يرتجف ويرتعش في نوبات متقطعة. تحمل عملية خياطة الجلد الممزق بشجاعة، والتي أجراها جيرالت باستخدام إبرة منحنية وخيط. لكن الأزمة الحقيقية جاءت في وقت لاحق من الليل.

قرر جيرالت إشعال النار داخل الكهف، متجاهلًا أي مخاوف أمنية. كان المطر يهطل بغزارة، والعاصفة تضرب السماء بالخارج، مما جعل من غير المحتمل أن يكون هناك أحد يتجول في المنطقة متربصًا بضوء النيران. وكان كاهير بحاجة إلى الدفء.

ظل يهذي طوال الليل، يرتجف، ويئن في حمى شديدة. لم يستطع جيرالت النوم—كان عليه أن يحافظ على اشتعال النار. أما ركبته، فكانت تؤلمه بألم شيطاني، ينبض كأنها تحترق من الداخل.

* * *

مع اقتراب الصباح، بدأ النلفجاردي الشاب يستعيد قوته تدريجيًا. كان شاحبًا، جسده مغطى بالعرق، وجيرالت كان يشعر بالحرارة التي تنبعث منه. كانت أسنانه تصطك قليلًا، مما أعاق حديثه، لكنه تحدث رغم ذلك. تحدث بثقة.

شكا من صداع وهو أمر طبيعي لشخص تعرض لضربة فأس في رأسه، وانتزعت فروة رأسه مع شعره.

قضى جيرالت فترات الصباح الباكر والليالي المضطربة في جمع قطرات المطر المتساقطة من الصخور، مستخدمًا لحاء البتولا كأوعية. كلاهما، هو وكاهير، كانا يعانيان من العطش.

قال كاهير فجأة: «جيرالت؟»

«نعم.»

أعاد كاهير ترتيب الحطب في النار باستخدام عظمة ساق وجدها بالقرب منه.

قال بصوت هادئ: «في المنجم، أثناء القتال... كنت خائفًا، هل تعلم؟»

«أعلم.»

«للحظة، بدا وكأنك فقدت السيطرة تمامًا. وكأن لا شيء يهمك... سوى القتل...»

«أعلم.»

همس كاهير، بصوت منخفض: «كنت أخشى... أنك في حالتك تلك ستقتل شيررو. ومن الموتى، لا يمكننا الحصول على أي معلومات.»

تنحنح جيرالت بصوت خافت. كان يعجب به أكثر فأكثر. لم يكن كاهير شجاعًا فحسب، بل كان ذكيًا أيضًا.

تابع النيلفجاردي بصوت مرتعش، وهو يصطك بأسنانه قليلًا: «لقد أحسنت بإرسال أنغوليم بعيدًا. هذا ليس أمرًا للفتيات... حتى لمثلها. هذا شيء علينا فعله بأنفسنا، نحن الاثنان. نحن نطارد العواقب. لكن ليس للقتل بهوس أعمى. تظن أن الأمر يتعلق بالانتقام... جيرالت، لا يجب أن يكون الانتقام هدفنا. علينا الإمساك بهذا النصف-إلف... وإجباره على إخبارنا بمكان سيري...»

قال جيرالت ببرود: «سيري لم تعد على قيد الحياة.»

قال كاهير بحزم: «هذا غير صحيح. لا أصدق أنها ماتت... وأنت لا تصدق ذلك أيضًا. اعترف بذلك.»

بعد لحظة صمت، تنهد جيرالت وقال: «لا أصدق ذلك.»

في الخارج، كانت العاصفة تعوي والمطر يضرب الأرض بغضب. لكن داخل الكهف، كان الجو دافئًا وآمنًا.

قال كاهير بصوت منخفض: «جيرالت؟»

رد الويتشر، محدقًا في ألسنة اللهب المتراقصة: «أنا منصت.»

قال كاهير بإصرار: «سيري ما زالت حية. لقد رأيت حلمًا آخر... نعم، حدث شيءٌ ما عند الاعتدال، شيءٌ مصيري... نعم، لا شك في ذلك، لقد شعرتُ به ورأيتُه أيضًا... لكنها ما زالت حية... لا شك في ذلك. علينا أن نسرع... لكن ليس من أجل الانتقام والقتل. بل من أجلها.»

تمتم جيرالت، وهو ينظر إلى ألسنة اللهب المتراقصة: «نعم. نعم، كاهير. أنت محق.»

سأله كاهير: «وأنت؟ هل رأيتَ أحلامًا أخرى؟»

أجاب الويتشر بمرارة: «نعم. لكن نادرًا جدًا منذ أن عبرنا الياروغا. وعندما أستيقظ، لا أستطيع تذكرها أبدًا. هناك شيءٌ داخلي قد توقف، كاهير. شيءٌ احترق. شيءٌ ما بداخلي تمزق بالكامل...»

ابتسم كاهير، رغم تعبه، وقال بصوت هادئ: «لا بأس، جيرالت. أنا أحلم بما يكفي لكلينا.»

* * *

واصلوا رحلتهم مع بزوغ الفجر. توقف المطر، بل بدا وكأن الشمس تحاول العثور على ثغرة في الغيوم الرمادية التي غطت السماء.

كانا يركبان معًا على ظهر حصان واحد، بسِرجٍ نيلفجاردي عسكري. كان الحصان يتعثر على الحصى، لكنه سار بشكل أفضل على الدروب الحجرية الممتدة على طول ضفاف نهر سانسريتور، المؤدية إلى توسان.

كان جيرالت يعرف الطريق. لقد مرّ من هنا ذات مرة. الكثير قد تغير.

لكن الكثير أيضًا لم يتغير—ظلّ الجدول في وادي سانسريتور يتسع تدريجيًا ليصبح نهر سانسريتور العظيم. ظلت جبال أمل تلوح في الأفق، شامخة كعادتها، بجانب جورجون، جبل الشيطان.

بعض الأشياء... لا تتغير أبدًا.

* * *

قال كاهير وهو يلمس الضمادة على رأسه: «الجندي لا يشكك في الأوامر. لا يحللها، لا يفكر فيها، ولا يتوقع تفسيرًا لمعناها. هذا أول ما علمونا إياه نحن الجنود. لذا يمكنك أن تتخيل أنني لم أتردد لحظة واحدة في تنفيذ الأمر الذي أُعطِي لي. لم يخطر ببالي حتى تساؤل عابر عن سبب تكليفي بالبحث عن أميرة سنترية. الأوامر هي الأوامر. بالطبع، كنت مستاءً، لأنني كنت أرغب في تحقيق المجد مع الفرسان، مع الجيش النظامي... لكن العمل في المخابرات شرفٌ لنا أيضًا. لو كان الأمر يتعلق بمهمة أكثر تعقيدًا، كأسر سجناء ذوي أهمية... لكن مجرد فتاة؟»

ألقى جيرالت بعظمة عمود فقري لسمكة سلمون مرقط في نار المخيم. كانوا قد اصطادوا الكثير من السمك الليلة الماضية في جدول يصب في نهر سانسريتور. كان موسم التفريخ، وكانت الأسماك وفيرة وخفيفة.

استمع إلى قصة كاهير، متأرجحًا بين الفضول العميق وشعورٍ غامرٍ بالندم.

تابع النيلفجاردي، محدقًا في النار: «ببساطة، كان الأمر مجرد صدفة. أنقى أنواع الصدف. كما علمت لاحقًا، كان لدينا جاسوس في بلاط سنتر، أحد المسؤولين في القصر. وبينما كنا على وشك اقتحام المدينة ونستعد لحصار القلعة، تمكن هذا الجاسوس من الفرار وألمح إلى أنهم سيحاولون تهريب الأميرة خارج المدينة. تم تشكيل عدة مجموعات، تمامًا مثل مجموعتي. وصادف أن مجموعتي هي التي عثرت على سيري.»

تنهد قليلًا، ثم تابع، وصوته يزداد حدة مع الذكرى:

«بدأ الأمر بمطاردة عبر أحياء المدينة، التي كانت بالفعل تحترق. كان ذلك جحيمًا حقيقيًا. لا شيء سوى صوت الهسهسة المروع للنيران، وجدران من اللهب تبتلع كل شيء. الخيول لم تكن تريد التقدم، وكذلك الناس. رجالي—وكانوا أربعة—بدأوا يسبّون، يصرخون، ويعتقدون أنني فقدت صوابي وسأقودهم إلى الهلاك... بالكاد تمكنت، بصعوبة بالغة، من إبقائهم تحت السيطرة.»

ابع كاهير، صوته مفعم بذكرى أهوال الماضي:

«واصلنا ملاحقة الفارين عبر هذا الجحيم المتقد، وتمكنا من اللحاق بهم. فجأة، صاروا أمامنا مباشرة—خمسة من السنترينيين.

وقبل أن أتمكن حتى من أن أصرخ طالبًا منهم تسليم الفتاة، بدأوا بالقتال بشراسة. الرجل الذي كان يحملها على سرجه كان أول من سقط، وسقطت معه على الأرض. أحد رجالي أمسك بها بسرعة، ورفعها إلى حصانه، لكنه لم يبتعد كثيرًا، لأن أحد السنترينيين غرس سيفه في ظهره، مخترقًا جسده بالكامل. رأيت النصل يبرز مسافة بوصة واحدة من رأس سيري، ثم سقطت مجددًا على الأرض. كانت بالكاد واعية من شدة الخوف. رأيتها تتشبث بالجثث وتحاول التسلل تحتها... مثل قطة صغيرة تحاول الاختباء أسفل أمها الميتة...»

توقف لبرهة، وابتلع ريقه بصعوبة.

«لم تكن حتى تعلم أنها تتشبث بعدوها. بنلفجارديّ، من المفترض أن تكرهه بشدة.»

توقف للحظة قصيرة، ثم واصل:

«كنا وحدنا. أنا وهي. لا شيء حولنا سوى الجثث والنيران. بدأت تزحف في برك المياه والدماء، لكنها كانت تغلي بالبخار المتصاعد. انهار منزلٌ قريب، ورأيت الشرر والدخان يتطاير، ثم بالكاد استطعت أن أرى شيئًا. الحصان رفض التقدم. ناديت عليها، طلبت منها أن تأتي إليّ، صرخت حتى بحّ صوتي محاولًا أن أجعلها تسمعني وسط هدير النيران. رأتني وسمعتني، لكنها لم تتحرك. كان الحصان يرفض التقدم، ولم أستطع إجباره. اضطررت للنزول. مددت يدي لألتقطها، لكن كان عليّ أن أمسك باللجام باليد الأخرى. الحصان جذب اللجام بقوة كادت أن تطيح بي. وعندما رفعتها، بدأت تصرخ. ثم تصلبت فاقدة الوعي. لفيتها بمعطفٍ غارق في الوحل، والقاذورات، والدم. ثم انطلقنا، مباشرةً عبر النيران.»

توقف لوهلة، وكأنما يسترجع كيف نجا من ذلك الجحيم.

«لا أعرف بأي معجزة شققنا طريقنا للخروج من هناك. لكن فجأة وجدنا أنفسنا عند النهر. لسوء الحظ، كان ذلك المكان الذي كان النوردليون يفرون عبره. ألقيت خوذتي العسكرية جانبًا، لأنهم، رغم أن الأجنحة كانت محترقة، كانوا سيتعرفون عليّ فورًا. أما بقية زيي العسكري، فقد احترق بشدة لدرجة أنه لم يعد يفضحني. لكن لو أنها استيقظت وبدأت بالصراخ، لكانوا ذبحوني على الفور.»

نظر إلى جيرالت بعينين تائهتين قليلاً، وكأنه لا يزال لا يصدق كيف تمكن من الخروج حيًا من تلك الليلة.

«لقد كنت محظوظًا.»

قال كاهير بصوت متباطئ، وكأنه لا يزال يسترجع ذكرياته الثقيلة:

«ركبت معها لمسافة ميل، ثم بقيت خلفهم، مختبئًا بين الأدغال بجوار النهر، الذي كان يحمل الجثث على سطحه بلا توقف.»

توقف، ثم تنحنح، وتحسس رأسه المضمد بكلتا يديه. بدا وكأنه يحاول إخفاء احمرار وجهه... أو ربما كان مجرد انعكاس اللهب على بشرته؟

«كانت سيري قذرة بشكلٍ لا يوصف. كان عليّ أن أنظفها... لم تقاوم، لم تصرخ. كانت ترتجف، وعيناها مغلقتان. في كل مرة ألمسها لغسلها أو تجفيفها، كانت تتشنج وتتصلب... كنت أعلم أن عليّ التحدث إليها، ربما كانت ستهدأ... لكن فجأة، لم أجد أي كلمات بلغتك... بلغة أمي، التي أعرفها منذ الطفولة. لم أستطع العثور على الكلمات، لذا حاولت تهدئتها باللمس، باللطف... لكنها تصلبت وأطلقت أنينًا... كفرخ صغير مذعور...»

همس جيرالت بصوت خافت: «كانت تعاني من كوابيس بسبب ذلك.»

قال كاهير بصوت منخفض: «أعلم... وأنا أيضًا.»

توقف للحظة، ثم استأنف:

«ثم نامت... وأنا أيضًا، من شدة الإنهاك. وعندما استيقظت، لم تكن هناك. لم تكن في أي مكان. الباقي لا أذكره. أولئك الذين عثروا عليّ قالوا إنني كنت أركض في دوائر، وأبكي كذئب جريح. اضطروا إلى تقييدي. وعندما هدأت، اقتادني الناس إلى التنوير، رجال فاتيير دي ريدو. كانوا قلقين بشأن سيري. أين هي، إلى أين هربت، كيف تمكنت من الفرار مني، ولماذا سمحت لها بذلك. ثم بدأ الاستجواب من جديد، مرارًا وتكرارًا: أين هي، أين هربت...»

تلاشى صوته قليلًا، وكأن الحزن قد أثقل عليه.

«كنت أبكي غضبًا على إمبراطور يستمتع بمطاردة الفتيات الصغيرات. وبكيت لعام كامل، بينما كنت جالسًا في زنزانة في القلعة. لكنهم عفوا عني في النهاية، لأنهم كانوا بحاجة إلي. في ثانيد، كانوا بحاجة إلى شخص يتحدث اللغة العامة، ويعرف كيف تبدو سيري. أرادني الإمبراطور أن أذهب إلى ثانيد... وهذه المرة، لم يكن مسموحًا لي بالفشل. كان عليّ أن أعيدها إليه.»

صمت للحظة، ثم تابع بصوت متوتر:

«إمير منحني فرصة. لم يكن بإمكاني رفضها. كان الرفض يعني العار المطلق، الإهانة الأبدية، والنفي مدى الحياة. لم أستطع الرفض، حتى لو كنت أريد ذلك. لكنني لم أكن أريد الرفض. لأنك تعلم، جيرالت... لم أستطع نسيانها.»

تنهد، ثم قال بصوت ضعيف:

«لن أكذب عليك. كنت أراها باستمرار في أحلامي. لكن لم تكن الطفلة الهزيلة التي وجدتها عند النهر وأنا أنظفها. بل كنت أراها... كامرأة جميلة، واثقة، مستفزة... وبتفاصيل مثل وردة حمراء نارية موشومة عند خاصرتها...»

نظر إليه جيرالت فجأة بحدة، صوته محمل بالريبة والدهشة: «عن ماذا تتحدث؟»

قال كاهير بصوت مضطرب: «لا أعلم، لا أفهم ذلك بنفسي... لكنها كانت هناك، وما زالت. أراها في أحلامي، تمامًا كما رأيتها في حلمي حينها... ولهذا وافقت على المهمة في ثانيد. لهذا أردت الانضمام إليك لاحقًا. أنا... ما زلت أريد... أن أراها مجددًا، أن ألمس شعرها، أن أنظر في عينيها... أريد رؤيتها.»

توقف للحظة، ثم أضاف، صوته مختنق بالعاطفة:

«اقتلني إن شئت. لكنني لن أواصل التظاهر بعد الآن. أعتقد... أعتقد أنني أحبها. أرجوك، لا تضحك.»

نظر إليه جيرالت بثبات وقال: «أنا لا أضحك.»

تنفس كاهير بعمق، ثم قال بصوت حازم: «لهذا السبب أنا أركب معك. هل تفهم؟»

سأله جيرالت، نبرته حادة: «هل تريدها لنفسك، أم لإمبراطورك؟»

همس كاهير: «أنا واقعي. لن أتمكن أبدًا من الزواج بها. لكن كزوجة للإمبراطور، قد أراها بين الحين والآخر، ولو من بعيد.»

شخر جيرالت بسخرية وقال: «كواقعي، عليك أن ترى أولًا أننا يجب أن نجدها وننقذها. بافتراض أن أحلامك لا تكذب، وأن سيري ما زالت على قيد الحياة حقًا.»

أومأ كاهير برأسه وقال: «أعلم ذلك. ولكن عندما نجدها؟ ماذا بعد؟»

قال جيرالت بهدوء: «سنرى. سنرى، كاهير.»

أخفض كاهير صوته وقال بجفاء: «لا تخدعني. كن صادقًا. أنت لن تسمح لي بأخذها.»

لم يجبه جيرالت.

لم يكرر كاهير سؤاله. بل قال بصوت هادئ لكنه محمل بالمعاني: «حتى ذلك الحين، هل يمكننا أن نكون صديقين؟»

نظر إليه جيرالت للحظة، ثم قال بصدق: «نعم، كاهير. وأطلب منك العفو مجددًا على ما حدث. لا أعلم ماذا أصابني. في الحقيقة، لم أكن أشك بجدية في أنك خائن، أو أنك ستخذلنا.»

رفع كاهير رأسه، ونظر إليه بثبات وقال: «أنا لست خائنًا. ولن أخونك أبدًا، يا ويتشر.»

* * *

ساروا عبر المضيق العميق لنهر سانسريتور، الذي أصبح الآن واسعًا ومتدفقًا بقوة، يشق طريقه بين الصخور. كانوا يتجهون شرقًا، نحو حدود إمارة توسان.

* * *

ارتفع غورغون، جبل الشيطان، فوقهم شامخًا. لو أرادوا النظر إلى قمته، لاضطروا إلى رفع رؤوسهم حتى ينكسر عنقهم. لكنهم لم يفعلوا.

* * *

في البداية، شمّوا رائحة الدخان. وبعد لحظات، رأوا ألسنة اللهب، ثم العصي التي كانت معلقة فوقها، حيث كانت أسماك السلمون المرقط تُشوى ببطء. ثم رأوا الرجل الجالس وحده بجانب النار.

قبل وقت ليس ببعيد، لو قال له أحدهم إنه، جيرالت الويتشر، سيشعر بسعادة غامرة عند رؤية مصاص دماء، لكان قد سخر منه بلا رحمة، وسماه أحمقًا.

لكن الآن...

رفع إميل ريجيس غودفروي عود السمك المشوي، وحدق فيهما بابتسامة ماكرة، ثم قال:

«أوه، انظروا من جلبته الرياح إلينا.»

النيكر :يُعرف أيضًا بأسماء مثل *بوكاش*، *كوبلبيناو*، *بولتردوك*، *كاركونوس*، *رويزاهل* أوسكا*ربنيك*، وهو نوع من *الكوبولد*، لكنه يفوقه في الحجم والقوة. غالبًا ما يرتدي الـ *النيكر* لحى كثيفة وضخمة.

يعيش الـ*نيكر* في الأنفاق الجوفية، الكهوف، المغارات، الهاويات الصخرية والمتاهات. وعادةً ما يسكنون الأراضي الغنية بالثروات المخفية، مثل الأحجار الكريمة، الخامات المعدنية، الفحم، النفط الطبيعي أو الملح. لهذا السبب، يمكن العثور عليهم كثيرًا في المناجم، وخصوصًا المهجورة، وأحيانًا في المناجم النشطة حيث يستمتعون باستعراض قوتهم.

يُعرف الـ*نيكر* بأنه مخلوق ماكر ومزعج، يتسبب بالفوضى لعمال المناجم عبر تخريب الآلات، والنقر على الصخور لإرعابهم، وفي انهيارات الأنفاق، وسرقة المعدات والأدوات، بل وحتى التسلل خلف العمال وضربهم على رؤوسهم.

ومع ذلك، يمكن رشوتهم للحدّ من أفعالهم التخريبية إلى مستوى مقبول. الطريقة الأفضل لذلك هي ترك بعض الخبز مع الزبدة في نفق مظلم، أو قطعة من جبن الغنم، أو حصة من السمك المدخن. ولكن أفضل رشوة على الإطلاق هي قنينة من البراندي، فهو حلو المذاق، والـ*النيكر* مغرمون بشدة بالسكريات.

فسيولوجيوس (كتاب الوحوش) – لمؤلف مجهول

الفصل السابع

أكد مصاص الدماء، وهو يحث بغلته دراكولا على السير: «إنهم بخير. الثلاثة جميعهم—ميلفا، دانديليون، وبالطبع أنغوليم، التي لحقت بنا في وادي سانسريتور وأخبرتنا بكل شيء، دون أن تبخل علينا بالكلمات التصويرية. لم أفهم أبدًا لماذا أنتم البشر لديكم هذا الكم الهائل من الشتائم والإهانات المتعلقة بالجوانب الجنسية. فالجنس في نهاية المطاف شيء جميل، مرتبط بالجمال، الفرح، والمتعة. كيف يمكنكم استخدام أسماء الأعضاء التناسلية في مثل هذه التعابير السوقية...»

قاطعه جيرالت ببرود: «لاتخرج عن صلب الموضوع، ريجيس.»

«بالطبع، معذرة. أنغوليم حذرتنا من قطاع الطرق القادمين، فعبرنا الحدود إلى توسان على الفور. في الحقيقة، كانت ميلفا ضد الفكرة، وكانت متحمسة للعودة والبحث عنكما. لكنني تمكنت من إقناعها. أما دانديليون، فبدلًا من أن يبتهج بملاذ آمن تمنحه له الدوقية، بدا عليه انزعاجٌ شديد... هل لديك أي فكرة عمّا يخشاه شاعرنا في توسان؟»

تنهد جيرالت وقال بسخرية: «لا أعلم، لكن يمكنني التخمين. لن يكون هذا أول مكان يزوره صديقنا البارد. الآن أصبح أكثر هدوءً، لأنه يرافق رفقة محترمة، لكن في شبابه، لم يكن معروفًا بالتقوى والورع. يمكنني القول إن النساء الوحيدات اللواتي كنّ في مأمن منه هنّ من قفزن إلى الماء أو تسلقن أشجارًا عالية جدًا. وغالبًا ما كان الأزواج، والخُطّاب، والآباء، والإخوة يكنّون له عداءً شديدًا، وهذا أمر يمكنك التأكد منه. لا شك أن في توسان زوجًا، رؤية دانديليون قد تثير لديه بعض الذكريات القديمة... لكن هذا ليس مهمًا الآن. دعنا نعد إلى الحقائق. ماذا عن المطاردين؟ آمل أنك...»

ابتسم ريجيس وقال بهدوء: «لا أعتقد أنهم قد تجرأوا على ملاحقتنا إلى توسان. الحدود مليئة بالفرسان الجوّالين، الذين يشعرون بملل شديد، ويتمنون أي ذريعة للدخول في قتال. ب

الإضافة إلى ذلك، انضممنا عند الحدود إلى قافلة من الحجاج، كانوا في طريقهم إلى الغابات المقدسة في ميركفيد. وهو مكان يثير الرعب في النفوس. حتى الحجاج، المرضى والمقعدين الذين يقطعون المسافات الطويلة إلى ميركفيد طلبًا للشفاء، يبقون في المخيمات على أطراف الغابة ولا يجرؤون على دخول أعماقها. يقال إن من يتجرأ على دخول الغابات المقدسة يُحرق ببطء داخل دمية خوصية.»

شهق جيرالت من الصدمة.

«حقًا...»

قاطعه مصاص الدماء مجددًا: «بالطبع. يسكن في غابة ميركفيد مجموعة من الكهنة الدرويد. أولئك الذين كانوا يعيشون في أنغرا، في كايد دو، ثم هاجروا إلى لوك موندوين، وأخيرًا إلى ميركفيد في توسان. كان من المحتوم أن نلتقي بهم في نهاية المطاف. ألا تذكر أنني قلت ذلك منذ زمن بعيد؟»

أخذ جيرالت نفسًا عميقًا. كان كاهير يركب خلفه.

سأل كاهير: «هل صديقك من بين هؤلاء الدرويد؟»

ابتسم مصاص الدماء مجددًا.

وأوضح: «إنهم ليسوا أصدقائي، بل مجرد معارف. نعم، إنها هناك. بل لقد تمت ترقيتها. إنها تقود الدائرة بأكملها.»

سأل جيرالت بذهول: «هيروفانت؟»

هزّ ريجيس رأسه وصحح: «فلامينيكا. هذا هو اللقب الذي يُمنح للمرأة عندما تصل إلى أعلى مرتبة درويدية. أما الرجال، فيُطلق عليهم هيروفانت.»

«صحيح، نسيت ذلك. إذن، ميلفا والبقية...»

أجاب ريجيس، كعادته، على السؤال قبل أن يكتمل: «هم الآن تحت حماية الدائرة، وتحت حماية الفلامينيكا.»

ثم أضاف: «أما أنا، فقد أسرعتُ للقدوم إليك. حدث أمر غريب. عندما بدأتُ بعرض قضيتنا على الفلامينيكا، لم تسمح لي بإنهاء حديثي. قالت إنها تعرف كل شيء بالفعل. قالت إنهم كانوا ينتظرون قدومنا منذ فترة...»

رفع جيرالت حاجبيه وسأل: «كيف؟»

وقف مصاص الدماء عن السير، شدّ لجام بغلته، ثم وقف في الركابين ونظر حوله.

سأله كاهير بريبة: «هل تبحث عن شخصٍ ما؟ أو شيء ما؟»

قال ريجيس بثقة: «لا أبحث، بل وجدت. انزلا عن الحصان.»

احتج كاهير: «يجب أن نسرع...»

قال ريجيس بحزم: «انزلا. سأشرح لكما كل شيء.»

اضطروا لرفع أصواتهم حتى يُسمعوا بعضهم، بسبب هدير شلال ضخم كان يسقط من ارتفاع شاهق على جدار صخري عمودي. في الأسفل، حيث كانت المياه تتدفق إلى بحيرة واسعة، انفتحت الصخرة على فوهة كهف مظلمة.

أكد ريجيس، وهو ينظر إلى الكهف: «نعم، هذا هو المكان.» ثم التفت إلى جيرالت وأوضح: «جئتُ للقائك هنا لأنني تلقيت أمرًا بذلك. عليك أن تدخل هذا الكهف. أخبرتك أن الدرويد كانوا يعلمون عنك، ويعلمون عن سيري، وعن مهمتنا. وقد سمعوا كل ذلك عبر شخصٍ يعيش هناك. وهذا الشخص، إذا صدقنا كلام الدرويد، يريد التحدث إليك.»

ردد جيرالت بتهكم: «إذا صدقنا كلام الدرويد... لقد كنت هنا من قبل. وأعرف ما الذي يعيش في أعماق الكهوف تحت جبل الشيطان. هناك أناس يعيشون هناك، نعم. لكن الغالبية العظمى منهم لا يمكنك الحديث معهم... إلا بالسيف. ماذا قال لك الدرويد أيضًا؟ ما الذي يجب أن أصدقه أيضًا؟»

نظر ريجيس إلى عيني جيرالت المتقدتين وسط الظلام وقال: «لقد جعلتني الفلامينيكا أفهم بشكل واضح أنها لا تحب الأشخاص الذين يدمرون الحياة الطبيعية ويقتلونها، بشكل عام، وخاصة الويتشرات، أوضحتُ لها أنك الآن مجرد ويتشر باللقب فقط. وأنك لا تمثل تهديدًا للطبيعة، طالما أن الطبيعة لا تهددك.»

توقف لحظة، ثم أضاف: «الفلامينيكا، يجب أن تعلم، هي امرأة ذات ذكاء استثنائي. أدركت أنك لم تترك طريق الويتشر نتيجة لتغير في عقليتك، بل لأنك كنت مضطرًا لذلك بسبب الظروف. قالت لي: أنا أعرف جيدًا أن كارثة قد حلت بشخص قريب من الويتشر. الويتشر اضطر إلى التخلي عن مساره والتوجه لإنقاذه...»

لم يعلق جيرالت، لكن نظرته كانت معبرة بما يكفي، ما دفع مصاص الدماء إلى الإسراع في التوضيح.

قال ريجيس، مستشهدًا بكلمات الفلامينيكا:

«قالت، وأقتبس: الويتشر، كونه ليس ساحرًا، يجب أن يثبت أنه قادر على التواضع والتضحية. عليه أن يدخل إلى أعماق الأرض المظلمة. منزوع السلاح. عليه أن يتخلى عن كل الأسلحة، عن أي قطعة حديد حادة. عن جميع الأفكار الشريرة. عن العدوان، والغضب، والحقد، والكبرياء. عليه أن يدخل بتواضع. وهناك، في أعماق الأرض، سيجد الويتشر المتواضع إجابات للأسئلة التي تعذبه. سيجد إجابات لكثير من الأسئلة. لكن إن بقي هناك، فلن يتعلم شيئًا أبدًا.»

بصق جيرالت باتجاه الشلال والكهف، ثم قال ببرود:

«يبدو وكأنه لعبة سخيفة. إلهاء. تسلية. طقوس تكهن، تضحية، لقاء غامض في أعماق الأرض، إجابات لكل الأسئلة... هذه الحيل المبتذلة لا تجدها إلا عند القصاصين الجوالين. هناك من يسخر مني هنا. هذا في أحسن الأحوال. وإن لم يكن الأمر كذلك...»

قال ريجيس بحزم: «لن أسميها سخرية تحت أي ظرف. لا بأي حال، يا جيرالت من ريفيا.»

نظر إليه جيرالت بنظرة حادة، ثم قال: «إذن، ما هو؟ إحدى غرائب الدرويد الشهيرة؟»

تحدث كاهير بهدوء: «لن نعرف ذلك... حتى تعرفه أنت بنفسك. هيا، جيرالت، سندخل معًا...»

لكن ريجيس هز رأسه، قاطعًا كلامه: «لا. كانت الفلامينيكا واضحة تمامًا بهذا الشأن. على الويتشر أن يدخل وحده. بلا أسلحة. أعطني سيفك، سأحتفظ به إلى أن تعود.»

زمجر جيرالت بضيق: «تبًا لهذا...»

لكنه لم يكمل جملته، إذ أشار إليه ريجيس بسرعة ليقاطعه.

مدّ ريجيس يده وقال: «أعطني سيفك. وإن كان لديك أي أسلحة أخرى، فاتركها معي أيضًا. فكّر في كلمات الفلامينيكا. لا عدوان. تضحية. تواضع.»

تردد جيرالت للحظة، ثم سأل بحدة: «هل تعلم من سأقابله هناك؟ من... أو ما الذي ينتظرني داخل هذا الكهف؟»

هزّ ريجيس رأسه وقال: «لا، لا أعلم. كل أنواع المخلوقات تعيش في الممرات الجوفية تحت جبل جورجون.»

تمتم جيرالت بغضب: «تبًا لهذا!»

ردّ ريجيس بجدية: «هذا احتمال لا يمكن استبعاده.» ثم أضاف بصوت ثابت: «لكن عليك أن تخوض المخاطرة. لا خيار آخر أمامك.»

كان ريغيس محقًا. كما كان متوقعًا، كانت مدخل الكهف محاطًا بكومة هائلة من الجماجم، والأضلاع، والعظام، والفقرات. ومع ذلك، لم تكن هناك أي رائحة تحلل. كانت هذه البقايا، على ما يبدو، قديمة تعود إلى قرون مضت، وكانت تؤدي دور الزخرفة لردع المتطفلين.

أو هكذا ظن.

دخل الظلام، محدثًا صوت تكسير العظام تحت قدميه. سرعان ما تكيفت عيناه مع العتمة. وجد نفسه داخل كهف ضخم ذو قبة صخرية، حجمه لم يكن من الممكن تقديره، إذ تلاشت أبعاده وسط غابة من الصواعد التي تدلت من السقف كأنها أغصان ملونة. من الأرض، برزت صواعد بيضاء ووردية، سميكة عند القاعدة وتتقلص نحو القمة. كانت بعض الذرى ترتفع فوق رأس الويتشر، بينما كانت أخرى تلتقي في الأعلى مع الهوابط، مشكلةً أعمدة حجرية.

الصوت الوحيد الذي تردد صداه في الحجرة الحجرية كان صوت قطرات الماء المتساقطة.

تقدم إلى الأمام، متوغلاً في عمق الكهف. كان يعلم أنه مراقب.

شعر بثقل غياب السيف عن ظهره، كان ذلك الإحساس غير مرحب به، تمامًا كإحساس غياب سنّ مكسورة حديثًا.

أبطأ من خطواته.

ما كان يراه قبل لحظات مجرد كومة من الصخور المستديرة عند قاعدة إحدى الصواعد، أصبح الآن يحدق به بعينين متوهجتين ضخمتين.

انفتح تكتل من الفرو الرمادي المغبرّ على مصراعيه، كاشفًا عن فكّين عملاقين تتلألأ داخلهما أنياب مخروطية حادة.

باريغازي.

تابع جيرالت تقدمه بحذر، منتبهًا لكل خطوة يخطوها.

كان الباربيغازي في كل مكان. بعضها كان كبيرًا، وبعضها متوسط الحجم، بينما الصغار كانوا يتناثرون على طول طريقه، دون نية واضحة للمغادرة. حتى الآن، كانوا هادئين. لكن لم يكن متأكدًا مما قد يحدث إن داس على أحدهم بالخطأ.

لم يستطع السير في خط مستقيم، واضطر إلى التسلل عبر الغابة الكثيفة من الصواعد. قطرات الماء الباردة تساقطت عليه من السقف، لتمتزج ببرودة الجو الذي أصبح مشبعًا برائحة الصخر الرطب... والترقب.

كان الباربيغازي — وما زالوا في ازدياد — يرافقونه عند كل منعطف، يتسللون أمامه ويتدحرجون عبر الأرضية. كان بإمكانه سماع لهاثهم وأنفاسهم المتقطعة. كان بإمكانه أيضًا شمّ رائحتهم النفاذة الحامضة.

اضطر إلى التوقف.

بين عمودين حجريين، في ممر ضيق لا يمكن الالتفاف حوله، كان هناك إيكينوبس ضخم يسد الطريق، أشواكه الطويلة متراصة كغابة من المسامير الحادة.

ابتلع جيرالت ريقه بصعوبة.

كان الإيكينوبس قادرًا على قذف أشواكه لمسافة تصل إلى عشرة أقدام، وكانت أشواكه تتميز بميزة شنيعة—فبمجرد أن تخترق الجسد، تتحطم داخل اللحم، وتبدأ رؤوسها الحادة في الغوص عميقًا، تتقدم أكثر فأكثر حتى تصل إلى عضو حساس.

ثم، من قلب الظلام، سمع صوتًا غريبًا:

«الويتشر الغبي!»

توقف جيرالت. الصوت بدا غريبًا وأجنبيًا، لكنه سمع أصواتًا مماثلة من قبل. كان هذا أسلوب حديث الكائنات التي لم تعتد التواصل بالكلام البشري، أصواتها تتخذ نبرات غريبة، ومقاطعها تمتد بشكل غير طبيعي.

«الويتشر الجبان! إنه خائف! هاهاها!»

لم يقل جيرالت شيئًا. عضّ شفته بصمت، وتجاوز الإيكينوبس بحذر.

تراقصت أشواك الكائن مثل مجسّات شقائق النعمان في المياه، لكن فقط للحظة... ثم تجمدت، وعادت لتبدو وكأنها كتلة ضخمة من الأعشاب المتشابكة.

قطعا طريقه باربيغازي ضخمان، يهمهمان ويزمجران.

من الأعلى، من قمة الكهف، سمع رفرفة أجنحة غشائية، يتبعها نعيق وهسيس—علامة واضحة على وجود فيسبرتلز.

ثم عاد الصوت الغريب يدوّي من الظلام:

«ها قد أتى القاتل! الجزار! الويتشر!»

ثم ضحك بصوت مجنون قبل أن يضيف:

«لقد جاء إلى هنا! تجرأ على ذلك! لكن الجزار بلا سيف! كيف سيقتل؟ بنظراته؟ هاهاها!»

ثم جاء صوت آخر، أكثر غرابة في نطقه، وكأنه يحاول التحدث بلغة لا تنتمي إليه:

«ربما... علينا أن نقتله نحن؟ هاه؟»

أطلق الباربيغازي نقيقًا عاليًا في صوت جماعي متداخل.

أحدهم، بحجم ثمرة قرع ناضجة، بدأ يزحف خلف جيرالت، ثم انقض فجأة وأطبق أسنانه على كعبه.

كبح الويتشر اللعنة التي كادت تفلت من شفتيه، وأكمل سيره بصمت، بينما صوت قطرات الماء المتساقطة من الهوابط يخلق صدى فضيًا في الفراغ.

فجأة، شعر بشيء يلتف حول ساقه.

قاوم غريزة التخلص منه بعنف.

نظر إلى الأسفل.

كان الكائن صغيرًا، أكبر قليلًا من كلب بيكينيز. بل إن وجهه بدا شبيهًا بالبيكينيز. أما بقية جسده، فكان أقرب إلى قرد.

لم يكن لجيرالت أي فكرة عما هو هذا المخلوق. لم يرَ شيئًا مشابهًا له من قبل.

نطق الكائن، الذي كان من الواضح أنه ليس كلب بيكينيز، وهو يتشبث بحذاء جيرالت بقوة:

«ويتشر! الويتشر! الويتشر اللعين!»

زمجر جيرالت بين أسنانه: «ابتعد.» ثم أضاف بحدة: «اترك حذائي، وإلا سأركلك بعيدًا.»

بدأ الباربيغازي يتمتمون بصوت عالٍ. ومن أعماق الظلام، دوى صوت زمجرة عميقة. لم يكن جيرالت يعرف ما هو، لكنه بدا أشبه بخوار بقرة... إلا أن الويتشر كان مستعدًا للمراهنة بأي شيء على أنها ليست بقرة.

«ويتشر، أيها القاتل اللعين.»

قال جيرالت محاولًا التحكم في أعصابه: «اترك حذائي. لقد جئت بسلام، وأنا غير مسلح. أنتم تعرقلونني...»

لكنه توقف فجأة، كاد يختنق بفعل موجة من الرائحة الكريهة التي جعلت عينيه تدمعان وجلده يقشعرّ.

نظر إلى الأسفل ليجد أن المخلوق الصغير قد حدّق فيه بعينين مقلوبتين... ثم تبرّز مباشرة على حذائه.

امتزجت الرائحة العفنة بصوت مقزز، جعل معدته تنقبض.

أطلق سلسلة من الشتائم المناسبة للموقف، ثم دفع المخلوق المتطفل بعيدًا عن ساقه—بلطف أكثر مما يستحق.

لكن، رغم ذلك، حدث ما كان يخشاه.

من قلب الظلام، صرخ صوت غاضب، مترافقًا مع زئير غاضب من الباربيغازي:

«لقد ركله! لقد ركله! لقد آذى المخلوق المسكين!»

أمسك أقرب باربيغازي بقدميه، شعر بمخالبهم القوية، الصلبة كالحجر، تطبق على كاحليه وتشل حركته. لم يدافع عن نفسه، بل استسلم للأمر الواقع. كان الفرو الكثيف لأكبرهم، وأكثرهم عدوانية، يحتكّ بحذائه المُدان، بينما قاموا بجذبه حتى اضطر للجلوس.

من أعلى، زحف شيء ضخم من فوق إحدى الهوابط، ثم هبط إلى الأرض.

كان جيرالت يعرف تمامًا ما هو هذا المخلوق.

النيكر.

كان قصير القامة، ممتلئ الجسد، أشعث الشعر، ذو ساقين مقوّستين وكتفين عريضين، ولحية حمراء كثيفة تملأ وجهه.

عندما اقترب النيكر، اهتزّت الأرض تحته، كما لو أن حصان كلايدزديل كان يقترب بدلاً منه. رغم مظهره الكوميدي، كانت قدماه ضخمتين، يبلغ طول كل واحدة منهما أكثر من نصف قدم.

انحنى النيكر فوق جيرالت، تفوح منه رائحة نفاذة... رائحة الفودكا.

فكر جيرالت بتهكم: اللعين يقطّر مشروبه الخاص هنا...

زفر النيكر أبخرة كحولية في وجهه وقال بصوت غليظ:

«لقد ركلك مخلوقٌ صغيرٌ أعزل، ويتشر.»

ثم أضاف، بصوتٍ يفيض بالاتهام:

«دون أي سبب، هاجمت مخلوقًا صغيرًا، أعزل، بريئًا. كنا نعلم أننا لا نستطيع الوثوق بك. أنت عدواني. تمتلك غرائز قاتل. كم واحدًا منّا قتلت، أيها اللعين؟»

لم يكن هناك أي إجابة مناسبة على هذا السؤال.

أطلق النيكر زفرة مشبعة برائحة الكحول، مما زاد من اختناق جيرالت:

«أوه!»

ثم أردف بحماس غريب:

«لقد حلمتُ بهذا منذ طفولتي! منذ طفولتي! وأخيرًا، تحققت أحلامي! انظر إلى اليسار.»

بدا جيرالت كالأحمق وهو يستدير، فقط ليتلقى لكمة مباشرة على الفك. رأى وميضًا ساطعًا ينفجر أمام عينيه.

ضحك النيكر، كاشفًا عن أسنانه الكبيرة المنحنية، وسط لحيته الكثيفة ذات الرائحة الكريهة:

«أوه! لقد حلمت بهذا منذ طفولتي! انظر إلى اليمين.»

لكن قبل أن يتمكن النيكر من توجيه لكمة أخرى، دوى صوت قوي، جهوري، قادم من أعماق الكهف: «كفى.»

توقف الجميع.

«كفى من هذه الألعاب والمزاح السخيف. دعوه يذهب.»

بصق جيرالت الدم من شفته المقطوعة، ثم تقدم ليغسل حذاءه في مجرى الماء الذي كان يسيل على طول الجدار الصخري.

كان الكائن الصغير، الشبيه بالبيكينيز، يبتسم له بسخرية، ولكن من مسافة آمنة.

أما النيكر، فقد ابتسم أيضًا، وهو يفرك قبضته كما لو أنه يود تكرار الضربة.

ثم قال بغلظة، وهو ينظر إلى جيرالت بازدراء:

«اذهب، ويتشر. اذهب إلى من يناديك. سأنتظرك هنا. عليك المرور من هذا الطريق مجددًا.»

* * *

كان الكهف الذي دخله مضاءً بشكل مفاجئ.

من خلال فتحات في السقف، تسللت أشعة الضوء، لتسقط على التكوينات الرسوبية، محدثة عرضًا مذهلًا من الألوان والتألق. إضافةً إلى ذلك، كانت كرة سحرية من الضوء الناري معلقة في الهواء، تنعكس أشعتها على الكوارتز المنتشر على الجدران.

رغم كل هذا الضوء، كانت حواف الكهف غارقة في الظلام، حيث اختفت أعمدة الصواعد في السواد العميق.

على أحد الجدران، الذي بدا وكأن الطبيعة قد أعدّته لهذا الغرض، كان هناك شخصٌ يرسم لوحة ضخمة.

كان الرسّام إلفًا طويل القامة، ذو شعر أشقر، يرتدي رداءً ملطخًا بالطلاء. انعكست أشعة الضوء السحرية عليه، مكونة هالة من النور تحيط برأسه.

أشار الإلف إلى صخرة قريبة دون أن يحول نظره عن اللوحة، وقال بصوت هادئ:

«اجلس.»

ثم سأل، وهو لا يزال يرسم:

«هل آذوك؟»

رد جيرالت بنبرة غير مبالية: «لا. ليس حقًا.»

قال الإلف بهدوء:

«عليك أن تسامحهم.»

تمتم الويتشر بفتور: «أوه، بلا شك، عليّ ذلك.»

أضاف الإلف، بينما كان لا يزال يركز على عمله:

«إنهم كالأطفال. كانوا في غاية السعادة بقدومك.»

قال جيرالت ببرود: «لقد لاحظت.»

أخيرًا، نظر الإلف إليه، ثم كرر:

«اجلس.»

وأشار مجددًا إلى الصخرة.

«سأكون تحت تصرفك بعد لحظات. أنا على وشك الانتهاء.»

كان ما ينهيه هو رسم حيوانٍ ضخم، يبدو وكأنه جاموس، مرسوم بأسلوب مميز. حتى الآن، كان المخطط الخارجي هو الوحيد المكتمل، من القرون المهيبة إلى الذيل المرسوم بنفس العناية.

جلس جيرالت على الصخرة التي أشار إليها، وهو يعد نفسه بالتحلي بالصبر والتواضع إلى أقصى حد ممكن.

أخذ الإلف يُصفر بهدوء بين أسنانه، ثم غمس فرشاته في وعاء الطلاء، وبدأ يرسم بحركات سريعة، ليُكمل رسم جاموس بنفسجي.

بعد لحظة من التأمل، أضاف خطوطًا تشبه خطوط النمر على جانب الحيوان.

راقبه جيرالت بصمت، دون أن ينطق بكلمة.

أخيرًا، تراجع الإلف خطوة إلى الوراء، ليتأمل عمله الفني من مسافة بعيدة—مشهد صيد.

كان الجاموس البنفسجي المخطط يهرب، بينما تطارده شخصيات مرسومة على عجل، تمسك بالأقواس والرماح.

لم يستطع جيرالت كبح فضوله، فسأل بنبرة ساخرة: «ما الذي يُفترض أن يكون هذا؟»

نظر إليه الإلف للحظة، ثم وضع الطرف النظيف للفرشاة على شفتيه وقال بهدوء:

«إنها لوحة ما قبل التاريخ، رسمها أناس بدائيون عاشوا في هذا الكهف منذ آلاف السنين، وكانوا يعملون في المقام الأول كصيادين للجاموس البنفسجي المنقرض منذ زمن بعيد. بعض هؤلاء الصيادين القدماء كانوا فنانين، وشعروا بحاجة عميقة إلى التعبير الفني. لتخليد ما كان في أرواحهم.»

تمتم جيرالت ببرود، وهو ينظر إلى اللوحة الغريبة: «مذهل.»

قال الإلف معترفًا:

«بالطبع. علماؤكم يتجولون لسنوات في الكهوف بحثًا عن آثار الإنسان البدائي. وفي كل مرة يجدون شيئًا، يصابون بالذهول الشديد. لأن هذا يمثل لهم دليلًا على أنكم لستم غرباء عن هذه الأرض أو هذا العالم. إنه إثبات أن أسلافكم عاشوا هنا لقرون، مما يجعل العالم ملكًا لورثتهم.»

توقف للحظة، ثم أضاف بابتسامة ساخرة:

«حسنًا، لكل عرق الحق في امتلاك جذور. حتى أنتم، أيها البشر، رغم أن جذوركم تبدو وكأنها نمت في الأشجار الضخمة. ها، تلاعب لفظي ممتع، أليس كذلك؟ يستحق أن يكون بيتًا شعريًا. هل تحب الشعر؟ بالمناسبة، ماذا تقترح أن أرسم أيضًا؟»

أجابه جيرالت بنبرة ساخرة دون تفكير:

«ارسم صيادين من عصور ما قبل التاريخ، لكن بأعضاء منتصبة ضخمة.»

أومأ الإلف بإعجاب، ثم غمس الفرشاة في الطلاء وقال:

«فكرة ممتازة. عبادة الفحولة كانت سمة مميزة للحضارات المبكرة. يمكن استخدامها أيضًا لدعم نظرية الانحطاط الجسدي لدى البشر. الأجداد امتلكوا أعضاء بحجم العصي، بينما الأحفاد لم يبقَ لهم سوى أغصان هزيلة... شكرًا لك، ويتشر.»

ضحك جيرالت بسخرية وقال:

«على الرحب والسعة. لدي اقتراح آخر—الطلاء يبدو حديثًا جدًا ليكون ما قبل تاريخي.»

قال الإلف مطمئنًا:

«لا تقلق، خلال ثلاثة أو أربعة أيام، ستبهت الألوان تحت تأثير الملح والرطوبة التي تتسرب عبر الجدار، وسيتحول الرسم إلى تحفة ما قبل تاريخية لدرجة أن علماؤكم سيجنّون فرحًا عندما يعثرون عليه. أراهن بحذائي أن أذكاهم لن يتمكن حتى من كشف خدعتي.»

قال جيرالت ببرود:

«سيكشفونها.»

رفع الإلف حاجبًا وسأل: «كيف؟»

ابتسم جيرالت بسخرية وقال:

«لأنك لن تستطيع مقاومة توقيع تحفتك الفنية.»

ضحك الإلف بضحكة جافة وقال:

«تمامًا. لقد عرفتني جيدًا. آه، يا لنيران الغرور في داخلي، كم هو صعب على الفنان في داخلي أن يقمع ذاته. في الواقع، لقد وقعتُ اللوحة بالفعل. ها هي.»

تقدم جيرالت خطوة إلى الأمام، نظر إلى حيث أشار الإلف، ثم قال متشككًا:

«أليست هذه حشرة يعسوب؟»

أجابه الإلف بفخر:

«لا، إنه أيديوجرام يمثل اسمي. اسمي كريفان إسباني أيب كاوفان ماتشا. لكن، لتسهيل الأمور، أستخدم الاسم المستعار أفالاخ. يمكنك مناداتي بهذا الاسم.»

قال جيرالت بلا اكتراث: «كما تشاء.»

ابتسم الإلف وقال وهو يحدق فيه بعينين ثاقبتين:

«وأنت، جيرالت من ريفيا. أنت ويتشر. لكنك، حاليًا، لا تطارد الوحوش أو المسوخ... بل تبحث عن فتيات مفقودات.»

قال جيرالت بتهكم:

«الأخبار تنتشر بسرعة مذهلة. وبشكل مفاجئ، تصل إلى أماكن بعيدة... وعميقة أيضًا. يبدو أنك توقعت أنني سأصل إلى هنا. لذا، أظن أنك قادر على التنبؤ بالمستقبل؟»

مسح أفالاخ يديه بقطعة قماش وقال ببرود:

«التنبؤ بالمستقبل؟ أي شخص يمكنه فعل ذلك. والجميع يفعلونه، لأنه أمر سهل. التحدي الحقيقي ليس في التنبؤ، بل في التنبؤ بدقة.»

رفع جيرالت حاجبًا وقال بسخرية:

«حجة أنيقة، وتستحق أن تكون بيتًا شعريًا. لكن من الواضح أنك أنت قادر على التنبؤ بدقة.»

ابتسم أفالاخ وقال بنبرة غامضة:

«غالبًا ما أعرف أشياء كثيرة، وأفعل أشياء كثيرة، يا جيرالت العزيز. الدليل على ذلك يظهر في لقبي الرسمي بين شعبي... كما ستقولون بلغتك، لقبي هو Aen Saevherne.»

تبادل جيرالت وإياه نظرات حذرة، قبل أن يترجم بصوت هادئ:

«العليم.»

أومأ أفالاخ برأسه قائلاً:

«تمامًا.»

قال جيرالت بنبرة مباشرة:

«وهل ستكون مستعدًا لمشاركة معرفتك؟»

توقف أفالاخ، متأملًا السؤال.

تمهل أفالاخ في رده، ثم قال ببطء وبنبرة ساخرة:

«أشارك؟ معك؟ يا عزيزي الويتشر، أمر كهذا امتياز عظيم، والامتيازات لا تُمنح إلا للأنداد. ولماذا، أنا الإلف، العليم، عضو النخبة، لماذا أشارك أي شيء مع نسل كائن بالكاد تطوّر منذ بضعة ملايين من السنين من قرد، أو جرذ، أو ابن آوى، أو أي ثديي آخر؟ كائن احتاج إلى ما يقارب مليوني سنة ليكتشف أنه يمكنه، باستخدام يديه المشعرتين، صنع أداة بدائية من عظمة؟ ثم، بعد ذلك، أخذ تلك العظمة ووضعها في مؤخرته، متأوهًا من النشوة؟»

ساد الصمت.

استدار أفالاخ ببطء، محدقًا في لوحته.

ثم قال بتهكم:

«لماذا، يا ترى، تجرؤ على الأمل في أنني قد أشاركك أي معرفة، أيها الإنسان؟ أخبرني.»

مسح جيرالت بقايا القذارة عن حذائه، ثم قال بنبرة هادئة، لكنها حادة كالنصل:

«أظن ذلك لأنه... أمر لا مفر منه.»

استدار أفالاخ فجأة، نظر إليه بحدة، ثم سأل من بين أسنانه المشدودة:

«وما الذي لا مفر منه؟»

قال جيرالت، دون أن يرفع صوته:

«الحقيقة أنه، خلال بضع سنوات فقط، سيأخذ البشر كل المعرفة، سواء أراد أحدهم مشاركتها معهم أم لا. وهذا يشمل المعرفة التي تخفيها أنت، أيها الإلف، أيها العليم، بمكر خلف جدارياتك الصخرية. على أمل أن البشر لن يرغبوا في تحطيم جدارك بالفؤوس، وتدمير لوحاتك بإثباتات مزيفة على تاريخهم القديم. ما رأيك، يا شعلة الغرور؟»

أطلق أفالاخ شخيرًا ساخرًا، لكنه بدا بشكل مدهش مستمتعًا بالكلام.

قال، بابتسامة ساخرة:

«أوه نعم، الغرور يرتبط حقًا بالغباء، لو كنتُ أؤمن بأنكم ستتوقفون قبل أن تدمروا كل شيء. فأنتم تدمرون كل ما تصادفونه. لكن لماذا، أيها الإنسان؟»

هز جيرالت كتفيه وقال ببرود:

«لا أعلم. أخبرني أنت.»

ثم أضاف وهو ينظر مباشرة في عيني أفالاخ:

«وإن لم تجد ذلك مناسبًا، فسأرحل. لكنني أفضل أن يكون هناك مخرج آخر، لأن رفاقك ينتظرونني هناك بكل شوق، ولديهم رغبة ملحة في تحطيم أضلعي.»

مدّ الإلف يده بحركة سريعة، وفجأة، انشق الجدار الصخري بصوت صرير عميق، مشكّلًا صدعًا يمتد عبر مركز الجاموس البنفسجي.

قال أفالاخ بصوت هادئ:

«اذهب من هذا الطريق. سر نحو النور. سواء كان ذلك بالمعنى المجازي أو الحرفي، فإنه في العادة الطريق الصحيح.»

تمتم جيرالت وهو يحدق في الجدار: «يا للخسارة... بشأن لوحتك.»

نظر إليه الإلف بدهشة، لكن صوته حمل مفاجأة ودودًة غير متوقعة:

«هل تمزح؟ لا شيء سيحدث للوحة. بتعويذة مماثلة، سأغلق الصخرة ولن يبقى هناك أي أثر للصدع.»

ثم أضاف وهو يشير إليه بالتقدم:

«هيا. سأذهب معك، سأكون دليلك. لقد قررت أن لدي ما أخبرك به... وما أريك إياه.»

على الجانب الآخر من الجدار، لم يكن هناك إلا الظلام.

شعر الويتشر على الفور بأن الكهف ضخم—استطاع إدراك ذلك من برودة الهواء وحركة النسيم الخفيفة.

كانوا يسيرون فوق الحصى المبللة، خطواتهم تتردد بصدى خافت في الفراغ المجهول أمامهم.

ستدعى أفالاخ ضوءًا بالطريقة الإلفية، فقط بحركة من يده، دون الحاجة إلى نطق تعويذة.

حلّقت الكرة المتوهجة نحو السقف، فأضاءت التشكيلات الكريستالية في جدران الكهف، لتنعكس منها آلاف الأضواء، وترقص الظلال على الجدران مثل كائنات غامضة.

تنهد جيرالت لا إراديًا.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها منحوتات ورسومات إلفية، لكن في كل مرة، كان الشعور ذاته يتملكه.

كانت تماثيل الإلف، المجمدة في لحظة حركة، تبدو وكأنها ليست نتاج إزميل نحّات، بل نتيجة تعويذة قوية، قادرة على تحويل الأنسجة الحية إلى رخام أبيض نقي من جبال أمل.

أقرب منحوتة إليه كانت تمثل إلفًا شابة، جالسة بوضعية متصالبة على لوح بازلتي.

كان عنقها مشدودًا، ورأسها ملتفتًا كما لو أنها التفتت لسماع وقع خطواتهم.

كانت عارية بالكامل.

لمعان الحليب المنعكس من سطح الرخام المصقول كان يخلق إحساسًا غريبًا، كما لو أن جسدها الجميل كان دافئًا... ويشع حرارة.

توقف أفالاخ عند هذا المشهد، مستندًا إلى أحد الأعمدة التي تحدد المسار بين المنحوتات.

قال أفالاخ بصوت هادئ، وعيناه تراقبان جيرالت بتمعن:

«للمرة الثانية، تمكنت من كشف حقيقتي، جيرالت. كنت محقًا—الجاموس المرسوم على الجدار مجرد تمويه، هدفه منع البشر من الحفر في الصخر وحماية كل ما هو مخبأ خلفه. كان من المفترض أن يمنع الدمار والسرقة. فكل الأعراق، بما في ذلك الإلف، لها الحق في جذورها.»

ثم نظر حوله، وأضاف بنبرة هادئة، ولكنها حازمة:

«ما تراه هنا هو جذورنا. لذا، سر بحذر... فهذا المكان، في الحقيقة، مقبرة.»

مع كل ومضة من الضوء المتراقص على بلورات الجبل، بدأت تفاصيل أخرى تظهر—تماثيل، نقوش، نُصب تذكارية، أعمدة، وأروقة.

كل شيء كان مصنوعًا من رخام أبيض نقي.

رفع أفالاخ يده بحركة واسعة وقال:

«أريد لهذا المكان أن يبقى. حتى بعد أن نرحل، حتى عندما يغطي الجليد والثلج هذه الأرض بطبقة يبلغ سمكها ميلًا، سيظل تير نا بيا آراين قائمًا. سنترك هذا المكان خلفنا... لكننا، نحن الإلف، سنعود يومًا ما. هذا وعد مذكور في نبوءة إثلين آيغلي أيب آيفينين.»

نظر إليه جيرالت، ثم سأل بنبرة متشككة:

«أحقًا تؤمن بها؟ بتلك النبوءة هذا الحد؟»

قال الإلف، دون أن ينظر إلى جيرالت، بل محدقًا في عمود رخامي مزخرف بنقوش دقيقة كالنسيج الحريري:

«لقد تم التنبؤ بكل شيء. قدومك... الحرب... إراقة دماء البشر والإلف. صعود عرقكم... وانحدار عرقنا. الصراع بين حكام الشمال والجنوب. سيرتفع حاكم الجنوب ضد ملوك الشمال، وستملأ جيوشه بلادهم كالطوفان، وستُباد الأمم. وهكذا... يبدأ دمار العالم.»

ثم التفت إلى جيرالت وسأله بصوت عميق:

«هل تتذكر نبوءة إثلين، أيها الويتشر؟»

ثم بدأ يرددها، وكأنها مقطع من نبوءة لا يمكن كسرها:

«من كان بعيدًا، سيموت بالطاعون... ومن كان قريبًا، سيموت بالسيف... ومن منع، سيموت جوعًا... ومن نجا، سيفقد نفسه في البرد...

لأن تيد ديريث آتٍ .. زمن النهاية، زمن السيف والفأس، زمن الاحتقار، زمن الصقيع الأبيض والنور الأبيض، زمن عاصفة الذئب...»

نظر إليه جيرالت ببرود، ثم تمتم ساخرًا:

«شعرٌ جميل.»

أومأ أفالاخ وقال بصوت خالٍ من المشاعر:

«هل تفضل سماعه بطريقة أقل شاعرية؟

حسنًا... بسبب التغيرات في زاوية الشمس، ستنزاح حدود الجليد الأبدي جنوبًا. حتى هذه الجبال ستُدفن تحت نهر جليدي قاري. سيتغطى كل شيء بالثلج... وستسود الشتاء إلى الأبد.»

قال جيرالت ببرود، دون إظهار أي انفعال:

«سنرتدي سراويل دافئة، ومعاطف من الفرو، وقبعات تغطي آذاننا.»

ابتسم أفالاخ بتهكم وقال:

«لقد نطقت بما كنت على وشك قوله تمامًا. وأولئك الذين سيرتدون هذه السراويل والقبعات، سينجون... وسيعودون يومًا ما إلى هنا، ليحفروا الأنفاق، ويعبثوا في الكهوف، وينهبوا ويسرقوا. لم تذكر نبوءة إثلين ذلك، لكنني أعلم أنه سيحدث. لا يمكنك القضاء على الصراصير، وكما هو الحال دائمًا، سيبقى للبشر زوج واحد على الأقل قادر على التكاثر.»

ثم أضاف بصوت أكثر جدية:

«أما نحن، الإلف، فالنبوءة واضحة: أولئك الذين سيتبعون السنونو هم من سينجون.»

توقّف للحظة، ثم تابع:

«السنونو رمزٌ للربيع... إنه المُخلّص... الكائن الذي سيفتح الباب المحظور، ليُرينا الطريق نحو خلاصنا. إنه الذي سيمكننا من بعث العالم من جديد.»

لم يستطع جيرالت كبح فضوله، فقال:

«هذا يعني سيري؟ أم طفلها؟ كيف؟ ولماذا؟»

لكن بدا أن أفالاخ لم يسمعه، أو أنه اختار تجاهله.

كرر، وكأنه يتحدث إلى نفسه:

«السنونو، دماء السلالة القديمة...»

ثم أضاف، وهو يشير إلى شيء أمامه:

«من دمائها... انظر.»

حتى بين التماثيل التي بدت نابضة بالحياة، كان هناك نُصب تذكاري متميز، أشار إليه أفالاخ الآن.

كان تمثال رخامي نقي لإلفية، نصف مستلقية على منصة، وكأنها قد استيقظت للتو، وعلى وشك النهوض في أي لحظة.

كان وجهها ملتفتًا نحو مقعد فارغ بجانبها، ويدها الممدودة تلامس شيئًا غير مرئي هناك.

كان على ملامحها تعبير من السلام والسعادة، وكأنها لا تزال تنتظر شخصًا ما.

مرّت لحظات طويلة في صمت، قبل أن يتكلم أفالاخ أخيرًا:

«هذه هي لارا أيب شيدال.»

ثم أضاف بهدوء:

«بالطبع، هذا ليس قبرها الحقيقي، بل نُصب تذكاري فارغ.»

نظر جيرالت إلى التمثال بصمت، بينما تابع أفالاخ:

«هل يفاجئك وضع التمثال؟ في النهاية، لم يكن هناك دعم كبير لفكرة نحت العاشقين الأسطوريين في الرخام. لارا وكريغينان من لود...»

ثم نظر مباشرة إلى جيرالت وأضاف بصوت بارد:

«كريغينان كان بشريًا... وكان يُعتبر تدنيسًا أن يُهدر رخام جبل أميل على تمثال لبشر.»

وقف أفالاخ للحظة، وكأنما يعيد التفكير في الكلمات، قبل أن يتابع:

«كان سيكون تجديفًا أن يوضع تمثال لإنسان هنا، في تير نا بيا آراين. لكن في الوقت ذاته، كان سيكون جريمة أعظم أن تُمحى ذكرى هذا الحب.»

رفع يده بإيماءة خفيفة نحو التمثال، ثم أضاف:

«لذلك... تم اتخاذ الحل الوسط. كريغينان ليس موجودًا هنا رسميًا. ولكنه موجود—في نظرة لارا، في إيماءتها، في يدها الممدودة نحوه.

الحبيبان لا يزالان معًا.

حتى الموت لم يستطع فصلهما.

ولا النسيان... ولا حتى الكراهية.»

شعر الويتشر، ولو للحظة عابرة، أن نبرة صوت الإلف الخالية من المشاعر تغيرت قليلًا.

لكن... من غير المحتمل أن يكون ذلك ممكنًا.

تقدم أفالاخ نحو التمثال، بخطوات هادئة وحذرة، ثم مدّ يده برفق ولمس الذراع الرخامية بحركة تكاد تكون حنونة.

ثم استدار، وعادت ابتسامته الساخرة المعهودة لترتسم على وجهه المثلث.

قال فجأة، بصوت هادئ لكنه يحمل أثرًا من المزاح:

«هل تعلم، ويتشر، ما هو أكبر عيب للخلود؟»

نظر إليه جيرالت بريبة، ثم قال:

«لا.»

ضحك أفالاخ بصوت خافت، ثم قال:

«الجنس.»

رمقه جيرالت بعينين ضيقتين، قبل أن يرفع حاجبًا ويسأل بذهول:

«ماذا؟»

قال أفالاخ بنبرة واثقة:

«لقد سمعتني جيدًا... الجنس.»

توقّف للحظة، ثم تابع بصوت هادئ، وكأنه يتحدث عن حقيقة بديهية:

«بعد أقل من مئة عام... يصبح مملًا. لا يعود فيه شيء يثير الفضول أو يدهش، لا يعود يمتلك سحر الجِدة. كل شيء قد جُرِّب بالفعل... بطريقة أو بأخرى.»

لوّح بيده، كمن يسرد حكاية مألوفة، ثم أكمل:

«ثم، فجأة... حدث تقاطع العوالم، وظهر البشر. بقايا البشرية، الهاربون من عالم آخر—عالمكم، ذلك الذي دمرتموه بأنفسكم، بأيديكم التي كانت لا تزال مغطاة بالشعر، قبل خمسة ملايين سنة فقط من تكوينكم كنوع.»

ابتسم بسخرية، ثم أضاف:

«كنتم مجرد حفنة، لكن متوسط أعماركم قصير بشكل سخيف، لذا كان استمراركم يعتمد بالكامل على سرعة تكاثركم. ولهذا، الرغبة، الشبق، لن يتخلى عنكم أبدًا. الجنس يحكمكم بالكامل، إنه أقوى من غريزة البقاء نفسها.»

اقترب خطوة، ثم قال، متصنعًا التفكير:

«الموت؟ لا بأس... شرط أن تتمكن من المضاجعة قبل ذلك. هذه، باختصار، هي فلسفتكم بأكملها.»

لم يقاطعه جيرالت، ولم يقل شيئًا. لكنه كان يرغب بشدة في ذلك.

تابع أفالاخ كلامه دون أن يمنح جيرالت فرصة للرد:

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

لم ينتظر إجابة، بل أكمل على الفور:

«الإلف، الذين سئموا نساءهم الإلفيات المملات، بدأوا يفضلون النساء البشريات المتحمسات... أما الإلفيات، اللواتي أصابهن الملل أيضًا، فقد انغمسن في فضولهن المنحرف، أمام الذكور البشريين المليئين دائمًا بالقوة والحيوية.»

ابتسم ابتسامة صغيرة، ثم أضاف:

«ثم... حدث شيء لم يكن أحد يتوقعه، ولم يتمكن أحد من تفسيره، عادة لا تحدث الإباضة لدى إناث الإلف إلا مرة كل عشر إلى عشرين سنة، ولكن عند التزاوج مع البشر، بدأت الإلفيات بالإباضة مع كل نشوة جنسية قوية. كان هناك عامل هرموني خفي، أو مزيج معين من الهرمونات، جعل هذا ممكنًا.»

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بنبرة محايدة:

«الإلف فهموا أن هذه الممارسة يمكن أن تمنحهم أطفالًا من البشر. وحينها، قررنا أن نستغلكم بينما كنا لا نزال أقوى. قبل أن تتكاثروا بما فيه الكفاية لتصبحوا أنتم الأقوى... وتبدأوا بإبادتنا.»

نظر إلى جيرالت مباشرة، ثم تابع بنبرة هادئة لكن ذات مغزى:

«لكن حتى بعد أن أصبحتم أنتم الطرف الأقوى... لا يزال بعض الإلف يقفون إلى جانبكم. كانوا حزب التساهل والتعاون والتعايش... لكنهم لم يكونوا يريدون الاعتراف بالحقيقة.»

انحنى قليلًا نحو جيرالت، ثم تمتم بابتسامة ساخرة:

«الحقيقة أنهم كانوا يشاركنكم الفراش وينمن مع العدو»

زمجر جيرالت بضيق:

«وما علاقة كل هذا بي؟»

ابتسم أفالاخ ابتسامة خفيفة وقال بهدوء:

«بك؟ لا شيء على الإطلاق. لكن له كل العلاقة بسيري.»

نظر إليه جيرالت بحدة، بينما تابع الإلف دون أن يلتفت إليه:

«سيري... هي من نسل لارا دورين أيب شيدال. ولارا دورين كانت تؤمن بالتعايش مع البشر. أو بالأحرى، كانت تؤمن بالتعايش مع إنسان معين مع الساحر البشري كريغينان من لود.»

توقف للحظة، ثم قال بنبرة ذات مغزى:

«لقد تعايشت معه كثيرًا... وبنجاح.»

ثم نظر إلى جيرالت مباشرة وأردف ببساطة:

«بمعنى آخر... حملت بطفل منه.»

ظلّ الويتشر صامتًا، لكن نظراته كانت تكشف عن أفكار متضاربة تدور في رأسه.

تابع أفالاخ حديثه، وكأنه يخبر بحقيقة علمية بحتة:

«المشكلة لم تكن في مجرد حملها... بل في حقيقة أن لارا دورين لم تكن مجرد إلفية عادية. لقد كان لديها تركيب جيني فريد، نتيجة أجيال من التخطيط والجهد المتواصل من الإنتقاء الطبيعي. وكان من المفترض، مع التزاوج الصحيح — مع جينات إلفية أخرى — أن تنجب طفلًا فريدًا، ذو قدرات لا مثيل لها.»

لوّح أفالاخ بيده وأضاف بنبرة باردة:

«لكنها... أفسدت كل شيء. تزاوجها مع إنسان دمّر النتيجة التي خططنا لها لمئات السنين. أو... على الأقل، هكذا كنا نظن.»

رفع الإلف نظره للحظة، كما لو أنه يستعيد ذكرى بعيدة، ثم قال بصوت خافت:

«لم يتوقع أحد أن المُهجَّن، ابن كريغينان، يمكن أن يرث شيئًا مميزًا من والدته. كلا، زواج غير متكافئ كهذا لم يكن ليجلب أي شيء جيد...»

لكنه توقف للحظة، ثم نظر إلى جيرالت نظرة غامضة قبل أن يهمس:

«... أو هكذا اعتقدنا.»

قاطعه جيرالت بحدة:

«وهكذا، تمت معاقبتهما بشدة.»

هزّ أفالاخ رأسه بسرعة، مصححًا:

«ليس بالطريقة التي تظنها.»

ثم تابع بصوت جاد:

«صحيح أن علاقة لارا دورين وكريغينان تسببت في ضرر لا يُحصى للإلف، لكن... لم يكن الإلف هم من قتلوا كريغينان، بل البشر. ولم يكن الإلف هم من تسببوا في سقوط لارا، بل البشر. هكذا جرت الأمور، رغم أن العديد من الإلف كانت لديهم أسبابهم الخاصة لكراهية الحبيبين... أسباب شخصية جدًا.»

للمرة الثانية، لاحظ جيرالت تغييرًا طفيفًا في نبرة صوت أفالاخ، لكنه لم يعلّق.

تابع الإلف كلامه ببرود:

«على أية حال، حلم التعايش انفجر كفقاعة صابون، واشتعلت حرب دموية بين العرقين... حرب لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.»

توقف للحظة، ثم نظر إلى جيرالت نظرة ثابتة وقال ببطء:

«أما المادة الجينية لـ لارا... وكما ربما خمنت بالفعل، فلم تختفِ عبر السنين، بل على العكس، لقد تطورت...»

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أضاف بنبرة حملت أثرًا من السخرية:

«لسوء الحظ، تحوّرت. نعم، نعم... صديقتك سيري...»

ثم نظر إلى جيرالت مباشرة، قبل أن ينطق بالكلمات الأخيرة بوضوح تام:

«هي متحولة.»

هذه المرة، لم ينتظر الإلف رد جيرالت، بل واصل حديثه على الفور:

«بالطبع، لم يستطع السحرة منع أنفسهم من التدخل. بدأوا بتزاوج أشخاص معينين بشكل مدروس، ولكن في النهاية، خرج الأمر عن سيطرتهم. لم يتوقع سوى قلة منهم كيف يمكن أن يُبعث المادة الجينية بهذه القوة في سيري، أو ما هو المحفّز الذي أدى إلى ذلك.»

ثم توقف لوهلة، قبل أن يضيف بنبرة ذات مغزى:

«أظن أن فيلغيفورتز يعرف... نفس الرجل الذي حطم عظامك في ثانيد.»

شعر جيرالت بضيق يتصاعد في صدره، لكن أفالاخ استمر دون أن يلتفت إليه:

«السحرة الذين أجروا التجارب على نسل لارا وريانّون لم يحصلوا على النتائج التي أرادوها، فقرروا التخلي عن التجربة. لكن التجربة... لم تتوقف. بل استمرت، ولكن هذه المرة بشكل عفوي.»

نظر إلى جيرالت مباشرة وأردف ببطء، وكأنه كان يُحضر للكشف عن الحقيقة منذ البداية:

«سيري، ابنة بافيتا، حفيدة كالانثي، وسليلة ريانّون... هي نسل مباشر للارا دورين.»

ارتجف شيء ما في ملامح الويتشر، لكنه لم يتكلم، فأضاف أفالاخ بهدوء:

«فيلغيفورتز اكتشف ذلك بالصدفة على الأرجح. وإمبراطور نيلفجارد، إمير فار إمريس، يعرف ذلك أيضًا.»

ضيّق جيرالت عينيه، ثم قال ببطء:

«وكذلك أنت تعرف.»

ابتسم أفالاخ ابتسامة خفيفة وقال:

«أنا، في الواقع، أعرف أكثر منهما.»

ثم أدار نظره بعيدًا، وأضاف بصوت خافت لكنه حاسم:

«لكن ذلك لم يعد مهمًا... الطاحونة التي تطحن الحتمية تدور بالفعل، ساحقةً معها حبوب القدر... ما سيحدث... لا يمكن تغييره.»

سأل جيرالت بصوت حاد:

«وما هو ذلك الشيء؟»

أجابه أفالاخ دون تردد:

«ما تم التنبؤ به. ما تم تحديده منذ العصور القديمة، بالطبع، بالمعنى المجازي. وأخيرًا، ما تم تقريره من خلال آلية لا تخطئ، تقوم على ثلاث ركائز: الهدف، الخطة، والنتيجة.»

ضيّق الويتشر عينيه وقال بسخرية:

«إما أن هذا شعر، أو فلسفة وجودية. أو ربما الاثنان معًا، فغالبًا ما يصعب التمييز بينهما. هل يمكن أن تتحدث بتحديد أكثر؟ حتى ولو قليلًا؟ بصراحة، كنت سأحب مناقشة هذا معك أكثر، لكن للأسف... أنا في عجلة من أمري.»

نظر إليه أفالاخ نظرة ثاقبة، ثم قال بنبرة باردة:

«ولمَ العجلة؟ آه... عذرًا، يبدو أنك لم تفهم شيئًا مما قلته.»

تقدّم خطوة بطيئة إلى الأمام، ثم أضاف بصوت حازم:

«إذًا، سأخبرك بشكل مباشر: مغامرتك العظيمة لإنقاذها لا معنى لها. إنها عديمة الفائدة.»

تجمّد جيرالت للحظة، لكن أفالاخ تابع بلا رحمة:

«أولًا، لقد تأخرت كثيرًا فالشر الأعظم قد وقع بالفعل، ولم تعد لديك أي فرصة لإنقاذ الفتاة قبل أن يحصل عليها.»

تحولت نظرة جيرالت إلى شيء مظلم، لكنه لم يقاطع الإلف، الذي أكمل:

«ثانيًا، لقد سلكت طريقها الحقيقي بالفعل فالسنونو يمكنها الدفاع عن نفسها ببراعة. القوة في داخلها بالفعل، وهي قادرة على جعل كل شيء يخافها. مساعدتك غير ضرورية.»

توقف لبرهة، ثم نظر إلى جيرالت بابتسامة ماكرة قبل أن يضيف:

«وثالثًا... هـمـم...»

ترك جملته معلقة، وكأنها سيف فوق رأس الويتشر.

قال جيرالت ببرود وهو يحدق في أفالاخ:

«أنا أستمع، أفالاخ. لقد كنت أستمع طوال الوقت.»

أجاب أفالاخ، وهو يبدو وكأنه يستمتع بالحديث:

«ثالثًا... ثالثًا، سيكون هناك من سيساعدها الآن. آمل ألا تكون مغرورًا لدرجة أن تعتقد أن هذه الفتاة ترتبط بمصيرك فقط.»

قال جيرالت بلامبالاة:

«هل هذا كل شيء؟»

أجاب أفالاخ:

«نعم.»

قال جيرالت وهو يهم بالمغادرة:

«إذن، إلى اللقاء.»

لكن أفالاخ أوقفه بنبرة أكثر جدية:

«انتظر لحظة.»

قال جيرالت بحدة:

«قلت لك. أنا في عجلة من أمري.»

قال أفالاخ بلطف، لكن بثقل:

«حاول أن تتخيل لحظة، أنني حقًا أعرف ما سيحدث، وأنني أرى المستقبل. إذا أخبرتك بما سيحدث، بغض النظر عن جهودك أو مبادراتك، إذا أخبرتك بذلك، هل يمكنك أن تجد مكانًا هادئًا على هذه الأرض وتجلس هناك، لا تفعل شيئًا، تنتظر تحقق العواقب الحتمية لسلسلة من الظروف؟ هل ستختار فعل ذلك؟»

لم يجب جيرالت على الفور، بل قال أخيرًا:

«لا.»

ابتسم أفالاخ قليلًا وقال:

«ماذا لو أخبرتك أن تصرفاتك قد تغير، رغم أن الاحتمالات ضئيلة، الأمور بالفعل، ولكن إلى الأسوأ؟ هل ستغير رأيك؟ آه، أرى من وجهك أنك لن تفعل. إذًا، سؤالي لك لماذا لا؟»

نظر إليه جيرالت نظرة حادة، ثم قال:

«هل تريد أن تعرف حقًا؟»

قال جيرالت بحدة، وهو ينظر إلى أفالاخ:

«لأنني ببساطة لا أؤمن بتلك الهرطقات الفلسفية عن الأهداف، والخطط، والمبدعين من فوق. كما أنني لا أؤمن بنبوءة إثلين الشهيرة أو نبوءاتها. وأعتبرها مجرد خيال، نفس الهراء والخداع السخيف مثل لوحتك تلك عن الثور أرجواني، أفالاخ. لا شيء أكثر من ذلك. لا أعرف إذا كنت لا تستطيع أو لا تريد المساعدة. مع ذلك، لا أحمل أي ضغينة...»

ابتسم أفالاخ ابتسامة ساخرة وقال:

«تقول إنني لا أستطيع أو لا أريد المساعدة. كيف يمكنني مساعدتك؟»

فكر جيرالت للحظة، وهو على دراية تامة بأن صياغة الأسئلة الصحيحة مهمة جدًا.

قال أخيرًا:

«هل أنقذ سيري؟»

أجاب أفالاخ على الفور، دون تردد:

«نعم، ستنقذها. فقط لتفقدها فورًا. وهذه المرة، إلى الأبد. قبل أن يحدث ذلك، ستفقد كل من يرافقك. واحد من رفاقك ستفقده في الأسابيع القليلة القادمة، ربما حتى في الأيام المقبلة. ربما حتى في الساعات القادمة.»

أجاب أفالاخ بصدق:

«حقًا.»

«شكرًا.»

«لم أنتهِ بعد. كنتيجة مباشرة ووشيكة لتدخلك بين حجر الرحى – الذي يمثل الهدف والخطة – سيؤدي ذلك إلى موت عشرات الآلاف من الناس. ومع ذلك، لن يكون لذلك أثرٌ بالغ، لأنه بعد فترة قصيرة سيموت عشرات الملايين. العالم كما تعرفه سيختفي، سيتوقف عن الوجود، وبعد فترة سيُبعث من جديد بصورة متغيرة كليًا. لكن هذا الأمر حتمي، ولن يكون بوسع أحد أن يؤثر فيه، لا أنت ولا أنا، ولا السحرة، ولا العليم. ولا حتى سيري. ما رأيك؟»

«جاموس بنفسجي. على كل حال، شكرًا لك، أفالاخ.»

هزّ الإلف كتفيه قائلاً: «بمعنى ما، أنا مهتمٌ بأن أرى ما الذي يمكن أن يفعله حجر صغير إذا سقط بين حجر الرحى... هل من شيء آخر يمكنني فعله من أجلك؟»

أجاب جيرالت: «أظن لا. لأني أعتقد أنك لا تستطيع أن تُريني أين سيري، أليس كذلك؟»

قال أفالاخ: «ومن قال ذلك؟»

حبس جيرالت أنفاسه. سار أفالاخ بخُطى سريعة نحو جدار الكهف وأشار إلى الويتشر أن يتبعه.

قال أفالاخ وهو يشير إلى الكريستال المتوهج:

«جدران تير نا بيا آراين تتمتع بخصائص غير عادية. ولدي، مع كل التواضع، قدرات استثنائية.

ضع يدك هنا. ركز. فكر جيدًا. فكر في مدى حاجتها إليك الآن.

فكر في كيف تريد أن تنقذها. يجب أن يظهر لك الصورة، ويجب أن تكون واضحة. انظر، لكن امسك ردود أفعالك العنيفة.

لا تقل شيئًا. هذه رؤية، ولا يمكنك التواصل معها.»

أطاعه جيرالت.

على الرغم من ادعاء الإلف، لم تكن الرؤية واضحة. كانت الصور غامضة، لكن مكثفة وعنيفة وأصابته الدهشة.

أيد مقطوعة على طاولة... غشاء نافذة ينفجر بالدم... هياكل عظمية تركب خيولًا عظمية... يينيفر، مقيدة بالسلاسل... برج .. برج أسود. وخلفه... أضواء الشمال؟

فجأة، ومن دون تحذير ..

أصبحت الصورة واضحة وحادة ..

حادة للغاية.

صرخ جيرالت بفزع:

«داندیلیون! میلفا! أنغولیم!»

أصبح أفالاخ مهتمًا وقال:

«ماذا؟»

ثم قال مبتسمًا: «آه، نعم. يبدو لي أنك قد دمرت كل شيء.»

قفز جيرالت بعيدًا عن جدار الكهف حتى كاد أن يسقط على أرضية البازلت.

قال جيرالت بغضب:

«لا يهم، اللعنة!»

ثم تابع: «إسمع، أفالاخ، يجب عليّ الوصول إلى غابة الدراويش بسرعة.»

أجاب أفالاخ بهدوء:

«كايد ميركفيد؟»

أجاب جيرالت بسرعة:

«نعم! أصدقائي في خطر داهم هناك! هم يقاتلون من أجل حياتهم! مهددون من قِبل آخرين... بسرعة، اللعنة! سأعود لأخذ حصاني وسيفي...»

قاطع أفالاخ بهدوء:

«لا حصان.»

ثم تابع:

«أي حصان لن يستطيع أن يأخذك إلى غابة ميركفيد قبل حلول الظلام...»

قال جيرالت في قلق:

«لكنني...»

أفالاخ رفع يده لإيقافه وقال:

«لم أنتهي بعد. اذهب لجلب سيفك الشهير، بينما أتعامل مع حصانك. حصان مثالي للطرق الجبلية. هذا الحصان يندر استخدامه، أود أن أقول، غريب نوعًا ما... ولكن بفضله ستكون في كايد ميركفيد في نصف ساعة.»

* * *

كانت رائحة الـ"النيكر" تشبه رائحة الحصان، وهنا انتهت أية تشابهات. كان جيرالت قد شهد في ماهام مسابقة نظمتها الأقزام حيث كانوا يركبون خرافًا برية في الجبال، وكان قد بدا له ذلك أقصى الرياضات الممكنة. لكن الآن، وهو يجلس على ظهر الـ "النيكر" الذي كان يركض كالمجنون، عرف ما هي الرياضة الحقيقية والمتطرفة.

لتجنب السقوط، غرز أصابعه في شعره الخشن بعنف، وضغط فخذيه في جانبي الوحش المُغطى بالشعر. كان الـ "النيكر" تنبعث منه رائحة العرق والبول والفودكا.

كان يركض كما لو كان ممسوسًا، وكانت الأرض تهتز تحت ضربات أقدامه الضخمة، وكأن له نعلين من البرونز. كان يركض بسرعة غير معتادة، مرّ جيرالت عبر منحدر، فركب بسرعة لدرجة أن الهواء كان يعوي في آذانه.

طاروا فوق التلال، وبعض المسارات والحواف بدت ضيقة للغاية لدرجة أن جيرالت كان يغلق جفنيه بإحكام ولم يجرؤ على النظر للأسفل.

عبروا شلالات، وشلالات متدفقة، وأفواه حفر وشقوق، التي لا تجرؤ حتى الجبال على القفز من فوقها، وكان كل قفز مصحوبًا بصوت مدوٍ. أي، كان الصوت أكثر شراسة وأعلى من المعتاد، بما أن الـ "النيكر" كان يركض بهياج بلا توقف تقريبًا.

صرخ جيرالت:

«اهدأ قليلاً!» لكن الرياح دَفعت كلماته مرة أخرى إلى حلقه.

أجاب الـ"النيكر" بهدوء:

«لماذا؟»

قال جيرالت مُجددًا:

«لأنك قد شربت!»

لكن الـ"النيكر" صرخ في وجهه، مُجددًا:

«اوووووووووووووووو!»

ثم قفز. كان الرياح يصفق في آذانهم. ورائحة الـ"النيكر" الكريهة تكاد تخنقه.

ومع مرور الوقت تضاءل دوي الأقدام الضخمة على الصخور، وأصبح صوت الصخور والحصى يتناثر بشكل أقل. وأصبحت الأرض أقل صخرية، ومرت بسرعة بجانبهم شجرة صنوبر قزم قد تكون، قبل أن تحل محلها غابة من الأشجار الخضراء والبنية.

واختلطت رائحة الصمغ مع رائحة الوحش الكريهة.

صرخ الـ"النيكر":

«واااااااهاااااااا!»

تخلّت الإبر الخضراء عنهم واختفت.وأصبحوا الآن محاطين بألوان مختلفة من الأصفر، والبرتقالي، والأحمر. وتحت قدمي الـ"النيكر" كان أوراق الشجر تتمتم.

صرخ جيرالت مرة أخرى:

«اهدأ!»

لكن الـ"النيكر" رد مجددًا:

«واااااااااهاااااااا!»

ثم قفز الـ"النيكر" فوق شجرة ساقطة، قفزة طويلة. كاد جيرالت أن يعض لسانه من شدة الحركة.

* * *

انتهت الرحلة البرية فجأة كما بدأت.

غرز الـ"النيكر" حوافره في الأرض، زأر، ثم دفع جيرالت بقوة ليلتطم بالأرض. بينما كان جيرالت يرقد على الأوراق المتساقطة، يلهث من شدة التعب، لم يكن قادرًا على شتمه. ثم نهض، يهمس وهو يدلك ركبته التي بدأت تؤلمه مجددًا.

قال الـ"النيكر" بصوت ملئه الدهشة:

«لم تسقط!» ثم أضاف مبتسمًا: «حسنًا، حسنًا.»

لم يقل جيرالت شيئًا.

أشار الـ"النيكر" بقدمه المشعرة قائلاً:

«ها نحن ذا، هذه هي كايد ميركفيد.»

أسفلهما كان وادي مليء بالضباب. فوق الضباب، كانت أطراف الأشجار تظهر.

قال الـ"النيكر" مُتوقعًا سؤاله:

«هذا الضباب ليس طبيعيًا. بالإضافة إلى ذلك، يمكنك أن تشم رائحة الدخان من هنا. لو كنت مكانك، لأسرعت. إيبه، كنت سأذهب معك... أشعر بالرغبة في خوض معركة حقيقية. ستكون عرضًا رائعًا، أركض نحو الهجوم وأنا على ظهرك! لكن أفالاخ حظر عليَّ الظهور. من أجل سلامة مجتمعنا كله...»

قال جيرالت ببساطة:

«أعلم.»

أضاف الـ "النيكر" بجدية:

«لا تغضب مني لأنني ضربتك على فكك.»

رد جيرالت:

«لستُ غاضباً منك»

قال الـ "النيكر" مبتسمًا وهو يظهر أسنانه تحت لحيته الحمراء:

«أنت رجل حقيقي.»

قال جيرالت، وهو يرفع حاجبيه:

«شكرًا. أيضًا على تلك الكلمات.»

أخرج الـ "النيكر" نفسًا ثقيلة رائحة الفودكا، قائلاً:

«لقد كان الشرف لي.»

* * *

كان الضباب الذي أغرق غابة ميركفيد كثيفًا وله شكل غير منتظم، يشبه كومة من الكريمة المخفوقة الموضوعة على كعكة بواسطة طباخ مجنون. تذكّر الضباب الويتشر بـ بروكيلون. كانت غابة الحوريات كثيرًا ما تُغطى بضباب سحري من أجل الحماية والتخفي. ومثل بروكيلون، كانت الأجواء الرسمية والمهددة للغابة هي ذاتها، هناك على الأطراف، التي كانت تتكون في الغالب من الصفصاف والزان.

وبنفس الطريقة التي كانت في بروكيلون، عند حافة الغابة، على مسار مغطى بالأوراق، كاد جيرالت أن يتعثر على كومة من الجثث.

* * *

«كانت الجثث المشوهة بشكل فظيع ليست لدرويد ولا للنيلفجارديين، وبالتأكيد لم تكن تخص نايتينغيل أو شيررو. قبل أن يدخل جيرالت الضباب، تذكر أن ريجيس قد تحدث عن بعض الحجاج؛ يبدو أن رحلتهم لم تنتهِ بخير لأحدهم.

كانت رائحة الدخان اللاذع واللهب في الهواء الرطب تتصاعد شيئًا فشيئًا، مما دلّ على أنه يسير في الاتجاه الصحيح. وسرعان ما بلغته أصوات، وصراخ، وصوت صرير كمانٍ.

سرّع جيرالت من خطواته.

على الطريق الذي ابتلّه المطر، كانت هناك عربة؛ وبين عجلاتها ترقد جثث أخرى.

كان أحد قطاع الطرق، وهو يتفقد محتويات العربة، يقذف بالأغراض والأدوات على الطريق. بينما كان آخر ممسكًا بالخيول؛ وثالثٌ كان ينتزع من على جثة حاجٍ ميت عباءة مزينة بفراء الثعلب؛ أما الرابع،

فكان يحاول العزف على كمان باستخدام قوسٍ وجد من بين الغنائم، غير قادر على إخراج نغمة واضحة من العزف، إذ لم يستطع شيء في العالم أن يُحدث له صوتًا نقيًا.

جاءت هذه الفوضى الصوتية في محلها؛ إذ أخفت وقع خطوات جيرالت.

توقفت الموسيقى فجأة؛ وأصدرت أوتار الكمان أنينًا فسقط أحد قطاع الطرق على الأوراق المتناثرة، مبللاً إياها بدمائه. حتى الذي كان يمسك بالخيول لم يتمكن من الصراخ قبل أن يقطع سهل وريد رقبته. أما اللص الثالث، فلم يستطع القفز من العربة فسقط، مخرِجًا زئيرًا نتيجة انشقاق شريانه الفخذي. وفي حين تمكن الأخير من استخراج سيفه من غمده، لم يكن ذلك كافيًا لرفعه عن الأرض.

استخدم جيرالت إبهامه لمسح الدم عن سيفه. وقال في اتجاه الغابة، نحو مصدر الدخان:

«يا أولاد، كانت فكرة سخيفة. كان ينبغي عليكم أن تستمعوا إلى نايتينغيل وشيررو. كان عليكم البقاء في المنزل.»

* * *

مم يمضِ وقتٌ طويل حتى اصطدم بعربة أخرى تحوي المزيد من الجثث. وبين صفوف الحجاج الكثيرة، ترقد درويديّات بعباءات بيضاء، مشوهات إلى حدٍ بعيد، قُطعت أجزاؤها وسُفكت دماؤها. وكان الدخان المنبعث من نارٍ مجاورة قد نزل إلى مستوى الأرض.

هذه المرة، كان قطاع الطرق أكثر يقظة؛ فلم يستطع جيرالت الاقتراب دون أن يلحظه أحدٌ منهم، وكان أحدهم منهمكًا في جمع الخواتم والأساور من ذراع امرأة ميتة. دون تفكير، انقضّ جيرالت على أحد اللصوص بضربة سريعة بسيفه؛ فصرخ ذلك اللص، واندفع باقي قطاع الطرق، الذين اختلطوا بالنيلفجارديين، نحوه وهم يهتفون بصيحاتهم.

تراجع جيرالت مسرعًا إلى عمق الغابة، مستخدمًا جذع شجرة قريب كدرع يحمي ظهره. لكن قبل أن يتمكن قطاع الطرق من اللحاق به، انطلق صوت حوافر الخيول، ومن بين الضباب ظهر حصان عملاق مغطى بدروع ذهبية وحمراء بنمط رقعة مائلة. كان الحصان يحمل فارسًا بزي حرب متكامل يرتدي درعًا متألقًا، ويتباهى بعباءة بيضاء كالثلج، وخوذة مزينة بزجاجة تمتد حتى طرفها.

وقبل أن يلتقط قطاع الطرق أنفاسهم لاستعادة توازنهم، كان الفارس قد اختلط بهم، ينقض بسيفه على أعناقهم من كل جانب، حتى تدفقت الدماء كنافورة، مشكّلة مشهدًا فنيًا بديعًا.

لم تسنح لجيرالت فرصة الوقوف ساكنًا؛ إذ انقض عليه عدوان، أحدهما يرتدي قميصًا مزدوجًا ملونًا ببهجة، والآخر متأنق بالزي النيلفجاردي الأسود. قام جيرالت بقطع وجه أحد قطاع الطرق بسيفه، بينما، عند رؤية الأسنان تتطاير، استدار النيلفجاردي سريعًا واختفى في الضباب.

كاد جيرالت يُداس تحت الحصان المزخرف بنمط الرقعة الذي اندفع دون فارس.

ودون تردد، قفز من خلال الأدغال متجهًا نحو المكان الذي كان يسمع فيه الصياح والشتائم والضربات.

تمكن ثلاثة من قطاع الطرق من سحب الفارس من سرجه، وكانوا يحاولون ضربه؛ إذ وقف أحدهم متربعًا على ظهره وضربه بفأس، بينما كان آخر يشن هجمات بسيف. أما الثالث، الرجل ذو الشعر الأحمر، فكان يقفز كالأرنب منتظرًا فرصة ليُدخل طرف رمحه المثلث بين صفائح الدروع.

صرخ الفارس الساقط بشيء غير مفهوم من داخل خوذته وهو يحاول صد الضربات بدرع يمسك به بكلتا يديه؛ ومع كل ضربة بالفأس، كان الدرع ينخفض تدريجيًا حتى كاد يلامس صدره، وكان واضحًا أن ضربة أو ضربتين إضافيتين ستجعلان أحشاءه تتدفق عبر شقوق الدروع.

في ثلاث قفزات، وجد جيرالت نفسه في قلب الدوامة؛ فقام بضرب رقبة الرجل الأحمر القافز برمحه، وفتح بطن الذي كان يتلقى ضربة الفأس. وبالرغم من ثقل الدروع، قام الفارس بضرب الرجل الثالث على ركبته بحافة درعه واستمر في ضربه حتى سقط ثلاث مرات على وجهه حتى تناثرت الدماء على الدرع.

ركع الفارس بعدها وبحث بين القصب عن سيفه، كذبابة فرس معدنية ضخمة. فجأةً، لمح جيرالت، فتجمد الفارس في مكانه.

"أنت في أيدِ من؟" جاء صوت مكتوم من أعماق الخوذة.

"لستُ في أيدي أحد. هؤلاء الذين يرقدون هنا كانوا أعدائي."

"أوه..." حاول الفارس رفع واقية الخوذة، لكن المعدن كان قد انحنى والمفصلات علقت.

"بشرفي! ألف شكر على مساعدتك."

"على مساعدتي؟ لقد كنتَ أنت من جاءِ لإنقاذي."

"حقًا؟ متى؟"

لم يرَ شيئًا، فكر جيرالت. لم يلاحظني حتى من خلال فتحات خوذته.

"ما اسمك؟" سأل الفارس.

"جيرالت. من ريفيا."

"ما شعار نبلك؟"

"ليس هذا وقت الشعارات، أيها الفارس."

"بشرفي، أنت محق، أيها الفارس الشجاع جيرالت."

عثر الفارس على سيفه ووقف. كانت شفرته المسننة، مثل زينة حصانه، مزينة بنمط الرقعة الحمراء والذهبية القُطرية، وكل مربع يحمل بالتناوب الحرفين **A** و **H**.

"هذا ليس شعار نبلي الوراثي،" قال الفارس بصوت جهوري مفسرًا. "هذه هي الأحرف الأولى لاسم سيدتي، الدوقة آنا هنرييتا. يُطلق عليَّ فارس الشطرنج. أنا فارس جوّال، ولا يُسمح لي بالكشف عن اسمي الحقيقي أو شعاري. لقد قطعت عهد الفروسية. أشكرك مرة أخرى، يا سيدي."

"على الرحب والسعة."

أنَّ وتأوه أحد قطاع الطرق الممددين على الأرض محاولًا التحرك بين الأوراق المتناثرة. فتقدم فارس الشطرنج نحوه وغرس سيفه فيه بضربة قوية، فبدأ الرجل يرفرف بذراعيه وساقيه كعنكبوت عالق تحت دبوس.

"يحب أن نتحرك بسرعة!" قال الفارس. "فلا يزال قطاع الطرق يجوبون المكان. إنه ليس وقت الراحة!"

"صحيح،" أقرَّ جيرالت. "قطاع الطرق يطوفون في الغابة، يقتلون الحجاج والدرويد. أصدقائي في خطر..."

"اسمح لي لحظة."

كان هناك قاطع طريق آخر يُظهر علامات الحياة، فقام الفارس بغرزه في الأرض مجددًا. كان يركل ساقيه بقوة لدرجة أن حذاءه طار من قدميه.

قال فارس الشطرنج، وهو يمسح سيفه على العشب: "هؤلاء الأوغاد يرفضون مفارقة الحياة بسهولة! لا تتفاجأ يا سير جيرالت بأنني أنهي أمرهم هكذا. كنت في السابق أتجنب ذلك لكن هؤلاء اللصوص يستعيدون عافيتهم بسرعة تثير غيرة الرجل الشريف! منذ أن اضطررت لمواجهتهم ثلاث مرات، بدأت أحرص على إنهائهم بعناية. حتى لا يعودوا مرة أخرى."

"أتفهم ذلك."

"كما قلت، أنا فارس جوّال، لكن، بشرفي، لستُ قاسي القلب. ها هو جوادي! تعال، بوسيفالوس!"

* * *

الغابة أصبحت أكثر انفتاحًا وصفاءً، وبدأت أشجار البلوط العظيمة، ذات التيجان المتباعدة، تهيمن على المشهد. أصبح دخان الحريق ورائحته أكثر كثافة، مما دل على اقترابهما من مصدره. وبعد فترة وجيزة، رأوه بأعينهم.

كانت الأكواخ ذات الأسقف المصنوعة من القصب تحترق في قرية صغيرة، وقطع القماش تشتعل على عربات متناثرة. وبين تلك العربات، كانت الجثث ممددة والعديد منها كانت مرئية من بعيد، مرتدية الجلابيب البيضاء للدرويد.

كان قطاع الطرق والنيلفجارديين يتخذون من العربات دروعًا يدفعونها أمامهم أثناء مهاجمتهم لمنزل كبير مبني على ركائز. بُني المنزل من أخشاب متينة وسُقِف بألواح خشبية منحدرة، مما جعل المشاعل التي ألقاها المهاجمون تنزلق بلا ضرر. كان المنزل تحت الحصار لكنه دافع عن نفسه بنجاح – أمام جيرالت، ظهر أحد اللصوص دون حذر من خلف إحدى العربات وسقط أرضًا كالصاعقة، بسهم اخترق جمجمته.

"أصدقاؤك،" قال فارس الشطرنج، "لابد أنهم في ذلك المنزل! بشرفي، إنهم في ورطة كبيرة. هيا، لننجدهم!"

سمع جيرالت صرخة عالية وأوامر تُصرخ بوضوح، تعرف على صوت قطاع الطرق نايتينغيل بوجهه المضمد. وبعد لحظة، رأى النصف-إلف شيررو وهو يختبئ خلف جنود النيلفجارد السود، يراقبهم ويغطي تقدمهم.

فجأة، دوَّت الأبواق حتى تساقطت الأوراق من أشجار البلوط، وبدأت حوافر خيول المعركة تدق الأرض كالرعد، بينما تلألأت الدروع وتألقت السيوف في أيدي الفرسان المندفعين إلى القتال. انطلقت زئير الحرب، وركض قطاع الطرق في جميع الاتجاهات كالجرذان الهاربة من الطوفان.

"بشرفي!" زمجر فارس الشطرنج وهو يضغط بكعبيه على جواده. "إنهم رفاقي! لقد سبقونا! إلى الهجوم، لننل نحن أيضًا نصيبنا من المجد! اقتلوا، اسحقوا!"

اقتحم فارس الشطرنج الحشد المذعور من قطاع الطرق مندفعًا على ظهر بوسيفالوس فقتل اثنين منهم، فيما تفرق الآخرون أمامه كالعصافير أمام الصقر. اثنان من الفارين اتجها نحو جيرالت، لكنه تكفل بهما في لمح البصر.

الثالث، على بُعد خطوات منه، استدار وأطلق عليه سهمًا من جابرييل—وهو نوع من الأقواس المستعرضة المصغرة، اخترعه صانع في فيردن يحمل الاسم نفسه. كان إعلان سلاحه يروج له بشعار:

"احمِ نفسك من السرقة والعنف! القانون عاجز وغير فعال، لذا دافع عن نفسك! لا تغادر منزلك دون قوس جابرييل الصغير. جابرييل هو ملاكك الحارس، جابرييل سيحميك ويحمي أحبائك من قطاع الطرق!"

وقد فاقت المبيعات كل التوقعات، وحققت رقماً قياسياً في السوق. وبعد فترة وجيزة، أصبح كل قاطع طريق يحمل قوس جابرييل عندما يهاجم شخصًا ما.

كان جيرالت رغم خبرته في القتال كويتشر قد تمكن من تفادي السهم، لكنه نسي الألم في ركبته، فتأخر تفاديه بمقدار بوصة واحدة، مما أدى إلى تمزق أذنه بطرف السهم الحاد كالنصل. أصيب بألمٍ حادٍ كاد يُفقده بصره للحظة، لكن تلك اللحظة كانت كافية ليستعيد تركيزه. لم يُمهل قاطع الطريق الوقت لإعادة تحميل القوس المستعرض أو حتى الدفاع عن نفسه. في غضبٍ عارم، قطع جيرالت يديه، ثم شق أمعاءه بسيهيل بضربة قاضية.

لم يكن لديه حتى الوقت لمسح الدم من أذنه وعنقه، حين هاجمه لص صغير ذو عينين لماعتين كعيني ابن عرس، نظرة مليئة بالخداع والدهاء. كان يحمل سيفاً زيريكانياً منحنيًا، يُديره بمهارة تستحق الإعجاب.

ابن عرس كان سريعًا وملاحظًا، وما إن رأى جيرالت يعرج، حتى بدأ في الدوران حوله، مهاجمًا من الزاوية الأكثر فائدة له. كان حركيًا للغاية، ولامع السيف المنحني يئز في الهواء مهاجمًا في زوايا غير متوقعة. كانت تفادي الضربات يزداد صعوبة، ومع كل تفادٍ كان على قدم جيرالت المصابة أن تتحمل وزن جسده بالكامل، مما زاد من ألمه وضعفه.

فجأة، انخفض ابن عرس في وضعية الهجوم، ثم قفز للأعلى، مؤديًا خدعة ذكية تلاها بومضات من الضربات السريعة والمراوغات الحادة. نجح جيرالت في صد الهجمات بصعوبة. ثم، في اللحظة التي كان فيها اللص الرشيق في طريقه لشنّ ضربة منخفضة خطيرة، أغمض عينيه فجأة، وعطس بصوت عالٍ، متبوعًا بانهمار مخاطه من أنفه، مما أدى إلى انخفاض دفاعه للحظة.

في تلك اللحظة، لم يُضِع جيرالت أي وقت، بضربة سريعة حادة، شق عنقه، ليصل النصل حتى عموده الفقري.

قال جيرالت وهو ينظر إلى قاطع الطريق المحتضر: "أياً كان ما يقوله الناس فإن تعاطي المخدرات أمرٌ بالغ الخطورة."

كان هناك قاطع طريق آخر يندفع نحوه، رافعًا هراوة فوق رأسه، لكنه تعثر فجأة وسقط بوجهه في الطين، وسهم بارز من فخذه.

صرخت ميلفا: "أنا قادمة، أيها الويتشر! أنا قادمة! تمسك جيدًا!"

جيرالت استدار، لكنه لم يجد أحدًا ليقاتله. ميلفا أطلقت سهمها على آخر قاطع طريق في المنطقة. أما البقية، فقد فرّوا إلى الغابة، يطاردهم الفرسان الملونون. وكان فارس الشطرنج يلاحق مجموعة منهم، اختفى بين الأشجار، لكن صرخاته الحربية لا تزال تُسمع.

أحد النيلفجارديين، رغم كونه شبه ميت، نهض فجأة وبدأ يركض للهرب. رفعت ميلفا قوسها بسرعة وسددت، أطلق السهم صافرة في الهواء قبل أن يثبت نفسه بين كتفي الهارب.

"سنُشنق،" قالت ميلفا بإحباط، متنهدة.

"لماذا تعتقدين ذلك؟"

"هذه أرض نيلفجارد. وخلال الشهرين الماضيين، كنا نقتل في الغالب نيلفجارديين."

"هذه توسان، وليست نيلفجارد."

تحسس جيرالت جانب رأسه وسحب يده، ليجدها مغطاة بالدم.

"تبًا. ماذا حدث هناك؟ انظري، ميلفا."

ميلفا نظرت إلى الإصابة بعين خبيرة، ثم رفعت حاجبها بسخرية. "لا شيء خطير، لقد قطعوا أذنك فحسب."

"سهلٌ عليكِ قول ذلك. كنتُ أحب هذه الأذن. أعطني ضمادة، الدم يتدفق إلى ياقة قميصي. أين دانديليون وأنغوليم؟"

"في الكوخ مع الحجاج... أوه، اللعنة."

من الضباب، برز ثلاثة فرسان يمتطون جياد الحرب، ترفرف معاطفهم وراياتهم في الهواء.

كان جيرالت يتوقع سماع صرختهم الحربية، لكن ميلفا أمسكت به فجأة وسحبته إلى أسفل عربة مقلوبة. لم يكن هناك مجال للمزاح عندما يكون خصمك مسلحًا برمح يبلغ طوله أربعة عشر قدمًا، مما يمنحه مدى فعالًا يصل إلى عشرة أقدام أمام رأس حصانه.

"اخرجوا!" كانت جياد الفرسان تضرب الأرض حول العربة بحوافرها.

"ارموا أسلحتكم واخرجوا!"

"سنُشنق،" تمتمت ميلفا.

قد تكون على حق.

"هاه، أيها الأوغاد!" صاح الفارس الذي يحمل رأس ثور أسود على درعه الفضي. "على شرفي، ستُعلقون على المشنقة!"

"على شرفي!" انضم إليه صوت آخر، شاب، يرتدي معطفًا أزرق. "سنمزقكم إربًا هنا والآن!"

"انتظروا! توقفوا!"

من الضباب، خرج فارس الشطرنج، كان قد نجح أخيرًا في رفع قناع خوذته الملتوية، ومن تحته انكشف وجه كثيف اللحية.

"أطلقوا سراحهم فورًا!" هتف بقوة. "إنهم ليسوا قطاع طرق، بل أناس شرفاء. هذه المرأة دافعت بشجاعة عن الحجاج كما يفعل الرجال. وشريكها فارس نبيل، وأنا أضمنه بنفسي!"

"فارس نبيل؟" رفع رأس الثور قناع خوذته، ونظر إلى جيرالت بدهشة واضحة. "على شرفي! هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا!"

"على شرفي!" ضرب فارس الشطرنج قبضته المدرعة على صدر درعه. "إنها الحقيقة. هذا الفارس الشجاع أنقذني عندما كنت محاصرًا، عندما تغلب على هؤلاء الأوغاد وألقوني أرضًا. اسمه جيرالت من ريفيا."

"ماهو شعار النبالة؟"

"لا يجب عليّ الإفصاح،" تمتم الويتشر بغرور، "عن اسمي الحقيقي، ولا عن شعار نبالتي. لقد قطعت عهد الفروسية. الآن، أنا جيرالت التائه."

"أووه!" فجأة، دوّى صوت مألوف، صفيق كعادته. "انظروا من جرّته لنا الأقدار! ها! لقد أخبرتكِ، يا عمتي، أن الساحر سيأتي لإنقاذنا!"

"وفي اللحظة المناسبة تمامًا!" انضم دانديليون إلى المشهد، حاملًا عوده في يدٍ وغليونه في الأخرى. "ليس قبل دقيقة واحدة، وليس بعدها. لديك حس درامي مدهش، جيرالت. يجب عليك كتابة المسرحيات!"

لكنه توقف فجأة.

رأس الثور انحنى إلى الأمام في سرجه، عيناه تلمعان بذهول.

"الفيكونت جوليان؟"

"البارون دي بيراك-بيران؟"

من بين أشجار البلوط، خرج فارسان آخران. الأول، خوذته مزينة بأجنحة بجعة بيضاء، كان يقود أسيرين مربوطين بحبل. أما الثاني، وهو فارس جوال عملي، فقد أعدّ مشنقة وكان يبحث عن فرع مناسب.

"لا أحد منهما هو نايتينغيل،" أشارت أنغوليم إلى الساحر، "ولا شيررو. خسارة."

"خسارة،" أقرّ جيرالت، "لكنني سأحاول تصحيح الوضع. أيها الفارس..."

لكن رأس الثور – أو بالأحرى، البارون دي بيراك-بيران – لم يكن يوليه أي اهتمام. كان ينظر إلى شخص واحد فقط.

إلى دانديليون.

"على شرفي،" تمتم البارون "هل تخدعني عيناي؟ هذا هو الفيكونت جوليان بنفسه! ها! الدوقة ستغمرها السعادة."

"من هو هذا الفيكونت جوليان؟" سأل جيرالت، وقد أثارت هذه الكلمات فضوله.

"أنا،" تمتم دانديليون بصوت خافت. "لا تتدخل في هذا، جيرالت."

"على شرفي، الدوقة أناريتا ستفرح كثيرًا،" كرر البارون بحماس. "سآخذكم جميعًا إلى قلعتها في بوكلير. ولن أسمع أي أعذار، فيكونت، لا أعذار!"

"بعض الفارين ما زالوا هاربين،" قال جيرالت ببرود. "أقترح أن نلاحقهم أولًا، ثم نفكر فيما سنفعله بعد هذا الصباح الذي بدأ بهذا الشكل المثير. ما رأيك، حضرة البارون؟"

"على شرفي، لن يحدث من هذا شيء،" قال رأس الثور بأسف. "المطاردة مستحيلة. المجرمون فروا عبر النهر، ولا يمكننا حتى أن نغرس سن حافر حصان في الضفة الأخرى. تلك المنطقة من غابة ميركفيد محمية مقدسة لا تُنتهك، وبموجب المعاهدات التي وقعتها دوقتنا المحبوبة آنا هنرييتا مع الدرويد..."

"لقد فرّ اللصوص إلى هناك، اللعنة!" صرخ جيرالت بغضب. "سيعيثون فسادًا في المحمية! وأنت تخبرني أنه لا يمكننا الدفاع عنها؟"

"لقد أعطينا كلمتنا بشرف!" قال بارون بيراك-بيران بصرامة، وبدا أن لقب "رأس الثور" لا يناسبه بقدر ما يناسبه "رأس الكبش". "هذا ممنوع! المعاهدات! لا يمكننا أن نطأ أرض الدرويد!"

"هم من لا يُسمح لهم بذلك، وليس نحن،" تمتمت أنغوليم وهي تمسك بلجام حصانين من خيول قطاع الطرق. "كفى هذا الهراء، أيها الويتشر. هيا بنا. لا يزال لدي حساب يجب تصفيته مع نايتينغيل، وأنت، كما أظن، لا تزال ترغب في إجراء محادثة صغيرة مع ذلك النصف-إلف."

"سأذهب معك،" قالت ميلفا وهي تفتش عن حصان مناسب. "بمجرد أن أجد لي واحدًا."

"وأنا أيضًا،" قال دانديليون بحماس. "أنا أيضًا معكم..."

"أوه، لا، لن تفعل!" صاح البارون. "على شرفي، أيها الفيكونت، سترافقنا إلى بوكلير. لن تغفر لنا الدوقة أبدًا إذا تركناك ترحل دون أن نحضرك إليها. لن أمنع الآخرين، فلديهم حرية التصرف في نواياهم وخططهم. لكن بما أنك رفيق الفيكونت جوليان، الذي تكرمه الدوقة أناربيتا، فستستقبلكم بترحاب في القلعة، لكن إن رفضتم ضيافتها..."

قاطع جيرالت الحديث، موجهًا نظرة تحذيرية إلى أنغوليم، التي كانت تؤدي خلف البارون سلسلة من الإشارات البذيئة والمسيئة. "نحن لا نرفض الضيافة. وسنذهب إلى الدوقة ونقدم لها التحية التي تستحقها. ولكن أولًا، علينا إنهاء ما بدأناه. نحن أيضًا أعطينا كلمتنا. بمجرد أن ننتهي، سنتجه فورًا إلى قلعة بوكلير. لن نخلف وعدنا."

أضاف جيرالت بلهجة ذات مغزى ونبرة جادة: "إن لم يكن إلا للتأكد من أن صديقنا دانديليون لا يسبب أي عار أو إساءة. أعني، جوليان."

ابتسم البارون فجأة: "على شرفي! لن يتسبب الفيكونت جوليان بأي عار أو إساءة، أقدم لكم كلمتي. لقد نسيت أن أخبرك، أيها الفيكونت، بأن الكونت رايموند توفي بسبب السكتة قبل عامين."

هتف دانديليون، وقد أشرق وجهه فجأة: "ها، ها! إذن، مات الكونت بالسكتة؟ يا لها من أخبار سعيدة ومبهجة... أعني، حزينة ومؤلمة... رحمه الله... ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فلنذهب إلى بوكلير بسرعة، أيها السادة! جيرالت، ميلفا، أنغوليم، سنكون في القلعة!"

* * *

عبروا النهر، يحثّون خيولهم نحو الغابة بين أشجار البلوط المترامية، بينما امتدت السراخس لتلامس ركائبهم. عثرت ميلفا بسهولة على أثر مجموعة الفارّين. انطلقوا بأقصى سرعة ممكنة – كان جيرالت يخشى على الدرويدات. كان يخشى أن بقايا قطاع الطرق، وقد شعروا بالأمان، قد ينتقمون من فرسان توسان بمجزرة ضد الدرويدات.

قالت أنغوليم: "ما رأيك بشأن دانديليون؟ عندما حاصرنا نايتينغيل في المقصورة، أخبرني عن سبب خوفه من توسان."

قال الويتشر: "كنت أتوقع ذلك، لكنني لم أكن أعلم أنه طمح إلى هذا الحد. دوقة، ها، ها!"

تابعت أنغوليم: "كان ذلك منذ سنوات. الكونت رايموند، الذي هلك، كان قد أقسم أن يقتلع قلب الشاعر، ويطهوه ثم يرسله إلى الدوقة ويجبرها على أكله. لقد كان دانديليون محظوظًا لعدم وقوعه في قبضة الكونت وهو لا يزال حيًا. ونحن محظوظون أيضًا..."

قال جيرالت ببرود: "هذا ما سنكتشفه لاحقًا."

قالت أنغوليم بإصرار: "دانديليون يقول إن الدوقة أناريتا تحبه بجنون."

ضحك جيرالت بسخرية: "دانديليون يقول ذلك دائمًا."

صرخت ميلفا بحدة، وهي تشدّ لجامها وتتحسس قوسها: "أغلقوا أفواهكم!"

كان أحد قطاع الطرق يندفع نحوهما، متخبِّطًا من شجرة بلوط إلى أخرى، يركض بجنون بلا قبعة ولا سلاح. كان يركض كالأعمى، يتعثّر، ينهض ثم يواصل جريه. صرخ... صرخة حادة ومروّعة.

قالت أنغوليم بذهول: "ما هذا؟"

شدّت ميلفا قوسها بصمت، لكنها لم تطلق سهمها، انتظرت. كان اللص يركض مباشرة نحوهم، وكأنه لا يراهم. اندفع بأقصى سرعة بين حصان الويتشر وحصان أنغوليم.

رأوا وجهه... شاحبًا كالأموات، مشوّهًا بالخوف، عيناه جاحظتان برعب.

كرّرت أنغوليم: "ما هذا بحق الجحيم؟"

أفاقت ميلفا من ذهولها، استدارت في سرجها، وأطلقت سهمًا في ظهره. صرخ اللص وسقط بين السراخس.

اهتزّت الأرض. تساقطت ثمار البلوط من شجرة قريبة.

قالت أنغوليم، وهي تراقب الجثة: "أتساءل... مم كان يهرب؟"

اهتزّت الأرض مجددًا. تشقّقت الشجيرات وانكسرت الأغصان وأصدرت فرقعة حادة.

صرخت ميلفا وهي تنهض في ركابها، يملؤها القلق: "ما هذا؟ ماذا يجري، ويتشر؟"

حدّق جيرالت، رأى... وأخذ نفسًا عميقًا. رأت أنغوليم أيضًا، وشحب وجهها.

تمتمت، وقد جحظت عيناها: "تبًا...!"

رأت حصان ميلفا المخلوق أيضًا. صهل بذعر، وقف على قائمتيه الخلفيتين وراح يرفس بجنون. انطلقت الرامية من السرج وسقطت بعنف على الأرض. فرّ الحصان مذعورًا إلى أعماق الغابة.

بدأ جواد جيرالت يركض عائدًا من حيث أتوا دون أي توجيه، ولسوء حظه، اختار طريقًا يمر تحت شجرة بلوط منخفضة الأغصان. اصطدمت غصن منخفضة بجيرالت، قاذفةً إياه من السرج. كاد الألم المريع في ركبته أن يفقده وعيه.

أما أنغوليم، فقد صمدت على صهوة جوادها الهائج أكثر من الجميع، لكنها في النهاية سقطت أرضًا. كاد الحصان الهارب أن يدهس ميلفا وهي تحاول النهوض.

عندها، رأوا بوضوح ما كان يقترب منهم... ولم يعودوا متفاجئين من ذعر الحيوانات.

كان الكائن أشبه بشجرة، بلوطٍ معقود ملتفّ، أو ربما كان بالفعل بلوطًا... لكنه، خلافًا لأي شجرة أخرى، لم يكن يقف ساكنًا وسط الأوراق المتساقطة والثمار المتناثرة، ولم يكن ملاذًا للسناجب التي تتراقص بين أغصانه. كان هذا البلوط يسير بخطى ثقيلة عبر الغابة، يطحن الجذور القوية تحت قدميه، ويحطم الأغصان بصوت مرعب.

كان الجذع السميك – أو الجسد الوحشي – يبلغ قطره قرابة قامةٍ ونصف، أما البروز الذي بدا كمنقار، فقد لا يكون منقارًا على الإطلاق... بل فمًا، لأنه كان ينفتح وينغلق بصوتٍ يشبه ارتطام الأبواب الثقيلة.

رغم أن الأرض كانت تهتز تحت وطأة ذلك الوحش الرهيب، مما جعل الحفاظ على التوازن شبه مستحيل، إلا أن المخلوق عبر الوادي برشاقة مذهلة... لكنه لم يفعل ذلك عبثًا.

أمام أعينهم، امتدت الأغصان المتمايلة بسرعة خاطفة نحو شجرة ساقطة، وانتزعت منها لصًا كان مختبئًا هناك، بمهارة لا تقل عن مهارة اللقلق وهو يقتنص الضفادع وسط العشب. بقي اللص معلقًا بين الأغصان، يصرخ صرخات مروعة حتى أشفقوا عليه.

رأى جيرالت أن الوحش كان يحمل بالفعل ثلاثة لصوص آخرين معلقين بنفس الطريقة... وأحد جنود نيلفجارد.

تمتم بألم، محاولًا عبثًا النهوض، وهو يشعر وكأن أحدهم يدقّ مسامير ملتهبة في ركبته: "اركضوا..."

"ميلفا، أنغوليم... اركضوا..."

صاحت أنغوليم بعناد: "لن نتركك هنا!"

لا بد أن المخلوق الشجري سمعها، لأنه داس بجذوره بسعادة، ثم اندفع نحوهما بسرعة.

أنغوليم، بعدما عجزت عن رفع الويتشر، أطلقت سيلًا من الشتائم الفاحشة. أما ميلفا، فقد كانت ترتجف وهي تحاول، بيدين مرتعشتين، أن تضع سهمًا في وتر قوسها... وكأن ذلك قد يساعدهم بأي شكل من الأشكال.

صرخ جيرالت مرة أخرى، هذه المرة بكل قوته: "اركضوا!"

لقد تأخرت. كان المخلوق الشجري قد انقض عليهم بالفعل. شلّهم الخوف تمامًا، فباتوا يرون الآن بوضوح فريسته المعلقة على أغصانه... أربعة من قطاع الطرق. اثنان منهم كانا لا يزالان على قيد الحياة، يطلقان عواءً مرعبًا، وأرجلهما تتلوى في الهواء. أما الثالث، فقد كان معلقًا بلا حراك، ربما فاقدًا للوعي. كان من الواضح أن المخلوق كان يحاول الإمساك بفرائسه وهي لا تزال حيّة، لكن مع الرابع... لم يكن حظه موفقًا. ربما ضغط عليه بقوة عن غير قصد، فقد برزت عيناه من محجريهما، وتدلت لسانه من فمه، بينما لطّخت الدماء والقيء لحيته الكثة.

وفي اللحظة التالية، وجدوا أنفسهم معلقين في الهواء، تحاصرهم الأغصان من كل جانب، يصرخون بأعلى أصواتهم.

"هشش... هشش... هشش..."

صدر الصوت من الأسفل، من بين الجذور.

من خلف المخلوق الشجري، ظهرت فتاة درويد شابة، ترتدي ثوبًا أبيض، وتحيط رأسها إكليل من الزهور.

"لا تؤذِ، شجرة... لا تعصرهم بقوة... برفق... هشش... هشش..."

تأوه جيرالت من مكانه المرتفع، بالكاد قادرًا على الحديث بسبب الأغصان التي كانت تطبق على صدره:

"لسنا قطاع طرق... أخبريه أن يطلق سراحنا... نحن أبرياء..."

أجابت الدرويديسة وهي تطرد فراشة كانت تحوم قرب حاجبها:

"الجميع يقول الشيء ذاته..."

ثم تابعت، بنفس النبرة الهادئة:

"هشش... هشش... هشش..."

"لقد تبولت على نفسي..." تأوهت أنجوليم. "تبا لكل شيء، تبولت على نفسي!"

لم تقل ميلفا شيئًا، فقط أصدرت صوتًا خافتًا، ثم تدلى رأسها إلى صدرها. أما جيرالت، فقد أطلق سلسلة من الشتائم البذيئة... لم يكن يستطيع فعل أكثر من ذلك.

تحرك المخلوق الشجري عبر الغابة، مدفوعًا بإشارات الدرويديسة. وأثناء المسير، شعر كل من كان لا يزال واعيًا بأن أسنانهم تصطك مع كل خطوة ثقيلة يخطوها المخلوق العملاق.

لم يمض وقت طويل حتى وصلوا إلى ساحة كبيرة مفتوحة. رأى جيرالت هناك مجموعة من الدرويدات يرتدون ثيابًا بيضاء... ورأى مخلوقًا شجريًا آخر، لكنه لم يكن محظوظًا بفريسته مثل الأول، إذ كان يحمل بين أغصانه ثلاثة لصوص فقط، لم يكن منهم على قيد الحياة سوى واحد.

قال أحد الدرويدات من الأسفل، رجل مسنّ يستند إلى عصا طويلة:

"مجرمون... قتلة... أشخاص لا يستحقون الرحمة."

ثم أشار نحوهم بعصاه:

"انظروا جيدًا... تأملوا العقوبة التي تنتظر كل من يدخل غابة ميركفيد مجرمًا دنيئًا. انظروا وتذكروا. سأطلق سراحكم حتى تخبروا الآخرين بما سترونه بعد قليل... ليكون عبرة وتحذيرًا."

في وسط الساحة، وقف كومة شاهقة من الأخشاب والأغصان. فوقها، مثبتة بأوتاد خشبية، كانت هناك قفص ضخم مصنوع من الخوص... على شكل دمية خشبية عملاقة.

كان القفص مليئًا بالبشر... يصرخون وينتحبون.

سمع الويتشر بوضوح صرخة مبحوحة، صوتها أجش كصوت ضفدع، مليئة بالخوف... صوت قطاع الطرق نايتينغيل.

ورأى وجهًا شاحبًا، مرتعدًا، يضغط بشدة على قضبان القفص المصنوعة من الخوص... وجه شيررو، النصف إلفي، وقد تجمد الرعب في ملامحه.

"درويدات!" صرخ جيرالت بكل قوته، محاولًا جعل صوته مسموعًا فوق ضجيج صرخات السجناء. "السيدة فلامينيكا! أنا الويتشر، جيرالت!"

جاءه صوت امرأة طويلة نحيلة من الأسفل، شعرها الفولاذي الرمادي يتدلى حتى كتفيها، وفوق جبينها مباشرة، كان هناك غصن صغير من الدبق.

"من يناديني؟"

"أنا... الويتشر، جيرالت... صديق إيمييل ريجيس..."

"أعد ما قلت، لم أسمعك."

"جيرالـــت! صديق الفامباير!"

"آه! كان عليك أن تقول ذلك منذ البداية!"

عند إشارتها، خفض المخلوق الشجري قبضته عنهم، لكن ليس بلطف. سقطوا جميعًا أرضًا بعنف، ولم يكن أيٌّ منهم قادرًا على الوقوف بمفرده. كانت ميلفا فاقدة للوعي، والدم يسيل من أنفها.

بصعوبة، نهض جيرالت على ركبتيه وانحنى فوقها، يتفحص إصابتها.

وقفت فلامينيكا، ذات الشعر الفولاذي، بجواره، ثم تنحنحت بصوت خفيف. كان وجهها نحيلًا للغاية، بل شاحبًا بشكل يوحي بشيء غير مريح، وكأنه جمجمة مغطاة بالجلد. لكن عينيها، بلون زهور الذرة، كانتا لطيفتين ودافئتين.

قالت وهي تنظر إلى ميلفا: "أعتقد أنها تعاني من ضلع مكسور. لكن لدي علاج سيساعدها على الشفاء."

ثم أضافت بصوت هادئ، لكنه يحمل بعض التوبيخ: "أنا آسفة لما حدث. ولكن كيف لي أن أعرف من تكون؟ لم يدعُكم أحد إلى كايد ميركفيد، ولم يُمنح لكم الإذن بدخول ملاذنا. صحيح أن إيمييل ريجيس يشهد لكم، ولكن وجود ويتشر في غابتنا... قاتل مأجور لقتل الأحياء..."

"سأغادر هذا المكان دون إبطاء، أيتها الفلامينيكا الفاضلة،" قال جيرالت. "فقط لو..."

توقف فجأة، عندما رأى المشاعل المشتعلة التي يحملها الدرويدات تتجه نحو الدمية المصنوعة من الخوص، والمكتظة بالبشر.

"لا!" صرخ، قابضًا يديه بغضب. "توقفوا!"

نظرت إليه الفلامينيكا، وكأنها لم تسمعه، وقالت بنبرة باردة:

"كان هذا القفص يُستخدم في الأصل كمرعى شتوي للحيوانات الجائعة، وكان يقف في الغابة مليئًا بالساحرات العجائز. لكن عندما قبضنا على هؤلاء اللصوص، تذكرت الشائعات القبيحة والافتراءات التي يرددها الناس عنّا. حسنًا، فكرتُ، لقد اختلقتم كابوسكم بأنفسكم... والآن سأجعلكم تواجهونه."

همس الويتشر، وعيناه تتابعان ألسنة اللهب التي تقترب من القفص:

"أمريهم أن يتوقفوا... أيتها الفلامينيكا الفاضلة... لا تحرقيهم... أحد هؤلاء اللصوص يملك معلومة مهمة بالنسبة لي..."

وضعت الفلامينيكا يدها على صدره، عيناها ظلّتا لطيفتين وهادئتين، لكن صوتها كان جافًا وقاطعًا:

"أوه، لا. ليس مطلقًا. لا أؤمن بفكرة الشاهد الملكي. منح المجرم الحصانة من العقوبة هو أمر غير أخلاقي."

"توقفوا!" صرخ الويتشر، صوته يعلو بغضب. "لا تشعلوا النار! توقفوا...!"

أشارت الفلامينيكا بإيماءة قصيرة من يدها، وعلى الفور، انحنى أحد المخلوقات الشجرية، التي ما زالت تحوم حولهم، ووضع غصنًا ثقيلاً على كتف الويتشر. سقط جيرالت جالسًا على الأرض، عاجزًا عن المقاومة.

"أشعلوا النار!" أمرت الفلامينيكا ببرود. "آسفة، ويتشر، لكن هذا هو القانون الطبيعي. نحن الدرويدات، نقدّر الحياة ونحترمها في جميع أشكالها. ولكن الإبقاء على المجرمين أحياء هو محض عبث.
المجرمون لا يخافون إلا من الخوف ذاته. لذا... سنعلّمهم درسًا في الخوف. على أمل ألا نضطر لإعطاء درس مماثل مرة أخرى."

التهمت النيران الأغصان اليابسة بين الحزم الخشبية على الفور. الصوت الذي صدر من داخل الدمية المصنوعة من الخوص جعل شعر جيرالت يقف. بالطبع، لم يكن بإمكانه تمييز الأصوات وسط هدير اللهب، ولكن بدا له، فوق أزيز النار وتكسّر الخشب، أنه يسمع صراخ شيرّو، النصف إلفي، يصرخ بجنون.

كان محقًا، فكر جيرالت... الموت ليس واحدًا دائمًا.

ثم، بعد ما بدا كأنه دهرٌ من العذاب، انفجر كومة الحطب، واشتعلت الدمية العملاقة في محرقة هادرة، لم يكن بإمكان أي كائن أن ينجو منها.

قالت أنجوليم، وهي تقف بجواره: "قلادتك، جيرالت."

رفع رأسه، صوته مخنوق، وحلقه متيبّس: "ماذا؟"

قالت، عيناها مثبتتان على اللهب: "قلادة الذئب الفضيّ... كانت مع شيرّو. والآن، لقد فقدتها للأبد. لا بد أنها انصهرت في النيران."

نظر جيرالت إلى الفلامينيكا، إلى عينيها بلون زهور الذرة.

ثم قال بعد صمت طويل: "لا بأس... لم يعد يهمني. لست ويتشرًا بعد الآن. توقفت عن كوني ويتشرًا في ثانيد، عند برج النورس. في بروكيلون. عند الجسر فوق الياروغا. في الكهف في الجورجون. والآن... هنا، في غابة ميركفيد. لا... لست ويتشرًا. لذا... عليّ أن أتعلم كيف أعيش بدون قلادة الويتشر."

ديلانوي، فلورينس (1432-1510) – لغوي ومؤرخ. وُلد في فيكوفارو، شغل منصب السكرتير وأمين المكتبة في البلاط الإمبراطوري من عام 1460 إلى 1475. كان باحثًا لا يكلّ في الأساطير والفولكلور، ومؤلفًا للعديد من الأطروحات المهمة التي تعتبر من الأعمال التأسيسية في تاريخ اللغويات والأدب في المناطق الشمالية من الإمبراطورية.

من بين أبرز أعماله، يمكن ذكر:

- "أساطير وملاحم أهل الشمال"
- "حكايات وأساطير"
- "مفاجأة، أو أسطورة الدم القديم"
- "ملحمة الويتشر"
- "الويتشر والويتشرِس، أو البحث الذي لا ينتهي"
- بدءًا من عام 1476، عمل أستاذًا في أكاديمية كاستيل غراوبيان، حيث توفي عام 1520.

"الموسوعة العظمى للعالم"، المجلد الرابع

لـ إيفنبرغ وتالبوت

الفصل الثامن

هبّت الرياح من البحر، ورفرفت الأشرعة. تساقطت رشقات صغيرة من البَرَد، تضرب وجهه بألم. كانت مياه القناة الكبرى تبدو زيتية، مضطربة تحت تأثير الرياح، تتناثر فوقها قطرات المطر.

"من هنا، سيدي، من فضلك. السفينة بانتظارك."

تنهد ديكسترا بعمق، كان قد سئم السفر عبر البحر. لقد كان ممتنًا لتلك اللحظات القليلة التي يشعر فيها تحت قدميه بثبات الأرض والحجارة، لكن مجرد التفكير في العودة إلى سطح السفينة المتأرجح كان يكفي ليشعر بالغثيان. لكن... ما الذي يمكنه فعله؟

اختلفت لان إكسيتر، العاصمة الشتوية لـ كوفير، اختلافًا كبيرًا عن بقية العواصم في العالم. في مينائها، لم يكن المسافرون الذين يصلون بحرًا يطأون الرصيف الحجري إلا ليصعدوا على الفور إلى سفينة أخرى... سفينة رشيقة ذات مقدمة عالية ومؤخرة منخفضة، تسير مدفوعة بعشرات المجاديف المتناسقة.

بُنيت لان إكسيتر فوق الماء، عند المصب الواسع لنهر تانغو. لم تكن لها شوارع كغيرها من المدن، بل كانت قنوات مائية تربط بين أحيائها، وكل وسائل النقل فيها كانت تتم عبر القوارب.

صعد على متن السفينة، حيث استقبله السفير الريدياني الذي كان بانتظاره. ما إن ابتعدوا عن الرصيف حتى راحت المجاديف تشقّ الماء في إيقاع متناغم، وأخذت السفينة تسرع في سيرها. التزم السفير الصمت.

سفير... فكّر ديكسترا، غريزيًا. كم من السنوات مرّت منذ أن أرسلت ريدانيا سفيرًا إلى كوفير؟ أكثر من مئة وعشرين عامًا. ومثلها، مئة وعشرون عامًا منذ أن كانت لكوفير وبوفيز حدود مشتركة مع ريدانيا. لم يكن الأمر كذلك دائمًا...

منذ فجر التاريخ، تعاملت ريدانيا مع الأراضي الواقعة شمال خليج براكسيدا وكأنها إقطاعية تابعة لها. كانت بوفيز وكوفير تُعتبران، كما كان يُقال في بلاط تريتوغور، "جواهر التاج". وكان يحكمهما هناك كونتات يطلقون على أنفسهم "الترويدنيين"، زاعمين أنهم ينحدرون جميعًا من سلف مشترك، هو ترويدن.

كانترويدن شقيق رادوفيد الأول، ملك ريدانيا، الذي عُرف لاحقًا بلقب "العظيم". ومنذ شبابه، كان ترويدن يُعرف بلؤمه الشديد ومكره البغيض، وكان التفكير فيما قد يصبح عليه مع مرور السنوات أمرًا يبعث على القلق. لكن الملك رادوفيد لم يكن استثناءً من العائلة الملكية في هذا الشأن، فقد كره شقيقه كره الطاعون. لذلك، عيّنه كونتًا لكوفير، لا لشيء إلا للتخلص منه، فبعث به إلى أقصى مكان ممكن. ولم يكن هناك مكان أبعد من كوفير.

كان الكونت ترويدن، حاكم كوفير، رسميًا تابعًا لـ ريدانيا، لكنه كان تابعًا غير مألوف، إذ لم يكن مُلزمًا بدفع أي جزية أو أداء أي التزامات إقطاعية. لم يُطلب منه حتى أن يؤدي القسم الاحتفالي بالولاء، بل كان يكفيه مجرد التعهد بعدم الإضرار بسلطة الملك.

يقول البعض إن رادوفيد الأول قد أشفق عليه، مدركًا أن "جوهرة التاج" لم تكن قادرة على تحمّل أعباء الجزية أو التبعية الإقطاعية. بينما يعتقد آخرون أن رادوفيد ببساطة لم يكن يريد رؤية أخيه الشاب في تريتوغور بأي حال، وأن مجرد فكرة ظهوره هناك، سواء ليطلب المال أو يقدم دعمًا عسكريًا، كانت تصيبه بالدوار.

أياً كانت الحقيقة، فلم يكترث أحدٌ لمعرفة السبب، وظل الوضع على ما هو عليه لسنوات طويلة حتى بعد وفاة رادوفيد الأول. استمرت ريدانيا في تطبيق القوانين التي سُنّت في أيام الملك العظيم، وكان من بينها: إقطاعية كوفير تابعة نظريًا، لكنها غير مُلزمة بالدفع أو الخدمة. خلافة الحكم في كوفير تظل دائمًا في يد أسرة ترويدن وحدها. تريتوغور لا تتدخل في شؤون بيت ترويدن، بأي شكل من الأشكال. أفراد بيت ترويدن غير مدعوّين إلى تريتوغور لحضور الاحتفالات الوطنية. ولا لأي مناسبة أخرى.

باختصار، لم يكن أحد في ريدانيا يعرف شيئًا عما يحدث في الشمال... ناهيك عن أن يكترث به.

كانت الأخبار تصل إلى ريدانيا – في أغلب الأحيان عبر كيدوين – عن صراعات كونت كوفير مع اللوردات الصغار في الشمال. تحالفات وحروب مع هينغفورز، ماليوري، كريدين، تالغار، وغيرها من الممالك التي بالكاد يتذكر أحد أسماؤها.

شخصٌ ما غزا أرضًا ما وضمّها إلى حكمه. آخر ارتبط بأحدهم عن طريق زواج ملكي. شخص هزم شخصًا آخر وطالبه بالجزية.

باختصار... لم يكن أحد يعلم من هزم من... ولماذا.

ومع ذلك، اجتذبت أخبار الحروب والصراعات في الشمال حشودًا من المرتزقة، والمغامرين، وعشاق الإثارة، وأولئك الذين لا تهدأ أرواحهم، في سعيهم وراء الغنائم والفرص الثمينة.

أتوا من جميع أنحاء العالم، حتى من أماكن بعيدة مثل سينترا وريفيا، لكن معظمهم جاء من ريدانيا وكيدوين. بل إن بعض أفراد سلاح الفرسان الكيدويني هجروا صفوفهم واتجهوا نحو كوفير.

انتشرت شائعات تقول إن إيدين، الابنة غير الشرعية والمتمردة لملك كيدوين، كانت تقود إحدى تلك الفرق الفارّة. بل حتى في ريدانيا، كان يُقال إن بلاط أرد كارايث كان يراوده حلم احتلال الشمال وانتزاع تاج ريدانيا.

وبدأ بعضهم يطالب صراحةً بتدخل عسكري مسلح.

لكن تريتوغور أعلنت، وبطريقة استعراضية، أنها غير مهتمة بالشمال. وفقًا للمستشارين الملكيين، كان "قانون المعاملة بالمثل" هو السائد: لم يكن لإمارة كوفير أي التزامات تجاه التاج، كما أن التاج لم يكن ملزمًا بتقديم أي مساعدة لكوفير.

وخاصةً أن كوفير لم تطلب المساعدة أبدًا.

وفي هذه الأثناء، كانت الحروب في كوفير وبوفيز قد جعلت الشمال أقوى وأكثر نفوذًا، رغم أن القليلين أدركوا ذلك.

لكن العلامة الأكثر وضوحًا على تصاعد قوة الشمال كانت زيادة صادراته.

لأجيال، كان يُقال إن "الثروة الوحيدة في كوفير هي الرمل ومياه البحر".

لكن هذا المزاح توقف عن كونه مزحة عندما ازدهرت مصانع إنتاج الملح، مما مكّن كوفير من احتكار السوق العالمي للزجاج والملح عمليًا.

لكن رغم أن مئات الأشخاص كانوا يشربون من أكواب تحمل شعار مصانع كوفير، ويرشّون ملحها على حسائهم، بقيت بوفيز في أذهان الناس أرضًا نائية للغاية، وعرة، قاسية، وعدائية.

في ريدانيا وكيدوين، لم يكن الناس يقولون "إلى الجحيم!" بل قالوا "إلى بوفيز!".

وعندما يتذمّر تلميذ من معلمه، يجيبه المعلم ساخراً: "إذا لم يعجبك الأمر، فهناك طريق واضح إلى كوفير!"

وعندما يغضب أستاذ من طلابه المشاغبين، يصرخ بهم: "لا تستخدموا تلك التصرفات الكوفيرية هنا!"

وعندما يشتكي ابن مزارع من المحراث العتيق لجدّه، يجيبه والده قائلاً: "اذهب إلى بوفيز!"

كل من لم يعجبه النظام القديم، كان يُقال له ببساطة: "الطريق إلى كوفير واضح أمامك."

ومع مرور الوقت، بدأ المستهدفون بهذه العبارات في التفكير مليًا... وسرعان ما أدركوا أن الطريق إلى كوفير وبوفيز كان بالفعل خاليًا من العقبات.

وبذلك، انطلقت موجة ثانية من المهاجرين نحو الشمال.

لكن، وعلى عكس الموجة الأولى، التي كانت مكونة من مغامرين مشردين بلا أرض أو وطن، كانت هذه الموجة الجديدة مكونة من أناس مختلفين، غير راضين، يبحثون عن شيء آخر.

إلى الشمال، ذهب العلماء الذين دافعوا عن نظرياتهم، رغم أنها اعتُبرت غير واقعية وجنونية. ذهب المهندسون والمخترعون، الذين آمنوا بأنهم، رغم السخرية العامة، قادرون على ابتكار آلات ومعدات ثورية. ذهب السحرة، الذين اعتبروا أن استخدام السحر في بناء السدود ضربٌ من التدنيس. ذهب التجار، الذين لم تمنعهم الحدود الجامدة والمخاطر قصيرة النظر، عندما رأوا في الشمال فرصة لتحقيق أرباح طائلة. ذهب المزارعون ومربو الماشية، الذين كانوا على قناعة بأن حتى أفقر الترب يمكن أن تُزهر، وأنه يمكن دائمًا تربية نوعٍ من الحيوانات يتأقلم مع المناخ القاسي. إلى الشمال أيضًا، ذهب عمال المناجم والجيولوجيون، لأن قسوة الجبال والتلال البرية في كوفير كانت بالنسبة لهم علامة مؤكدة، بأن ما كان فقيرًا فوق السطح لا بد أن يُخفي ثروات هائلة في باطنه.

لأن الطبيعة تحب التوازن. وبالفعل، تحت السطح، وُجدت الثروة.

بعد خمسة وعشرين عامًا، كانت كوفير تستفيد من مواردها المعدنية بقدر ما كانت تستفيد ريدانيا، إيدين، وكيدوين معًا.

لم يتجاوزها في استخراج ومعالجة خام الحديد سوى ماهكام.

لكن حتى في ماهكام، كانت كوفير تستورد المعادن الثمينة لإنتاج سبائكها الفريدة.

في كوفير وبوفيز، كان يُستخرج:

ربع الإنتاج العالمي من خام الفضة، النيكل، الرصاص، القصدير، والزنك. نصف الإنتاج العالمي من النحاس، والنحاس الخام الطبيعي. ثلاثة أرباع الإنتاج العالمي من خام المنغنيز، الكروم، التيتانيوم، والتنجستن. وثلاثة أرباع الإنتاج العالمي من المعادن النقية النادرة، مثل البلاتين، الفيروأوروم، والدإميريتيوم. وأكثر من ثمانين بالمئة من إنتاج الذهب العالمي.

بفضل هذا الذهب، اشترت كوفير وبوفيز كل ما لم يكن ينمو أو يُربّى في الشمال، وكل ما لم يكن يُنتَج هناك.

ليس لأنهم لم يكونوا قادرين أو لم يعرفوا كيف، بل لأن ذلك لم يكن مربحًا.

حرفيو كوفير وبوفيز، الذين جاء آباؤهم أو أجدادهم إلى هذه الأرض حاملين أمتعتهم على ظهورهم، أصبحوا الآن يكسبون أربعة أضعاف نظرائهم في ريدانيا أو تيميريا.

تجارت كوفير توسعت، وكانت تطمح إلى التوسع أكثر مع العالم بأسره... لكن ذلك لم يكن ممكنًا.

اعتلى رادوفيد الثالث عرش ريدانيا.

كان قد ورث عن رادوفيد العظيم، جدّه الأكبر، اسمه، ومكره، وجشعه.

كان الملك يُلقَّب، من قبل المتزلفين له، بـ "الجريء"، ومن قبل الجميع بـ "الأحمر".

وبسرعة، أدرك ما لم يدركه أحد قبله:

"إذا كانت هناك تجارة مزدهرة في كوفير، فلماذا لا تستفيد ريدانيا منها ولو بقطرة واحدة؟"

"لأن كوفير ليست سوى مقاطعة تافهة، مجرد إقطاعية، جوهرة صغيرة في تاج ريدانيا!"

"لقد آن الأوان لهذا التابع أن يبدأ في خدمة سيّده!"

لم يمضِ وقت طويل حتى سنحت الفرصة المناسبة.

دخلت ريدانيا في نزاع حدودي مع إيدين وكما هو الحال دائمًا، كان الصراع على وادي بونتار.

قرر رادوفيد الثالث التدخل عسكريًا، وبدأ التحضيرات اللازمة للحرب.

وأصدر ضريبة خاصة للحرب، أطلق عليها اسم "عُشر بونتار".

كان الجميع ملزمين بالدفع. الجميع.

بما في ذلك كوفير.

كان الملك الأحمر يفرك يديه بسرور "عُشر دخل كوفير؟ سيكون هذا أمرًا عظيمًا!"

أُرسل مبعوثو ريدانيا إلى بونت فانيس، التي كانت لا تزال تُعتبر "مجرد قرية صغيرة محاطة بسياج خشبي".

لكن عند عودتهم إلى الملك، جلبوا أخبارًا صادمة.

بونت فانيس لم تكن قرية.

بل كانت مدينة ضخمة، العاصمة الصيفية لمملكة كوفير، والتي أرسل حاكمها، الملك جيدوفياس، رسالة واضحة إلى ملك ريدانيا:

"مملكة كوفير ليست تابعة لأحد. ادعاءات ومطالب تريتوغور لا أساس لها من الصحة، وتعتمد على قانون ميت لم يكن له أي تأثير قط. لم يكن ملوك تريتوغور يومًا سادة على كوفير، لأن لوردات كوفير—وكما يمكن التأكد بسهولة من السجلات لم يدفعوا جزية قط، ولم يلبّوا أي التزامات عسكرية، ولم وهو الأهم يتلقوا يومًا دعوة لحضور الاحتفالات الوطنية، أو أي مناسبة أخرى."

اعتذر الملك جيدوفياس لمبعوثي ريدانيا، لكنه أعلن بكل وضوح أنه لا يستطيع الاعتراف برادوفيد كسيّده، ناهيك عن دفع العشر المطلوب.

وكذلك جميع رعايا كوفير، إذ كان ولاؤهم فقط لسيادة كوفير.

باختصار، "دعوا تريتوغور تهتم بشؤونها، ولا تتدخل في شؤون كوفير، المملكة المستقلة."

استشاط الملك الأحمر غضبًا. مملكة مستقلة؟ أجنبية؟ حسنًا إذن، سنتعامل مع كوفير كما نتعامل مع مملكة أجنبية معادية.

فرضت ريدانيا، كيدوين، وتيميريا عقوبات اقتصادية صارمة ضد كوفير.

أي تاجر من كوفير يسافر جنوبًا، كان عليه إجبارياً عرض بضاعته وبيعها في أي مدينة من مدن ريدانيا، سواء أراد ذلك أم لا.

أو يعود أدراجه إلى بلاده بلا شيء.

وكانت نفس القاعدة تنطبق على التجار الجنوبيين المسافرين إلى كوفير.

ذريعة الحرب... ونهايتها السريعة

بالنسبة للبضائع التي كان التجار الكوفيريون ينقلونها بحرًا دون التوقف في موانئ ريدانيا أو تيميريا، فرضت ريدانيا رسومًا جمركية تعادل إتاوة القراصنة.

لكن سفن كوفير رفضت الدفع، ولم تكن تدفع إلا عندما تفشل في الهروب.

وسرعان ما تحوّلت هذه اللعبة بين القط والفأر في البحر إلى حادثة دموية.

حاولت دورية بحرية ريدانية القبض على سفينة تجارية كوفيرية، لكن فجأة ظهرت فرقاطتان كوفيريتان، وما إن دارت المعركة حتى احترقت السفينة الريدانية بالكامل، وغرقت بكل من كان على متنها.

كان ذلك القشة الأخيرة.

قرر الملك رادوفيد الأحمر أن يلقّن تابعه المتمرّد درسًا في الطاعة.

جيش ريداني قوامه أربعة آلاف رجل عبر نهر برابا، بينما تحرّك الجيش الاستكشافي الكيدويني نحو كاينغورن.

بعد أسبوع واحد فقط... كان الألفا جندي ريداني الذين نجوا من عبور نهر برابا يعودون من حيث أتوا، يجرّون أذيال الخيبة. أما ما تبقّى من الجيش الكيدويني، فقد هرب عائدًا عبر ممرّات جبال ميلان، متحطّماً بالكامل.

ما لم يدركه رادوفيد... كان الجيش الدائم لكوفير يتألّف من خمسة وعشرين ألفًا من الجنود المحترفين، جميعهم خبراء في الحرب والنهب، مرتزقة مُجنَّدون من أقاصي الأرض، لكن ولاؤهم للتاج الكوفيري كان مطلقًا.

لم يكن ذلك بسبب الروح الوطنية، بل لسبب أبسط بكثير:

الكرم الملكي غير المسبوق، والمعاشات المضمونة بالعقود. كان هؤلاء الجنود مستعدّين للمخاطرة بكل شيء، إذ كانت المكافآت فاحشة الثراء، مكافآت لم يرَ العالم مثيلاً لها على الإطلاق مقابل كل معركة منتصرة. وكان هؤلاء الجنود الأثرياء يقودهم قادة أكثر ثراءً منهم—قادة موهوبون، ذوو خبرة في القتال، والآن باتوا أثرياء جدًا. قادة عرفهم كلٌّ من بيندا الكيدويني ورادوفيد الثالث جيّدًا.

لأنهم كانوا، حتى وقت قريب، ضباطًا في جيوشهم الخاصة. لكنهم فجأة، تقدّموا بطلبات تقاعد... وسافروا "للعمل في الخارج".

درس الملك الأحمر... والاعتراف بالهزيمة

لم يكن رادوفيد الأحمر أحمقًا، فقد تعلّم من أخطائه السابقة.

قام بتهدئة الجنرالات الغاضبين الذين طالبوا بحملة صليبية ضد كوفير، وتجاهل التجّار الذين طالبوا بحصار اقتصادي، ورفض إرضاء بيندا الكيدويني الذي أراد الانتقام لهلاك وحداته النخبوية.

وبدلًا من ذلك، بادر إلى مفاوضات السلام.

حتى الإهانة التي لحقت به لم تردعه، وكان عليه أن يبتلع تلك المرارة كوفير وافقت على المفاوضات، ولكن على أرضها، في لان إكسيتر.

"لقد أتى الجبل إلى النبي."

ذهبوا إلى لان إكسيتر كمستجدين، فكر ديكسترا وهو يلفّ عباءته حوله.

كمتسوّلين مذلّين.

تمامًا كما أنا اليوم.

مفاجأة في البحر...

دخل الأسطول الريداني إلى خليج براكسيدا متّجهًا نحو سواحل كوفير.

ومن فوق سطح السفينة الملكية ألتا، وقف رادوفيد الأحمر، وبيندا الكيدويني، والكاهن الأكبر لنوفيغراد (الذي انضم إليهم كوسيط)، وهم يراقبون المشهد المذهل أمامهم.

شاهدوا الجدار البحري الهائل الذي ينهض من البحر، والذي تعلوه الأسوار العريضة وأبراج القلعة التي تحرس مدخل بلدة بونت فانيس.

لكن ما رأوه أثناء إبحارهم شمالًا نحو مصبّ نهر تانغو كان أكثر إدهاشًا:

ميناء بعد ميناء، حوض بناء سفن بعد آخر، مرسى بعد مرسى، غابةٌ من الصواري، بحرٌ من الأشرعة البيضاء يعمي الأبصار.

كوفير... وسيّدة البحار

أدرك رادوفيد الأحمر ورفاقه أن كوفير لم تعد تأبه للحصار، أو العقوبات، أو الحرب الجمركية.

كوفير لم تكن بحاجة للبر... فقد كانت مستعدة للسيطرة على البحار.

الرحلة الأخيرة... عبر القنوات دخلت ألتا الفم الواسع لنهر تانغو، وأسقطت مرساتها في الميناء الخارجي الحجري.

لكن المفاجأة الكبرى كانت في انتظار الملوك إذ لم تكن رحلتهم قد انتهت بعد.

لان إكسيتر لم تكن تملك شوارع... بل قنوات.

وكانت هناك قناة كبرى، الشريان الرئيسي للمدينة، تقود مباشرةً من الميناء إلى القصر الملكي.

تم نقل الملكين والوفد المرافق لهما إلى غاليري فخمة مزينة بأكاليل الزهور، ومطلية بالقرمزي والذهب.

لكن المفاجأة الأكبر كانت في شعار السفينة... فوجئ رادوفيد الأحمر وبيندا الكيدويني برؤية نسر ريدانيا ووحيد قرن كيدوين يزينانها.

الملوك في مواجهة ثروة لا تُضاهى

بينما كانت السفينة تشقّ طريقها عبر القناة الكبرى، ظلّ الملكان وحاشيتهما صامتين.

أو بالأحرى، مذهولين عاجزين عن الكلام.

لقد ظنّوا أنهم يعرفون معنى الثراء والفخامة، لكنهم أدركوا الآن كم كانوا مخطئين. فقد كانت كوفير تعرض أمامهم مظاهر ثروة لم يتخيّلوها قط، واستعراضًا للترف لم يسبق أن رأوه في أي بلاط ملكي آخر.

بينما كانوا يُبحرون على طول القناة الكبرى، مرّوا أمام: المبنى الهائل للأدميرالية، مكتب نقابة التجار، ممرّ مشاة واسع يعجّ بحشود من الناس، يرتدون أثوابًا زاهية وأقمشة غالية، صفّ من القصور النبيلة ومنازل التجار، تعكس واجهاتها المذهلة ألوان قوس قزح فوق مياه القناة، ولكن المثير للدهشة، أن هذه الواجهات كانت ضيقة بشكل غير مألوف. وذلك لأن لان إكسيتر كانت تفرض ضرائب على واجهات المنازل فكلما كانت الواجهة أعرض، زادت الضريبة بشكل تصاعدي.

قصر السلطة والثروة كان هناك مبنى واحد فقط ذو واجهة واسعة ببذخ... القصر الشتوي العظيم لملوك كوفير، "قصر إنسينادا". وعلى الدرج الممتد من القصر إلى ضفاف القناة، كان وفد الاستقبال الملكي بانتظارهم.

وقف ملك كوفير، جيدوفياس، وزوجته الملكة جيما، في استقبال الضيوف.

استقبلهما بأدبٍ واحترام... ولكن بأسلوب غير معتاد إطلاقًا.

قال جيدوفياس مبتسمًا، وهو يتوجه إلى رادوفيد الأحمر:

"عمي العزيز!"

ثم ابتسمت الملكة جيما نحو بيندا الكيدويني، وقالت بدفء:

"جدي العزيز!"

حقيقة مذهلة عن الأسرة الحاكمة في كوفير كان جيدوفياس، بطبيعة الحال، من سلالة ترويدن.

أما جيما، فكانت حفيدة إيدين المتمردة، الابنة غير الشرعية لملك كيدوين، التي فرت من بلادها، وأسس نسلها خطًا ملكيًا في كوفير.

وفي عروقها كان يجري دم ملوك "أرد كارايث".

عائلة واحدة... لكن الحرب جمعتهم كأعداء وهكذا، وقف الملك الأحمر أمام "ابن أخيه".

ووقف بيندا الكيدويني أمام "حفيدته".

لكن في ذلك اليوم المشؤوم، لم يكن اللقاء عائليًا... بل كان بين حكّام وخصوم سياسيين، بين مملكة مهزومة... وأخرى خرجت منتصرة.

معاهدة لان إكسيتر الأولى – ميلاد قوة بحرية جديدة

رغم أن الروابط العائلية بين الجانبين حسّنت الأجواء وأثارت بعض التعاطف، إلا أنها لم تساعد في المفاوضات.

"الأبناء" — جيدوفياس وجيما — قالوا مطالبهم بوضوح واختصار.

"الأجداد" — رادوفيد وبيندا — استمعوا... ثم وقّعوا.

وهكذا، وُلدت "معاهدة لان إكسيتر الأولى"، والتي عُرفت لاحقًا بهذا الاسم لتمييزها عن المعاهدات التي تلتها.

لكنها حملت أيضًا اسمًا آخر، مأخوذًا من أول كلمات ديباجتها: **Mare Liberum Apertum** "البحر حر ومفتوح."

نصت المعاهدة على أن "التجارة حرة." "الأرباح مقدّسة." "أحب تجارتك، وأرباحك، وجارك كما تحب نفسك." "منع أحد من التجارة وجني الأرباح هو انتهاك لقوانين الطبيعة." "كوفير ليست تابعة لأحد." "كوفير مملكة مستقلة، ذات سيادة، ومحايدة."

لم يكن يبدو أن جيدوفياس وجيما سيقدّمان أي تنازل — حتى ولو كان صغيرًا لإنقاذ كرامة رادوفيد وبيندا. ولكنهما فعلاها في النهاية.

سُمح لرادوفيد الأحمر، حتى وفاته، بأن يحتفظ بلقب "ملك كوفير وبوفيز" في الوثائق الرسمية.

سُمح لبيندا الكيدويني، حتى وفاته، بأن يحتفظ بلقب "حاكم كاينغورن وماليوري".

بالطبع، مع الملاحظة القانونية: "غير مُلزِم، ولا يشكّل سابقة قانونية" **(non preiuducando)**.

حكم جيدوفياس وجيما كوفير لمدة خمسة وعشرين عامًا.

لكن مع وفاة ابنهما، جيرارد، انتهى حكم بيتترويدن.

وصعد إلى العرش إستيريل ثيسن، مؤسّس بيت ثيسن، الذي حكم كوفير بعد ذلك لأجيال.

كوفير... قوة بحرية محايدة، ومملكة بلا أطماع ولم يمضِ وقت طويل حتى ارتبط ملوك كوفير بصلات دم مع جميع السلالات الحاكمة في العالم، لكنهم ظلّوا مخلصين تمامًا لمعاهدات لان إكسيتر.

لم يتدخلوا قط في شؤون جيرانهم، ولم يحاولوا أبدًا المطالبة بميراث أجنبي، رغم أن ملك أو أمير كوفير كان، في أكثر من مناسبة، مؤهلًا تمامًا لخلافة عرش: ريدانيا، إيدين، كيدوين، سيداريس، فيردن، أو حتى ريفيا.

لكن كوفير، بكل عظمتها، لم تحاول يومًا ضمّ أراضٍ جديدة، ولم ترسل سفنها الحربية المزوّدة بالمقاليع إلى سواحل أجنبية، ولم تغتصب لقب "حاكمة البحار".

ديانة كوفير الوحيدة... التجارة، كانت كوفير راضية تمامًا بمبدأ "**Mare Liberum Apertum**"، "البحر حر ومفتوح للتجارة." لقد اعتنقت كوفير ديانة واحدة فقط: "ديانة التجارة والربح."

وبقيت متمسكة بحيادها المطلق الذي لا يُزعزع.

عودة إلى الحاضر... ومدينة فقدت بريقها

شدّ ديكسترا ياقة معطفه المصنوعة من فرو القندس لحماية عنقه من البرد والمطر المتساقط.

نظر من حوله، وقد أفاق من تأملاته الطويلة.

كانت مياه القناة الكبرى تبدو سوداء تحت السماء الغائمة.

ومن خلال الضباب، ظهر مبنى الأدميرالية، فخر لان إكسيتر، لكنه بدا له أشبه بثكنة عسكرية كئيبة.

حتى منازل التجّار فقدت بهاءها المعتاد، وواجهاتها الضيقة بدت أضيق من المعتاد.

أو ربما هي فعلاً أصبحت أضيق، فكّر ديكسترا بتهكّم.

"إذا كان الملك استيراد قد رفع الضرائب، فمن المحتمل أن أصحاب العقارات الجشعين قد ضيّقوا الواجهات أكثر."

قال ديكسترا، فقط لكسر ذلك الصمت المزعج:

"منذ متى وهذا الطقس القبيح مستمر، سعادة السفير؟"

أجابه السفير، بلهجة رسمية:

"منذ منتصف سبتمبر، أيها الكونت. منذ اكتمال القمر. يبدو أنه سيكون شتاءً مبكرًا. تالغار شهدت بالفعل تساقطها الأول للثلوج."

قال ديكسترا، بصوت خالٍ من المشاعر:

"كنت أظن أن الثلج في تالغار لا يذوب أبدًا."

نظر السفير إليه ليتأكد مما إذا كان يقصدها كمزحة أم أنه جاهل حقًا بالمناخ هناك. ثم ردّ، مازحًا هو الآخر:

"في تالغار، يبدأ الشتاء في سبتمبر وينتهي في مايو. أما الفصول الأخرى فهي الربيع والخريف فقط. وهناك أيضًا الصيف... لكنه عادةً ما يقع في أول ثلاثاء من أغسطس. ويستمر حتى صباح الأربعاء فقط..."

ديكسترا لم يضحك.

لكن السفير، الذي بدأ وجهه يكتسي بالجدية، تابع:

"ولكن حتى هناك... تساقط الثلوج في نهاية أكتوبر يُعدّ أمرًا غير مألوف."

مثل معظم نبلاء ريدانيا، لم يكن السفير يكنّ أي احترام لديكسترا.

حقيقة أنه كان مضطرًا لأن يكون تابعًا له كانت إهانة مريرة، وكون مجلس الوصاية قد عيّن ديكسترا مسؤولًا عن المفاوضات مع كوفير كان بمثابة إهانة قاتلة.

بالنسبة له، دي رويتر — الفرع الأشهر لعائلة دي رويتر، بارون منذ تسعة أجيال — كان ديكسترا مجرد نبيل مدلّل ومتسلّق حقير.

لكن السفير المخضرم، وبفضل خبرته الدبلوماسية، أخفى استياءه ببراعة.

ارتفعت المجاديف وسقطت بإيقاع ثابت، والسفينة تنزلق بسرعة عبر القناة، تمامًا كما ينساب الصمت المتوتر بين الرجلين.

مرّوا بجانب قصر الثقافة والفنون، مبنى صغير لكنه أنيق ومتقن التصميم.

قال ديكسترا فجأة، مقاطعًا الصمت:

"هل نحن ذاهبون إلى إنسينادا؟"

أومأ السفير مؤكدًا:

"نعم، أيها الكونت." ثم تابع، بلهجة رسمية: "وزير الخارجية أبلغنا برغبته في لقائك فور وصولك، لذلك سأقودك مباشرة إلى إنسينادا.

في المساء، سنرسلك بالقارب إلى القصر، إذ يودّون دعوتك إلى العشاء..."

ديكسترا قاطعه بسرعة، بصوت حازم:

"عذرًا، سعادة السفير، لكن التزاماتي لا تسمح لي بقبول الدعوة.

لدي الكثير من القضايا التي يجب حلها، وبسرعة.

علينا أن نُعطي الأولوية للأمور العاجلة على حساب المتعة.

العشاء سيكون في وقت آخر... في أيام أكثر سعادة وسلامًا."

انحنى السفير احترامًا، لكن في داخله، تنفّس الصعداء بارتياح خفي.

* * *

دخل ديكسترا إلى قصر إنسينادا، بالطبع، عبر الباب الخلفي، وكان مسرورًا بذلك، بصدق. كان المدخل الرئيسي للإقامة الشتوية للملك يقع تحت جبهة مزخرفة، مدعومة بأعمدة رشيقة، ويقود إليه سلم من الرخام الأبيض ينحدر مباشرة من القناة الكبرى، وهو مشهد مهيب، لكنه كان أيضًا طويلًا

بشكل مزعج. أما السلالم المؤدية إلى أحد الأبواب الخلفية الكثيرة، فلم تكن بنفس الفخامة، لكنها كانت أكثر راحة وأقل إزعاجًا.

ومع ذلك، بينما كان يصعد بخطوات ثقيلة، عضّ ديكسترا شفتيه، ثم تمتم باللعنات بصوت خافت بحيث لا يسمعه الحراس، والخدم، والخادم الذي كان يرافقه. لكن حتى داخل القصر، كان في انتظاره المزيد من الدرج... والمزيد من الصعود. تمتم مجددًا بالشتائم، هذه المرة بشيء من الألم.

الرطوبة، البرد، والوضع غير المريح في القارب جعلت قدمه، التي كُسرت سابقًا ثم شُفيت بالسحر، تبدأ في الاحتجاج بألم كليل ومزعج. وأثارت معه ذكريات سيئة. شدّ ديكسترا على أسنانه. كان يعلم أن الويتشر قد تعرض أيضًا لكسر في العظام، لكنه تمنى من كل قلبه أن يكون ألم الويتشر أشدّ وأطول... بقدر ما هو يشعر به الآن.

في الخارج، كان الظلام قد حلّ بالكامل، وكذلك في ممرات إنسينادا، التي بدت كأنها تغرق في العتمة. لكن الطريق الذي سلكوه، بقيادة الخادم الصامت، كان مضاءً بخط متواصل من الخدم يحملون الشموع. أمام الأبواب الخشبية العريضة التي قادوه إليها، وقف حراس مسلحون بالحراب، مشدودو القامة، متوترون، كما لو أن أحدهم قد دسّ حرابًا احتياطية في مؤخرتهم. وكان هناك المزيد من الخدم... والمزيد من الشموع. وهذه المرة، كان الضوء ساطعًا لدرجة مؤلمة.

ديكسترا فوجئ قليلًا بالبهرجة التي استُقبل بها. لم يكن يتوقع هذا القدر من الأبهة... لرجل جاء ليقايض، لا ليُكرّم.

دخل الغرفة وتوقف فورًا، مذهولًا. انحنى.

"مرحبًا بك، ديكسترا"، قال استيراد ثيسن، ملك كوفير، بوفيز، ناروك، فيلهاد وتالغار. "لا تقف عند الباب، تعال إلى هنا، اقترب. اترك الألقاب الرسمية بالخارج، هذه ليست جلسة رسمية."

"جلالتك."

استجابت الملكة زوليبكا لانحناءه المليء بالاحترام بإيماءة طفيفة، دون أن تتوقف لحظة عن حياكة الكروشيه.

لم يكن في الغرفة أحد غير الزوجين الملكيين.

"نعم،" لاحظ إستيراد نظراته، "سنتحدث على انفراد، عذرًا، فقط بين ثلاثة أزواج من العيون. أرى أن هذا هو الحل الأكثر منطقية."

جلس ديكسترا على الكرسي المقابل لإستيراد، والذي عرضه عليه الملك.

كان الملك يرتدي على كتفيه معطفًا من القرمزي المزين بفرو القاقم، وسترة وقبعة مخملية متطابقة. وككل رجال بيت ثيسن، كان طويلًا، قوي البنية، وسيمًا بشكل غير عادل. بدا دائمًا قويًا وصحيًا، كبحّار عاد للتو من البحر، حتى ليبدو كأنه ينضح برائحة المياه الباردة والرياح المالحة. وكحال جميع أفراد سلالة ثيسن، كان من الصعب تحديد عمر الملك بدقة. بالنظر إلى شعره، وبشرته، ويديه، وهي الأماكن التي تكشف العمر بوضوح، كان بالإمكان تخمين أنه في الخامسة والأربعين. لكن ديكسترا كان يعلم أن عمره الحقيقي ستة وخمسون عامًا.

"زوليبيكا،" مال الملك نحو زوجته، "انظري إليه. لو لم تعرفي أنه جاسوس، هل كنتِ لتصدقي ذلك؟"

كانت الملكة زوليبيكا صغيرة الحجم، ممتلئة قليلًا، وبسيطة المظهر بطريقة محببة. كانت ترتدي كما تفعل العديد من النساء من نوعها، اللواتي يعتبرن الموضة مجرد مفهوم فارغ. ارتدت ملابس فضفاضة ذات ظلال رمادية.

كان شعرها مخفيًا تحت غطاء رأس، بدا واضحًا أنها ورثته عن جدتها. لم تكن ترتدي أي مجوهرات، ولم تكن تستخدم مساحيق التجميل.

قالت بصوت هادئ ولطيف: "يعلّمنا الكتاب الجيد أننا يجب أن نكون حذرين في الحكم على جيراننا، لأننا سنُحكَم علينا أيضًا. وبالتأكيد، ليس بناءً على مظهرنا."

نظر إليها إستيراد ثيسن بنظرة دافئة، لم يكن سرًا أنه أحبها بلا حدود. حب لم يتراجع قط طوال تسعة وعشرين عامًا من الزواج، بل ظل متقدًا بوضوح. كان يُقال إن إستيراد لم يخن زوليبيكا أبدًا. ديكسترا لم يكن يؤمن بذلك تمامًا، لكنه حاول أكثر من ثلاث مرات أن يُدخل عميلة من طرفه إلى حياة الملك لاستخلاص معلومات، ولم يُفلح قط.

قال الملك: "أنا لا أحب المراوغة، لذا سأدخل في صلب الموضوع فورًا. هناك عدة أسباب دفعتني للحديث معك شخصيًا. أولًا، أعلم أنك لا تتهرب من الرشوة. في الواقع، أنا واثق من نزاهة مسؤوليني، لكن لماذا أعرّضهم لمثل هذه الاختبارات وإغراءات عظيمة؟ كم كنت تنوي أن تعرض على وزير الخارجية كرشوة؟"

قال الجاسوس دون أن يرمش: "ألف تاج نوفيغرادي. ولو فاوضني، كنت سأرفعها إلى ألف وخمسمائة."

صمت الملك للحظة، ثم قال: "وهذا بالضبط ما يعجبني فيك."

ثم أضاف، بابتسامة ساخرة: "أنت وغدٌ حقيقي. أتذكر شبابي حين أنظر إليك، أرى نفسي في سنّك."

شكره ديكسترا بانحناءة. كان يصغره فقط بثماني سنوات، وكان متأكدًا أن إستيراد يعرف ذلك تمامًا.

كرر الملك، هذه المرة بعبوس: "أنت وغدٌ حقيقي. لكنك وغدٌ نزيه وصريح. وهذا نادر في هذه الأوقات البائسة."

انحنى ديكسترا مجددًا.

واصل إستيراد "في كل بلد، هناك متعصبون عميان يبحثون عن فكرة النظام الاجتماعي. إنهم ملتزمون تمامًا بهذه الفكرة لدرجة أنهم على استعداد لفعل أي شيء، ربما حتى ارتكاب أسوأ الجرائم، لأنهم يعتقدون أن الغاية تبرر الوسيلة وتبرر أفعالهم. إنهم لا يقتلون، بل يحمون النظام. لا يعذبون أو يبتزون، بل يدافعون عن حق الدولة والنضال من أجل الاستقرار. حياة الفرد، إذا تعارضت مع عقائدهم وقواعدهم الثابتة، لا تستحق لديهم حتى أن يرفعوا أكتافهم بلا مبالاة. لا يدركون أبدًا أن المجتمع الذي يخدمونه يتكوّن أساسًا من هؤلاء الأفراد أنفسهم. هؤلاء الناس يملكون ما يُسمّى 'رؤية واسعة'... وهذه النظرة هي أقصر طريق لعدم رؤية الآخرين على الإطلاق."

قال ديكسترا: "نيكوديموس دي بوت."

أظهر ملك كوفير أسنانه البيضاء كالعاج في ابتسامة خفيفة: "تقريبًا، لكن ليس تمامًا. فيسجوتا من كورفو. فيلسوف وأخلاقي أقل شهرة، لكنه جيد جدًا. اقرأه، أوصي بذلك. لا بد أن هناك نسخة من كتابه في بلادك، لم تُحرق جميع الكتب بعد. لكن دعنا نعود إلى صلب الموضوع، إلى صلب الموضوع."

نظر الملك إليه بجدية وقال: "أنت، ديكسترا، تستخدم أيضًا الوسائل القاسية، المكر، الرشوة، الابتزاز، والتعذيب. لا ترمش حتى عند الحكم على شخص بالإعدام أو إصدار أمر اغتيال سري. حقيقة أنك تفعل كل هذا لصالح المملكة التي تخدمها بإخلاص لا تبررك، ولا تكسبك تعاطفي. لا على الإطلاق. كن على علم بذلك."

أومأ الجاسوس برأسه ليُظهر أنه فهم.

تابع إستيراد: "ولكنك، كما قلت، وغدٌ حقيقي. ولهذا السبب أنا أقدّرك وأحترمك، ولهذا منحتك هذه المقابلة الخاصة. لأنك، يا ديكسترا، رغم أنك أتيحت لك مرارًا فرصة جني الملايين، لم تفعل في حياتك شيئًا لمصلحتك الشخصية، ولم تسرق فلسًا واحدًا من خزينة الدولة. ولا حتى نصف فارتينغ. زوليبيكا، انظري! لقد احمرّ وجهه، أم أنني أتخيل ذلك؟"

رفعت الملكة رأسها عن تطريزها.

"عندما ترى لون التواضع، ستعرف شكل الصدق الحقيقي،" اقتبست من الكتاب المقدس، لكنها لاحظت أن وجه الجاسوس لم يحمل أدنى أثر لاحمرار.

قال إستيراد: "حسنًا، لننتقل إلى أمور أكثر جدية."

"لقد عبر البحر مدفوعًا بواجبه الوطني. ريدانيا، وطنه، في خطر. بعد الموت المأساوي للملك فيزيمير، يسودها الفوضى. تحكمها الآن عصبة من الحمقى الأرستقراطيين يُطلق عليهم مجلس الوصاية. هذه العصبة، يا زوليبيكا، لن تفعل شيئًا من أجل ريدانيا. في لحظة الخطر، سيفرّون أو سينبطحون كالكلاب، يلعقون الأحذية المرصعة باللؤلؤ لإمبراطور نيلفجارد."

"ديكسترا مكروه من قبل هذه العصبة، لأنه جاسوس، قاتل، ومتسلّق. لكنه هو من عبر البحر لإنقاذ ريدانيا. ليُثبت من هو الذي يهتم حقًا بمصيرها."

توقف إستيراد ثيسن ليلتقط أنفاسه، ثم عدّل قبعته التي انزلقت قليلًا على جبينه.

ثم قال: "حسنًا، ديكسترا، ما الذي يعصف بمملكتك؟ باستثناء نقص المال، أعني؟"

كان وجه الجاسوس جامدًا كالصخر وهو يجيب: "باستثناء نقص المال؟ لا شيء، الجميع بخير، شكرًا لسؤالك."

أومأ الملك وهو يعيد ضبط قبعته مرة أخرى على رأسه.

"آه. أفهم وأُثني على الفكرة. عندما تملك المال، يمكنك شراء علاج لكل داء. المهم هو أن تملك المال. وأنت لا تملكه. لو كنت تملكه، لما كنت هنا. هل تحليلي دقيق؟"

"لا اعتراض."

"ومِن باب الفضول، كم تحتاج؟"

"ليس كثيرًا. مليونًا فقط."

"ليس كثيرًا؟" قال إستيراد، وهو يقوم بحركة مبالغ فيها، قابضًا على قبعته بكلتا يديه. "هذا ليس كثيرًا؟ آه، آه!"

تمتم الجاسوس: "بالنسبة لجلالتك... هذا المبلغ مجرد فتات..."

"فتات؟" أطلق الملك قبعته ورفع يديه نحو السقف. "آه، آه! مليون هو فتات؟ هل سمعتِ ما قاله، زوليبيكا؟ هل تعلم، ديكسترا، أن مليونًا ومليونًا آخر يصبحان معًا مليونين؟ أفهم أنكم أنتِ وفيليبا إيلهارت تسابقان الزمن لبناء دفاع ضد نيلفجارد، لكن ماذا تنويان؟ شراء نيلفجارد بأكملها؟"

لم يجب ديكسترا. واصلت زوليبيكا الحياكة بحماسة. أما إستيراد، فراح يتظاهر بأنه معجب بالحورية العارية المرسومة على السقف.

"اتبعني." وقف فجأة وأشار للجاسوس برأسه.

اتجها معًا نحو لوحة ضخمة تُظهر الملك جيدوفياس جالسًا على حصان رمادي، ممسكًا صولجانًا عسكريًا يشير به إلى شيء خارج إطار اللوحة، ربما في الاتجاه الصحيح.

أخرج إستيراد من جيبه عصا صغيرة مذهّبة، ولمس بها إطار اللوحة، مرددًا تعويذة بصوت خافت. اختفى جيدوفياس وحصانه الرمادي، وظهرت في مكانهما خريطة العالم المعروف.

لمس الملك طرف الخريطة بالعصا، فتغير مقياس الرسم سحريًا، ليجلب إلى المقدمة وادي الياروغا والممالك الأربع.

قال مشيرًا: "الأزرق يمثل نيلفجارد."

ثم تابع: "الأحمر هو للممالك... أو بالأحرى، ما تبقى منها. ما الذي تحدّق فيه بحق الجحيم؟ انظر هنا!"

أبعد ديكسترا نظره عن اللوحات الأخرى التي كانت في معظمها تصور مشاهد بحرية وأحداثًا تتعلق بالملاحة البحرية وتساءل أي واحدة منها كانت تخفي الخرائط الأخرى الشهيرة لإستيراد تلك الخرائط التي تحتوي على المعلومات الاستخباراتية التجارية والعسكرية لكوفير والشبكة الكاملة من عمليات

الابتزاز والمخبرين المرتشين والاتصالات السرية والتخريب والاغتيالات المأجورة كان يعلم أن مثل هذه الخريطة موجودة وكان قد بحث عنها طويلًا دون نجاح.

قال إستيراد وهو يشير إلى الخريطة بسيفه الزيني الرفيع الأحمر هو ممالككم ثم كرر الأحمر هو ممالككم يبدو الأمر سيئًا أليس كذلك؟

سيئًا جدًا إعترف ديكسترا لنفسه فقد كان يقضي معظم وقته في التحديق في الخرائط الاستراتيجية لكنه أدرك الآن وهو ينظر إلى خريطة إستيراد أن الوضع بدا أسوأ مما تصوره سابقًا كانت المربعات الزرقاء تتخذ شكل فم تنين مفترس يبدو مستعدًا في أي لحظة للانقضاض وتمزيق المربعات الحمراء بأسنانه الحادة

نظر إستيراد حوله بحثًا عن شيء يمكن أن يستخدمه كمؤشر على الخريطة وأخيرًا استل سيفًا زينيًا رفيعًا ثم قال وهو يشير بالسيف إلى نقاط محددة نيلفجارد ثم بدأ درسه العسكري قائلاً:

"نيلفجارد هاجمت ليريا و إيدين كذريعة للحرب وذلك بالإعلان عن أن القلعة الحدودية في غليفيتزينغن تعرضت لهجوم لا يهمني أن أعرف من الذي هاجمها فعلًا أو كيف كان مظهره أو بأي تنكر كان كما أنني لا أرى فائدة في التساؤل عن عدد الأيام أو الساعات التي سبقت فيها تحركات إمير العسكرية في إيدين وتيميريا سأترك ذلك للمؤرخين ما يهمني أكثر هو الوضع الحالي وما سيحدث غدًا"

ثم أشار بالسيف إلى مناطق أخرى على الخريطة وقال:

"في الوقت الحالي قوات نيلفجارد متمركزة في دول أنغرا و إيدين وتتمتع بحماية من منطقة عازلة على شكل مملكة الجان المستقلة دول بلاثانا والتي تحد جزءًا من إيدين ذلك الجزء الذي قام الملك هنسلت من كيدوين إن أردنا التحدث مجازيًا بانتزاعه من فم إمير وأكله لنفسه"

لم يعلق ديكسترا على ذلك.

واصل إستيراد حديثه قائلاً سأترك أيضًا للمؤرخين مسألة الحكم الأخلاقي على تصرفات الملك هنسلت ولكن نظرة واحدة إلى الخريطة تكفي لتوضيح أنه بعد ضمه للمقاطعات الشمالية أصبح هنسلت يشكل حاجزًا يمنع إمير من التقدم نحو وادي بونتار وبذلك فهو يحمي الجناح الجنوبي لتيميريا ويحميكم أنتم أيضًا في ريدانيا وعليكم أن تشكروه.

"سأشكره،" تمتم ديكسترا، "لكن بصمت. في تريتوغور نستضيف الملك ديمافيند من إيدين، وديمافيند لديه رأي واضح جدًا حول السلوك الأخلاقي لهنسلت. وهو معتاد على التعبير عنه بكلمات قصيرة لكن مدوية".

أومأ ملك كوفير قائلاً: "يمكنني تخيل ذلك. دعنا نترك هذا جانبًا للحظة، ولننظر إلى الجنوب، إلى نهر الياروغا. عند مهاجمة دول أنغرا، أمّن إمير جناحه عبر توقيع معاهدة سلام منفصلة مع فولتيست من تيميريا. ولكن فور انتهائه من عملياته العسكرية في إيدين، خرق الإمبراطور المعاهدة دون أي اعتبار وهاجم بروغ وسودين بلا تردد.

"بهذه المعاهدة الجبانة، حصل فولتيست على أسبوعين من السلام. وبالتحديد، ستة عشر يومًا. واليوم هو السادس والعشرون من أكتوبر".

"هو كذلك".

"الوضع في السادس والعشرين من أكتوبر كالتالي: سودين وبروغ محتلتان. سقطت حصون ماينا ورازوان. هُزم جيش تيميريا في معركة ماريبور ودُفع شمالًا. ماريبور تحت الحصار. هذا الصباح، كانوا لا يزالون صامدين. ولكن الآن، نحن في المساء، ديكسترا".

"ماريبور ستصمد. نيلفجارد لم تتمكن من إحكام الطوق حولها".

"هذا صحيح. لقد توغلوا بعمق شديد داخل الأراضي الأجنبية، مما أدى إلى تمديد خطوط إمدادهم وترك جناحهم مكشوفًا بشكل خطير. قبل قدوم الشتاء، سيكونون مجبرين على فك الحصار والتراجع نحو الياروغا وتقليص جبهتهم. ولكن ماذا سيحدث في الربيع، ديكسترا؟ ماذا سيحدث عندما يبدأ العشب في الظهور من تحت الثلوج؟ تعال. انظر إلى الخريطة".

نظر ديكسترا.

"انظر إلى الخريطة،" كرر الملك. "سأخبرك بما سيفعله إمير فار إمريس في الربيع".

* * *

"مع حلول الربيع، ستبدأ هجومًا غير مسبوق،" أعلنت كارثيا فان كانتن وهي تعدل تجعيدات شعرها الذهبي أمام المرآة. "أوه، أعلم أن هذه المعلومة ليست اكتشافًا ثوريًا، ففي كل حلقة نميمة نسائية قروية يتحدثون عن الهجوم القادم."

كانت أسيري فار أناهيد في ذلك اليوم غاضبة جدًا ونفاد صبرها بلغ ذروته، لكنها تمكنت من ضبط نفسها ولم تسأل، كما رغبت بشدة، لماذا بحق الجحيم تستمع إلى هذه المعلومات التافهة. لكنها كانت تعرف كانتاريلا جيدًا. إذا بدأت كانتاريلا الحديث عن شيء ما، فلابد أن لديها أسبابًا وجيهة. وكانت استنتاجاتها عادة دقيقة وصحيحة.

قالت كانتاريلا: "لكنني أعلم أكثر بقليل من مجرد النميمة القروية. فاتير أخبرني بكل ما دار في الاجتماع مع الإمبراطور. بل إنه أحضر لي ملفًا مليئًا بالخرائط، وعندما غفا، ألقيت عليها نظرة بنفسي... هل أتابع؟"

ضيّقت أسيري عينيها وقالت: "بكل تأكيد. تابعي، عزيزتي."

قالت كانتاريلا: "اتجاه الهجوم الرئيسي سيكون، بالطبع، نحو تيميريا، نهر بونتار، نوفيغراد، فيزيما وإيلاندر. مجموعة الجيش المركزي، بقيادة مينو كويهورن، ستنفذ الضربة. أما الجيوش الجانبية فستكون مجموعة الجيش الشرقي، والتي ستهاجم من وادي بونتار في إيديرن وكيدوين..."

رفعت أسيري حاجبيها وسألت: "من كيدوين؟ هل هذا يعني نهاية الصداقة الهشة التي تم عقدها بمجرد تقسيم الغنائم؟"

فتحت كارثيا فان كانتن فمها قليلًا، بينما قالت بلهجة ثابتة، متناقضة تمامًا مع مظهرها الذي يشبه دمية خزفية:

"كيدوين تشكل تهديدًا للجناح الأيمن."

"الهجوم سيكون وقائيًا بطبيعته. ستتولى كتيبة من مجموعة الجيش الشرقي مهاجمة الملك هنسلت، وقطع أي إمكانية لتقديمه المساعدة لتيميريا."

"من الغرب،" تابعت الشقراء، "ستهاجم مجموعة عمليات فيردن، وستكون مهمتها السيطرة على سيداريس وفرض حصار على نوفيغراد، غورز فيلين، وفيزيما. هيئة الأركان تتوقع حصارًا طويل الأمد للمدن الثلاث."

قالت أسيري بلهجة مريبة: "لم تذكري أسماء قادة المجموعتين العسكريتين."

ابتسمت كانتاريلا وقالت: "مجموعة الجيش الشرقي بقيادة أردال أيب داحي، ومجموعة فيردن بقيادة يواكيم دي ويت."

رمشت أسيري بدهشة.

"مثير للاهتمام،" قالت بتأمل، "اثنان من النبلاء اللذين أُهينوا بسبب استبعاد بناتهم من خطط زواج إمير."

"إما أن إمبراطورنا ساذج جدًا... أو ذكي للغاية."

قالت كارثيا وهي تومئ برأسها: "إذا كان إمير يعلم شيئًا عن مؤامرة النبلاء، فلم يكن ذلك من فاتير. لأنه لم يخبره بشيء."

قالت أسيري: "تابعي."

قالت كارثيا بصوت هادئ لكنه ينضح بالأهمية: "لم يسبق في التاريخ تنفيذ عملية عسكرية بهذا الحجم.

بالمجمل، ومع احتساب الوحدات الأمامية والاحتياطية والخدمات المساندة والخطوط الخلفية، سيشارك في العملية أكثر من ثلاثمائة ألف جندي.

والجان، بالطبع."

سألت أسيري بحدة: "تاريخ بدء الهجوم؟"

"لم يُحدد بعد. المشكلة الأساسية تكمن في الإمدادات. والمشكلة في الإمدادات هي حالة الطرق. لا أحد يستطيع التنبؤ بموعد انتهاء الشتاء."

"وماذا أيضًا قال فاتير؟"

"اشتكى، المسكين،" قالت كانتاريلا وهي تومض بأسنانها في ابتسامة ساخرة. "لقد أهان الإمبراطور فاتير مرة أخرى ووبّخه أمام الجميع. السبب كان، مجددًا، الاختفاء الغامض لستيفان سكيلين وقسمه بالكامل.

إمير نعت فاتير علنًا بغير الكفء، وقال إنه رئيس لجهاز مخابرات يبدو أنه لا يُجيد سوى الدهشة أمام حالات الاختفاء، بدلًا من كونه هو من يُديرها.

ثم بنى على هذه الفكرة لعبة كلمات ساخرة، لم يستطع فاتير تكرارها بدقة.

بعد ذلك، سأل الإمبراطور مازحًا عما إذا كان هذا يعني وجود منظمة سرية أخرى داخل البلاد، مخفية حتى عنه.

إنه ماكر، إمبراطورنا. كان قريبًا جدًا من الحقيقة."

"قريبًا جدًا"، تمتمت أسيري. "وماذا بعد، كارثيا؟"

قالت كانتاريلا: "العميل الذي وضعه فاتير داخل مجموعة سكيلين، والذي اختفى معه، كان يُدعى نيراتين سيكا. يبدو أن فاتير كان يُقدّره كثيرًا، لأنه كان غاضبًا بشدة من اختفائه."

وأنا أيضًا، فكّرت أسيري، غاضبة من اختفاء جيدياه ميكيسر.

لكنني، على عكس فاتير دي ريدو، سأعرف قريبًا ما الذي حدث.

"وماذا عن ريينس؟ هل حاول فاتير التواصل معه مرة أخرى؟"

"لا أظن ذلك. لم يذكره فاتير على الإطلاق."

ساد الصمت للحظة. لم يكسره سوى صوت هرّة أسيري وهي تخرخر بصوت عالٍ.

قالت كانتاريلا: "سيدتي أسيري."

"نعم، كارثيا؟"

"هل عليّ أن أستمر في لعب دور العاشقة الساذجة لفترة أطول؟ أريد العودة إلى المدرسة، أريد أن أكرّس نفسي للأبحاث العلمية..."

قاطعتها أسيري بلهجة قاطعة: "قريبًا. القليل بعد. تحمّلي، يا فتاة."

تنهدت كانتاريلا.

أنهتا المحادثة وودّعتا بعضهما. قفزت قطة أسيري فار أناهيد من فوق الكرسي، بينما عادت هي لقراءة الرسالة التي تلقتها من فرينجيلا فيغو، التي كانت في توسان. بقيت غارقة في أفكارها.

كانت تلك الرسالة سبب اضطرابها، فقد شعرت أنها تخفي بين سطورها شيئًا ذا أهمية لم تتمكن بعد من فك شفرته.

كان الوقت متأخرًا، بعد منتصف الليل بكثير، حينما قامت أسيري فار أناهيد، الساحرة النيلفجاردية، بإعداد الميغاسكوب، ثم أنشأت اتصالًا سحريًا مع قلعة مونتكالفو في ريدانيا.

ظهرت فيليبا إيلهارت على الطرف الآخر مرتدية ثوب نوم قصيرًا ذو حمالات رفيعة، وكان على وجهها وعنقها آثار أحمر شفاه.

بذلت أسيري مجهودًا كبيرًا في كبت تعبير الاشمئزاز الذي كاد يظهر على وجهها.

لن أفهم هذا أبدًا.

ولا أريد أن أفهم.

قالت بصوت جاف: "هل يمكننا التحدث بحرية؟"

حركت فيليبا يدها في إيماءة واسعة، ثم أحاطت نفسها بدائرة سحرية للحفاظ على الخصوصية.

"الآن، نعم."

قالت أسيري، بصوت جاد وجاف:

"لدي معلومات. بحد ذاتها، ليست بالأمر الثوري، مجرد نميمة من فلاحات يتحدثن حول بئر. ولكن..."

* * *

كلُّ ريدانيا" قال إستيراد ثيسن، وهو يُحدِّق في خريطته، "يمكنها في هذه اللحظة تجنيد خمسةٍ وثلاثين ألفَ جنديٍّ نظاميٍّ، من بينهم أربعةُ آلافِ فارسٍ ثقيلِ التَّدريع، بالطَّبع، هذه أرقامٌ تقريبيَّةٌ."

أومأ ديكسترا برأسه، فقد كان الرَّقمُ دقيقًا إلى حدٍّ كبيرٍ.

قال الملكُ: "كان لدى ديمافيند وميبف جيشٌ بهذا الحجم، إمير سحقه خلال ستَّةٍ وعشرين يومًا.

الشَّيءُ نفسهُ سيحدثُ لجيوشِ ريدانيا وتيميريا، إنْ لم تحصلْ بسرعةٍ على تعزيزاتٍ. أنا أُؤيِّدُ فكرتك، ديكسترا، فكرتك وفكرة فيليبا إيلهارت، أنتما بحاجةٍ إلى الجنودِ. بحاجةٍ إلى سلاحِ فرسانٍ متمرِّسٍ، مُدرَّبٍ جيدًا، ومُجهَّزٍ بشكلٍ ممتازٍ. بحاجةٍ إلى الخيولِ، وبحاجةٍ إلى أكثرَ من مليونِ لينتار."

أومأ الجاسوس، مؤكِّدًا أنَّ هذه الحساباتِ لا جدالَ فيها.

تابع الملكُ بلهجةٍ جافَّةٍ:

"لكن، كما لا شكَّ أنَّك تعلمُ، ديكسترا، فإنَّ كوفير كانت دائمًا وستظلُّ مُحايدةً. هناك معاهدةٌ تربطُنا بإمبراطوريَّة نيلفجارد، وقَّعها جَدِّي، إستيريل ثيسن، مع الإمبراطور فيرغوس فار إمريس. نُصوصُ المعاهدةِ لا تسمحُ لكوفير بدعمِ أعداءِ نيلفجارد بأيِّ مساعدةٍ عسكريَّةٍ، لا بالأموالِ، ولا بالقوَّاتِ."

تنحنح ديكسترا وقال:

"عندما ينتهي إمير فار إمريس من ريدانيا وتيميريا، سينظرُ إلى الشَّمالِ. إمير لن يكتفي. قد لا يمرُّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تصبحَ معاهدتُك لا تساوي فلسًا واحدًا. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ منذ أن تحدَّثنا عن فولتيست من تيميريا، ذلك الذي لم تشترِ له معاهدتُه مع نيلفجارد سوى ستَّةَ عشرَ يومًا من السَّلامِ."

"يا عزيزي"، ابتسم إستيراد، "لا يمكنني، بضمير مرتاح، قبول مثل هذه الحجج.

المعاهداتُ كالزواج: لا يمكنك الدخولُ فيه وأنت تفكِّرُ في احتماليَّةِ الخيانةِ، فلا مجالَ للشُّكوك.

وأولئك الذين لا يحبُّون ذلك، فلا ينبغي لهم الزَّواجُ أصلاً، لكنني أعترفُ بأنَّ الخوفَ من العهود هو عذرٌ سخيفٌ ومثيرٌ للشفقةِ للامتناعِ القسريِّ عن الزَّواجِ.

وأمَّا عهود الزَّواجِ، فلا ينبغي التَّفكيرُ فيها بسؤالِ "ماذا لو"... طالما أنَّه لا توجدُ عهود، فلا داعيَ للحديثِ عنها، وإذا وُجدت، فلا يُتحدَّثُ عنها أبدًا.

وبما أنَّنا نتحدَّثُ عن الزواج، كيف حالُ زوجِ الجميلةِ ماري، الماركيز دي ميرسي، وزيرُ الماليَّةِ في ريدانيا؟"

قال ديكسترا، وهو ينحني بانضباطٍ:

"جلالتكم يملكُ مخبرين يُحسدُ عليهم."

أقرَّ الملكُ قائلاً:

"بكلِّ تأكيدٍ، لديَّ ذلك. ستُدهشُ إن علمتَ بعددِهم وشرفِهم. ولكنَّك أيضًا، ينبغي ألا تخجلَ من مخبريك. أولئكَ الذين لديكَ في قصوري هنا وفي بونت فانيس. أقسمُ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يستحقُّ أرفعَ الأوسمة."

لم يطرف ديكسترا بعينٍ.

واصل إستيراد حديثه، وهو يُحدِّقُ في النَّسوة العارياتِ المرسوماتِ على السَّقفِ:

"إمير فار إمريس أيضًا يملكُ بعض العملاءِ الجيدين، الراسخين في مواقعهم. لهذا، أكرِّرُ—لأسبابِ المصلحةِ العامَّةِ، حيادُ كوفير هو المبدأُ الأساسيُّ وفقًا لقاعدةِ (pacta sunt servanda). كوفير لا تنتهكُ المعاهدات. كوفير لا تنتهكُها، حتَّى ولو كان ذلك تحسُّبًا لانتهاكِ الطَّرفِ الآخرِ لها أو استباقًا له."

قال ديكسترا:" أجرؤ على الملاحظة أن ريدانيا لا تحث كوفير على خرق المعاهدة ريدانيا لا تسعى بأي شكل من الأشكال إلى تحالف عسكري أو مساعدة من كوفير ضد نيلفجارد ريدانيا ترغب فقط في اقتراض مبلغ صغير من المال سيتم إعادته"

قاطعه الملك قائلًا: "أنا لا أرى كيف ستعيدونه لأننا لن نقرضكم فلسًا واحدًا وفر علي هذه المناورات المنافقة ديكسترا فأنت عالق مثل مريلة على عنق ذئب هل لديك أي حجج أخرى جادة ذكية أو دقيقة"

"أخشى أن لا"

قال إستيراد ثيسن بعد صمت قصير: "لديك حظ جيد أنك أصبحت جاسوسًا ففي التجارة لم تكن لتنجح أبدًا".

* * *

منذ أن بدأ العالم، كان جميع الأزواج الملكيين يملكون غرف نوم منفصلة، وكان الملوك — وبترددات متفاوتة — يزورون غرف الملكات، وفي بعض الحالات كانت الملكات تفاجئ الملوك بزيارة حجراتهم. ثم يعود كل منهما إلى مخدعه وسريره الخاص.

لكن الزوجين الملكيين في كوفير كانا استثناءً لهذه القاعدة. إذ كان إستيراد ثيسن وزوليبيكا ينامان دائمًا معًا، في غرفة واحدة، على سرير ضخم تعلوه مظلة هائلة.

قبل النوم، كانت زوليبيكا ترتدي نظارتها، أمرٌ كانت تخجل من إظهاره أمام رعاياها، وتقرأ من الكتاب المقدس. أما إستيراد ثيسن، فكان يتحدث كعادته.

لم تكن هذه الليلة مختلفة. ارتدى إستيراد قبعته الليلية، وأمسك بصولجانه، فقد كان يحب أن يحمله ويلهو به، لكنه لم يفعل ذلك أمام العامة، خوفًا من أن يصفه رعاياه بالمتعجرف.

قال: "تعلمين، يا زوليبيكا، في الآونة الأخيرة راودتني أحلام غريبة. رأيت أمي عدة مرات، واقفة فوقي، تردد قائلة: 'لدي زوجة لتانكريد، لدي زوجة لتانكريد'. ثم تشير إلى فتاة جميلة، لكنها شابة جدًا. هل تعرفين من تكون، زوليبيكا؟ سيري، حفيدة كالانثي. هل تذكرين كالانثي، زوليبيكا؟"

قالت: "بالطبع أتذكر، يا زوجي."

تابع إستيراد وهو يعبث بصولجانه: "سيريلا من سينترا، يُقال إنها قد اختيرت لتكون زوجة إمير من نيلفجارد. نية الإمبراطور فاجأت الجميع... كيف بحق الجحيم يمكن أن تصبح زوجة تانكريد؟"

قالت بصوتها الهادئ، كما تفعل دائمًا عند الحديث عن ابنها: "ولدُنا تانكريد بحاجة إلى امرأة. ربما لو استقر..."

تنهد إستيراد قائلاً: "ربما، رغم أنني أشك في ذلك. على أي حال، الزواج يظل احتمالًا قائمًا. هممم... هذه سيري... ها! كوفير وسينترا. مصب الياروغا! يبدو الأمر جيدًا. زواجٌ ليس سيئًا... تحالفٌ ليس سيئًا... لكن إذا كان إمير قد وضع عينه على الفتاة الصغيرة... فقط، لماذا ظهرت لي في أحلامي؟ لماذا بحق الشيطان راودني هذا الهراء؟"

أضاف بعد لحظة صمت، كأنه يكلم نفسه: "عند الاعتدال، تتذكرين، استيقظتُ حينها أيضًا... بررر، يا له من كابوس، من الجيد أنني لا أذكر تفاصيله... هممم... هل أستدعي منجمًا؟ عرافًا؟ وسيطًا روحانيًا؟"

قالت زولبيكا وهي تقلّب صفحات الكتاب المقدس: "ليدي شيلا دي تانزرفيل موجودة في لان إكسيتر."

قطّب الملك حاجبيه وقال: "لا، لا أريد تلك الساحرة. ذكية أكثر مما ينبغي. إنها تتحول إلى فيليبا إيلهارت أخرى! هؤلاء النسوة الحكيمات تفوح منهن رائحة السلطة الزائدة، لا يمكن منحهن امتيازات أو ثقة زائدة."

قالت: "كما هو الحال دائمًا، أنت محق، يا زوجي."

زمجر الملك قليلاً وقال: "هممم... لكن هذه الأحلام..."

قالت زولبيكا وهي تتابع القراءة: "الكتاب المقدس يقول إنه عندما ينام البشر، تفتح الآلهة آذانهم وتتكلم. أما النبي ليبيودا، فيعلّمنا أنه عندما يرى الإنسان حلمًا، فهو يرى إما حكمة عظيمة أو حماقة عظيمة. الأهم هو معرفة الفرق بينهما."

تنهد إستيراد قائلاً: "زواج تانكريد من العروس الموعودة لإمير لا يبدو حكمة عظيمة.

وبالحديث عن الحكمة، سأكون سعيدًا لو جاءتني في المنام.

إنها المسألة التي جاء من أجلها ديكسترا. إنها قضية صعبة.

لأنك تعلمين، يا زولبيكا العزيزة، ليس هناك سبب يدعو للفرح حين يكون نيلفجارد على وشك الزحف شمالًا لغزو نوفيغراد في أي لحظة.

من نوفيغراد، كل شيء يبدو مختلفًا، حيادنا يختلف من منظور الجنوب البعيد.

سيكون من الجيد لو استطاعت ريدانيا وتيميريا احتواء تقدم نيلفجارد، ودفع الهجوم إلى الوراء نحو الياروغا.

لكن، هل من الصواب أن يحدث ذلك بأموالنا؟

هل تسمعينني، عزيزتي؟"

قالت زوليبكا دون أن ترفع عينيها عن الكتاب: "أسمعك، يا زوجي."

قال الملك، وهو يعبث بالصولجان: "وماذا تقولين؟"

قالت، وهي تقلب صفحة: "كل الحكمة موجودة في الكتاب المقدس."

زمجر الملك قائلاً: "وهل يقول كتابك المقدس إن ديكسترا سيزورنا طالبًا مليون لينتار؟"

قالت زوليبكا، وهي ترمش من خلف نظارتها: "الكتاب لا يقول شيئًا عن المال غير المستحق.

لكنه في أحد مقاطعه يقول إن العطاء أعظم من الأخذ، وإن مساعدة الفقراء بالصدقة أمر نبيل.

يقول—"أعطوا الجميع، فذلك يسمو بأرواحكم"."

تمتم إستيراد ثيسن بتهكم: "والولائم العظيمة تملأ القبور.

زوليبكا، بعيدًا عن المقاطع التي تتحدث عن السمو الروحي، هل يذكر الكتاب شيئًا عن الأعمال والتجارة؟

ماذا يقول الكتاب، على سبيل المثال، عن تبادل المنافع المتكافئ؟"

عدّلت الملكة زوليبكا نظارتها، وبدأت بتقليب صفحات الكتاب المقدس بسرعة.

قالت، وهي تقرأ بصوت هادئ: "وأعطوا يعقوب كلَّ الآلهة الغريبة، فخبَّأها يعقوب."

ظل إستيراد صامتًا لفترة طويلة، ثم قال أخيرًا: "أو ربما... شيء آخر؟"

عادت زوليبكا إلى البحث في الكتاب المقدس.

قالت بعد لحظات، وقد رفعت عينيها عن الصفحة: "وجدتُ شيئًا من حكمة النبي ليبيودا، هل أقرأه؟"

قال الملك، وهو ينظر إليها باهتمام: "تفضّلي."

قالت زوليبكا بصوت ثابت: "ويقول النبي ليبيودا: أجل، أعطِ الفقير بوفرة. ولكن بدلًا من أن تعطي الفقير البطيخة كاملة، أعطه نصف بطيخة، فسيرى فيها حظًا عظيمًا."

قهقه إستيراد ثيسن بسخرية، وقال: "نصف بطيخة؟ تقصدين نصف مليون لينتار؟ هل تعلمين، زوليبيكا، أن امتلاك نصف مليون، وعدم امتلاك نصف مليون، في النهاية يساوي مليونًا كاملًا؟"

نظرت إليه الملكة زوليبيكا نظرة صارمة من فوق نظارتها، وقالت بتوبيخ: "لم تدعني أنهي كلامي."

ثم تابعت القراءة: "ويواصل النبي ليبيودا: بل من الأفضل أن تعطي الفقير ربع بطيخة. والأفضل من ذلك كله أن تجعل شخصًا آخر يعطي الفقير بطيخة.

لأنني أقول لكم، إنه سيكون هناك دائمًا من يملك بطيخة، وهو مستعد لإعطائها للفقير إن لم يكن بدافع الكرم، فبدافع الحسابات لأسباب أخرى تمامًا."

صرخ ملك كوفير بفرح، وهو يضرب صولجانه على الطاولة الجانبية: "هاه! لقد كان النبي رجلًا ذكيًا بحق!"

"أن أرتّب الأمر بحيث يُعطي شخصٌ آخر بدلًا عني؟ تعجبني هذه الفكرة! كلمات ذهبية بالفعل!"

ثم نظر إلى زوجته وقال: "ابحثي أكثر، يا زوليبيكا، في حكمة هذا النبي، أنا متأكد من أنكِ ستجدين شيئًا آخر يساعدني على حل مشكلتي مع ريدانيا... والجيش الذي تريد ريدانيا أن تُنظّمه بأموالي!"

قلبت زوليبيكا صفحات الكتاب المقدس لبعض الوقت، حتى وجدت ما تبحث عنه، ثم بدأت تقرأ:

"ذات يوم، جاء أحد تلاميذ النبي ليبيودا إليه، وقال: 'أرشدني، أيها المعلم، ماذا أفعل؟ جاري يريد كلبي المفضل. إن أعطيته إياه، سينفطر قلبي حزنًا. وإن لم أعطه إياه، فسيحزن، لأن رفضي سيؤذيه. ماذا علي أن أفعل؟'

فسأله النبي: 'هل لديك شيء تحبه أقل من كلبك العزيز؟'

أجاب التلميذ: 'نعم، أيها المعلم، لدي قطة ضالة، حيوان شرير، لم أحبه يومًا.'

فقال النبي ليبيودا: 'خذ قطتك الضالة، وامنحها لجارك. ففي هذه الحالة، ستجد السعادة مرتين؛ ستتخلص من القطة، وسيفرح جارك. لأن الجار، في أغلب الأحيان، لا يسعد كثيرًا بالهدية نفسها، بقدر ما يسعد لمجرد أنه قد حصل على هدية.'"

ظل إستيراد صامتًا لبعض الوقت، جبينه متجعدٌ في تفكير عميق.

ثم قال أخيرًا: "زوليبيكا؟ هل هذا هو نفس النبي؟"

قالت زوليبيكا، وهي تكرر الجملة: "خذ القطة الضالة..."

صرخ الملك، وقد قاطعها بنفاد صبر: "سمعتُها أول مرة!" لكنه سرعان ما استعاد هدوءه، ثم تمتم معتذرًا: "اغفري لي، يا عزيزتي، لكنني لا أفهم... ما علاقة القطط بكل هذا؟"

ثم صمت، وغرق في تفكير عميق.

* * *

بعد مرور خمسة وثمانين عامًا، تغيّرت الأحوال لدرجة أن الناس صار بإمكانهم الحديث عن أمور معينة دون خوف، وأصبح بإمكانهم الحديث عن غيسكارد فيرمولين، دوق كريدن، حفيد إستيراد ثيسن، وابن غاوديموندا، ابنته الكبرى.

كان الدوق غيسكارد رجلاً مسنًا، وقد غزا الشيب رأسه، لكنه لا يزال يتذكر جيدًا الأحداث التي شهدها في شبابه.

كان غيسكارد هو من كشف مصدر المليون لينتار التي استخدمها الريداينيون لتجهيز سلاح فرسانهم في الحرب ضد نيلفجارد.

لم يأتِ هذا المليون، كما كان متوقعًا، من خزينة كوفير، بل من خزائن نوفيغراد نفسها.

كشف إستيراد ثيسن، بحسب رواية غيسكارد، أنه حصل على المال من نوفيغراد مقابل مشاركتها في شركات تجارية بحرية جديدة تم تأسيسها حديثًا.

المفارقة أن تلك الشركات قد تم إنشاؤها بتعاون مباشر مع تجار نيلفجارديين.

وبذلك، أظهرت إفادات الدوق العجوز أن نيلفجارد — وبطريقة غير مباشرة — ساهمت في تمويل الجيش الريدايني.

قال غيسكارد فيرمولين، وهو يتذكر كلام جده:

"قال جدي شيئًا عن البطيخ، وهو يبتسم بمكر. قال إنه سيكون هناك دائمًا من يريد أن يُعطي الفقراء، حتى لو كان ذلك بدافع الحسابات والمصالح.

كما قال إن نيلفجارد، ما دامت تساهم بنفسها في تقوية الجيش الريدايني، فلا يمكنها أن تشتكي من أن آخرين يفعلون الشيء ذاته."

ثم تابع العجوز حديثه قائلاً:

"استدعى جدي والدي، الذي كان حينها رئيس الاستخبارات ووزير الداخلية. وعندما علم بالأوامر التي صدرت له، أصيب بالذعر الشديد. كانت الأوامر تقضي بالإفراج عن أكثر من ثلاثة آلاف شخص من السجون، ومعسكرات الاعتقال، والمنفى. بالإضافة إلى ذلك، كان يجب رفع الإقامة الجبرية عن مئات آخرين."

قال الدوق، وهو يهز رأسه متذكِّرًا:

"لم يكن الأمر يتعلق فقط باللصوص والمجرمين العاديين والمرتزقة المأجورين. بل شملت العفو جميع المعارضين السياسيين. من بين أولئك الذين شملهم العفو، كان هناك أيضًا أنصار الملك المغتصب المخلوع رايد. كان وزير الداخلية مذهولًا وقلقًا بشدة بشأن قرار والده."

ثم ضحك الدوق، وهو يتابع:

"لكن جدي، في تلك اللحظة، انفجر ضاحكًا وكأنه يستمع إلى نكتة رائعة. ثم قال، وأتذكر كلماته حرفيًا: 'إنه لمن العار، أيها السادة، أنكم لا تملكون مثل هذا الكتاب الممتع قبل النوم كما هو الكتاب المقدس. لو كنتم تفعلون، لفهمتم أفكار ملككم. والآن، ستنفذون أوامركم دون أن تفهموا معناها. لكن لا تقلقوا بلا داعٍ، ملككم يعلم تمامًا ما يفعله. والآن، اذهبوا وأطلقوا سراح جميع قططي الضالة، وكل تلك الآفات الشريرة.'"

"هذا ما قاله، قطط ضالة وآفات شريرة.

وهكذا كان، لم يكن أحد يعلم آنذاك أنهم سيصبحون في المستقبل أبطالًا وقادة عسكريين، يتوجون بالمجد والشهرة.

تلك "القطط" التي أطلقها جدي أصبحت فيما بعد أشهر قادة المرتزقة—آدم "أديو" بانغرادت، ولورنزو مولا، وخوان "فرونتينو" غوتيريز... وجوليا أباتيماركو، التي اشتهرت في ريدانيا باسم "بريتي كيتي"...

تنهد غيسكارد فيرمولين وهو يتابع حديثه:

"أنتم الشباب لا تتذكرون، ولكن في زماني، عندما كنا نلعب الحرب، كان كل طفل يريد أن يكون أديو بانغرادت، وكل فتاة تريد أن تكون جوليا "بريتي كيتي"...

وبالنسبة لجدي، فقد كانوا مجرد قطط ماكرة."

ثم همس العجوز، وكأنه غارق في ذكرياته:

"ثم أخذني جدي بيدي، وقادني إلى الشرفة، حيث كانت جدتي زولييكا تطعم النوارس. نظر إليها جدي، ثم قال... قال..."

حاول غيسكارد أن يتذكر، ببطء وبجهد، الكلمات التي قالها إستيراد ثيسن لزوجته الملكة زولييكا قبل خمسة وثمانين عامًا، على شرفة قصر إنسنادا، المرتفعة فوق القناة الكبرى.

وأخيرًا، قال العجوز بصوت مرتجف:

"أتعلمين، يا زوجتي العزيزة، لقد وجدتُ حكمةً أخرى من النبي ليبيودا؟

حكمةً ستمنحني أفضليةً حتى بعد أن منحتُ "قططي" لريدانيا. القطط، يا زولييكا، تعود دائمًا إلى ديارها. القطط... دائمًا تعود إلى المنزل. وعندما تعود قططي، وهي تحمل أجورها، وغنائمها، وثرواتها... سأفرض الضرائب على تلك القطط!""

* * *

عندما تحدث الملك إستيراد ثيسن مع ديكسترا للمرة الأخيرة، فعل ذلك وحده، دون حتى وجود زولييكا.

كان هناك طفل في العاشرة من عمره يجلس على أرضية قاعة الرقص الضخمة، لكنه لم يكن يُحسب، لأنه كان مشغولًا جدًا بلعبه مع جنوده المصنوعين من الصفيح، ولم يُعر أي انتباه للمحادثة.

قال إستيراد وهو يشير إلى الطفل بإيماءة من رأسه:

"هذا هو غيسكارد، حفيدي، ابن غاوديموندا وذلك الوغد، دوق فيرمولين. لكن هذا الصغير، غيسكارد، هو الأمل الوحيد لكوفير، إذا حدث شيء ما لـ تانكريد ثيسن... إذا حدث شيء لـ تانكريد..."

كان ديكسترا يعلم بالفعل ما هي مشكلة كوفير وما هي مشكلة إستيراد الشخصية.

كان يعلم أن شيئًا ما قد حدث بالفعل لـ تانكريد.

لو كان الصبي يملك أي موهبة تؤهله ليكون ملكًا، فستكون فقط موهبة أن يكون ملكًا سيئًا.

قال إستيراد، وهو يغير الموضوع فجأة:

"أما عن عملك، فقد تم ترتيبه بالكامل تقريبًا. يمكنك الآن البدء في إعادة التفكير بكيفية استخدام مليون لينتار بأقصى فاعلية، والتي ستجد قريبًا طريقها إلى خزينة تريتوغور."

انحنى، والتقط أحد الجنود المصنوعين من الصفيح، فارسًا يحمل سيفًا مرفوعًا، وحدّق به بصمت.

قال إستيراد ثيسن وهو يناول ديكسترا الجندي الصفيحي:

"خذ هذا، واحتفظ به جيدًا. الشخص الذي سيُريك الجندي الثاني، المطابق له تمامًا، سيكون رسولي، بغض النظر عن مظهره. لكن لا تثق بأي شخص من رجالي الذين يعرفون بأمر المليون. أي شخص آخر سيكون مجرد مُحرِّض، وعليك أن تتعامل معه على هذا الأساس."

انحنى ديكسترا باحترام، وقال:

"ريدانيا لن تنسى هذا، يا جلالة الملك. وأنا، باسمها، أودّ أن أعبّر عن امتناني الشخصي."

لوّح الملك بيده قائلاً:

"لا حاجة للامتنان، بل أحضر لي ذلك الألف الذي كنت تنوي به كسب ودّ وزيري. ماذا، ألا يستحق ودّ الملك نفسه رشوة؟"

قال ديكسترا متلعثمًا:

"جلالتك، لقد تم تخفيض المبلغ إلى..."

ضحك إستيراد وقال:

"تخفيض؟ أراهن أنه خُفِّض بالفعل. أحضر لي المال، ديكسترا. فكما تعلم، أن تمتلك ألفًا وألفًا..."

أكمل ديكسترا وهو يتنهد:

"يُصبحان ألفين. أعلم."

* * *

في جناح بعيد من إنسينادا، داخل غرفة أصغر بكثير، كانت الساحرة شيلا دي تانزرفيل تُنصت بتركيز وجدية إلى شهادة الملكة زولييكا.

انحنت شيلا برأسها قليلًا وقالت: "مثالي. مثالي، يا جلالة الملكة."

قالت زولييكا بصوت ثابت: "لقد فعلتُ كل شيء كما نصحتِني، يا ليدي شيلا."

قالت الساحرة بلهجة رسمية: "أشكركِ على ذلك. وأؤكد لكِ مرة أخرى أننا نعمل من أجل قضية عادلة. من أجل البلاد. ومن أجل السلالة الحاكمة."

تنحنحت الملكة زولييكا قليلًا، وكان هناك تغيير طفيف في صوتها حين قالت:

"و... وتانكريد، يا ليدي شيلا؟"

قالت شيلا دي تانزرفيل بصوت بارد: "لقد أعطيتُ كلمتي. لقد وعدتُكِ بأنني سأردُّ جميل مساعدتكِ بمساعدتي. جلالتكِ يمكنها أن تنام بسلام."

قالت زولييكا بنبرة تحمل شيئًا من الأمل: "أتمنى ذلك كثيرًا. بكل قلبي. وبما أننا نتحدث عن الأحلام... الملك بدأ يشك في شيء ما. تلك الأحلام تفاجئه، وعندما يُفاجَأ الملك، يبدأ بالشك..."

قالت شيلا بنبرة واثقة: "سأتوقف عن إلهامه بالأحلام لفترة. لكن دعينا نعود إلى نوم الملكة، وأكرر، يجب أن يكون نومًا هادئًا. الأمير تانكريد سيتم إبعاده عن الصحبة السيئة. لن يزور بعد الآن قلعة البارون سوركراتاس. ولا منزل الليدي دي ليزمور. ولا حتى السفراء الريدايانيين."

شهقت زولييكا وقالت بقلق: "لن تكون هناك أي زيارات لهؤلاء الأشخاص؟ أبدًا؟"

تلألأت عينا شيلا دي تانزرفيل بنظرة غامضة وهي تقول:

"الأشخاص الذين ذكرتِهم لن يجرؤوا بعد الآن على دعوة الأمير تانكريد أو إغرائه بأي شكل من الأشكال. لن يجرؤوا أبدًا. إنهم يدركون العواقب تمامًا. أضمن لكِ ذلك. وأضمن لكِ أيضًا أن الأمير تانكريد سيعود إلى دراسته وسيكون طالبًا مجتهدًا، شابًا جادًا ومتزنًا. سيتوقف عن ملاحقة النساء. ستختفي تلك النزعة منه... حتى يحين الوقت الذي نقدمه فيه إلى سيري، أميرة سينترا."

وضعت زولييكا يديها معًا وقالت بدهشة: "لا أستطيع تصديق ذلك... لا أستطيع تصديقه."

ابتسمت شيلا دي تانزرفيل لنفسها بشكل غير متوقع وقالت بصوت هادئ:

"قوة السحر، يا جلالة الملكة، أحيانًا يصعب تصديقها. وهذا بالضبط كما ينبغي أن يكون."

* * *

عدّلت فيليبا إيلهارت حمالات ثوب نومها الشفاف، ومسحت أحمر الشفاه القرمزي عن عنقها.

كم هي امرأة حكيمة، فكرت شيلا دي تانزرفيل باستياء طفيف، ومع ذلك، لا تعرف كيف تتحكم في هرموناتها.

قالت بصوت هادئ: "هل يمكننا التحدث؟"

أحاطت فيليبا نفسها بدائرة سحرية للحفاظ على الخصوصية.

قالت بنبرة حازمة: "يمكننا الآن."

قالت شيلا بثقة: "كل شيء تم ترتيبه في كوفير. وبشكل إيجابي."

قالت فيليبا بإيماءة خفيفة: "أشكركِ. هل أبحر ديكسترا بالفعل؟"

قالت شيلا دي تانزرفيل وهي تضغط شفتيها: "ليس بعد."

قطّبت فيليبا حاجبيها وقالت: "ماذا ينتظر؟"

قالت شيلا بصوت متحفظ: "إنه يخوض محادثة طويلة مع إستيراد ثيسن."

ثم أضافت بسخرية: "لقد وجدا أرضية مشتركة، الملك والجاسوس، الشك يوحّدهما."

* * *

"هل تعرف تلك النكتة عن الطقس هنا، ديكسترا؟ أن كوفير لديها فقط موسمان..."

قال ديكسترا وهو يتنهد: "الشتاء والصيف. أعلم..."

قال إستيراد بابتسامة ماكرة: "هل تعرف كيف يمكنك معرفة أن الصيف قد بدأ في كوفير؟"

نظر ديكسترا إليه بتشكك وقال: "لا. كيف؟"

قال الملك وهو يضحك: "المطر يصبح أكثر دفئًا بعض الشيء."

قال ديكسترا بفتور: "ها، ها."

لكن إستيراد ثيسن استعاد جديته وقال بصوت متأمل: "النكات تبقى نكاتًا، لكن هذه الفصول الشتوية التي تأتي بسرعة، وتصبح أطول، تجعلني أشعر بعدم الارتياح. لقد تم التنبؤ بذلك. هل قرأت نبوءة إيثلين؟ أعتقد أنها تذكر أن عقدًا من الشتاء الذي لا ينتهي يقترب. البعض يجادل بأنها مجرد استعارة، لكنني أمتلك مخاوف معينة. في كوفير، مررنا ذات مرة بأربعة أعوام من الشتاء المتواصل، طقس سيئ، محاصيل فقيرة. لولا الاستيراد الضخم للطعام من نيلفجارد، لكان الناس قد بدأوا في المجاعة. هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟"

قال ديكسترا بصدق: "بصراحة، لا."

قال إستيراد وهو يتأمل: "أما أنا فأستطيع. في المناخ المتجمد، يمكننا جميعًا أن نجوع. الجوع هو العدو، وهو عدو يصعب خوض الحرب معه."

أومأ الجاسوس بتفكير عميق.

قال الملك، وهو ينظر إليه بتمعن: "ديكسترا؟"

قال الجاسوس على الفور: "جلالتك؟"

قال إستيراد وهو يميل قليلاً إلى الأمام: "هل تجد السلام في الريف؟"

قال ديكسترا وهو يهز كتفيه: "ليس كثيرًا. لكنني أحاول."

قال إستيراد وهو يراقبه عن كثب: "أعلم أن هناك حديثًا كثيرًا حول هذا الموضوع. من بين أولئك الذين خانوا في ثانيد، لم يبقَ حيًا سوى فيلغيفورتز."

قال ديكسترا بلهجة هادئة ولكن حادة: "بعد وفاة ينيفر، نعم.

هل تعلم، جلالتك، أن ينيفر قد قُتلت؟ لقد ماتت في اليوم الأخير من أغسطس، في ظروف غامضة، في الهاوية الشهيرة سدنا، بين جزر سكيليج ورأس بيشي دي مار."

قال إستيراد ببطء، وكأنه يزن كلماته: "ينيفر من فينجربيرج لم تكن خائنة. لم تكن حليفةً لـ فيلغيفورتز.

إذا أردت، يمكنني أن أقدّم لك الأدلة."

ظل ديكسترا صامتًا للحظة، ثم قال ببرود: "لا أريدها."

ثم أضاف بصوت أخفض: "أو ربما أريدها، لكن ليس الآن. من الأسهل بالنسبة لي أن تبقى خائنة."

قال الملك بنبرة محذّرة: "أفهم. لا تثق بالسحرة، ديكسترا. خاصةً فيليبا."

ضحك ديكسترا ضحكة قصيرة وقال: "لم أثق بها أبدًا. لكن علينا أن نتعاون. بدونها، ستغرق ريدانيا في الفوضى، وستختفي."

قال إستيراد وهو ينظر إليه نظرة طويلة: "أنت على حق. لكن إن كان لي أن أقدّم لك نصيحة، فحاول أن تُخفف قبضتك قليلًا. أنت تعلم ما أعنيه. المشانق وغرف التعذيب المنتشرة في كل مكان، والقسوة ضد الجان... وتلك القلعة الرهيبة، دراكنبورغ. أعلم أنك تفعل ذلك بدافع الوطنية. لكنّك تصنع من نفسك أسطورةً عن الشر. في هذه الأسطورة، أنت وحش مستذئب يطارد الدماء البريئة."

قال ديكسترا ببرود: "شخصٌ ما عليه أن يقوم بذلك."

هزّ إستيراد رأسه ببطء وقال: "وسيكون هناك دائمًا من يتحمّل اللوم. أعلم أنك تحاول أن تكون عادلاً، لكن الأخطاء لا يمكن تجنّبها ببساطة. لا يمكنك أن تظلّ نظيفًا من كل هذا الدماء إلى الأبد. أنت لم تؤذِ أحدًا أبدًا لمصلحتك الشخصية، لكن من سيُصدّق ذلك؟ من سيُصدّق؟ في يومٍ ما، ستدور عجلة القدر ضدّك، وستُتهم بقتل الأبرياء وتحقيق المكاسب من ذلك. الكذبة تلتصق بالرجل مثل القار."

قال ديكسترا بصوت منخفض: "أعلم."

قال الملك بنبرة تحذيرية: "لديك فرصة للدفاع عن نفسك. لكن القار سيغطّيك... لاحقًا. بعد فوات الأوان. احذر، ديكسترا."

قال ديكسترا بإصرار: "سأحذر. لن يتمكنوا من الإمساك بي."

نظر إليه الملك نظرة باردة وقال: "لقد أخذوا ملكك، فيزيمير. من ما سمعته، طُعن بالخنجر حتى المقبض..."

قال ديكسترا بلا مبالاة ظاهرة، لكن بعينين حادتين: "الملك هدف أسهل من الجاسوس. لا يمكنهم الوصول إليّ. لن يمسكوني. أبدًا."

قال إستيراد ببطء، وعيناه مثبتتان على ديكسترا: "يجب ألا يتمكنوا. هل تعرف لماذا، ديكسترا؟ لأنه في هذا الجحيم من عالم، على الأقل هناك بعض العدالة."

* * *

جاء ذلك اليوم الذي تذكّر فيه كلاهما تلك المحادثة.

كلاهما.

الملك والجاسوس.

تذكَّر ديكسترا كلمات إستيراد ملك كوفير عندما سمع خطوات القتلة، وهم يأتون نحوه من كل الجهات، عبر ممرات القلعة.

أما إستيراد، فقد تذكّر كلمات ديكسترا وهو يقف على الدرج الرخامي الفخم الذي يقود من إنسينادا إلى القناة الكبرى.

* * *

قال غيسكارد فيرمولين، وعيناه العمياء المغطاة بالسحب تسبح في أعماق ذكرياته:

"كان بإمكانه أن يقاتل."

"لم يكن هناك سوى ثلاثة قتلة، وجدي كان رجلاً قويًا. كان يمكنه أن يقاتل ويدافع عن نفسه حتى أتمكن من إحضار الحرس. كان يمكنه ببساطة أن يهرب. لكنه كان يفكر فقط في جدتي، زولييكا. لقد كان يحمي زولييكا، ولا شيء سوى زولييكا. لم يكن يهتم بنفسه على الإطلاق."

تنهد الدوق العجوز بصوت مرتجف، ثم أكمل:

"عندما وصلت المساعدة أخيرًا، لم يكن في جسد زولييكا خدش واحد. أما إستيراد، فقد تلقّى أكثر من عشرين طعنة. لقد مات بعد ثلاث ساعات، دون أن يستعيد وعيه."

* * *

"هل سبق لك أن قرأت الكتاب المقدس، ديجسترا؟"

قال ديجسترا بلا مبالاة: "لا، يا جلالة الملك. لكنني أعرف ما كُتب فيه."

ابتسم إستيراد ابتسامة غامضة وقال:

"تخيّل، بالأمس فتحتُه عشوائيًا. وصادفت هذا المقطع في طريقهم إلى الأبدية، يمضي الجميع نزولًا على سُلّمهم، حاملين أعباءهم. ما رأيك في ذلك؟"

نظر إليه ديجسترا نظرة باردة وقال بصوت ثابت:

"الوقت يمرّ، الملك إستيراد. حان وقت حمل أعبائنا."

قال الملك بصوت هادئ، لكنه يحمل في طياته شيئًا غير ملموس:

"اعتنِ بنفسك، أيها الجاسوس."

قال ديجسترا وهو يراقبه لوهلة:

"اعتنِ بنفسك، أيها الملك."

تركنا وراءنا المهرجان القديم الشهير في أسينغارد، وسافرنا ستة عشر فرسخًا جنوبًا، نحو المنطقة المعروفة باسم المئة بحيرة. فإذا نظر المرء إلى تلك المنطقة من الأعلى، سيرى عددًا هائلًا من البحيرات، تُشكّل أنماطًا وتركيبات فنية معقدة.

مرشدنا، الإلفي أفالاخ، طلب منا أن نبحث بين هذه الأشكال عن واحد يُشبه ورقة البرسيم ثلاثية الأوراق.

وبالفعل، وجدنا مثل هذا الشكل، لكنه لم يكن ثلاث بحيرات كما توقعنا، بل أربع، إذ كانت إحداها مستطيلة الشكل، تمتد من الجنوب إلى الشمال، كما لو كانت ساق الورقة.

تلك البحيرة، التي تُعرف الآن باسم تارن ميرا، كانت محاطة بغابة سوداء كثيفة، وعلى حافتها الشمالية كان ينبغي أن تنتصب تلك القلعة الغامضة، المعروفة باسم برج السنونو، أو كما يسميها الجِنّ بلغتهم: تور زيرابيل.

في ذلك اليوم، لم نرَ سوى الضباب. وقبل أن نتمكن حتى من سؤال أفالاخ عن البرج، أشار إلينا بإيماءة تأمرنا بالصمت، ثم قال بصوت خافت لكنه يحمل في طياته قوة غامضة: "انتظروا وتأملوا. الأمل يعود مع الضوء والنبوءة. كونوا متيقظين أمام المياه التي لا حدّ لها، فهناك سوف ترون رسول البشائر."

من كتاب رحلات في الدروب وأماكن السحر، لـ بويفيد باكهايزن

"هذا الكتاب محض هراء من بدايته إلى نهايته. لقد خضعت الأطلال الموجودة عند بحيرة تارن ميرا لدراسات مكثفة، ولم يُعثر فيها على أي أثر للسحر، خلافًا لادعاءات بويفيد باكهايزن. وبالتالي، لا يمكن أن تكون بقايا برج السنونو الأسطوري."

"آر. إس. ماجيكا، الطبعة الرابعة عشرة."

الفصل التاسع

"إنهم قادمون! إنهم قادمون!"

أحكمت ينيفر قبضتها على شعرها الرطب المتطاير بفعل الرياح، وتقدمت بسرعة نحو السور، تزاحم النساء وتدفعهن جانبًا، محاولةً النظر إلى أسفل نحو الدرج المؤدي إلى الشاطئ.

الموج، مدفوعًا بالرياح الغربية العاتية، ارتطم بالشاطئ بقوة مدوّية، ليتطاير الرذاذ الأبيض في نوافير متلألئة من الشقوق بين الصخور.

"إنهم قادمون! إنهم قادمون!"

من موقعها في الشرفات العليا لحصن كاير ترولدي، القلعة الرئيسية في آرد سكيليج، استطاعت أن ترى تقريبًا كامل الأرخبيل الممتد أمامها.

مباشرة عبر المضيق، ظهرت جزيرة آن سكيليج، منخفضة ومسطحة من الجنوب، لكنها تكتسي بخلجان شديدة الانحدار في الشمال.

إلى اليسار، على امتداد الأفق، ارتفعت المنحدرات الحادة والأنياب الصخرية لجزيرة سبايكروغ الخضراء، قممها تذوب وسط السحب الملبدة.

إلى اليمين، ظهرت المنحدرات الشاهقة لجزيرة أوندفيك، حيث احتشدت أسراب النوارس وطائر البترل والغاق، تحلق فوق الأمواج العاتية.

وراء أوندفيك، كانت القمة الخضراء المغطاة بالأشجار لجزيرة هندارسفيال تبرز كأصغر جزر الأرخبيل.

أما من أعلى أبراج كاير ترولدي، لو نظر المرء جنوبًا، فسيتمكن من رؤية الجزيرة الوحيدة المنعزلة، جزيرة فاروي، تبرز من المحيط مثل ظهر مخلوق بحري عملاق يخرج من الأعماق.

نزلت ينيفر إلى الشرفات السفلية وتوقفت وسط مجموعة من النساء اللواتي منعتهن كبرياؤهن ومكانتهن الاجتماعية من الركض بجنون نحو الشاطئ والاختلاط بالحشد المتحمس

من هناك بدا الميناء المليء بالطمي أسودًا وغير واضح المعالم يشبه ساق سرطان بحري ضخم زاحف نحو البحر من المضيق بين آن سكيليج وسبايكروغ بدأت قوارب التنين تظهر واحدة تلو الأخرى، أشرعتها الحمراء والبيضاء تتوهج تحت أشعة الشمس والدروع البرونزية المعلقة على جوانبها تعكس بريقًا خاطفًا

قالت إحداهن بصوت رسمي وكأنها تُلقي درسًا السفينة: "رينغ هورن' تأتي أولًا"

قالت أخرى بحماس: ثم "فينريس"

هتفت ثالثة بصوت مرتجف: "إنها 'تريغلا' ثم 'دراك' وخلفهما 'هافرو'"

قالت أخرى وهي تحاول التمييز بين السفن: "ثم 'أنغيرا' 'تامارا' 'داريا' لا هذه 'سكوربينا' لكن 'داريا' مفقودة السفينة 'داريا' ليست هنا"

عندها أطلقت امرأة شابة حبلى ذات ضفيرة شقراء كثيفة أنّة مختنقة وضغطت بكلتا يديها على بطنها ثم تحولت بشرتها إلى شحوب باهت قبل أن تنهار فاقدةً وعيها لتسقط على ألواح الشرفة الخشبية مثل ستارة ممزقة انفصلت عن حلقاتها.

قفزت ينيفر فورًا نحوها ركعت بجانبها وضغطت أصابعها على بطنها، وهتفت بتعويذة قوية لتثبيط التشنجات والتقلصات العنيفة ولتقوية نسيج الرحم والمشيمة ضد القوة التي كانت تهددهما بالتمزق، وبحذر وضعت تعويذة مهدئة على الجنين الذي شعرت بركلاته العنيفة تحت يديها، ولكي لا تُهدر المزيد من طاقتها السحرية أعادت المرأة إلى وعيها بطريقة أكثر مباشرة صفعتها على وجهها.

قالت بحزم وهي تنهض: "خذوها بعيدًا بحذر"

تمتمت إحدى العجائز وهي تهز رأسها: "يالها من حمقاء ماذا كانت تفكر"

قالت أخرى بصوت خافت: "تصرفت بلا عقل ربما لا يزال زوجها حيًا ربما يكون على متن سفينة أخرى".

قالت امرأة مسنّة بانحناءة خفيفة نحو ينيفر:

"شكرًا لكِ على مساعدتكِ يا سيدتي الساحرة"

قالت ينيفر مجددًا "خذوها بعيدًا"، ووقفت على قدميها، كتمت شتيمة عندما أدركت أن ركوعها قد تسبب في تمزق درز فستانها.

ظلت واقفة في الشرفة السفلية، وعلى الشاطئ، اندفعت قوارب التنين واحدة تلو الأخرى، نزل منها محاربو سكيليج البيرسيركر، لُحاهم كثيفة، وأجسادهم محاطة بالسلاح، كثيرون منهم كانت تكسوهم ضمادات بيضاء، كثيرون لم يتمكنوا من السير إلا بمساعدة رفاقهم، البعض كان لا بد من حمله.

بدأت النساء المتجمهرات على الشاطئ يتعرفن على رجالهن، من كانت محظوظة، صرخت وبكت فرحًا أما من لم تكن كذلك، فقد أغمي عليها أو رحلت بهدوء دون أن تنبس بكلمة.

في بعض الأحيان، كانت إحداهن تلتفت خلفها، متشبثةً بأمل أن تلمح أشرعة 'داريا' الحمراء والبيضاء تلوح في الأفق لكن 'داريا' كانت مفقودة.

وسط الحشد، برز رأس كراش عن كرايت، إيرل سكيليج، بشعره الأحمر الكثيف، متجاوزًا الجميع بطوله، كان من آخر من نزل من السفينة 'رينغ هورن'.

أطلق الأوامر، تحقق من كل شيء، راقب، ووجه رجاله بحزم

راقبته امرأتان، إحداهما شقراء والأخرى سوداء الشعر، كانتا تبكيان، لكن من الفرح.

وحين تأكد أخيرًا أن كل شيء على ما يرام، توجه نحوهما، احتضنهما بقوة، وقبّلهما معًا، ثم رفع بصره، وعندها رأى ينيفر، تألقت عيناه مثل سطح طبق نحاسي تحت أشعة الشمس، وارتسمت على وجهه الذي احترق بالشمس ملامح صلابة كصخرة على طرف الشعاب.

"يعلم بالأمر"، فكرت الساحرة، "الأخبار تنتشر بسرعة، عرف الإيرل، بينما كان في البحر، أنني علقتُ أمس في شباك الصيد قرب المضيق خلف سبايكروغ، وعرف أنني سأكون هنا، في كاير ترولدي".

إقترب منها ببطء. كان عبق البحر والملح والقار والإرهاق يحيط به. رفعت عينيها إلى عينيه اللامعتين، وعلى الفور دوّى في أذنيها صدى صرخة محاربي البرزكر، تهشم التروس، ارتطام السيوف والفؤوس، هدير المحتضرين. هدير أولئك الذين قفزوا من على متن السفينة المحترقة داريا إلى البحر.

قال: "ينيفر من فينغيربرغ."

أجابت بانحناءة طفيفة: "كراش أن كريت، إيرل سكيلغا."

لم يردّ التحية. ليس بالأمر الجيد، فكرت.

في تلك اللحظة، لمح الكدمة على وجهها، أثر الضربة بالمجداف، فتصلّبت ملامحه مجددًا. ارتجفت شفتاه للحظة، ولمعت أسنانه في ومضة غضب. قال: "من فعل هذا بكِ سيدفع الثمن."

ردت بهدوء: "لم يضربني أحد. تعثّرت على الدرج."

تأملها بتمعن، ثم هز كتفيه بلا مبالاة. "إن لم ترغبي في تقديم شكوى، فلا بأس. ليس لدي وقت لفتح تحقيق. والآن، أصغي إليّ جيدًا، لأن هذه ستكون كلماتي الوحيدة لكِ."

قالت بثبات: "أنا أصغي."

قال: "غدًا، سيتم وضعكِ على متن قارب تنين وإرسالكِ إلى نوفيغراد. هناك، سيتم تسليمك إلى حكومة المدينة، ومن ثم ستقع مسؤوليتك على عاتق حكومة تيميريا أو ريدانيا، أيّهما تصل إليك أولًا. أعلم أن كليهما لديه رغبة متساوية في الحديث معكِ."

سألت ببرود: "هل هذا كل شيء؟"

"تقريبًا. تبقى فقط تصريح واحد تستحقينه، نعم. جزر سكيلجا لطالما منحت اللجوء لأولئك الذين طاردهم القانون. الجزر لا تفتقر إلى الفرص والسبل التي تمكن المرء من التكفير عن ديونه عبر العمل الشاق، والشجاعة، والتضحية، والدم. لكن ليس في حالتكِ، ينيفر. ربما كنتِ تتوقعين ذلك، لكنني لن أمنحكِ أي لجوء سياسي. أنا أكره أمثالكِ. أكره أولئك الذين يثيرون الفوضى من أجل السلطة، الذين يضعون مصلحتهم فوق كل شيء، المتآمرين مع العدو، الخائنين لمن يدينون لهم ليس فقط بالطاعة، بل أيضًا بالامتنان. أكرهكِ، ينيفر، لأنكِ حينما قمتِ مع رفاقكِ النيلفجارد بتدبير الانتفاضة في ثانيد، كانت قوارب التنين خاصتي في أتري. رجالي كانوا هناك، يقاتلون إلى جانب المتمردين. ثلاثمائة من رجالي وقفوا في وجه ألفين من السود! لا بد أن يكون هناك مكافأة للشجاعة والولاء، وعقاب للشر والخيانة! كيف أكافئ من قُتلوا؟ بأضرحة؟ بنقوش محفورة على المسلات؟ لا! سأكافئ الأموات المكرّمين بطريقة مختلفة. دمهم الذي نزف في كثبان أتري، سيُدفع بثمن دمكِ، ينيفر، وهو يسيل عبر ألواح المشنقة."

قالت بثبات: "أنا بريئة. لم أشارك في مؤامرة فيلغيفورتز."

ردّ ببرود: "يمكنكِ تقديم الأدلة للقضاة. لستُ من سيحاكمكِ."

قالت بحدة: "لكنكَ حكمتَ بالفعل. بل وحددتَ العقوبة أيضًا."

صرخ بنفاد صبر: "كفى حديثًا! قلتُ إنه عند الفجر، ستُقادين بالأصفاد إلى نوفيغراد، أمام المحكمة الملكية. لتلقّي العقوبة العادلة. ولكن الآن، قدّمي لي عهدًا بأنكِ لن تحاولي استخدام السحر."

قالت بتحدٍّ: "وماذا لو لم أقدم لكَ كلمتي؟"

ردّ ببرود وقسوة: "ماركوارد، ساحرنا، قُتل في ثانيد. لم يعد لدينا سحرة هنا يستطيعون إبقاءكِ تحت السيطرة. لكن عليكِ أن تعلمي أنكِ ستكونين تحت رقابة دائمة من أمهر رماة سكيلغا. إن قمتِ بأي حركة يد مريبة، ستُصَابين بسهم قبل أن تنطقي بتعويذة واحدة."

أومأت برأسها وقالت بهدوء: "حسنًا. أُعطيكَ كلمتي."

أدار رأسه بإيماءة رضا: "جيد جدًا. شكرًا لكِ. وداعًا، ينيفر. لن أكون هناك لوداعكِ غدًا."

نادته: "كراش."

استدار على عقبيه، وقال بلهجة جافة: "أنا أصغي."

قالت بصوت ثابت: "ليس لديّ أدنى نية للصعود على متن سفينة متجهة إلى نوفيغراد. لا وقت لديّ لأثبت لديكسترا براءتي. لا أستطيع المخاطرة بأن يكون الحكم قد صدر سلفًا. لا أستطيع المخاطرة بالموت فجأة إثر نزيف دماغي أثناء احتجازي، أو أن أُدبّر لي انتحارٌ درامي داخل زنزانتي. لا يمكنني أن أضيّع الوقت أو أتحمل هذه المخاطر. ولا أستطيع أن أشرح لكَ لماذا لا يمكنني تحمّلها. لكنني لن أذهب إلى نوفيغراد."

حدّق بها طويلًا قبل أن يكرر كلماتها: "لن تذهبي؟ وما الذي يجعلكِ تظنين أنكِ ستحظين باستثناء؟ أهو ماضينا؟ علاقتنا التي كانت؟ لا تعوّلي على ذلك، ينيفر. الماضي قد مضى، ولم يُسجَّل في السجلات."

أجابته بثقة: "أعلم ذلك، ولا أعوّل عليه. لن أذهب إلى نوفيغراد، إيرل، لأنني في طريق إلى شخص يحتاجني بشدة. شخص أقسمت ألا أتركه وحيدًا أو دون عون. وأنت، كراش أن كريت، إيرل سكيلجا، ستساعدني في مسعاي هذا. لأنكَ أنت أيضًا قطعتَ قسمًا مماثلًا. قبل عشر سنوات. لنفس الشخص. سيري، حفيدة كالانثي. شبل أسد سينترا. أنا، ينيفر من فينغيربرج، أعتبر سيري ابنتي. ولهذا، أطلب منك، باسمها، أن تفي بقسمك. قسم كراش أن كريت، إيرل سكيلجا."

* * *

قال كراش أن كريت بدهشة: "حقًا؟ لن تجربي حتى واحدة من هذه اللقيمات الشهية؟"

ردت بهدوء: "حقًا."

لم يُلحّ الإيرل أكثر، بل التقط سلطعونًا من وعاء ضحل، وضعه على الطاولة، ثم هوى عليه بضربة قوية لكنها دقيقة، شقّته بطول قوقعته. صبّ عليه كمية وفيرة من عصير الليمون والثوم، ثم بدأ يلتقط اللحم من داخله بأصابعه.

أما ينيفر، فكانت تأكل برقي، مستخدمة سكينًا فضيًا وشوكة—لكنها تناولت قطعة من لحم الضأن، وهو اختيار فاجأ الطاهي وربما أزعجه، فقد أعدّ لهم هذه المأدبة بعناية. لكنها رفضت المحار وبلح البحر، كما رفضت السلمون المتبل بالعصائر، وحساء تريجلي والمحار، وذيل سمكة الراهب على البخار، وحتى سمك أبو سيف المشوي، وثعبان البحر المطهو ببطء، والأخطبوط، والسرطان، والسلطعون، وقنافذ البحر. والأهم من ذلك كله—رفضت الطحالب البحرية الطازجة.

أي شيء تفوح منه رائحة البحر ولو بشكل طفيف، كان يذكّرها بفريجيلا فيجو وفيليبا إيلهارت — بذلك الانتقال السحري المتهور، بالسقوط في الأمواج، بالمياه المالحة التي ابتلعتها. أما الطحالب التي طافت على سطح الحساء في الوعاء، فقد ذكّرتها بشيء آخر — بتلك الطحالب التي التصقت بشعرها وكتفيها عندما انهمرت عليها الضربات المؤلمة بالمجاديف الصنوبرية.

استأنف كراش الحديث وهو يمتصّ اللحم من مفاصل السلطعون المكسورة: "لقد قررت أن أثق بكِ، ينيفر. لكن عليكِ أن تعلمي أنني لا أفعل هذا من أجلكِ. بلودجياس، قسم الدم الذي قطعته أمام كالانثي، يقيّد يدي عمليًا. لذا، إن كنتِ تخططين لمساعدة سيري، بصدق وإخلاص— وأفترض أن هذا صحيح — فيبدو لي أنه ليس لدي خيار سوى مساعدتكِ في هذا المسعى..."

قالت ينيفر ببرود: "شكرًا لك. لكن أرجوك، كفى هذه النبرة البائسة. أكرر: لم أشارك في مؤامرة ثانيد. ثق بي."

لوّح كراش بيده بلا مبالاة. "هل من المهم حقًا ما أعتقده؟ كان يجدر بكِ القلق بشأن الملوك وعملائهم المنتشرين في العالم، أمثال ديجسترا. ثم فيليبا إيلهارت والسحرة المخلصين لها، الذين، كما اعترفتِ بنفسكِ، واجهتهم بالفعل، ومن ثم فررتِ إلى سكيلجا. لا بد أنكِ قدّمتِ الأدلة التي تملكينها..."

قاطعته بحدة، وهي تغرس شوكتها بغضب في براعم الخضروات التي أضافها الطاهي إلى طبقها وكأنها إهانة مقصودة: "ليس لدي أي دليل. وإن كنتُ أملك، لما قدّمته. لا يمكنني شرح ما يُلزمُني بالصمت. لكن صدقني، كراش. أرجوك."

ردّ بجمود: "قلتُ لكِ..."

قاطعته مجددًا: "قلتَ لي أنك ستساعدني. شكرًا لك. لكنك لا تزال غير مقتنع ببراءتي. صدّقها."

تأمل كراش آخر ما تبقى في قشرة السلطعون، ثم مدّ يده إلى وعاء بلح البحر. راح يبحث داخله عن أكبر المحارات، محركًا إياها بصوت خافت داخل الوعاء.

قال أخيرًا، وهو يمسح يديه بمفرش الطاولة: "متفقون. سأصدقكِ. لأنني أريد أن أصدقكِ. لكنني لن أمنحكِ اللجوء ولا الملاذ. لا يمكنني ذلك. يمكنكِ مغادرة جزر سكيلجا متى وكيفما شئتِ. أنصحكِ بالإسراع. فأنتِ هنا، كما نقول، على أجنحة السحر. وآخرون قد يأتون على دربكِ. وهم أيضًا يعرفون التعاويذ."

"لستُ أسعى للجوء أو ملاذٍ آمن، إيرل. أنا أبحث. يجب أن أُسرع لمساعدة سيري."

كرر كراش الاسم بتفكير: "سيري... شبل الأسد... كانت طفلة غريبة."

رفعت ينيفر حاجبها: "كانت؟"

لوّح بيده مجددًا: "أوه. أسأتُ التعبير. كانت لأنها لم تعد طفلة. لم أقصد إزعاجكِ. سيريلّا، شبل أسد سينترا... قضت صيفًا وشتاءً في سكيلجا. أثارت الفوضى أكثر من مرة—لكن مهلاً! لم تكن شبل أسد، بل شيطانة صغيرة... تبا، قلتها مجددًا... ينيفر، وصلت إلينا شائعات مختلفة من القارة... البعض يقول إن سيري في نيلفجارد..."

قاطعت بصرامة: "إنها ليست في نيلفجارد."

أكمل بتردد: "والبعض الآخر يقول... أن الفتاة لم تعد على قيد الحياة."

لم تردّ ينيفر. اكتفت بالصمت وهي تعضّ شفتها.

قال الإيرل بحزم: "لكن مع هذه الإشاعة الثانية، لا أتفق. سيري حية. أنا متأكد من ذلك. لا يوجد أي دليل على العكس... إنها على قيد الحياة!"

رفعت ينيفر حاجبيها، لكنها لم تطرح أي أسئلة. ساد الصمت بينهما طويلًا، ولم يكن يُسمع سوى هدير الأمواج وهي تتحطم على صخور أرد سكيلج.

بعد لحظة، قال كراش: "ينيفر، هناك رسائل أخرى وردت من القارة. فهمتُ أن ساحركِ، الذي بقي في بروكيلون بعد معركة ثانيد، قد انطلق من هناك قاصدًا نيلفجارد لتحرير سيري."

أكرر، سيري ليست في نيلفجارد. وما ينوي ساحري—كما تسميه—فعله، لا أعلم. لكنه... كراش، ليس سرًا أنه وأنا... أنني أكنّ له مشاعر. لكنني أعلم أنه لن ينقذ سيري. لن يحقق شيئًا. أنا أعرفه. سينغمس في فلسفاته الخاصة، ويضيع وسط شكوكه وشفقة الذات. سيطلق غضبه في كل اتجاه، يقطع بسيفه كل من يعترض طريقه. ثم، كتكفيرٍ، سيقوم بعملٍ بطولي، لكنه سيكون بلا جدوى. وفي النهاية، سيُقتل، بحماقة ودون داعٍ، على الأرجح بطعنة في الظهر."

أسرع كراش بمقاطعتها، وقد بدا عليه الاضطراب من التغير المظلم الذي طرأ على نبرتها وارتجاف صوتها الغريب: "يقال إن سيري هي قدره. لقد رأيتُ ذلك بنفسي، في سينترا، خلال خطوبة بافيتا..."

قاطعته ينيفر بحدة: "القدر يمكن تفسيره بطرق مختلفة. مختلفة جدًا. لكن الوقت ثمين للغاية لمثل هذه النقاشات. أكرر، لا أعرف ما يخطط له، أو إن كان جيرالت ينوي شيئًا. أنا أتقبل ذلك، بطريقتي الخاصة. وأتصرف، كراش، أتصرف. لا رغبة لي في الجلوس هنا، أبكي وأدفن رأسي بين يديّ. سأتصرّف!"

رفع الإيرل حاجبيه، لكنه لم يقل شيئًا.

كررت الساحرة بحزم: "سأتصرّف. لديّ خطة. وأنت، كراش، ستساعدني، وفاءً للقسم الذي قطعته."

قال بحزم: "أنا مستعد. في الحال. قوارب التنين راسية في الميناء. أصدري أوامركِ، ينيفر."

لم تستطع مقاومة الضحك بصوت عالٍ.

"لا تزال كما أنتَ، الرجل القديم. لا، كراش، لا حاجة إلى إثبات الشجاعة والرجولة. لن تكون هناك حاجة للإبحار إلى نيلفجارد وتحطيم مزاليج أبواب مدنها الذهبية بالفؤوس. أحتاج إلى مساعدة أقل إثارة... لكنها أكثر واقعية... كيف هي أحوال خزانتك؟"

قال وهو يحدق فيها باندهاش: "ماذا؟"

ابتسمت ينيفر بحدة: "إيرل كراش أن كريت. المساعدة التي أحتاجها... يمكن تحويلها إلى عملة."

* * *

بدأ الأمر في اليوم التالي، مع بزوغ الضوء. في الغرف التي خُصصت لينيڤر، عمّت حالة من الفوضى المحمومة، ولم يتمكن السنيشال غوثلاف من استيعاب مطالب الساحرة إلا بشق الأنفس.

جلست ينيفر إلى الطاولة، بالكاد رفعت رأسها عن الأوراق المتراكمة أمامها. كانت تحسب وتجمع أعمدة من الفواتير المقدمة، التي أُرسلت على عجل من الخزانة العامة وفرع بنك سيانفانيلي في الجزيرة. كانت تخطّ وترسم، تُدوّن التصاميم والمخططات، التي سُلمت فورًا إلى الحرفيين—الخيميائيين، والصياغ، ونفّاخي الزجاج، وصانعي المجوهرات.

لبعض الوقت، بدا كل شيء يسير بسلاسة. ثم... بدأت المشاكل.

* * *

"أنا آسف، سيدتي الساحرة،" قال السنيشال غوثلاف بلهجة متوترة. "ما ليس موجودًا... ببساطة غير موجود. لقد أعطيناكِ كل ما لدينا. قد تكونين قادرة على تحقيق المعجزات والسحر، لكننا لسنا كذلك! والآن، أودّ أن ألفت انتباهكِ إلى أن الألماس المعروض أمامكِ تبلغ قيمته الإجمالية..."

"ما فائدته لي؟" همست ينيفر بحدة، وعيناها تتوهجان بالغضب. "أحتاج إلى ألماسة، ولكن يجب أن تكون كبيرة. كيف ذلك، يا معلم؟"

ألقى الصائغ نظرة أخرى على الرسم أمامه، ثم أجاب بحذر: "لإنجاز هذا التصميم وقصّ الأوجه المطلوبة؟ لا يقل عن ثلاثين قيراطًا."

قال غوثلاف بحزم: "حجر كهذا... غير موجود في سكيليجا."

لكن الصائغ اعترض بنبرة واثقة: "هذا غير صحيح. هناك واحدة."

* * *

"كيف تتوقعين مني أن أفعل ذلك، ينيفر؟" قال كراش أن كريت بعبوس. "هل أرسل جنودي ليقتحموا المعبد وينهبوه؟ هل أهدد الكاهنات بغضبي إن لم يسلّمن الألماسة؟ هذا ليس خيارًا. لستُ متدينًا كثيرًا، لكن المعبد يظل معبدًا، والكهنة يظلون كهنة. لا يمكنني سوى أن أطلب بأدب. يمكنني أن

أُوضّح مدى أهمية الأمر لي، ومدى امتناني العظيم إن تم تلبية طلبي. لكنه سيظل مجرد طلب. طلب متواضع، ومتواري."

سألت ينيفر بلهجة متفحصة: "وهل يمكن أن يُلبّى الطلب؟"

ردّ كراش وهو يشبك ذراعيه: "نعم. المحاولة لن تضرّ. ماذا لدينا لنخسره؟ سنذهب معًا إلى هيندارسفيال ونتقدّم بهذا الطلب. سأحرص على أن تفهم الكاهنات أنني جادّ في الأمر. وبعدها، الأمر يعود إليكِ. تفاوضي. جادلي. جربي الرشوة. خاطبي الطموح. استغلي مهنكما المشتركة. ابكي بيأس، تلوّي من الألم، استدرّي الشفقة... باختصار، تصرفي كسمكة الراهب. هل تريدين درسًا في ذلك، ينيفر؟"

أجابت ببرود: "لن ينفع، كراش. الساحرات والكاهنات لن يجدن أرضًا مشتركة أبدًا. كلاهما واثق جدًا من... خلافاتهما الأيديولوجية. والسماح لساحرة باستخدام ما يُعتبر أثرًا مقدسًا أو تحفة روحانية؟ لا، انسَ الأمر. لا فرصة لذلك..."

سألها وهو يحدّق فيها بشك: "وما حاجتكِ لهذا الألماس أصلاً؟"

قالت بنبرة عملية: "لإنشاء نافذة للاتصالات بعيدة المدى. بمعنى آخر، ميغاسكوب. يجب أن أقنع بعض الأشخاص بالاتفاق معي."

رفع كراش حاجبيه وقال ساخرًا: "سحر؟ عبر مسافات طويلة؟"

ردّت ينيفر بنفاد صبر: "لو كان الأمر سيكفي بالصعود إلى أعلى برج في كاير ترولد والصراخ بأعلى صوتي، لما أزعجتك بهذا."

* * *

صرخت طيور النورس والبترلات وهي تحلّق في دوائر فوق المياه. على الصخور الحادة والشعاب المرجانية في هيندارسفيال، امتزجت نداءات طيور الهازجة ذات المنقار الأحمر الحادة مع النعيق الأجشّ لطيور الغاق الصفراء الرأس. كانت أنثى غاق البحر الأسود تراقب السفينة القادمة بعينيها الخضراوين اللامعتين، قبعتها ترفرف مع الرياح.

قال كراش أن كريت وهو يستند إلى درابزين السفينة: "ذلك الصخر الضخم الذي يلوح فوق الماء هو كاير هيمدال، حارسنا الذي سيُوقظ. هيمدال بطلنا الأسطوري. تقول الأسطورة إنه عندما يأتي تيد

ديرياد — وقت النهاية، زمن البرد الأبيض وعواصف الذئب — سيستيقظ هيمدال ليقاتل قوى الشر القادمة من أرض مورهوغ: الأشباح، الشياطين، وكيانات الفوضى. سيقف فوق جسر قوس قزح وينفخ في بوقه، علامة على أن الوقت قد حان لحمل السلاح والمضي قدمًا إلى راغ نار رووغ، المعركة الأخيرة، التي ستقرر إن كان الليل سينزل أم أن الصباح سيبزغ."

كانت السفينة تتهادى على الأمواج، تشق طريقها إلى المياه الهادئة للخليج بين صخرة هيمدال الحارس وصخرة أخرى ذات شكل لا يقل غرابة.

أشار الإيرل إلى الصخرة الأصغر وقال: "تلك هي كامبي. كامبي، في أساطيرنا، ديك ذهبي يصيح لإيقاظ هيمدال وتحذيره من اقتراب ناجلفار، السفينة الشيطانية التي تحمل جيش الفوضى—الشياطين والأشباح القادمة من مورهوغ. ناجلفار مبنية من أظافر الموتى. قد لا تصدقين، ينيفر، لكن لا يزال هناك أشخاص في جزر سكيلغا يقطعون أظافر الموتى قبل دفنهم، حتى لا يتمكن شياطين مورهوغ من استخدامها في بناء السفينة."

ردّت ينيفر بنبرة هادئة، وعيناها تحدقان في المياه: "أصدق ذلك. أعرف قوة الأساطير."

حماهم المضيق البحري بعض الشيء من الرياح، وبدأت الأشرعة تخفق بقوة.

أمر كراش الطاقم: "انفخوا في البوق، لتعلم النساء المقدسات أننا جئنا للزيارة."

* * *

كان المبنى، الذي تربع في أعلى درج حجري طويل، أشبه بقنفذ عملاق—فقد غطّته الطحالب واللبلاب والشجيرات بكثافة حتى بدا جزءًا من الطبيعة نفسها. على سطحه، لاحظت ينيفر وجود شجيرات صغيرة، بل وحتى بعض الأشجار.

قال كراش مؤكدًا: "هذا هو المعبد. والبستان الذي يحيط به هو أيضًا مكان مقدس للعبادة. خذي، هذه أغصان الهدال المقدسة. كما تعلمين، في سكيلجا، كل شيء يُزيَّن بالهدال، من مهد المولود الجديد إلى القبر... انتبهي، الدرج زلق... الدين، هه، مغطى بالطحالب أيضًا... تعالي، سأمسك بذراعكِ... لا تزالين تستخدمين نفس العطر... يينا..."

قالت ينيفر بحزم، دون أن تلتفت إليه: "كراش، أرجوك. الماضي قد مضى، ولم يُسجَّل في السجلات."

قال على الفور، وكأنما يقطع على نفسه وعدًا: "اغفري لي. لنكمل طريقنا."

أمام المعبد، وقفت مجموعة من الكاهنات الشابات في صمت، يملؤهن الوقار. حياهن الإيرل بأدب، ثم أعرب عن رغبته في التحدث مع قائدتهن، التي دعاها باسم مودرون سيغردريفا.

دلفوا إلى الداخل، حيث أضاءت أشعة الشمس، المتدفقة عبر النوافذ الزجاجية العالية، أركان القاعة. كانت إحدى تلك الأشعة تسلط نورها مباشرة على المذبح.

تمتم كراش بدهشة: " سمكة المئة راهب... لقد نسيت كم هو رائع هذا الـ بريسينغامين. لم آتِ إلى هنا منذ طفولتي... بهذا، يمكنكِ شراء كل أحواض السفن في سيداريس، مع العمال والإنتاج السنوي مجتمعًا."

كان الإيرل يبالغ، ولكن ليس كثيرًا.

فوق المذبح الرخامي المتواضع، بين تماثيل القطط والصقور، وعلى القشرة الحجرية لقرابين النذور، ارتفعت تمثال مودرون فريا، الأم العظيمة، في شكلها الأمومي التقليدي—امرأة ترتدي ثيابًا فضفاضة، وقد أظهر أحد النحاتين حملها وأبرزه بشكل مبالغ فيه. كان رأسها مائلًا قليلًا، وملامح وجهها مغطاة بوشاح. فوق يديها المطويتين على صدرها، تألّق ألماسة ضخمة، متدلية ضمن عقد ذهبي يزين عنق الإلهة.

كانت الألماسة ذات ظل مزرق خفيف. كبيرة. كبيرة جدًا.

تقدير مبدئي: مئة وخمسون قيراطًا.

همست ينيفر، بالكاد تحرك شفتيها: "لن يكون هناك حتى حاجة لقصها. تمتلك قطعًا ورديًا، تمامًا كما أحتاج. الزوايا مناسبة تمامًا لانكسار الضوء..."

قال كراش بابتسامة خافتة: "هذا يعني أن الحظ إلى جانبنا."

ردّت بسخرية مريرة: "بالعكس تمامًا. هنا، هنّ كاهنات، أما أنا، فساحرة ملحدة يجب طردها بالعار."

رفع حاجبه: "ألا تبالغين؟"

هزّت رأسها بجدية: "ولا قليلًا."

رنّ صوت هادئ، لكنه قوي: "أهلًا وسهلًا بكَ، إيرل، في معبد الأم. وأهلًا بكِ أيضًا، يا ينيفر الموقرة من فينغيربيرج."

انحنى كراش أن كريت بإجلال: "تحياتي، الأم المبجلة سيغردريفا."

كانت الكاهنة طويلة القامة، تكاد تضاهي كراش وهذا يعني أنها كانت أطول من ينيفر برأسٍ كامل. كان شعرها وعيناها فاتحين، ووجهها طويلًا، ليس جميلًا، وليس أنثويًا جدًا.

لقد رأيتها من قبل، فكرت ينيفر. مؤخرًا. لكن أين؟

ابتسمت الكاهنة وكأنها قرأت أفكارها: "على درجات كاير ترولد المؤدية إلى الميناء،" قالت. "عندما وصلت السفن إلى المضيق. كنتُ أقف فوقكِ بينما كنتِ تساعدين امرأة حامل كادت تفقد طفلها. على ركبتيكِ، دون أن تكترثي بثوبكِ القيم المصنوعِ من الكامليت. رأيتُ ذلك. ومنذ ذلك اليوم، لن أروي مجددًا قصصًا عن الساحرات القاسيات المحسوبات."

تنحنحت ينيفر، ثم انحنت برأسها قليلًا.

قالت الكاهنة بلطف: "أنتِ واقفة أمام مذبح الأم، ينيفر. قد تُمنحين نعمتها."

قالت الساحرة بتردد واضح: "أيتها الأم المبجلة، أنا... أودّ أن أطلب بتواضع..."

قاطعتها الكاهنة برفق، وهي ترفع يدها: "لا تقولي شيئًا. إيرل، بلا شك لديك الكثير من الأمور لتعتني بها. اتركنا وحدنا هنا، في هيندارسفيال. نحن قادرات على التواصل. نحن نساء. لا يهم المهنة التي نتبعها أو من نكون: نحن العذارى، الأمهات، والعجائز. اجثي بجانبي، ينيفر. انحني للأم."

* * *

"أن نأخذ بريسينغامين من عنق الإلهة؟" كررت سيغردريفا بصوت لم يكن يخفي صراعًا بين عدم التصديق والغضب المقدس. "لا، ينيفر. هذا ببساطة مستحيل. الأمر لا يتعلق حتى بجرأتي على ذلك... حتى لو امتلكتُ الجرأة، فإن بريسينغامين لا يمكن نزعه. العقد ليس له مشبك. إنه متصل بالتمثال ذاته."

صمتت ينيفر لبرهة طويلة، تقيس الكاهنة بنظرة هادئة. ثم قالت ببرود: "لو كنتُ أعلم ذلك، لكنتُ غادرتُ فورًا مع الإيرل عائدة إلى أرد سكيلغ. لا، لا، لا أعتقد أن الوقت الذي قضيته في الحديث معكِ كان بلا فائدة. لكن وقتي محدود جدًا. حقًا، محدود جدًا. أعترف، لقد خدعتني طيبتكِ ودفء كلماتكِ بعض الشيء..."

قاطعتها سيغردريفا ببرود: "أتمنى لكِ الخير أيضًا. وأوافق تمامًا على خططكِ، من كل قلبي. كنتُ أعرف سيري. أحببتُ تلك الطفلة، لقد آلمني مصيرها. وأُقدّر تصميمكِ على الاندفاع لمساعدتها. وسأحقق لكِ كل ما تطلبينه. لكن ليس بريسينغامين، ينيفر. ليس بريسينغامين. أرجوكِ، لا تطلبي ذلك."

قالت ينيفر بصوت ثابت، عيناها تضيقان قليلًا: "سيغردريفا، لإنقاذ سيري، عليَّ أن أحصل بسرعة على بعض المعرفة. بعض المعلومات. بدونها، أنا عاجزة. المعرفة والمعلومات التي لا يمكنني الحصول عليها إلا عبر وسيلة اتصال عن بعد. ولأتمكن من التواصل عبر المسافات الطويلة، أحتاج إلى إنشاء أداة سحرية، باستخدام السحر، ميغاسكوب."

"جهاز مثل كرتكم البلورية الشهيرة؟"

* * *

ردّت ينيفر بلهجة عملية: "أكثر تعقيدًا بكثير. الكرة البلورية تسمح بالاتصال فقط مع كرة أخرى تم ضبطها عليها. حتى أن قزمًا في البنك المحلي يملك كرة بلورية—للتواصل مع الكرة الموجودة في الخزنة. أما الميغاسكوب، فيوفر إمكانيات أوسع بكثير... لكن لماذا نخوض في النظريات؟ بدون الألماسة، لا أهمية لكل هذا. حسنًا، سأودّعكِ..."

"ليس بهذه السرعة."

نهضت سيغردريفا، مشت عبر صحن المعبد، وتوقفت أمام المذبح وتمثال مودرون فريا. قالت بنبرة هادئة لكنها حاسمة:

"الإلهة هي أيضًا راعية العرّافات. راعية ذوات الرؤى، وذوات القدرة على التخاطر. يرمز إلى ذلك بحيوانَيها المقدسين: القط، الذي يراقب في الخفاء ويستمع في السر، والصقر، الذي يرى من علوّ شاهق. كما يرمز إلى ذلك جوهرة الإلهة: بريسينغامين، طوق الاستبصار. لماذا تبنين أجهزة للرؤية والاستماع، ينيفر؟ ألا يكون من الأسهل أن تطلبي العون من الإلهة نفسها؟"

كادت ينيفر تطلق لعنة حانقة، لكنها كتمتها في اللحظة الأخيرة بعد كل شيء، هذا كان معبدًا.

تابعت سيغردريفا، متجاهلة تعابير الضيق على وجه الساحرة: "لقد اقترب وقت الصلاة المسائية. سأكرّس مع الكاهنات الأخريات وقتنا للتأمل. سأطلب من الإلهة أن تساعد سيري. فقد كانت سيري هنا في هذا المعبد مرارًا، ورأت بريسينغامين يزين عنق الأم العظيمة أكثر من مرة. فلتضحّي بساعة أو ساعتين من وقتكِ الثمين، ينيفر. ابقِ معنا خلال وقت الصلاة. دعمي صلاتي. بفكركِ... وبحضوركِ."

همست ينيفر بحذر: "سيغردريفا..."

قاطعتها الكاهنة برقة، لكن بإصرار: "أرجوكِ. افعلي ذلك من أجلي. ومن أجل سيري."

* * *

العقد المرصّع بالجواهر، بريسينغامين، متدلٍّ من عنق الإلهة.

كتمت ينيفر تثاؤبًا. لو كان هناك بعض الترانيم، بعض الأدعية، بعض الأسرار... أي نوع من الفولكلور الصوفي... لكان الأمر أقل مللًا، لما فرض النوم نفسه بهذا الشكل. لكنهن فقط يركعن هناك، رؤوسهن محنية. بلا حركة. بلا صوت.

لكن نعم، إنهن قادرات على استخدام القوة إن أردن، أحيانًا ليس بأسوأ مما نفعله نحن الساحرات. كيف؟ لا يزال هذا لغزًا. لا تحضير، لا تدريب، لا دراسات... مجرد صلاة وتأمل. استبصار؟ نوع من التنويم الذاتي؟ هذا ما كانت تدّعيه تيسايا دي فريس... يدخلن في غيبوبة لا شعورية، يكتسبن الطاقة والقدرة على التحكم بها، كما نفعل نحن مع تعاويذنا. يحوّلن تلك الطاقة ويرونها كنعمة وإحسان من الإلهة. هذا الإيمان يمنحهن القوة.

لماذا لا ننجح نحن الساحرات بنفس الطريقة؟

هل أجرب؟ أستغلّ جوّ هذا المكان وهالته؟ قد أدخل في غيبوبة... كل ما عليّ فعله هو التحديق في تلك الألماسة... بريسينغامين... التركيز على كيف ستتألق داخل الميغاسكوب خاصتي...

بريسينغامين... يلمع مثل نجم الصباح، هناك في الظلام، بين دخان البخور وشموع الضباب...

"ينيفر."

رفعت رأسها فجأة.

كان المعبد يغرق في الظلمة. الرائحة الكثيفة للدخان ملأت المكان.

"هل نمت؟ سامحيني..."

"لا شيء يستدعي المغفرة. تعالي معي."

في الخارج، تلألأت السماء بأضواء متغيرة، تتبدل مثل مشهد من كاليودوسكوب سحري.

الشفق القطبي؟

فركت ينيفر عينيها بدهشة. أورورا بورياليس؟ في أغسطس؟

قالت سيغردريفا بصوت هادئ لكنه مشحون: "كم أنتِ مستعدة للتضحية، ينيفر؟"

قطّبت حاجبيها. "ماذا؟"

"هل أنتِ مستعدة للتضحية بنفسكِ؟ بسحركِ الثمين؟"

قالت ينيفر بغضب واضح: "سيغردريفا، لا تحاولي معي هذه الحيل المستهلكة. عمري أربعة وتسعون عامًا. لكن أرجوكِ، لا تعتبري هذا اعترافًا. أخبركِ فقط حتى لا تحاولي معاملتي كطفلة."

"لم تُجيبي على سؤالي."

"ولن أجيب. لأنني لا أتفق مع هذا التصوف. لقد غفوتُ أثناء طقوسكِ. مللتُ. لأنني لا أؤمن بإلهتكِ."

استدارت سيغردريفا ببطء، وعندما التقت أعينهما، أخذت ينيفر نفسًا عميقًا لا إراديًا.

قالت المرأة، وعيناها تتلألآن بلون الذهب السائل: "كفركِ لا يسرّني كثيرًا، ينيفر. لكنه... هل يغير شيئًا؟"

الشيء الوحيد الذي استطاعت ينيفر فعله... كان أن تزفر.

"سيأتي يوم،" قالت المرأة ذات العينين الذهبيتين، "لن يؤمن فيه أحد بالساحرات، على الإطلاق. سوى الأطفال. أقول هذا عن عمد، بقصد السخرية. كنوع من الانتقام. هيا، لنذهب."

"لا..." أخيرًا تمكنت ينيفر من كسر دائرة الشهيق والزفير السلبية. "لا! لن أذهب إلى أي مكان. يكفي! هذا سحر، أو تنويم مغناطيسي. وهم! غيبوبة! لدي آليات دفاعية مدرّبة... يمكنني تفكيك كل هذا بكلمة واحدة، أوه نعم! اللعنة..."

اقتربت المرأة ذات العينين الذهبيتين أكثر. وقد تألقت الألماسة في عقدها مثل نجم الصباح.

قالت بصوت هادئ لكنه يحمل نبرة غامضة: "لغتكِ لم تعد تخدم التفاهم المتبادل، تدريجيًا. أصبحتِ تخلقين فنًّا للفن، كلما حاولتِ التعمّق والظهور بمظهر الحكمة، زاد الأمر تعقيدًا. حقًّا، سيكون من الأفضل لو لم تقولي سوى آه-آه وغو-غو."

"إنها وهم، غيبوبة... لن أذهب إلى أي مكان!"

"لن أجبركِ. سيكون ذلك مخزيًا. أنتِ فتاة ذكية، فخورة. لديكِ شخصية."

امتدّت السهول أمامها. بحر من العشب. أراضٍ خضراء مغطاة بالنباتات البرية. صخرة ترتفع من وسط الخلنج، أشبه بظهر مفترس متربص.

قالت المرأة بصوت عميق: "طلبتِ جواهري، ينيفر. لا يمكنني إعطاؤه لكِ، ليس قبل أن أتحقق من بعض الأمور. أريد أن أرى ما بداخلكِ. لهذا أحضرتكِ إلى هنا، إلى هذا المكان، الذي كان منذ الأزل مركزًا للمعرفة والقوة. سحركِ الثمين يُفترض أن يكون موجودًا في كل مكان. كل ما عليكِ فعله... هو أن تمدي يدكِ نحوه. هل تخشين أن تفعلي ذلك؟"

لم تستطع ينيفر أن تستخرج أي صوت من حلقها المختنق.

قالت المرأة بصوت يشبه همس الرياح عبر العصور:

"القوة التي تغيّر العالم لا يمكن تسميتها. ومع ذلك، أنتِ تعرفين الفوضى، والفن، والعلم؟ تعرفين اللعنات، والبركات، والتقدم؟ لكن، بالمصادفة، لا تعترفين بالإيمان؟ بالحب؟ بالتضحية؟"

"هل تستمعين؟ الديك كامبي يصيح. الموج يضرب الشاطئ، أثر مقدمة ناجلفار. هيمدال سينفخ في بوقه على جسر بيفروست لأولئك الذين سيواجهون العدو. إنه البرد الأبيض، العواصف العاتية، والثلج المنهمر... الأرض تهتز تحت الحركات العنيفة للأفعى...

"الذئب يبتلع الشمس. القمر أسود. لا يوجد سوى البرد والظلام. الكراهية، الانتقام، والدم...

"في أي جانب ستكونين، ينيفر؟ هل ستكونين عند الحافة الشرقية أم الغربية من بيفروست؟ هل ستقفين مع هيمدال أم ضده؟

"الديك كامبي يصيح.

"اتخذي قرارك، ينيفر. اختاري. فقد منحكِ أحدهم الحياة ذات يوم، كي تتمكني من الاختيار في اللحظة المناسبة.

"النور أم الظلام؟"

ردّت ينيفر بصوت متهكم لكنه لا يخلو من التحدي:

"الخير والشر، النور والظلام، النظام والفوضى؟ هذه مجرد رموز، لكن في الواقع، لا وجود لهذه القطبية المطلقة! النور والظلام داخل كل فرد، قليلٌ من هذا وقليلٌ من ذاك. هذه المحادثة لا معنى لها. لا معنى لها إطلاقًا. لن أعتنق التصوف، لا من أجلكِ ولا من أجل الذئب الذي يلتهم الشمس، سيغردريفا. بالنسبة لي، هذه مجرد كسوف. وسيظل كذلك."

"البقاء؟ كيف؟"

شعرت بالأرض تنسحب من تحت قدميها، شعرت بقوة هائلة تلوّي ذراعيها، تفصل مفاصل كتفيها ومرفقيها، شعرت بالدوامة وهي تمزقها كما في تعذيب سترابادو المروع. صرخت بألم، تتلوّى، تفتح عينيها على واقع أكثر رعبًا من الكوابيس. لا، هذا لم يكن حلمًا. لا يمكن أن يكون حلمًا.

كانت معلقة على شجرة، مسمّرة إلى أغصان شجرة الدردار العملاقة.

أعلاها، كان صقر يحلّق في دوائر. وأسفلها، في الظلام، سمعت هسيس أفعى تزحف، صوت احتكاك جسدها بالمفاصل الأخرى.

شعرت بحركة بجانبها. بجوار ذراعها، كان هناك سنجاب ممدد، متلوٍّ بعذاب لا يقل عن عذابها.

قال السنجاب بصوت خافت لكنه محمل بثقل المعاني: "هل أنتِ مستعدة الآن؟ هل أنتِ مستعدة للتضحية؟ ماذا أنتِ مستعدة لتقدّمي؟"

"ليس لديّ شيء!" الألم شلّها، أعماها. "وحتى لو كان لديّ شيء، لا أؤمن بجدوى هذه التضحية! لا أريد أن أعاني من أجل الملايين! لا أريد أن أعاني على الإطلاق! من أجل أي شخص!"

"لا أحد يريد أن يعاني. لكنها حتمية لكل إنسان. والبعض يعاني أكثر. ليس بالضرورة بإرادتهم. المسألة ليست في تحمّل المعاناة. بل في كيف تتحملينها."

* * *

"يانا! يانشن!

خذوا هذا المسخ الأحدب بعيدًا عني! لا أريد أن أراه!"

"هذه ابنتك، تمامًا كما هي ابنتي."

"حقًا؟ الأطفال الذين أنجبتهم طبيعيون."

"كيف تجرؤ... على التلميح... إلى..."

"كان هناك ساحرات في عائلتك الإلفية. لقد أجهضتِ حملكِ الأول. هذا يعني أن دمكِ الإلفي ورحمكِ فاسدان، أيتها المرأة. لماذا جلبتِ هذا المسخ إلى العالم؟"

"هذه الطفلة التعيسة... إنها إرادة الآلهة! إنها ابنتك، تمامًا كما هي ابنتي! ماذا يجب أن أفعل؟ أن أخنقها؟ أن أربط الحبل السري وأتركها؟ ماذا تريد مني؟ أن أذهب إلى الغابة وأتركها هناك؟ ماذا تريد مني، بحق الآلهة؟"

"أبي! أمي!"

"ابتعدي عني، أيتها المسخ."

"كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على ضرب الطفلة؟ توقف! إلى أين أنت ذاهب؟ إلى تلك، أليس كذلك؟ إليها!"

"بالتأكيد، أيتها المرأة. أنا رجل، يمكنني أن أشبع رغبتي حيثما أشاء، ومتى أشاء. هذا حقي الطبيعي. وأنتِ تُثيرين اشمئزازي. أنتِ وثمرة رحمكِ المنحط. لا تنتظريني على العشاء. لن أعود الليلة."

"أمي..."

"لماذا تبكين؟"

"لماذا ضربتني وأبعدتني؟ كنتُ فتاة جيدة..."

"أمي! أمي العزيزة!"

* * *

"هل تستطيعين أن تسامحي؟"

"لقد سامحتُ منذ زمن طويل."

"بعد أن انتقمتِ... وبقسوة شديدة."

"نعم."

"هل تندمين؟"

"لا."

* * *

ألم، ألم رهيب ينهش يديها وأصابعها.

"نعم، أنا مذنبة! هل سمعتم ذلك؟ اعترافٌ وندم؟ هل سمعتم كيف تابت ينيفر من فينغيربرغ وتواضعت؟ لا، لن أفعل هذا من أجلكم. أعترف بذنبي وأتوقع العقاب. لكنني لن أطلب منكم الرحمة!"

وصل الألم إلى أقصى حد يمكن للإنسان تحمله.

"ذكّرتموني بالمخدوعين، بالمستغلين، بالذين تم خيانتهم، ذكّرتموني بمن مات بيده... بيدي... أما أنني وضعتُ يدي على نفسي ذات يوم؟ لا بد أنني كنتُ أملك سببًا وجيهًا! ولا أشعر بأي ندم! وحتى لو استطعتُ إعادة الزمن إلى الوراء... لا ندم!"

حطّ الصقر على كتفها.

برج السنونو. برج السنونو. سيري... أسرعي إلى برج السنونو... ابنتي.

الديك كامبي يصيح.

* * *

سيري على ظهر فرس سوداء، شعرها الرمادي يتطاير مع اندفاع العدو. الدم يتدفق، يتفجر من وجهها، أحمر فاقع، نابض بالحياة. الفرس السوداء ترتفع كطائر، تنساب بسلاسة فوق عوارض القوس. تتمايل سيري في السرج، لكنها لا تسقط...

سيري في منتصف الليل، وسط برية من الصخور والرمال، يداها مرفوعتان، ومن كفيها تنطلق كرة متوهجة... وحيد قرن، يخدش الحصى بحافره... كثير من حيدات القرن... نار... نار...

جيرالت على جسر. في معركة. وسط النيران. اللهب ينعكس على شفرة سيفه.

"فرينجيلا فيغو، عيناها الخضراوان متسعتان بالشهوة، رأسها الداكن الحليق مستند إلى كتاب مفتوح، وعلى صفحته الأولى... يظهر جزء من العنوان: تأملات في الموت الحتمي لـ... "

انعكاس عيني جيرالت في عيني فرينجيلا.

هاوية. دخان. سلمٌ يقود إلى الأسفل. سلمٌ يجب النزول عليه. شيء ينتهي. تيد ديرياد يقترب، زمن النهاية...

ظلام. رطوبة. جدران حجرية باردة حد الاختناق. برودة الحديد حول المعصمين، الكاحلين. الألم الذي ينبض في الأيدي المعذبة، يمزّق الأصابع المتورمة...

سيري تمسك يدها. ممر طويل، معتم، أعمدة حجرية، تماثيل ربما... ظلام. همس هادئ كهمس الرياح.

أبواب. عدد لا نهائي من الأبواب، ضخمة، ثقيلة، تنفتح أمامهم بصمت. وفي النهاية، في الظلام الدامس، بابٌ لا يفتح تلقائيًا.

لا يجب فتح هذا الباب. أنتِ تعرفين ذلك.

أنا أعرف.

لكنّكِ ما زلتِ تقودينني إليه. إذا كنتِ خائفة، عودي أدراجكِ. لا يزال لديكِ وقتٌ للعودة. لم يفت الأوان بعد.

وأنتِ؟

بالنسبة لي... لقد فات الأوان.

الديك كامبي يصيح.

تيد ديرياد قد حلّ.

الشفق القطبي.

نور.

* * *

"ينيفر. استيقظي."

رفعت رأسها فجأة. نظرت إلى يديها. كلاهما كان هناك. الخلاص.

همست، ما زالت مترنحة بين الحلم والواقع: "سيغردريفا؟ لقد غفوتُ..."

قالت الكاهنة بصوت هادئ لكنه حازم: "تعالي."

"إلى أين؟" همست ينيفر. "إلى أين هذه المرة؟"

"ماذا؟ لا أفهم. عليكِ أن تري. حدث شيء... شيء غريب. لا أحد منا يعلم لماذا أو كيف يمكن تفسيره. لكنني أستطيع أن أخمّن. النعمة... ربما حلّت عليكِ نعمة الإلهة، ينيفر."

ضيّقت الساحرة عينيها بشك: "عمّ تتحدثين، سيغردريفا؟"

قالت الكاهنة ببساطة، وهي تشير بيدها: "انظري."

رفعت ينيفر بصرها... وأطلقت زفرة عالية، مزيج من الدهشة والذهول.

بريسينغامين، الجوهرة المقدسة لمودرون فريا، لم تعد تتدلّى من عنق الإلهة.

بل كانت ملقاة عند قدميها.

* * *

"هل سمعتُكِ جيدًا؟" سأل كراش أن كريت مجددًا، وهو يحدّق بها بريبة. "أنتِ تنوين إنشاء ورشة سحركِ على هيندارسفيال؟ الكاهنات سلّمنكِ الألماسة المقدسة؟ يمكنكِ استخدامها في آلتكِ الجحيمية؟"

أجابت ينيفر بهدوء: "نعم."

ضحك الإيرل بسخرية: "حسنًا، حسنًا، ينيفر، هل اعتنقتِ الإيمان إذن؟ ماذا حدث هناك على الجزيرة؟"

قالت ببرود وهي تهمّ بالابتعاد: "لا يهم. أنا عائدة إلى المعبد، وهذا قراري النهائي."

"وماذا عن الموارد المالية التي طلبتِها؟ هل لا تزالين بحاجة إليها؟"

"على الأرجح، نعم."

"السنيشال غوثلاف سيتكفّل بتنفيذ جميع ترتيباتكِ ذات الصلة. لكن، ينيفر، أصدري هذه الأوامر بسرعة. استعجلي. لقد وصلتني رسائل جديدة."

"اللعنة، كنتُ أخشى ذلك. هل يعرفون أين أنا؟"

"لا، لا يعرفون بعد. لكن تم تحذيري من احتمال ظهوركِ في جزر سكيلجا، وأُمرتُ باعتقالكِ فورًا إذا فعلتِ. كما طُلب مني احتجاز أسرى الحرب وانتزاع أي معلومة يمكن أن تتعلق بكِ، أي فتات من المعلومات عنكِ، أو عن إقامتكِ في نيلفجارد والمقاطعات التابعة لها. ينيفر، استعجلي. إن تعقبوكِ ووجدوكِ هنا في سكيلجا، فسأجد نفسي في موقف بالغ الصعوبة."

"أنا أفعل كل ما بوسعي للإسراع. وأيضًا، لضمان ألا تتورط في أي شيء. لا تقلق."

كشر كراش عن أنيابه في ابتسامة ساخرة.

"قلتُ إلى حدٍّ ما. أنا لا أخافهم. لا الملوك ولا السحرة. لا يستطيعون إيذائي، لأنهم بحاجة إليّ. والمساعدة التي قدمتها لكِ جاءت بموجب قسم ولائي. نعم، نعم، لقد سمعتِ جيدًا. رسميًا، لا أزال تابعًا لتاج سينترا. وسيريلّا لها حق قانوني في هذا التاج. وبصفتكِ ممثلة لسيريلّا، ووصيّتها الوحيدة، لديكِ حق رسمي في إصدار الأوامر لي والمطالبة بولائي وخدمتي."

قالت ينيفر ببرود: "تحايل قانوني فارغ."

ضحك كراش بصوت عالٍ: "بالتأكيد. وسأكون أول من يصفه بذلك، إن اتضح في النهاية أن إِمِير فار إمريس أجبر الفتاة على الزواج منه. وحتى لو تم استبعاد سيري بأي تلاعب قانوني من العرش، وحلّ محلها شخص آخر، مثل ذلك الأحمق فيسيغيرد، فسأتخلى فورًا عن قسمي بالولاء والطاعة."

ضيقت ينيفر عينيها وسألت بنبرة مدروسة: "وماذا لو... تبيّن أن سيري قد ماتت، رغم كل شيء؟"

ردّ كراش بحزم لا يقبل الجدل: "إنها على قيد الحياة. أعلم أنها بأمان."

"كيف؟"

"لن تصدقيني."

"حاول."

تنهد كراش، ناظرًا إلى البحر الممتد أمامهما، ثم قال بنبرة شاردة:

"دماء ملكات سينترا مرتبطة بالبحر بطريقة غامضة. إذا ماتت امرأة من نسل هذه الدماء، يدخل البحر في نوبة جنون حقيقية. يُقال إن أرد سكيلغ ينوح على بنات ريانّون. لأن العواصف تكون شديدة لدرجة أن الأمواج الغربية تجتاح الجزيرة، تهجم على الشقوق والكهوف، حتى تتسلل فجأة من شِعاب الصخور كجداول مالحة على الجانب الشرقي. وتهتز الجزيرة بأكملها. البسطاء يقولون: أرد سكيلج تنتحب. لقد مات أحدهم مجددًا. مات دم ريانّون. دماء القدماء."

صمتت ينيفر.

"هذه ليست خرافة،" تابع كراش بصوت جاد. "لقد رأيتُ الأمر بنفسي، بعينيّ. ثلاث مرات. بعد وفاة أداليا العرّافة، بعد وفاة كالانثي... وبعد وفاة بافيتا، والدة سيري."

قالت ينيفر بلهجة تحليلية: "بافيتا قُتلت أثناء عاصفة، لذا بالكاد يمكن القول إن..."

قاطعها كراش، ما زال شاردًا في أفكاره: "بافيتا لم تُقتل أثناء العاصفة. العاصفة بدأت بعد وفاتها. البحر، كعادته، استجاب لموت شخص من دماء سينترا. لقد درستُ هذا الأمر لوقت طويل بما يكفي. وأنا متأكد."

ضيّقت ينيفر عينيها وسألته بريبة: "وكيف تكون بهذه الثقة؟"

"السفينة التي كانت تقل بافيتا ودوني اختفت فوق هاوية سيدنا. لم تكن أول سفينة تختفي هناك. بالتأكيد تعرفين ذلك."

"أسطورة. السفن تتعرض للحوادث، وهذا أمر طبيعي تمامًا..."

قاطعاها بحدة: "في جزر سكيلجا، نحن نعرف ما يكفي عن السفن والملاحة البحرية لنميّز بين الحوادث الطبيعية وغير الطبيعية. السفن التي تغرق فوق هاوية سيدنا، تغرق بشكل غير طبيعي. وهذا ليس مجرد مصادفة. وهذا ينطبق أيضًا على السفينة التي كانت تقل بافيتا ودوني."

تنهدت ينيفر، متعبة من النقاش: "لا أريد الجدال، كراش. ما أهمية هذا كله؟ بعد ما يقارب خمسة عشر عامًا؟"

"بالنسبة لي، هذا الأمر..." ضغط الإيرل شفتيه معًا، كأنه يقيّد مشاعره. "سأوضّح هذه المسألة. إنها مسألة وقت فقط. أعلم أنني... ستظهر التصريحات. سأجد تفسيرًا لكل هذه الألغاز. بما في ذلك ما حدث أثناء مجزرة سينترا..."

سألته ينيفر بفضول حذر: "ما هذا مجددًا عن لغز؟"

"عندما اقتحم النيلفجارديون سينترا،" تمتم وهو يحدق عبر النافذة، "أمرت كالانثي بإخلاء الفتاة سرًا من المدينة. كانت المدينة تحترق، لكن السود كانوا في كل مكان، وفرص اختراق الحصار كانت شبه معدومة. تم تحذير الملكة من المخاطر. مستشاروها نصحوها بأن تستسلم سيري رسميًا لقادة جيش نيلفجارد، وهكذا قد تنجو بحياتها وتحافظ على سلالة سينترا الملكية. لكن في الشوارع المشتعلة، كان من المحتّم أن تموت بلا فائدة على يد جموع الجنود الغاضبين. لكن اللبؤة... هل تعرفين ما يُقال أنها قالته وفقًا لشهود العيان؟"

"لا."

"'من الأفضل أن تسيل دماء الفتاة على أرصفة سينترا، على أن تُدنّس.'"

ضيّقت ينيفر عينيها، تفكر في المعنى العميق خلف الكلمات. "كيف كان من الممكن أن تُدنّس؟"

"من خلال زواجها من الإمبراطور إمِهر. النيلفجاردي سيئ السمعة."

تنهدت ينيفر، متعبة من الليل الطويل. "إيرل، لقد تأخر الوقت. سأبدأ عملي مع الفجر... سأبقيك مطلعًا على المستجدات."

"أعتمد على ذلك. ليلة سعيدة، يينا... همم..."

رفعت حاجبها بملل: "ما الأمر، كراش؟"

"كنتُ أتساءل إن كنتِ... حسنًا... همم... كما تمليها الرغبة..."

"لا، إيرل. الماضي قد مضى، ولم يُسجَّل في السجلات. ليلة سعيدة."

* * *

"حسنًا، حسنًا." ألقى كراش أن كريت نظرة على زائرته، مائلًا رأسه إلى جانب، تتراقص في عينيه لمعة ساخرة. "تريس ميريجولد بنفسها. يا له من فستان جميل بشكل استثنائي. أما البطانة... هل هي شنشيلة، أليس كذلك؟ كنتُ سأسألكِ ما الذي أتى بكِ إلى سكيلجا... لو لم أكن أعلم بالفعل. لكنني أعلم."

ابتسمت تريس بإغراء، تمرر أصابعها عبر خصلات شعرها الكستنائي المتألقة. "جيد جدًا. ممتاز، يا إيرل. هذا يعفينا من المقدمات والتمهيدات الرسمية، حتى ننتقل فورًا إلى صلب الموضوع."

"ولأي غرض؟" عقد كراش ذراعيه على صدره، يقيس الساحرة بنظرة باردة. "أي نوع من التصريحات تظنين أننا يجب أن نبدأ بها؟ من تمثلين، تريس؟ باسم من أتيتِ إلى هنا؟ لقد منحكِ الملك فولتيست منصبًا كمكافأة لخدماتكِ في مسألة اللعنة. لكنه طردكِ من تيميريا في النهاية، رغم أنكِ لم ترتكبي أي ذنب. سمعتُ أن فيليبا إيلهارت أخذتكِ تحت جناحها. فيليبا، التي تعمل حاليًا مع ديجسترا وحكومة ريدانيا الفعلية. أرى أنكِ تشكرينها على لجوئكِ بأفضل طريقة ممكنة. لدرجة أنكِ لم تترددي حتى في لعب دور الجاسوسة، المكلفة بتعقب صديقتكِ السابقة."

"أنت تُهينني، إيرل."

قال كراش ببرود، دون أن يطرف له جفن: "أطلب المغفرة بتواضع. إن كنتُ قد أخطأتُ. هل كنتُ مخطئًا؟"

ساد الصمت بينهما، كلٌّ منهما يقيس الآخر بنظرات حذرة متوجسة.

أخيرًا، لوّحت تريس بيدها في ضجر، تمتمت بشتيمة، وركلت الأرض بكعبها.

"أوه، اللعنة! لنكفّ عن هذه المراوغة! ما أهمية من يخدم من، ومن ينتمي لأي جانب، ومن بقي وفيًا لمن، ولأي سبب؟ ينيفر لم تعد على قيد الحياة. ولا يزال مصير سيري مجهولًا، لا نعلم أين هي، ولا في يد من... ما الفائدة من هذا التكتم؟ لم آتِ كجاسوسة، كراش. جئتُ بقرار شخصي، بصفتي الفردية. مدفوعة بقلقي على سيري."

ابتسم كراش ابتسامة باهتة وقال: "يبدو أن كثيرين قلقون بشأن سيري. الفتاة محظوظة للغاية."

تألقت عينا تريس بوميض تحذيري. "لن أعتبر ذلك سخرية. خاصةً ليس منك."

"أعتذر."

عاد الصمت ليخيّم عليهما، بينما كانا يحدقان عبر النافذة، حيث كانت الشمس الحمراء تغوص خلف القمم المشجرة لجزيرة سبايكروغ.

قال كراش بصوت هادئ: "تريس ميريجولد."

"نعم، إيرل؟"

"أود دعوتكِ للعشاء. آه، نعم، الطاهي يريد أن يعرف... هل جميع الساحرات يكرهن المأكولات البحرية؟"

لم تكن تريس تزدري المأكولات البحرية. على العكس تمامًا، فقد تناولت ضعف الكمية التي خططت لها، والآن بدأت تقلق بشأن خصرها—ذلك الخصر الذي يبلغ اثنين وعشرين إنشًا، وكانت تفخر به كثيرًا.

قررت تعزيز الهضم بكأس من النبيذ الأبيض، المصنوع من عنب توسان الشهير إيست إيست. شربت من قرن الشرب بصحبة كراش.

"إذن، ينيفر،" واصلت تريس الحديث، "ظهرت هنا في التاسع عشر من أغسطس، بطريقة درامية... سقطت من السماء مباشرة في شبكة صيد. وأنت، كوصي وفيّ لتاج سينترا، منحتها اللجوء. وساعدتها في بناء ميغاسكوب... وبالطبع، أنت تعلم مع من تحدثت، وعن ماذا تحدثت."

أخذ كراش أن كريت جرعة كبيرة من قرن الشراب، ثم كتم تجشؤًا بصعوبة، قبل أن يبتسم بمكر.

"أنا لا أعلم شيئًا."

ابتسمت تريس بسخرية، بينما تابع الإيرل بنبرة هازئة:

"بالطبع، لا أعلم شيئًا. كيف لي، أنا البحّار البسيط، أن أعرف أي شيء عن أعمال ساحرة قوية؟"

* * *

انحنت سيغردريفا، كاهنة مودرون فريا، برأسها منخفضًا، كأن كلمات الإيرل أثقلت كاهلها بوزن ألف رطل.

همست بصوت بالكاد يُسمع: "إنها تثق بي، إيرل. لم تطلب مني أن أتعهد بعدم الإفصاح، لكن الكتمان كان مفهومًا ضمناً. لا أدري حقًا إن كنت..."

قاطعها كراش أن كريت بجدية: "مودرون سيغردريفا. ما أطلبه ليس خيانة. مثلكِ، أنا أدعم ينيفر. مثلكِ، أرجو أن تجد سيري وتنقذها. ها، لقد قطعتُ قسم الدم! لكن ينيفر تقلقني، فأنا مدفوع بالحرص عليها. إنها امرأة فخورة بشكل مبالغ فيه. حتى لو اضطرت إلى خوض مخاطرة عظيمة، فلن تتواضع لتطلب المساعدة. لهذا، قد يكون من الضروري الإسراع إلى نجدتها دون أن تطلب. ولكي أفعل ذلك، أحتاج إلى معلومات."

تنحنحت سيغردريفا، وظلّ وجهها بلا تعبير.

لكن حين بدأت تتحدث، ارتجف صوتها قليلًا:

"لقد صممت هذه الآلة... في الواقع، ليست آلة، إذ لا يوجد فيها أي آلية. فقط مرآتان، ستارة من المخمل الأسود، هيكل، عدستان، أربع مصابيح، وبالطبع بريسينغامين... عندما تتلو تعويذة، تضيء المصابيح..."

لوّح كراش بيده بنفاد صبر: "لندع التفاصيل جانبًا. مع من تتواصل؟"

"تحدثت مع عدة أشخاص. مع سحرة..." توقفت للحظة، ثم زفرت ببطء. "إيرل، لم أسمع الكثير، لكن مما التقطتُه... لم يكن بينهم أي شخص جدير بالثقة حقًا. لم يكن أحد منهم مستعدًا للمساعدة بلا مقابل... جميعهم طلبوا المال... جميعهم طلبوا المال..."

"أعلم،" تمتم كراش، مزمجرًا بصوت خافت. "لقد رأيت التحويلات التي أجرتها من حسابي في البنك. يا له من مبلغ! قسمي قد كلفني ثروة طائلة! لكن المال يأتي ويذهب. ما أنفقته على ينيفر وسيري، سأكرره على مقاطعات نيلفجارد أيضًا. لكن تابعي، الأم سيغردريفا."

"بعضهم..." خفضت الكاهنة رأسها قليلًا. "تمكنت ينيفر من ابتزازهم بسهولة. أوحت بأنها تمتلك معلومات مُحرجة، وأنه إن رفضوا التعاون، فستكشفها أمام العالم بأسره... إيرل... إنها امرأة حكيمة وجيدة، في المجمل... لكنها لا تتردد إطلاقًا. إنها بلا ضمير. قاسية. ولا تعرف الرحمة."

"أنا أعرف ذلك جيدًا، بل أكثر مما ينبغي."

توقف لحظة، ثم أضاف بصرامة: "أما تفاصيل الابتزاز، فلا أريد معرفتها، وأوصيكِ بنسيانها في أسرع وقت ممكن. هذه معرفة خطيرة. لا ينبغي للغرباء أن يعبثوا بمثل هذا اللهب."

أومأت سيغردريفا برأسها ببطء. "أعلم، إيرل. أنا مدينة لك بالطاعة... وأعتقد أن أهدافك تبرر الوسائل. لن يتعلم أحد مني شيئًا. لا الصديق، ولا العدو في جلسة تعذيب."

"حسنًا، مودرون سيغردريفا. جيد جدًا... هل تتذكرين ما نُوقش في الاتصالات؟"

"لم أفهم كل شيء دائمًا، إيرل. كانوا يستخدمون مصطلحات يصعب فك شفرتها... لكن كان هناك حديث متكرر عن شخص يُدعى فيلجافورتز..."

"بالطبع." صرّ كراش على أسنانه بوضوح، مما جعل الكاهنة تلقي عليه نظرة مرتابة.

تابعت سيغردريفا: "كما كان هناك حديث كثير عن الإلف، وعن لغة القدماء... وعن بوابات سحرية. حتى من هاوية سيدنا... لكن الأهم من كل ذلك، أعتقد أن الحديث دار بشكل أساسي حول الأبراج."

رفع كراش حاجبيه: "أبراج؟"

"نعم. اثنان منها. برج النوارس وبرج السنونو."

* * *

"كما توقعتُ،" قالت تريس، نبرتها تنضح باليقين. "لقد اكتشفت ينيفر التقرير السري الأول للجنة رادكليف، التي حققت في أحداث ثانيد. لا أعلم إلى أي مدى وصلت أخبار تلك القضية إلى هنا، إلى سكيلجا... هل سمعت عن البوابة في برج النوارس؟ وعن لجنة رادكليف؟"

رمقها كراش أن كريت بنظرة حذرة، وقال ببرود، نبرته مغموسة بالتحفظ: "هنا، على الجزيرة، لا تصلنا السياسة ولا الثقافة. نحن معزولون."

اختارت تريس ألا تعلق على نبرته أو تعابير وجهه.

"لجنة رادكليف قامت بفحص المسارات التي خرجت من بوابة ثانيد السحرية. كانت بوابة تور لارا، الموجودة على الجزيرة، غير مفعّلة طالما بقيت الحواجز السحرية للبرج قائمة إلى حد ما. لكن، كما تعلم بلا شك، برج النوارس انفجر وانهار، مما جعل التنقل السحري ممكنًا. أغلب من تورطوا في أحداث ثانيد غادروا الجزيرة عبر الانتقال الفوري."

"بالفعل." ابتسم الإيرل بسخرية. "مثل هروبكِ مباشرة إلى بروكيلون. ومعكِ ويتشر على ظهركِ."

رفعت تريس حاجبًا، ناظرة مباشرة في عينيه: "إذن، السياسة والثقافة لا تصلان إلى هنا، لكن الشائعات تفعل. لكن دعنا نترك ذلك جانبًا الآن. لنعد إلى عمل لجنة رادكليف.

"هدف اللجنة كان تحديد من بالضبط استخدم الانتقال الفوري من ثانيد. استخدموا ما يُسمى السينوبس، تعويذة يمكنها عكس صورة للأحداث الماضية. كما تعقبوا آثار التنقل السحري وربطوها بالاتجاهات التي سلكتها، مما سمح لهم بتحديد الأفراد الذين فتحوا البوابات. نجحنا في تحديد جميع الحالات تقريبًا.

"باستثناء واحدة.

"أثرٌ للانتقال الفوري... قاد إلى العدم. أو بالأحرى، إلى البحر. إلى هاوية سيدنا."

"شخص ما،" أدرك الإيرل على الفور، "انتقل فورياً إلى سفينة كانت تنتظر في موقع متفق عليه. غريب أنهم استخدموا الانتقال السحري عبر هذه المسافة الطويلة... وإلى مكان سيئ السمعة كهذا. حسنًا، لو كان السكين على رقبتك..."

"بالضبط. اللجنة تعتقد ذلك أيضًا. وهكذا، خلصت إلى الاستنتاج التالي: فيلغيفورتز اختطف سيري، لكنه لم يكن يملك طريقًا آخر للهروب، لذا اضطر إلى استخدام المخرج الطارئ—قام بالانتقال الفوري مع الفتاة إلى هاوية سيدنا، حيث كانت تنتظره سفينة نيلفجاردية هناك.

"يدعم هذا الاستنتاج حقيقة أن سيري قُدمت في البلاط الإمبراطوري في لوك غريم في العاشر من يوليو، أي بعد عشرة أيام فقط من أحداث ثانيد."

ضاقت عينا كراش بتركيز. "هذا يفسر الكثير. بالطبع، إذا لم تكن اللجنة قد أخطأت في استنتاجاتها."

"طبيعي." حافظت تريس على نظرها ثابتًا، بل وسمحت لنفسها بابتسامة ساخرة طفيفة. "بالطبع، قد تكون سيري التي ظهرت في لوك غريم مجرد شبيهة، وليست سيري الحقيقية. وهذا أيضًا قد يفسر الكثير. مثل حقيقة أخرى اكتشفتها لجنة رادكليف... حقيقة غريبة جدًا، لدرجة أنها لم تُذكر حتى في النسخة الأولى من التقرير، لأنها اعتُبرت غير قابلة للتصديق. لكن تم تضمينها في النسخة الثانية، السرية للغاية، على شكل فرضية."

قال الإيرل، وقد زاد اهتمامه: "أنا مصغٍ إليكِ تمامًا منذ مدة، تريس."

تابعت تريس بنبرة أخفتها بالكاد حدة الترقب: "الفرضية التي وضعتها اللجنة هي كالتالي: بوابة الانتقال الفوري في برج النوارس دخلت حيز العمل. شخص ما عبرها، وكانت الطاقة الناتجة عن العبور قوية للغاية لدرجة أنها فجّرت البوابة، ودمرتها بالكامل."

"ينيفر،" واصلت بعد لحظة صمت قصيرة، "لا بد أنها خمّنت ما اكتشفته لجنة رادكليف. ما تم إخفاؤه بإحكام في التقرير السري. هناك احتمال... ظلّ من احتمال... أن سيري هي من عبرت بوابة تور لارا. أنها هربت من نيلفجارد و فيلغيفورتز..."

"أين هي إذن؟"

"أودّ معرفة ذلك أيضًا."

* * *

كان الظلام شيطانيًّا في الخارج.

تجمّعت السحب، متآمرة على إخفاء القمر خلفها، بالكاد سمحت لأي ضوء بالمرور. ومع ذلك، وبالمقارنة مع الليلة العاصفة السابقة، لم يكن هناك الكثير من الرياح، لذا لم يكن البرد قارسًا كما كان.

القارب الصغير تمايل فوق الأمواج المتكسرة، تحمله ببطء.

رائحة الطين ملأت المكان، ممزوجة برائحة النباتات المتحللة... ورائحة الرماد.

في مكان ما على الضفة، ضرب ذيل قندس سطح الماء، فأحدث صوتًا مفاجئًا جعل كليهما ينتفضان. كانت سيري متأكدة من أن فيسجوتا قد غفا للحظة، وأن ذلك القندس أيقظه.

"تابع الحديث،" قالت وهي تمسح أنفها بجزء من كمّها لا يزال جافًا ولم يتلوث بالمخاط. "لا تنم. إن غفوتَ، وأنا غفوتُ، سيحملنا التيار وسنستيقظ في البحر! أخبرني المزيد عن هذا الانتقال السحري!"

"عندما هربتِ من ثانيد،" تابع الناسك بصوت هادئ لكنه محمل باليقين، "عبرتِ من خلال البوابة في تور لارا، برج النوارس. ولكن جيفري مونك—وهو أعلى سلطة في مجال الانتقال السحري، ومؤلف كتاب سحر الأجناس القديمة، والذي يُعدّ الإنجاز الأسمى في معرفة البوابات الإلفية كتب أن بوابة تور لارا لا تقود إلى العدم..."

"بل تقود إلى تور زيرائيل... برج السنونو."

"بوابة ثانيد كانت محطّمة،" قاطعت سيري، نبرتها تحمل تحديًا عنيدًا. "ربما، قبل أن تتحطم، كانت تقود إلى برج. لكن الآن... الآن تقود إلى الصحراء. إنها تُسمّى بوابة فوضوية. لقد درستُ هذا."

"تخيّلي، لقد درستُ هذا أيضًا،" زمجر الشيخ العجوز ساخرًا. "وأتذكّر منه الكثير. لهذا السبب، أتعجب من قصتكِ... من بعض أجزائها. وبشأن هذا الانتقال الفوري..."

ضاقت عيناها بترقب: "هل يمكنك أن تتحدث بوضوح أكثر؟"

"هل أستطيع، سيري؟ أستطيع. لكن الآن، حان الوقت لسحب المصيدة. لا بد أن هناك بعض ثعابين البحر بداخلها. مستعدة؟"

"مستعدة."

بصقت على يديها وفركتهما معًا، ثم أمسكت بخطاف القارب. بدأ فيسجوتا في سحب الحبل المغمور بالماء.

"شدّيها! هيا... اسحبي! وارميها داخل القارب! أمسكيها، سيري، بسرعة! إلى السلة، وإلا ستفلت!"

* * *

كانت هذه الليلة الثانية التي خرجا فيها إلى الروافد الموحلة للنهر، ووضعا مصائد الأسماك لاصطياد ثعابين البحر التي كانت تهاجر بأعداد كبيرة نحو البحر.

عندما عادا إلى الكوخ، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير. كانا مبتلّين، متعبين، ومغطّيين من الرأس إلى أخمص القدمين بطبقة لزجة من الوحل والمخاط.

لكن مع ذلك، لم يذهبا إلى النوم.

كان على الصيد، المخصص للتبادل التجاري، أن يُعبّأ في الصناديق ويُغلق بإحكام—لأن ثعابين البحر، إن وجدت حتى أصغر فجوة، فلن يبقى منها أيّ شيء حتى الصباح.

عندما أنهيا العمل، أخرج فيسجوتا اثنين أو ثلاثة من أكبر الثعابين من السلة، قطعها إلى أجزاء، غلّفها بالدقيق، ثم قلاها في مقلاة ضخمة.

تناولا الطعام... وتحدثا.

قال الشيخ، بينما يمضغ قطعة من لحم الثعبان، وصوته يحمل نبرة تفكير عميق:

"أتعلمين، سيري؟ هناك شيء لا يزال يبقيني مستيقظًا في الليل. لم أنسَ ما اختلفنا حوله، بعد شفائك مباشرة. حول التاريخ... وحول الجرح على خدّك، ذلك الجرح الذي يُعدّ أدقّ تقويم يمكن تخيله. هذا الجرح لم يكن ليكون أقدم من عشر ساعات، لكنكِ أصررتِ على أنه مرّ عليه أربعة أيام منذ أصبتِ به. ورغم أنني كنتُ متأكدًا أن هذا مجرد خطأ شائع... لم أستطع التوقف عن التفكير فيه."

رفع عينيه إليها، وصوته صار أكثر هدوءًا، لكنه أكثر ثقلًا:

"لذا، سألتُ نفسي سؤالًا واحدًا: أين ذهبت هذه الأيام الأربعة المفقودة؟"

"إذن؟ أين كانت هذه الأيام الأربعة، في رأيك؟"

"لا أعلم."

"رائع، إذن..."

قاطعها القط، منقضًا على فأر نحيل، أطلق صريرًا حادًا قبل أن يُطبق فكيه على عنقه. بأسلوب غير مبالٍ، مزق أحشاءه، ثم بدأ يلتهمه بشهية مفتوحة.

"بوابة برج النوارس"، تابع فيسجوتا، "تقود إلى برج السنونو... لكن..."

أنهى القط وجبته، ولم يترك سوى الذيل كتحلية.

"البوابة في تور لارا"، تمتمت سيري بينما تتثاءب بعمق، "محطّمة، وتقود إلى الصحراء. أخبرتكَ بذلك أكثر من مئة مرة."

"هذا لا يهم في الوقت الحالي. هناك صلة بين هاتين البوابتين. بوابة تور لارا محطّمة. لكن هناك بوابة أخرى في تور زيرائيل. إن تمكنتِ من الوصول إلى برج السنونو، يمكنكِ نقل نفسكِ مجددًا إلى جزيرة ثانيد. ستبتعدين عن الخطر الذي يلاحقكِ، وستكونين خارج متناول أعدائكِ."

ضحكت سيري بسخرية: "ها! سيكون ذلك مناسبًا لي تمامًا. هناك فقط مشكلة صغيرة واحدة... ليس لدي أدنى فكرة عن مكان برج السنونو هذا."

"لكنني، على الأرجح، أستطيع تغيير ذلك."

حدقت فيه، ثم سألته بحذر: "كيف؟"

ابتسم العجوز ابتسامة خفيفة، وهو يلمس طرف أنفه بإصبعه.

"هل تعلمين ما الذي يمنح الرجل درجته الأكاديمية؟"

"لا. ما هو؟"

"قدرته على استخدام المصادر."

* * *

"كنتُ أعلم ذلك!" قال ڤيسوجوتا بفخر، "لقد وجدته! بحثتُ، وبحثتُ، و .. أوه .. اللعنة..."

تكدّس الكتب الثقيلة انزلق من بين أصابعه، وسقطت المخطوطات القديمة على الأرض، محدثة ضجيجًا مكتومًا. انفرطت الصفحات من أغلفتها المهترئة، وتبعثرت عشوائيًا حولهما.

"ماذا وجدت؟"

ركعت سيري بجانبه، تساعده في جمع الصفحات المتناثرة.

"برج السنونو!" نفض الناسك الغبار عن إحدى الصفحات وهو يبعد القط الذي جلس فوقها بلا اكتراث. "تور زيرائيل. ساعديني!"

"هذه الصفحات مغطاة بالغبار! يا للخشب المتفتت! فيسجوتا؟ ما هذا؟ هنا، في هذه الصورة؟ هذا الرجل المعلق من الشجرة؟"

نظر الشيخ إلى الصفحة المفكوكة وتمتم: "هذا؟ مشهد من أسطورة هيمدال. البطل هيمدال علّق نفسه على شجرة العالم لمدة تسعة أيام وتسع ليالٍ، ليكتسب المعرفة والقوة عبر التضحية والألم."

سيري مسحت جبهتها بظهر يدها، ناظرة إلى الصورة بإمعان.

"لقد راودني هذا الحلم أكثر من مرة... رجل معلق من شجرة..."

قال فيسجوتا وهو يعيد ترتيب الصفحات: "النقش سقط من الكتاب... إذا أردتِ، يمكنكِ قراءته لاحقًا. لكن الأهم الآن... آه، ها هو أخيرًا. مسارات وأماكن السحر، تأليف بويڤيد باكهويسن، كتاب معروف بكونه مشوبًا ببعض المبالغات..."

"هذا يعني مزوّرًا؟"

"إلى حدٍّ ما. لكن هناك دائمًا من يعرف كيف يقدّر الكتب... الآن، استمعي..."

"اللعنة، الظلام هنا كثيف..."

سيري، بنبرة ساخرة تعكس قسوة الشباب غير المبالية: "النور كافٍ، أنت فقط تفقد بصرك بسبب الشيخوخة."

"أعطني إياه، سأقرأه بنفسي. أين أبدأ؟"

أشار بإصبعه العظمي إلى فقرة معينة.

"هنا. اقرأيه بصوت عالٍ."

* * *

"هذا بويڤيد يكتب بطريقة غريبة،" تمتمت سيري وهي تتمعن في النص. "يبدو أن أسينجارد كان أشبه بقصر، إن لم أكن مخطئة. لكن ما هذه البلاد: مائة بحيرة؟ لم أسمع بها من قبل. وما هو تريفوليوم؟"

"نفل." أجاب ڤيسوجوتا بلا تردد، ثم أضاف: "وسأخبركِ عن مائة بحيرة وأسينجارد بعد أن تُنهي القراءة."

* * *

وما إن نطق الإلف أڤالاخ بهذه الكلمات، حتى انطلق طائر صغير أسود اللون مسرعًا من تحت مياه البحيرة، حيث كان قد وجد ملاذًا طوال فصل الشتاء.

وكما يعرف العلماء جيدًا، فإن السنونو لا يهاجر في الخريف ليعود في الربيع مثل باقي الطيور، بل يجمع مخالبه الصغيرة في عناقيد ضخمة، ويغوص إلى قاع الماء، حيث يقضي هناك فصل الشتاء بأكمله حتى يحين الربيع، فينطلق مجددًا من تحت سطح الماء.

ولهذا السبب، لا يعد السنونو رمزًا للربيع والأمل فحسب، بل أيضًا مثالًا على الطهارة المطلقة، لأنه لا يهبط أبدًا على الأرض، ولا يمسّ قذارتها أو دنسها.

ولكن لنعد إلى بحيرتنا: بدا أن الطائر الدائر في السماء قد وجد فينا فضولًا، إذ راح يبدّد الضباب بجناحيه الصغيرين، وفجأة، ومن وسط الضباب، ظهرت أمامنا برج عجيب، برج ساحر.

تنهدنا جميعًا بانبهار، وكأننا شخص واحد، إذ أن هذا البرج، الذي كان أساسه متشابكًا مع الضباب والغيوم، كان يتوّج في أعلاه بتوهج متلألئ، مثل شفق قطبي سحري.

حقًا، لم يكن بالإمكان بناء هذا البرج إلا بفنون سحرية هائلة، فقد كان لغزًا يتجاوز فهم العقل البشري.

كان الإلف أفالاخ واعيًا لانبهارنا، فقال:

"هذا هو تور زيرائيل، برج السنونو. إنه ملتقى العوالم وبوابة الزمن. ابتهجوا، أيها البشر، لأن أعينكم رأت هذا المشهد، فليس الجميع قادرين على رؤيته، وليس في كل الأوقات."*

لكن حين سُئل عما إذا كان بإمكاننا الاقتراب ومشاهدة البرج العظيم عن كثب، ضحك أفالاخ قائلاً:

"تور زيرائيل ليس سوى حلم بالنسبة لكم، ولا يمكنكم لمس الحلم. وهذا أمر جيد،" ثم أضاف، "لأن البرج لا يخدم إلا من يمتلكون المعرفة، القلة المختارة، إذ أن بوابة الزمن هي باب للأمل والبعث. أما لعامة الناس، فهي بوابة إلى الكوابيس."

وما إن نطق بهذه الكلمات، حتى عاد الضباب ليصعد مجددًا، وأصبحت أعيننا عاجزة عن رؤية ذلك المشهد السحري..."

* * *

"إن المشهد الطبيعي لمائة بحيرة"، قال فيسجوتا وهو يقلب صفحة من المخطوطة، "هو ما يُعرف اليوم بميل تراكهتا. إنها منطقة شاسعة، تخترقها نهر يلينا، الذي يتعرج بين البحيرات في شمال متينا، قرب حدود نازير وماج تورغا."

"بويڤيد باكهويسن كتب أن الرحلة إلى البحيرة انطلقت من أسينجارد... لكن أسينجارد لم يعد له وجود اليوم، لم يتبقَ منه سوى الأطلال، وأقرب بلدة إليه هي نوينرويث. بويڤيد حسب المسافة بأنها ستة عشر فرسخًا من أسينجارد. كانت هناك وحدات قياس مختلفة آنذاك، لكن إن استخدمنا الأكثر شيوعًا، يمكننا أن نستنتج أن ستة عشر فرسخًا تساوي حوالي خمسين ميلًا بمعاييرنا."

رفع نظره إليها، نبرته متزنة لكنها تحمل نغمة خفية من الحماس المكتوم.

"نحن في بيريبلوت، على بعد ثلاثمائة وخمسين ميلًا جنوب أسينجارد.

"بمعنى آخر، سيري، لا يفصلكِ عن برج السنونو سوى ثلاثمائة ميل، زيادة أو نقصانًا. على ظهر كيلبي، قد يستغرق الأمر منكِ حوالي ستة أسابيع للوصول إليه."

"في الربيع، طبعًا. ليس الآن، فالثلوج قد تبدأ في التساقط خلال يوم أو يومين."

سيري تمتمت، بينما كانت تمسك بأنفها في حركة تفكير عميق:

"من خلال ما قرأتُ، أسينجارد لم يعد سوى أطلال من الماضي. وأنا رأيتُ بأم عينيّ أطلال مدينة شيراويد الإلفية في كيدوين. كنتُ هناك. لقد نهبها البشر بالكامل، لم يتركوا سوى الأحجار العارية. أراهن أن ما تبقى من برج السنونو هو مجرد حجارة، وربما الأحجار الأكبر فقط—أما الأصغر، فقد تم سرقتها بلا شك. وإن كانت هناك بوابة هناك..."

فيسجوتا هز رأسه بتؤدة، وقال:

"لكن تور زيرائيل كان برجًا سحريًا. لم يكن مرئيًا للجميع. والبوابات السحرية لا تُرى أبدًا."

سيري أومأت، أفكارها تتسارع:

"صحيح. البوابة في ثانيد لم تكن مرئية، ظهرت فجأة على جدار أملس... بالمناسبة، في الوقت المناسب تمامًا، لأن الساحر الذي كان يطاردني كان يقترب... سمعتُ خطواته... ثم، وكأنها استجابت لأمر، ظهرت البوابة."

فيسجوتا قال بهدوء، لكن صوته كان يحمل قناعة غريبة:

"أنا متأكد، سيري، إن ذهبتِ إلى تور زيرائيل، فستكشف لكِ البوابة هناك نفسها أيضًا. حتى لو لم يتبقَ من البرجِ سوى الأنقاض، محاطة بالأحجار العارية، فأنا واثق أنكِ ستجدين البوابة وتفعّلينها.

"وستكون تحت طاعتكِ... لأنني أعتقد، سيري، أنكِ المختارة."

* * *

"شعركِ، تريس، يتوهج كالنار في ضوء الشموع. وعيناكِ مثل حجر لازورد، شفاهكِ كالشُعَب المرجانية..."

"توقف عن هذا، كراش. هل أنتَ ثمل أم ماذا؟ اسكب لي بعض النبيذ. وتحدث."

"عن ماذا؟"

"لا تكن غبيًا! عن كيف قررت ينيفر الذهاب إلى هاوية سيدنا."

* * *

"كيف تتقدمين؟ تحدثي، ينيفر."

"أولًا، ستجيبني على سؤال واحد: من هما المرأتان اللتان ألتقي بهما في كل مرة أزورك؟ اللتان تنظران إليّ كما لو كنتُ مجرد قطعة من فضلات القطط ملقاة على الأريكة؟ من هما؟"

"هل تريدين معرفة وضعهما القانوني الرسمي أم الحقيقة الفعلية؟"

"الحقيقة الفعلية."

"إنهما زوجتاي."

"فهمتُ. ربما يجدر بكَ أن تشرح لهما، عندما تسنح الفرصة، أن الماضي قد مضى، ولم يُسجَّل في السجلات."

"لقد فعلتُ. لكن النساء هن النساء."

لوّح بيده متجاهلًا الأمر، ثم عاد إلى الموضوع الأساسي:

"لا علينا. أخبريني، ينيفر. أنا مهتم بمعرفة مدى تقدم عملكِ."

عضّت الساحرة على شفتيها، قبل أن تقول بقلق واضح:

"للأسف، التقدم ضئيل للغاية. والوقت ينفد."

"إنه ينفد بالفعل." أومأ برأسه ببطء، ثم أضاف: "ويجلب معه دائمًا مستجدات جديدة. لقد وصلتني أخبار من القارة ستثير اهتمامكِ. الأخبار جاءت من فيسيجيرد كوربس. آمل أنكِ تعرفين من هو فيسيجيرد؟"

"جنرال من سينترا؟"

"مشير. أو بالأحرى، حاجب البلاط. يقود جزءًا من جيش تيميريا، مكوّن من مهاجرين ومتطوعين سينترايين. هناك عدد كافٍ من المتطوعين من الجزر، ما يكفي لجلب الأخبار مباشرة."

"وما هي الأخبار؟"

"أنتِ وصلتِ إلى سكيلجا في اليوم التاسع عشر من أغسطس، بعد يومين من اكتمال القمر. في نفس اليوم، أي في التاسع عشر، استقبل فيسيجيرد كوربس، خلال القتال على نهر إينا، مجموعة من اللاجئين... من بينهم جيرالت... ومعه شاعر يعرفه جيدًا..."

"داندليون؟"

"بالضبط. فيسيجيرد اتهمهما بالتجسس، واحتجزهما، وكان ينوي إعدامهما، لكن الأسيرين تمكنا من الهرب واتجها مباشرة نحو النيلفجارديين الذين زعم فيسيجيرد أنهما كانا يتآمران معهم."

"هراء."

"أعتقد ذلك أيضًا. لكن لدي شعور بأن الويتشر، خلافًا لما تظنينه، ربما يلاحق خطة ما بذكاء. ربما يحاول إنقاذ سيري من براثن النيلفجارديين..."

"سيري ليست في نيلفجارد. وجيرالت لا يلاحق أي خطة. التخطيط لم يكن أبدًا إحدى نقاط قوته."

توقفت لحظة، تنظر عبر النافذة، تلعب بشريط المخمل الأسود المتصل بنجمة الأوبسيديان المعلّقة حول عنقها.

"لا يهم. المهم هو أن اليوم هو السادس والعشرون من سبتمبر، وما زلتُ أعرف القليل جدًا. ليس بما يكفي لفعل شيء... إلا إذا..."

رفع الإيرل حاجبه: "إلا إذا؟"

همست ينيفر، وكأنها تتحدث إلى نفسها أكثر منه:

"بدلًا من أن أضحك على طريقة جيرالت، يمكنني أن أجرب طريقته."

"لا أفهم."

"يمكنني أن أجرب التضحية. التضحية تؤتي ثمارها، نعم، وتظهر قوة الشخصية... وهي تتجسد في نعمة الإلهة. إنها تحب وتقدّر من يضحّون ويعانون في سبيل قضية."

قطب حاجبيه، صوته مشوب بعدم الارتياح:

"ما زلتُ لا أفهم. لكنني لا أحب ما تقولينه، ينيفر."

"أعلم. ولا أنا. لكنني تقدّمتُ بالفعل أبعد مما ينبغي... ربما، قد يكون على الأسد أن يسمع شكوى الحَمَل..."

* * *

"كنتُ أخشى ذلك،" همست تريس، بصوت مشوب بالقلق. "هذا بالضبط ما كنتُ أخشاه."

"أعني، لقد فهمتُ الأمر في حينه."

كراش أن كريت شدّ فكيه، عضلات وجهه توترت ببطء.

"ينيفر علمت أن شخصًا ما كان يتنصت على المحادثات التي أجرتها عبر آلتها الجحيمية... أو أن أحد المتحدثين معها كان خائنًا، ينقل الأخبار..."

"أو كلا الأمرين."

"كانت تعرف."

كراش صرّ على أسنانه، نبرته مشوبة بالغضب المكتوم.

"لكنها مع ذلك استمرت فيما بدأته. ربما لأنها احتاجت إلى طُعم؟ استخدمت نفسها كإغراء؟ هل تظاهرت بأنها تعرف أكثر مما تعرف حقًا، كي تستفز العدو؟ وهكذا قررت الذهاب إلى هاوية سيدنا..."

تريس أومأت، عيناها تتوهجان بقلق متزايد:

"كتحدٍ. كاستفزاز مباشر. لقد كانت تخاطر بمجازفة مروعة، كراش."

"أعلم. لكنها لم ترد أن يخاطر أحدٌ سواها... فقط المتطوعين. لذا طلبت سفينتين من التنانين"...

* * *

"لدي السفينتان اللتان طلبتهما،" قال كراش أن كريت، وهو يحدق في ينيفر بعينين جادتين. "'ألكيون' و'تامارا'. والطاقم كذلك. سيتم قيادة ألكيون بواسطة غوثلاف، ابن سفين، لأنه طلب هذا الشرف بنفسه. يبدو أنكِ تركتِ انطباعًا قويًا عليه، ينيفر."

"أما تامارا، فسيقودها آسا ثيّازي، وهو قبطان أثق به تمامًا. أوه، كدتُ أنسى. سيكون ابني ضمن طاقم تامارا... هيالمر، مُشقّق الشفاه."

رفعت ينيفر حاجبًا باستغراب: "ابنك؟ كم عمره؟"

"تسعة عشر عامًا."

"بدأتَ مبكرًا."

"انظري من يتحدث،" ردّ الإيرل بابتسامة جانبية. "لكن هيالمر لديه أسباب شخصية للانضمام إلى الطاقم. لم أستطع رفض طلبه."

"أسباب شخصية؟"

"ألا تعرفين القصة حقًا؟"

"لا. أخبرني."

أفرغ كراش قرن الشراب خاصته في جرعة واحدة، ثم ابتسم ابتسامة شاردة، بينما كان يستعيد ذكرياته.

"أطفال أرد سكيلج يحبون التزلج على الجليد في الشتاء. بالكاد يستطيعون انتظار قدوم الصقيع الأول. إنهم دائمًا أول من يمشي على البحيرات المتجمدة حديثًا، فوق صفائح الجليد الرقيقة التي لا يمكنها تحمل وزن شخص بالغ."

"وبالطبع، السباقات هي الأفضل. الركض واكتساب الزخم وكأن الغد لن يأتي، من شاطئ إلى آخر. لكن الأولاد ينظمون أيضًا مسابقات يسمونها قفزات السلمون."

"الفكرة هي القفز فوق الصخور التي تبرز من الجليد مثل أسنان القرش. تمامًا كما يقفز السلمون عبر مستويات الشلال."

"تبحث عن خط مناسب من الأحجار، تقفز... وهاه! أجد نفسي أتحدث كطفل صغير مفعم بالحماس."

توقف كراش أن كريت عن الحديث للحظة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة، تحمل شيئًا من الحنين.

"بطبيعة الحال،" تابع كراش أن كريت، بنبرة ساخرة، "من يقفز أبعد عدد من الصخور يفوز... ثم يبدأ بالتباهي كطاووس متعجرف. في ذلك الوقت، ينيفر، كان الفائز غالبًا ما يُكافأ بي، بعبوديتي المتواضعة ليومٍ كامل، أوهوه."

"وهذا تحديدًا ما أثار اهتمام ابني، هيالمر. لقد قفز فوق صخور لم يجرؤ أيٌّ من الأولاد الآخرين على مجرد محاولة القفز فوقها. وهذا جعله متكبرًا، رافعًا أنفه عاليًا—لقد تحدّى أي شخص أن يتفوق عليه."

"وقد قُبل التحدي."

ينيفر عقدت ذراعيها، عيناها تلتمعان بالفضول: "ومن قبله؟"

ابتسم الإيرل ابتسامة واسعة، وكأنه يستمتع بكشف القصة تدريجيًا:

"من قبل سيري، ابنة بافيتا من سينترا."

"لكنها لم تكن حتى من سكان الجزيرة."

"هذا صحيح، لكن سُمح لها بالمشاركة لأنها قضت وقتًا هنا أكثر مما قضته في سينترا."

ينيفر رفعت حاجبها ببطء: "حتى بعد حادثة بافيتا؟ كنت أعتقد أن كالانثي منعتها من البقاء هنا؟"

كراش ألقى عليها نظرة جانبية، نبرته أصبحت أكثر حذرًا: "تعرفين عن ذلك؟ إذن فأنتِ تعرفين الكثير، ينيفر. الكثير جدًا."

ثم أومأ برأسه، متابعًا حديثه وكأنه يستعيد ذكريات بعيدة:

"لكن غضب كالانثي وحظرها لم يدوما أكثر من ستة أشهر. بعدها، بدأت سيري تقضي الصيف والشتاء هنا مرة أخرى... وبدأت في التزلج أيضًا."

"كانت سريعة كشيطانة صغيرة، لكن أن تتحدى الأولاد في قفزات السلمون؟ وأن تتحدى هيالمر؟ أمر لا يمكن تصديقه!"

ينيفر، دون أن تخفي ابتسامتها المتوقعة: "لقد قفزت، أليس كذلك؟"

كراش ضحك، نبرته تحمل شيئًا من الفخر والدهشة: "نعم. تلك الصغيرة من سينترا كانت تقفز وكأنها نصف شيطان. شبل حقيقي من دم اللبؤة."

"وبالطبع، هيالمر، حتى لا يتحول إلى أضحوكة، اضطر إلى المجازفة... حاول القفز فوق سلسلة من الصخور أطول مما قفزته سيري."

"وكانت النتيجة؟"

كراش تنهد، وكأنه يتذكر المشهد بوضوح:

"كسر ساقه، وذراعه، وأربع أضلاع، وحطم وجهه بالكامل."

"الندبة سترافقه حتى الموت... ومنذ ذلك اليوم، أصبح هيالمر يُعرف بـ مُشقَّق الشفاه! ومعها... خطيبته الشهيرة. هيهي!"

"خطيبة؟"

"ألم تعرفي ذلك أيضًا؟ كيف يمكنكِ أن تعرفي كل هذه التفاصيل عن بعض الأمور، بينما تغفلين عن أمور أخرى تمامًا؟"

كراش هز رأسه ضاحكًا، ثم تابع:

"لقد جاءت لزيارته بينما كان طريح الفراش، يتعافى من تلك القفزة المجنونة. كانت تقرأ له، تتحدث معه، تمسك يده... وإذا دخل أحد الغرفة، كان كلاهما يحمرّ وجهه مثل الفجل."

"وفي النهاية، أعلن هيالمر لي بكل جدية أنهما قد خطبا بعضهما رسميًا."

"كدتُ أصاب بسكتة دماغية من الضحك. أخبرتُ هذا الغرّ أنني سأرتّب له خطوبة، لكن باستخدام السوط!"

"لكنني كنتُ قلقًا قليلًا، لأنني لاحظت أن الشبل كان ذا دماء ساخنة. حتى عندما كانت الأمور تسير بسلاسة، كانت متهورة، لا بل مجنونة بعض الشيء... لحسن الحظ، كان هيالمر لا يزال عالقًا في الفراش، لذا لم يتمكنا من الهروب وارتكاب أي حماقة..."

ينيفر ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت بفضول: "كم كان عمرهما آنذاك؟"

"كان هيالمر في الخامسة عشرة، أما سيري فكانت تقترب من الثانية عشرة."

"يبدو أن مخاوفك قد تكون مبالغًا فيها بعض الشيء."

كراش أومأ على مضض: "ربما. لكن كالانثي، التي اضطررتُ لإخبارها بكل شيء، لم تأخذ الأمر بخفة. كنتُ أعلم أن لديها خططًا لزواج سيري، لربطها إما بالشاب تانكريد ثيسن من كوفير، أو ربما بأمير ريدانيا، رادوفيد، لا أعرف على وجه الدقة.

"لكن الشائعات قد تُفسد خطط الزواج، حتى لو كانت مجرد شائعات عن قُبل بريئة... أو شبه بريئة."

"لذلك، أعادت كالانثي سيري إلى سينترا على الفور.

"كانت الفتاة تصرخ وتحتج، والدموع والمخاط يتطايران منها، لكنها لم تُجدِ شيئًا. لبؤة سينترا حسمت الأمر."

"أما هيالمر، فقد أمضى يومين كاملين مستلقيًا على السرير، وجهه نحو الحائط، رافضًا الحديث مع أي أحد."

"وحين تعافى أخيرًا، حاول سرقة قارب صغير والإبحار إلى سينترا وحده."

كراش ضحك بصوت أجش، ثم أضاف:

"اضطررتُ إلى تهدئته... باستخدام حزامي."

"لكن بعد ذلك..."

كراش أن كريت توقف، غارقًا في التفكير.

"ثم جاء الصيف... ثم الخريف... ثم اجتاحت قوة نيلفجارد سينترا، عبر درجات مارنادال، فوق الأسوار الجنوبية."

"وجد هيالمر حينها فرصة مختلفة ليصبح رجلًا."

"واجه السود في مارنادال بجرأة، ثم في سينترا، ثم في سودين. وحتى لاحقًا، عندما أبحرت سفن التنانين نحو سواحل نيلفجارد، كان هيالمر يحمل سيفًا في يده، منتقمًا لخطيبته التي كان يعتقد أنها قد ماتت آنذاك."

"أما أنا، فلم أكن أعتقد ذلك. لأن الظواهر التي أخبرتكِ عنها سابقًا لم تحدث... والآن، بعدما سمع هيالمر عن احتمال وجود بعثة إنقاذ، تطوّع للانضمام إليها."

"شكرًا على القصة، كراش،" قالت ينيفر بابتسامة نادرة، نبرتها أقل توترًا. "أشعر أنني تجددتُ بعد الاستماع إليها. جعلتني... أنسى همومي قليلًا."

كراش نظر إليها، قبل أن يسأل بجدية:

"متى سترحلين، ينيفر؟"

"في الأيام القادمة. ربما حتى غدًا."

"لديّ اتصال سحري أخير عليّ إجراؤه."

* * *

كانت عينا كراش أن كريت كعيني صقر.

اخترقتا تريس بحدة، كأنهما تحاولان النفاذ إلى أعمق أفكارها...

"هل تعلمين، تريس ميريجولد، مع من أجرت ينيفر مكالمتها الأخيرة، قبل أن تفكك آلتها الجحيمية؟ في ليلة السابع والعشرين إلى الثامن والعشرين من أغسطس؟ مع من؟ وعن ماذا؟"

أغلقت تريس عينيها للحظة، تخفي نظراتها عنه، محاولة تجنب المواجهة المباشرة.

* * *

انعكس الشعاع الساطع، المحطم بواسطة الألماسة، على سطح المرآة.

مدّت ينيفر كلتا يديها وبدأت تتلو تعويذتها.

الضوء الأبيض المبهر تركز وانعكس إلى ضباب... وسرعان ما بدأت صورة تتجلى.

غرفة، جدرانها مغطاة بمنسوجات زاهية الألوان.

حركة عند النافذة. وصوت مضطرب:

"من هناك؟ من؟"

"أنا هنا، تريس."

"ينيفر! هل هذه أنتِ؟ يا للآلهة! كيف... أين أنتِ؟"

"لا يهم أين أنا. لا تحجبي الصورة، لأن الرؤية غير مستقرة. وأبعدي تلك الشمعة، إنها تعميني."

"أوه، بالطبع."

تريس ميريجولد، رغم أن الوقت كان متأخرًا ليلًا، لم تكن ترتدي ثياب النوم ولا ثياب العمل. بل كانت ترتدي فستانًا للخروج، وكعادتها، ذو ياقة عالية ومغلق بالكامل.

"هل يمكننا التحدث بحرية؟"

"بالطبع."

"أأنتِ وحدكِ؟"

"نعم."

"تكذبين."

"ينيفر..."

"أنتِ تخدعينني، أيتها الصغيرة. أنا أعرف وجهكِ؛ أعرفكِ جيدًا. إنه نفس التعبير الذي كنتِ تضعينه عندما بدأتِ تنامين مع جيرالت من وراء ظهري.

"آنذاك، كنتِ تلبسين نفس القناع البريء المتردد، القناع الذي أراه على وجهكِ الآن. وهذا يعني الشيء نفسه الذي كان يعنيه آنذاك!"

احمرّ وجه تريس خجلًا... ثم ظهرت فيليبا إيلهارت عند النافذة بجانبها، مرتدية سترة رجالية زرقاء داكنة.

"برافو،" قالت ببرود. "كالعادة، سريعة. كالعادة، دقيقة الملاحظة. وكالعادة، يصعب فهمكِ أو التنبؤ بكِ. يسعدني أن أراكِ بصحة جيدة، ينيفر. أنا سعيدة لأن انتقالك السحري المجنون من مونتيكالفو لم ينتهِ بكارثة."

"فلنفترض أنكِ حقًا سعيدة،" تمتمت ينيفر بتهكم، حاجباها معقودان. "رغم أن هذا افتراض جريء للغاية. لكن لا بأس... من الذي خانني؟"

هزّت فيليبا كتفيها بلا مبالاة:

"وهل يهم؟ لقد كنتِ على اتصال بالخونة منذ أربعة أيام. بالنسبة لأمثالهم، الخيانة والانتهازية طبيعة ثانية.

"أما أولئك الذين ابتزّيتِهم كي يخونوا، فمن البديهي أن أحدهم قد خانكِ في المقابل. إنه مجرد المجرى الطبيعي للأحداث.

"لا تقولي لي أنكِ لم تتوقعي ذلك؟"

"بالطبع توقعتُ ذلك،" انفجرت ينيفر بحدة. "وأفضل دليل على ذلك هو أنني اتصلتُ بكما. لم أكن مضطرة لذلك."

"لم تكوني مضطرة، إذن لديكِ دافع خفي."

"برافو. كالعادة، سريعة. كالعادة، دقيقة الملاحظة."

توقفت لحظة، ثم أكملت بصوت ثابت:

"لقد اتصلتُ بكِ لأؤكد لكِ أن سرّ محفل الساحرات آمن معي. لن أخونكن."

حدّقت فيليبا فيها من تحت جفون نصف مغلقة، ثم قالت أخيرًا:

"إن كنتِ تعتقدين أن هذا التصريح يمنحكِ السلام، أو الوقت، أو الأمان، فأنتِ مخطئة في الحسابات. لا تخطئي الفهم، ينيفر."

"عندما هربتِ من مونتيكالفو، كنتِ قد اتخذتِ قراركِ. اخترتِ أن تقفي على الجانب الآخر من المتراس. إن لم تكوني مع المحفل، فأنتِ ضده."

"والآن، تحاولين منعنا من العثور على سيري، والدوافع التي تحركككِ تتعارض مع دوافعنا. أنتِ تعملين ضدنا. لا تريدين أن نستخدم سيري في أغراضنا السياسية."

"يجب أن تعرفي أننا، بالمثل، سنفعل كل ما في وسعنا لضمان ألا تتمكني من استخدام الفتاة لأغراضكِ العاطفية."

ينيفر لم ترف لها عين، ثم قالت ببرود:

"إذن، إنها الحرب؟"

"تنافس."

ابتسمت فيليبا بسُمِّيَّة، ابتسامة تحمل كل معاني الخداع والمكر.

"مجرد تنافس، ينيفر."

"تنافس نزيه وشريف؟"

"لا بد أنكِ تمزحين."

"بالطبع. رغم ذلك، هناك أمر واحد على الأقل، أود أن أتحدث فيه بصراحة وصدق. وبالمناسبة، يتضمن هذا الطلب معروفًا لي."

فيليبا مالت برأسها قليلاً:

"تكلمي."

توقفت ينيفر لحظة، ثم قالت بهدوء غير معتاد:

"خلال الأيام القادمة، ربما حتى غدًا، ستحدث أمور لا أستطيع توقع عواقبها. من المحتمل أن يصبح تنافسنا فجأة بلا معنى.

"لسبب بسيط... وهو أن أحد المتنافسين قد لا يكون موجودًا بعد الآن."

ضيّقت فيليبا إيلهارت عينيها الزرقاوين المظللتين بلون داكن.

"أفهم."

"أريد ضمانة، أنه بعد موتي، سأستعيد سمعتي واسمي الطيب. لن يُنظر إليّ مجددًا كخائنة أو كمتواطئة مع فيلغيفورتز.

"أطلب هذا من المحفل. وأطلبه منكِ شخصيًا."

ساد صمت ثقيل، بينما كانت فيليبا تحدّق فيها، تفكر... تفكر طويلًا.

"أرفض طلبكِ،" قالت فيليبا إيلهارت أخيرًا، نبرتها باردة كالجليد.

"أنا آسفة، لكن تبرئتكِ لا تخدم مصلحة المحفل. إذا متِّ، فستموتين كخائنة. ستظلين خائنة ومجرمة في نظر سيري، لأن ذلك سيجعل من السهل علينا التلاعب بالفتاة."

قبل أن تتمكن ينيفر من الرد، قطعت تريس الصمت فجأة، صوتها متردد لكنه حازم:

"قبل أن تفعلي شيئًا قد يكون قاتلًا، اتركي لنا شيئًا..."

"وصية؟"

"شيئًا يمكننا من... الاستمرار. من العثور على سيري. لأننا، أولًا وقبل كل شيء، نهتم بصحتها! بحياتها!

"ينيفر، ديجسترا وجد بعض الآثار... بعض الأدلة على أنشطة معينة. إذا كان فيلغيفورتز يحتجز سيري، فالفتاة تواجه موتًا مروعًا."

"اصمتي، تريس!"

همست فيليبا بحدة، وكأنها أفعى تلدغ بصوتها.

"نحن لا نساوم ولا نتاجر."

"سأترك لكم المعلومات."

قالت ينيفر ببطء، عيناها تضيقان في تحدٍ، نبرتها كأنها تحفر كلماتها في الحجر:

"سأترك لكم ما وجدته، وما أخطط له. سأترك أثرًا يمكنكِ تتبعه للوصول إليها. لكن ليس بلا مقابل.

"إذا لم تسعي لتبرئتي أمام العالم، فإلى الجحيم بكِ وبالعالم. لكن على الأقل... امنحيني التبرئة أمام الويتشر."

"لا."

رفضت فيليبا على الفور، بلا تردد، بلا تفكير حتى.

"هذا أيضًا ليس في مصلحة المحفل. ستبقين في عينه خائنة وساحرة مرتزقة. لا يمكننا المخاطرة بأن يحاول الانتقام لكِ بجنون. إذا احتقركِ، فلن يحاول الثأر.

"وبالمناسبة، ربما يكون قد مات بالفعل... أو سيموت في أي لحظة."

عين ينيفر اشتعلت ببريق بنفسجي قاتم، غضبها كالعاصفة الصامتة:

"المعلومات، مقابل حياته. أنقذيه، فيليبا."

"لا، ينيفر."

"لأنه ليس في مصلحة المحفل."

استدارت إلى تريس، نظرتها كانت أشبه بطعنة خنجر:

"هل سمعتِ ذلك، تريس؟ ها هو محفلكِ! ها أنتِ ترين وجوههم الحقيقية، ومصالحهم الحقيقية."

"ما رأيكِ فيهم الآن؟"

"كنتِ معلمة للفتاة، تقريبًا—كما كنتِ تحبين أن تقولي—أختًا كبرى لها."

"وجيرالت؟"

رفعت فيليبا حاجبها بسخرية، وعيناها تتقدان بنارها الخاصة:

"لا تهاجمي علاقة تريس، ينيفر. سنعثر على الفتاة وننقذها بدون مساعدتكِ. وإن نجحتِ أنتِ، فهذا رائع، ألف شكر لكِ، لأنكِ ستوفرين علينا عناء البحث."

"اقتحمي مخبأ فيلغيفورتز، مزقي الفتاة من يديه، وسنكون مسرورين بذلك."

"أما جيرالت؟ فمن يهتم بجيرالت؟"

استدارت ينيفر ببطء نحو تريس، وعيناها تحرقتا بنظرة أكثر برودة من أي سحر:

"هل سمعتِ ذلك، تريس؟"

تريس ميريجولد خفضت رأسها قليلًا، صوتها بالكاد همسة، محمّل بالعار:

"اغفري لي، ينيفر... اغفري لي."

"أوه، لا، تريس."

"أبدًا."

* * *

حدّقت تريس في الأرض، متجنبة نظرات الجميع.

أما كراش أن كريت، فقد كانت عيناه كنظرات صقر يترصد فريسته.

"في اليوم التالي لهذا الاتصال الغامض الأخير،" قال إيرل جزر سكيلجا ببطء، نبرته مشوبة بشيء من الاتهام، "والذي أنتِ، تريس ميريجولد، بالطبع لا تعرفين شيئًا عنه— غادرت ينيفر الجزيرة، متجهة إلى هاوية سيدنا."

"عندما سألتها لماذا تذهب إلى هناك، نظرت في عينيّ مباشرة وأجابت بأنها تحتاج إلى التحقق مما إذا كانت الكوارث الطبيعية هناك تختلف عن غير الطبيعية."

"أبحرت مع سفينتين من سفن التنانين، هما تامارا وألكيون، ومع طاقم مكوّن بالكامل من متطوعين."

"كان ذلك في الثامن والعشرين من أغسطس، منذ أسبوعين. ولم أرها منذ ذلك الحين."

"متى سمعتَ..."

"بعد خمسة أيام،" قاطعه بحدة، نبرته أكثر جدية. "بعد ثلاثة أيام من قمر سبتمبر."

كان القبطان آسا ثيّازي، الجالس أمام الإيرل، متوترًا بشكل واضح. لحس شفتيه، وتحرك على المقعد بلا راحة، بينما كانت أصابعه تعبث ببعضها حتى تردد صوت فرقعة مفاصله في الهواء.

كانت الشمس الحمراء، التي ظهرت أخيرًا من بين السحب المنخفضة، تغوص ببطء خلف سبكيروغ.

"تحدث، آسا."

أمره كراش أن كريت بصوت هادئ لكنه قاطع.

سعل آسا ثيّازي بعنف، ثم بدأ في الكلام، نبرته جافة، كأنه لا يريد نطق الكلمات:

"أبحرنا بسرعة،" بدأ التقرير، "الرياح كانت مواتية، وحققنا سرعة جيدة، حوالي اثني عشر عقدة."

"في مساء اليوم التاسع والعشرين، رأينا أنوار منارة بيكسي دي مار. غيرنا مسارنا قليلًا إلى الغرب، لتجنب أي لقاء مع النيلفجارديين...

"وعند الفجر، في اليوم السابق لقمر سبتمبر... وصلنا إلى المنطقة المعروفة باسم هاوية سيدنا."

"عندها، صرخت الساحرة، مناديةً غوثلاف وأنا لكي..."

* * *

"أحتاج إلى متطوعين،" قالت ينيفر بصوت واضح وحازم. "فقط متطوعين. ولا أكثر من العدد الضروري لتحكم في سفينة تنين لفترة قصيرة."

"لا أعلم بالضبط عدد الأشخاص المطلوب لذلك، فلستُ خبيرة في الأمر. لكني أطلب ألا يكون هناك رجل واحد أكثر من المطلوب بشكل مطلق على متن ألكيون."

"وأكرر—فقط المتطوعين. ما أخطط له... خطير جدًا. أكثر خطورة من معركة بحرية."

انحنى السنشال العجوز غوثلاف برأسه، عيناه تعكسان إدراكًا تامًا لما قيل.

"أفهم."

ثم رفع رأسه وقال بصوت ثابت:

"وأنا أول المتطوعين."

"أنا، غوثلاف، ابن سفين، أطلب هذا الشرف، يا سيدتي."

حدقت ينيفر في عينيه طويلًا، وكأنها تزن صدقه وعزيمته.

"جيد،" قالت أخيرًا، بصوت ناعم لكنه محمّل بالاحترام.

"لكنني أنا من يجب أن أشعر بالفخر."

* * *

"لقد تطوعتُ أيضًا،" قال آسا ثيّازي بصوت منخفض لكنه ثابت. "لكن غوثلاف لم يسمح لي بذلك."

"قال إنه يجب أن يبقى شخص ما لقيادة تامارا."

"في النهاية، تطوع خمسة عشر رجلًا.

"من بينهم هيالمر، يا إيرل."

رفع كراش أن كريت حاجبيه، ملامحه مشدودة بينما استوعب الخبر.

* * *

"كم عدد الرجال اللازمين، غوثلاف؟"

كررت الساحرة السؤال بنبرة حازمة، عيناها تتوهجان بجدية قاتمة.

"كم عدد الرجال الضروريين؟ أرجوك، احسب العدد بدقة."

ظلّ السنشال العجوز صامتًا للحظة، شفتيه تتحركان بصمت بينما كان يحسب بدقة.

"يمكننا الاكتفاء بثمانية رجال،" قال أخيرًا. "إذا كانت المهمة قصيرة... لكن لدينا الكثير من المتطوعين هنا، لذا لسنا مضطرين لأن نكون بهذا التقتير..."

"اختر ثمانية من بين هؤلاء الخمسة عشر،" قاطعته ينيفر بحدة، لا مجال للمناقشة في نبرتها.

"اخترهم بنفسك. وأبلغهم أنهم سينضمون إلى ألكيون."

"أما البقية، فسيبقون على متن تامارا."

"آه، نعم، وسأختار واحدًا منهم ليبقى."

استدارت، وعيناها تتجهان مباشرة نحو هيالمر.

"هيالمر!"

رفع الشاب رأسه بسرعة، جاهزًا للرد، لكن قبل أن يتمكن من الكلام، استبقت حديثه:

"لا، أيها الفتى! لا يمكنكَ أن تفعل هذا بي! تطوعتُ وسأقف بجانبكِ! أريد أن..."

"اصمت!"

صوت ينيفر كان كحد السيف، قاطعًا كلماته في منتصفها.

"ستبقى على متن تامارا! هذا أمر!

"كلمة أخرى، وسأجعله يُقيّدك إلى الصاري!"

* * *

"تابع، آسا."

أومأ القبطان، متوترًا، ثم استأنف بصوت مبحوح:

"صعدتِ الساحرة ومعها غوثلاف، وثمانية من المتطوعين على متن ألكيون، واتجهوا نحو الهاوية."

"أما نحن، فقد بقينا في تامارا كما أُمرنا، لكن المسافة بيننا لم تكن كبيرة."

"مع ذلك، الطقس، الذي كان مؤاتيًا حتى تلك اللحظة، انقلب فجأة إلى شيء شيطاني."

توقف للحظة، ثم نظر إلى الإيرل مباشرة، وكأن القسم يخرج مع أنفاسه:

"نعم، شيطاني هي الكلمة المناسبة، لأن هناك قوة شريرة كانت تعمل، إيرل... أقسم لك، لقد أنقلب رأسًا على عقب إن كنتُ أكذب..."

نظر كراش أن كريت إليه بحدة:

"تابع."

بلع آسا ريقه، ثم تابع بصوت منخفض، كأنه لا يريد أن يتذكر المشهد:

"حيث كانت تامارا، كان البحر هادئًا... رغم أن الرياح بدأت تتصرف بغرابة، تدفع السحب في السماء حتى أصبح النهار معتمًا كأنه ليل."

"لكن حيث كانت ألكيون..."

"انفجر الجحيم هناك."

"جحيم حقيقي..."

* * *

كانت أشرعة ألكيون ترفرف بعنف فجائي، إلى حد أنه كان بالإمكان سماع صوتها من تامارا، رغم المسافة الفاصلة بين السفينتين.

السماء اسودّت بالكامل، وتجمعت الغيوم كأنها تدور حول نقطة خفية. البحر، الذي كان هادئًا بشكل غريب قرب تامارا، انتفخ فجأة، وألقى بموجاته العاتية على جانبي ألكيون، كما لو أنه يحاول ابتلاعها.

ثم... صرخ أحدهم. ثم انضمت إليه صرخة أخرى. وبعد لحظة... كان الجميع يصرخون.

تحت سحابة سوداء، ذات مخروط ممتد نحو الماء، كانت ألكيون تتأرجح فوق الأمواج كأنها سدادة زجاجة... تدور، تلتف، تقفز، ثم تغطس مقدمتها في الماء، وأحيانًا مؤخرتها.

كان هناك لحظات اختفت فيها السفينة تمامًا عن الأنظار، وكأن البحر ابتلعها.

ولحظات أخرى، لم يكن يُرى منها سوى شراعها المخطط، يرفرف بشكل يائس ضد السماء السوداء.

"إنه السحر! "إنه حر الشيطان!"

صرخ شخص ما خلف آسا ثيّازي، نبرته ممتلئة بالذعر.

كان الدوامة تسحب ألكيون، تدور بها بشكل أسرع وأسرع، حتى بدأت تتفتت أمام أعينهم.

التروس الخشبية المثبتة على جدران السفينة، والتي تحمل رموزًا محفورة، تمزقت بفعل القوة الطاردة، وانطلقت في الهواء مثل أقراص الرمح، تطير يمينًا ويسارًا، متجاوزة دفة القيادة المحطمة.

"أنزلوا الأشرعة!"

"أمسكوا بالدفة!"

"نحن نتحرك!"

"علينا مساعدتهم!"

صرخ آسا ثيّازي، محاولًا السيطرة على رجاله، لكن... لقد كان الأوان قد فات.

فجأة، انفجرت السماء السوداء فوق ألكيون بسلسلة من الصواعق المسننة، تحيط بالسفينة كأنها مخالب قنديل بحر عملاق.

الغيوم الملتفة اتخذت شكلاً وحشيًا، دوامة عملاقة ذات شكل فطري، كما لو كانت كيانًا حيًا.

وفي قلب تلك العاصفة، دارت ألكيون بجنون يفوق الوصف.

انكسر الصاري، كعود ثقاب هش.

والأشرعة الممزقة ارتفعت فوق الأمواج، وكأنها طائر قطرس عملاق، ممدد الجناحين، يرفرف للمرة الأخيرة قبل أن يسقط في الهاوية.

"جدّفوا، أيها الرجال!"

كان بالكاد يسمع زئيره وسط هدير العناصر، ولكنهم جميعًا سمعوا صرخة الأشخاص على متن ألكيون.

ثم سمعوا صرخة مرعبة... جعلت شعرهم يقف من الفزع.

رجال بحر مخضرمون، مقاتلون ملطخون بالدماء، بحارة رأوا وسمعوا الكثير في حياتهم... لكن تلك الصرخة جمدت الدم في عروقهم.

أفلتوا المجاديف، مدركين عجزهم الكامل. أصابهم الذهول، حتى أنهم توقفوا عن الصراخ.

كانت ألكيون لا تزال تدور... لكنها بدأت ترتفع فوق الأمواج، ببطء لكنه ثابت. أعلى... وأعلى...

رأوا عَجُز السفينة، يقطر ماءً، مغطى بحُرشُف البحر والأعشاب البحرية.

ثم رأوا شكلًا أسود، هيئة تسقط في البحر.

ثم أخرى.

ثم ثالثة.

"إنهم يقفزون!"

صرخ آسا ثيّازي، نبرته مليئة بيأس رجل يدرك أن الوقت ينفد.

"جدّفوا، أيها الرجال! لا تتخاذلوا!"

"جدّفوا كما لو أنه لا يوجد غد! نحن نذهب لإنقاذهم!"

لكن ألكيون كانت قد تجاوزت المئة ياردة فوق سطح المحيط، تحوم فوق المياه التي كانت كأنها تغلي وكأنها مرجل مسعور. كانت لا تزال تدور، كأنها مغزل عملاق،

مُحاطًا بشُعلات من البرق المتشعب، يجذبها إلى الأعلى قوة غير مرئية، تسحبها نحو كُتلة الغيوم المتجمعة.

وفجأة... انفجار يصم الآذان شقَّ الهواء.

رغم أن تامارا كانت تُدفع بخمسة عشر زوجًا من المجاديف، فقد قفزت فجأة إلى الأعلى، قبل أن تُلقى إلى الخلف بقوة أشبه بقوة مِطرقة دكٍّ عملاقة.

شعر آسا ثيّازي بأن السطح ينزلق من تحته، فقد توازنه وسقط، رأسه يرتطم بالحاجز الخشبي.

لم يكن قادرًا حتى على الوقوف مجددًا... كان يجب أن يُرفع عن الأرض.

أصوات الطاقم كانت تصل إليه وكأنها صدى بعيد، مجرد همهمات مشوشة وسط عالم مضطرب.

ترنح إلى الجانب، يتمايل كالرجل المخمور، وتمسك بالحاجز الخشبي بكل قوته.

الرياح هدأت... الأمواج أصبحت ساكنة.

لكن السماء لا تزال تشتعل بالغيوم السوداء المتجمعة.

ولا أثر...

لا أثر على الإطلاق... لـ ألكيون.

* * *

"لم يكن هناك أثر، إيرل."

قال آسا ثيّازي بصوت مبحوح، كأنه لا يزال يحاول استيعاب ما رآه.

"حسنًا... بعض قطع الحبال، بقايا متناثرة... لا شيء أكثر من ذلك."

توقف عن الكلام، وعيناه تتبعان الشمس وهي تغوص خلف القمم المشجرة لـ سبكيروغ.

أما كراش أن كريت، فقد كان غارقًا في أفكاره، ولم يحثه على الاستمرار.

تابع آسا ثيّازي أخيرًا: "لا أحد يعرف كم عدد الذين تمكنوا من القفز من ألكيون قبل أن تبتلعها تلك السحابة الملعونة."

"لكن، بغض النظر عن عدد الذين قفزوا... لا أحد نجا."

"وبالرغم من أننا بذلنا كل الوقت والجهد، لم نتمكن سوى من انتشال جثتين."

"جثتين فقط... كانتا تطفوان فوق الماء."

ساد الصمت للحظة.

"ماذا عن الساحرة..."

قال الإيرل بصوت متغير، بالكاد يُسمع.

"لم تكن من بينهما؟"

"لا."

لم يقل كراش أن كريت شيئًا لفترة طويلة. الشمس اختفت تمامًا خلف سبكيروغ، تاركة السماء في ظلام خافت.

"العجوز غوثلاف، ابن سفين، رحل."

قال آسا بصوت حزين، وكأن وزنه قد زاد فجأة.

"على الأرجح أن السرطانات في قاع هاوية سيدنا قد نهشت عظامه حتى آخر قطعة..."

"أما الساحرة... فقد اختفت تمامًا..."

توقف للحظة، ثم أضاف، وكأنه يتردد:

"إيرل... الناس بدأوا في الحديث..."

"يقولون إنها كانت تستحق ما حدث. وأن العقوبة كانت ملائمة للجريمة..."

"حديث الأغبياء!"

زمجر كراش، نظرته صلبة كالفولاذ.

لكن آسا واصل حديثه، بصوت خافت، وكأنه يحدّث نفسه:

"لقد اختفت... في هاوية سيدنا."

"في نفس المكان... الذي غرقت فيه بافيتا ودوني..."

"يالها من مصادفة..."

رفع كراش أن كريت رأسه، وحدق في الظلام الذي كان يبتلع البحر.

"هذه ليست مصادفة."

قال ذلك بحزم، قاطعًا أي شك.

"لا هذه المرة... ولا في المرة السابقة."

"من الضروري أن يعاني التعساء. فآلامهم وإذلالهم ناتجان عن قوانين الطبيعة، التي تفرض المعاناة، تمامًا كما تفرض وجود أولئك الذين يسببون هذه المعاناة.

هذه الحقيقة يجب أن تسمو فوق أي شعور بالندم في نفس الطاغية أو الشرير. فلا حاجة له إلى ضبط نفسه، بل يجب عليه أن ينفّذ بجرأة كل الأفعال التي تولدها مخيلته، لأن صوت الطبيعة هو من يهمس بها في أذنه".

"إنه الإلهام الخفي للطبيعة هو ما يدفعنا إلى الشر، وعليه، فإن الشر يبدو وكأنه ضرورة طبيعية محتومة".

دوناتيان ألفونس فرانسوا دو ساد

الفصل العاشر

صدر صوت صرير الباب وهو يُفتح ببطء، ثم أُغلق خلف شخص ما، موقظًا أصغر شقيقات سكارا من سباتها.

كانت الأخت الكبرى جالسة إلى الطاولة، منشغلة بكشط بقايا العصيدة من قاع وعاء معدني.

"كيف جرى الأمر في المحكمة، كينا؟"

لم ترد جوانا سيلبورن، المعروفة بـ كينا. جلست على السرير، مرفقيها على ركبتيها، وجبهتها في راحتيها.

تثاءبت سكارا الصغرى، ثم تجشأت بصوت عالٍ. أما كوهوت، المستلقي على السرير المقابل، فقد تمتم بكلمات غير مفهومة وهو يدير ظهره. كان غاضبًا—غاضبًا من كينا، ومن شقيقاتها، ومن العالم كله.

في السجون العادية، كان لا يزال يتم الفصل بين السجناء حسب الجنس.

لكن القلاع العسكرية كانت مختلفة.

الإمبراطور فيرغوس فار إمريس، في مرسوم يؤكد المساواة التامة بين الرجال والنساء في جيش الإمبراطورية، أمر بأن تُطبق هذه المساواة في كل مكان، وبدون أي استثناءات أو امتيازات لأي جنس.

ومنذ ذلك الوقت، كان السجناء في الحصون والقلاع يقضون فترات عقوبتهم في زنازين مختلطة.

كررت الأخت الكبرى سؤالها، هذه المرة بنبرة أكثر إلحاحًا:

"إذًا؟ هل سيفرجون عنكِ؟"

رفعت كينا رأسها قليلًا، لتجيب بمرارة، وعيناها لا تزالان مخبأتين بين يديها:

"العدالة؟"

"سأكون محظوظة إن لم يُعلقوا المشنقة لي."

"اللعنة!"

"شهدتُ بالحقيقة كاملة، ولم أخفِ شيئًا... حسنًا، تقريبًا. ومع ذلك، ذلك الوغد حاول أن يجعلني أبدو مجنونة، وصفني بأنني شخص غير موثوق وعنصر إجرامي، وفي النهاية، اتهمني بالمشاركة في المؤامرة التي كانت تهدف إلى الإطاحة بـ..."

"الإطاحة؟"

رددت سكارا الكبرى، متظاهرة بأنها تفهم، ثم هزت رأسها ببطء.

"إذا كان الأمر يتعلق بالإطاحة..."

"فأنتِ في ورطة حقيقية، كينا."

"وكأنني لا أعرف ذلك بالفعل."

تمطّت سكارا الصغرى وتثاءبت مرة أخرى، تثاؤبًا واسعًا وعميقًا كالفهد، ثم قفزت من السرير العلوي برشاقة، ركلت كرسيًا كان يعترض طريقها، ثم بصقت على الأرض بجواره.

تأوه كوهوت بضيق، لكنه لم يجرؤ على قول أكثر من ذلك.

كان كوهوت غاضبًا بشدة من كينا. لكنه كان أكثر خوفًا من الشقيقتين سكارا.

عندما أُرسلت كينا إلى هذه الزنزانة قبل ثلاثة أيام، اتضح سريعًا أن لدى كوهوت أفكارًا خاصة جدًا بشأن المساواة بين الجنسين. فقد قرر، في منتصف الليل، أن يلقي ببطانية فوق جسد كينا، بنية استغلال الجزء السفلي منها، وكان من المحتمل جدًا أن ينجح...

لولا أنه لم يدرك أنه كان يتعامل مع سايونية.

تسللت كينا إلى عقله بمثل هذه القوة، حتى بدأ كوهوت يعوي كالذئب المسعور، يزحف في الزنزانة كما لو أن عنكبوتًا سامًا قد عضه.

ثم، بدافع الانتقام الخالص، أجبرته كينا، ذهنيًا، على الوقوف على يديه وركبتيه، ثم جعلته يضرب رأسه مرارًا على باب الزنزانة المعدني.

وعندما هرع الحراس، الذين استنفرهم الضجيج الرهيب، فتحوا الباب وأوسعوه ضربًا بالهراوات، خمس ضربات، وخمس ركلات على الأقل. باختصار، لم تكن تلك ليلة المتعة التي كان كوهوت يتوقعها.

ومنذ ذلك الحين، أصبح غاضبًا من كينا. لكنه لم يجرؤ حتى على التفكير في الانتقام.

خصوصًا بعد أن انضمت إليهم في الزنزانة الشقيقتان سكارا. فجأة، أصبح الجنس الناعم هو الأغلبية، واتضح بسرعة أن وجهات نظر الأختين حول أدوار الجنسين لم تكن تختلف عن وجهة نظر كوهوت فحسب... بل كانت نقيضًا تامًا لها.

أصبحت سكارا الصغرى تحدق في كوهوت بنظرة مفترسة، تطلق ملاحظات واضحة وصريحة لا تحتمل سوء الفهم. أما الأخت الكبرى، فكانت تضحك بسعادة، تفرك يديها باستمتاع.

والنتيجة؟

أصبح كوهوت ينام ممسكًا بمقعد خشبي، يستخدمه كدرع لحماية شرفه.

لكن حتى مع وجود السلاح، كانت فرصه معدومة.

فالشقيقتان قد خدمتا في الجيش النظامي، وكانتا محاربتين متمرسّتين شهدتا معارك لا تحصى. ولو أرادتا اغتصابه، لما وقف كرسي خشبي في طريقهما، حتى لو كان الرجل مسلحًا بفأس.

أما كينا؟ فقد كانت متأكدة من أن الشقيقتين تمزحان معه.

حسنًا... كانت متأكدة تقريبًا.

كانت الشقيقتان سكارا في السجن بتهمة ضرب ضابط،

أما كوهوت، فكان قيد الاحتجاز في انتظار التحقيق في قضية احتيال تتعلق بسرقة غنائم حرب، وهي فضيحة أصبحت معروفة بالفعل وتسللت إلى الدوائر العليا في السلطة.

أعادت سكارا الكبرى تكرار عبارتها بنبرة قاطعة:

"أنتِ عاجزة تمامًا، كينا."

"لقد غرقتِ حتى أذنيك في الوحل."

"بل بالأحرى، تم إغراقك فيه بالكامل."

"لأنكِ لا تدركين أن ما يحدث هنا لعبة سياسية!"

"به!"

نظرت إليها سكارا، غير متأكدة مما يعنيه هذا التعبير المقتضب.

أما كينا، فحدّقت في الفراغ، متجنبة النظر إليها.

"لن أخبركِ أنني كنت صامتة أمام القضاة..."

"لن أخبركِ أنني كنت أعرف تمامًا ما اللعبة التي تورطتُ فيها..."

"ولا متى أو كيف أدركت ذلك."

لكن سكارا الصغرى، التي لم تكن تعرف أي شيء عن تعقيدات الوضع، علّقت بحكمة زائفة:

"لقد أكلتِ أكثر مما يمكنكِ مضغه، يا كينا."

لكن الشقيقة الكبرى لم تستسلم:

"ماذا عن أميرة سينترا؟"

"لقد قبضتِ عليها، صحيح؟"

"قبضتُ عليها... إذا كان يمكن تسمية ذلك قبضًا."

وقفت لبرهة، ثم سألت:

"ما تاريخ اليوم؟"

"الثاني والعشرون من سبتمبر. غدًا هو الاعتدال الخريفي."

"هاه. يا لها من مصادفة."

"غدًا... سيكون قد مر عام كامل منذ تلك الأحداث."

"عام كامل..."

استلقت كينا على سريرها، ووضعت يديها خلف رأسها، تنظر إلى السقف المليء بالخدوش والرسومات البذيئة.

الشقيقتان سكارا ظلّتا صامتتين، متوقعتين أن تكون هذه بداية قصة. لكن...

"لا، يا أخواتي، لن تكون هناك قصة."

"وليس لأن كوهوت قد يبيعني للشرطة اللعينة، أو لأن هناك شهودًا آخرين مستعدين لإرضاء التاج."

"بل لأنني فقط... لا أريد أن أتحدث عنها."

"لا أريد حتى أن أتذكر."

ما حدث قبل عام... بعد أن أفلت بونهارت من قبضتنا في كليرمونت...

وصلنا إلى هناك بعد فوات الأوان، بعد يومين كاملين... وكانت الآثار قد بردت. لم يعرف أحد إلى أين اختفى صائد الجوائز. لا أحد... باستثناء التاجر هوفيناغيل.

لكن هوفيناغيل لم يكن ينوي التحدث معنا. لم يكن ينوي التحدث حتى مع سكيلين. لم يسمح لنا حتى بالدخول إلى منزله. أرسل خادمه ليبلغنا ببرود أنه "ليس لديه وقت لاستقبال الضيوف."

تحركت البومة بضيق، ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل؟

"كنا في إيبينغ، لم تكن لي أي سلطة هناك."

"أما مطاردة هوفيناغل بمفردنا؟

"مستحيل. كانت لديه جيشه الخاص في كليرمونت، ولم يكن بإمكاننا أن نشعل حربًا فقط لأننا أردنا معلومات."

قام بورياس مون بالتعقب، وحاول داكر سيليفانت وأولا هارشيم استخدام الرشوة بينما لجأت تيل إكراد إلى السحر الإلفي... أما أنا، فقد حاولت اختراق العقول والتنصت على الأفكار.

"لكن... كل ذلك لم يكن كافيًا."

كل ما اكتشفناه هو أن بونهارت غادر المدينة عبر البوابة الجنوبية. وأنه قبل أن يغادر...

في السوق، قرب البوابة الجنوبية، كان هناك مزار صغير.

وقبل أن يغادر كليرمونت، قام بونهارت بجلد فلكا أمام ذلك المزار.

أمام الجميع.

أمام أعين الكهنة أنفسهم.

"صرخ بها، قال إنه سيُريها من هو سيدها. قال إنه يمكنه أن يجلدها أينما شاء، وإنه لو أراد، لاستطاع أن يضربها حتى الموت، لأن لا أحد سيتدخل، لا أحد سيساعدها."

"لا البشر... ولا حتى الآلهة."

في الزنزانة، كانت سكارا الصغرى تنظر من النافذة، متشبثة بالقضبان، في حين كانت شقيقتها الكبرى تواصل أكل عصيدتها بهدوء.

أما كوهوت، فقد استعاد كرسيه، استلقى، وسحب البطانية فوق رأسه.

من الخارج، سُمع دوي الأجراس القادمة من بيت الحراسة، يتبعها صراخ الحراس فوق الأسوار.

استدارت كينا إلى الحائط، وأغمضت عينيها.

عد بضعة أيام... التقينا.

"أنا... وبونهارت."

وجهاً لوجه.

نظرت في عينيه...

تلك العيون الخالية من الإنسانية، عيون سمكة باردة، لا تفكر إلا في شيء واحد...

"كيف يهشّم تلك الفتاة."

ومن دون أن أدرك، تسللت إلى أفكاره... للحظة واحدة فقط.

"وكان الأمر... وكأنني أدخلت رأسي في قبر مفتوح."

"حدث ذلك في الاعتدال."

"وفي عشية الثاني والعشرين من سبتمبر، أدركت شيئًا..."

"كان هناك شيء خفي بيننا."

* * *

استمع ستيفان سكيلين، المحقق الإمبراطوري، دون أن يقاطعها.

لكن كينا رأت بوضوح كيف تغيرت ملامحه.

"كرري ما قلتِ، سيلبورن."

قالها ببطء، وهو يحدق فيها بنظرة مشدوهة.

"كرريه، لأنني لا أصدق أذنيّ."

ابتسمت كينا بخفة، لكن صوتها كان خافتًا، بالكاد يُسمع:

"احذر، أيها المحقق. تظاهر بالغضب... وكأنني جئتُ إليك بطلبٍ ما، وأنت ترفضه."

"على السطح فقط، طبعًا."

"لأنني لست مخطئة. أنا واثقة تمامًا."

"لليومين الماضيين على الأقل... هناك جاسوس غير مرئي يدور حولنا."

لم يكن البومة بحاجة إلى أي تلميح إضافي. فهم الأمر فورًا، وتكيف مع الوضع بسلاسة.

"لا، سيلبورن، أرفض رفضًا قاطعًا!"

قالها بصوت عالٍ، لكن بنبرة متزنة، دون أي مبالغة أو تصنع في تعابيره أو حركاته.

"النظام والانضباط يسريان على الجميع، لا استثناءات!"

"لن أوافق!"

"اسمعني فقط، أيها المحقق."

قالت كينا، متظاهرة بالخضوع، رغم أن ارتباكها الحقيقي زاد من مصداقيتها.

"فقط اسمعني..."

"تكلمي، سيلبورن!"

"لكن باختصار ووضوح!"

تظاهرت كينا بالشرح المتواضع، لكن عيناها كانتا تراقبان تعابيره بدقة.

"إنهم يتجسسون علينا منذ يومين."

"منذ كليرمونت."

"يتبعوننا سرًا، يتسللون إلى معسكرنا، يتحركون بين الناس، يتنصتون على محادثاتنا."

"استمع إليّ، أيها الجاسوس اللعين."

زمجر سكيلين، لكن هذه المرة لم يكن عليه تزييف الغضب. صوتُه ارتجف وهو يردد:

"كيف اكتشفتِ ذلك؟!"

ارتسمت على وجه كينا ابتسامة خافتة، أشبه بابتسامة قطّ رأى شيئًا مثيرًا للاهتمام.

"عندما كنتَ تعطي التعليمات لـ سيد سيليفانت ليلة أمس، أمام النُزل... كانت هناك قطة نائمة على أحد المقاعد."

"وفجأة... نهضت."

"زمجرت... انتفض فراؤها، ودفعت أذنيها إلى الخلف."

"لم أشكّ في البداية، لأنني لم أرَ أحدًا هناك."

"لكن حينها... التقطتُ شيئًا."

"فكرة... غريبة."

"إرادة ليست لي."

"عندما تفكر، أفكارك مألوفة، طبيعية. لكن هذه... كانت شيئًا آخر."

"وكأن شخصًا آخر... صرخ في رأسي."

"فأصغيتُ بانتباه...

"... ووجدته."

"هل تشعرين بوجوده دائمًا؟"

"ليس دائمًا. لأن لديه حماية سحرية."

"لا أستطيع الشعور به إلا عن قرب، وحتى ذلك ليس مضمونًا في كل مرة."

"لهذا، علينا المحافظة على المظاهر..."

"لأنني لا أعلم إن كان مختبئًا بالقرب منا الآن."

"فقط لا تجعليه يرتعب."

زمجر البومة، لكن صوته كان هادئًا بشكل خطير. كان يزن كل كلمة.

"لا تجعليه يرتعب، سيلبورن."

"أريده حيًا."

"ما اقتراحك؟"

"سنعدّ فطائر."

"فطائر؟!"

"اخفض صوتك، أيها المحقق."

"لكن... الفطائر؟! بحق الجحيم ..."

"آه، لا بأس، لا بأس."

"موافَق. لكِ الحرية الكاملة في التصرف."

"غدًا، سندبر الأمر بحيث نقضي الليل في إحدى القرى."

"سأهتم بالبقية. أما الآن... فوبخني قليلاً قبل أن أغادر."

"لن أوبخكِ."

غمز لها بخفة، لكن وجهه ما لبث أن تحول إلى قسوة القائد الصارم.

"أنا راضٍ عنكِ، الآنسة سيلبورن."

"قالها بلهجة ضابط، رسميًا. ثم غمز مرة أخرى، كما لو كان يشير إلى شيء."

"لا!"

لوّح بيده، مسرحيًا، متقمصًا دوره بمهارة.

"طلبكِ مرفوض!

"اخرجي من هنا!"

"كما تأمر، أيها المحقق."

* * *

*في اليوم التالي، في وقت متأخر من بعد الظهر، أمر سكيلين بالتوقف في قرية على ضفاف نهر ليتي.

كانت القرية غنية، محاطة بسياج خشبي قوي، ولم يكن لها مدخل سوى باب ثقيل يدور على محور.

"اسم القرية كان يونيكورن."

"وقد أخذت اسمها من كنيسة حجرية صغيرة، حيث وُضعت دمية من القش تمثل وحيد القرن."

"كم ضحكنا على هذا الإله المصنوع من القش."

"لكن العمدة، بوجهه الجاد، أخبرنا بأن وحيد القرن المقدس الذي حمى البلدة ذات يوم، كان مصنوعًا من الذهب في البداية."

"ثم من الفضة."

"ثم من النحاس."

"ثم كانت هناك نسخ من العظام والخشب*."*

"لكن جميعها سُرقت أو نُهبت."

"وحده وحيد القرن المصنوع من القش تُرك بسلام."

قضينا الليل في القرية.

وكما كان مخططًا، استقر سكيلين في أحد الأكواخ الريفية.

وفي أقل من ساعة...

أعددنا للجاسوس فطيرة مثالية."

بالطريقة الكلاسيكية، كما في كتب التدريس."

* * *

"اقتربوا، من فضلكم."

أمر البومة بصوت هادئ، لكن حازم.

"اقتربوا جميعًا وألقوا نظرة على هذا المستند... انتظروا!"

"هل الجميع هنا؟"

"لا أريد أن أشرح الأمر مرتين."

كان أولا هارشيم يحتسي كوبًا من القشدة. مسح شاربه الحليبي، أسقط الكوب، ونظر حوله ليعدّ الحاضرين.

"داكر سيليفانت، بيرت بريجدين، نيريتين سيكا، تيل إكراد، جوانا سيلبورن... لا يوجد دافي."

"استدعوه."

"كريل! دافي كريل! إلى القائد فورًا! هناك أوامر مهمة!"

ركض دافي كريل لاهثًا إلى الغرفة.

"الجميع هنا، أيها المحقق."

"افتحوا النافذة، رائحة الثوم هنا لا تُطاق!"

"وافتحوا الباب أيضًا، لندخل بعض الهواء."

فتح بريجدين الباب، وراقبت كينا المشهد... مقتنعة مرة أخرى بأن البومة ممثل عبقري.

"اقتربوا. لقد تلقيتُ من الإمبراطور وثيقة سرية للغاية وأهمية قصوى."

"كونوا حذرين..."

"الآن!"

صرخت كينا فجأة، مطلقةً نبضة ذهنية قوية... كان تأثيرها كمن ضُرب بصاعقة برق!

ألقى أولا هارشيم وداكر سيليفانت دلاءً مليئة بالقشدة... مباشرةً على النقطة التي أشارت إليها كينا، تيل إكراد قذف بسرعة كيسًا من الدقيق كان مخبأً تحت الطاولة.

"على أرضية الغرفة... ظهر شكل كريمي مغبّر، بدون ملامح في البداية."

لكن بيرت بريجدين حدّق باهتمام... ثم تقدّم، وقام بتقدير موقع الرأس بدقة، قبل أن يهوي عليه بمقلاة حديدية ثقيلة!

"أمسكوه!"

انقضّ الجميع على الجاسوس المغطى بالقشدة والدقيق.

نزعوا عن رأسه قبعة الإخفاء.

أمسكوه من ذراعيه وساقيه.

حملوه إلى الطاولة، وقيدوه إلى أرجلها.

خلعوا حذاءه وجواربه.

وحشروا إحدى جواربه في فمه... كي لا يصرخ."

"لإتمام العمل، سدد دافي كريل ركلة بكل سرور إلى أضلاع الأسير، مما جعل عينيه تكادان تخرجان من محجريهما."

نظر البقية إليه برضا، يستمتعون بالمشهد.

"عمل جيد."

قالها البومة بنبرة هادئة، واقفًا في مكانه، لم يتحرك طوال الوقت، مكتفياً بطيّ ذراعيه فوق صدره.

"برافو. أهنئكم جميعًا. خاصةً أنتِ، السيدة جوانا."

"تبًا."

فكرت كينا، وهي تحاول ألا تظهر فخرها.

"إذا استمر الأمر على هذا النحو، قد أصبح ضابطة قريبًا."

"السيد بريجدين."

قال ستيفان سكيلين ببرود، واقفًا عند قدمي الأسير الممدودتين والمقيدتين بالطاولة.

"ضع قطعة حديد في النار."

"السيد إكراد، تأكد من عدم وجود أطفال بالقرب من هذه الغرفة."

ثم انحنى، مقتربًا من وجه الأسير، ونظر مباشرةً في عينيه.

"لقد مر وقت طويل منذ أن أظهرتَ نفسك، رينس."

"بدأتُ أعتقد أن كارثة ما قد وقعت لك."

* * *

"دقّ الجرس معلنًا تغيير الحرس."

"الأختان سكارا تشخّران بتناغم."

"كوهوت تمتم بكلمات غير مفهومة في نومه، ممسكًا بمقعده الخشبي كمن يتشبث بحياته."

"حاول أن يبدو شجاعًا."

"حاول رينس أن يُخفي خوفه."

"الساحر رينس، يبدو كقطعة فطيرة، مُقيّد إلى أرجل الطاولة، قدماه عاريتان."

"حاول أن يتظاهر بالشجاعة."

"لكن لم يُخدع أحد."

"وأقلهم أنا."

"لقد حذّرني البومة أنه ساحر، لذا شَوَّشْتُ أفكاره، كي لا يتمكن من إلقاء تعاويذ أو طلب المساعدة سحريًا."

"ثم قرأت أفكاره."

"حاول أن يحميها، أن يُبقيها محصنة، لكن..."

"عندما شمّ رائحة الدخان المتصاعد من الجمر الملتهب، الذي كان يُسخِّن قطعة الحديد..."

"انهارت دفاعاته السحرية."

"تفكّكت كما تتفكك سروال قديم مهترئ."

"فقرأتُ كل شيء كما يحلو لي."

"أفكاره... لم تختلف أبدًا عن أولئك الذين وجدوا أنفسهم في مواقف مشابهة."

"أفكار محمومة، مرتجفة من الرعب واليأس."

"أفكار باردة، لزجة، رطبة... ورائحتها نتنة."

"تمامًا كداخل جثة متعفنة."

"حسنًا، سكيلين، لقد فُزت. لقد أمسكتَ بي. تهانينا."

"أُقِرّ باحترافك الفني ومهارتك في الصيد."

"وأحسدك على رجالك المُدرّبين جيدًا."

"والآن، تفضل وأطلق سراحي من هذه الوضعية المزعجة."

اقترب البومة بهدوء من كرسي، جلس عليه بالمقلوب، مستندًا بذقنه على يديه المتشابكتين فوق ظهر الكرسي.

"ونظر إلى الأسير من فوق."

"وبقي صامتًا."

"أأمرهم بإطلاق سراحي، سكيلين."

"ثم اطلب من رجالك أن يتركوا الغرفة."

"ما سأقوله لك ليس لأحد سواك."

"السيد بريجدين."

قال البومة، دون أن يلتفت.

"ما لون الحديد الآن؟"

"لا يزال بحاجة إلى بعض الوقت، سيدي المحقق."

"السيدة سيلبورن؟"

"إنه صعب القراءة الآن."

قالت كينا، وهي تهز كتفيها.

"إنه خائف جدًا."

"الخوف يقمع كل الأفكار الأخرى."

"ومع ذلك، لا يزال يحاول إخفاء بعض الأفكار خلف حواجز سحرية."

"لكن لن تكون مشكلة، أستطيع أن..."

"لا داعي لذلك."

"لنستخدم الطريقة التقليدية – الحديد المُحمّى."

"تبًا!"

"عوى الجاسوس بألم، متشنجًا."

"سكيلين! أنت لن...!"

انحنى البومة للأمام، وتغير تعبير وجهه قليلًا.

"أولًا، اللورد سكيلين."

"ثانيًا، نعم."

"سأداعبك بسيخٍ محمّى."

"وسأفعلها بمتعة لا تُوصف."

"وسأعتبرها تعبيرًا عن العدالة التاريخية."

"أراهن أنك لا تفهم ما أقصده."

"بقي رينس صامتًا، فواصل سكيلين حديثه..."

"أتعلم يا رينس؟"

"لقد نصحت فاتير دي ريدو بحرق كعبيك حتى في ذلك الوقت، قبل سبع سنوات، عندما زحفت إلى الاستخبارات الإمبراطورية مثل كلب، متوسلاً الحصول على شرف أن تصبح عميلاً مزدوجًا."

"وأعطيته نفس النصيحة قبل أربع سنوات، عندما تسللت إلى مؤخرة إيمير وبدأت التأمل في الاتصال بفيلغيفورتز."

"وحين كُلفت بمطاردة فتاة سينترا، لم تعد مجرد خائن صغير، بل أصبحت مقيمًا دائمًا."

"لقد راهنتُ فاتير أنه لو جعلناك تتذوق الحديد المحمّى، فسنعرف لمن تخدم... لا، لم أعبر عن ذلك بشكل جيد."

"سنعرف كل من يخدم، وكل من يخون."

"ثم أخبرته، فاتير، أنه سيكون مندهشًا من مدى تطابق القائمتين."

"لكن فاتير دي ريدو تجاهلني."

"والآن، من المؤكد أنه يندم على ذلك."

"لكن لم يُفقد شيء بعد."

"سأقوم بشويك قليلًا، لأعرف ما تعرفه."

"ثم سأضعك تحت تصرف فاتير."

"وسيبدأ بسلخ جلدك، ببطء، قطعة قطعة."

أخرج البومة منديلًا وزجاجة عطر من جيبه.

رشّ العطر بسخاء على المنديل، ثم رفعه إلى أنفه.

"كانت رائحة العطر زكية، تفوح بالمسك، ومع ذلك، شعرت كينا برغبة في التقيؤ."

"الحديد، سيد بريجدين."

"كنت أتابعكم بأمر من فيلغيفورتز!"

صرخ رينس فجأة، متشنجًا.

"إنها الفتاة! كنت أتعقب فرقتكم، كنت آمل أن أؤخركم قبل أن تصلوا إلى ذلك الصياد! كنت سأحاول المساومة معه للحصول على الفتاة! منه، وليس منكم! لأنكم تريدون قتلها، بينما فيلغيفورتز يحتاجها حية! ماذا تريد أن تعرف بعد؟ سأخبرك! سأخبرك بكل شيء!

"حسنًا، حسنًا!"

صاح البومة، ضاحكًا بسخرية.

"تمهل! الكثير من الصراخ، والكثير من المعلومات، قد يتسبب في صداع."

"تخيلوا يا سادة، ماذا سيحدث عندما نبدأ بشويه حقًا؟"

"سنصاب بالصمم في النهاية!"

"كريل وسليفانت انفجرا ضاحكين بصوت عالٍ، لكن كينا، نراتين وسيكا لم ينضموا إليهم."

"حتى بيرت بريجدين حافظ على جديته بينما كان يسحب السيخ المحمى من الجمر المتوهج، محدقًا فيه بتمعن."

"كان القضيب الحديدي ساخنًا لدرجة أنه بدا شفافًا تقريبًا—وكأنه نار سائلة تملأ أنبوبًا زجاجيًا."

رآه رينس، فأطلق صرخة مدوية.

"أعرف كيف تجدون صياد الجوائز والفتاة السينترية! أعرف كيف!"

"أنا لا أشك في ذلك."

"كانت كينا لا تزال تحاول قراءة أفكاره، لكنها عبست عندما استقبلت موجة من الغضب واليأس العاجز."

"شيء آخر تحطم في عقل رينس، حاجز آخر انهار."

"كان خائفًا للغاية، كان على وشك أن يقول شيئًا، شيئًا كان ينوي الاحتفاظ به للنهاية، كورقة رابحة، كورقة آس يمكنها هزيمة كل الأوراق الأخرى في جولة أخيرة حاسمة."

"والآن، الخوف النقي، الخوف البسيط من الألم، سيدفع بتلك الورقة على الطاولة."

فجأة، شيء تدفق إلى داخل رأسها.

شعرت بالحرارة في صدغها، ثم ببرد مفاجئ.

"وعرفت."

"وجدت أفكار رينس المخفية."

"بآلهتي"، فكرت، "في أي ورطة وقعت..."

"سأتكلم!"

صرخ الساحر، وجهه محمر، وعيناه المنتفختان مثبتتان على سكيلين.

"سأخبرك بشيء مهم للغاية، سكيلين! فاتير دي ريدو..."

فجأة، سمعت كينا فكرة غريبة أخرى.

رأت نراتين سيكا، يده على خنجره، يتحرك نحو الباب.

"وقع أحذية تركض."

"بورياس مون اقتحم غرفة الاجتماع."

"سيدي المحقق! بسرعة، سيدي المحقق! لن تصدق من وصل إلى هنا...!"

أشار سكيلين بيده، موقفًا بريجدين، الذي كان يهم بتحريك الحديد نحو كعبي الجاسوس.

"عليك أن تلعب اليانصيب، رينس،" قال، وهو يحدق عبر النافذة.

"لم أرَ في حياتي شخصًا محظوظًا مثلك."

ومن خلال النافذة، رأوا مجموعة من الناس، وفي وسط المجموعة، فارسين اثنين.

"عرفت كينا فورًا من هما."

"عرفت من هو الرجل العملاق، ذو العينين الشاحبتين كعين السمكة الميتة، الجالس على فرسه الكستنائي الطويل."

"وعرفت من هي الفتاة الرمادية الشعر، الراكبة على فرسها السوداء الجميلة."

"يدها مقيدة."

"سلسلة ثقيلة تحيط بعنقها."

"كدمة داكنة منتفخة على وجنتها."

* * *

"فيسجوتا عاد إلى كوخه في مزاج سيئ، مكتئبًا، صامتًا، بل وغاضبًا أيضًا."

"كان السبب حديث القروي الذي جاء بزورقه ليأخذ جلوده."

"هذه ربما آخر مرة قبل الربيع"، قال القروي. "الطقس يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، والمطر والرياح يجعلان المرء يخشى أن يأتي بالقارب."

"في الصباح، هناك جليد في البرك، أظن أننا سنرى الثلج قريبًا."

"النهر سيتجمد، وسأضطر إلى إخفاء القارب وسحب مزلجة."

"لكن هنا في بيربلوت، لا يمكنك حتى الوصول إليها بمزلجة، بسبب كل هذه المستنقعات."

"كان القروي على حق."

"في المساء، أصبحت السماء ملبدة بالغيوم، وبدأت تتساقط رقاقات الثلج الثقيلة."

"هبت رياح عاصفة من الشرق، تجلد نباتات القصب، وارتفعت الأمواج في النهر الذي كان عادة هادئًا."

"البرد المخترق تسلل إلى عظامه العجوزة."

"بعد غد،" فكر فيسجوتا، "هو مهرجان ساوفين."

"وفقًا للتقويم الإلفي، سيحل العام الجديد خلال ثلاثة أيام."

"أما وفقًا لتقويم البشر، فسنحتاج إلى الانتظار شهرين آخرين حتى رأس السنة."

"كيلبي، فرس سيري السوداء، كانت تضرب الأرض بحوافرها وتشمم الهواء بنفاد صبر داخل حظيرة الماعز."

"عندما دخل الكوخ، وجد سيري تبحث في الصناديق القديمة."

"تركها تفعل ذلك، بل شجعها."

"أولًا، كان هذا شيئًا جديدًا بالنسبة لها، بعد امتطاء كيلبي وقراءة الكتب⁎."⁎

"ثانيًا، في الصناديق كان يحتفظ بالكثير من أغراض ابنته، وكانت سيري بحاجة إلى ملابس أكثر دفئًا."

"عدة تغييرات من الملابس، لأن الجو كان باردًا ورطبًا منذ أيام، ولم تجف الملابس المغسولة."

"كانت سيري تختار، تجرب، ترفض، وتخلع."

"أما فيسجوتا، فجلس عند الطاولة، أكل حبتين من البطاطا المسلوقة وأجنحة الدجاج⁎."⁎

"وبقي صامتًا."

"صناعتها جيدة" قالت، وهي تعرض عليه شيئًا لم يره منذ سنوات، بل نسي أنه كان يملكه أصلاً.

"هل كان هذا لابنتك؟ هل كانت تحب التزلج؟"

"لقد عشقته."

"كانت تنتظر الشتاء بفارغ الصبر.

"هل يمكنني أخذها؟"

"خذي ما تشائين." هزَّ كتفيه بلا اكتراث. "لا فائدة لي بها. إذا كانت مفيدة لكِ، وإن كان الحذاء يناسب قدميكِ... ولكن، هل هذا تجهيزٌ لأمتعتكِ يا سيري؟ هل تستعدين للرحيل؟"

"نعم، فيسجوتا." قالت بعد لحظة من الصمت. "لقد قررت. لأنك تعلم... لا وقت لنضيعه."

"أحلامكِ؟"

"نعم." اعترفت بعد برهة. "رأيت أشياء سيئة في أحلامي. لست متأكدة مما إذا كانت قد حدثت بالفعل، أم أنها مجرد لمحات من المستقبل. لا أعلم إن كنت قادرة على منعها... لكن عليّ أن أذهب."

"أترين، لقد اشتكيتُ ذات مرة من أن أصدقائي لم يأتوا لإنقاذي. تُركتُ تحت رحمة القدر... لكن الآن أفكر أن ربما هم من يحتاجون مساعدتي. يجب أن أذهب."

"الشتاء قادم."

"لهذا السبب يجب أن أذهب. إن بقيتُ هنا، سأظل محاصرة حتى الربيع... وحتى الربيع، سأبقى حبيسة القلق وعدم اليقين وكوابيسي التي تطاردني. يجب أن أذهب، يجب أن أذهب الآن لأحاول إيجاد برج السنونو... البوابة الناقلة. لقد قدرتَ بنفسك أن الرحلة صعودًا على النهر ستستغرق خمسة عشر يومًا. يمكنني الوصول قبل اكتمال قمر نوفمبر..."

"لا يمكنكِ مغادرة ملجئكِ الآن." تمتم بصعوبة. "ليس الآن. مطاردوكِ قريبون... قريبون جدًا. لا يمكنكِ..."

ألقت القميص أرضًا، ونهضت وكأن زنبركًا دفعها للوقوف.

"لقد سمعتَ شيئًا." قالت بحزم، وكأنها تُعلن حقيقة ثابتة. "من ذلك القروي الذي أخذ الجلود. أخبرني."

"سيري..."

"أخبرني، من فضلك!"

فأخبرها.

وفيما بعد، ندم على ذلك.

* * *

فيسجوتا استمع بقلقٍ متزايد إلى حديث الفلاح، محاولًا السيطرة على تعابيره.

"لقد أرسلهم الشيطان، أيها الناسك المحترم،" تمتم الفلاح، متوقفًا للحظة عن عدِّ الجلود. "لا بد أن الشيطان هو من أرسلهم. فمنذ الاعتدال الخريفي وهم يجوبون الغابات، يبحثون عن فتاة. يداهمون القرى، يصرخون، يهددون، يثيرون الرعب، ثم يتحركون إلى مكان آخر. كنا نتحمل ذلك... لكن الآن هناك جديد. لقد تركوا حراسًا في القرى – ثلاثة أو أربعة قطاع طرق علينا الاعتناء بهم. ربما سيبقون طيلة الشتاء. قالوا إنهم سينتظرون الفتاة التي يبحثون عنها حتى تخرج من مخبئها في إحدى القرى. لكي يمسكوا بها."

"وهل هم أيضًا في قريتكم؟"

قطّب الفلاح جبينه وصرَّ على أسنانه.

"ليسوا في قريتنا، كنا محظوظين. ولكن على بعد نصف يومٍ من هنا، في دون داري، هناك أربعة منهم. يجلسون في الحانة. إنهم أوغاد، أيها الناسك، أوغاد حقيقيون، مقززون حتى العظم. بدأوا بمضايقة فتيات القرية، وعندما وقف الرجال في وجوههم..." توقف للحظة، ثم تابع بصوت خافت، ممتلئ بالمرارة. "ذبحوهم بلا رحمة..."

"لقد قتلوا من أهل القرية؟"

"اثنين. العمدة، ورجل آخر. أخبرني، أيها الناسك، ألا يوجد عقاب لهؤلاء الأوغاد؟ ألا يوجد قانون؟ أحد المستشارين الذين لجأوا إلينا من دون داري، جاء مع زوجته وابنته، ثم قال إنه سيخرج إلى العالم بحثًا عن ويتشر... سيجد ويتشر ليُطهِّر دون داري من هؤلاء السفلة..."

"الويتشرات يقتلون الوحوش، لا البشر."

لوى الفلاح شفتيه بتهكم، ثم بصق على الأرض.

"هؤلاء أوغاد، أيها الناسك الطيب، ليسوا بشرًا، إنهم أوباش، خُدامٌ للجحيم. نحتاج إلى ويتشر، ويتشر حقيقي... حسنًا، لقد حان وقت رحيلي، أيها الناسك... أوه، لقد أصبح الجو باردًا! قريبًا سأضطر إلى

إخفاء القارب وسحب زلّاجة... أما بالنسبة للأوغاد في دون داري، أيها الناسك، فنحن بحاجة إلى ويتشر."

* * *

نظر فيسجوتا إلى سيري بقلقٍ متزايد، وقد ارتعشت أصابعه وهو يشبك يديه بقوة فوق الطاولة.

"إنه على حق"، قالت سيري من بين أسنانها، والغضب يشتعل في عينيها. "إنه على حق. الأمر يحتاج إلى ويتشر... أو مجموعة من الويتشرز. هم أربعة، أليس كذلك؟ في دون داري، أليس كذلك؟ وأين تقع دون داري هذه؟ هل هي في اتجاه مجرى النهر؟ هل يمكنني الوصول إليها عبر المستنقع؟"

ارتعش صوت فيسجوتا وهو يتحدث، محاولًا الحفاظ على هدوئه.

"بحق الآلهة، سيري... لا يمكنك أن تكوني جادة..."

تصلبت تعابيرها وألقت عليه نظرة حادة.

"لا تحلف بالآلهة إن كنت لا تؤمن بها. وأنا أعلم أنك لا تؤمن."

زفر العجوز بغضب، وضرب الطاولة بقبضته المرتجفة.

"دعي معتقداتي جانبًا. سيري، أي أفكار جنونية تختمر في رأسك؟ كيف يمكنك حتى التفكير في...؟"

"الآن حان دورك لتترك معتقداتي جانبًا، فيسجوتا. أنا أعرف واجبي. أنا ويتشر!"

زمجر فيسجوتا، وعيناه تلمعان بخليط من الغضب والخوف.

"أنتِ متهورة، ومندفعة!" صرخ. "أنتِ مجرد طفلة عانت من صدمة قاسية. طفلة جريحة، مضطربة، على حافة الانهيار العصبي. وقبل كل شيء، أنتِ مريضةٌ برغبة الانتقام! ألا تفهمين ذلك؟"

شهقت سيري، وارتجف فمها من الغضب.

"أنا أفهم ذلك أكثر منك!" صرخت في وجهه. "أنت لا تملك أدنى فكرة عما مررت به! أنت لا تفهم الانتقام، لأنك لم تُؤذَ حقًا من قبل!"

ساد الصمت لبرهة. هدأ فيسجوتا، لكنه لم يرفع عينيه عنها. في أعماقه، كان يعلم أن الكلمات لن تثنيها. وأن النار التي اشتعلت في داخلها لن يُطفئها شيء سوى الدم.

وقف فيسجوتا مذهولًا عند الباب، يراقب سيري وهي تهرع من الكوخ، مع انفجار الريح الجليدية من خلال الأبواب المفتوحة. بعد لحظات، سمع صهيل كيلبي وصوت حوافرها تضرب الأرض بقوة.

ضرب الطاولة بقبضته غاضبًا، حدق في الصحن المهشم أمامه وهو يزمجر بصوت منخفض.

"دعيها تذهب!" فكر بحدة. "فلتُفرغ غضبها في ركوبها. لا خوف عليها، فقد اعتادت التنقل في المستنقع، وتعرف المسارات الآمنة بين البرك الغادرة. وإن ضلت الطريق، ما عليها سوى أن ترخي اللجام... فكيلبي تعرف طريق العودة إلى الحظيرة."

لكن مع مرور الوقت، حين بدأ الشفق يحل، تسلل القلق إلى قلبه. خرج إلى العراء، علق فانوسًا على العمود عند السياج، وانتظر. أرهف السمع، متأملًا أن يلتقط صوت الحوافر على الماء أو وقعها فوق الأرض الرطبة. لكن الرياح الهوجاء وهي تعصف في القصب غطت على كل شيء. تمايل الفانوس المخمور للحظة فوق العمود، ثم انطفأ.

ثم سمعه.

لم يأتِ الصوت من الجهة التي رحلت إليها سيري، بل من الاتجاه المعاكس. من قلب المستنقع...

صرخة طويلة، وحشية، غير إنسانية، زاعقة بالبؤس.

عواء... ممتد... ينذر بالهلاك.

ثم صمت... تلاه صوت آخر، أكثر وحشية.

بيان شي.

روحٌ من عالم الجن. نذير شؤم، مبعوثة الموت.

ارتعد فيسجوتا، بردٌ عنيفٌ اجتاح عظامه، ليس بسبب الريح، بل بسبب الخوف النابع من أعماق روحه. عاد مسرعًا إلى الكوخ، يتمتم ويغمغم لنفسه، محاولًا أن لا يسمع، لأن هذا الصوت لا ينبغي سماعه...

قبل أن يتمكن من إعادة إشعال الفانوس، برزت كيلبي من الضباب. كانت تتقدم بخطوات متوترة، مترددة، أذناها منتصبتان، وجسدها يرتعش. فوق ظهرها، كانت سيري، تلتف في معطفها، شعرها يتطاير بفعل الريح. نظرت إليه بعينين داكنتين، مفعمتين بيقين لا يُمكن زعزعته.

"ادخل إلى الكوخ"، قالت بصوت هادئ، لكنه مشحون بشيء كاد يجعله يرتجف أكثر من العواء القادم من المستنقع.

"وأغلق الباب جيدًا. لا تخرج. الليلة... ستكون ليلة فظيعة."

* * *

"أنا أتكلم عن الحقيقة!"

قفزت سيري من على الطاولة، قبضتاها مشدودتان بقوة، ووجهها مشحون بالغضب. نظراتها اخترقت فيسجوتا، تحدّته أن ينكر كلماتها، أن يواجهها بحجج أضعف من صرخاتها المتقدة.

"أنت تظنني حمقاء، فتاة صغيرة تتحدث باندفاع؟"

رفع العجوز نظره إليها ببطء، لكن صوته ظل هادئًا، محايدًا كصدى الريح في المستنقعات.

"أظنك غاضبة، وهذا أخطر من الاندفاع."

ضربت بقبضتها على الطاولة، فاهتزت الأطباق والكؤوس.

"أنت لا تفهم شيئًا! لا شيء! تتحدث عن الخير والشر وكأنهما مجرد أفكار فلسفية، وكأنك تستطيع تحليلهما كما تحلل نصًا في كتاب! ولكن الشر الذي رأيته، الذي اختبرته... ليس شيئًا يمكن تحليله! إنه شيء يُحرق! شيء يُقتل!"

ظل فيسجوتا صامتًا للحظة طويلة. ثم أخرج نفسًا هادئًا، رفع كأسه إلى شفتيه، لكنه لم يشرب. حدّق في النبيذ الأحمر الداكن، كما لو كان يبحث عن الكلمات داخله. ثم تكلم.

"وهل جربتِ ذلك؟ القتل كعلاج؟"

تجمدت سيري. ثم أبعدت نظرها.

"جربتُ الكثير."

وضع العجوز كأسه بهدوء. نظر إليها، ليس بعين القاضي، بل بعين الجدّ الذي يرى حفيدته تخطو على حافة الهاوية.

"وما النتيجة؟ هل زال الشر؟"

كانت إجابة سيري صمتًا، لكنها لم تكن بحاجة إلى الكلام. العاصفة التي هدرت في عينيها أجابته بصوت أعلى من أي كلمات.

"اجلسي، سيري. تناولي عشاءك وتحدثي معي لا كجلاد بل كفتاة ما زالت ترى في العالم ما يستحق العيش من أجله."

ترددت للحظة، ثم جلست ببطء، وعيناها مغمورتان ببحر من المشاعر. أخذت نفسًا عميقًا، لكنها لم تستطع إخماد النيران التي كانت تتأجج في قلبها.

حدّق فيسجوتا في سيري، وجهه بلا تعبير، لكن عينيه كانتا ثقيلتين بالحزن، بالحزن والرهبة.

"يا إلهي، يا فتاة... ماذا فعلوا بك؟"

قبضت سيري يديها، تنفست بسرعة، وكأنها قد شارفت على الانفجار.

"لقد فتحوا عيني! علّموني ما هو العالم حقًا! أنت، أنت تجلس هنا، تقرأ كتبك، تكتب فلسفتك، ولكنك لم ترَ الجحيم! لم تشعر بألم السوط يمزق ظهرك! لم تعرف كيف هو الأمر عندما تُكسر أصابعك واحدة تلو الأخرى، فقط ليجربوا مدى قدرتك على الصراخ! لا، فيسجوتا، أنت لم تَرَ، ولم تشعر، ولم تُعاني! لكني رأيت! شعرت! وعانيت!"

ارتجف العجوز قليلاً، لكن صوته بقي هادئًا، ثابتًا، كما لو كان يحاول تهدئة وحش جريح.

"أجل، لقد رأيتِ الجحيم. ولكنك خرجتِ منه، سيري. وها أنتِ الآن هنا، حرة، غير مقيدة، غير مهددة. لماذا تصرّين على العودة إليه؟"

"لأن الجحيم لم يخرج مني بعد!"

كانت كلماتها كالطعنات، كالسكاكين، حادة وساخنة بالمرارة. اقتربت منه، انحنت نحوه كما لو كانت تستجوبه.

"قل لي، فيسجوتا، هل قتل الشرير خطأ؟ هل يجب أن نتركهم ليعيشوا؟ ليواصلوا نشر الشر؟ ليؤذوا غيرهم؟ لماذا يستحقون الحياة؟"

نظر إليها فيسجوتا ببطء، رفع يده إلى لحيته البيضاء الطويلة، ثم تحدث بصوت كاد يكون همسًا.

"لأنك إذا قتلتهم، سيري، ستصبحين مثلهم."

تجمدت ملامحها. ثم انفجرت ضاحكة، لكن ضحكتها لم تكن مرحة، بل كانت قاسية، مريرة.

"هذا... هذا هراء! هراء فلسفي جبان! لا، فيسجوتا، لا! أنا لست مثلهم، ولن أكون مثلهم أبدًا! أنا لا أقتل من أجل المتعة، ولا من أجل المال، ولا من أجل السلطة. أنا أقتل لأنهم يستحقون ذلك! لأنهم فعلوا بي ما لا يُغتفر! لأنهم فعلوا بالآخرين ما لا يُغتفر!"

أخفض فيسجوتا رأسه للحظة، كما لو كان يحاول تجميع أفكاره، ثم رفع عينيه إليها مجددًا، ولم تكن في نظرته أي قسوة، ولا عتاب، فقط ألم هادئ.

"وماذا بعد، سيري؟ بعد أن تقتليهم جميعًا، بعد أن تشربي دماءهم وتفرحي بصراخهم؟ ماذا سيبقى منك؟"

لم تجبه. لم تستطع. لأنه، ولأول مرة، تسلل إليها الشك.

حدّق فيسجوتا في سيري بصمت، للحظة بدا وكأنه يريد أن يقاطعها، لكن شيئًا ما في عينيها منعه. ربما كان ذلك الإصرار، أو التعب، أو الألم العالق في ملامحها. هز رأسه ببطء، وأشار إليها أن تكمل.

"أنا لم أخبرك بكل شيء، فيسجوتا. لم أخبرك بما حدث في القرية المسماة يونيكورن..."

أخذت نفسًا عميقًا، كما لو كانت تغوص في ذكرياتها، تغوص في الماضي الذي لا يزال يحترق بداخلها. أغلقت عينيها للحظة، ثم فتحتها مجددًا، ونظرت إليه مباشرة.

"لقد كنا هناك، أنا وهؤلاء الذين يطاردونني، في ليلة سوداء، باردة. الريح تعوي بين الأشجار، تدفع الأبواب الصدئة لتصدر صريرًا مروعًا. كان القرويون مختبئين، يراقبون من بين الشقوق، عيونهم متسعة بالخوف. لكن لم يكن هناك خلاص، لم يكن هناك هروب. عندما دخلوا، عندما جرّوا الرجال خارج بيوتهم، عندما بدأوا في الضحك، في ضربهم، في الصراخ..."

توقفت، وبلعت ريقها. قبضت على قبضتيها بشدة، كما لو أنها تشعر بالشبح الذي عاد ليطاردها.

"كنت هناك، مختبئة. كنت أراقب. وعندما رفع أحدهم يده ليضرب فتاة صغيرة، لم أعد قادرة على التحمل. خرجت من الظل، وسيفي في يدي. لا أتذكر بالضبط كيف بدأت المعركة، ولا كيف انتهت. كل ما أتذكره هو الدم، الكثير من الدم، والصراخ... ثم الصمت."

كان فيسجوتا يراقبها بصمت، وجهه بلا تعبير، لكن عيناه كانتا تقولان الكثير. أخيرًا، تحدث بصوت هادئ، حذر.

"وماذا بعد، سيري؟ بعد أن تلاشى الصراخ، بعد أن سقطوا جميعًا؟ هل شعرتِ بالراحة؟ هل شعرتِ أنك قد هزمتِ الشر؟"

نظرت إليه لفترة طويلة، ثم هزّت رأسها ببطء.

"لا. لم أشعر بأي شيء. لا شيء سوى الفراغ."

* * *

بونهارت لم يُجب، لكنه شدّ السلسلة بعنف، مما جعل سيري تسعل وتلهث وهي تحاول استعادة توازنها. شعرت بألم حارق في رقبتها حيث ضغط الطوق المعدني على جلدها المُصاب. نظرت إلى رينس، إلى تلك العيون التي تومض بشرٍّ واضح، وأدركت أن الوضع أسوأ مما كانت تتخيل.

قال بونهارت أخيرًا، صوته جاف كالحجر: "بالطبع ليس لدي أي شيء ضد تحياتك، لكن احذر من أن تتجاوز حدودك، أيها الساحر فالفتاة لي."

ابتسم رينس ابتسامة صغيرة، لكنها كانت أكثر سمّية من تعابيره السابقة. اقترب منها، حتى استطاعت سيري أن تشم رائحة الكبريت العالقة في ردائه. همس بصوت منخفض، بالكاد يُسمع، لكن كلماته اخترقت أعصابها كخنجر مسموم.

"مهما كنت تعتقد، أيها الصياد، لن تكون الفتاة لك للأبد. قريبًا جدًا، ستعرف من هو السيد الحقيقي."

بونهارت لم يتحرك، لكن عضلاته تصلبت. لم يكن رجلاً يتقبل التهديدات بسهولة. ومع ذلك، لم يقل شيئًا، فقط شدّ السلسلة مرة أخرى، مجبرًا سيري على اتباعه. كانت تحاول أن تحافظ على توازنها، لكن الألم في وركها جعل كل خطوة عذابًا. دخلوا إلى الكوخ، حيث اجتمع باقي الرجال، وجلسوا حول الطاولة، ينتظرون. كانت هناك مقاعد شاغرة، كما لو أن الاجتماع قد خُطط له مُسبقًا.

جلس بونهارت، لكنه لم يحرر سيري من الطوق، بل ربط السلسلة بإحكام إلى قدم الطاولة. نظرت حولها، مُحاولةً قراءة وجوه الرجال، مُحاولةً فهم مصيرها القادم. كان ستيفان سكيلين يُحدق بها كما يُحدق صيّاد بطرائده. أما رينس، فقد كان مستمتعًا. شيء ما في هذه الأجواء جعل معدتها تنقبض. لقد عرفت ما يعنيه هذا الشعور. هذا الشعور بالهاوية التي تقترب.

سيلفانت أمسك بالسلسلة بإحكام، بينما كانت سيري تراقبه بعينين باردتين، تخفي خوفها العميق تحت قناع من الجفاء. لم تكن تريد أن تُظهر لهم ضعفها، لم تكن تريد أن تمنحهم أي متعة في رؤيتها مرتعبة. بونهارت، رغم كل شيء، بدا غير مرتاح. ربما لأنه كان يرى نفسه سيدًا عليها، وليس مجرد تابع في لعبة الآخرين.

"فلنبدأ،" قال سكيلين، مُشيرًا للجميع بالجلوس. كان المكان مظلمًا، مضاءً فقط بشمعة طويلة على الطاولة، ألقى ضوؤها ظلالًا متراقصة على الوجوه القاسية المحيطة بها.

جلس رينس متحفزًا، وكأن جسده يحترق برغبة خفية في الانتقام. أما بونهارت، فقد انحنى للخلف على كرسيه، عيناه نصف مغلقتين، لكن يده كانت قريبة من مقبض سيفه. لم يكن مرتاحًا، وسيري لاحظت ذلك. كان هناك صراع غير معلن في الغرفة، توتر يتسلل عبر الأجواء.

"ماذا تريدون منها؟" سأل بونهارت، كسر الصمت الذي كان أثقل من الجدران الخشبية المحيطة بهم.

ابتسم سكيلين ابتسامة جافة، غير مبالية. تبادل نظرة سريعة مع رينس، ثم قال بصوت هادئ لكنه حاد كنصل خنجر:

"نريدها حيّة. على الأقل في الوقت الحالي. لدينا خطط للفتاة، خطط عظيمة. ولا تقلق، ستحصل على مكافأتك، بونهارت، طالما أنك تفهم مكانك في هذه اللعبة."

لم يُجب بونهارت فورًا، لكنه عبس، وكأنه يدرس كلماته بعناية. أما سيري، فقد أحست بجفاف في حلقها، أدركت أن مصيرها قد تحدد بالفعل، وأن اللعبة قد بدأت، وأنها كانت مجرد قطعة على رقعة شطرنج لا ترى صورتها الكاملة بعد.

* * *

صمت المكان للحظة، وكأن الهواء ذاته توقف عن الحركة. كانت كلمات سيبريان فريب، المليئة بالقسوة والوحشية، أشبه بحجر ألقي في بحيرة راكدة، تسبّب في موجة من التوتر والانزعاج، حتى بين أكثر الرجال قسوة في الحشد.

هارشيم أدار رأسه ببطء، نظر إلى فريب نظرة باردة، وكأن عيناه تتغلغلان داخل روحه، تبحثان عن أي أثر للإنسانية. لكن فريب لم يرف له جفن، بل اكتفى بابتسامة خبيثة، ورفع حاجبًا بتحدٍ.

"لن يكون هناك أي عبث معها"، قال بونهارت بهدوء، صوته كان مجرد همسة، لكنه حمل معه تهديدًا جليًا. "لا أحد يلمسها إلا إذا أردت ذلك. وإذا أراد أحدكم العبث، فلن يجد سوى سيفي ليقطع به لسانه."

تحولت النظرات سريعًا إلى بونهارت، الذي كان يقف بلا حراك، يده على مقبض سيفه. الجميع هنا يعرفونه، يعرفون أنه لا يمزح. فريب، رغم تبجحه، لم يكن أحمقًا كفاية ليتحداه، لذلك ابتلع كلماته واستدار، متظاهرًا باللامبالاة.

سيري لم تقل شيئًا. لم تحاول أن تبدي امتعاضًا، لم تظهر ضعفًا أو خوفًا. فقط نظرت إلى بونهارت، إلى سكيلين، إلى الرجال الذين أحاطوا بها كذئاب جائعة. ثم رفعت رأسها قليلًا، كما لو أنها هي من كانت تحكم عليهم، وليس العكس.

"هيا"، قال سكيلين أخيرًا، "لننهي هذا الاستعراض. اربطوها جيدًا. سنقرر مصيرها قريبًا."

وبينما كانت تُقاد إلى العمود، شعرت كينّا بشيء غريب في صدرها. شعور لم تفهمه تمامًا. لم يكن شفقة، ولم يكن ازدراءً. كان أشبه بإحساس غامض بأنها، رغم كل شيء، لم تكن تريد أن ترى نهاية هذه الفتاة بهذه الطريقة.

بينما كان الباقون ينسحبون نحو وليمتهم وضحكاتهم تتلاشى مع الرياح الباردة، بقيت كينّا في مكانها، تنظر إلى سيري المربوطة إلى العمود. عينا الفتاة الرمادية كانتا باردتين، متجمدتين، لكنهما لم تكونا فارغتين من الحياة. كانت هناك نار تحت هذا الجليد، نار لم تخمد رغم ما مرت به.

نيراتين سيكا وقف بالقرب، يراقب بصمت، ملامحه غامضة كعادته. كينّا لم تكن تثق به، لكنها لم تثق بأيّ من الموجودين هنا. ورغم ذلك، قررت أن تراقب. أن تبقى على مقربة.

"ما اسمك؟" سألت كينّا، بصوت خافت.

سيري لم تجب فورًا، فقط حدّقت إليها للحظة، ثم قالت بهدوء، وكأن الاسم لم يعد يعني لها شيئًا:

"فَالكا."

كينّا لم تصدقها، لكنّها لم تعلّق. فقط ابتسمت ابتسامة صغيرة، كمن فهمت اللعبة التي تلعبها الفتاة. لم تكن غبية، هذا واضح. لكن هل ستكون ذكية بما يكفي لتنقذ نفسها؟

في مكانٍ ما في القرية، ارتفع صوت الضحك والغناء، وصوت قناني تُفتح. الليل كان طويلاً، لكنه لم يكن هادئًا.

* * *

سيري تنفست بعمق، كأنها تحاول دفع الذكريات بعيدًا، لكنها لم تستطع.

"كنت أراقبهم، أحاول قراءة وجوههم، لكن معظمهم كانوا باردين، متحفظين. كانت المرأة الطويلة تراقبني بعناية، لكن دون عداء. أما الرجل ذو الحركات الناعمة، فقد بدا وكأنه مستمتع بشيء ما، كأنه يشاهد مسرحية هزلية. كنت أعلم أنهم جميعًا أعدائي، لكن ليس بنفس الطريقة. البعض أراد موتي سريعًا، والبعض الآخر أراده بطيئًا، وربما كان هناك من أراده بألم."

رفعت نظرها نحو فيسوغوتا، الذي ظل صامتًا، يستمع إليها بتركيز، لكنه لم يُظهر رأيه. لم يكن هناك ما يقوله. لم يكن هناك عزاءٌ يُقدّم.

"لم أعد أهتم. لم أعد خائفة. كنت أعرف أنني قد أموت تلك الليلة، أو ربما في صباح اليوم التالي. لم يكن ذلك يهمني، لتكن هي النهاية سريعاً"

خارج الكوخ، تلاعبت الرياح بأغصان الأشجار، تصدر صوت صفير منخفض. بينما في الداخل، كان الصمت يخيّم، ممتلئًا بالذكريات التي لا يمكن محوها.

إكتفى فيسجوتا بالصمت.

* * *

تنهد بونهارت.

قال مكررًا: "لا تنظر في هذه العيون، سكيلين. كل ما أريده هو كسب بعض المال. أظن أن الوقت قد حان للتقاعد، والجلوس على الشرفة، أراقب الحمام. سأحصل على مائة فلورين مقابل كل فأر، شرط أن يكون ميتًا. وهذا ما أثار حيرتي. كم يمكن أن تساوي هذه الفتاة حقًا، تساءلت. ففكرت أنني إن لم أسلمها إليكم، فقد تكون أكثر ربحًا على المدى الطويل. إنها القاعدة القديمة للتجارة – مثل هذه السلعة الثمينة تزداد قيمتها باستمرار. يمكن للمرء أن يساوم..."

تجعد أنف البومة وكأنه يشتم رائحة كريهة.

قال: "أنت صريح حتى حدود الإرهاق، بونهارت. لكن ادخل في صلب الموضوع، وضّح. تهرب بالفتاة عبر إيبينغ، ثم تظهر فجأة لتشرح كل شيء بقوانين الاقتصاد؟ فسر ما حدث."

ابتسم رينس بسخرية.

قال: "لا شيء ليُفسَّر. السيد بونهارت ببساطة اكتشف من تكون الفتاة حقًا. وقيمتها الحقيقية."

لم يكلف سكيلين نفسه عناء النظر إليه. كان يحدق في بونهارت بعينين خاليتين من التعبير، كعيني سمكة.

قال ببطء: "وهذه الفتاة الثمينة، هذه الجائزة القيمة التي يُفترض أن تضمن لك تقاعدًا مريحًا، تدفع بها إلى الحلبة في كليرمونت وتجبرها على القتال حتى الموت؟ تخاطر بحياتها، رغم أن قيمتها وهي على قيد الحياة أعظم بكثير؟ كيف تفسر هذا، بونهارت؟ لأن هناك شيئًا غير منطقي هنا."

لم يطرف جفن بونهارت.

قال: "لو قُتلت في الحلبة، فهذا يعني أنها لم تكن تساوي شيئًا."

قطب البومة حاجبيه.

قال: "أفهم... لكن بدلًا من أن تقودها إلى حلبة أخرى، جئت بها إليّ. هل لي أن أسأل، لماذا؟"

قطّب رينس حاجبيه مجددًا.

قال: "لأنه اكتشف من تكون."

تمدد بونهارت حتى طقطقت مفاصله.

قال: "أنت ذكي، سيد رينس. لقد أصبت. اكتشفت أنها تلقت تدريبًا مع الويتشر في كير مورهن، لكن كان هناك أمر آخر. في غيسو، أثناء هجوم على نبيلة، أخبرت الفتاة البارونة أن نسبها وألقابها لا تساوي شيئًا، وأن عليها الركوع أمامها. حينها، فكرت أن فلكا لا بد أن تكون على الأقل كونتيسة. أمر يثير الفضول... أولًا ويتشر. كم يوجد من الويتشر؟ ثم انضمت إلى عصابة الفئران، هذا ثانيًا. ثم هناك المحقق الإمبراطوري الذي يطاردها منذ كوراث في إيبينغ بأوامر للقتل، ثالثًا. وأكثر من ذلك... نبيلة، وذات نسب رفيع. ها! فكرت أن عليّ أخيرًا أن أكتشف من تكون هذه الفتاة فعلًا."

توقف للحظة.

مسح شاربه بحافة كمه، ثم قال: "في البداية، لم تكن تريد التحدث. سألتها. ضربت يديها وقدميها بالسوط. لم أرغب في تشويهها... لكن لحسن الحظ، صادفنا حلاقًا. كان لديه أدوات لخلع الأسنان. ربطتها إلى كرسي..."

ابتلع سكيلين ريقه بوضوح. ابتسم رينس بوحشية. نظر بونهارت إلى كمّه.

قال: "أخبرتني بكل شيء... بمجرد أن رأت الأدوات كماشة الأسنان والسكاكين. فجأة، أصبحت أكثر حديثًا. وتبيّن أنها..."

قال رينس وهو ينظر إلى البومة: "أميرة سينترا. وريثة العرش. والمرشحة للزواج من الإمبراطور إمير."

لوى صائد الجوائز شفتيه بازدراء.

قال: "السيد سكيلين فشل في إخباري بذلك. كل ما قاله لي هو أن أقتلها؛ كرر ذلك عدة مرات. تُقتل على الفور، وبلا شفقة. لكن ما هذا يا سيد سكيلين؟ قتل الملكة؟ زوجة إمبراطورك المحبوب المستقبلية؟ والتي، إن صدقنا الشائعات، لا يفكر إلا في زواجه المقدس بها، وبعده ستأتي عفو عام واسع؟"

بينما كان يلقي كلماته، اخترقت عينا بونهارت نظرات سكيلين. لكن المحقق الإمبراطوري لم يشيح بنظره ولو للحظة.

قال بونهارت بصوت يحمل نبرة ساخرة: "وما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لي؟ لا شيء سوى اللعنة! وهكذا، وبأسف، اضطررت إلى التخلي عن خططي للويتشر الصغيرة والأميرة. جلبت هذه الفوضى

كلها إلى هنا، يا سيد سكيلين. لأتحدث ونتوصل إلى اتفاق... لأن هذه الورطة تبدو أكبر قليلًا من أن يتحملها رجل واحد مثل بونهارت..."

دوى صوت من تحت ذراع رينس، صاح بصوت حاد: "قرار صائب! قرار ممتاز يا سيد بونهارت! ما وقع بين أيديكم، أيها السادة، ليس مجرد شيء كبير... بل أكبر من أن تتعاملوا معه وحدكم. لحسن الحظ، ما زلتم تملكونني."

اعتدل سكيلين في مقعده فجأة.

قال بصوت غاضب: "ما هذا؟ ما هذا بحق الجحيم؟"

ابتسم رينس بسخرية، وسحب من تحت ذراعه صندوقًا فضيًا لامعًا.

قال: "سيدي، الساحر فيلغيفورتز. أو، بشكل أكثر دقة، صوته. يصلنا عبر هذا الجهاز السحري الذي يدعى زينوفون."

قال الصندوق بصوت واضح وثابت:

"أحيي جميع الحاضرين. إنه لأمر مؤسف أنني لا أستطيع سوى سماعكم، لكن هناك أمورًا عاجلة تمنعني من استخدام الإسقاط السحري أو الانتقال الفوري."

تمتمت البومة بامتعاض، شاتمًا:

"اللعنة، هذا آخر ما نحتاجه. لكن كان عليّ أن أخمن أن رينس أحمق جدًا ليعمل بمفرده. كان يجب أن أعلم أنك مختبئ في الظلام، فيلغيفورتز. مثل عنكبوت عجوز متضخم، مترصد في العتمة، ينتظر اهتزاز شبكته."

تردد صوت فيلغيفورتز من الصندوق، بنبرة متعجرفة:

"يا لها من مقارنة مهينة."

شخر سكيلين بسخرية.

قال: "ولا تحاول خداعنا، فيلغيفورتز. رينس يستخدم هذا الصندوق ليس لأنك مشغول، بل لأنك خائف من جيش السحرة، رفاقك السابقين في المجلس، الذين يمسحون العالم بحثًا عن أي أثر لسحرك مستخدمين خوارزمية تتبعك. لو حاولت الانتقال الفوري، لوجدوك في لحظة."

رد الصوت بصوت هادئ، مفعم بالسخرية:

"يا لها من معرفة مدهشة."

انحنى بونهارت نحو الصندوق الفضي بانحناءة مسرحية، صوته متلاعب وساخر.

قال: "لم يتم تقديمي إليك، يا سيد الساحر، ولكن إذا لم أكن مخطئًا، فإن السيد رينس هنا يعد بتعذيب الأميرة. هل أخطأت في الفهم؟ أقسم بروحي، أنني لا أكف عن إدراك مدى أهمية هذه الفتاة. الجميع مهتمون بها."

تردد صوت فيلغيفورتز من الصندوق، بلهجة باردة لكنها حاسمة:

"لم يتم تقديمنا لبعضنا، لكنني أعرفك أيضًا، سير بونهارت. والفتاة، بلا شك، مهمة للغاية. فهذه شبل سينترا، من سلالة الدم القديم. ووفقًا لنبوءة إثلين، فإن نسلها سيحكم العالم."

قطب بونهارت حاجبيه، صوته يحمل الشك:

"لهذا تحتاجها؟"

رد فيلغيفورتز بنبرة خالية من العاطفة:

"أنا بحاجة فقط إلى المشيمة. عندما أستخرجها منها، يمكنك الاحتفاظ بالباقي."

تردد صمت ثقيل، قطعه فيلغيفورتز بصوت ساخر:

"هل أسمع همهمات؟ هل أسمع أنفاسًا ممتعضة ومشمئزة؟ مِن مَنْ؟ من بونهارت الذي يعذب الفتاة جسديًا ونفسيًا كل يوم؟ أم من ستيفان سكيلين، الذي يتلقى أوامر بقتل الفتاة من خونة ومتآمرين؟ هاه؟"

* * *

تذكّرت كينا، وهي مستلقية على الفراش، ويداها متشابكتان خلف رأسها:

"لقد تنصّتُ عليهم."

كانت واقفة في زاوية، تشعر بكل شيء. وشعرها وقف على أطرافه. في كل أنحاء جسدها. وفجأة، أدركت الفوضى الرهيبة التي وجدت نفسها عالقة فيها.

* * *

رج الصوت من جهاز الزينوفون، هادئًا لكنه مشوب بالسخرية:

"نعم، نعم، لقد خنت إمبراطورك، سكيلين. دون تردد، وفي أول فرصة سنحت لك."

شخر البومة بازدراء.

قال: "أن تأتي تهمة الخيانة من فم خائن العصور مثلك، فيلغيفورتز، فهذا لأمر عظيم. كنت سأعتبرها شرفًا... لولا أنها تبدو كمزحة رخيصة."

تردد الصوت من الجهاز، بلهجة متلاعبة:

"أنا لا أتهمك بالخيانة، سكيلين؛ بل أسخر من سذاجتك وعجزك حتى عن الخيانة. لأنني أسألك، لماذا تخون سيدك؟ من أجل آردال إيب داهي ودي ويت، الدوقين اللذين لم يحتمل كبرياؤهما الجريح أن بناتهما رُفضن من قِبل الإمبراطور حين قرر الزواج من فتاة سينترا؟ لقد عقدا آمالهما على أن ينهض من سلالتهما سلالة جديدة تحكم العرش، وأن تفوق أهميتهما عظمة جلالة الإمبراطور نفسه. لكن بضربة واحدة، حطم إمير هذا الأمل، فقررا تغيير مجرى التاريخ. إنهما غير مستعدين للتمرد المسلح، لكن لا يزال بإمكانهما قتل الفتاة التي سبقت بناتهما. ومع ذلك، لا يريدان تلويث أيديهما الأرستقراطية بهذا الفعل، فبحثا عن سفاح مأجور، فكان ستيفان سكيلين، الرجل الذي يعاني من طموح زائد. ما رأيك في ذلك، سكيلين؟ هل لديك ما تقوله؟"

صرخ البومة غاضبًا:

"ولماذا؟ ولمن؟ لكنك تعرف كل شيء، كالعادة، أيها الساحر العظيم! وكمعتاد، رينس لا يعرف شيئًا! وبونهارت لا يكترث أصلًا!"

رد الصوت من الزينوفون، بنبرة لاذعة:

"وأنت، كما أشرت، ليس لديك ما تتفاخر به. لقد اشتراك الدوقات بالوعود، لكنك أذكى من أن تجهل أنه بدون الفتاة، لا تملك شيئًا. هم بحاجة إليك كأداة لإزاحة فتاة سينترا، وبمجرد أن تنتهي من العمل القذر، سيتخلصون منك كما يتخلصون من أي طفيلي وضيع. لقد وعدوك أنت وفاتير دي ريدو بمناصب في الإمبراطورية الجديدة؟ حتى أنت نفسك لا تصدق ذلك، سكيلين. فاتير أكثر ضرورة لهم بسبب الانقلاب، أما جهاز المخابرات فسيظل كما هو دائمًا. إنهم فقط يريدون أن تقتل الفتاة بيديك، أما فاتير، فهم بحاجة إليه للسيطرة على الاستخبارات. أضف إلى ذلك... فاتير هو فيكونت، أما أنت... فأنت لا شيء."

قال البومة، بنبرة هادئة لكن صارمة:

"بالتأكيد. أنا أذكى من أن أفوّت ذلك. إذن، تريدني الآن أن أخون آردال إيب داهي وأنضم إليك، فيلغيفورتز؟ هل هذا ما تريده؟ لكنني لست دوّارة رياح على برج! أنا أدعم الثورة، ليس بدافع الانتهازية، بل عن قناعة. يجب إنهاء الطغيان المطلق وإقامة ملكية دستورية. ثم بعد ذلك... ديمقراطية..."

ساد صمت لحظة، قبل أن يأتي صوت فيلغيفورتز من جهاز الزينوفون، محملًا بالدهشة الساخرة:

"ديموقراطية؟"

قال البومة بحماسة:

"حكم الشعب. نظام يحكم فيه الناس. المواطنون العاديون من جميع الخلفيات، عبر ممثلين شرفاء وأكفاء يتم اختيارهم في انتخابات نزيهة..."

انفجر رينس ضاحكًا بصوت عالٍ. تبعه بونهارت بضحكة مدوية. ثم جاء من جهاز الزينوفون ضحكة دافئة، وإن كانت خشنة بعض الشيء، من الساحر فيلغيفورتز. ضحك الثلاثة حتى اغرورقت أعينهم بالدموع.

قطع بونهارت الضحك فجأة، بنبرة حازمة:

"لم نجتمع هنا من أجل الاحتفال، بل للحديث عن العمل. الفتاة، في الوقت الحالي، لا تنتمي إلى أي مواطن عادي من أي طبقة... بل إليّ. لكنني قد أبيعها. ما هو عرضك، أيها الساحر؟"

جاء الصوت من الزينوفون، ببطء مدروس:

"هل أنت مهتم بالسيطرة على العالم؟"

أجاب بونهارت بلا مبالاة:

"لا."

أكمل فيلغيفورتز بنفس الهدوء:

"إذن، سأسمح لك بأن تكون حاضرًا حين أقوم بما يجب القيام به للفتاة. أعلم أن هذا سيسعدك أكثر من أي شيء آخر."

توهجت عينا بونهارت بوميض أبيض، لكنه ظل هادئًا.

قال: "وماذا تحديدًا؟"

جاء الرد بنبرة هادئة، لكنها مغرية:

"تحديدًا، أنا مستعد لدفع عشرين ضعف حصتك المعتادة. ألفي فلورين. فكّر في الأمر، بونهارت، إنها كومة من المال لن تستطيع حملها وحدك، ستحتاج إلى بغل لنقلها. ستكفيك لتقاعد مريح، وشرفة، وحمائم، بل وحتى الفودكا والعاهرات، إن التزمت باعتدال معقول."

ابتسم صائد الجوائز، مظهرًا عدم الاكتراث:

"حسنًا، أيها الساحر. الفودكا وهؤلاء العاهرات أصابوا الوتر الحساس في قلبي، لنقل إذن أننا قد أبرمنا صفقة. لكن ضع في اعتبارك أن عرضك الأول مشمول أيضًا في هذا الاتفاق. صحيح أنني كنت أفضل مشاهدتها تموت في الحلبة، لكني أيضًا أشعر بفضول لا بأس به حول عملك بالسكاكين. أضفه كعلاوة."

قال فيلغيفورتز من جهاز الزينوفون، بصوت بارد وحاسم:

"اتفاق."

تمتمت البومة بتهكم، عاقدًا ذراعيه:

"كان ذلك سريعًا. حقًا، فيلغيفورتز، لقد أبرمت شراكة مع بونهارت بسرعة وسلاسة مذهلتين. شراكة تمثل ما يُعرف بـ societas leonina، أي شراكة الأسد التي يأخذ فيها الأقوى كل شيء. لكن هل نسيت شيئًا؟ قاعة المجلس التي تجلس فيها، والفتاة السينترية، محاطون برجالي المسلحين. رجالي، وليس رجالك."

تردد صوت فيلغيفورتز من الصندوق، هادئًا لكنه مشوب بالسخرية:

"عزيزي المحقق سكيلين، أنت تهينني حين تظن أنني أريد إقصاءك في هذه الصفقة. على العكس تمامًا. سأكون كريمًا معك للغاية. لا يمكنني ضمان ديمقراطيتك، لكن يمكنني أن أعدك بالدعم المالي، والمساندة اللوجستية، والوصول المجاني إلى المعلومات، مما سيجعلك تتحرر من كونك مجرد أداة في أيدي المتآمرين الآخرين، وتصبح شريكًا حقيقيًا. سيتوجب على الدوق يواكيم دي ويت، والدوق آردال إيب داهي، واللورد بروني، واللورد دارفي، وجميع النبلاء المتآمرين أن يحسبوا لك حسابًا."

توقف لحظة، ثم أضاف بصوت واثق:

"نعم، قد تكون هذه شراكة الأسد، لكن إن كانت الغنيمة هي سيريلا، فسآخذ أنا الحصة الكبرى، عن جدارة، كما أرى. هل يزعجك ذلك؟ في نهاية الأمر، لن تخرج خالي الوفاض. إذا منحتني الفتاة السينترية، يمكنك أن تضع منصب فاتير دي ريدو في جيبك. وبوصفك رئيسًا لجهاز الاستخبارات، ستيفان سكيلين، يمكنك تحقيق أحلامك الخيالية المختلفة، بما في ذلك الديمقراطية والانتخابات النزيهة. انظر، في مقابل فتاة مراهقة نحيلة، سأحقق لك طموحاتك وأحلام حياتك. هل ترى؟"

هزّت البومة رأسها، نظراتها باردة:

"لا. لا أرى. كل ما أستطيع فعله هو السمع."

ارتفع صوت فيلغيفورتز مجددًا، آمرًا:

"رينس."

انتفض رينس على الفور:

"نعم، سيدي؟"

قال فيلغيفورتز:

"امنح السيد المحقق عيّنة من معلوماتنا. أخبره بما تعرفه عن فاتير."

أخذ رينس نفسًا عميقًا، ثم قال بنبرة ماكرة:

"في وحدتك، هناك جاسوس."

تجمد سكيلين، عينيه تضيقان بخطورة.

قال ببطء، وكأنه غير مصدق: "ماذا؟"

قال رينس، صوته مشبع بالمتعة القاتمة:

"لقد سمعتني جيدًا. فاتير دي ريدو لديه عميل سري هنا. إنه يعرف كل ما تفعلونه. لماذا تفعلونه. ولمن تعملون. فاتير نجح في الوصول إلى أحد رجالك."

* * *

اقترب منها ببطء. بالكاد سمعت خطاه.

قال بصوت خافت: "كينا."

أجابت بصوت هادئ، لكن متيقظ: "نيراتين."

قال، وهو ينظر إليها بثبات: "لقد كنتِ منفتحة على أفكاري. هناك، في قاعة المجلس. كنتِ تعلمين ما كنت أفكر فيه. إذن، أنتِ تعرفين من أنا."

قالت بسرعة، متوترة: "اسمع، نيراتين..."

قاطعها بصوت حازم: "لا. أنتِ من يجب أن تستمعي، جوانا سلبورن. ستيفان سكيلين يخون بلاده وإمبراطوره. إنه يتآمر. وكل من معه سينتهي به الأمر على المقصلة. سيمزّقون بأربعة خيول في ساحة الألفية."

شعرت قشعريرة تسري في جسدها، لكنها تماسكت، وقالت بصوت متحشرج: "لا أعرف شيئًا، نيراتين. أنا فقط أنفذ الأوامر... ماذا تريد مني؟ أنا أخدم المحقق... وأنت، من تخدم؟"

قال ببرود: "الإمبراطورية. اللورد دي ريدو."

تمتمت بصوت متردد: "ماذا تريد مني؟"

ابتسم نصف ابتسامة، وقال: "أن تتحلي ببعض الفطنة."

شعرت بالتوتر يزداد، همست برجاء: "ارحل. لن أخونك، لن أقول شيئًا... لكن فقط اذهب، أرجوك. لا يمكنني، نيراتين. أنا مجرد امرأة بسيطة. لا أفهم هذه الدسائس..."

* * *

ماذا يفترض بي أن أفعل؟

ناداني سكيلين بـ "الموظفة سلبورن". لكن، من أخدم حقًا؟

هل أخدمه؟ أم أخدم الإمبراطور؟ أم أخدم الإمبراطورية؟

كيف أقرر؟

استندت كينا إلى جدار الكوخ، وزجرت بزمجرة مخيفة الأطفال الريفيين الذين كانوا يحدقون في فلكا المقيدة بالسلاسل، مما جعلهم يهربون في هلع.

يا لها من فوضى جميلة.

أكاد أشعر بالحبل يلتف حول عنقي.

أشم رائحة روث الخيول في ساحة الألفية.

لا أدري ما الذي سيحدث، لكنني بحاجة إلى الدخول للحظة.

بحاجة إلى معرفة أفكارها.

بحاجة إلى معرفة من تكون.

بحاجة إلى أن أفهم.

* * *

قالت سيري، وهي تلاعب القطة بين أصابعها:

"اقتربت مني."

"كانت طويلة، أنيقة، ومختلفة تمامًا عن بقية العصابة... حتى أنها كانت جميلة بطريقتها الخاصة. كانت تبعث على الاحترام. الاثنان اللذان كانا يراقبانني – أحمقان بسيطان كانا يشتمان بوقاحة – توقفا عن الكلام حين اقتربت."

ظل فيسوغوتا صامتًا.

تابعت سيري، بنبرة غارقة في الذكرى:

"ثم انحنت ونظرت في عيني. في تلك اللحظة، لاحظت شيئًا... شيئًا غريبًا... كأن شيئًا ضربني في مؤخرة رأسي. أذناي أخذتا تطنان. للحظة، رأيت بوضوح أمام عينيّ... شيئًا دخل في داخلي، مقززًا، لزجًا... كنت أعرف ما هو. ينيفر كانت قد علمتني عنه في المعبد... لكنني لم أرد أن أسمح لهذه المرأة..."

توقفت قليلًا، أخذت نفسًا، ثم أكملت بقوة:

"لذلك دفعت ذلك الشيء الذي كان يتغلغل داخلي، دفعته وبصقته، بكل القوة التي استطعت حشدها. المرأة الطويلة انحنت، وترنحت وكأن لكمة أصابتها، وتراجعت خطوتين إلى الخلف... بدأ الدم يتدفق من أنفها. من كلا الفتحتين."

ظل فيسوغوتا صامتًا.

رفعت سيري رأسها فجأة، عيناها تتوهجان بالإدراك:

"وعندها أدركت ما حدث. فجأة، شعرت بالقوة بداخلي. كنت قد فقدتها هناك، في صحراء كوراث، تخليت عنها. لاحقًا لم أستطع استدعاءها، لم أتمكن من استخدامها. لكنها، تلك المرأة، منحتني القوة؛ وضعت السيف في يدي. كانت هذه فرصتي."

* * *

ترنحت كينا وسقطت جالسة على الرمال، تهز رأسها، تتحسس الأرض بيديها كمن فقد توازنه في سُكرٍ شديد. تدفقت الدماء من أنفها، انسابت فوق شفتيها وذقنها، تاركة خطوطًا قاتمة على بشرتها.

صرخ أندريس فييرني، وهو ينهض فجأة: "ما هذا...؟"

لكن صرخته انقطعت حين أمسك رأسه بكلتا يديه، فغر فمه في ألم، وصدر منه صراخ مختنق. اتسعت عيناه، ونظر إلى ستيغوارد بذهول، فرأى الدماء تسيل من أنف الرجل وأذنيه، وعيناه تغيم كمن أصابه العمى. تهاوى أندريس على ركبتيه، التف بجزع نحو نيراتين سيكا، الذي وقف جانبًا يراقب المشهد بهدوء بارد.

حاول أندريس أن يتكلم، لكنه بالكاد استطاع لفظ اسمه: "ني...راتين... ساعدني..."

لم يتحرك سيكا. ظل يراقب الفتاة. نظرت إليه، فاهتز للحظة، كأن قوة غير مرئية كادت تدفعه للخلف.

قال بسرعة، محذرًا: "لا حاجة لذلك. أنا في صفك. أريد مساعدتك. توقفي، سأقطع قيودك... إليك السكين، افتحي ياقة قميصك. سأحضر الخيول."

صدر صوت متحشرج من أندريس، بالكاد خرجت منه الكلمات: "سيكا... خائن..."

رفعت الفتاة نظرها إليه مجددًا، وعندها، انقطعت أنفاسه وسقط أرضًا بلا حراك. تقلص ستيغوارد على نفسه، جسده ملتف كجنين مذعور. أما كينا، فما زالت غير قادرة على النهوض، ظلت الدماء تتساقط من صدرها وبطنها في قطرات ثقيلة، بطيئة.

انطلقت صرخة حادة من خلف أحد أركان المبنى، صاحت كلوي ستيتز، موجهة نداءً يزلزل السكون:

"إنذار! إنذار! سيليفانت! سكيلين! السجينة تهرب!"

كانت سيري قد امتطت حصانها بالفعل، سيفها يتألق في يدها، نظرتها كحد النصل.

صرخت بأمرٍ مدوٍّ، وضربت كيلبي بكعبيها: "ياااااه! كيلبي!"

"إعلاااااااااام!"

غرست كينا أصابعها في الرمال، محاولة النهوض، لكنها لم تستطع. قدماها لم تعودا تستجيبان، كأنهما تحولتا إلى خشب جامد. فكرت، قلبها يخفق بخوف مكتوم:

"موهبة ذهنية... لقد اصطدمت بموهبة ذهنية خارقة... هذه الفتاة أقوى مني بعشرة أضعاف... لحسن الحظ أنني لم أُقتل... لكن كيف ما زلت واعية حتى الآن؟"

اندفع رجال من بين المنازل المحيطة، يتقدمهم أولا هارشيم، بيرت بريغدن، وتيل إيكريد. وفي الوقت نفسه، اقتحم داكر سيليفانت وبوريس مون الساحة، أسلحتهم مرفوعة. استدارت سيري، صرخت بصوت حاد كزئير نمر، ثم دفعت كيلبي للانطلاق، متجهة نحو النهر.

لكن من ذلك الاتجاه أيضًا، كانت مجموعة أخرى من الرجال المسلحين تقترب بسرعة.

اندفع سكيلين وبونهارت خارجين من مبنى المجلس. كان بونهارت يمسك بسيف عارٍ، شفرته تتلألأ في ضوء الشمس. صرخ نيراتين سيكا وهو يقترب منهما على ظهر حصانه، وأسقط سكيلين أرضًا بحافر الجواد. ومن السرج، قذف بنفسه مباشرة نحو بونهارت، وأسقطه أرضًا معه، ممسكًا به بقوة.

ظهر رينس عند المدخل، متجمدًا في مكانه كالأبله، عيناه تتسعان في ذهول.

صرخ سكيلين، وهو ينهض من الأرض، وجهه ملطخ بالغبار والغضب:

"أمسكوا بها! ... أو اقتلوها!"

عوى رينس، صوته ينفجر في الهواء كصرخة يائسة:

"حيّة! حيييبية!"

راقبت كينا الفتاة وهي تبتعد عن الحاجز الخشبي على طول الشاطئ، ثم تغير اتجاهها وتتجه نحو البوابة. رأت كابرنيك تورينت يقفز في طريقها، رأت وميض السيف، ثم رأت السيل القرمزي يتفجر من عنقه. ديدي فارغاس وفريب الأصغر رأيا ذلك أيضًا. قررا ألّا يعترضا طريقها، فانسلّا بين الأكواخ.

قفز بونهارت على قدميه، وضرب نيراتين سيكا بمقبض سيفه على رأسه، ثم شق صدره بضربة حادة. وبعدها، انطلق مباشرة خلف سيري.

رغم نزيفه الحاد، تمكن نيراتين من الإمساك بقدم بونهارت، لكنه لم يستطع الصمود طويلًا، إذ اخترق سيف بونهارت صدره وغرز في الرمال تحته. ومع ذلك، كانت تلك اللحظات القليلة كافية.

حثّت سيري فرسها السوداء على الإسراع، متجاوزةً سيليفانت ومون. انطلق سكيلين من اليسار، جسده مقوس مثل ذئب في المطاردة، ولوّح بيده في الهواء. رأت كينا شيئًا يلمع وهو ينطلق في مساره، ثم شاهدت الفتاة تهتز في السرج، وإذا بنافورة من الدم تنفجر من وجهها.

مالت إلى الخلف بشدة، حتى بدت للحظة وكأن ظهرها يلامس ردفَي الفرس. لكن قبل أن تسقط، استعادت توازنها، قبضت على السرج، ثم تشبثت بعنق الحصان. الفرس السوداء انطلقت كالسهم، شقت طريقها عبر الحشد المسلح، واندفعت مباشرة نحو البوابة الدوارة.

خلفها، كان مون، سيليفانت، وكلوي ستيتز يركضون، والأخيرة ترفع قوسها المستعرض، تستعد للتصويب.

صرخ بوريس مون بانتصار، ووجهه يشتعل فرحًا:

"أمسكنا بها! لن تخرج من هنا، لا يوجد حصان يمكنه القفز سبعة أقدام!"

صرخ صوتٌ في الهواء:

"لا تطلقي، كلوي!"

لكن كلوي ستيتز لم تسمع الأمر. توقفت، رفعت القوس المستعرض إلى وجنتها. الجميع كان يعلم أن كلوي لا تخطئ هدفها أبدًا.

صرخت بصوتٍ واثق، وعيناها تضيقان في تركيز قاتل:

"أنتِ ميتة! ميتة!"

رأت كينا رجلاً قصير القامة، مجهول الهوية، يندفع فجأة، يلتقط قوسًا مستعرضًا، ثم يطلق سهمه مباشرة في ظهر كلوي. انطلقت الدماء في انفجار قرمزي، وسقطت كلوي دون أن تصدر أي صوت.

اندفعت الفرس السوداء نحو البوابة الدوارة، رفعت رأسها عاليًا... ثم قفزت. ارتفعت برشاقة في الهواء، طارت فوق البوابة، فردت ساقيها الأماميتين، وانزلقت كخط مخملي أسود عبر الظلام. حتى حوافرها الخلفية لم تلمس العارضة العلوية.

شهق داكر سيليفانت، مذهولًا:

"يا للآلهة! بحق الآلهة، أيُّ جواد هذا! إنه يساوي وزنه ذهبًا!"

صرخ سكيلين، بصوت يملؤه الغضب والطمع:

"الفرس لمن يمسك بها! إلى الخيول! امتطوا خيولكم وطاردوها!"

انفتحت البوابة أخيرًا، فانطلق المطاردون من القرية، محدثين زوبعة من الغبار خلفهم. في المقدمة، كان بونهارت وبوريس مون يركضان بأقصى سرعة.

بصعوبة، نهضت كينا، جسدها يرتجف. حاولت الثبات لكنها ترنحت، فسقطت مجددًا على الرمال. قدماها وخزتا بألم حارق.

على بعد خطوات، كان كابرنيك تورنيت ممددًا في بركة من دمه، أطرافه متفرقة بلا حراك. أما أندريس فييرني، فكان يحاول النهوض، بينما ظل ستيغوارد فاقدًا للوعي.

في الرمال، بدت كلوي ستيتز وكأنها طفل صغير، جسدها الصغير مطوي بلا حياة.

تقدم أولا هارشيم وبيرت بريغدن، يجران الرجل القصير الذي قتل كلوي، ووقفاه أمام سكيلين. زفرت البومة بعمق، قبل أن يهتز جسدها بالغضب المتأجج.

ومن الحزام الجلدي المتقاطع على صدره، سحب نجمة معدنية ثانية، مشابهة لتلك التي كان قد قذف بها نحو وجه الفتاة منذ لحظات.

قال الرجل القصير بصوت متحجرج، يحدق في سكيلين بعينين متقدتين بالتحدي:

"اذهب إلى الجحيم، سكيلين."

عندها، أخيرًا، تذكرت كينا اسمه.

ميكيسر. جيدياه ميكيسر، الجيميري. كانت قد التقت به في روكاين.

انحنى البومة قليلًا، ولوّح بيده بعنف. انطلقت النجمة سداسية الرؤوس تصرخ في الهواء، واستقرت عميقًا في وجه ميكيسر، بين عينيه وأنفه. لم يصرخ حتى. فقط بدأ جسده يرتجف بتشنجات عنيفة بين ذراعي هارشيم وبريغدن. ارتجف طويلًا، وكانت أسنانه المكشوفة تبدو مرعبة لدرجة أن الجميع أشاحوا بوجوههم بعيدًا... الجميع، باستثناء البومة.

أشار سكيلين بيده، قائلاً ببرود:

"تأكدوا من استعادة نجمة أورايون خاصتي."

نظر إلى الجسد الذي أخيرًا تدلى بلا حياة بين الأذرع التي كانت تحمله، ثم أضاف بصوت خالٍ من أي تعاطف:

"وارموا هذه الجيفة في كومة الروث، مع الجيفة الأخرى... ياله من خائن حقير. لا أريد أي أثر لهؤلاء الخونة المقززين."

فجأة، عصف الريح عواءً كئيبًا، وتسارعت السحب في السماء، كأنها تهرب من شيء غير مرئي.

في لحظة، غلف الظلام كل شيء.

* * *

تغيّرت نوبة الحراسة على أسوار القلعة.

كانت شقيقتا سكارا تشخران بتناغم أشبه بلحن ثقيل، فيما كان كوهوت يتبول بصخب في دلو فارغ.

سحبت كينا البطانية حتى ذقنها، تغرق أكثر في الظلام والقلق.

* * *

لم يجدوا الفتاة. لقد اختفت. ببساطة، تبخرت في العدم.

قالوا إن بوريس مون – وبشكل لا يُصدق – فقد أثر الفرس بعد ثلاثة أميال فقط. فجأة، ومن دون أي إنذار، خيّم الظلام. الريح عوت بقوة، وانحنت الأشجار حتى كادت تلامس الأرض. ثم انهمر المطر، ودوّى الرعد، وانشقت السماء بالبرق.

لم يستسلم بونهارت. عادوا إلى يونيكورن. تعالت الصرخات، تبادلوا الاتهامات – بونهارت، البومة، ريينس، وصوت رابع غامض، أجش، غير بشري. جندوا كل رجال العصابة، لم يبقَ في الخلف سوى أولئك الذين لم يكونوا قادرين على الركوب – أمثالي. أخذوا معهم فلاحين يحملون المشاعل، رجال يعرفون الغابات المحيطة جيدًا. خرجوا في المطاردة، ولم يعودوا إلا عند الفجر.

عادوا صفر اليدين. باستثناء الرعب الذي حملوه في أعينهم.

تذكرت كينا كيف لم تبدأ الشائعات إلا بعد أيام قليلة. في البداية، كان الجميع خائفين من البومة وبونهارت. كانا في حالة من الغضب الأعمى، من الأفضل ألا يقترب أحد منهما. حتى كلمة عابرة من بيرت بريغدن، أحد الضباط، جلبت له ضربة قاسية من سوط سكيلين. لكن بعد ذلك، بدأ الحديث عمّا حدث أثناء المطاردة.

قالوا إن وحيد القرن الصغير المصنوع من القش نما فجأة إلى حجم تنين، أرعب الخيول وأطاح بالفرسان أرضًا. لم يكن إلا بمعجزة أنهم لم يكسروا أعناقهم.

قالوا إن السماء نفسها انشقّت، وانطلقت عبرها قافلة نارية من الفرسان الأشباح، ممتطين جيادًا عظمية، وفي مقدمتهم ملك مرعب، صرخ بأمرٍ إلى أتباعه بمسح آثار حوافر الفرس السوداء بعباءاتهم الممزقة.

قالوا إن جوقة جنائزية من طيور الليل أنشدت أغنية تقشعر لها الأبدان، بينما دوّى عبر الظلام عواء الـ Beann'shie، رسول الموت.

تحدث بوريس مون عن الريح، المطر، الغيوم، الأشجار، الشجيرات، وكل ما جرى في تلك الليلة الغامضة. قال إن كل شيء كان... غير طبيعي. وكان الرعب لا يزال متجسدًا في عينيه.

أما عن طيور الليل؟

قال مون، بصوت خافت، كمن يهمس بسرّ مرعب:
"كانت تصرخ دائمًا".

وماذا عن الآثار؟ آثار حوافر الفرس التي اختفت فجأة، كأن الحصان قد حلق في الهواء؟

تجمد وجه بوريس مون عند هذا السؤال، هو الذي يستطيع تتبع أثر سمكة في الماء. لمعت عينه بشيء يشبه القلق. لم يجد تفسيرًا سوى الريح؛ الريح التي مسحت كل أثر في الرمال وأوراق الأشجار. لا يوجد تفسير آخر.

تذكرت كينا كيف أن البعض صدّقه.

قالوا إن الأمر لم يكن سوى ظاهرة طبيعية، أو مجرد أوهام. حتى إنني ضحكت معهم.

لكنني توقفت عن الضحك.

بعد دان دار.

بعد دان دار، لم يضحك أحد مجددًا.

* * *

عندما رآها، تراجع في رعب، واستنشق الهواء بحدة.

كانت قد مزجت شحم الإوز مع السخام المتراكم في المدفأة، صنعت منه عجينة كثيفة لطخت بها محاجر عينيها وجفونها، ممتدة بخطوط داكنة تصل إلى صدغَيها وأذنيها.

بدت كشيطان خرج من ظلمة الليل.

قال بصوت مضطرب، يكرر التعليمات:
"من الجزيرة الرابعة على طول الضفة، ادخلي إلى الغابة المستنقعية. ثم اتبعي مجرى النهر حتى تصلين إلى الأشجار الثلاثة الميتة، من هناك اتجهي غربًا بمحاذاة أشجار الصفصاف. عندما تظهر أشجار الصنوبر، ستجدين نهرًا يمتد على حافته. عند التفرع التاسع، انعطفي واتّبعي المجرى حتى يتوقف عن الالتواء. بعد ذلك، ستصلين إلى قرية دان دار. إلى الشمال منها، هناك أكواخ، وخلفها مباشرة، عند مفترق الطرق، ستجدين حانة".

قالت بثقة، عيناها تتقدان بالعزم:
"أذكر ذلك. سأجد المكان، لا تقلق".

تردد قليلًا، ثم أضاف بتحذير شديد:
"احذري، خصوصًا عند تعرجات النهر. تجنّبي الأماكن التي يقل فيها القصب، أو التي تكثر فيها أعشاب العقدة. وإن أدركك الغسق قبل بلوغ أشجار الصنوبر، توقفي وخيّمي حتى الفجر. لا يجب،

تحت أي ظرف، أن تواصلي الرحلة عبر المستنقع ليلًا. القمر في طور التلاشي، والغيوم تحجب السماء"...

قاطعته ببرود، وهي تنظر إليه بثبات:

"أعلم".

واصل، بنبرة أكثر جدية:

"عندما تصلين إلى أرض البحيرات... اتّجهي شمالًا عبر التلال. تجنّبي الطرق الرئيسية، فالجيش يستخدمها بكثافة. بعدها، ستصلين إلى نهر كبير يُدعى "سيلت". حينها، ستكونين قد قطعتِ نصف الطريق".

قالت بصوت هادئ، وعيناها تراقبان الأفق:

"أعلم، لقد رسمت لي خريطة".

توقف للحظة، ثم قال بابتسامة باهتة:

"أوه، معك حق. لقد نسيت".

تفقدت سيري حقائب السرج عدة مرات، بحركات آلية. لم تكن تعلم ماذا تقول، أو كيف تؤجل ما لا مفر من قوله.

سبقها بالكلام، قال بصوت دافئ:

"أنا سعيد لأنني التقيتكِ. حقًا. وداعًا، أيتها الويتشر".

قالت، وهي تنظر إليه بعينين ممتنتين:

"وداعًا، أيها الناسك. شكرًا على كل شيء".

كانت قد استقرت في السرج، وهمّت بتحفيز كيلبي على الانطلاق، حين اقترب منها فجأة، أمسك بيدها.

قال بتوسل صادق:

"سيري. ابقي. انتظري حتى يمر الشتاء"...

قالت، بثقة هادئة، بينما تنظر إلى الطريق أمامها:

"سأصل إلى البحيرة قبل أن يحلّ الصقيع. ثم، إن كنت على حق، فلن أقلق بشأن الشتاء. سيتم نقلي عبر البوابة إلى ثانيد. إلى مدرسة أريتوزا، إلى الليدي ريتا... فيسوغوتا... كم سيستغرق الأمر حتى"...

قاطعها، صوته مزيج من التحذير والرجاء:

"برج السنونو مجرد أسطورة. تذكري ذلك. مجرد أسطورة".

قالت، بمرارة، وعيناها تلمعان بشيء يشبه التحدي:

"أنا أيضًا مجرد أسطورة، منذ ولادتي. زيراييل، السنونو، الطفلة المفاجأة. المختارة. ابنة القدر. ابنة الدم القديم. لا بد أن أذهب، فيسوغوتا. اعتنِ بنفسك".

قال بصوت خافت، وهو يراقبها ترحل:

"اعتنِ بنفسك، سيري".

* * *

كانت الحانة عند مفترق الطرق، خلف القرية، مهجورة.

رفض سيبريان فريب الأصغر ورفاقه الثلاثة السماح للقرويين والسفر الخائفين بالدخول. أما هم، فقد أمضوا أيامًا يحتفلون ويشربون، جالسين في غرفة باردة ممتلئة بالدخان، تفوح منها الرائحة الثقيلة التي تغمر الحانات في الشتاء عندما لا تُفتح النوافذ والأبواب – مزيج من العرق، القطط، الفئران، الأحذية، الصنوبر، البتولا، الدهن، الرماد، الملابس المبتلة، وبخار يتصاعد من الأجساد المتجمعة.

قال يوز يانويتز، للمرة ربما المئة، وهو يشير للخدم بإحضار المزيد من الفودكا:

"يا لها من خدمة قذرة"!

زمجر، ضاربًا الطاولة بقبضته:
"اللعنة على البومة، تركنا في هذه البلدة البائسة! كان من الأفضل لنا أن نكون في دوريات بالغابة"!

ضحك ديدي فارغاس، وهزّ رأسه، قائلاً بمكر:
"كفاك غباءً، في الخارج البرد يجمّد العظام! أنا أفضّل الدفء. وأفضّل الفتيات"!

ضرب مؤخرة إحدى الخادمات بصفعة قاسية. أطلقت الفتاة صرخة قصيرة، غير مقنعة، ومشبعة بلا مبالاة باردة. فالعمل في الحانة علّمها أن الصراخ ضروري عندما يصفعها أحد أو يقرصها، لأن الزبائن يعشقون ذلك.

منذ اليوم الثاني لوصولهم، استولى سيبريان فريب ورفاقه على الخادمتين العاملتين هناك. صاحب الحانة كان خائفًا جدًا من الاعتراض، أما الفتاتان فقد كانتا متعبتين إلى حدّ يمنعهما حتى من التفكير في المقاومة. الحياة علمتهما أن الفتاة التي تحتج تتعرض للضرب. لذلك، كان من الحكمة الانتظار حتى يملّ الرجال.

قال ريسبات لا بوينت، وهو يتابع حديثًا مملاً بدأوه في وقت سابق من المساء:
"إنها تلك اللعينة، فلكا. أؤكد لكم، ماتت في مكان ما في الغابة. رأيت بنفسي نجم أورايون الخاص بسكيلين يشقّ وجهها، والدم انفجر منها كنافورة! لا يمكن أن تكون قد نجت من ذلك".

قال يوز يانويتز، بصوت مشوب بالسخرية:
"لقد فشل البومة. لم يصبها أورايون سوى خدشٍ بسيط. صحيح أنه ألحق بعض الضرر بوجهها، لكن هل هذا يوقف فتاة استطاعت القفز فوق حاجز خشبي؟ هل سقطت عن ظهر الحصان؟ اللعنة! عندما قسنا الحاجز، كان ارتفاعه سبعة أقدام وبوصتين! وقد قفزته بكل سهولة! بل لم يكن هناك حتى فراغ بين السرج ومؤخرتها يكفي لتمرير نصل سكين"!

احتجّ ريسبات لا بوينت، رافعًا صوته:
"لكن الدم كان يتدفق منها كخنزير مذبوح! لقد واصلت الركوب، لكنها سقطت بالتأكيد في وادٍ، وماتت هناك. الذئاب التهمت لحمها، والغربان والنمل أزالوا العظام تمامًا مما تبقى من الجثة. وأخيرًا، انتهى كل شيء. والآن نحن هنا، ننتظر المال، متعفنين في هذا المكان اللعين، فقط لأنهم لم يتمكنوا من العثور على تلك العاهرة"!

قال ديدي فارغاس، واثقًا، وهو يهزّ رأسه بتأكيد:

"لكن هذا غير ممكن، فالجثة لا تختفي هكذا بلا أثر. دائمًا هناك شيء، جمجمة، حوض، أي بقايا. ريينس، الساحر، سيعثر على ما تبقى من فلكا. وعندها، سيكون هذا هو الختام".

قال سيبريان فريب الأصغر، متأملًا الجدار الخشبي المتهالك للحانة، وقد حفظ كل مسمار وكل بقعة فيه:

"وعندها يمكننا مغادرة هذا الجحيم، وترك هذا الشراب القذر. والتخلص من هاتين العاهرتين، اللتين تفوح منهما رائحة البصل، وعندما تضاجعهما تبقيان كالصخور، تحدقان في السقف وتلتقطان أسنانهما بأصابعهما".

قال يوز يانويتز، متململًا من الملل:

"أي شيء سيكون أفضل من هذا الملل. أريد أن أصرخ! اللعنة، أريد أن أفعل شيئًا! أي شيء! لنُشعل النار في القرية على الأقل، سيكون هناك ما يشغلنا"!

صرير الباب اخترق الضوضاء، الصوت كان غير متوقع لدرجة أنهم جميعًا انتفضوا في أماكنهم.

زمجر فارغاس، وهو يحدّق في القادم بعينين غاضبتين:

"اخرج! اغرب عن وجهي أيها العجوز! متسول نتن! اذهب إلى الفناء"!

رفع فريب يده بكسل، ولوّح بلا مبالاة، قائلاً:

"اتركه. انظر، إنه يحمل مزمارًا. ربما يكون من قدامى المحاربين؛ الجنود القدامى يلجأون للعزف والغناء في الحانات لكسب قوتهم. الجو بارد في الخارج. دعه يجلس هنا في الدفء"...

قال يانويتز، مشيرًا إلى الرجل العجوز بمكان يجلس فيه:

"لكن بعيدًا عنّا. نحن محاصرون بالقمل بالفعل. أراه يزحف في كل مكان ببطء. أي شخص يراه سيظن أنها سلاحف وليست قملًا".

نادى فريب بصوت آمر، يضرب الطاولة بقبضته:

"صاحب الحانة! أحضر للرجل العجوز شيئًا ليأكله! وأحضر لنا المزيد من المشروبات الروحية"!

خلع العجوز قبعته الفرو الكبيرة، وانحنى برشاقة، ثم قال بنبرة لطيفة:
"شكرًا لكم، أيها السادة. لكن اليوم هو عيد ساوفين. لا يليق بالعيد أن يُطرد المرء إلى المطر والطين المتجمد. الاحتفال يقتضي حسن الضيافة"...

ضرب ريسبات لا بوينت جبهته، مدهوشًا، وقال:
"هذا صحيح! اليوم هو عيد ساوفين! نهاية أكتوبر"!

قال صاحب الحانة، وهو يضع أمام العجوز وعاءً من الحساء المائي:
"إنها ليلة الوحوش. ليلة الأرواح والأشباح"!

ضحك يوز يانويتز ساخرًا، وقال:
"العجوز سيقص علينا إحدى خرافاته القديمة"!

تثاءب ديدي فارغاس، ومد ذراعيه بتكاسل:
"دعه يحكِ، فكل شيء أفضل من هذا الملل".

قال سيبريان فريب، وهو يحدق في كأسه بتأمل:
"ساوفين... خمسُة أسابيع منذ يونيكورن. وأسبوعان كاملان ونحن جالسون هنا بلا فائدة. أسبوعان كاملان! ساوفين، ها"!

لعق العجوز الملعقة، ثم حرك إصبعه في الوعاء، قبل أن يسحبه ويمتصه ببطء، وقال بصوت أجشّ:
"ليلة الوحوش... ليلة الأشباح والسحر"!

ابتسم يانويتز بسخرية، ملوحًا بكأسه:
"ما قلت لكم؟ سنسمع حكايات العجائز الليلة"!

حكّ العجوز رأسه، وتثاءب بصوت متقطع، ثم قال بحماسة، صوته يعلو مع كلماته:
"عيد ساوفين... إنه الليلة الأخيرة قبل القمر الجديد في نوفمبر، وبالنسبة للإلف، هو الليلة الأخيرة من العام القديم. حين يبزغ فجر اليوم الجديد، يكون قد حلّ عامهم الجديد. ولهذا، لديهم تقليد في ليلة ساوفين: يشعلون كل النيران حول منازلهم، ثم يضيئون شعلة سوداء يحتفظون ببقاياها، لتُضاء من جديد

عند احتفالهم بعيد بيليتاين. وليس الإلف وحدهم من يفعلون ذلك، بل حتى بعضٌ من بني جنسنا، لحماية أنفسهم من الأرواح الشريرة"...

شخر يوز يانويتز ساخرًا، وهو يهز رأسه:
"أرواح! اسمعوا هذا الأحمق وما يقوله"!

قال العجوز بصوت مشبع بالحماسة، عينيه تتوهجان في ضوء النيران المتراقصة:
"إنها ليلة ساوفين! في هذه الليلة، تسير الأرواح على الأرض! أرواح الموتى تطرق النوافذ، تئن قائلة : دعونا ندخل !من الخير أن تقدّموا لهم حساء الشعير بالعسل، أو حتى ترشّوا عليه قليلًا من الفودكا"...

ضحك ريسبات لا بوينت بصوت أجش، وضرب الطاولة بيده:
"الفودكا التي سترشّها ستكون في حلقك، أيها العجوز المخادع! أما أرواحك، فبإمكانها تقبيل مؤخرتي"!

هزّ العجوز رأسه، ونظر إليهم نظرة تحذير:
"أيها السادة الطيبون، لا تسخروا من الأرواح! فلديها آذان حادة، وقلوب حاقدة لا تنسى! إنها ليلة ساوفين! أصغوا جيدًا، ألا تسمعون الأصوات، الطرقات على الجدران؟ إنها الموتى، العائدون من العالم الآخر، يتسللون نحو النوافذ، يبحثون عن الدفء، عن الطعام. في الغابات العارية، تحت الرياح القارسة، ينجذبون إلى البيوت، حيث النار مشتعلة، حيث الدفء. فلا تنسوا أن تضعوا طعامًا في وعاء عند العتبة أو في الإسطبل، لأنهم إن لم يجدوا شيئًا يأكلونه، فقد يدخلون المنازل بعد منتصف الليل"...

ارتجفت إحدى الفتيات الواقفات على الخدمة، تمتمت بصوت مرتجف:
"يا للآلهة"!...

لكن صرختها سرعان ما تحوّلت إلى صياح، عندما قرص فريب مؤخرتها بقوة، فانفجر ضاحكًا وقال:
"قصة ليست سيئة! لكنها لا تزال بعيدة عن أن تكون جيدة! صاحب الحانة، اسكب للعجوز كوبًا من النبيذ الساخن، لعلّه يستطيع نسج قصة أفضل! نريد حكاية أشباح جيدة، أيها الرفاق، فالفتيات مشغولات بالاستماع بدلًا من خدمتنا"!

تعالت ضحكات الرجال عندما سمعوا صرخات الفتيات، اللاتي رغم الخوف، لم يستطعن مقاومة الاستماع. أخذ العجوز رشفة طويلة من النبيذ الساخن، أصدر صوتًا عميقًا بينما يشرب، ثم تجشأ بصوت مرتفع.

حذّره فارغاس، عينيه تضيقان بخطورة:
"لا تسرف في الشراب وتنام، أيها العجوز! أنت هنا للترفيه! احكِ القصص، غنِّ، وانفخ في مزمارك! اجعلنا نمرح"!

فتح العجوز فمه، وفي تجويفه المظلم، ظهر سن وحيد، كمعلم حجري مهجور في وسط حقل مهجور.

قال، بنبرة تفيض بالرعب والغموض:
"لكن أيها السادة الطيبون، اليوم هو ساوفين! أي موسيقى سأعزفها؟ موسيقى ساوفين هي صفير الريح على النوافذ! هي عواء المستذئبين ومصاصي الدماء، وصرخات الغيلان المحتضرة! هي نحيب الـ Beann'shie الروح النائحة وعويلها الحزين الشجي نذير الشؤم، إذ يُسمع قبل وقوع الموت في العائلة التي تزورها، فإن سمعتم صوتها، فاعلموا أن الموت قادمٌ لا محالة. جميع الأرواح الشريرة تخرج من أوكارها، والساحرات يحلقن نحو آخر تجمعٍ لهن قبل حلول الشتاء!

إنها ليلة الأرواح، الوحوش، والأشباح! لا تدخلوا الغابة، لأنها ستبتلعكم! لا تخطوا نحو المقابر، لأن الموتى سيجوبون الأرض! ومن الأفضل ألا تغادروا منازلكم. ولتتأكدوا من الأمان، علقوا سكينًا جديدًا من الحديد فوق العتبة، فالأرواح الشريرة لن تجرؤ على عبوره.

يا للآلهة"!

قال العجوز بصوت كئيب، مغمضًا عينيه وكأنه يتلو نبوءة مرعبة:
"بأسنانٍ من حديد. أول ما تفعله هو التهام صدر أمها. ثم تأكل يديها. وبعدها، تأكل وجهها... آه، أشعر بالجوع أيضًا"...

ضحك أحد الرجال، ورمى له عظمة عليها بقايا لحم، قائلاً بتهكم:
"خذ، لا يزال عليها بعض اللحم! عليك أن تأكل أكثر وأنت في هذا العمر، وإلا ستنهار صحتك، هاهاها! وأنتِ، يا فتاة، أحضري المزيد من الفودكا. هيا أيها العجوز، تابع قصص الأشباح"!

رفع العجوز رأسه، وعيناه تلتمعان بانعكاس اللهب، وقال بصوت أجش:
"ساوفين، أيها السادة، هي الليلة الأخيرة التي يمكن فيها للأشباح أن تطير عبر عالمنا، محاولةً تبديد البرد المتغلغل في عظامها... بعدها، تهبط إلى الجحيم، إلى أعماق الأرض، حيث يسود الشتاء الأبدي. ولهذا السبب، من ساوفين وحتى فبراير، عندما يُحتفل بعيد إيمبولك، يكون أنسب وقت للبحث عن الكنوز في الأماكن المخيفة. لأنه، إن حاول أحدهم الحفر في موسم الدفء، فسيوقظ اثنين أو ثلاثة من الأرواح الغاضبة، الذين سينهضون ليفترسوا الباحث عن الكنوز. لكن بين ساوفين وإيمبولك، ينام هؤلاءِ الأشباح مثل دب عجوز، ويمكنك الحفر كما يحلو لك".

قهقه أحد الرجال، وهو يهز رأسه مستهزئًا:
"يا له من عقل مريض، ما الذي يخترعه هذا العجوز"!

قال العجوز، بنبرة واثقة:
"إنها الحقيقة، أيها السادة الطيبون. نعم، ليلة ساوفين مرعبة، لكنها أيضًا سحرية، وهي الأفضل لجميع أشكال التنبؤات والعرافة. في مثل هذه الليلة، يُفضل قراءة الكف، أو قلب البطاقات، أو رؤية الطوالع في شكل الديك الأبيض، أو البصل، أو الجبن، أو أمعاء الأرنب، أو حتى خفاش ميت"...

هتف أحدهم باشمئزاز:
"تبًا لهذا الهراء"!

قال العجوز بصوت خافت لكنه مشحون بالرعب:
"في ليلة ساوفين، ليلة الرعب والأشباح... من الأفضل البقاء في المنازل... حول النار... مع العائلة كلها"...

ردد سيبريان فريب الأصغر كلماته الأخيرة ببطء، قبل أن يبتسم ابتسامة خبيثة وهو ينظر إلى رفاقه:
"العائلة كلها، سمعتم؟ هذا يعني أننا نعرف الآن أين يختبئ الناس بذكاء"!

قاطع يوز يانويتز بسرعة، وعيناه تضيقان بمكر:
"زوجة الحدّاد"!

ضحك، ورفع كأسه، وقال بتحذير ساخر:
"أجمل امرأة في القرية! انتبه لرأسك، فريب. اليوم كدت تُقبض عليك في بيتها"!

زمجر ديدي فارغاس بنبرة متكاسلة، لكنه مليئة بالتوقع:
"ربما قريبًا. رأيتها وهي تهز نهديها وتتمايل بذلك الخصر عند مدخل القرية... كنت على وشك الذهاب إليها، لكن ذلك الأحمق داكر سيليفانت سبقني إليها... حسنًا، سيليفانت بعيد الآن، وزوجة الحدّاد وحدها في المنزل! ما الذي ننتظره؟"

رفع ريسبات حاجبيه، وقال ببطء، كمن يزن الأمور بعقلانية:
"لقد قتلنا بالفعل عمدة هذه القرية. وسحقنا الرجل الذي حاول الدفاع عنه. كم من القتلى نحتاج بعد؟ الحدّاد وابنه قويان كأشجار البلوط، ولا يخافان منا. سنضطر إلى"...

ابتسم فريب ابتسامة باردة، وأكمل بصوت هادئ:
"إيذائهما. فقط القليل من الأذى، لا أكثر. سنُنهي مشروباتنا، ثم نتوجه إلى القرية لنحتفل بساوفين! لنبحث عن جلد خروف، نغطي أنفسنا به، ثم ننزل إلى هناك زاعقين. هؤلاء الفلاحون الأغبياء سيظنون أننا شياطين أو أرواح غاضبة"!

قال أحدهم، وهو يضحك بخبث:
"هل نأخذ زوجة الحدّاد إلى غرفنا، أم نفعل كما نفعل في جيميرا، أمام أعين عائلتها؟"

ابتسم فريب ابتسامة شرسة، وحدّق عبر النافذة إلى الظلام القارس، قائلاً:
"لا يمكن للمرء أن ينسى مثل ذلك المشهد... اللعنة، هذه الرياح قوية، حتى أشجار الحور تنحني"!

ضحك العجوز، وهو يرفع إبريق الشراب، وقال بصوت غامض:
"تلك ليست رياحًا عادية، يا سيدي. الساحرات يطِرن في الهواء على مكانسهن، يتوجهن إلى تجمعاتهن، يذرن خلفهن مسحوقًا سحريًا يمحو آثارهن. لا نجاة لمن يُقبض عليه في الغابة"!

ضحك الرجال، وهتف أحدهم بسخرية:
"اذهب وأخِف الأطفال بخرافاتك، أيها العجوز"!

هز العجوز رأسه، وعيناه تضيقان تحذيرًا:
"لا تسخر مني في ساعة الشر هذه. ودعني أخبرك... أسوأ الساحرات لسن أولئك اللواتي يركبن المكانس، لا! أسوأ الساحرات هنّ الكونتيسات والأميرات، أولئك لا يحتجن إلى مكانس، بل يمتطين قططهن السوداء"!

انفجر الرجال ضاحكين، لكن العجوز أصرّ، صوته ينخفض إلى همسة مخيفة:
"إنها الحقيقة! لأن ليلة ساوفين هي الليلة الوحيدة في السنة التي يمكن للقطط أن تتحول فيها إلى أفراس سوداء حالكة السواد. وويل لمن يسمع في هذه الليلة وقع الحوافر، ويرى الساحرة تمتطي جوادها الأسود. لن ينجو منها أحد. إنها تدور حول فريستها مثل ورقة في مهب الريح، وتجرّه إلى الجحيم"!

ابتسم أحد الرجال، ولوّح بكأسه قائلاً:
"لقد بدأت أعجب بهذه القصة! أكملها عندما نعود! وعندما نعود، سنحتفل! سنرقص هنا ونضاجع زوجة الحدّاد"...

لكن صوته قُطع فجأة، حين لاحظ ريسبات لا بوينت، الذي خرج إلى الفناء ليقضي حاجته، يعود راكضًا، وجهه أبيض كالثلج. كان يشير بجنون نحو الباب، محاولًا النطق، لكن الكلمات خانته.

لم يكن بحاجة لأن يتكلم. لأن الصوت القادم من الخارج كان واضحًا.

صوت صهيل حصان.

تجمد فريب في مكانه، اقترب وجهه من زجاج النافذة حتى كاد يلتصق به، وتمتم بصوت مرتجف:
"فرس سوداء... نفس الفرس السوداء... إنها هي".

همس أحدهم، صوته بالكاد يُسمع وسط دقات القلوب المتسارعة:
"الساحرة؟"

قال فريب، وهو يشيح بوجهه عن النافذة، عيناه مليئتان بالرعب:
"فلكا، أيها الأحمق".

لهث ريسبات، صوته يرتجف:
"إنه شبحها! إنها روحها! لا يمكن أن تكون قد نجت! لقد ماتت... وعادت كطيف! في ليلة ساوفين"!

تمتم العجوز، ممسكًا بكأسه الفارغ عند بطنه، صوته منخفض كأنما يتلو لعنة قديمة:
"ستأتي في ظلمة الليل الحالكة... ومن تقع عيناها عليه، لن يفلت من الموت"...

هتف فريب بحماس محموم، وهو يرفع يده باندفاع:
"إلى السلاح! بسرعة! احموا الباب، من الجانبين! الحظ يبتسم لنا! فلكا لا تعلم أننا هنا! لقد أخرجها البرد والجوع من مخبئها، ودفعتها نحونا مباشرة! إلى أيدينا! البومة وريينس سيغرقاننا بالذهب! احملوا أسلحتكم"...

صرير الباب شقّ الهواء.

انحنى العجوز فوق الطاولة، عيناه نصف مغمضتين. لم يكن يرى بوضوح. عيناه المنهكتان، المدمرتان بالغلوكوما والتهاب الملتحمة المزمن، لم تعودا تلتقطان التفاصيل جيدًا. ثم إن الحانة كانت مظلمة وممتلئة بالدخان. لذا، لم يتمكن من رؤية تلك الهيئة النحيلة التي دخلت إلى الغرفة من الشرفة، مرتدية سترة جلدية محشوة بالمسك، بقلنسوة ووشاح يخفيان وجهها. لكنه كان يملك أذنًا جيدة.

سمع شهقةً مكبوتة من إحدى الخادمات، ووقع الأحذية الثقيلة على الأرض، وسمع صاحب الحانة يشتم بصوت خافت. سمع احتكاك السيوف بأغمادها. ثم سمع صوت سيبريان فريب، هادئًا، ساخرًا، كالنصل الذي يوشك على قطع الحلق:
"الآن أمسكنا بك، فلكا! لم تتوقعي وجودنا هنا، أليس كذلك؟"

ثم جاءه الصوت. الصوت الذي جعل جسده يرتجف.

قالت بصوت ثابت، خالٍ من الخوف:
"كنت أتوقعكم".

رأى العجوز جسدها يتحرك، سريعًا كوميض، وشعر بالهواء يضطرب. سمع شهقة فزع، وصرخة مكبوتة أخرى من إحدى الخادمات. لم يرَ أنها رفعت قلنسوتها، ولم يرَ أن وجهها كان مشوهًا بشكل مرعب. لم يرَ كيف أن عينيها، المحاطتين بالدهون والسخام، بدتا وكأنهما عينا شيطان.

ثم قالت الفتاة، بصوت جليدي، كلمات جمدت الدم في عروقه:
"لستُ فلكا".

رآها تتحرك مجددًا، بسرعة جعلت ملامحها ضبابية. رأى شيئًا يلمع تحت ضوء المصابيح الزيتية.

قالت، بصوت هادئ، لكنه محمّل بالوعيد:
"أنا سيري. من كير مورهن. أنا ويتشر. جئت إلى هنا للقتل".

العجوز، الذي شهد في حياته أكثر من شجار حانة، كان يعرف جيدًا ما يجب فعله لتجنب الإصابة؛ أن يرمي بنفسه تحت الطاولة، أن يتكور قدر المستطاع، وأن يمسك بأرجل الطاولة بقوة.

ومن هذا الوضع، لم يكن بوسعه رؤية شيء. ولم يكن يريد ذلك.

ظل متمسكًا بالطاولة بإحكام، حتى عندما طارت الطاولة عبر الغرفة، مصطدمة بأثاث آخر.

من حوله، كان هناك صخب الأحذية الثقيلة، الأوامر المتداخلة، الشتائم، والصيحات. ثم... دوي الفولاذ وهو يهوي، ضاربًا بقوة لا ترحم.

صرخت الخادمة بصوت حاد، مستمر، بلا توقف.

تدحرج جسد شخص ما فوق الطاولة، ودفع معها العجوز المتمسك بها، ثم سقط بجانبه. صرخ العجوز حين شعر برشاش الدم الدافئ يغمره. تعرف على ديدي فارغاس – الرجل الذي أراد طرده في البداية – من الأزرار النحاسية على سترته. كان يصرخ صرخة مرعبة، جسده ينتفض بعنف، الدم يتدفق منه كنافورة، ويداه تضربان كل ما حوله في نوبات تشنج يائسة.

إحدى ضرباته العشوائية أصابت العجوز مباشرة في عينه.

ثم... أصبح كل شيء أسود. لم يعد يرى شيئًا.

شهقت الخادمة التي كانت تصرخ، توقفت للحظة لتلتقط أنفاسها، ثم بدأت في الصراخ مجددًا، بصوت أعلى وأشد حدة.

سقط جسد آخر على الأرض، بقوة، واندفع الدم مجددًا فوق ألواح الصنوبر النظيفة التي فركت حديثًا. لم يكن العجوز يعلم أن القتيل هذه المرة كان ريسبات لا بوينت، وأن سيري قد شقت عنقه بضربة واحدة.

لم يكن يراها وهي تدور مثل شبح، مثل ضباب رمادي، أمام يانويتز وفريب، ممزقة دفاعهما بمهارة مرعبة.

قفز يانويتز نحوها مثل قط مفترس، كان مبارزًا ماهرًا، وقف بثبات على قدمه اليمنى، وهاجم بسيفه الطويل، مستهدفًا وجهها مباشرة، عند الندبة القبيحة. لا يمكن أن يخطئ. عليه أن يصيبها.

لكنه أخطأ.

وفشل في حماية نفسه.

قطعت جسده بضربة سريعة، بكلتا يديها، عبر الصدر والبطن. ثم قفزت إلى الخلف، استدارت، وبينما كانت تتفادى ضربات فريب المتلاحقة، ضربت عنق يانويتز بضربة قاتلة.

تهاوى جسده، ورأسه يسقط إلى الخلف في استسلام نهائي.

خطا فريب فوق الجثة دون اكتراث، وهاجم بسرعة خاطفة.

اعترضت سيري ضربته، استدارت نصف دورة، ثم سددت له جرحًا سريعًا في فخذه.

ترنح فريب، تراجع متعثرًا حتى اصطدم بالطاولة، فقد توازنه، وبشكل غريزي مدّ يده إلى سطح الطاولة ليتمسك بشيء ما.

لكن قبل أن يتمكن من فعل أي شيء، جاءت ضربة سريعة، حادة، لا ترحم.

بضربة واحدة، قطعت سيري يده.

رفع فريب جذعه الملطخ بالدماء، حدّق به وكأنه لا يصدق ما يراه. ثم نظر إلى يده المفصولة، المستقرة على سطح الطاولة، قبل أن ينهار فجأة، يسقط بعنف على الأرض، وكأنه انزلق على قطعة صابون. وما إن استقر جالسًا، حتى انطلق في عواء حاد، ثاقب، يشبه عواء الذئب الجريح.

العجوز، الذي كان لا يزال مختبئًا تحت الطاولة، مغطى بالدماء، أنصت للحظة إلى هذا الثنائي الشبحي – صرخات الخادمة المذعورة، وعواء فريب الوحشي الذي لا يمكن كبحه.

كانت الخادمة أول من صمت، أنهت صراخها غير البشري بشهقة أخيرة، قبل أن يخنقها الخوف. ثم تبعها فريب، الذي توقف عن العواء فجأة.

تمتم بصوت واضح، محمّل بذهول طفولي:

"أمي"...

ثم عاد يتمتم، كأن عقله يتخبط في الفراغ:

"ماما... ماذا... ماذا حدث لي؟ ما الذي... أنا...؟"

قالت الفتاة ذات الوجه المشوه، بصوت بارد كحد السيف:

"أنت تحتضر".

شعر العجوز بقشعريرة تجتاح جسده، وشعره المتناثر المنتصب فوق رأسه زاد من إحساسه بالرعب. حاول أن يوقف ارتجافه، فعضّ على كم ردائه بقوة.

صدر عن سيبريان فريب الأصغر صوت أشبه بالبلع الصعب... ثم لم يصدر منه أي صوت آخر.

سادت سكون مطلق.

تمتم صاحب الحانة في الصمت الذي تلا المجزرة، صوته مخنوق بالرهبة:

"ماذا فعلتِ...؟"

شهق، ثم كرر وهو يلهث:

"ماذا فعلتِ، أيتها الفتاة؟"

قالت، بصوت خافت لكنه محمل بيقين لا يتزعزع:
"أنا ويتشر. أقتل الوحوش".

شهق صاحب الحانة، ثم أنَّ، وكأن الألم تلبّسه.
"سيشنقوننا جميعًا... سيحرقون البلدة والحانة"!

كررت الفتاة، لكن هذه المرة بصوت مختلف، وكأنها تفاجأت بنفسها:
"أنا أقتل الوحوش".

أطلق صاحب الحانة أنينًا متقطعًا، وكأنه يكتم دموعه. أما العجوز، فخرج من مخبئه تحت الطاولة ببطء. تحرك بحذر، متجنبًا جثة ديدي فارغاس، الذي كان وجهه المشوّه يبدو وكأنه قطعة ممزقة من اللحم.

تمتم، وعيناه شاخصتان نحوها:
"أنتِ تمتطين فرسًا سوداء... في ظلام الليل الحالك... وتمحين آثارك خلفك"...

استدارت الفتاة لتنظر إليه. كانت قد غطّت وجهها مجددًا بوشاحها، لكن عينيها، المحاطتين بدوائر سوداء لامعة، كانت تراقبه بثبات، بلا تعبير.

تمتم العجوز، صوته مرتجف، كأن الكلمات تتسلل من بين شفتيه دون إرادة منه:

"أولئك الذين ترينهم... لن ينجوا من الموت... لأنكِ أنتِ الموت نفسه."

ثبتت الفتاة نظرتها عليه. لوقت طويل. نظرة باردة، خاوية من أي انفعال.

وأخيرًا، قالت، بصوت خافت، لكنه حاسم كالنصل:

"أنت محق."

* * *

في مكان ما وسط المستنقعات، بعيدًا... لكن أقرب مما كان من قبل، انطلق العواء الحزين لروح الـ Beann'shie، النائحة المنذرة بالموت.

كان فيسوغوتا ممددًا على الأرض، حيث سقط أثناء محاولته النهوض من سريره. بحرص، وبفزع متزايد، أدرك أنه لا يستطيع النهوض. قلبه كان يخفق بعنف، صاعدًا إلى حلقه، يخنقه ببطء.

لقد عرف لمن كان ذلك النحيب الإلفي ينذر بالموت.

كانت الحياة جميلة، فكر فيسوغوتا، رغم كل شيء.

تمتم، بالكاد يخرج صوته همسًا:
"أيها الآلهة"...

سكت لوهلة، ثم أضاف، بصوت أكثر ضعفًا:
"أعلم أنني لا أؤمن بكم... لكن، إن كنتم موجودين"...

فجأة، انفجرت في صدره آلام مروعة، تحت عظم القص، كأن نصلًا من نار اخترقه.

في أعماق المستنقعات، بعيدًا... لكن أقرب مما كان من قبل، صرخت الـ Beann'shie النائحة نذير الموت للمرة الثالثة.

بصعوبة، بصوت بالكاد خرج من بين شفتيه المرتعشتين، همس فيسوغوتا:
"إن كنتم موجودين... فاحموا الويتشر في رحلتها"!

زمجر الذئب بحزم: "لديّ عيونٌ كبيرة، لأراكِ بشكلٍ أفضل!"

"ولديّ يدان كبيرتان، لأقبض عليكِ وأضمّكِ بقوة! كل شيء فيّ كبير، وسأقنعكِ بذلك قريبًا جدًا. لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة الغريبة، أيتها الفتاة الصغيرة؟ لماذا لاتجيبين؟"

ابتسمت الساحرة، شفتيها تمتدان في انحناءة غامضة.

"لديّ مفاجأة لك".

فلوران ديلانواي، "المفاجأة"، من حكايات وأساطير شعبية.

الفصل الحادي عشر

وقف المبتدئون بلا حراك أمام الكاهنة العظمى، مستقيمين، متوترين، صامتين، وشاحبي الوجوه قليلًا. كانوا مستعدين للرحيل، مجهزين حتى أدق التفاصيل.

ملابس رمادية، رجالية، للسفر. سترات دافئة لكنها غير مقيدة للحركة. أحذية إلفية مريحة. قُصَّت شعورهم أو سُرِّحت بعناية بحيث لا تعيقهم عن عملهم، ليسهل عليهم المسير في صفوف منظمة. حملت حقائبهم الصغيرة فقط ما يكفي من الطعام والمعدات الضرورية للرحلة. أما بقية المستلزمات، فستتكفل بها الجيش. الجيش الذي تطوعوا لخدمته.

كانت وجوه الفتيات هادئة. أو هكذا بدت.

لاحظت تريس ميريجولد ارتجافًا طفيفًا في أياديهن وشفاههن.

هبّت الرياح بين أغصان الأشجار العارية في متنزه المعبد. تناثرت الأوراق المتعفنة فوق ألواح الفناء الخشبية. السماء كانت زرقاء بلون النيلي الداكن. كان هناك رائحة للثلج في الهواء.

كسرت نينيكي الصمت، بصوتها الهادئ لكنه آمر:
"هل تم تحديد مواقعكن؟"

تمتمت أورنايد، بصوت خافت:
"ليس بعد. سأقضي الشتاء في معسكر قرب فيزيما. قال مفوض التجنيد إن وحدات المرتزقة من الشمال ستبقى هناك حتى الربيع... من المفترض أن أعمل كمساعدة لجراح ميداني ضمن تلك الوحدات".

ابتسمت إيولا الثانية ابتسامة باهتة، وقالت:
"أما أنا، فقد تم تعييني بالفعل. سأعمل تحت إشراف الجراح الميداني السيد ميلو فاندر بيك".

حدّقت نينيكي فيهما بنظرة صارمة، عميقة التفكير، قبل أن تقول بلهجة جادة:
"أتمنى ألا تجلبن العار لي، أو للمعبد، أو لاسم الإلهة العظيمة ميليتيلي".

"بالطبع لا، أمي".

قالتها الفتاتان بصوت واحد، بثبات يحاول إخفاء الاضطراب الذي يختبئ خلفه.

قالت نينيكي، بنبرة صارمة:
"وتأكدن من الحصول على قسط كافٍ من النوم".

أجابت الفتاتان بطاعة:
"نعم، أمي".

أغمضت الكاهنة العظمى عينيها للحظة، كأنها تستعيد ذكريات قاتمة، ثم قالت بهدوء مهيب:
"ستبقين مستيقظات حتى تسقطن من الإرهاق. ستعملن وسط الجرحى، لن تستطعن النوم. ستشعرن بالشك، بالخوف من مواجهة الألم والموت. وحينها، سيبدو الهروب سهلاً عبر المخدرات أو المنشطات. احذرن من ذلك".

ردت الفتاتان بصوت منخفض، لكن حازم:
"نحن نعلم، أمي".

حدّقت فيهما نينيكي بعينيها النافذتين، وقالت، بنبرة حادة تخترق الصمت:
"الحرب، الخوف، القتل، والدماء... تعني جميعها انحدارًا أخلاقيًا. والأسوأ من ذلك، أنها تعمل كمنشط جنسي قوي للبعض. كيف ستؤثر عليكن؟ لا يمكنكن معرفة ذلك الآن. قلن لي فقط أنكنّ ستكونن حذرات. وإن حدث أي شيء... فاحرصن على تناول موانع الحمل".

تنهدت، ثم أضافت بتحذير أخير:
"ومع ذلك، إن وقعت إحداكن في ورطة، فتجنبن المشعوذين والقرويات اللاتي يدعين المعرفة! ابحثن عن معبد، أو الأفضل من ذلك، عن ساحرة".

قالت الفتاتان في صوت واحد، وكأنهما تكرران وعدًا مقدسًا:
"نحن نعلم، أمي".

أومأت نينيكي ببطء، ثم قالت بصرامة أخيرة:
"هذا كل شيء. حان وقت نيل البركة".

وضعت يدها على رؤوسهن، واحدة تلو الأخرى، ثم ضمتهن إليها، وقبّلت جباههن. شَهِقَت أورنايد بصمت، بينما بدأت إيولا الثانية في البكاء بحرقة. ارتعشت عينا نينيكي للحظة، وبدتا أكثر لمعانًا من المعتاد، لكنها سرعان ما زفرت بنفاد صبر، وقالت بخشونة لتخفي عاطفتها:

"لا مشاهد درامية، لا دموع. أنتن ذاهبات إلى حرب عادية. وستعدن منها. خذن أمتعتكن، واذهبن بسلام".

ردت الفتاتان، وعيونهما تلمع بالرهبة والخوف المدفون:
"وداعًا، أمي".

خرجتا من المعبد بخطى سريعة، دون أن تلتفتا إلى الخلف.

راقبت خطواتهن كل من الكاهنة العظمى نينيكي، والساحرة تريس ميريجولد، والكاتب الشاب جارّي.

تنحنح الأخير بقوة، بصوت يحمل معنى ضمنيًا.

التفتت إليه نينيكي، بعينين ضيقتين، وقالت باستياء:
"ماذا؟"

"لقد سمحتِ بذلك"!

تمتم الشاب بمرارة، قبضته ترتجف غضبًا.
"سمحتِ للفتيات بالتسجيل! وأنا؟ لماذا لا أستطيع؟ هل سأظل محبوسًا هنا، أقلب الرقوق العتيقة بين هذه الجدران؟ لستُ عاجزًا، ولستُ جبانًا! إنه لأمر مخزٍ أن أبقى في المعبد بينما حتى الفتيات"...

قاطعته الكاهنة العظمى، صوتها صارم كالنصل:
"هؤلاء الفتيات أمضين حياتهن في تعلم شفاء الناس، في رعاية المرضى والجرحى. لم ينضممن إلى الحرب بدافع الوطنية، ولا حبًا في المغامرة، بل لأن هناك عددًا لا يُحصى من المصابين الذين

يحتاجون إلى العناية. جبلٌ من العمل، ليلًا ونهارًا! أورنايد، وإيولا، ومير، وكاتجي، وبرون، وديبورا، وبقية الفتيات هن مساهمة المعبد في الحرب. فالمعبد، كجزء من هذا المجتمع، يساهم بما يستطيع. إنه يقدم مختصين مدربين للجيش وللحرب. هل تفهم ذلك، جاري؟ مختصين! وليس ذبائح تُقدَّم للمجزرة"!

صرخ جاري، صوته يرتجف بالإحباط:
"الجميع ينضم إلى الجيش! وحدهم الجبناء يبقون في المنازل"!

قالت تريس بحدة، نظرتها تخترقه مثل خنجر:
"أنت تتحدث هراء، جاري. لا تفهم شيئًا".

هتف الفتى، صوته يتهدج، يتكسر تحت وطأة مشاعره:
"أريد الذهاب إلى الحرب... أريد... إنقاذ سيري"...

ابتسمت نينيكي بسخرية، أمالت رأسها قليلًا، وقالت بتهكم:
"الفارس النبيل، يريد أن ينطلق إلى الإنقاذ... على جواده الأبيض".

ساد الصمت، وتحت نظرات الساحرة، شعر جاري بثقل الكلمات التي ألقيت عليه.

قالت نينيكي، نظرتها كانت كفيلة بسحق شجاعته المتبقية:
"لقد نفد صبري معك، جاري. قلت لك، لن أسمح بذلك! عد إلى كتبك! تعلّم. مستقبلك في العلم.

ثم استدارت، مشيرةً إلى تريس:
"هيا، تريس. لا وقت نضيعه على هذا العبث".

* * *

فُرِشَ قماشٌ أمام المذبح.

عليه استقر مشطٌ عظمي، خاتمٌ زهيد الثمن، غلاف كتاب مهترئ، ووشاح أزرق باهت.

إيولا الأولى، الكاهنة ذات الرؤية الثانية، انحنت فوق الأشياء، عيناها نصف مغمضتين، أنفاسها بطيئة ومنتظمة.

حذرتها نينيكي، الواقفة بجانبها، بصوت هادئ لكنه صارم:
"لا تتعجلي، إيولا. ركزي ببطء. نحن لا نريد ومضة نبوءة مبهمة، ولا لغزًا بألف حل. نريد صورة. صورة واضحة. دعي هالة هذه الأشياء تتغلغل فيك، فقد سمعت صوت سيري، لمستها يداها. استشعري الهالة. ببطء. لا داعي للعجلة".

في الخارج، عوت الرياح، واحتشدت ندف الثلج معًا، متراكمة على سطح المعبد وفنائه بسرعة. كان اليوم التاسع عشر من نوفمبر. والقمر مكتمل.

قالت إيولا الأولى، بصوتها الموسيقي الناعم:
"أنا مستعدة، أمي".

أومأت نينيكي، وقالت:
"ابدئي".

لكن فجأة، نهضت تريس من مقعدها بحركة مفاجئة، وألقت معطف الفرو عن كتفيها.

"انتظري لحظة، نينيكي".

رفعت رأسها، وعيناها تشتعلان بإصرار.

"أريد الدخول في الغيبوبة معها".

حدّقت نينيكي فيها، قائلة بتحذير جاد:
"هذا خطير".

هزت تريس رأسها، وقالت بصوت ثابت، لكنه مشحون بالعاطفة:
"أعلم. لكنني أريد أن أرى. بعينيّ. أنا مدينة لها. سيري... أحب هذه الفتاة كأختٍ صغيرة".

توقفت، ثم همست، وكأن الكلمات تخنقها:
"في كايدووين... أنقذت حياتي، وهي تخاطر برأسها"...

ثم انكسر صوت الساحرة فجأة كما لو أن المشاعر التي حاولت كبتها قد اندفعت إلى السطح دون إذن.

هزّت الكاهنة العظمى رأسها ببطء، عيناها تضيقان استياءً:
"تمامًا مثل جاري. يندفع للإنقاذ، أعمى، مندفعًا دون أن يعرف أين أو لماذا. لكن جاري مجرد فتى ساذج. أما أنتِ، فأنتِ امرأة ناضجة، وساحرة، يُفترض أن تكوني حكيمة. ينبغي أن تعرفي أن دخولكِ في الغيبوبة لن يساعد سيري. كل ما ستفعلينه هو إيذاء نفسكِ".

قالت تريس بإصرار، وهي تعض شفتها:
"سأذهب مع إيولا في الغيبوبة".

حدّقت في نينيكي بعينين مشتعليتين بالإصرار، ثم أضافت:
"اسمحي لي بذلك، نينيكي. وبالمناسبة، ما الذي أخاطر به؟ نوبة صرع؟ حتى لو حدث ذلك، فأنتِ قادرة على إيقاظي".

توقفت نينيكي للحظة، ثم قالت ببطء، بصوت يحمل تحذيرًا خفيًا:
"أنتِ تخاطرين... برؤية شيء لا ينبغي لكِ رؤيته".

اجتاح الرعب قلب تريس للحظة، تذكرت تلة سودين. حيث كانت ميتة. حيث كان جسدها مدفونًا، واسمها محفورًا على النصب التذكاري. التلة... والقبر الذي سيُخلّدها يومًا ما.

أنا أعرف ذلك. لقد تم التنبؤ لي بذلك.

لكنها رفعت رأسها، وبصوت بارد وصبور، قالت:
"لقد اتخذتُ قراري".

وقفت، ومرّرت أصابعها على شعرها، وأعادته إلى الخلف بحركة رشيقة، كما لو كانت تستعد لمواجهة مصير لا مفر منه.

ركعت نينيكي، جبهتها تستند إلى يديها المطويتين، ثم قالت بصوت هادئ:
"لنبدأ".

قالت تريس، وهي تنخفض إلى جانب إيولا، ممسكةً بيدها:
"لنبدأ".

أمرت نينيكي بهدوء:
"استعدي، إيولا. اجثي بجانبي، تريس. أمسكي يد إيولا".

في الخارج، كانت الليلة حالكة السواد. عوت الرياح بشراسة، وتساقط الثلج بغزارة، يغطي الأرض بطبقة باردة وصامتة، كأنها تخفي شيئًا يقترب... شيئًا لم يكن أحد مستعدًا لرؤيته.

* * *

في الجنوب، خلف جبال أميل، في متينا، في الريف المعروف باسم المئة بحيرة، على بعد خمسمائة ميل بخط مستقيم من مدينة إليندر ومعبد ميليتيلي، أيقظ كابوس الصياد غوستا.

حين استيقظ، لم يستطع غوستا تذكر تفاصيل الحلم، لكن شعورًا غريبًا من القلق ظل يلازمه، يمنعه من العودة إلى النوم.

أي صياد متمرس يعلم أن الفرخ لا يُصاد إلا عند تشكل الجليد الأول.

كان شتاء هذا العام، رغم قدومه المبكر وغير المتوقع، يتصرف كأنه امرأة جميلة ناجحة، متقلبة المزاج، تلهو كيفما تشاء. جاء الصقيع الأول والثلج كاللصوص في كمين غادر، في أوائل نوفمبر، مباشرة بعد ساوفين. لم يكن أحد يتوقع أن يحل الجليد والثلج بهذه السرعة، إذ لا تزال الأعمال كثيرة بانتظار الإنجاز.

غطت البحيرات طبقة رقيقة من الجليد، وبحلول منتصف نوفمبر، بدا أن سطحها قد أصبح صلبًا بما يكفي ليحمل وزن الإنسان، لكن الشتاء المتقلب تراجع فجأة وعادت دفيئة الخريف من جديد، وبدأ المطر يلين قشرة الجليد، بينما قفزت رياح الجنوب الدافئة فوق الضفاف، وأذابت التلال الجليدية.

"تبًا لهذا الطقس"، تساءل أهل الريف، "هل حل الشتاء، أم لم يحل بعد؟"

دام ذلك ثلاثة أيام فقط، ثم عاد الشتاء من جديد، لكن هذه المرة بلا ثلوج، بل بقبضة جليدية كحداد يمسك بملقطه الحديدي. صرّت الأرض تحت وطأة البرد. قطرات الماء التي كانت تتدلى من حواف الأسطح تجمدت بين عشية وضحاها، وتحولت إلى أنياب حادة من الجليد، بينما تجمدت البطات المذعورة في البرك، وكأن الصقيع قد أطبق عليها بلمسة ساحر.

أما بحيرات ميل تراكْتا، فقد أنَّت ببطء، ثم تصلّبت أخيرًا في قشرة جليدية سميكة.

انتظر غوستا يومًا كاملًا للتأكد من صلابة الجليد، ثم صعد إلى العلية وأخرج صندوق معدات الصيد، وضع الحزام على كتفه، وحشا حذاءه بالقش ليحمي قدميه من البرد، ثم ارتدى معطف الفرو، والتقط فأس الجليد، وحزم حقيبته، وانطلق نحو البحيرة.

كما نعلم، لا يمكن صيد الفرخ إلا عند تشكل الجليد الأول.

كان الجليد صلبًا. انحنى قليلًا تحت وطأة وزن الرجل، تصدّع بخفة، لكنه صمد. سار غوستا بحرية فوق السطح المتجمد، غرس فأسه في الجليد ليحفر ثقبًا، ثم جلس على صندوقه، ولف الخيط المصنوع من شعر الحصان حول عصا قصيرة من خشب اللاريكس، ربط الخطاف بالخيط، وأسقطه في الماء.

لم تمضِ سوى لحظات حتى انقضّ أول فرخ، طوله نصف ياردة، على الطُعم قبل أن يصل الخطاف حتى إلى القاع.

بعد مرور ساعة، كان نصف مائة من الأسماك الخضراء المخططة، ذات الزعانف الحمراء الدامية، متناثرة حول الحفرة في الجليد. كان لدى غوستا أكثر مما يحتاجه من الصيد، لكن حمى الصيد لم تغادره بعد. في النهاية، يمكنه دائمًا توزيع الفائض على الجيران.

سمع شخيرًا طويلاً.

رفع رأسه عن الحفرة في الجليد. على ضفة البحيرة، وقف حصان أسود رائع، بخار دافئ يتصاعد من منخريه. كان فارسه مرتديًا معطفًا من فرو القندس، ووجهه مغطى بوشاح.

ابتلع غوستا ريقه. كان الأوان قد فات للهروب. لكنه تمنى في سره أن الفارس لن يجرؤ على المشي فوق الجليد الرقيق بحصانه.

واصل تحريك عصا الصيد بشكل آلي، ثم شعر بشدّة مفاجئة على الخيط. سحب الصياد الفرخ من الماء، نزع الخطاف من فمه، وألقاه على الجليد حيث تلوّى بجسده، ناشرًا زعنفته الحادة، متحركًا بارتجاف خافت.

من زاوية عينه، رأى الفارس يهبط من السرج، يرمي اللجام فوق شجيرة جرداء، ثم يقترب من الجليد بحذر.

توترت عضلات غوستا، انحنى ليقبض على فأسه، التي يمكن أن تصبح سلاحًا عند الحاجة.

لكن الصوت جاء هادئًا، مطمئنًا، لكنه يحمل تحذيرًا دفينًا:

"لا تقلق".

كانت فتاة.

الآن، بعد أن نزعت وشاحها، رأى غوستا وجهها المشوّه بندبة قبيحة. على ظهرها، حملت سيفًا، وكان مقبضه المنحوت بدقة يبرز فوق كتفها، يشهد على جودة صانعه.

قالت بصوت ناعم، لكنه حازم:
"لن أؤذيك. أريد فقط أن أسأل عن الاتجاهات".

الاتجاهات؟ فكر غوستا، متوجسًا. الآن، في الشتاء، بعد الصقيع... من يسافر في الشتاء؟ لا أحد سوى قاطع طريق... أو مستحضر أرواح.

سألته، وعيناها مثبتتان عليه:
"هل هذه المنطقة تُعرف باسم ميل تراكْتا؟"

تمتم غوستا، وعيناه لا تفارقان الحفرة في الجليد، حيث تلاعبت المياه السوداء بانعكاساته:
"نعم... ميل تراكْتا. لكن هنا، نسميها المئة بحيرة".

قالت، بصوت لم يكن مجرد استفسار، بل اختبار:
"وبحيرة تارن ميرا؟ هل سمعت بها؟"

أجاب سريعًا، وهو يراقبها بحذر:
"الجميع يعرفها".

ثم أضاف، صوته يزداد حذرًا:
"لكن هنا، نسميها الهاوية. بحيرة ملعونة. شاطئها موحش... تسكنها الجنيات الغارقة التي تجذب الناس إلى أعماقها. والأشباح تتجول بين أنقاضها الملعونة".

رأى في تلك اللحظة وميضًا غريبًا في عينيها الخضراوين.

"هناك أنقاض؟" قالت، بنبرة حملت اهتمامًا حقيقيًا. "برج، ربما؟"

لم يستطع غوستا منع نفسه من إطلاق ضحكة ساخرة قصيرة:
"برج؟ مجرد كومة حجارة متراكمة فوق بعضها، مغطاة بالطحالب. ركام لا أكثر"...

على الجليد، توقف الفرخ عن النضال. لم يعد يرتجف، بل اكتفى بتحريك خياشيمه المخططة بالألوان.

حدّقت الفتاة فيه، كأنها تفكر في شيء آخر، ثم تمتمت:
"الموت على الجليد... هناك شيء آسِر في ذلك".

رفع غوستا حاجبيه، مشدوهًا:
"هاه؟"

لم تشرح. فقط رفعت رأسها وسألت:
"كم تبعد البحيرة والأنقاض؟ أي طريق يجب أن أسلك؟"

أجابها. ثم أشار لها. بل إنه انحنى وخدش المسار في الجليد بطرف فأسه، حتى تحفظه جيدًا.

أومأت الفتاة برأسها، تثبت الموقع في ذاكرتها.

أما الفرس السوداء، فقد ضربت حوافرها على الجليد، أطلقت شخيرًا قويًا، وتدفق البخار الدافئ من منخريها، كما لو كانت تشعر بشيء آتٍ... شيء غير مرئي، لكنه قريب جدًا.

* * *

اقبها وهي تبتعد نحو الضفة الغربية، تندفع صعودًا على المنحدر، قبل أن تتلاشى وسط خلفية من أشجار ألدر والبتولا العارية، في الغابة الساحرة، التي اكتست بطبقة من الصقيع الأبيض اللامع.

ركضت الفرس السوداء برشاقة لا توصف، سريعة، لكنها خفيفة كأنها تطفو على الأرض. بالكاد سُمِع وقع حوافرها على التربة المتجمدة، ولم ترتجف الأغصان المثلجة التي لامستها سوى بالكاد. كانت تنساب عبر تلك الغابة القديمة المتجمدة، وكأنها ليست مجرد حصان، بل كائن سحري، مخلوق من الحكايات والأساطير.

لكن... هل كانت حقًا حصانًا؟ أم كانت مجرد طيف؟

شيطانة على صهوة جواد شبح، شيطانة اتخذت هيئة فتاة بعينين خضراوين كبيرتين، ووجه مشوه بندبة؟

إذ من غير الشياطين يسافر في الشتاء؟ ومن غيرهم يسأل عن طريق يقود إلى أنقاض مسكونة؟

عندما اختفت عن ناظريه، بدأ غوستا على الفور في حزم أغراضه. لم يشعر بالراحة في البقاء هناك. في طريق عودته إلى المنزل، اختار عبور الغابة بدلاً من استخدام الطريق الرئيسي. كان ذلك طريقًا أطول، لكنه استمع إلى حدسه، وإلى صوت العقل الذي حذّره من السير في العلن.

العقل قال له إن الفتاة لم تكن شبحًا، بل بشرًا من لحم ودم. وإن الفرس السوداء لم تكن طيفًا، بل حصانًا حقيقيًا. ولكن... من يركب وحيدًا عبر البراري المتجمدة في الشتاء، يكون في الغالب ملاحقًا.

وبعد ساعة، اندفع المطاردون عبر درب الغابة.

أربعة عشر حصانًا.

* * *

هزّ رينس الصندوق الفضي مرة أخرى، شتم، ثم ضربه بغضب على مقبض سرجه. لكن الصندوق السحري ظل صامتًا.

قال بونهارت ببرود:
"سحر فارغ".

ثم أضاف، بنبرة ساخرة:
"لقد تعطل – مجرد خدعة سوقية رخيصة".

عقّب ستيفان سكيلين، وهو يحدق في الجهاز بصمت متأمل:
"أو أن فيلغيفورتز أراد أن يوضح لنا مدى أهميتنا الحقيقية بالنسبة له".

رفع رينس رأسه، عينيه تلمعان بغضب شيطاني، ثم قال بحدة:
"بفضل هذه الخدعة السوقية، نحن على المسار الصحيح، ولن نفقد أثرها مجددًا. بفضل سيدنا فيلغيفورتز، نحن نعلم إلى أين تريد الفتاة الذهاب. نعرف إلى أين نحن متجهون، وماذا علينا أن نفعل. أعتقد أن هذا أكثر بكثير مما قدمتموه خلال الشهر الماضي".

زمجر بونهارت وهو يحدق فيه بازدراء:
"لا تتحدث كثيرًا. حسنًا، بوريوس؟ ماذا تقول الآثار؟"

رفع بوريوس مون رأسه، ثم تنحنح وقال:
"كانت هنا قبلنا بساعة. تحاول أن تسابق الوقت حيثما أمكنها، لكنها تجتاز تضاريس صعبة. حتى على تلك الفرس المذهلة، لا تبعد عنا بأكثر من خمسة أو ستة أميال".

تمتم سكيلين، حاجباه ينعقدان في شك:
"تتجه نحو البحيرة بثبات... كان فيلغيفورتز محقًا. ولم أصدقه"...

أومأ بونهارت قائلاً:
"ولا أنا. لكن فقط حتى أمس، حين أكد لنا الفلاحون أن هناك مبنى سحريًا بالفعل على ضفاف بحيرة تارن ميرا".

شخرت الخيول، ونفثت أنفاسها الساخنة كضباب عبر مناخيرها. التفت سكيلين فوق كتفه الأيسر، وألقى نظرة خاطفة على جوانا سيلبورن. لم يكن يحب التعبير الذي ارتسم على وجه المتخاطرة الذهنية خلال الأيام القليلة الماضية.

"بدأت أشعر بالقلق"، فكر بينه وبين نفسه. "هذه المطاردة استنزفتنا جميعًا، جسديًا وعقليًا. حان الوقت للتوقف. حان الوقت منذ فترة طويلة".

اجتاحت قشعريرة باردة عموده الفقري. تذكر الحلم الذي راوده الليلة الماضية.

حسم أمره، ثم صاح، صوته صارم، قاطع:
"حسنًا! كفى حديثًا. إلى الخيول"!

* * *

تعلق بوريوس مون بجانب السرج، محدقًا إلى الأرض، يبحث عن أي علامات. لم يكن الأمر سهلًا.

كانت التربة متجمدة بقسوة، والثلج المتطاير بسرعة لم يظل سوى في الأخاديد والمنخفضات. كان يبحث عن آثار حوافر الفرس السوداء، وكان عليه أن يكون شديد الحذر حتى لا يفقد الأثر، خاصة الآن، بعد أن خفت صوت الصندوق الفضي السحري، ولم يعد هناك أي إرشادات أو معلومات.

كان مرهقًا إلى حد يفوق طاقة البشر. وقلقًا. لقد طاردوا الفتاة لما يقارب الثلاثة أسابيع منذ ليلة ساوفين، منذ المجزرة في دون دير. ثلاثة أسابيع تقريبًا في السرج، دائمًا في المطاردة. ورغم ذلك، لم تظهر الفتاة ولا الفرس السوداء أي ضعف، ولم تتباطأ لحظة واحدة.

واصل البحث عن العلامات، عيناه تجوبان الأرض المتجمدة بلا كلل.

لكن أفكاره كانت تعود باستمرار إلى الحلم الذي راوده الليلة الماضية.

في الحلم، كان غارقًا. يغوص، يهبط أعمق وأعمق. السطح الأسود من الماء أُغلق فوق رأسه، والبرودة القاتلة تسللت إلى رئتيه وحلقه. شعر بها، كيف تسللت كخنجر ثلجي إلى أعماقه. ثم استيقظ، جسده غارق في عرق ساخن رغم أن الهواء من حوله كان باردًا كالجليد القارس.

"يكفي"، فكر بوريوس، بينما كان لا يزال متشبثًا بالسرج، عيناه تبحثان عن أي أثر. "لقد حان الوقت للتوقف. منذ وقت طويل".

* * *

"سيدي؟ هل تسمعني؟ سيدي؟"

ظلَّ الصندوق المسحور صامتًا.

ارتجفت كتفا رينس بعنف بينما كان ينفخ في يديه المرتجفتين، اللتين لم تعودا تشعران بأي دفء. البرد القارس كان ينهش رقبته، وظهره، وخصره المؤلم. كل حركة كانت تجلب له طوفانًا من الألم. حتى الرغبة في الشتم والتذمر غادرته.

ثلاثة أسابيع تقريبًا في السرج، في مطاردة لا هوادة فيها. في برد يخترق العظام. وفي الأيام الأخيرة، تجمد الصقيع حتى في الهواء.

وفيلغيفورتز... صامت.

ونحن أيضًا صامتون. نراقب بعضنا البعض بارتياب.

فرك رينس يديه، ثم ارتدى قفازيه، وعيناه تراقبان سكيلين بحذر.

"ينظر إليّ بطريقة غريبة"، فكر، حاجباه ينعقدان بقلق. "هل يخطط لخيانة ما؟ لقد وافق على اتفاقه مع فيلغيفورتز بسرعة كبيرة... وسهولة غير مريحة. لكن هذه الفرقة، هؤلاء الأوغاد المخلصون له، ينفذون أوامره دون تردد. لو أمسكنا بالفتاة، فهو قادر على تجاهل الاتفاق، قتلها، واستخدام رجاله لتنفيذ أوهامه حول الديمقراطية والحكم المدني".

أو ربما... ربما سئم سكيلين بالفعل من المؤامرة؟ ربما، بصفته انتهازيًا بالفطرة، بدأ يفكر الآن في أن تسليم الفتاة إلى الإمبراطور إمير سيكون الخيار الأكثر أمانًا؟

ينظر إليّ بطريقة غريبة ... مثل بومة تراقب فأرًا قبل أن تنقض عليه. وكذلك الفرقة كلها... وتلك كينّا سيلبورن...

ثم هناك بونهارت.

بونهارت... سادي متقلب، غير متوقع. عندما يتحدث عن سيري، صوته يرتجف بالغضب... أو بشيء آخر أعمق وأخطر. حسب مزاجه، قد يقتلها دون تردد... أو يخطفها ليجعلها تقاتل حتى الموت في حلبة الوحوش.

"الاتفاق مع فيلغيفورتز؟"

ابتسم رينس في سرّه بسخرية.

"لن يعني له شيئًا. وخصوصًا الآن... الآن بعد أن فيلغيفورتز..."

أخرج رينس الصندوق من عباءته، ضغط عليه بإحكام، ثم همس بصوت متوتر:

"سيدي؟ هل تسمعني؟ إنه أنا... رينس"...

ظلَّ الجهاز صامتًا. لم يُصدر حتى أزيزًا ضعيفًا.

لم يشتم رينس هذه المرة. حتى الشتائم فقدت معناها.

فيلغيفورتز صامت، سكيلين وبونهارت أبرما اتفاقًا معه، أو هكذا يزعمان. لكن خلال يوم أو يومين، حين نلحق بالفتاة، قد يتضح أن هذا الاتفاق لا وجود له. وحينها... سأكون أنا من يُغرس في حلقه نصل بارد. أو سأُقاد بالأغلال إلى نيلفغارد، كدليل ولاء يُقدمه البومة للإمبراطور"

"تبًا"!

فيلغيفورتز صامت. لا نصائح، لا توجيهات، لا ذلك الصوت الهادئ، المنطقي، العميق، الذي يبدد الشكوك بثقة شيطانية.

إنه صامت.

هل كان سكيلين محقًا؟ هل تركنا فيلغيفورتز خلفه، وتوجه إلى أمر آخر، غير عابئ بنا وبمصيرنا؟

"بحق جميع شياطين الجحيم، لم أكن أظن أن الأمور ستؤول إلى هذا. لو علمت بذلك مسبقًا... لكنت ذهبتُ خلف الويتشر وقتلته بنفسي، بدلًا من إرسال شيررو... اللعنة"!

"أنا هنا، أتجمد وسط هذا الجحيم المتجمد، بينما شيررو بلا شك يجلس في دفء وراحة... وعندما أفكر أنني أنا من أصرَّ أن أكون أنا من يُرسل لمطاردة سيري، وأن يُرسل شيررو لملاحقة الويتشر... أنا من طلب ذلك".

حينها، في بداية سبتمبر... عندما وقعت ينيفر بين أيدينا.

* * *

العالم، الذي لم يكن قبل لحظات سوى ظلمة حالكة، طينية، لزجة وسريالية، تجسد فجأة في لحظة خاطفة، متحولًا إلى أسطح صلبة وخطوط واضحة. إن كان هناك نور، فهذا يعني أنه كان واقعًا.

فتحت يينيفر عينيها، مرتجفة تحت وطأة نوبات ارتعاش عنيفة. كانت ممددة فوق الصخور، وسط جثث متناثرة، وحبال متشابكة، وألواح خشبية مكسوة بالقار بقايا سفينة التنين "ألكيون ."ومن حولها، لم ترَ سوى الأقدام. أقدام محشورة في أحذية ثقيلة. أحد تلك الأحذية كان قد ركلها منذ لحظات، ليوقظها من الغيبوبة.

"انهضي، أيتها الساحرة"!

ركلة أخرى — أشد قسوة — اخترقت جسدها، مستوطنة أعماقها. ثم رأت وجهًا ينحني فوقها.

"قلت انهضي! على قدميك! ألا تعرفينني؟"

رمشت بعينيها. عرفته. فقد كانت قد أحرقت وجهه ذات يوم، بينما كان يهرب عبر بوابة سحرية أمامها .رينس.

"سنسوي الأمور، "وعدها، "سنسوي كل شيء، أيتها العاهرة. سأعلمك معنى الألم. بهاتين اليدين، وبهذه الأصابع، سأجعلك تفهمين ماهية العذاب".

توترت. قبضت يديها، ثم فتحتهما من جديد، مستعدة لاستدعاء تعويذة. لكن فجأة، شعرت بجسدها يشتعل، وأعصابها تلتوي كأفاعٍ متشابكة. شهقت، اختنقت، وارتجفت.

رينس انفجر ضاحكًا، وصوته يخترق سمعها كإبرة مسمومة.

"لا يعمل؟ "سخر منها، "ليس لديك حتى ذرة من القوة! لستِ نِدًّا لـ"فيلغيفورتز" في السحر! لقد امتص منك كل قطرة، كما يُصفَّى مصل الحليب من الجبن. لا يمكنك حتى ..."

لم يُكمل عبارته.

استلت يينيفر الخنجر الدقيق المثبت في الغمد داخل فخذها، وانقضّت كالقطة، ودفعت النصل بشكل أعمى. لم تصب هدفها، إذ لم يفعل سوى تمزيق قماش بنطاله. تراجع رينس للخلف، ساقطًا أرضًا.

على الفور، انهمرت عليها وابلٌ من اللكمات والركلات. صرخت حينما هوت عليها قدم ثقيلة، دافعةً الخنجر بعيدًا من يدها وساحقةً إبهامها تحتها. ثم جاءت ضربة أخرى إلى بطنها، جعلتها تتلوى وتلهث، تكافح لالتقاط أنفاسها. انتزِعت من الأرض بعنف، وأُديرت ذراعاها للخلف بقسوة. لاح لها قبضة متجهة نحوها، ثم انفجر العالم بشرارات متقدة، وتفجرت جمجمها بألم هائل انتشر عبر عمودها الفقري، زاحفًا إلى بطنها ورحمها. تحولت ركبتاها إلى كتلة رخوة لا تقوى على حملها، وتركت نفسها تتدلى بلا حول ولا قوة بين الأيادي التي أمسكت بها.

قبض أحدهم على شعرها وجذب رأسها للأعلى بقوة. تلقت لكمة أخرى مباشرة في عينها، وانطمس العالم من حولها في ومضة بيضاء ساطعة.

لم تفقد وعيها. لقد شعرت.

لقد كانت تُضرَب. تُضرَب بعنف، تُضرَب بقسوة، تُضرَب كما يُضرَب الرجال. ضربات لم تكن مؤلمة فقط، بل كانت تستنزف طاقتها، تسحق أي إرادة للمقاومة. كانت تُضرَب، تهتز تحت وطأة قبضةٍ من حديد، بين أيادٍ لا تعرف الرحمة.

أرادت أن تغيب عن الوعي، لكن لم تستطع. كانت تشعر بكل شيء.

ثم، وسط العذاب، عبر صوتٌ من مكان بعيد، كأنه يخترق ستارًا كثيفًا من الألم.

"يكفي".

كان الصوت متحكمًا، قاطعًا.

"هل جننت، رينس؟ هل تحاول قتلها؟ أريدها حية".

"لقد وعدتها، سيدي، "زمجر الظل المتذبذب أمامها، الذي بدأ يتخذ تدريجيًا شكل رينس" .لقد وعدتها بأن أنتقم منها... بهاتين اليدين"...

"لا يهمني ما وعدتها به. أكرر، أريدها حية، وبحالة تسمح لها بالكلام".

"لا القطط ولا الساحرات، "قهقه الصوت الذي كان يمسك بشعرها، "يمكن قتلهم بهذه السهولة".

"لا حاجة لمثل هذه الفلسفة، شيرّو، قلتُ يكفي".

"ارفع رأسها جيدًا".

ثم جاءه الصوت، كالسيف يخترق الضباب.

"كيف حالكِ، يينيفر؟"

بصقت الساحرة دمًا، ورفعت وجهها المتورم ببطء. في البداية، لم تتعرف عليه. كان يرتدي قناعًا يغطي الجانب الأيسر من رأسه بالكامل. لكن رغم ذلك، عرفت من يكون.

"اذهب إلى الجحيم، فيلغيفورتز، "تمتمت، وهي تلمس بلطف بأسنانها الأمامية وشفتيها المتورمتين.

"كيف أعجبك سحري؟ هل استمتعتِ به، عندما رفعتكِ مع هذه السفينة من البحر؟ هل استمتعتِ بالتحليق؟ أي تعاويذ استخدمتِها لتحمي نفسكِ وتنجحي في النجاة من السقوط؟"

"اذهب إلى الجحيم".

"حطموا قلادتها النجمية، ثم خذوها إلى المختبر. لا وقت لنضيعه".

جُرَّت، سُحِبَت، وأحيانًا حُمِلَت. عبر سهلٍ صخري تناثرت عليه بقايا حطام "ألكيون". وبين هياكل سفن أخرى تحطمت قبلها، تقف أضلاعها المنتصبة كرفات وحوش بحرية هائلة.

كان كراش محقًا، فكرت. السفن التي اختفت بلا أثر فوق أعماق سيدنا لم تكن ضحية كوارث طبيعية. يا للآلهة... بافيتا... دوني...

ثم، وسط الأفق الغائم، ظهر قمة جبل بعيد. ثم تتابعت الجدران، الأبواب، الأروقة، والسلالم. كل شيء بدا ضخمًا بطريقة غريبة، غير طبيعية... لم تكن هناك تفاصيل كافية لتحديد موقعها، أو المكان الذي سقطت فيه، أو أين أخذهم السحر. تورم وجهها جعل من الصعب عليها حتى الرؤية بوضوح. لم يتبقَ لها سوى حاسة الشم تمدها ببعض الإدراك وفورًا، التقطت رائحة الفورمالين، والإيثر، والكحول. ورائحة أخرى... السحر. إنها رائحة مختبر.

طُرِحت بوحشية على كرسي فولاذي. انغلقت مشابك باردة على معصميها وكاحليها، تضغط بقسوة على عظامها. ثم ثبتت فكوك معدنية عند صدغيها، تحاصر رأسها كفخ لا فكاك منه. حينئذ، رفعت نظرها إلى الغرفة الشاسعة، المتألقة بضوء ساطع مؤلم.

ورأت كرسيًا آخر. وهيكلًا فولاذيًا غريبًا على قاعدة حجرية...

"ذلك، "جاءها صوت فيلغيفورتز من خلفها، "ذلك الكرسي الصغير هناك مخصصٌ لـ"سيري". لقد انتظر طويلًا، ولم يعد بوسعه الانتظار أكثر. ولا أنا كذلك".

شعرتُ به قريبًا، حتى إنها كادت تحس بأنفاسه تلفح بشرتها. غرَس إبرًا في فروة رأسها، وثبّت شيئًا بإحكام في شحمة أذنها. ثم وقف أمامها، وأزال قناعه.

زفرت يينيفر بلا وعي، وكأن الهواء قد انحشر في صدرها.

"هذا، "قال، مشيرًا إلى وجهه المشوَّه، الذي كان يومًا ما مثالًا للجمال الكلاسيكي، لكنه الآن ممزقٌ ببشاعة، تُحيطه مشابك ذهبية وتدعمه مثبتاتٌ تحمل بلورةً متعددة الأوجه في محجر عينه اليسرى.

"هذا من عمل تلك "سيري" ذاتها".

خفض صوته وهو يواصل، وكأن الكلمات تقطر سُمًّا.

"حاولتُ الإمساك بها حينما دخلت البوابة في "برج النوارس". أردتُ إنقاذ حياتها، كنتُ متأكدًا أن البوابة ستقتلها. يا لي من ساذج! عبرتها بسلاسة... وبقوة هائلة... حتى أنها حطمت البوابة، وجعلتها تنفجر في وجهي. فقدتُ عينًا، وخدي الأيسر، ومساحات واسعة من جلدي على وجهي ورقبتي وصدري. كان ذلك مؤلمًا، مرهقًا، معقدًا... ومقززًا، أليس كذلك؟ ها! كان يجدر بكِ رؤيتي قبل أن أبدأ باستعادة هيئتي بالسحر".

ثم دفع بأنبوب معدني منحني إلى أنفها، مستطردًا ببرود:

"لو كنتُ أؤمن بتلك الخرافات، لقلتُ إن ما حدث لي هو انتقام "ليديا فان بريديفورت"... من وراء القبر. أستطيع التجدد، لكن ببطء. إنه أمرٌ مستنزفٌ للوقت، شاق. خصوصًا مع العين، هناك... بعض المشاكل... البلورة التي في تجويف عيني تؤدي الغرض، أرى بها الأبعاد الثلاثة، لكن غياب العين الطبيعية يصيبني أحيانًا باليأس القاتل. في الواقع، بدأت أشعر بغضب غير عقلاني... أقسم أنه بمجرد أن أقبض على "سيري"، سأطلب فورًا من "رينس" أن يقتلع إحدى عينيها الخضراوين الكبيرتين. بأصابعه. بتلك الأصابع، كما يحب أن يقول".

انحنى قليلًا، همس لها وهو يراقبها عن كثب.

"أنتِ صامتة، "يينيفر"؟ لكنكِ تعلمين بالفعل أنني أرغب في اقتلاع عينٍ منكِ أيضًا؟ أو ربما كلتيهما؟"

ثم دفع بإبرٍ غليظة في عروق يديها العلويتين. بعضُها أصاب، وبعضُها أخطأ، مغروزًا بوحشية في العظم.

"يينيفر" أطبقت أسنانها.

"لقد سببتِ لي المتاعب. أجبرتني على التوقف عن عملي. وضعتِني في خطر. عندما أبحرتِ بسفينتك فوق أعماق سيدنا، تحت مُستخرجاتي... صدى مبارزتنا القصيرة كان قويًا وانتشر على نطاق واسع، وقد تلتقطه آذان غير مدعوة ومزعجة. لكنني لم أستطع مقاومة الفرصة. فكرة أن تكوني هنا، أن أتمكن من ربطك بجهازي "أورتر"، كانت مغرية للغاية".

أدخل الإبرة التالية في جسدها، وواصل بنبرة هادئة باردة:

"لأنه من المؤكد أنكِ لم تعتقدي، "ضغط الإبرة إلى الداخل، "أنني وقعتُ في فخ استفزازك؟ أنني ابتلعت الطعم؟ لا، يينيفر. إذا كنتِ تصدقين ذلك، فأنتِ تخلطين بين السماء والنجوم المنعكسة على بركة الماء في الليل. في الحقيقة، ينبغي أن أشكركِ لقد تتبعتني بنفسك. عندما ذهبتِ إلى الأعماق، سهلتِ مهمتي. لأنني، كما ترين، لا أستطيع تحديد موقع "سيري"، حتى بمساعدة هذا الجهاز هنا، الذي لا مثيل له".

رمقها بنظرة باردة، ثم أردف:

"الفتاة تمتلك آليات حماية فطرية قوية هالة قوية مضادة للسحر وحاجبًا يمنع التتبع. فهي، بعد كل شيء، من سلالة الدم القديم... ومع ذلك، كان ينبغي لجهازي "السوبر-أورتر" أن يعثر عليها. لكنه لم يستطع".

كانت يينيفر غارقة تمامًا في شبكة معقدة من الأسلاك الفضية والنحاسية، محاطة بهيكل معدني معقد من أنابيب الفضة والخزف. فوق كرسيها، ارتكزت حوامل ثلاثية الأرجل تحمل قوارير زجاجية تذبذب داخلها سائل عديم اللون.

"لذلك استنتجتُ، "دفع أنبوبًا زجاجيًا آخر في أنفها، "أن السبيل الوحيد للعثور على "سيري" هو عبر مسبار تعاطفي. ولهذا، كنت بحاجة إلى شخص تربطه بها علاقة عاطفية قوية بما يكفي، شخص طور رابطًا تعاطفيًا معها، ما يمكننا وصفه بمصفوفة إدراكية متبادلة، لنستعير مصطلحًا حديثًا. فكرت في "الويتشر"، لكنه اختفى، كما أن السحرة لا يصلحون كوسطاء لهذه التقنية. كنتُ على وشك اختطاف "تريس ميريجولد"، ساحرتنا "الرابعة عشرة من التلة ."كما فكرت في اختطاف "نينّيكي" من "إيلاندر"..."

ابتسم ابتسامة ملتوية، نظر إليها بإعجاب ساخر.

"لكن، فجأة، ظهرت يينيفر من فينجربيرج... وكأنكِ تطوعتِ بنفسكِ تقريبًا... حقًا، لم يكن بوسعي أن أحلم بمرشح أفضل"...

اقترب منها، عيناه تتفحصان كل انقباضة في وجهها، كل رعشة في عضلاتها المقيدة.

"متصلة بالجهاز، ستجدين "سيري" لي. العملية، بالطبع، تتطلب تعاونكِ... لكن هناك، كما تعلمين جيدًا، وسائلٌ تجبر الشخص على التعاون".

"بالطبع، "واصل حديثه بينما كان يمسح يديه، "ينبغي أن تحصلي على بعض التفسيرات. على سبيل المثال أين وكيف عرفتُ عن الدم القديم؟ عن إرث لارا دورين؟ ما هو هذا الجين تحديدًا؟ كيف حصلت "سيري" عليه؟ مِمَن ورثته؟ وكيف سآخذه منها، ولأي غرض سأستخدمه؟ كيف يعمل "مستخرج سيدنا"، ذلك الجهاز الذي سحبتُكِ من خلاله، وما هو هدفه؟"

توقف قليلًا، متلذذًا بتوترها، ثم ابتسم ابتسامة باهتة.

"الكثير من الأسئلة، أليس كذلك؟ لكن للأسف، لا وقت لديّ لأخبركِ بكل شيء وأشرح لكِ كل التفاصيل. ها، يا للخسارة، لأنني واثق أنكِ كنتِ ستُدهشين ببعض الحقائق، يينيفر... لكن، كما قلت، لا وقت لدي. الإكسير بدأ يأخذ مفعوله. حان الوقت لأن تركزي".

أطبقت يينيفر أسنانها بقوة، شهقت، وأصدرت أنينًا مكتومًا، عميقًا.

"أعلم ".أومأ فيلغيفورتز برأسه، وهو يسحب نحوها منظاره الضخم، يراقب من خلال كرة كريستالية كبيرة ثبتت على حامل ثلاثي الأرجل، يحيط بها نسيج من الأسلاك الفضية.

"أعلم، لكن هذا، للأسف الشديد، ضروري. وهو مؤلم للغاية. كلما أسرعتِ بتحديد المواقع، انتهى الأمر سريعًا. حسنًا، يينيفر، على هذه الشاشة، أريد أن أرى "سيري". أريد أن أعرف أين هي، مع من تكون، وما الذي تفعله... بل وأين ومع من تنام".

صرخت يينيفر صرخة حادة، جامحة، يائسة.

"يؤلمكِ، أليس كذلك؟ "ثبّت فيلغيفورتز عينه الحية وعينه الكريستالية الميتة عليها.

"بالطبع، إنه مؤلم. المواقع، يينيفر. لا تقاومي. لا تتظاهري بالبطولة. أنتِ تعلمين أنكِ لن تتحملي. عواقب المقاومة قد تكون كارثية نزيفًا دماغيًا، شللًا مزدوجًا، أو قد تتحولين إلى مجرد جسد بلا روح، خضرة لا حياة فيها، بقية عمركِ".

أطبقت فكها حتى بدأ صرير أسنانها المتشققة يتردد في الغرفة.

قال الساحر بصوت ناعم: "حسنًا يينيفر، على الأقل بدافع الفضول! لا بد أنكِ فضولية بشأن طالبتكِ. كيف تتدبر أمرها؟ ربما تواجه خطرًا؟ ربما وقعت في مأزق؟ أنتِ تعلمين كم من الأشخاص يريدون موت "سيري"."

اقترب أكثر، صوته أصبح مخمليًا، دافئًا، مشوبًا بنبرة مطمئنة زائفة.

"المواقع، يينيفر. إن عرفتُ أين الفتاة، سأحصل عليها. ستكون بأمان... لا أحد سيجدها هنا. لا أحد".

"المواقع، يينيفر. المواقع. أرجوكِ".

خفض صوته، كأنه يحاول إقناعها، كأنه يساومها.

"أعطيكِ كلمتي: لن آخذ من "سيري" سوى ما أحتاج إليه. وبعدها، سأمنحكما الحرية. أقسم بذلك".

لكن يينيفر لم تستجب. بل شدّت فكها أكثر، حتى تدفقت قطرات من الدم على ذقنها.

تأوه فيلغيفورتز بضجر، وقف فجأة ولوّح بيده.

"رينس"!

شعرت يينيفر بجهاز يثبت بإحكام على يديها وأصابعها.

" قال فيلغيفورتز وهو ينحني نحوها: "أحيانًا هناك حالات عنيدة لا تجدي معها التعاويذ، ولا الجرعات، ولا المخدرات. في بعض الأحيان، لا شيء يعوّض الألم الكلاسيكي... القديم... البسيط".

توقّف للحظة، وكأن صوته صار أكثر تهديدًا، أكثر قسوة.

"لا تجبريني على اللجوء إليه. المواقع".

رفعت رأسها بصعوبة، وعينيها متقدتين بالتحدي رغم الألم.

"اذهب إلى الجحيم، فيلغيفورتز"!

زمّ شفتيه، أشار إلى رينس دون أن يرفع عينيه عنها.

"أدر المسامير، رينس. ببطء".

* * *

نظر فيلغيفورتز إلى الجسد فاقد الوعي، يُسحب عبر الأرض، تاركًا خلفه أثرًا دامياً، في طريقه نحو الدهاليز المعتمة أسفل الدرج المؤدي إلى الزنزانة. ثم رفع بصره نحو "رينس" و"شيرّو."

"هناك دائمًا خطر، "قال بصوت هادئ لكنه محمّل بالتهديد، "أن يقع أحدكما في أيدي أعدائي ويتم استجوابه. وأود أن أصدق أنكما ستكونان صامدين تحت وطأة المسامير كما كانت هي".

توقف لحظة، نظر إليهما بتفحص، ثم تابع بصوت بارد:

"نعم، أود أن أصدق ذلك. لكنني لا أصدق".

لم ينبس "رينس" ولا "شيرّو" بكلمة. التزموا الصمت المشحون بالحذر. أما فيلغيفورتز، فحوّل انتباهه إلى المنظار السحري، حيث ظهرت صورة باهتة على الشاشة، منبعثة من البلورة الضخمة.

"هذا كل ما استطاعت تحديده ".أشار إلى الشاشة بإصبعه، نبرته تحمل خيبة أمل ممزوجة بالاهتمام . "أردتُ "سيريلا"، لكنها أعطتني "الويتشر". لم تكن تمتلك مصفوفة تعاطفية مع الفتاة، ولكن عندما ضعفت... أعطتني رابطها العاطفي مع "جيرالت"."

ضحك بصوت منخفض، بنبرة متأملة.

"لم أكن لأصدق أنها تحمل له مشاعر بهذا العمق"...

ثم اعتدل في وقفته، نظر مرة أخرى إلى الشاشة حيث بدأت الصور تتضح أكثر.

"حسنًا، هذا كافٍ كبداية. "الويتشر"، "كاهير أيب كيلاك"، الشاعر "دانديليون"، وامرأة؟ هه... مثير للاهتمام".

صمت، ثم استدار ببطء نحو الرجلين الواقفين أمامه. عينيه تلتمعان بقرار لا رجعة فيه.

"من سيتولى هذه المهمة؟ الحل النهائي... لسؤال الويتشر؟"

* * *

قد أُسندت المهمة إلى "شيرّو"، هذا ما تذكره "رينس" وهو يتململ في سرجه، محاولًا إيجاد وضع مريح يخفف قليلًا من آلام مؤخرته المرهقة بسبب طول الامتطاء.

"شيرّو" تطوع لقتل "الويتشر". كان يعرف المنطقة التي رصدت فيها "يينيفر" وجود "جيرالت" ورفاقه فلديه أصدقاء أو أقارب هناك. أما أنا... فقد أرسلني "فيلغيفورتز" للتفاوض مع "فاتيه دي ريدو"، ثم لتعقب "سكيلين وبونهارت..."

وتنهّد "رينس"، مُطلقًا ضحكة داخلية مُرة.

كنتُ أحمقًا وقتها، سعيدًا لأنني كنتُ واثقًا أنني حصلتُ على المهمة الأسهل، والأكثر متعة. مهمة يمكنني إنجازها بسرعة، بسهولة، وبالكثير من الرضا...

* * *

قال ستيفان سكيلين وهو ينهض قليلًا في سرجه: "إذا كان المزارعون قد صدقوا فإن البحيرة تقع خلف ذلك التل، في الوادي".

"آثار الأقدام تقود إلى هناك، "أكد بوريوس مون وهو يتفحص الأرض بعينين ضيقتين.

متم رينس بينما يفرك أذنه المتجمدة، تصلبت بفعل البرد:

"لماذا ما زلنا واقفين هنا؟ حثّوا الخيول وانطلقوا"!

أوقفه بونهارت بيد ثقيلة على كتفه. نظر إليه رينس بعينين ضيقتين، لكن صياد الجوائز لم يبالِ بنفاد صبره: "ليس بهذه السرعة".

"يجب أن نستطلع الطريق أولًا. بما في ذلك الوادي. لا نعرف في أي جهة من البحيرة هي الآن. إن اخترنا الجانب الخطأ، فقد نجد فجأة أن البحيرة تفصلنا عنها".

"كلامه صحيح ".وافقه بوريوس وهو يهز رأسه.

"البحيرة متجمدة".

"لكن الجليد قد لا يكون قويًا بما يكفي لتحمل الخيول. بونهارت محق، علينا تقسيم قوتنا".

لم يتردد "سكيلين"، بل بدأ بإصدار الأوامر بسرعة. قُسِّم الرجال إلى مجموعات، وقادت المجموعة الأولى، المكونة من سبعة فرسان، بونهارت، و رينس، وأولا هارشيم، وانطلقوا يركضون بمحاذاة الضفة الشرقية، وسرعان ما اختفوا في الغابة السوداء.

راقبهم "البومة" وهو يضيق عينيه قليلاً. ثم قال بهدوء، "حسنًا. لننطلق، "سيليفانت"."

ولكنه شعر بشيء غريب. شيء لم يكن في مكانه.

أدار حصانه بحدة، لوّح بالسوط، وانطلق باتجاه جوانا سيلبورن .كانت كينّا تمتطي جوادها بجانبها، لكن وجهها كان بلا تعبير، كصخرة لا تنبض بالحياة.

قالت جوانا بصوت أجش: "هذا لن يجدي نفعًا، يا حضرة المحقق، حاولنا أن نستمر معكم. لكننا سنعود أدراجنا. لقد اكتفينا".

صاح داكر سيليفانت بغضب: "نحن؟ من تعنين بنحن؟ ما هذا؟ تمرد؟"

انحنى سكيلين في سرجه، بصق على الأرض المتجمدة، ثم رفع بصره إليهم، عيناه تضيقان.

خلف "كينّا كان أندريس فييرني وتيل إكرادي، القزم ذو الشعر الفاتح، يقفان متأهبين، أياديهم قريبة من مقابض أسلحتهم.

قال البومة بصوت حاد، قاطعًا الجو المتوتر:

"السيدة سيلبورن، المسألة ليست أنكِ تدمرين مسيرة واعدة، أو أنكِ تتجاهلين فرصة العمر. المسألة أنكِ ستُساقين إلى المشنقة. أنتِ وهؤلاء الحمقى الذين أصغوا إليكِ".

رفعت "كينّا" ذقنها قليلاً، وعيناها باردتان، ثابتتان.

ردّت بصوت هادئ، بنبرة شبه فلسفية: "الرجلُ الذي كُتِب عليه الشنق، لا يمكن أن يغرق، ولكن لا يجدر بكَ أن تهددنا بالمشنقة، حضرة المحقق. لأنك لا تعلم أيُّنا أقرب إليها... نحن، أم أنتَ".

اتقدت عينا البومة بوميض خطير:

"أهكذا تظنين؟ أهذا هو الاستنتاج الذكي الذي توصلتِ إليه بعد سماعكِ بعض العبارات الذكية؟ كنتُ أظنكِ أكثر حكمة. لكنكِ لستِ سوى امرأة حمقاء. معي، تربحين دائمًا. ضدي، تخسرين إلى الأبد! تذكري ذلك جيدًا. وإن كنتِ تعتقدين أنني انتهيت، فلتعلمي أنني سأحظى بفرصتي لإرسالكِ إلى المشنقة. هل تسمعونني جميعًا؟ سأجعلهم يمزقون لحمكم عن عظامكم بخطاطيف محماة"!

قال تيل إكرادي بهدوء وبصوت رقيق كالنصل الخفي:

"لا يموت الإنسان سوى مرة واحدة، حضرة المحقق، لقد اخترتَ طريقك، ونحن نختار طريقنا. كلاهما محفوف بالمخاطر، وكلاهما غير مؤكد. وأنت لا تعرف ما الذي كتبته لنا الأقدار".

رفعت "كينّا" رأسها بفخر، ولم ترف لها عين.

"لن تجبرنا، حضرة المفتش سكيلين، على مطاردة الفتاة ككلاب مسعورة. ولن نموت كالكلاب، كما حدث مع "نيراتين سيكا". آه، كفى حديثًا. نحن نعود أدراجنا! "بوريوس"! تعال معنا".

لكن "بوريوس" هز رأسه ببطء، ثم أنزل قبعته الفروية على جبهته.

"لا ".كانت نبرته ثابتة، غير مترددة" .وداعًا، لا أكنُّ لكم أي ضغينة. لكنني سأبقى. أنا أخدم. لقد أقسمت".

قطبت "كينّا" حاجبيها.

"لمن؟ للإمبراطور؟ أم للبومة؟ أم للساحر الذي يهمس من داخل الصندوق؟"

"أنا جندي. أخدم".

"انتظر سأنضم إليكم. لقد سئمتُ من هذا أيضًا! الليلة الماضية، حلمتُ بموتي... لا أريد أن أموت من أجل هذه القضية البائسة والمريبة"!

جاء الصوت من الخلف، كان دافي كريبل، الذي اندفع بحصانه من وراء داكر سيليفانت، وجهه يشحب وهو يحدق فيهم.

صاح داكر، بوجه محمر يكاد ينفجر. وكأنه قد يشرع في قذف الدم من مسامه غضبًا:

"خونة ..كلابٌ خسيسة! خونة بائسون"!

"اصمت".

كان "البومة" لا يزال يحدق في "كينّا"، عيناه الباردتان، الخالية من أي إحساس، تذكّران تمامًا بالعينين الجاحظتين للطائر الذي يحمل لقبه.

"لقد اختاروا طريقهم، سمعتموهم. لا جدوى من الصراخ وإهدار اللعاب في الكلام الفارغ. ولكن سنلتقي مجددًا، يومًا ما. أعدكم بذلك".

رفعت "كينّا" حاجبًا، نبرتها خالية من السخرية، لكنها مشبعة باليقين القاتم.

"ربما حتى على نفس المشنقة".

ابتسمت ببرود، ثم أضافت،

"لأنك، يا "سكيلين"، لن تُعدم مع الأمراء النبلاء، بل معنا مع العامة. ولكنك محق، لا جدوى من إهدار الكلام. نحن نرحل".

التفتت إلى "بوريوس"، وهزت رأسها.

"حظًا سعيدًا، "بوريوس". احترس، سيد "سيليفانت"."

ثم ضغطت ساقيها على جانبي حصانها، وانطلقت.

أما "داكر"، فقد بصق بتقزز فوق رأس حصانه، وعينيه تضيقان بحقد.

* * *

"لقد فرّوا؟ "كرر بونهارت بعدم تصديق" .فرّوا هكذا فحسب؟ امتطوا خيولهم ورحلوا؟ سكيلين؟ هل سمحت لهم بهذا؟"

"إذا أفشوا أمرنا "...بدأ رينس الحديث، لكن البومة أوقفه على الفور" .لن يفعلوا، لأنهم يحبون رؤوسهم فوق أعناقهم! بعد انضمام كريل إليهم، لم يبقَ لديّ سوى داكر ومون، بينما كانوا أربعة.."

"أربعة"، قال بونهارت بخبث، "ليس عددًا كبيرًا. بعد أن نمسك بالفتاة، سألحق بهم. وسيتغذى الغربان عليهم... باسم بعض المبادئ".

قاطعه البومة، ممسكاً جواده الرمادي: "قبل كل شيء، علينا أن نمسك بالفتاة أولًا بوريوس! راقب الطريق"!

كانت الوادي ذو الشكل الجرس مغمورًا بضباب كثيف، لكنهم كانوا يعلمون أن هناك بحيرة في القاع، لأن هذه كانت "ميل تراختا"، وفي قاع كل وادٍ هناك بحيرة. إلا أنهم لم يعتمدوا على ذلك فحسب، بل عرفوا أيضًا لأن آثار حوافر الفرس السوداء لم تكن دليلهم الوحيد على تعقب الفتاة، فيلغيفورتز كان قد أرشدهم إلى البحث عن هذه البحيرة، ووصفها لهم بدقة، بل وأخبرهم باسمها "تارن ميرا".

كانت البحيرة ضيقة، لا يزيد عرضها عن مدى رمية سهم، واتخذت شكل هلال منحني قليلًا بين منحدرات شاهقة شديدة الانحدار، تنمو عليها أشجار التنوب السوداء، مكللة بجمال بثلوج بيضاء ناعمة. ساد الصمت في المنحدرات، ولم يُسمع أي صوت، حتى الغربان التي رافقتهم بنعيقها المشؤوم طوال الأيام الماضية، صمتت تمامًا.

"هذا هو الطرف الجنوبي"، قال بونهارت" .إذا لم يخطئ الساحر في تقديراته، فيجب أن تكون البرج السحري عند الطرف الشمالي. راقب آثارها، بوريوس! إذا فقدنا أثرها، فقد تفصلنا البحيرة عنها"!

"الآثار واضحة "!صرخ بوريوس مون من أسفل المنحدر" .وجديدة! تقود مباشرة إلى البحيرة"!

"إلى الأمام"!

تراجع الجواد الرمادي لسكيلين أمام المنحدر الحاد، لكنه أجبره على الطاعة.

"انزلوا"!

انحدروا عبر السفح، ممسكين بخيولهم المنهكة بحذر. شقوا طريقهم عبر الشجيرات السوداء العارية، المغطاة بالجليد، التي وقفت حائلًا بينهم وبين ضفة الماء.

تقدّم جواد بونهارت البني بحذر فوق الجليد، مُحطّمًا السطح الزجاجي الأملس الذي اخترقته أعواد القصب البارزة. بدأ الجليد يئزّ تحت حوافره، وفجأة انتشرت شقوق طويلة في جميع الاتجاهات.

جذب بونهارت اللجام وأدار الوحش الذي كان يلهث نحو الضفة: "تراجعوا! .. انزلوا عن الخيول! الجليد رقيق جدًا".

ركل داكر سيليفانت الجليد بكعبه، ثم قدّر" :الرقة تتركز عند الضفة، بالقرب من القصب. لكن حتى هنا يبلغ سمكه بوصة ونصف. سيحمل الخيول، لا داعي للقلق"...

غرق صوته وسط صرخة سباب وصهيل. انزلق الجواد الرمادي لسكيلين، وسقط على قائمتيه الخلفيتين، فانفرجت ساقاه بشكل خطير. أطلق سكيلين شتيمة أخرى، وغرس حفّازه في جنبي الجواد. لكن هذه المرة، لم يكن الصوت مجرد سباب، بل تلاه صدع حادّ للجليد وهو ينفجر تحت وطأة الحوافر. أخذ الجواد الرمادي يضرب الأرض بقدميه الأماميتين، بينما تهشّم الجليد أكثر، وانفتحت تحت جسده مياه داكنة متورّمة.

قفز سكيلين من السرج، وسحب اللجام في محاولة لإخراج الحصان، لكنه انزلق وسقط على وجهه. كان محظوظًا أن لم يجد نفسه تحت حوافر جواده الهائج. هرع اثنان من رجال جيمير لإنهاضه، بينما قام بيرت بريجدن وأولا هارشيم بسحب الحصان الرمادي النائح إلى الضفة.

"انزلوا، أيها الرجال"، كرر بونهارت، وهو يحدّق في الضباب الذي كان يخفي البحيرة" .لن نُخاطر. سنلاحق الفتاة سيرًا على الأقدام. هي أيضًا أُجبرت على الترجل".

"حقيقة مؤكدة، "أيّد بوريوس مون، مشيرًا إلى البحيرة" .يمكنكم رؤيتها".

عند الضفة، حيث تدلّت الأغصان فوق الجليد، كان السطح أملسًا وشبه شفاف، أشبه بزجاجات داكنة اللون. من خلاله، استطاعوا رؤية القصب البني وغيره من نباتات المياه التي تجمّدت أسفل السطح. أما في المناطق الأبعد، فقد غطى الجليد طبقة رقيقة من الثلج الرطب، وامتدت عليه آثار أقدام داكنة، متوغلة في الضباب، إلى مدى البصر.

* * *

صرخ رينس بحماس، ملقيًا لجام جواده حول جذع شجرة:

"لقد أمسكنا بها .. إنها ليست أذكى مما تبدو عليه! اختارت عبور الجليد في منتصف البحيرة. لو أنها سلكت إحدى الضفتين أو لجأت إلى الغابة، لكان القبض عليها أصعب بكثير"!

كرر بونهارت، متأملًا بعمق" :في منتصف البحيرة "...ثم أضاف" :قال لنا فيلغيفورتز إن مركز البحيرة هو أقصر وأسهل طريق إلى البرج السحري. وهي تعرف ذلك. مون؟ كم تسبقنا من الوقت؟"

كان بوريوس مون قد انحنى بالفعل عند أثر قدم على الجليد، اقترب منه، وفحصه بدقة.

"نصف ساعة، لا أكثر، "قدّر بصوت واثق" .الجو يزداد دفئًا، لكن الآثار لم تبهت بعد، يمكن رؤية كل مسمار في نعل حذائها".

تمتم بونهارت، محاولًا اختراق الضباب بنظراته عبثًا" :البحيرة تمتد لأكثر من خمسة أميال نحو الشمال. هذا ما أخبرنا به فيلغيفورتز. إذا كانت الفتاة قد حصلت على نصف ساعة من الأفضلية، فهي متقدمة بحوالي ميل عنّا".

هزّ مون رأسه ببطء" :ليس على الجليد الأملس، يا سيدي. بالكاد نصف ميل، لا أكثر".

"هذا أفضل "!قال بونهارت بحدة" .تحرّكوا"!

كرر البومة: "تحرّكوا"

ثم أضاف بصوت صارم" :راقبوا الجليد وتقدّموا بأسرع ما يمكن"!

كانوا يتنفسون بصعوبة، فقد أشعل قرب الفريسة فيهم حماسًا مخدّرًا، كإحساس النشوة الذي يسبق لحظة الانقضاض.

"لا تتفرقوا"!

"فقط لا تفقدوا الأثر"...

"ولا تضيعوا في هذا الضباب اللعين... إنه أبيض كالحليب... لا يمكن رؤية أكثر من عشرين خطوة"...

"اتجهوا نحو أشجار الصنوبر "!زمجر رينس" .أسرعوا، أسرعوا! طالما لا يزال هناك ثلج فوق الجليد، يمكننا تتبع خطواتها"...

فجأة، بدأ بوريوس مون يتمتم بصوت منخفض" :الآثار حديثة... حديثة جدًا... يمكن رؤية كل انطباع لمسامير الحذاء... إنها أمامنا مباشرة... أمامنا تمامًا! لماذا لا نراها؟"

تساءل أولا هارشيم بقلق" :ولماذا لا نسمعها؟ "ثم تابع بنبرة متوترة" :خطواتنا تصدح فوق الجليد، والثلج يتكسر تحت أقدامنا! لماذا لا نسمعها؟"

قطع رينس كلامه بعنف" :لأنكم ثرثارون "!ثم أضاف بصوت صارم" :تحركوا! تابعوا المسير"!

خلع بوريوس مون قبعته ومسح عرق جبينه المتصبب، ثم همس بصوت خافت" :إنها هناك... داخل الضباب .. في مكان ما داخل الضباب... ونحن لا نرى... لا نرى أين ستضرب... كما حدث من قبل... في دون دير... في ليلة ساوفين"...

وبيد مرتجفة، استل سيفه من غمده.

قفزت سكيلين نحوه، وأمسك به من كتفيه، وهزّه بعنف.

"كف عن نشر الذعر، أيها العجوز الأحمق "!

لكن الأوان كان قد فات. فقد انتشر الرعب كعدوى بين البقية. أمسكوا بسيوفهم بدورهم، واتخذوا مواقعهم غريزيًا بحيث يساند كل منهم الآخر بظهره.

"إنها ليست شبحًا "!زمجر رينس بصوت عالٍ" .وليست ساحرة حتى! ونحن عشرة رجال هنا! في دون دير كانوا أربعة فقط... وكانوا جميعًا سكارى"!

تكلم بونهارت فجأة بصوت هادئ لكنه حازم" :انتشروا، شكلوا خطًا إلى اليسار واليمين. تحركوا كسلسلة! لكن لا تفقدوا رؤية بعضكم البعض".

سخر رينس منه" :حتى أنت؟ هل استبد بك الخوف، بونهارت؟ ظننتك أقل ميلًا للخرافات".

نظر إليه صائد الجوائز بنظرة أشد برودة من الجليد، ثم تجاهله تمامًا وهو يكرر" :انتشروا في خط متناسق. حافظوا على المسافة. أنا سأعود... لأحضر الخيول".

"ماذا؟"

تجاهل بونهارت رينس مجددًا، ولم يكلّف نفسه عناء الرد عليه. شتم رينس بغيظ، لكن البومة وضع يده على كتفه وهمس" :دعه، دعه وشأنه. ولكن لا نضيع المزيد من الوقت! شكلوا سلسلة! بيرت وستيجوارد، إلى اليسار! أولا، إلى اليمين"...

سأل أولا بارتباك" :ولماذا، سكيلين؟"

تمتم بوريوس مون بصوت منخفض، بينما كان يراقب الجليد بحذر" :إذا تحركنا كمجموعة متجمعة، قد نخترق الجليد ونسقط جميعًا. علاوة على ذلك، إذا انتشرنا في خط، فسيكون من الصعب على الفتاة أن تهرب إلى أحد الجانبين".

ضحك رينس باستخفاف" :إلى الجانبين؟ كيف ذلك؟ الآثار واضحة أمامنا. الفتاة تسير في خط مستقيم كالسهم، وإن حاولت تغيير المسار، فإن آثارها ستفضحها"!

"كفى حديثًا "!قطع البومة النقاش بحزم، ثم استدار لينظر إلى الضباب، حيث اختفى بونهارت.

"إلى الأمام"!

فانطلقوا في أثر حصانه.

* * *

"الجو يزداد دفئًا "...لهث بوريوس مون، وهو يمسح جبينه" .الجليد يذوب من الأعلى... تتكون طبقة من الماء فوقه"...

"الضباب كثيف"...

لاحظ داكر سيليفانت: "لكن الآثار لا تزال مرئية، إضافة إلى ذلك، أظن أن الفتاة بدأت تبطئ حركتها. إنها تفقد طاقتها".

"وكذلك نحن ".خلع رينس قبعته، ولوّح بها ليحرك الهواء من حوله.

توقف سيليفانت فجأة، ثم همس" :اهدأوا... هل سمعتم ذلك؟ ما كان ذلك؟"

"لم أسمع شيئًا".

"أما أنا، فقد سمعت... كان أشبه بطقطقة... تكسر فوق الجليد... لكنه لم يكن من هناك".

كان بوريوس مون يقف وسط الضباب، في المكان الذي اختفت عنده الآثار. قال بقلق" :أتى من الجانب... من اليسار، بطريقة ما"...

"سمعته أنا أيضًا، "أكدّت البومة، وعيناه تجولان بحذر" .لكن الآن، كل شيء هادئ. اللعنة، لا يعجبني هذا... لا يعجبني إطلاقًا"!

"الآثار "!كرر رينس بنبرة ضجر" .ما زلنا نراها! ألا تملكون أعينًا؟ إنها تتجه بخط مستقيم. مستقيم تمامًا! لو أنها انحرفت حتى نصف خطوة، لظهر ذلك في آثارها! تابعوا السير، نحن على وشك الإمساك بها! أؤكد لكم أننا سنرى نفس"...

توقف بوريوس فجأة. وأصدر مون أنينًا مكتومًا اهتز في صدره، بينما أطلق البومة سكيلين شتيمة حادة.

على بُعد عشر خطوات منهم، عند الحد الفاصل لرؤيتهم في هذا الضباب الكثيف، كانت الآثار لا تزال واضحة... لكنها انتهت فجأة.

" يالد الجحيم والطاعون"!

"ماذا؟"

"هل طارت في الهواء، أم ماذا؟"

هزّ بوريوس مون رأسه ببطء، وجهه شاحب" .لا، لم تطِر. بل ما هو أسوأ".

أطلق رينس سُبّة قبيحة، ثم أشار إلى الأخاديد العميقة المقطوعة في الجليد.

"زلاجات، "زمجر، وقبضته تنغلق بعنف" .كانت تحمل زلاجاتها... وها هي قد ارتدتها... الآن ستنطلق كالرّيح فوق الجليد... لن نمسك بها أبدًا! اللعنة، أين ذهب بونهارت؟ بدون الخيول، لن نستطيع اللحاق بها"!

أطلق بوريوس مون أنينًا يائسًا، صوته يتردد في الضباب.

ببطء، فكّ سكيلين أزرار معطفه، ومدّ يده إلى الحزام الصدري، متأكدًا من أن خط الأوريونات كان في متناول يده بسهولة. قال ببرود" :لن نحتاج إلى اللحاق بها. ستأتي إلينا بنفسها. أخشى أننا لن ننتظر طويلًا".

صرخ رينس بدهشة" :هل فقدت عقلك؟"

"بونهارت توقع هذا. ولهذا السبب عاد ليجلب الخيول. لقد كان يعلم أن الفتاة تجرّنا إلى فخ. انتبهوا! استمعوا لصوت احتكاك الزلاجات فوق الجليد"!

شحب وجه داكر سيليفانت، رغم احمراره من البرد القارس. صاح بتحذير" :أيها الفتية! انتبهوا! احذروا! تكتلوا معًا، لا تبتعدوا عن بعضكم داخل هذا الضباب"!

"اصمتوا "!صرخ سكيلين بحدة" .اصمتوا تمامًا! إن لم تلتزموا الصمت، فلن نستطيع سماع"...

ثم سمعوا ذلك الصوت.

من الطرف الأقصى للسلسلة، من خلف الضباب، انطلقت صرخة قصيرة، سريعة الإيقاع. تبعها صوت حاد، صرير جليد مخيف، جعله يقشعرّ وكأنما أحدهم يخدش الحديد على الزجاج.

"بيرت "!صرخ سكيلين "بيرت! ماذا يحدث؟"

جاءهم رد غير مفهوم، ثم ظهرت فجأة من قلب الضباب رأس ورقبة بيرت بريجدن، وكأنه مقطوع الجسد، يركض مذعورًا. وحين اقترب أكثر، فقد توازنه، انزلق، وسقط على بطنه، منزلقًا فوق الجليد.

لهث وهو يحاول النهوض بصعوبة" :لقد أمسكت... ستجورد... قطعته... في لمح البصر... بسرعة رهيبة... لم أرَ شيئًا كهذا من قبل... إنها ساحرة صغيرة"...

أطلق سكيلين شتيمة لاذعة. التفت كل من سيليفانت ومون، ممسكين بسيوفهما بإحكام، يحدقان في الضباب الكثيف، أنفاسهم متسارعة.

صوت الزلاجات... سريع... إيقاعي... يقترب أكثر... يزداد وضوحًا...

صرخ بوريوس مون وهو يلوّح بسيفه بكلتا يديه في الهواء" :من أين؟ أين هي؟"

صرخ سكيلين، ملوّحًا بـ أوريون مرتفع في يده" :اصمتوا! من اليمين! نعم! من اليمين! إنها قادمة من اليمين! احذروا"!

على الجناح الأيمن، أطلق أحد رجال جيمير شتيمة فجائية، استدار بعنف، ثم ركض في الضباب كالأعمى، قدماه تصفعان سطح الجليد الذائب. لم يبتعد كثيرًا، بل لم يخرج حتى عن نطاق رؤيتهم.

سمعوا الصوت الحاد للزلاجات تتحرك بسرعة. رأوا ظلًا مشوشًا يندفع كالشبح. ثم لمحة من وهج السيف.

عوى الرجل الجيميري بألم.

رأوه ينهار، وشاهدوا الدماء تتفجر في قوس واسع فوق الجليد. ظلّ يتلوّى، يصرخ، يبكي، ثم خمد فجأة، جثته هامدة فوق سطح الجليد الزلق.

لكن حتى بينما كان يطلق صرخته الأخيرة، عاد الصوت المخيف لاحتكاك الزلاجات، يقترب... أسرع مما توقعوا. لم يكن أي منهم قد حسب أنها تستطيع الالتفاف بهذه السرعة المميتة.

ثم قفزت وسطهم، تمامًا في المنتصف.

مرّت بجانب أولا هارشيم، وبضربة سريعة، فتحت جرحًا مسطحًا أسفل ركبته. انهار جسده كأنه سكين جيب ينطوي على نفسه. استدارت بحركة دوران بريويت، ونثرت قطعًا حادة من الجليد على وجه بوريوس مون.

تراجع سكيلين للخلف مذعورًا، قدماه فقدتا التوازن، فتعلق بذراع رينس، ليجرا بعضهما البعض ويسقطا معًا على الجليد.

صرير الزلاجات مرّ ببرود بجانبهما، متناثرًا شظايا صغيرة في وجهيهما.

صرخ أحد رجال جيمير، صرخ وبكى، ثم انقطعت صرخته فجأة... بصرخة وحشية مشؤومة.

عرف البومة ما الذي حدث. لقد سمع هذا الصوت من قبل.

لقد رأى الكثيرين تُقطع حناجرهم.

أولا هارشيم، الذي كان يزحف فوق الجليد، أطلق صرخة متهالكة.

صوت الزلاجات... سريع... يقترب أكثر... يزداد وضوحًا...

ثم صمت.

تمتم داكر سيليفانت بصوت مرتجف" :ستيفان... ستيفان... أنت أملنا الوحيد... أنقذنا... لا تدعنا"...

"لقد شلّتني، العاهرة "!صرخ أولا هارشيم، صوته متحشرج من الألم" .ساعدوني، بحق الجحيم! أحدهم... أي أحد، ساعدني"!

"بونهارت "!صاح سكيلين في الضباب، صوته يتردد بيأس" .بونهارت! اللعنة عليك، أين أنت؟ بونهارت"!

لهث بوريوس مون وهو يدور حول نفسه، يصغي، يحاول تحديد الاتجاه" :إنها تحوم حولنا... في الضباب... لا تستطيع معرفة أين ستضرب التالي "...ثم شهق، صوته يرتعش كأنما رأى الموت نفسه.

"الموت! هذه العاهرة هي الموت! إنها مذبحة... كما في دون دير... في ليلة ساوفين"...

"ابقوا متماسكين "!أنَّ سكيلين بصوت يائس" .ابقوا متماسكين! إنها تفترس الأفراد المنعزلين... إذا رأيتموها تقترب، لا تفقدوا عقولكم... ارموا سيوفكم عند قدميها حقائبكم، أحزمتكم... أي شيء تستطيعون، حتى"...

لم يُكمل كلامه.

هذه المرة، لم يسمعوا حتى صرير الزلاجات فوق الجليد.

داكر سيليفانت ورينس أنقذا حياتهما برمي جسديهما على الأرض.

بوريوس مون قفز بعيدًا في اللحظة الأخيرة.

أما بيرت بريجدن، فقد انزلق وسقط أرضًا...

وعندما تراجعت الفتاة... ألقى سكيلين أوريونه.

لقد أصاب الهدف... لكنه كان الهدف الخطأ.

أولا هارشيم، الذي بالكاد تمكن من الوقوف أخيرًا، انهار مرتجفًا فوق الجليد الملطخ بالدماء، عيناه متسعتان بذهول، تتقاطعان عند النظر إلى النجم الفولاذي الذي استقرّ في أنفه، مغروزًا في جمجمته.

آخر رجال جيمير ألقى بسيفه بعيدًا، ثم بدأ ينتحب بانهيار، متشنجًا، شهقاته متقطعة، جسده يرتجف كأنه أصيب بالحمى.

اندفع سكيلين نحوه، وسدد له لكمة ساحقة في الوجه.

"تماسك "!صرخ بغضب" .تماسك، أيها الجبان! إنها مجرد فتاة! مجرد فتاة صغيرة"!

تمتم بوريوس مون بصوت خافت، بالكاد مسموع وسط الضباب" :في دون دير... في ليلة ساوفين... نحن من خلقنا هذا الوحش الجليدي. لن نغادر هذه البحيرة. استمعوا... واسمعوا كيف يسرع الموت إلينا".

رفع سكيلين سيف الرجل الجيميري، وحاول دفعه إلى يد الرجل الباكي، لكن دون جدوى. كان الجيميري غارقًا في حالة من الهلع التام، عيناه خاويتان، تتطلعان نحوه دون إدراك.

ترك البومة السيف يسقط من يده، ثم قفز نحو رينس، قبض عليه من كتفيه، وهزه بعنف، صوته يهدر بجنون.

"افعل شيئًا، أيها الساحر "!صرخ.

الرعب ضاعف قوته.

رغم أن رينس كان أكبر حجمًا، أثقل وزنًا، وأضخم بنية، إلا أنه ارتجف كدمية خرقة بين قبضة سكيلين.

"افعل شيئًا! استدعِ فيلغيفورتز العظيم! أو افعل سحرًا بنفسك! انطق تعويذة، استدعِ الأرواح، استحضر الشياطين! افعل أي شيء، أي شيء، أيها الحقير، أيها القذر! افعل شيئًا... قبل أن يقتلنا هذا الشبح جميعًا"!

صدى صراخه ارتدّ منحدرًا عبر الغابات، ولم يكن قد تلاشى تمامًا، حتى عاد صوت صرير الزلاجات يقترب مرة أخرى.

انهار الرجل الجيميري النائح على ركبتيه، غطى وجهه بيديه.

بيرت بريجدن أطلق صرخة هلع، ألقى بسيفه، واستدار هاربًا.

انزلق، سقط أرضًا، ثم تابع ركضه للحظات على أربع، مثل كلب مذعور.

"رينس"!

شتم الساحر، ورفع يده المرتجفة. كان رأسه ويداه يرتعشان بشدة بينما يتمتم تعويذته، لكنه تمكن من إكمالها... ولكن ليس بالشكل الصحيح.

خرج من أصابعه المرتجفة خيط ناري رفيع، مزّق الجليد، فحطّم السطح.

لكن بدلاً من أن يُحدث صدعًا عرضيًا يسدّ طريق الفتاة، كما كان ينبغي، تشقق الجليد على طول الخط، وانفتح بصوت انفجار مدوٍّ، فاندفعت المياه السوداء من تحته.

الشقّ أخذ يتسع بسرعة، يتجه نحو داكر سيليفانت، الذي وقف يحدق فيه مشدوهًا.

"ارتمِ على الأرض "!صرخ سكيلين" .اهربوا"!

لكن كان الأوان قد فات.

الشقّ شق طريقه بين قدمي سيليفانت، واتسع فجأة، محطمًا الجليد إلى كتل زجاجية ضخمة.

اختل توازنه. صرخته اختنقت تحت المياه الجليدية.

بوريوس مون هوى في الفجوة، اختفى تحت السطح.

الرجل الجيميري الراكع، وجثة أولا هارشيم، غرقا بدورهما في الظلام.

ثم تبعهما رينس، سقط في المياه السوداء، مخلفًا فقاعات مضطربة.

وأخيرًا، هوى سكيلين، لكنه في اللحظة الأخيرة، أمسك بحافة الجليد.

الفتاة دفعت بقوة بقدميها، قفزت فوق الفجوة، حطّت وسط الجليد الذائب برذاذ متناثر، ثم واصلت انطلاقتها، تطارد بيرت بريجدن الهارب.

بعد لحظات، شقّت صرخة مرعبة الهواء، تسللت إلى أعماق أذني سكيلين، وارتدت أصداؤها من حواف الغابة.

لقد أمسكته.

"سيدي "...أنَّ بوريوس مون، الذي نجح بطريقة ما في الزحف إلى حافة الجليد" .أعطني يدك... سيّد المحقق"...

اندفع سكيلين إلى الحافة، سحبه من المياه المتجمدة، ليرتمي بوريوس وهو يرتجف بشدة.

ثم حاول سيليفانت الزحف خارج الحفرة، لكن الجليد تحطم تحته مرة أخرى.

سقط مجددًا تحت المياه السوداء.

لكنه عاد إلى السطح بعد لحظات، يختنق، يسعل، ويبصق المياه الجليدية.

بجهد يفوق طاقة البشر، جرّ نفسه أخيرًا إلى سطح الجليد، سحب جسده خارج المياه، ثم انهار منهكًا تمامًا، بالكاد يتنفس.

تكوّنت بركة مياه حول جسده.

بوريوس مون تأوه، وأغمض عينيه.

سكيلين... ارتجف.

"أنقذني... مون... ساعدني"...

رينس كان معلقًا على حافة الجليد، غارقًا حتى إبطيه في المياه السوداء المتجمدة.

شعره المبلل التصق بجمجمته، وأسنانُه تصدر صوتًا أشبه بمقدمة جحيمية لرقصة الموت.

صرير الزلاجات عاد ليشق الصمت.

بوريوس مون لم يتحرك.

انتظر.

سكيلين ارتجف.

كانت تقترب. ببطء.

دماءٌ سالت من سيفها، تاركة خطًا متقطرًا على الجليد.

بوريوس ابتلع ريقه.

ورغم أن ثيابه كانت مشبعة بالماء الجليدي، إلا أنه شعر فجأة بسخونة قاتلة تجتاح جسده.

لكن الفتاة تجاهلته تمامًا.

نظرت إلى رينس، الذي كان يحاول عبثًا الصعود فوق الجليد.

"ساعدني "...قال رينس من بين أسنانه المرتجفة" .أنقذني"...

الفتاة أبطأت سرعتها، استدارت بحركة راقصة على الجليد، ثم ثبتت قدميها قليلًا متباعدتين، ممسكة بسيفها بكلتا يديها، ثابتًا عبر خصرها.

"أنقذني "...تمتم رينس، أظافره المغروسة تحاول الإمساك بالجليد" .أنقذني... وسأخبرك... أين ينيفر... أقسم بذلك"...

ببطء، سحبت الفتاة الوشاح عن وجهها.

ثم ابتسمت.

بوريوس مون رأى الندبة المشوهة، وكاد يصرخ من هول المشهد.

قالت سيري، وما زالت ابتسامتها ثابتة" :رينس... أردتَ أن تعلّمني معنى الألم، أليس كذلك؟ تتذكر؟ بهذه اليدين. بهذه الأصابع. بهذه؟ تلك التي تتشبث الآن بالجليد؟"

أجاب رينس، لكنه لم يكن مفهومًا، لأن أسنانه كانت تصطك بعنف، تمنعه من النطق بوضوح.

سيري استدارت على الجليد، ورفعت سيفها بيد واحدة.

بوريوس شدّ على أسنانه، مقتنعًا بأنها ستوجه الضربة القاتلة لرينس.

لكنها لم تفعل.

بدلًا من ذلك، دفعت بزلاجاتها بقوة، انطلقت بسرعة، تسارعت بحركات حادة، ثم اختفت داخل الضباب.

للحظة، عمّ الصمت، ولم يعد هناك سوى الفراغ.

ثم، بصوت متقطع، حاول رينس أن يتكلم، فخرج صوته مثل احتضار مريع:

"موووون... سااااعدني... أخرِجني"...

ذقنه التصقت بحافة الجليد، رمى بذراعيه عليه، محاولًا التمسك به بأظافره... لكنه لم يكن يملك أظافر بعد الآن.

تحطمت بالكامل.

نشر أصابعه، محاولًا، براحة يده ومفاصل أصابعه، الإمساك بالجليد المشبع بالدماء.

بوريوس مون حدق فيه، وأدرك، بيقين مروع...

سمع صرير الزلاجات في اللحظة الأخيرة.

الفتاة اقتربت بسرعة شبحية، مجرد ضباب متحرك أمام عينيه.

انزلقت بمحاذاة الفجوة في الجليد، مرت بجانب الحافة الضيقة...

أطلق رينس صرخة مرعبة.

ثم اختنق بالمياه الجليدية الكثيفة.

ثم اختفى.

بجوار الفجوة في الجليد، على المسار الناعم الذي تركته الزلاجات، كانت هناك دماء.

وأصابع.

ثمانية أصابع.

بوريوس مون انحنى... ثم تقيّأ فوق الجليد.

* * *

اندفع بونهارت على حافة المنحدر بمحاذاة الشاطئ، يعدو بجواده بسرعة جنونية، دون أن يكترث لاحتمال أن تكسر ساقاه في أي لحظة داخل الحفر المغطاة بالثلج.

الأغصان المتجمدة لأشجار الصنوبر ضربت وجهه، جلدت ذراعيه، فيما تساقطت غبار الجليد داخل ياقة معطفه.

لم يستطع رؤية البحيرة، فقد كان الوادي بأسره مغمورًا بالضباب، أشبه بمرجل يغلي بالبخار.

لكنه كان يعلم...

الفتاة هناك.

استطاع أن يشعر بها.

* * *

تحت الجليد، في الأعماق السحيقة، كان سرب فضولي من أسماك الفرخ المخططة يسبح بمحاذاة جسم غارق.

صندوق فضي، صغير، وامض، كان قد انزلق من جيب جثة هامدة تطفو فوق سطح الماء البارد.

قبل أن يصل الصندوق إلى القاع ويثير سحابة من الطين العكر، تجرأ أجرأ الأسماك على الاقتراب، محاولين لمسه بخطومهم الفضولية.

لكن فجأة... تفرّقوا جميعًا، مذعورين.

الصندوق بدأ بإطلاق اهتزازات غريبة... مزعجة... مقلقة.

"رينس؟ هل تسمعني؟ ماذا يحدث معك؟ لماذا لم تجب في اليومين الماضيين؟ أنا أطلب تقريرًا! ماذا عن الفتاة؟ يجب ألا تسمح لها بدخول البرج! هل تسمعني؟ لا تدعها تدخل برج السنونو... رينس! أجبني، اللعنة! رينس!"

رينس، بالطبع... لم يكن قادرًا على الرد.

* * *

توقف المنحدر، وأصبحت الضفة مستوية.

"نهاية البحيرة"، فكر بونهارت، "أنا عند الحافة. لقد قطعت على الفتاة الصغيرة طريق الهرب. أين هي؟ وأين هذا البرج الملعون؟"

فجأة، انشقّ الضباب، وانجرف مع الريح.

رفع نظره... فرآها.

كانت أمامه مباشرة، جالسة على ظهر فرسها السوداء.

"ساحرة"، فكر، "هناك صلة ما بينها وبين هذا الحيوان. لقد أرسلته إلى نهاية البحيرة لينتظرها هناك".

لكن هذا لا يغيّر شيئًا.

يجب أن أقتلها. إلى الجحيم مع فيلغيفورتز. يجب أن أقتلها. لكن أولًا... سأجعلها تتوسل من أجل حياتها... ثم أقتلها.

صرخ، غرس حفّازه في جواده، وانطلق في عدو محموم.

ثم، فجأة... أدرك أنه خسر.

لقد خدعته.

لم يكن يفصل بينهما سوى مئة وخمسين خطوة لكنها كانت مئة وخمسين خطوة من الجليد الرقيق.

وعلاوة على ذلك، فإن سطح البحيرة المنحني أصبح في صالحها فهي التي كانت تركض بمحاذاة المنحنى، أصبحت أقرب بكثير إلى النهاية.

أطلق بونهارت شتيمة حادة، شدّ اللجام بعنف، ودفع جواده فوق الجليد.

* * *

"اركضي، كيلبي"!

انفجرت الأرض المتجمدة تحت حوافر الفرس السوداء، متناثرة في رشقات من الجليد.

سيري انحنت، التصقت بعنق جوادها.

رؤية بونهارت يطاردها جعلت الرعب يجتاح كيانها.

كانت تخشى هذا الرجل.

مجرد التفكير في مواجهته جعلها تشعر كما لو أن قبضة خفية تضغط بقوة على أحشائها.

لا، لا يمكنها قتاله. ليس بعد.

البرج.

البرج وحده يستطيع إنقاذها.

والبوابة.

كما حدث في تانيد، عندما كان فيلغيفورتز خلفها مباشرة، حتى أنه كاد يمسك بها...

كان خلاصها الوحيد هو برج السنونو.

ارتفع الضباب.

شدّت سيري اللجام، واندفع فيض من الحرارة الوحشية في جسدها.

عيناها اتسعتا... لم تستطع أن تصدق ما رأته أمامها.

* * *

رآه بونهارت أيضًا.

وصاح منتصرًا.

لم يكن هناك برج في نهاية البحيرة.

لم يكن هناك حتى أنقاض برج.

لم يكن هناك شيء على الإطلاق.

مجرد تلّ بالكاد يرتفع عن الأرض، تتوجه كومة حجارة قاحلة، متناثرة بين سيقان نباتات جليدية.

"ها هو برجك "!صرخ بونهارت" .ها هي قلعتك السحرية! ها هو خلاصك! مجرد كومة من الحجارة"!

بدت الفتاة وكأنها لا تسمع شيئًا... لا ترى شيئًا.

وجهت فرسها مباشرة نحو التلّ، نحو كومة الحجارة.

رفعت يديها الاثنتين نحو السماء، كما لو كانت تلعن الآلهة على ما حلّ بها.

"قلت لكِ، "صاح بونهارت، وهو يغرس حفّازه في جنبي جواده البني، "أنتِ ملكي! ستفعلين ما أشاء! لا أحد سيوقفني! لا بشر ولا آلهة، لا شياطين ولا عفاريت! ولا برج مسحور! أنتِ ملكي، أيتها الويتشر الصغيرة"!

دوّت حوافر الجواد فوق الجليد.

ثم فجأة، تجمع الضباب والتفّ حول نفسه، تحت تأثير ريح دوّامة، ظهرت من العدم.

جواد بونهارت بدأ بالصهيل، انتفض بعنف، أنيابه تقطع في اللجام.

انحنى بونهارت في السرج، شدّ اللجام بكل قوته، لكن الحصان كان هائجًا، رأسه يهتز بعنف، حوافره تزلّ فوق الجليد.

كان هناك شيء يقف بينه وبين سيري.

على الضفة، بينهما، كان يقف وحيد قرن ناصع البياض، راقصًا على قوائمه الخلفية، حاجبًا الفتاة بجسده.

"هذه الحِيَل لن تنجح معي "!صرخ صائد الجوائز، محاولًا تهدئة جواده" .أنا لا أخاف السحر! سأمسك بكِ، سيري! هذه المرة، سأقتلك! أنتِ ملكي"!

مرة أخرى، تجمّع الضباب، لكن هذه المرة أخذ أشكالًا غريبة.

الصور أصبحت أكثر وضوحًا.

كان هناك فرسان.

فرسان أشباح، أشباح كابوسية تتشكل وسط الضباب.

بونهارت حدّق... في ذهول!

على ظهور خيول هيكلية، امتطى الفرسان الأشباح... هياكل عظمية متدثرة بدروع صدئة، وسلاسل بريدية متآكلة، وسترات ممزقة، وخوذ مهشمة مزينة بقرون الجاموس أو بقايا ريش النعام والطاووس.

عيونهم أضاءت بوميض أزرق بارد، يشعّ من تحت فتحات خوذهم.

راية ممزقة تمايلت مع الريح، محدثة صوت خشخشة مخيفة.

وفي مقدمة الموكب، كان فارس مهيب يمتطي حصانه، خوذته تتوّجها تاج، وعلى صدره جاثم جورجيت معدني، يبرز من خلال صدرية صدئة مفتوحة.

دوى صوتٌ في رأس بونهارت، صدى ثقيل، عميق، كأنه ينبعث من أعماق القبر:

ابتعد.

ابتعد، أيها الفاني.

إنها لا تنتمي إليك.

إنها لنا.

ابتعد!

لا يمكن إنكار أن بونهارت كان رجلًا شجاعًا.

الأشباح لم تخيفه.

قاوم الرعب، لم يستسلم للذعر.

لكن جواده... لم يكن بنفس صلابته.

الحصان البني انتفض، وقف على قائمتيه الخلفيتين، بدأ في رقصة جنونية، يصهل ويقفز بجنون.

تصدّع الجليد تحت وقع حوافره، تكسرت قطع الجليد، واندفعت المياه السوداء من الشقوق.

صرخ الحصان، خبط بحوافره الأمامية على الحافة المتهشمة، ثم انكسرت تحته.

بونهارت، بلمح البصر، سحب قدميه من الركابين، وقفز...

لكنه كان متأخرًا.

أطبقت المياه عليه، ابتلعته في ظلامها البارد.

دوى الماء في أذنيه، صدى مطرقة جليدية تقرع جمجمته.

رئتاه اشتعلتا، على وشك الانفجار.

لكنه كان محظوظًا.

قدماه اصطدمتا بشيء صلب—بالتأكيد كان حصانه الغارق.

دفع نفسه بكل ما لديه من قوة، اخترق السطح فجأة، يلهث، يسعل، يختنق بالماء البارد.

تشبث بحافة الجليد، دون أن يستسلم للذعر، سحب خنجره، غرزه في الجليد، وبدأ يشدّ نفسه للخارج.

حين تمدد فوق الجليد، لاهثًا، كانت المياه تقطر منه، تجمّد الهواء حوله.

ثم، في لحظة واحدة، انبعث ضوء شاحب، ميت، غير طبيعي.

أضاء البحيرة، الجليد، المنحدرات المغطاة بالثلج، وغابة التنوب السوداء المكللة بالأبيض.

بجهد هائل، رفع بونهارت نفسه إلى ركبتيه.

عبر الأفق، انفجر الضوء الأزرق العميق، يشعّ في هالة متوهجة من السطوع المبهر.

دوامة راقصة من الأشعة انطلقت من القبة المضيئة، اندفعت أعمدة نارية مفاجئة، والتفتت دوامات شاهقة من الضوء.

أشرطة وأردية من الألوان المتغيرة بسرعة تمايلت في السماء، تومض وتتراقص بفوضوية.

بونهارت بدأ يهمهم، صوته مبحوح، خانق، كأنما يلفّ عنقه طوق حديدي.

هناك... في الموضع الذي لم يكن فيه قبل لحظات سوى تلّ منخفض وكومة حجارة...

وقف الآن برج.

شامخ. ممشوق. ناعم السطح، لامع، منحوت من كتلة واحدة من البازلت الأسود.

في نوافذ القمم المسننة، تلألأت ألسنة نارية متراقصة، انعكاسٌ للأضواء القطبية التي اشتعلت فوقه.

رأى الفتاة تستدير في السرج، تنظر إليه.

رأى بريق عينيها.

ورأى الخط القبيح للندبة على وجنتها.

رآها تضغط ساقيها على الفرس السوداء، تدفعها للأمام، بينما تعبر بهدوء بوابة الحجر السوداء.

ثم... اختفت.

الأضواء القطبية انفجرت، دوّامات نارية مبهرة أغرقت الأفق.

وحين استعاد بونهارت بصره... كان البرج قد اختفى.

لم يكن هناك سوى تلّ مغطى بالثلوج، وكومة حجارة متناثرة بين سيقان نباتات جليدية.

راكعًا على الجليد، مرتجفًا، تتقطر منه المياه، محاطًا ببركة من البلل.

أطلق صائد الجوائز زئيرًا جامحًا، مرعبًا.

ومن فوق ركبتيه، رفع ذراعيه إلى السماء، وصاح، وصرخ، وشتم، ولعن البشر، والسحرة، والشياطين، والعفاريت.

تردد صدى صرخته عبر منحدرات الغابة، وتردد فوق سطح بحيرة تارن ميرا المتجمدة،

ثم تلاشى...

* * *

ذكّرها داخل البرج على الفور بـ كير مورهن—ممرٌ أسود طويل، يمتد خلف البوابة، هاوية لا نهائية مصطفة بأعمدة وتماثيل.

لم تستطع أن تفهم كيف تتسع هذه الهوة داخل هذا المسلّة النحيل من البرج.

لكنها كانت تعلم أن محاولة تفسير ذلك بلا جدوى—ليس مع برج نبت من العدم، ظهر فجأة حيث لم يكن هناك شيء من قبل.

في مثل هذا البرج، كل شيء ممكن. ولا شيء يمكن أن يثير دهشتها بعد الآن.

استدارت لتنظر إلى الخلف.

لم تكن تصدق أن بونهارت قد تجرأ — أو حتى استطاع — أن يتبعها إلى هنا.

لكنها فضّلت التأكد.

المدخل الذي عبرت من خلاله كان يشعّ بضوء ساطع، غير طبيعي.

حوافر كيلبي قرقعت على الأرض، التي بدأت تتصدّع تحت وقع الحوافر المعدنية.

عظام.

جماجم، قصبات، أضلاع، فخذ، حوض.

كانت تعبر وسط مقبرة عملاقة.

مرة أخرى، فكرت في كير مورهن.

"الموتى يجب أن يُدفنوا في الأرض"...

كم مضى من الوقت على هذا التفكير؟

في ذلك الوقت، كنت أؤمن حقًا بمثل هذه الأمور... بجلال الموت، باحترام الراقدين...

لكن الموت ليس سوى موت.

والميت ليس سوى جثة باردة.

لا يهم أين يرقد... أين تتحلل عظامه.

تابعت ركوبها في الظلام، تحت الأقواس، بين الأعمدة والتماثيل.

الظلام بدأ يثقل على كاهلها مثل دخان كثيف.

همسات متطفلة، تنهيدات ناعمة، تهمس في أذنيها، تردد تعاويذ مبهمة.

ثم فجأة،

أبواب ضخمة اشتعلت أمامها بالنور، وانفتحت.

انفتحت واحدة تلو الأخرى.

أبواب.

عدد لا نهائي من الأبواب الثقيلة، تتفتح أمامها في صمت.

حوافر كيلبي دوّت على الأرض، وسط الفراغ المتسع أمامها.

تشوّهت هندسة الجدران المحيطة، والأقواس، والأعمدة فجأة، بعنف، لدرجة أن سيري شعرت أن ما تراه لا يمكن أن يكون حقيقيًا.

كأنها تسافر عبر جسم متعدد الأسطح مستحيل، نوع من مجسم ثُماني الوجوه العملاق.

استمرت الأبواب في الانفتاح.

لكنها لم تعد تفتح في اتجاه واحد فقط.

بل كشفت عن عدد لا نهائي من الاحتمالات... ومن المسارات.

ثم... بدأت سيري ترى.

باب آخر يُفتح.

امرأة سوداء الشعر، تمسك بيد فتاة ذات شعر أشقر رمادي.

الفتاة خائفة. خائفة من الظلام، خائفة من الهمسات العاجلة للمرأة، مرعوبة من وقع حوافر الخيول الذي تسمعه.

المرأة سوداء الشعر، والتي يلمع حجر السبج النجمّي حول عنقها، خائفة أيضًا.

لكن لا يمكنها إظهار خوفها.

تواصل السير مع الفتاة. إنه قدرها.

حوافر كيلبي تُسمع. الباب التالي ينفتح.

باب آخر يُفتح.

أيولا الثانية وأيورنايد، معطفاهما قصيران، حقائب على ظهريهما، يسيران على طريق مجمّد مغطى بالثلج.

السماء زرقاء عميقة.

الباب التالي.

أيولا الأولى راكعة أمام المذبح.

بجانبها، الأم نينيكي.

وجهاهما مجمّدان في تعابير من الرعب.

ماذا تريان؟

الماضي أم المستقبل؟

الحقيقة... أم الوهم؟

فوقهما، فوق نينيكي وأيولا... هناك أيدٍ.

أيدٍ ممتدة بالبركة، لامرأة ذات عيون ذهبية.

عقدها يتلألأ كنجمة الصباح.

قطة على كتفها.

صقر يرفرف فوق رأسها.

الباب التالي.

تريس ميريجولد تُعدل شعرها الكستنائي الجميل، المتطاير بفعل الريح.

لكن لا مفر من هذه الريح. لا حماية منها.

ليس هنا.

ليس على قمة هذا التل.

أسفل التل، هناك خط طويل، لا نهائي، من الظلال.

أشخاص. يسيرون ببطء.

البعض يلتفت للنظر إليها.

وجوه مألوفة.

ڤيسيمير. إيسكيل. لامبرت. كوين.

ياربن زيجرين وباولي دالبرج.

فابيو ساكس... ياري...

تيسايا دي فريس.

ميستل...

جيرالت؟

الباب التالي.

يينيفر، بالأصفاد.

مُكبلة إلى جدار زنزانة رطبة، تقطر ماءً عفنًا.

يديها... مجرد كتلة متشابكة من الدم المتخثر.

شعرها الأسود متلبد، متسخ.

شفتيها متشققتان ومتورمتان...

لكن في عينيها البنفسجيتين... لم ينطفئ بعد بريق الإرادة، لم تخمد بعد رغبتها في المقاومة.

"أمي! اصمدي! تماسكي! سأأتي لإنقاذك"!

الباب التالي.

سيري أدارت رأسها بعيدًا.

بندم. وبخجل.

جيرالت.

وامرأة خضراء العينين، ذات شعر أسود قصير.

كلاهما عاريان.

متّحدان، يرتقيان معًا، يتشاركان اللذة.

سيري ابتلعت غصتها، قاومت الاختناق في حنجرتها المشدودة، وضغطت ساقيها على كيلبي، دافعة بها للأمام.

قرقعت الحوافر.

الظلام اهتز بهمهمات غامضة.

الباب التالي.

"مرحبًا، سيري".

"ڤيسوجوتا؟"

"كنت أعلم أنكِ ستنجحين، يا آنستي الجبارة.

يا سنونوتي الشجاعة.

هل أصابك مكروه؟"

"هزمتهم. على الجليد. فاجأتهم. زلاجات ابنتك"...

"كنت أفكر في الأذى النفسي، يا صغيرتي"...

"كبحت رغبتي في الانتقام... لم أقتل كل من أردت قتله... لم أقتل البومة... رغم أنه هو من شوهني. سيطرت على نفسي".

"كنت أعلم أنكِ ستنتصرين، زيرائيل. وأنكِ ستدخلين البرج.

لقد قرأتُ عن ذلك.

لأنه كُتب...

كل هذا كُتب من قبل...

هل تعلمين ما الذي يمنح الإنسان حكمته؟

قدرته على الاستفادة من المصادر".

"كيف يمكن أن نتحدث معًا... فيسجوتا... هل أنتَ...؟"

"نعم، سيري. أنا ميت.

لكن هذا غير مهم!

الأهم أنني عرفت ما كنت أبحث عنه...

أعرف أين ذهبت تلك الأيام المفقودة، ماذا حدث في صحراء كوراث، كيف اختفيتِ عن أعين مطارديك"...

"وكيف وصلتُ إلى هنا، إلى هذا البرج، أليس كذلك؟"

"دماء القدماء التي تجري في عروقك تمنحكِ السيطرة على الزمن.

وعلى المكان.

على الأبعاد والعوالم.

أنتِ الآن سيدة العوالم، سيري.

أنتِ قوة هائلة.

لا تسمحي لأوغاد تافهين أن يأخذوكِ ويستغلّوكِ لأغراضهم الدنيئة".

"لن أسمح بذلك".

"وداعًا، سيري.

وداعًا، يا سنونوة".

"وداعًا، أيها الغراب العجوز".

الباب التالي.

نور. نور مبهر. ساطع.

ورائحة زهور... في كل مكان.

تلاشى الضباب الذي كان يغطي البحيرة، خفيفًا كالريش، سريعًا تحت ضربات الريح.

أصبح سطح الماء ناعمًا كمرآة، تتلألأ عليه زهور بيضاء، متناثرة فوق السجاد الأخضر من زنابق البحر الضحلة.

على الضفاف، كانت الأزهار والخضرة تفيض في كل مكان.

كان الجو دافئًا.

كان الربيع.

سيري لم تتفاجأ.

كيف لها أن تتعجب من شيء بعد الآن؟

لأن الآن... كل شيء ممكن.

نوفمبر، الجليد، الثلج، الأرض المتجمدة، كومة الحجارة فوق التل العاري—كل ذلك كان هناك.

لكن هنا، كان البرج البازلتي الممشوق، ذو القمم المسننة، ينعكس على سطح البحيرة الخضراء، المتناثرة بالزنابق.

كان هنا... شهر مايو.

لأن الوردة البرية والكرز الأسود لا يزهران إلا في مايو.

بالقرب منها، كان هناك من يعزف على مزمار من القصب أو ناي، بلحن مرح، راقص.

عند ضفة البحيرة، وقفت كائنان شامخان، أقدامهما الأمامية غارقة في الماء.

فرسان ناصعان، بياضهما يخطف الأبصار.

كيلبي شخرت، وضربت حافرها على الصخور.

رفع الكائنان رأسيهما، تناثر الماء من أنفيهما، وزفرت سيري بعمق.

لأنهما لم يكونا مجرد خيول.

بل كانا... وحيدي قرن.

لكنها لم تتفاجأ.

لم يكن زفيرها دهشة... بل إعجابًا.

أصبحت النغمة أكثر وضوحًا الآن، كانت تأتي من خلف شجيرات الكرز المتشابكة، المغطاة بالزهور البيضاء المتفتحة.

كيلبي تقدمت نحوها من تلقاء نفسها، دون أن تحتاج إلى دعوة.

سيري ابتلعت ريقها، ثم تبعتها.

ظل وحيدا القرن، ثابتين كتماثيل، يحدّقان بها.

انعكست صورتهما فوق سطح الماء الناعم، كأنهما جزء من سحر هذا المكان.

خلف شجيرات الكرز، جلس قزم ذو شعر فاتح، وجهه مثلثي، وعيناه هائلتان، على شكل لوزتين كبيرتين.

كان يعزف، أصابعه تتراقص برشاقة فوق ثقوب الناي.

رغم أنه لاحظ قدوم سيري وكيلبي، رغم أنه نظر إليهما، لم يتوقف عن العزف.

كانت الزهور البيضاء الصغيرة، وثمار الكرز السوداء، تنبعث منها رائحة نفاذة لم تشمّ مثلها سيري في حياتها.

ليس غريبًا، فكرت ببرود:

"في العالم الذي كنت أعيش فيه، رائحة الكرز كانت مختلفة".

في ذلك العالم... كل شيء كان مختلفًا.

أنهى القزم لحنه بترنيمة طويلة، عالية النبرة، ثم أنزل الناي من شفتيه، ونهض.

ابتسم، وسألها:

"ما الذي أخّركِ؟ ما الذي أبقاكِ كل هذا الوقت؟"

*** * تمت * ***



ترجمة المؤلف:

أندريه سابكوسكي وُلد عام 1948في بولندا، درس الاقتصاد وإدارة الأعمال، لكن نجاح سلسلته الفانتازية حول الويتشر جيرالت من ريفيا جعله واحدًا من أبرز الكُتّاب في مجال الأدب الخيالي. يُعتبر اليوم أحد أشهر الكُتّاب البولنديين وأكثرهم نجاحًا على الإطلاق، حيث حققت أعماله شهرة عالمية وترجمت للغات عدة، وأثرت بشكل كبير في ثقافة الفانتازيا الحديثة.

أعماله:

The Last Wish-1 (الأمنية الأخيرة) – 1993

Sword of Destiny-2 (سيف المصير) – 1992

Blood of Elves-3 (دماء الإلفيين) – 1994

The Time of Contempt-4 (زمن الازدراء) – 1995

Baptism of Fire-5 (معمودية النار) – 1996

The Tower of Swallows-6 (برج السنونو) – 1997

The Lady of the Lake-7 (سيدة البحيرة) – 1999

Season of Storms-8 (موسم العواصف) – صدرت بالإنجليزية 2018

وعلى الرغم من أن رواية الأمنية الأخيرة "The Last Wish" نُشرت بعد رواية سيف المصير "Sword of Destiny"، إلا أنها تُعتبر أول رواية في السلسلة زمنيًا لأنها تجمع قصصًا سابقة تم نشرها بشكل متفرق.

يذكر أن سلسلة "الويتشر" أصبحت من أشهر سلاسل الفانتازيا الملحمية، وتم تحويلها إلى لعبة فيديو تعد من أنجح الألعاب على الإطلاق، ومسلسل تلفزيوني لازال يصدر على شكل مواسم حتى الآن في شبكة